جامعة الجزائر

كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم التاريخ

المغرب والأندلس في عصر المرابطين

دراسة اجتماعية واقتصادية

480هـ-540هـ/1056م-1145م

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط

لجنة المناقشة:

- الدكتورة : سامية بوعمران رئيسا
- الدكتور : أحمد شريفي مقررا
- أ.الدكتور : مسعود مزهودي عضوا
- الدكتور : تومي رشيد عضوا
- الدكتور : باقة رشيد عضوا

إعداد الطالب : عيسى بن الذيب

إشراف الدكتور: أحمد شريفي

السنة الجامعية : 1429-1430هـ /2008-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـــة:

كان المغرب الأقصى قبل منتصف القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي تحكمه إمارات متفرقة ومتناحرة فيما بينها في صراع داخلي على السلطة،مما بعثر قوى المغاربة لانعدام حكومة مركزية موحدة تفرض وجودها على المنطقة ،فانعكس ذلك عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد أن بلغت الفوضى والاضطرابات ذروتها .وفي الوقت الذي كانت البلاد تمر بتلك الحالة شهدت المنطقة الجنوبية من المغرب الأقصى قيام حركة دينية تحت زعامة عبد الله بن ياسين هدفها تلقين سكان تلك المناطق تعاليم الدين الإسلامي السمحة .وسرعان ما لتف الناس حوله خصوصا وأنهم وجدوا في ذلك خدمة لمصالحهم .

ولما تمكن الإسلام من قلوبهم بدأ عبد الله بن ياسين في تطبيق الأحكام الشرعية عليهم ، وأطلق عليهم اسم المرابطين ،لالتزامهم الرباط الذي كانوا يتلقون فيه التعاليم الإسلامية ،وحثهم على الدعوة ،والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .ولما تجمع حوله الكثير من الأنصار والأتباع انطلق بهم من مرحلة الدعوة إلى مرحلة الجهاد ضد القبائل المخالفة لهم .وحققوا عدة انتصارات ، ونظرا لما حققه المرابطون وما شاع عنهم من تطبيق لما جاء في الكتاب والسنة استدعاهم سكان المدن الجنوبية من المغرب لأنهم كانوا يرون فيهم أنهم هم المنقذون لهم من بطش وتسلط القبائل الزناتية فاستجاب المرابطون لدعوتهم على اعتبار أن ذلك جهادا ضد مخالفيهم ،وتمكنوا في فترة وجيزة من السيطرة على معظم المراكز التجارية الواقعة على خطوط تجارة السودان الغربي ،ثم اتجهوا صوب الشمال للقضاء على بقية الإمارات الزناتية لتكمل لهم السيطرة على كافة المغرب الأقصى وجزء من المغرب الأوسط ليؤسسوا دولة المرابطين التي جمعت سكان المغرب الأقصى تحت سلطة واحدة.

ولم يكن الأندلس أحسن حالا من المغرب بعد سقوط الدولة العامرية وانقسام البلاد إلى دويلات متناحرة فيما بينها كل واحدة منها تحاول السيطرة على قدر أكبر من تركة الدولة الأموية فساءت حالة البلاد ،وازدادت سوءا نظرا للاعتداءات المتكررة التي كان يشنها النصارى على الأراضي الأندلسية ،وعجز ملوك الطوائف عن رد هجمات النصارى وما تبع ذلك من فرض إتاوات ،فساءت الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية وعانى سكان الأندلس من ويلات ذلك أكثر مما عاناه أهل المغرب ،مما جعلهم يقدمون على طلب النجدة من المرابطين للوقوف ضد أطماع النصارى والزحف المسيحي ،فلبى يوسف بن تاشفين الدعوة ،وعبر إلى الأندلس وحقق أعظم انتصار له في معركة الزلاقة،فكان هذا الانتصار بمثابة تحول في سياسة يوسف بن تاشفين تجاه

الأندلس سيما بعد أن قام بزيارة صحبة ابن عباد ورأى بأم عينه مظاهر البذخ والثراء الذي يتمتع به الأمراء في قصور اشبيلية ،إلا أن ذلك لم يمنعه من تقديم النصح لهم ،وحثهم على الجهاد والتضامن لدفع النصارى ،غير أن أمراء دول الطوائف لم يستجيبوا لنصحه ،ساعتها قرر يوسف بن تاشفين العبور إلى الأندلس ثانية للقضاء على العدو الخارجي المتمثل في النصارى ،والعدو الداخلي المتمثل في ملوك الطوائف ،لتصبح بعد ذلك بلاد الأندلس ولاية تابعة للحكومة المركزية في مراكش .

اختيار الموضوع

لقد حظيت دولة المرابطين باهتمام وعناية الباحثين العرب والأجانب وأول من طرق هذا الباب من الباحثين العرب هو أستاذنا الدكتور حسن أحمد محمود رحمة الله عليه وتلاه باحثين آخرين في هذا المجال مثل د/حسن علي حسن ،وعز الدين أحمد موسى وعصمت دندش من المشارقة وبرزت في الفترة المتأخرة المدرسة المغربية التي يأتي على رأسها الباحث ابراهيم القادري بوتشيش وقد اختصت هذه الدراسات في النواحي السياسية والبعض الآخر بالنواحي الحضارية و الاجتماعية في المغرب والأندلس غير أن جل هذه الدراسات فصمت بين الناحية الاجتماعية والاقتصادية كما أنها لم تجمع في دراساتها لتلك الجوانب بين العدوتين المغربية والأندلسية رغم أن العدوتين كانتا قد خضعتا لسلطة واحدة هي سلطة المرابطين في مراكش . أو أنها خصت دراستها سواء للمغرب أو للأندلس كل على حدى أو أنها عالجت عهد معين بعينه أو حقبة زمنية من تاريخ المرابطين.

وبالرغم من هذا كله فإن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لم يحض بما يليق به من مكانة في الدراسات الخاصة بتاريخ المغرب والأندلس رغم الخانة التي يحتلها في خريطة المناهج المعاصرة وقد يعزى هذا الأمر إلى شح المادة التاريخية ،إذ أن المؤرخين القدامى ضربوا صفحا عن الموضوع و لم يلمحوا إلى تلك الجوانب إلا عبر إشارات مقتضبة ومتفرقة بين ثنايا مصنفاتهم وجاءت معلوماتهم بكيفية عرضية .أو أن مثل هذه المواضيع عدّت من تخصصات الباحثين الاجتماعيين والاقتصاديين أكثر من المؤرخين بينما هو في واقع الأمر عطاء صادق وانعكاس يجعل منه حقلا خصبا للبحث التاريخي وموضوعا في أمس الحاجة إلى البحث والاستقصاء من وجهة نظر المؤرخ .والمعروف أن جل الدراسات حول المغرب والأندلس في العصر الوسيط فتنت بسحر التاريخ السياسي وأحداثه المدوية فقتلته بحثا وتغاضت عن الكثير من الجوانب الأخرى من تاريخنا الإسلامي الذي لا تكتمل

دراسته إلا بعد سد تلك الفجوات .وانطلاقا من هذا ا الهاجس جاء اختياري لهذا الموضوع محاولا في هذه الدراسة سد بعض الثغرات في الدراسات الاجتماعية والاقتصادية في عصر المرابطين التي اتخذ منها بعض الغربيين مجالا لكيل التهم ورمي المرابطين بها .

اشكـــالية الموضوع :

أما الاشكالية المطروحة في هذا البحث فتتمثل في جانبين أساسيين:الأول يخص الجانب الاجتماعي والثاني يخص الجانب الاقتصادي.فالإشكال الخاص بالجانب الاجتماعي يتلخص فيما يلي:ما هي التركيبة الاجتماعية للمجتمع المرابطي ؟ وكيف استطاعت الدولة المرابطية أن تجمع بين عنا صر مختلفة من بربر وعرب ومولدين وبين أقليات أخرى وطوائف متعددة . وكيف كانت وضعية تلك الطوائف الاجتماعية والدينية والاقتصادية ؟وهي العلاقة التي تحكمهما بالسلطة المرابطية ؟وما هو التصنيف الطبقي للمجتمع المرابطي ؟وأهم ما ميز المجتمع من مظاهر اجتماعية عامة وخاصة؟.

أما فيما يخص الجانب الاقتصادي فالتساؤل المطروح هو كيف كانت وضعية الأراضي الزراعية (ملكية الأرض)؟ وما هي العوامل المساعدة على النشاط الزراعي ؟والعوامل المؤثرة فيها؟ وكيف كانت طريقة الزراعة وأساليبها ؟ وما هي أهم المحاصيل الزراعية ؟وهل المجتمع المرابطي عمل على النهوض بالصناعة كغيره من المجتمعات،وكيف كانت نظرة المجتمع المرابطي للحرف والصنائع؟ وما أهم الصناعات؟ وهل عمل الأمراء المرابطين على تصريف المنتجات الزراعية والصناعية عن طريق التجارة الداخلية والخارجية ؟ وما هو الدور الذي قامت به الدولة في هذا المجال؟ وأخيرا هل هناك علاقات تجارية أقامتها دولة المرابطين مع بعض أقطار العالم الإسلامي وأوروبا ؟

خطـــة البحث

للإجابة عن هذه التساؤلات اتبعت الخطة التالية: قسمت البحث إلى مقدمة وتسعة فصول **فالمقدمة** كانت للتعريف بالموضوع وأسباب اختياره واشكاليته وخطه العمل والمنهجية المتبعة في البحث مع تقييم لأهم المصادر والمراجع المعتمدة في البحث.

فالفصل الأول: تطرقت فيه إلى السكان والعناصر المشكلة للمجتمع المرابطي بدءا بالبر بر الذين يشكلون السواد الأعظم من سكان المنطقة في فترة الدراسة فذكرت أهم القبائل البربرية التي كانت تمثل النواة الأولى للدولة المرابطية وماطرأ من تغيير على الخريطة السكانية لمجتمع المغرب الأقصى

بعد الهجرة الصنهاجية من الجنوب صوب الشمال،مع ذكر لأهم القبائل البربرية التي كانت تتخذ من المغرب موطنا لها لأنتقل إلى ثاني أهم عنصر من سكان المغرب المتمثل في العنصر العربي الذي استوطن العدوتين المغربية والأندلسية مشكلا بذلك أهم تجمع بعد العنصر البربري سواء في المغرب أو الأندلس،مع الإشارة إلى المولدين والأقليات الأخرى من صقالبة وروم وسودانيين وأغزاز .

أما **الفصل الثـــاني** فقد تناولت فيه بالدراسة الطوائف الأخرى المشكلة للمجتمع المرابطي من أهل الذمة فعرفت أهل الذمة ثم أفردت جزءا من هذا الفصل إلى الطائفة المسيحية (النصارى) فتتبعت التواجد المسيحي في المغرب والأندلس ووضعيتهم الاجتماعية والدينية مع التركيز على عملية تغريب المعاهدة وأبعادها التي اتخذ منها بعض المؤرخين الغربيين قضية للنيل من المرابطين ورميهم بمختلف التهم معتبرين عملية التغريب جريمة ضد النصارى المبعدين. وقد حاولت دحض تلك الاتهامات والرد على أصحاب هذه الادعاءات موضحا في الوقت نفسه دور النصارى في المجتمع المرابطي .

وما دمت قد تحدثت عن الطائفة المسيحية كان لزاما عليّ التطرق إلى طائفة أخرى من الطوائف المشكلة للمجتمع المرابطي والمتمثلة في الطائفة اليهودية فحاولت تتبع التواجد اليهودي في المغرب والأندلس وأماكن استقرارهم مع التركيز على وضعية اليهود الاقتصادية والاجتماعية والدينية حيث أبرزت التسامح الديني الذي تمتعت به هذه الطائفة في ظل المجتمع المرابطي مبعدا بذلك التهم التي كالها بعض الحاقدين من الغربيين على المرابطين الذين اتهموهم بالتعصب الديني.وختمت الفصل بالحديث عن إسهامات اليهود في العصر المرابطي خصوصا في الجانب الفكري.

وخصصت **الفصل الثالث** للحديث عن طبقات المجتمع وتصنيفاته فأشرت إلى الطبقة الحاكمة المتمثلة في الأمراء ومساعديهم من الكتاب والوزراء والولاة ومشرفو المدن والفقهاء .مع الإشارة إلى الطبقة الوسطى من تجار وصيارفة وكبار السماسرة وأصحاب المهن الحرة من الأطباء وغيرهم كما أشرت إلى أصحاب الوظائف الحكومية المنتمين إلى الطبقة الوسطى كصاحب الأحكام والمحتسب.وأنهيت الفصل بالتطرق إلى فئة العامة المشكلة أساسا من صغار التجار والباعة المتنقلون والفلاحين والصناع والحرفيين مع ذكر مهن أخرى امتهنها العامة وألحقت لطبقة العامة فئات

أخرى مثل السبايا وأسرى الحرب والعبيد لأنهي الحديث عن هذه الفئة فيما اصطلح على تسميته بالطبقة المهمشة من المتسولين والدعرة وأثر المجاعات والحروب على العامة خصوصا .

أما **الفصل الرابع** من الدراسة فقد خصصته لمظاهر من الحياة الاجتماعية والقيم السائدة في المجتمع المرابطي بدءا بتكوين الأسرة انطلاقا بالزواج موضحا مهور الزيجات في العصر المرابطي وطبيعة العلاقات الزوجية الايجابية منها والسلبية التي عادة ما تنتهي بالطلاق الذي تتبعه نفقات الطلاق. كما تناولت في الفصل بعض المظاهر من الحياة الاجتماعية كالاحتفالات بالأعياد والمواسم والاحتفالات الأسرية أو الاحتفالات العامة وما يتعلق بها من ترويح عن النفس من سماع للموسيقى والغناء وتسلية كسباق الخيل والصيد. ثم تناولت بالدراسة بعض القيم السائدة في المجتمع الايجابية منها كالكرم والنظافة والتمسك بالجماعة والحث على العمل وظهور بعض الآفات الاجتماعية كالتسول والسرقة والبغاء مع ذكر الأوبئة المتفشية في المجتمع والطرق المختلفة لمعالجتها .

وعالجت **في الفصل الخامس** نوعية الألبسة والأطعمة فتطرقت في حديثي عن اللباس إلى لباس الرأس بدءا باللثام الذي يعد لباسا مميزا خاصا بالمرابطين مع ذكر لبعض ألبسة الرأس كالغفائر القرمزية والعمامة ثم أوليت جزءا هاما من الفصل لدراسة لباس البدن وركّزت على البرنس الذي يمثل الزّي التقليدي للرجل المغربي منذ القدم إلى يومنا هذا وضمن لباس البدن أشرت إلى لباس القدمين المتمثل في النعال والخف والقرق والبلغة هذا بصفة عامة ثم حاولت التمييز بين الألبسة حسب التصنيف الطبقي المتعارف عليه في المجتمع فأشرت إلى لباس الأعيان والعلماء وما يتميز به من إحكام الصنعة والنوعية،ولباس المتصوفة الذي يتصف بالبساطة وأهم ما يميزهم عن بقية المجتمع من لباسهم للخرقة ،والكساء والعباءة ،والإحرام بالنسبة للرجال،والجبة والخمار المصنوع من الصوف للنساء.كما أشرت إلى لباس العامة المشكّل من الجبة والكساء والسراويل والدراعة وغيرهما والمصنوعة من الصوف.

ونظرا لكون المجتمع المرابطي يشتمل على طوائف أخرى غير مسلمة فقد أفردت قسما خاصا من الفصل للباس الذميين المشكّلة أساسا من الزنار والشّكلة، وختمت الفصل بالإشارة إلى لباس نساء الطبقة الخاصة والأعيان الذي يتناسب مع مكانتها والمتخذ من أجود أنواع الأقمشة والحرير، وعلى العكس منه كان لباس نساء العامة الذي يتميز ببساطة صنعه والمصنوع أساسا من الصوف.

أما القسم الخاص بالجانب الاقتصادي فقد أفردت له أربعة فصول بدءا من **الفصل السادس** من البحث الذي خصصته للزراعة فتحدثت عن وضعية الأرض الزراعية (ملكية الأرض)والعوامل المختلفة المساعدة على النشاط الزراعي المتمثلة في العوامل البشرية من توفير للأمن والاستقرار وقلّة المجابي وتوفر الأيدي العاملة في القطاع الزراعي،والعوامل الطبيعية كأثر الموقع في التنوع الزراعي،وما أنجر من تأثير على الإنتاج الفلاحي نتيجة الجفاف وانحباس الأمطار وما ترتب عن ذلك من مجاعات. دون إغفال لما سببته السيول والفيضانات والجراد من مشاكل للزراعة والزراع وموقف الدولة من تلك الأزمات.

وفي حديثي عن الزراعة تطرقت إلى طريقة الزراعة وأساليبها وما بلغته من تقد م في العصر المرابطي خاصة بعد ضم الأندلس سيما وأن الأندلسيين كانوا يمتلكون من الخبرة في المجال الفلاحي ما لم يمتلكه المغاربة ،وحسبنا في ذلك المصنفات القيمة التي ألفّها علماء الفلاحة من أمثال ابن بصال وابن العوام وابن حجاج الاشبيلي التي ما من شك قد استفاد منها الفلاحين. وتطرقت أيضا إلى أهم المحاصيل الزراعية المتنوعة من الحبوب وبعض المحاصيل الزراعية كقصب السكر والقطن والكتان والأنواع المختلفة من الفواكه التي اشتهر بهما كلا من المغرب والأندلس في تلك الفترة مع الإشارة إلى الثروة الغابية والحيوانية وما يتعلق بهما من تربية للحيوانات المستأنسة وما اشتهرت به العدوتين من حيوانات مفترسة .

وتناولت في **الفصل السابع** الصناعة فذكرت العوامل المؤثرة في الإنتاج الصناعي بدءا بنظرة المجتمع المغربي والأندلسي للحرف والصنائع وما لعامل الوحدة والاستقرار الأمني،وقلة الضرائب من تشجيع للصناع على الإقبال على التصنيع. هذا ناهيك عن حاجة الدولة للصناعات الحربية لكون الدولة المرابطية دولة مغازي ،و رغبة بعض فئات المجتمع سيما منها الطبقة الخاصة الحصول على مواد الترف.كما تناولت بالدراسة أهم الصناعات فركزت على الصناعات الحربية لحاجة الدولة الماسة إليها بسبب خوضها لحروب عدّة سواء في المغرب أو الأندلس. مع ذكر أهم الصناعات الزراعية وما يتصل بها من صناعات مختلفة أين تحدثت عن كل صناعة على حدة وختمت الفصل بالحديث عن الصناعات المعدنية وما يتصل بها وكذا الصناعات ذات المصدر الحيواني كصناعة الجلود ودباغتها وصناعة المرجان.

أما **الفصل الثامن** فخصصته للتجارة الداخلية فبدأت الفصل بالحديث عن وضعية المغرب الأقصى والأندلس السياسية والاقتصادية قبل الفتح المرابطي، ثم أبرزت دور المرابطين في المحافظة على أمن الطرق وتحقيق الأمن لسالكيه عبر الطرق التجارية سواء في المغرب أو الأندلس كما بيّنت استخدام الأنهار في نقل السلع من منطقة إلى أخرى خصوصا في الأندلس .كما تطرقت إلى الأسواق الداخلية بكل من العدوتين والعوامل المؤثرة في ازدهارها مع ذكر أهم الأسواق محددا مواقعها وأهم السلع المعروضة بها. والنظم المتّبعة فيها بدءا برقابة المحتسب لوضع حد للغش بمختلف أنواعه وتحديد أسعار السلع ومنع الاحتكار ومحاربة كل ما يضر بمصلحة المستهلك .

كما تتبعت سياسة الدولة المرابطية مع بداية قيامها والمتمثلة في إلغاء المكوس والضرائب المفروضة على السلع والاكتفاء بما أوجبه الكتاب وتغير تلك السياسة فيما بعد إذ أصبحت القبالات "على كل شيء يباع دق أوجل كلّ شيء على قدره"لحاجة الدولة إلى مزيد من الأموال سيما في آخر أيام الدولة بسبب الحروب المفروضة عليها.وتطرقت أيضا إلى وسائل التعامل في الأسواق بأنواعها المختلفة سواء عن طريق العملة وهي أكثر الوسائل المستعملة أو عن طريق الصكوك والسفاتج أو عن طريق المقايضة والتي لازالت تستعمل إلى أيامنا هذه سيما في بعض المناطق الجنوبية.وختمت الفصل بذكر لأهم المكاييل والموازين المستعملة وهذا حسب كل منطقة .

أما **الفصل الأخير** من الدراسة فقد عالجت فيه التجارة الخارجية فتطرقت إلى أشهر الموانئ المغربية والأندلسية فبيّنت خططها ومواقعها مع الإشارة إلى الطرق البحرية التي تربط كلا من المغرب والأندلس فيما بينهما أو غيرهما من بقية الأقطار ، والنقل البحري وشروطه وما ينجر عنه من مخاطر وقرصنة في عرض البحر. ثم تناولت بالدراسة نظام التعامل في الموانئ كعملية البيع والشراء والمعاملات النقدية كما خصصت جزءا من الدراسة إلى العلاقات التجارية بين المرابطين وأوروبا مع الإشارة إلى التجار المسيحيين في المغرب والأندلس وظروف إقامتهم بإقامة فنادق خاصة لهم كما تطرقت إلى العلاقات التجارية القائمة بين الأندلس والمغرب الأقصى وبين كل من المغرب وجنوب الصحراء وبلاد المشرق الإسلامي وأنهيت الفصل بإبراز دور التجارة الخارجية على العملة المرابطية وتداولها في الأسواق الدولية وأثر التجارة الداخلية والخارجية في ارتفاع مستوى الدخل الفردي .

وكما جرى العمل به في كل الأعمال الأكاديمية أنهيت بحثي بخاتمة ذكرت فيها النتائج المتوصل إليها وألحقت بعد ذلك الرسالة بمجموعة من الملاحق ،أرى أنها تفيد الدراسة ،وختمت كل ذلك بفهارس البحث.

منهجية البحث

أما المنهجية المتبعة في البحث فقد تراوحت بين السرد التاريخي للأحداث ونقدها وتحليلها ومقارنتها ،وكانت عملية السرد طبقا لما جاء من معلومات اعتمادا على المصادر ،وهو منهج لا يمكن الاستغناء عنه في الكتابات التاريخية وقد كان ذلك خاصة في حديثي عن العناصر السكانية المشكلة للمجتمع المرابطي وفي حالة وجود تباين في الروايات أرجح الرواية الأقرب للحدث زمانا ومكانا والتي خضعت للمناقشة من قبل المحققين المعاصرين أو أرى أنها الأقرب إلى الصواب عن غيرها بمقارنة النصوص .

وتخللت عملية سرد الأحداث ،منهج التحليل والنقد لهذه الأحداث لتبيان ما أمكن تبيانه من الحقائق والجوانب الخفية .كما لجأت إلى تأصيل بعض القضايا ،وذلك لإعطاء أحكام حولها متجردا من الأحكام المسبقة حتى أتفادى الوقوع في الخطأ ،واستخدمت أيضا في بعض أجزاء الرسالة الرد على التهم التي كالها بعض الغربيين ضد المرابطين والتي تنطق بالحقد والتعصب كرد على هذه الاتجاهات ومزاعمها المحبوكة لتطهير تاريخ المرابطين بما يشوبه من تحريفات من قبل هؤلاء خاصة في قضية المعاهدين الذين أبعدهم المرابطين من الأندلس بسبب تعاونهم مع العدو وكشفهم عورات المسلمين للنصارى ،واتهام المرابطين بالتعصب الديني واضطهاد النصارى واليهود وعدم السماح لهم بإقامة شعائرهم في ظل السلطة المرابطية مستخدما في هذا الجانب أسلوب المقارنة بين واقع هؤلاء تحت السلطة المرابطية وواقع المسلمين في المدن التي خضعت لقوى النصارى وما انجر عنه من تنكيل وتعذيب وتشريد واعتداء على النفس والنفيس فكان رد المرابطين جراء ذلك على هؤلاء بالجهاد فنعتوا من طرف الغربيين بأنهم متعصبين وأنهم ارتكبوا جرائم في حق النصارى.

صعوبات البحث

إن البحث في موضوع الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عصر المرابطين في المغرب والأندلس ليس من السهل بمكان وهذا لأن مثل هذه الدراسات تمزج بين جوانب متعددة فالدارس لها لا يمكنه

الفصل بين الجانب السياسي والجوانب الأخرى اجتماعية كانت أو اقتصادية وهذا للترابط الكبير بينهما وهذا ما يتطلب وقت كبير للقراءة وجمع المعلومات .كما تكمن صعوبة البحث في شح المادة التاريخية إذ أن المؤرخين القدامى ضربوا صفحا عن الموضوع و لم يلمحوا إلى هذه الجوانب إلا عبر إشارات مقتضبة ومتفرقة بين الكتب هذا إن وجدت في الأصل.

وأمام هذا النقص فإن ذلك يتطلب العودة إلى كتب المناقب والتصوف والحسبة والنوازل الفقهية وهذه الأخيرة تتطلب معارف مسبقة حتى يتسنى فهمها .بالإضافة إلى ما سبق واجهتني صعوبات كبيرة لكون الموضوع متشعب الجوانب والإلمام به في كل نواحيه يتطلب جهدا كبيرا فكلما حاولت سد فجوة من الفجوات إلا واتضحت لي فجوات عديدة خاصة وأن موضوع الدراسة يجمع بين أكثر من إقليم، فالمرابطين كانت انطلاقتهم الأولى من أقصى جنوب المغرب ثم استقر بهم المقام بالمغرب الأقصى وجزء من المغرب الأوسط ثم الانطلاق ثانية صوب الأندلس وكل هذا يستوجب تتبع دقيق لكل كبيرة وصغيرة حتى يتسنى فهم التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع المرابطي أمام التحولات التي طرأت على المجتمع في مراحله الثلاثة وهنا تكمن صعوبة البحث. وبالرغم من ذلك فإني قد حاولت تجاوز تلك العقبات والخروج بالبحث إلى بر الأمان.

دراسة في المصادر

إن دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في أي عصر من العصور يتطلب من الباحث العودة إلى مصادر متنوعة سواء كانت تلك المصادر تاريخية أو جغرافية أو فقهية أو معجمية على اختلاف أنواعها لكون مثل هذه الدراسات تختلف عن غيرها نظرا لتناثر معلوماتها بين ثنايا هذه المصنفات وليس هناك مصنف واحد يجمع مثل هذه المعلومات .وعليه يعتري الباحث صعوبات جمة خصوصا إذا كانت مصادر الفترة مفقودة ،ولذا يضطر الباحث للعودة إلى المصادر المتأخرة علّه يجد فيها شيئا يذكر نقلا عن المصادر الضائعة .

وأول ما يتبادر إلى الذهن هي الرسائل التي صدرها أمراء الدولة المرابطية إلى الولايات .والملاحظ أن الرسائل الرسمية المرابطية التي وصلتنا ضئيلة بالمقارنة عما عرف عن المرابطين من اهتمام بالرسائل الرسمية ،إذ كانوا يتخذونها وسيلة للدعاية السياسة ويبعثون بها إلى الولايات في كل مناسبة.كما فقدت مصادر كثيرة صنفها علماء عاشوا في القرن السادس أو تأخرت وفيات بعضهم

نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ماكتب عن تاريخ المغرب الاسلامي عامة مثل **تاريخ القاضي عياض** المتوفى سنة544هـ / 1149م.وكتاب **الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية** الذي ألفه ابن الصيرفي المتوفى سنة 575هـ/1161م أحد علماء غرناطة أيام المرابطين وهو الآن في حكم المفقود وماكتبه ابن سعيد الحجاري المتوفى في منتصف القرن السادس الهجري في كتابه **المسهب في فضائل المغرب**.ناهيك عما كتبه.ابن حمادة (ت 629هـ/1231م) عن تاريخ قبيلة صنهاجة الموسوم باسم **النبذ المحتاجة من تاريخ صنهاجة** هذا فضلا عن فقدان الكتب التي صنفها علماء هاجروا إلى بلاد المشرق نذكر منهم اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله الغافقي ت575هـ/1197م.**والمختصر في التاريخ** للإمام المحدث السلفي الذي عاش بالا سكندرية ووافته المنية بها سنة 576هـ/1180م وهذا المختصر في التاريخ مفقود هو الآخر. وعلى هذا الأساس يمكننا تصنيف المصادر المعتمدة في البحث إلى عدة أقسام:

1-الرسا ئل والوثائق والمخطوطات

توجد في مكتبة سان لورنزو بالاسكوريال مجموعة من الرسائل المرابطية وقد اعتنى د/حسين مؤنس ومحمود علي مكي بنشر هذه الرسائل فحقق الأول اثنين وعشرين رسالة وتابع مكي هذه الجهود وحقق إحدى وعشرين رسالة تتعلق كلها بتاريخ الأندلس فاستفدنا منها في مواضع كثيرة أثناء حديثنا عن الأندلس خصوصا في معالجتنا للضرائب وطريقة جبايتها.ويمكننا أن نلحق بهذا النوع من الرسائل ماكتبه ابن تومرت من رسائل شارحا لأفكاره وناقدا للمجتمع المرابطي ونظامه السياسي ووضعه الضرائبي سيما في كتابه أعز ما يطلب.

وهناك نوع ثالث من الرسائل تتصل بالتجارة الخارجية وقد نشر "دوماس لاتري" ترجمة فرنسية للإتفاقيات التجارية بين دول المغرب ومدن الضفة الشمالية من حوض البحر الأبيض المتوسط سيما الايطالية منها.فاستفدت كثيرا من تلك الرسائل في فصل التجارة الخارجية تعويضا عن النقص الواضح في المصادر العربية .كما استفدت من المخطوطات المتنوعة التي أفادتني في تغطية جوانب كثيرة من البحث اقتصر على ذكر بعضها مثل نوازل أبي عبد الله محمد بن الحاج التي لا تزال مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط قسم الوثائق والأرشيفات تحت رقم ج 55 ، وتكمن أهمية هذه النوازل إلى كون مؤلفها عايش فترة المرابطين ،وكان قاضيا لهم بالأندلس رفعت إليه العديد من النوازل من شتى المدن الأندلسية والمغربية للإجابة عليها سيما وأنه عرف بعلو كعبه في ميدان

القضاء والإفتاء إذ لا تكاد كتب تراجم العلماء والقضاء تخلو من الإشادة بمكانته العلمية كما أن مؤلفي كتب النوازل استندوا إلى فتاويه ، بمن فيه عمدة المفتين أبو يحي الونشريسي وتتجلى مصداقية فتاويه في المصادر التي اعتمدها حيث اعتمد على أمهات المصنفات المالكية مع استئناسه بفتاوى فطاحلة فقهاء عصره مثل ابن رشد الجد الذي شكل مرجعيته الخاصة .

وإل جانب مخطوط ابن الحاج أفادتني المخطوطات المؤلفة في التغذية وأخص هنا مخطوط ابن زهر المعنون باسم كتاب مختصر الأغذية وتكمن أهميته في كون ابن زهر عاصر فترة الدراسة وكان أحد الأطباء المعالجين للأمراء المرابطين ،وبالرغم من أن تخصصه كان في الطب إلا أن هذا لم يمنعه من التأليف في التغذية لما طلب منه عبد المؤمن بن علي ذلك وتكمن أهمية هذا المخطوط في كون ابن زهر يعرف جيدا ارتباط التغذية بصحة الإنسان فا عتمدناه في دراستنا.

2- كتب التاريخ

أ - يعد كتاب **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** لابن عذارى المراكشي(كان حيا سنة 712هـ/1112م) بأجزائه الخمسة من أهم المصادر لدراسة تاريخ المغرب والأندلس ولا يمكن لأي باحث الاستغناء عنه سيما عند تأريخه لدولة المرابطين وترجع أهمية الكتاب إلى اعتماده على مصادر بعضها مفقود ككتاب الأنوار الجليّة،واعتماده على شيوخ ثقا ت عاصروا بعض الأحداث. وقد أفادني الكتاب في معظمه ولاسيما القطعة الخاصة بالمرابطين.أما الجزء الخامس المعروف باسم البيان المغرب القسم الموحدي الذي حققه مجموعة من أساتذة مغاربة والذي تبدأ أحداثه بسنة ثلاثة وثلاثين وخمسمائة فقد أفادني في معرفة المرحلة الأخيرة من أيام المرابطين وأثر ذلك على الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

ب - **الأنيس المطرب بروض القرطاس** لابن أبي زرع (ت726هـ/ 1326م

استفد ت من هذا الكتاب في مواضع مختلفة من البحث خاصة وأن ابن أبي زرع شغوف بالإشارة إلى المظاهر الاقتصادية في المغرب هذا فضلا عن استفادتنا منه في معرفة الأحداث التي مرت بها بلاد المغرب منذ الانطلاقة الأولى للمرابطين من جنوب الصحراء حتى سقوط مراكش في يد الموحدين.

ج- أما **كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية** فهو يعالج تاريخ المغرب منذ تأسيس مراكش إلى سنة 783هـ/1381 م وأن صاحبه لم يقصد به الأخبار المراكشية التي تتعلق بمدينة مراكش ،بل أنه قصد أشياء أخرى بعيدة عما يوحي إليه عنوان الكتاب فإذا استثنينا ما كتبه

المؤلف عن تأسيس المدينة وما حققه تاريخ هذا التأسيس وما ذكره عرضا من مؤسسات المرابطين والموحدين بها ،لا نجد فيه شيئا يخص المدينة .

وبالرغم من أن الكتاب يحمل عنوانا يضعه بين المصنفات الخاصة بتاريخ المدن ،فهو في فصوله لم يتقيد بفن تاريخ المدن بل تحدث عن تاريخ المغرب والأندلس في حقبة نشطة فهو يعد كتاب عام وليس معنى هذا إنقاصا من قيمة الكتاب وإنما يعتبر من أمهات الكتب المفيدة للبحث في تاريخ المرابطين سيما وأن صاحبه استقى معلوماته من مصادر جلها يعتبر في حكم المفقود مثل كتاب ابن الصيرفي.وقد أفادني الكتاب في مواضع كثيرة من البحث.

د- **كتاب العبر** لعبد الرحمان ابن خلدون ت808هـــ/1405م يعد كتاب العبر من المصادر الرئيسية التي يعول عليها في البحث حيث يعالج تاريخ المغرب معالجة تفصيلية وعليه فهو يعتبر موسوعة تاريخية شاملة .أما المقدمة فقد تميزت بدقتها المتناهية التي لا يظهر فيها سرد لأخبار التاريخ وقد استفدت منها كثير لما ورد فيها من تحليل للنواحي الاقتصادية والاجتماعية في المغرب،نذكر منها مثلا ربط ابن خلدون بين الثورات التي قام بها الموحدين على بلاد المغرب وأثر ذلك على الناحية الاقتصادية كغلاء الأسعار وكثرة الجبايات سيما في آخر الدولة ،وهذا ما ينطبق على السياسة المالية للدولة المرابطية.

3-**كتب الجغرافيا**: تعتبر الكتب الجغرافية من أهم المصادر المعتمدة في البحث على اختلافها وهذا لما تحويه تلك المصادر من معلومات غزيرة وقيمة عن النشاط الاقتصادي بمختلف نواحيه سواء تعلق ذلك بالمجال الزراعي أو الصناعي أو التجاري حيث استفدنا منها في معرفة أهم المحاصيل الزراعية في كل من المغرب والأندلس وأهم الصناعات القائمة بالعدوتين المغربية والأندلسية.ومن خلالها أيضا تمكننا من دراسة الطرق التجارية البرية والبحرية والنهرية وما طرأ عليها من تغيركما اعتمدنا عليها اعتمادا كليا في معرفة أهم الصادرات والواردات ،وأسواق المدن المنتشرة في أنحاء البلاد وعليه سوف نرد هنا دراسة لأهمها كل واحد على حدة

أ-**صورة الأرض** لابن حوقل(ت أواخر القرن الرابع الهجري)

بالرغم من أن كتاب ابن حوقل متقدما عن الدراسة إلا أننا اعتمدنا عليه في إبراز بعض النقاط المهمة من البحث إذ يعد هذا الأخير أول من أشار إلى استخدام الصكوك في بلاد المغرب .كما أن بعض الإضافات التي أضافها النساخ إلى الكتاب أثبتت وصول العملة المرابطية إلى جنوب شبه

الجزيرة العربية .هذا ناهيك عن المعلومات القيمة التي أمدنا بها عن المراكز التجارية المنتشرة في جنوب المغرب الأقصى .

ب-البكري:**كتاب المغرب قي ذكر بلا د افريقية والمغرب** ت 478 هـ/1113م)

يعد كتاب البكري من المصادر الجغرافية الهامة الذي أفادنا في الدراسة سيما وأن البكري عاصر المرحلة الأ ولى من قيام دولة المرابطين فأمدنا بمعلومات قيمة قلّما نجدها في مصادر أخرى عن خروج المرابطين من الصحراء إلى غاية تأسيسهم لمدينة مراكش .واستفدنا منه خاصة في حديثنا عن الأسواق والطرق التجارية في المغرب، وحركة التجارة وأهم السلع الصادرة والواردة وأسعارها والمكاييل والموازين المستعملة ،هذا إلى جانب وصفه الدقيق للمدن المغربية ومدن السودان الغربي وهو ما أفادنا في معالجة كثير من نقاط البحث.

ج-الإدريسي:**وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**.ت 560 هـ/ 1164م

يعتبر هذا المصدر من أهم المصادر الجغرافية اعتمادا في البحث وهذا لأن الإدريسي كان معاصرا لفترة الدراسة .فيعد كتابه خير معين لدراسة الجوانب الاقتصادية المختلفة سواء الزراعية منها أو الصناعية أو التجارية نظر للمعلومات القيمة التي يحويها هذا الكتاب وعليه كان اعتمادنا عليه في معظم أجزاء الرسالة ويعد الإدريسي أول جغرافي يشير إلى القبالات التي فرضها المرابطون على الصناعات والسلع في أسواق مراكش .

د-أما **كتاب الجغرافيا** لابن سعيد ت685هـ/1285 م فقد أفادنا بما أورده من معلومات عن تجار بعض المدن الساحلية خاصة المغربية منها التي كانت مقصدا للمراكب التجارية من مختلف الأنحاء والأقطار وهذا ما زاد في ثراء سكانها فكان البعض منهم يشترون ما يرد إليها من سلع في المراكب في صفقة واحدة دون حاجة إلى غيرهم .وإلى جانب كتاب الجغرافيا لابن سعيد استفدنا مما كتبه كلا من الزهري في كتابه الموسوم باسم **كتاب الجغرافية** خاصة في حديثنا عن الجوانب الاقتصادية في الأندلس ومن كتاب **الاستبصار** لمؤلف مجهول وكتاب الحميري **الروض المعطار** رغم أن صاحب الروض ينقل أحيانا المعلومات التي أوردها البكري والإدريسي وصاحب الاستبصار مع إضافات بسيطة إلا أنه يعتبر من المصادر التي يعتمد عليها في دراسة الجانب الاقتصادي سواء أكان ذلك في المغرب أو في الأندلس أو غيرها من الأقطار نظرا للمعلومات القيمة التي يزخر بها الكتاب.

4 –كتب النوازل والحسبة

إن البحث في الحياة الاجتماعية والاقتصادية يستدعي العودة على كتب النوازل والحسبة وهذا لتدارك النقص الموجود في المصادر التاريخية نظرا للقيمة الكبيرة والمعلومات الوفيرة والنادرة التي توجد في هذه المصنفات التي قلما نجدها في غيرها من المصادر وعليه كانت هذه الأخيرة السند القوي في بحثنا نقتصر هنا بذكر بعضها لتنوعها وكثرتها .

فالنسبة للنوازل منها المطبوع والمخطوط فالمطبوع منها يأتي في مقدمتها ديوان الأحكام الكبرى أو الأعلام بنوازل الحكام للفقيه المالكي أبي الاصبع عيسى بن سهل الأسدي الجياني المتوفى سنة 486 هــ/ 1093م والكتاب جليل الفائدة يعرض لنا عددا هائلا من القضايا والمعاملات لأهل الأندلس عامة والقرطبيين خاصة ،مع فتاوى الفقهاء وحيثيات تلك القضايا وما صدر فيها من أحكام وكل ذلك جرى تحت سمع المؤلف وبصره في القرن الخامس الهجري، وهي تتناول حياة الأندلسيين اليومية من معاملات أو منازعات فمن خلالها تبيّن بوضوح نبض حياة المجتمع الحقيقية لاسيما منها النواحي الاجتماعية والاقتصادية .

ويندرج ضمن هذا السياق فتاوى ابن رشد لأبي الوليد أحمد بن أحمد بن رشد المالكي القرطبي (ت 520هــ/ 1126م)ويعد هذا الكتاب من الكتب النفيسة التي لا يستغنى عنه لكون فتاويه تمثل اتساعا زمانا ومكانا فمن الناحية الزمانية تناولت جانبا من عصر ملوك الطوائف ،ثم عصر المرابطين حتى سنة 520 هــ1126 م ومن حيث المكان فإ نها ترتبط بأكثر المدن الأندلسية وبعض المدن المغربية أما من حيث الموضوع فإنها تشير إلى مسائل شتى من مناحي الحياة ،وترجع قيمة هذه الفتاوى بالنسبة للبحث لكونها معاصرة للفترة الخاصة بالبحث من جهة ومن جهة أخرى أن أسئلتها تصور الواقع اليومي للمجتمع .كما أمدتنا الفتاوى بمعلومات في غاية الأهمية فيما يخص المعاملات اليومية بين الناس ومنها استفدنا كثيرا في معالجة الجانب الاقتصادي من البحث.

وإل جانب فتاوى ابن رشد استفد نا أيضا مما كتبه كلا من البرزلي(ت 841 هــ/1438م)في فتاويه المعروفة باسم **فتاوى البرزلي** (جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام)

وما كتبه أحمد بن يحي الونشريشي المتوفى سنة 914 هـ/ 1508م رغم تأخرهما عن فترة البحث وتكمن أهمية العودة إليهما نظرا لاعتمادهما في فتاويهما على بعض المفتين الذين عاصروا الحقبة المرابطية كابن الحاج وابن رشد وغيرهم.

أما النوازل المخطوطة المعتمدة في البحث فأهمها على الإطلاق نوازل أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف التجيبي (ت529 هـ/1134م) المعروفة باسم **نوازل ابن الحاج** التي سبق وأن أشرنا إليها لكون معظمها منبعثة من واقعه الاجتماعي فهي تعبر تعبيرا صادقا لما يحياه يوميا وقد استفدت منها في مواضع متفرقة من البحث على غرار سابقيها من النوازل.

أما رسائل الحسبة فأهميتها هي الأخرى غير بعيدة بالنسبة للبحث عن النوازل لأن رجال الحسبة تكمن مهمتهم في معالجة كل ما يخالف الشرع والعمل على محاربته وهنا تكمن أهمية تلك الرسائل وقد وصلت إلينا أربعة رسائل منها مايعود إلى القرن الخامس ومنهامايعود إلى النصف الأول من القرن السادس الهجري وهي رسائل **ابن عبد الرءوف** و**ابن عبدون** التجيبي ،**والسقطي**، **والجرسيقي** وهذه الرسائل تعطينا صورة واضحة عما يدور في الأسواق، وأساليب الغش والخداع التي يلجأ إليها التجار في معاملاتهم التجارية فهي بذلك تعمل على الكشف عنها بواسطة صاحب السوق فكانت هذه الأخيرة خير معين لي في الكشف عن حيل الصناع والتجار وأصحاب المهن والحرف وغيرهم.

5 – كتب المناقب

إن الاهتمام بهذ النوع من المصادر والوثائق من شأنه أن يفتح المجال أمام الباحثين للنظر في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ومن شأنه أن يسهم في بلورة تصور داخلي شمولي للتحولات التي عرفها المجتمع المغربي والأندلسي في العصر الوسيط وبعد أن ظل هذا الصنف من المصادر إلى وقت قريب خارج دائرة المؤرخ فإن الانفتاح عليها والاستعانة بها لتجاوز دائرة المعلومات الشحيحة التي توفرها المصادر الإخبارية التقليدية عن بعض القضايا الدقيقة التي يطرحها البحث التاريخي المعاصر مثل تطور الفئات الاجتماعية وحياتها اليومية وعلاقاتها بالسلطة ومن هنا جاء اعتمادنا على كتب المناقب فاستفدت مما كتبه كلا من أبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي المتوفى سنة 603هـ/أو 604هـ في كتابه المستفاد في مناقب العباد ،ومما كتبه ابن

الزيات المتوفى سنة 626هـ في كتابه التشوف إلى رجال التصوف فكانت الفائدة منهما بالغة الأهمية خاصة في الناحية الاجتماعية.

وإلى جانب هذه المصادر اعتمدنا على مصادر ومراجع وبحوث كثيرة ومتنوعة سواء باللغة العربية أو بلغات أجنبية لتغطية النقص الموجود في المصادر والمراجع العربية لا يسع المقام هنا لذكرها حتى لا أخلّ بالتقليد المعمول به في البحوث العلمية والأكاديمية وهي مثبتة في القسم الخاص بها .

الشكر والعرفان

وختاما لا يفوتني أن أوجه جزيل شكري إلى كل من أعانني من قريب أو بعيد على إنجاز هذا العمل وإخراجه بهذه الصورة وأخص بالذكر هنا أستاذي الأستاذ الدكتور موسى لقبال طيّب الله ثراه وتغمده بفسيح جنانه الذي منحني من وقته الثمين الكثير حيث تتبع خطوات البحث بدءا بجمع مادة البحث وأثناء عملية التحرير.كما لا يفوتني بالمناسبة أن أتقدم بخالص الشكر والامتنان إلى الدكتور أحمد شريفي الذي وافق على إتمام مسيرة أستاذه في الإشراف وأكمل خطوات هذا العمل في أصعب مرحلة ومنحني هو الآخر رغم مشاغله من وقته مالا يقدر بثمن ولم يبخل علي بنصائحه وإرشاداته الكثيرة.فما جاء في هذا البحث من فضل فإليهما يرجع وما فيه من تقصير فإلي يعود.

وبالله التوفيق

الفصـــــل الأول

الســــــكـــان

التركيبة البشرية لعناصــــر المجتمع المرابطي

أولا: الـــبربـــر

القبائل الصناجيـــة

أ - صنهاجة

ب – لمتونة

ج - جدالة

د- مسوفة

ه - لمطـــة

الهجرة الصنهاجية و أثرها في بنية مجتمع المغرب الأقصى

القبائـــل الزناتيـــــة

زنـــــاتـــــة

القبائـــل المستقـــــرة

أ - المصامـــدة

ب- هـــرغـــة

ج - هنتاتة

بربر الأندلس

ثانيـــا: العـــــــــرب

أ- عرب المغرب الأقصى

بـــ - عرب الأندلس

ج- المـــولديــــــــن

ثالثا: الأقلـــيات الأخـــــرى

أ ـــ الصقالبة والروم

بـــ - الســـودانيون

ج - الأغـــــــزاز

الســـــــكـــان

التركيبة البشرية لعناصـــر المجتمع المرابطي

إن المتتبع للتركيبة البشرية المشكلة للمجتمع المرابطي يجد نفسه أمام صعوبات جمة و أمام فقر مدقع، و هذا لضياع أهم كتب النسابة المغاربة أمثال هانئ بن بكور الكومي و سابق بن سليمان المطماطي، و أيوب بن أبي زيد و غيرهم كثير[1]. هذا إذ ما استثنينا ابن حزم و البيدق.و قد تفطن إلى هذا النقص صاحب كتاب" صورة الأرض" حينما أشار إلى ذلك في معرض حديثه عن أنساب الزناتين حيث قال : أن " العلماء بأنسابهم و أخلاقهم و أثارهم هلكوا."[2]و بالرغم من ذلك فإننا نجد مصادر نقلت أحيانا عن تلك المصنفات الضائعة و سجلت روايات تختلط بين الحقيقة و الأسطورة ، تتراوح بين الوضوح أحيانا و الغموض و الإبهام أحيانا أخرى. وهذا ما يزيد من الصعوبة بمكان و أمام هذا النقص يمكننا سد تلك الثغرات بنصوص الرحالة و الجغرافيين ، فضلا عن كتب النوازل و الحسبة، و بعض المصنفات التاريخية التي تساهم في إنارة الجوانب الغامضة في هذا المجال.

ومن خلال تتبع النصوص يتضح أن أهم العناصر البشرية التي شكلت خريطة سكان المغرب و الأندلس في الحقبة المرابطية تجلت في العنصر البربري الذي مثل السواد الأعظم من سكان حواضر المغرب الأقصى و بواديه على الخصوص ثم يأتي العنصر العربي الذي اتخذ من المدن مستقرا له و بدرجة أقل الأقليات الأخرى على غرار الصقالبة و الروم والعنصر السوداني و الأتراك الغز وأهل الذمة من اليهود و النصارى[3]

وقبل التطرق لدراسة مختلف العناصر المشكلة للمجتمع المرابطي يستلزم ربطها بخلفيتها الاقتصادية خاصة و أن الدولة المرابطية بنت اقتصادها على موارد الغزو و غنائم الفتح و عليه

---

[1]- ابن خلدون:كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ،مج (6)،منشورات علي بيضون،دار الكتب العلمية بيروت ،ط 2، 2003 ،ص 110

[2]- ابن حوقل: صورة الارض ،دار مكتبة الحياة ،1979ص103. و انظر ايضا ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين ، دار الطليعة ، بيروت ،1997 ،ص 8

[3]- ابراهيم القادري بوتشيش:نفس المرجع و الصفحة

فإن أبرز خاصية ميزت المجتمع المرابطي كونه مجتمعا مكونا من عناصر بشرية مختلفة عرقيا و دينيا و لغويا. انطلاقا من هذا الإطار العام سنحاول تحديد أهم العناصر البشرية المكونة للمجتمع المرابطي.

أولا: الـــبربـــر

إذا ما تناولنا عنصر البربر باعتبارهم الغالبية العظمى من السكان و منهم تأسست أكبر دولة شهدها المغرب الأقصى لوجدنا اختلاف المؤرخين في أصل نسبهم " فابن حزم الأندلسي" يذكر أقوالا مختلفة في نسبهم منها قوله:" قال قوم أنهم من بقايا و لد حام بن نوح عليه السلام، و ادّعت طوائف نسبهم إلى اليمن إلى حمير، و بعضهم إلى بر بن قيس بن عيلان"[1].

و مما يؤكد اختلاف النسابة قول ابن خلدون " و أما إلى من يرجع نسبهم من الأمم الماضية فقد اختلف النسابون في ذلك اختلافا كثيرا وبحثوا فيه طويلا .فقال بعضهم :إنهم من ولد ابراهيم عليه السلام....وقال آخرون :البربر يمنيون[2].و قد رجح " ابن زيدان" أنهم من ولد كنعان و أنه لما قتل ملكهم جالوت الفلسطيني و تفرقت بنوكنعان قصدت منهم طائفة المغرب و سكنوا تلك البلاد وهم البربر[3].و مع تضارب هذه الروايات يمكننا أن نستخلص أن جيل البربر كغيره من الأجيال التي عمرت الأرض و انتشرت في أرجائها طلبا للرزق و اتخذوا لهم موطنا في أرض المغرب عامة.

ومهما كان الاختلاف حول هذه الإشكالية التي اختصرناها حتى لا نتجاوز حدود الدراسة فقد وقع إجماع بين المؤرخين و النسابة على تقسيم البربر إلى فرعين رئيسيين هما: البتر و البرانس.وهذا ما يؤكده ابن خلدون في قوله: " و أما شعوب هذا الجيل و بطونهم، فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان و هما برنس و ماذغيس، و يلقب ماذغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس و هما معا ابن برنس"[4].

---

[1] – ابن حزم الأندلسي: جمهرة انساب العرب: تحقيق وتعليق محمد هارون ، ط(5) دار المعارف مصر، ص 495.
[2] – ابن خلدون: العبر مج (6) ص 107
[3] – إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس، ج(1) الرباط، ط 1 ،1929، ص62.
[4] – ابن خلدون: المصدرالسابق ، ص 105.

أما بالنسبة للتفسير الذي حدده بعض المؤرخين لهذا التصنيف فقد اختلف فيه فالبعض يرى أن هذا التصنيف جاء انطلاقا من نمط العيش فالبرانس في نظرهم جبليون مستقرون و البتر رحالة و هذا ما ذهب إليه جوتيه[1].في حين فسر البعض هذا التصنيف على أساس لغوي و هذا ماذهب إليه وليام مارسيه في تفسيره لفظتي البتر و البرانس و قسّم البربر على أساسه إلى طائفتين انطلاقا من اسم اللباس الذي تلبسانه أي البرنس الطويل المخروطي، و البرنس القصير المبتور [2].

أما "عبد الوهاب "بنمنصور"[3]فيرى أن هذا التصنيف جاء على أساس ثقافي فالبربر البرانس هم المستقرين الذين تأثروا بمظاهر الحضارة البونيقية واللاتينية و الإغريقية في حين بقيت قبائل البتر بعيدة عن ذلك نظرا لعزلتها و بدواتها و تنقلها المستمر.في حين نجد " حسن الوزان"[4] و رغم تأخره عن فترة الدراسة فقد قدم لذلك تفسيرا اجتماعيا إذ ذكر أن البربر شهدوا حروب طاحنة فيما بينهم وأن المغلوبين صاروا أرقاء للمنتصرين فاضطروا إلى السكن في المدن ، في حين استولى الغالبون على البوادي و استقروا فيها.

ومهما يكن من أمر فإنه ليس من السهولة إبداء رأي حاسم في هذه التصنيفات و إنما هي مجرد اجتهادات و أراء للباحثين ليس إلا. و على العموم فإن البربر البرانس و البتر في العصر المرابطي كانوا قد استقروا في أرض المغرب الأقصى عامة. فالبرانس استقر معظمهم في المناطق الساحلية أو الجبلية الممتدة من على طول البحر، و عاشوا حياة الاستقرار و الزراعة، و كان ارتباطهم بالأرض ارتباطا شديدا و لعل هذا كان سببا في مقاومتهم للعرب إبان الفتح الإسلامي[5].وقد وصفهم " ابن خلدون"[6] في كتاب العبر بأنهم أوفر قبائل البربر عدد، أما أغلب

---

[1] Gautier felix: le passe de l'Afrique du nord: les siècles obscur. Paris. Payot 1973, p24.

[2]- سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي من الفتح الى بداية عصر الاستقلال ج(1)، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1979، ص89،90.

[3]- عبد الوهاب بنمنصور: قبائل المغرب.ج(1) الطبعة الملكية الرباط، 1968، ص 292.

[4]- وصف افريقيا، ج(1)ترجمة محمد حجى و محمد الاخضر، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، الرباط ، 1980، ص 23 و انظر ايضا: مارمول كاربخال: افريقيا ج(1)ترجمة عن الفرنسية، محمد حجى وآخرون ، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع ، الرباط 1984، ص 90.

[5] -عبد الوهاب بن منصور: قبائل المغرب ،ج(1)ص 301.

[6]- العبر مج(6)، ص 179.

البتر فهم بدو رحل نزلوا بسلسلة الأودية الرعوية و انتشروا في أقاليم النخيل حسب فصول السنة بينما أقام بعضهم في القرى الصحراوية، يمتازون بروحهم القتالية العالية و امتداد قبائلهم عبر مناطق كبيرة بين المغرب الأقصى و الأندلس [1] غير أن ما يمكن أن نخلص إليه بعيدا عن هذه التصنيفات أن كلا الفريقين، البرانس و البتر عاشا على أرض المغرب الأقصى متأثرين بالأحداث التي مرت بها المنطقة و مؤثرين فيها، و ساهمت في توجيه الأحداث خلال العصر المرابطي و على هذا الأساس سوف نتطرق إلى القبائل البربرية المشكلة للمجتمع البربري.

القبائل الصنهـــــــاجـــــة:

أ – صنهاجة

تعد صنهاجة أهم عناصر سكان المغرب الأقصى في العصر المرابطي و أكثرها عددا وعلى أكتافها قامت دولة المرابطين وهذا مايؤكده "ابن خلدون" [2] في قوله:"هذا القبيل من أوفر قبائل البربر و هي أكثر أهل الغرب بهذا العهد و ماقبله لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر".

وقد تضاربت روايات النسابة و المؤرخين حول أصل صنهاجة و كيفية استقرارها في المغرب و إن كانت أغلب الروايات تنسبها إلى قبيلة حمير وتأتي في مقدمة هذه الروايات ما نقله"ابن عذارى" عن الهمذاني في كتابه " الاكليل" "أن صنهاجة من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير"[3] ونفس الرأي ذهب إليه " ابن خلدون " نقلا عن ابن الكلبي[4]، وعلى عكس هذا الاتجاه يذكر " ابن حزم" انتسابهم إلى حمير[5]، واقتفى أثره ابن خلدون الذي تناقض في هذا المجال و خالف

1– ابن خلدون :العبر مج6، ص 142، عبد الوهاب بنمنصور: قبائل المغرب،ج1، ص 304، 305.

2– العبر مج (6) ،ص179.

3– البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ج (4) تحقيق و مراجعة الدكتور احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان ط،2، 1980، ص 46.

4– ابن خلدون: العبر مج(6)، ص 105، 113، مج(2) ص60.

5 –ابن حزم: جمهرة انساب العرب ، ص 504.

الأول الذي نقله عن ابن الكلبي لما أشار في معرض حديثه عن أخبار صنهاجة فيقول:" هذا القبيل من أوفر قبائل البربر"[1].

وعلى الرغم من هذا الاختلاف بين الروايات إلا أن الراجح أن صنهاجة تعود أصولها إلى حمير و لعل ما يؤكد ذلك أن المرابطين يفخرون بنسبهم الحميري حيث كانوا يمدحون به من ذلك على سبيل المثال لا الحصر قول: أبي محمد بن حامد الكاتب:

قوم لهم شرف العلا من حمير *** وإذا انتموا صنهاجة فهم هم

لما حووا أحرار كل فضيلة *** غلب الحياء عليهم فتلثموا[2]

كما أن ذو النسب الحميري من أهل المغرب و الأندلس يستعطفونهم بصلات القرابة و الأصل الحميري المشترك من ذلك مثلا ما ورد في رسالة "ابن عباد" إلى يوسف بن تاشفين يستنجده فيها من أجل مساعدته على صد خطر الفونسو[3].

ولعل ما يدل دلالة أكيدة أن قبيلة صنهاجة تعود أصولها إلى أصول عربية ما أورده صاحب الحلل الموشية[4].إذ يقول:" إنما تبربرت ألسنتهم لمجاورتهم البربر و مكوثهم معهم ولمصاهرتهم إياهم" و مما يزيد من تأكيد نسبتهم إلى حمير قول ابن سعيد[5] " "ويذكرون أن أصلهم من عرب عرب اليمن و العروبية بينهم ظاهرة"

1- ابن خلدون: العبر ج(6)ص179.

2- ابن عذارى: البيان المغرب ج(4) ص 129.

3- مجهول: كتاب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية تحقيق سهيل زكار ، و عبد القادر زمامه، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء 1979، ص 46. وللمزيد عن نسب صنهاجة انظر: الناني بن الحسين: "المرابطون و الذاكرة الجمعية الشنقيطية خلال القرنين 18و 19م" منشور ضمن أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين من 15 الى 17 ابريل 1996، مصادر ، دفاتر التاريخ الموريتاني، الكتاب الثاني 1999، ص 133-135. و انظر ايضا: ابن عذارى: المصدر السابق، ملحق 1، ص 128.

4- مجهول: ص19.

5- ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي ديوان المطبوعات الجامعية ، ط2 الجزائر، 1982، ص124.

ومهما يكن من أمر فقد ظل الصنهاجيون حتى العصر المرابطي يمثلون أهم عنصر من عناصر السكان في المغرب الأقصى إذ لا يكاد قطر من أقطار يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط حتى لقد زعم الناس أنهم الثلث من أمم البربر[1].

وتضم صنهاجة مجموعة من القبائل بلغ عددها السبعين قبيلة[2] ومن هذه القبائل لمتونة و جدالة و مسوفة و لمطة و مسراتة، و منداسة[3] ...الخ و بنو إبراهيم و بنو محمد[4] و غيرها من القبائل.وقد صنف الجغرافي " ابن حوقل" صنهاجة إلى صنهاجة الخلص" ذوي اللون الأبيض، وصنهاجة تادمكة و القبائل التابعة لها[5]في حين يقسم ابن خلدون صنهاجة عموما إلى ثلاث طبقات أولاها صنهاجة افريقية و المغرب الأوسط التي أفرزت نظامين سياسيين هما دولة بني زيري و بني حماد،أما الطبقة الثانية و هي صنهاجة الجنوب التي شكلت نواة الدولة المرابطية، بينما تتجلى الطبقة الثالثة في صنهاجة الريف و على هذا النهج نفسه يميز بين صنهاجة الشمال في افريقية و المغرب الأوسط و هم أهل " مدر" و صنهاجة الجنوب و هم أهل " وبر"[6] و الذي الذي يميز الصنهاجيين هو تنقلهم الدائم و عدم استقرارهم لأنهم اعتادوا حياة الرعي و الانتجاع و هذا ما اضطرهم إلى التنقل و الترحال[7] طلبا للكلأ و المرعى، و طلبا للعيش الميسور خاصة في في أوقات الصيف و العودة إلى ديارهم في الشتاء[8] فظاهرة تنقل و ترحال القبائل البدوية طلبا للكلأ و المرعى معروفة في كل بيئة مشابهة و في كل عصر. فعين البدوي ترنوا دائما إلى الخضرة

---

[1]- ابن خلدون: العبر مج(6)، ص 179.ابن سعيد:كتاب الجغرافيا، ص 145.

[2] - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فا س ،اعتنى بتصحيحه و طبعه و ترجمته كارل يوحن تورنبرغ ، طبع مدينة أ وبسالة 1843م ص75 .وانظر أيضا: ابن خلدون: المصدر السابق ص 180.

[3] - ابن أبي زرع: نفس المصدر، ص75.

[4] - الإدريسي: صفة المغرب و أرض السودان و مصر و الأندلس، مأخوذة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر دوزي و دي خويه، المطبعة الشرقية، ليدن 1866، امستردام 1969، ص 59.

[5]- ابن حوقل: صورة الأرض ، ص101.

[6] - ابن خلدون: المصدر السابق ص 180.

[7] - الإدريسي: : المصدر السابق ، ص 88.

[8] - حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى ،دار الفكر العربي.د.ت. العربي.د.ت. ص 38.

و العيش الميسور وكسائر المجتمعات البدوية المشابهة لا يتعلق الإنسان في مثل هذه الظروف الصحراوية بالأرض، و لا يدافع الناس عن وطن معين يترلون فيه بقدر ما كانوا يدافعون عن الأسرة و العشيرة و القبيلة التي كانت محور الحياة في المجتمع[1] وحتى بعض الصنهاجيين المستقرين في المدن أو ضواحيها كمسوفة مثلا لم يكن استقرارهم يكتسي صبغة الديمومة، و لاغرو أنهم قد وصفوا بأنهم" رحالة لا يستقر بهم مكان "[2]أما صنهاجيو الشمال ، فعاشوا حياة مستقرة و تعاطوا الأعمال الزراعية غير أن هؤلاء لم يمثلوا إلا نسبة ضئيلة وكان الطابع الغالب على القبائل الصنهاجية هو الترحال و التنقل.ومادمنا بصدد الحديث عن صنهاجة فلا بأس من التطرق إلى بعض القبائل الصنهاجية التي شكلت أهم السكان وساهمت في أحداث الحقبة المرابطية و تأتي في طليعة هذه القبائل.

ب – لمتونة

هي إحدى قبائل صنهاجة[3] التي كانت تتمتع بمكانة مرموقة بين القبائل الصنهاجية، و كانت لها الزعامة و السيطرة على غيرها من القبائل[4].ودخلت هذه القبيلة تحت سلطة عبد الله بن ياسين الزعيم الروحي للحركة المرابطية و هذا ما أكسب تلك الحركة قوة و مكنتها من مواصلة كفاحها و السيطرة على المغرب الأقصى و الأندلس فيما بعد خاصة بعد أن انقلت الزعامة من قبيلة جدالة إلى لمتونة، و ظلت هذه الزعامة موجودة في لمتونة ممثلة في أسرة يوسف بن تاشفين حتى سقطت دولة المرابطين[5] و قد تم تحديد أماكن استقرار هذه القبيلة من طرف حسن احمد محمود بقوله: " تمتد من منطقة تلى منطقة لمطة و جزولة و تمتد من وادي نون على المحيط الأطلسي حتى رأس بوجادور الحالية و إلى الشرق من وادي نون تقع مدينة أزكي على ميسرة

---

[1]– ابن خلدون: المقدمة: ص134، و تحدث في الصفحات التالية عن قوة القبيلة و أخلاقها و حروبها وواقع حياتها و يرى أن الدولة تؤسسها قبيلة راجع: نفس المصدر ص 137،186.

[2]– عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان ط2، ص 1984 ، ص305.

[3]– البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا و المغرب و هو جزء من "كتاب المسالك و الممالك"، تحقيق دي، سلان ط 2، باريس ،1911، ص164 .

[4]– مجهول: الحلل الموشية، ص 17.

[5]– حسن على حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس عصر المرابطين و الموحدين، ط1 ، 1980، مكتبة الخانجي الخانجي مصر، ص 96.

سبعة أيام من وادي نون،وهي حصن لمتونة و معقلها، و يبدوا أن هذه القبيلة توغلت في الصحراء شرقا حتى تدرك الطريق الموصل بين غانة و سجلماسة .[1]

و كانت مهنة أبناء قبيلة لمتونة الرعي و رأس مالهم الأغنام التي يعيشون على لحومها و ألبانها و هذا ما نستتشفه مما قاله عنهم صاحب الاستبصار " و من هذا الجبل يدخل إلى لمتونة، وهم من صنهاجة و أكثر لمتونة إنما هم رحالة، و لايستقرّ بهم موضع ولا يعرفون الحرث و لا الزرع و لا الخبز و إنما لهم الأغنام الكثيرة فيعيشون من لبنها و لحمها"[2]فلما انتقلت القبيلة من مواطنها الأولى و استقر بها المقام في المغرب أقاموا بالمدن و تمكنوا من الوصول إلى أرفع المناصب في السلطة خاصة و أن أمراء المسلمين من بني تاشفين ، حرصوا على تولية المناصب الحساسة في الدولة لأبناء القبائل المؤسسة للدولة و على رأسها لمتونة، و شاركوا في الحياة الاجتماعية بالبلاد وأصبحوا يزاولون مختلف الأنشطة الزراعية منها والصناعية و التجارية[3].

و لم يكتفوا بهذا فقط بل انخرطوا في الحياة العسكرية و قاموا بعبء كبير في النشاط العسكري لإرضاء دعائم الدولة المرابطية سواء أكان ذلك في المغرب أو الأندلس، و برز منهم القادة العسكريون و الولاة و نواب الأمراء[4].

ج – جـــــــدالة

هي إحدى قبائل صنهاجة لا تختلف هي الأخرى عن قبيلة لمتونة في كون أبنائها رحل ينتجعون المراعي و يقيمون في الصحراء[5] وتمتد مضاربهم حتى نهر السنغال متخذة من مدينة أوليل مركزا لها حيث معدن الملح الذي تحمله القوافل إلى الشمال و الجنوب[6]وبرز دور قبيلة

---

[1]–حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين ، ص 45.

[2]– مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار "وصف مكة و المدينة و مصر و بلاد المغرب " نشر و تعليق د.سعد زغلول عبد الحميد ،مطبعة جامعة الاسكندرية، 1958 ، ص 213.

[3]– حسن احمد محمود: المرجع السابق، ص 413.

[4]– حسن علي حسن: الحضارة الاسلامية في المغرب و الاندلس، عصر المرابطين و الموحدين، ص247، و انظر ايضا: ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث ،ص17.

[5]– مجهول: الحلل الموشية، ص 17.

[6] –حسن احمد محمود: المرجع السابق، ص46.

جدالة في المرحلة الأولى من الدعوة المرابطية حيث قام يحي بن إبراهيم الجدالي باصطحاب عبد الله بن ياسين إلى قبائل الصحراء لتعليمهم شئون دينهم [1] ثم انتقلت الزعامة منها إلى لمتونة فيما بعد، و على الرغم من ذلك فإن قبيلة جدالة حافظت على مكانتها ضمن المجتمع المرابطي، و حضي بعض أفرادها بالمناصب العليا و المراكز الهامة في هرم السلطة، و ساهمت القبيلة إسهاما كبيرا في الجهاد الذي خاضته الدولة المرابطية.[2]

د- مسوفة

تعد هذه القبيلة من ضمن القبائل الصنهاجية المشهورة[3] التي كانت تتخذ من المنطقة الصحراوية الممتدة بين سجلماسة في الشمال و أودغشت في الجنوب منتجعا لها، و هي بذلك كانت تتحكم في مراكز العبور الأساسية لذهب السودان الغربي[4]فضلا عن امتهانها مهنة الرعي و اعتمادهم في معيشتهم على لحوم الأغنام و ألبانها، و قد أسفر انضمامها إلى دعوة عبد الله بن ياسين أن تبوأت مكانة ممتازة ضمن المجتمع الجديد، و هذا ما جعل أبناءها يحتلون بعض مراكز القيادة في دولة المرابطين.[5]

هـــ لمطة

تعد هي الأخرى من القبائل الصنهاجية التي تحتل المنطقة الممتدة من جبال درن حتى وادي نول القريب من المحيط الأطلسي[6]، وقد سميت مدينة "نول" باسم القبيلة و هذا ما نستشفه من معظم معظم المصادر الجغرافية " وإنما سميت نول لمطة لأن قبيل لمطة يسكنونها"[7]وتعد القبائل السالفة

---

[1] – حماه الله بن سالم: "الإطار الفكري للحركة المرابطية": منشور ضمن أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين من 15 الى 17 افريل 1996. جامعة نواكشوط، 1999، ص 47، 48.

[2]–حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين ، ص377.

[3]–ابن خلدون: العبر مج(6) ص 180. و انظر ايضا مجهول: الاستبصار، ص 179

[4]–ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة" تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار" ج(2) اعتنى بها و راجعها د.درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2005، ص 271، 272

[5]–محمد عبد الهادي شعيرة: المرابطون تاريخهم السياسي، ط1 القاهرة، 1969، ص 30.

[6]–ابن حوقل: صورة الأرض ص 101، و انظر: حسن احمد محمود: المرجع السابق، ص44.

[7]–عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص 584

الذكر هي عماد وقوة المرابطين في زحفهم من الجنوب و انطلاقهم صوب الشمال، و تمكن الأمراء المرابطين صهر تلك القبائل الوافدة مع غيرها من القبائل المقيمة بالمغرب الأقصى، و من أهمها قبائل مكناسة و مغراوة و بني يفرن في المجتمع المرابطي.

الهجرة الصنهاجية و أثرها في بنية مجتمع المغرب الأقصى

شهد العصر المرابطي أكبر هجرة صنهاجية من الجنوب القاحل صوب الشمال الخصب، وقد بدأت هذه الهجرة مع الطلائع الأولى للجيش المرابطي الذي اندفع من الجنوب تحت وطأة ظروف اقتصادية قاسية ألمت بالصحراء.[1] استنادا إلى ما ذكره ابن عذارى [2] أن هذا الاندفاع الصنهاجي شمل على الخصوص مدينة أغمات وريكة ذات الأهمية الاقتصادية فنجم عن ذلك اكتضاضها بالوافدين الجدد على اعتبار أنها " منذ القديم يترل بها التجار لأنها كانت دار التجهز للصحراء"[3] فكان لهذا الاكتضاض و المعاناة التي مر بها سكان أغمات أن جعلت أشياخ أغمات أغمات يرفعون شكوى إلى الأمير " أبي بكر بن عمر" حول مالحقهم من ضيق و عناء. وإثر ذلك بدأت صنهاجة اللثام في التفكير في بناء مدينة أخرى تستوعب هذا الفائض من السكان المقيمين بأغمات و شرعوا في بناء مدينة مراكش التي " وجدوا في فحصها من المسرح الخصيب للجمال و الدواب ماغبطهم بها."[4]

كان تأسيس مدينة مراكش بمثابة الانطلاقة الحقيقية للهجرة الصنهاجية المنظمة صوب المغرب الأقصى التي شملت العناصر اللمتونية على الخصوص، وهذا ما نستشفه مما أورده ابن عذارى[5] في قوله" و كتب إلى بعض إخوانه... يحضهم على الوصول إليه و القدوم عليه و يعدهم بالخير الجزيل الحفيل، فوصل منهم جماعة كبيرة"وبعد الانتصارات التي أحرزها أبو بكر عمر في

---

[1]- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب مج (11) ج(24)تحقيق عبد المجيد ترحيني ، منشورات محمد على بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص143.

[2]-البيان المغرب في اخبار الأندلس و المغرب ج(4) ص 19.

[3]-عبد المنعم الحميري: الروض المعطار ص46.

[4]- مجهول: الحلل الموشية ،ص16.

[5]- البيان المغرب في اخبار الأندلس و المغرب ج(4) ص 23.

الصحراء وعودته منها مع مجموعات صنهاجية هامة فضلت هذه الأخيرة الاستقرار في المغرب الأقصى[1]

أما الهجرة الصنهاجية الثانية والتي تعد أكثر من الأولى فقد شملت باقي العناصر الصنهاجية التي بقيت في الصحراء غير أنها التحقت بالمغرب الأقصى لتشارك لمتونة غنائم الحروب و الانتصارات أولا ثم الاستقرار في المغرب ثانيا و هذا ما يؤكده صاحب الحلل[2] بقوله: " فوفد عليه منهم جموع كثيرة... و كثروا بكل مكان".

و الواضح أن الظروف السياسية والاقتصادية إبان توافد تلك الأعداد من الصنهاجيين عجّلت بهذه الهجرة خاصة و نحن ندرك أن الانتصارات التي أحرزها يوسف بن تاشفين لا تكون محمودة العواقب و مأمونة دون عصبة تشد من أزره و تمده بالرجال ضف إلى ذلك أن ضم الأندلس حتّم عليه المزيد من الطلب على القوة البشرية لتثبيت أقدامه[3]. خاصة و أن الأندلس تحيط به المخاطر من جميع الجهات حسب وصف الزهري له بقوله:" أنه يقع بين بحر مهلك وخلفه عدو مدرك."[4]

أما المجال الجغرافي الذي استقرت به القبائل الصنهاجية القادمة من الصحراء فقد شمل منطقة الساحل الأطلسي الممتد من نول لمطة إلى جنوب السوس، ثم الأطلس الصغير الذي استوطنته قبائل جزولة و لمطة ودرعة[5]، إضافة إلى قسم من الأطلس الكبير الغربي[6].أين انتشرت مجموعات صنهاجة هامة قرب المحيط الأطلسي نحو مصب نهر أم الربيع و تحديدا جنوب منطقة أزمور[7]إضافة إلى جزء كبير من منطقة الريف، وقد حدد الجغرافي الأندلسي عبد المنعم الحميري[8]

---

[1]- مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص25،26.

[2]- مجهول: نفس المصدر، ص33

[3]-محمد ناصح: جوانب من الحياة الاقتصادية و الاجتماعية في العصر الوسيط- القرن 6 هـ -نموذجا، بحث لنيل د.د.ع، كلية الاداب ، الرباط، ص 78.

[4]- الزهري: كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق ،مكتبة الثقافة الدينية،الظاهر، القاهرة د.ت ص81

[5] - **H**enri. Terrasse : Histoire du Maroc. T1 ،Casablanca ،1946.. P.196.

وانظر: البكري: كتاب المغرب ص164

[6]- مارمول: افريقيا ج2، ص 283.

[7] - Henri .Terrasse: Histoire du Maroc. p. 196.

الحميري[1] مواطن استطان البعض من صنهاجة حين ذكر أن قسما من مسوفة أقام في سجلماسة.

مما سبق يتضح لنا أن المغرب الأقصى شهد في العصر المرابطي تعميرا جديد، ولعل ما يرجّح هذا الرأي هو خلوّ منطقة الأطلسين الكبير الشرقي و المتوسط و بلاد فازاز من التجمعات البشرية قبل قيام الحكم المركزي للمرابطين، وهذا مايؤكده البكري[2] الذي وصف المنطقة قبل استقرار الدولة المرابطية حيث أنه لم يشر سوى إشارات عابرة إلى وجود بعض التجمعات الصغيرة المتناثرة في تلك المناطق.

ومما يرجح تعمير هذه المنطقة بعد الهجرة الصنهاجية الكبرى من الجنوب نحو الشمال ما أورده الإدريسي[3] المعاصر للدولة المرابطية عن تواجد تجمعات سكانية لبعض القبائل الصنهاجية يطلق عليها " صناهجة أملوا" بالجبل المحاذي لمدينة داي.ومما يزيد من تأكيد تعمير صنهاجة للأطلس الكبير بقسميه الشمالي و الجنوبي ما أورده البيدق[4]من أسماء لبعض القبائل الموالية للحكم الموحدى. و ممن ذكرهم في ذلك المجال صنهاجة القبلة و صنهاجة الظل.

و لم تقتصر الهجرة الصنهاجية من الجنوب إلى الشمال على الاستقرار في البوادي و سفوح الجبال الخصبة بل طال أيضا المدن و الحواضر خاصة منها التي تقع على خطوط التجارة إذ بمجرد أن استقرت أوضاع الدولة المرابطية بدأ انتقال القبائل الصنهاجية إلى المدينة الجديدة. مراكش كما سبق و أن ذكرنا[5]

ولعل ما يؤكد تواجد القبائل الصنهاجية في المدن و استقرارها بها ما نقلته لها كتب التراجم و الجغرافيا من إشارات إلى ذلك ، فالإدريسي[6] مثلا يشير إلى أن العيون التي تزود النهر الكبير

---

[1] -الروض المعطار في خبر الاقطار، ص 305.

[2] - المغرب في ذكر بلاد افريقيا و المغرب ، ص 146،ـــ 148.

[3] - صفة المغرب، ص 75.

[4] -المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، دار المنصورللطباعة والوراقة، الرباط 1971، ص 53،56.

[5] -ابن عذاري: البيان المغرب ،ج(4) ص23.

[6] - صفة المغرب ، ص 75.

لمدينة "فاس" تسمى "عيون صنهاجة"، و هذا مايرجح فرضية سيطرة صنهاجة على أحواز مدينة فاس. كما أورد ابن الأحمر[1]ذكر لبيت بني الخلوف بفاس وأن أهله" عرب صنهاجيون من صنهاجة الصحراء" و هذا يعد دليلا قاطعا على اتخاذ بعض الأسر الصنهاجية مدينة فاس مستقرا لها.كما وردت إشارات أخرى إلى تواجد عناصر أخرى من لمتونة بمدينة فاس، اتخذت منها موطنا و مقر عمل .وحسبنا على ذلك تميمة اللمتونية ابنة يوسف بن تاشفين التي تولت بعض المهام الإدارية بهذه المدينة.[2]

وشملت الهجرة الصنهاجية مدنا أخرى "كسلا" و "مكناسة" التي أثارت خصوبة أراضيها و كثرة بساتينها و زيتونها شهوة الوافدين الصنهاجيين[3]وعليه فإن أحد أمراء الملثمين بنى بها المدينة المعروفة باسم "القصر" ليسكنها مع جالية من بني عمه[4]كما امتدت الهجرة الصنهاجية إلى مدن أخرى مثل طنجة التي اتخذها موطنا و هذا مانستشفه من قول الإدريسي :" أن سكان طنجة ينتسبون إلى صنهاجة."[5]

ويبدو أن الزحف الصنهاجي شمل أيضا حوض و رغة الذي كانت تقطنه قبائل غمارة فتم إبعادها واستقرت هي في مكانها[6]ومن القبائل الصنهاجية الصحراوية التي استقرت في حوض ورغة بعد اكتساح المرابطين شمال المغرب، قبيلة "لمطة" التي اتخذت من المنطقة الواقعة بين "فاس" و"تاودا" مستقرا لها خاصة بعد أن أقام أمراء المرابطين بها مايشبه قلعة بمدينة "بني تاودا" القريبة من "جبل غمارة" حتى يتسنى لهم مراقبة تحركات قبائل غمارة التي اعتادت الثورة ضد أي حكم مركزي و بذلك تتجنب غارات تلك القبائل على سهل السايس الخصيب فتحمى محصولاته الزراعية[7].

---

1 – بيوتات فاس الكبرى، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ،دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ، ،1972ص48.

2 – ابن القاضي: جذوة الاقتباس ،ق(1)،دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط، 1973،ص174،173.

3 – الإدريسي: المصدر السابق ،ص78،73.

4 – نفسه،ص 77.78.

5 – نفسه:ص169.

6– نفسه :ص170.

7– الإدريسي:صفة المغرب ، ص81، و انظر ايضا: مؤلف مجهول : الاستبصار ،ص196.

مما سبق يتضح لنا أن صنهاجة التي شكلت أهم عناصر سكان المغرب ظلت طيلة الحقبة المرابطية تقوم بهجرة واسعة النطاق من جنوب الصحراء إلى شماله.فكان لهذه الهجرة نتائج بعيدة الغور تظهر جليا في تغيير الخريطة البشرية و مواطن الاستقرار، فعمرت مناطق كانت خالية و أخليت مناطق أخرى من ساكنيها بعد أن حلت بها تلك العناصر الجديدة.

القبائـــل الزناتيـــــــــة

زنــــاتــــة

تعد زناته العنصر الثاني من عناصر سكان المغرب الرحل خلال الفترة المرابطية وهم فرع من البربر البتر تعود أصولهم حسب النسابة إلى كنعان بن حام[1]من أولاد جانا بن يحيى بن صولات بن مازيغ[2] في حين يرجعهم الإدريسي إلى جانا بن ضريس بن لوى بن نفجاو بن بر بن قيس [3] و [3]و من أشهر قبائل زناتة بنو مغراوة الذين يعدون أوسع بطون زناتة و أشدها بأسا و علية[4]أما بنو يفرن فهم أكثر القبائل الزناتية شوكة[5] يضاف إليهم بنو وتاجن وبنو يلوما....وبنو سنوس[6] سنوس[6] و قبائل مكناسة و جراوة و بنو توجين و مطماطة و مطغرة و صدينة و مديونة و نفزاوة و لواته و بنو راشد.[7]

و قد ذكر "ابن خلدون" أن زناتة قد استوطنت بلاد المغرب منذ عهود قديمة و هي تشبه بذلك القبائل العربية في اتخاذ الخيام سكنا لها ،و من الإبل موردا و الخيل مركبا لها .و هذا ما نستشفه من قوله:"هذا الجيل في المغرب قديم العهد،معروف العين و الأثر ،وهم لهذا العهد

[1]- ابن حزم: جمهرة انساب العرب، ص495 ،. ابن خلدون :العبر ،مج7،ص4

[2]-أبو علي صالح: كتاب الأنسباب ، مخطوط ، الخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط ، رقم ك 1275 ورقة 20

[3]-الإدريسي : المصدر السابق، ص 88

[4]- ابن خلدون:المصدر السابق ،ص29

[5]- نفسه ،ص 14

[6]- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 102

[7]- ابو صالح :المصدر السابق ورقة 22 و انظر أيضا :الإدريسي :المصدر السابق، ص 88

آخذون من شعائر العرب في سكنى الخيام و اتخاذ الإبل و ركوب الخيل و التغلب في الأرض و ايلاف الرحلتين"[1].

و من خلال التشابه الذي أورده ابن خلدون بين قبائل زناتة و القبائل العربية في النص السالف الذكر يبدوا أنه لا غرابة في ذلك خاصة و أن الجغرافي الإدريسي يذكر صراحة أن أصول زناتة تعود إلى أصول عربية و إنما تبربروا فقط لمجاورتهم و تحالفهم مع البربر و هذا ما نستشفه من قوله:" و زناتة في أول نسبهم عرب صرح و إنما تبربروا بالمجاورة و المحالفة للبربر من المصاميد"[2]أما الخاصية التي تميز زناتة عن غيرها من القبائل الأخرى تتجلى في اعتمادها الدائم على حياة التنقل و الترحال[3].كما تعد أكثر القبائل البربرية قابلية للتعريب لاحتكاكهم المستمر بالعرب[4]

أما المناطق التي اتخذتها زناتة مواطن و مستقرا لها فنجد أن أقدم العناصر الزناتية استقرت في النواحي الشمالية والشرقية خاصة تلمسان[5]وضواحي تامسنا[6]وفي القرن الرابع الهجري حدثت هجرة زناتية واسعة النطاق من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى تحت ضغط الفاطميين نكاية فيهم لتحالفهم مع أموي الأندلس[7]فشملت مواطنهم المنطقة الممتدة من مدينة تاهرت إلى فاس[8] فاس[8] ثم شرعوا في التسلل صوب الساحل عبر ممر تازا و شكلوا في كل من "سلا" و"تادلا" و أغمات و فاس مواطن لهم[9]

---

[1]- ابن خلدون : العبر مج (7) ص1
[2]- الإدريسي :صفة المغرب، ص 88
[3]- نفسه ،ص 88
[4]- ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ،ج(1) دار السلمى،الدار البيضاء، 1965 ،ص 33
[5]- البكري :كتاب المغرب ،ص 76 و انظر :مجهول :الحلل الموشية ،ص 130
[6]- الادريسي :المصدر السابق ،ص 70
[7]- ابن حيان الأندلسي: المقتبس في اخبار بلد الأندلس شرحه و اعتنى به د. صلاح الدين الهواري المكتبة العصرية صيدا بيروت ط 1. 2006 ص 22
[8]- أبوا على صالح: كتاب الأنساب ،ورقة 22
[9]- ابراهيم القادري بوتشيش :مباحث في التاريخ الاجتماعي ،ص 25

و في القرن الخامس الهجري وردت إشارات حول إقامة قبائل مطماطة و مرنيسة بين منطقتي "وجدة"و"مليلة"،وكذا قرب"نكور"حيث أناخت قبيلتا"كزناية"و"بني ورياغل"إلى جانب بطون أخرى أهمها قبيلة مكناسة التي امتد جحافلها من ملوية السفلى إلى مكناسة عبر ممر تازا.[1]

مما سبق نخلص إلى نتيجة هي أن القبائل الزناتية ظهرت في النصف الأول من القرن الخامس الهجري كأهم مجموعة سكنية في المغرب الأقصى لا من حيث الكثافة البشرية فحسب بل و لدورها السياسي مما جعل الباحثين يصفون تلك المرحلة بعهد السيادة الزناتية.[2]

أما في عهد الدولة المرابطية فمن المعروف أن اقتحام المرابطين للإمارات الزناتية و الاستلاء عليها الواحد تلوا الأخرى كان بحد السيف ،فرضخت القبائل الزناتية للأمر الواقع على غرار كافة قبائل المغرب وأدت ما عليها من واجبات اتجاه الحكم المركزي[3]و لعل ما يؤكد خضوعها لسلطة المرابطين مساهمتها في خوض غمار الجهاد ضمن الجيش المرابطي لتشكل مع مصمودة و قبائل غمارة ما يعرف في الجيش المرابطي باسم الحشم.[4]

و عموما نستطيع القول أن المناطق التي عمرتها القبائل الزناتية إبان هجرتها من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى لم يحدث عليها تحول كبير إذ ضلت مواطن استقرار زناتة هي نفسها دون تغير يذكر إذ ما استثنينا بعض المجموعات الزناتية التي أجليت نحو سهل ملوية ،و عبرت بطون أخرى ممر تازا صوب سهل السايس في حين اتجهت جموع أخرى نحو مدينة سجلماسة[5]ولعل الرواية الوحيدة وان كانت متأخرة هي رواية التي أوردها "حسن الوزان"[6] و التي تقيد بأن اللمتونين طردوا الزناتيين القاطنين في تامسانا و قضوا على جميع السكان باستثناء من انتقل منهم إلى سهل دكالة إلا أن "مارمول" القريب من عصر حسن الوزان يناقضه الرأي و يشير إلى

---

[1] -Terrasse(H) : Histoire du Maroc;p 197

[2] -Terrasse(H) : Ibid, p . 175,179

[3] – عن رضوخ الزناتيين المتواجدين بدرعة انظر: ابن عذارى: البيان المغرب ج(4) ص 15

[4] – محمد المعزوزي : "الأمير المجاهد يوسف بن تاشفين و المماليك الأندلسية" ،منشور ضمن: "ندوة يوسف بن تاشفين"عدد 1سلسلة منشورات مؤسسة البشير ط1 ،مراكش 2002، ص 113

[5] – القادري بوتشيش: مباحث ،ص26.

[6] – وصف افريقيا ،ج(1)،ص32.

تواجد مساكن قديمة لزناتة بتامسنا ظلت موجودة إلى عصره[1].كما أن مجموعة منهم استقرت في فاس[2] وهذا ما يعني أن المرابطين أحدثوا انقلابا جذريا على المستوى السياسي للعناصر الزناتية لكنهم لم يحدثوا تغيرات جوهرية على أماكن استقرارهم خاصة في النواحي الشرقية من المغرب الأقصى.

ويبدوا أن المناطق التي استوطنتها زناتة في الناحية الشرقية لم تثر شهوة الصنهاجيين خاصة و أنها مناطق رعوية[3].وشهدت الحقبة الثانية من عصر المرابطين ازدياد تمركز القبائل الزناتية في شرق المغرب فعلاوة على مغراوة وبني يفرن عرفت المنطقة استقرار بطون أخرى من زناته المغرب الأوسط مثل بني يرنييان الذين اتخذوا من المنطقة الممتدة بين أجرسيف و سجلماسة موطنا لهم في حين انتقل بنو مراسن إلى قبلة المغرب الأقصى[4].والجدير بالملاحظة أنه ونظرا لتشابه المعطيات البيئية بين المناطق التي تستوطنها زناته قديما و المناطق الجديدة التي حلت بها بعد الهجرة فقد فرضت على تلك المناطق نمط معيشي خاص بها و المتمثل في الرعي و الترحال و استمرت على تلك الصورة حتى العصر المريني

القبائـــل المستقـــرة

أ ـــ المصـــــامـــــدة

ينتسب المصامدة إلى مصمود بن مادغس[5] أوبحسب "ابن خلدون"[6] إلى مصمود بن يونس بن بن بربر و يعدون من أبرز العناصر البرنسية يتميزون بكثرة عددهم بالنسبة لمجموع سكان المغرب الأقصى حسب تعبير ابن خلدون إذ يقول عنهم: "فهم أكثر قبائل البربر و أوفرهم"[7]وقد

---

[1]- افريقيا ،ج(1)،ص90.

[2]- ابن الأحمر: بيوتات فاس ،ص 67.65

[3]- بوتشيش: مباحث،ص27.

[4]- البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقيا و المغرب ، ص90. ، وانظر أيضا: ابن خلدون: العبر ج(7)،ص47. و عن استقرار الزناتيين في مدينة سجلماسة راجع ما أورده ابن عذارى :عن مبايعة الزناتيين لعبد الله بن ياسين، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب ج(4)،ص14.

[5]- أبو علي صالح : كتاب الأنساب ،ورقة 24.

[6]- ابن خلدون:العبر مج(6)،ص245

أوفرهم"[1]وقد صنفهم إلى ثلاث مجموعات أساسية هم:أهل جبل"درن"و"غمارة الريف"و"بورغواطة تامسانا"[2]،وما يميز المصامدة عن صنهاجي الجنوب الذين يعتمدون في حياتهم على الرعي و الانتجاع أن المصامدة اعتمدوا حياة الاستقرار و اتخذوا المعاقل و الحصون وشيدوا المباني و القصور [3] وامتهنوا فلاحة الأرض،و تشبثوا بأراضيهم أشد التشبث و عليه فإنهم لم يهجروا المناطق التي اتخذوها مستقرا لهم ودافعوا عنها ضد محاولات الاستيلاء عليها[4].

وحدد لنا المراكشي[5]المجال الجغرافي للمصامدة في قوله: " فحدّ بلادهم –أي المصامدة– النهر النهر الأعظم الذي يصب من جبال صنهاجة و ينتهي إلى البحر الأعظم بحر اقيانس ، يدعى هذا النهر أم ربيع... وآخر بلادهم الصحراء التي سكنتها لمتونة ومسوفة...فهذا حد بلاد المصامدة عرضا، وحدها طولا من الجبل المعروف بدرن- جبل الأطلس – إلى البحر الأعظم المسمى، أقيانس".ومن خلال التصنيف الذي ذكره ابن خلدون سوف نحاول الوقوف على أهم تلك المجموعات التي صنفها.المجموعة الأولى: هم مصامدة الجبال و يقصد بهم سكان جبل درن و الريف ويذكر ابن خلدون أنهم يمثلون الغالبية الكبرى من مجموع القبائل المصمودية فيقول:" فالمصامدة هم أهل الجبال بالمغرب الأقصى إلا قليلا منهم "[6].والراجح أن المصامدة كانوا يكوّنون تجمعا بشريا كبيرا و هذا ما نستشفه من تسمية جبل درن بجبل المصامدة[7]. أو بلاد المصامدة .[8]ويحسم ابن خلدون ذلك بأنه لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم بأسا و لا أكثر

[1]- ابن خلدون:العبر مج (6)،ص245

[2]- نفس المصدر و الصفحة.

[3]- نفس المصدر ،ص264.

[4]- حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين. و انظر أيضا: Terrasse : Histoire du Maroc. p22.

[5]- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ،ط1 1998،ص244.

[6]- ابن خلدون: المصدر السابق ، ص250.

[7]- نفس المصدر: ص248.

[8]- ابن عذارى: البيان المغرب،ج (4)،ص 15.

جمعا [1] ويشاطره في ذلك عبد المنعم الحميري حيث يشير إلى أن غالبية سكان جبل درن من المصامدة فيقول: " وفي الجبل من المصامدة أمم لا تحصى "[2].

ويبدوا أن المصامدة قد استقروا بهذا الجبل وتكيفوا مع طبيعته القاسية نظرا لما يزخر به الجبل من خيرات متنوعة كانت مصدر زرقهم[3] واكتفوا ذاتيا و هذا ما يؤكده ابن خلدون في قوله: " " فاستغنوا بقطرهم عن سائر أقطار العالم".[4]وهذا ما جعل المصامدة يستميتون في الدفاع عن مواطنهم ضد أي وافد أجنبي والراجح أن المرابطين وجدوا صعوبة في إخضاع قبائل المصامدة[5].و لم يتوغل المرابطون في جبل درن إلا بعد أن اختبروا حالهم و أدركوا نقاط ضعفهم وعرفوا الصراعات التي كانت تحدث بينهم[6].

وعلى الرغم من ذلك فقد حرص الأمراء المرابطين منذ الوهلة الأولى لبدء دعوقم على كسب ود المصامدة نظرا لأنهم كانوا يشكلون غالبية سكان المغرب الأقصى و لهذا فإننا نجد عبد الله بن ياسين داعية المرابطين حين اجتمع لديه المال من الزكاة و الأعشار بعث مقدار منه إلى طلبة بلاد المصامدة وقضاقا في محاولة لاستمالتهم[7].وقد أثمرت هذه السياسة إذ كان لهذا التودد مع كراهية المصامدة للزناتين أن جعلت المصامدة لا يقاومون جيوش المرابطين القادمة من الجنوب بل أيدوهم و حالفوهم ضد حكام المنطقة من الزناتيين[8].ونظير تلك الخدمة التي قدمها المصامدة المصامدة للمرابطين عمل يوسف بن تاشفين على ضم مجموعة كبيرة منهم إلى جيشه[9].و الراجح الراجح أن هذا التعامل مع المصامدة كان ينّم عن بأسهم و شدقم و عليه فقد راع المرابطون

---

[1]- ابن خلدون: العبر مج(6)،ص266.

[2]- الروض المعطار في خبر الأقطار ،ص235

[3]- عن طبيعة جبل درن وخيراته.انظر: الإدريسي: صفة المغرب،ص 63-65 ،وانظر ابن عذارى: البيان المغرب ج(4)،ص68.

[4]- ابن خلدون: المصدر السابق،ص264.

[5]- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك،ج(8) .تحقيق سعيد اعراب، فضالة المحمدية،1981 ص82.

[6]- ابن عذارى: المصدر السابق،ص85.

[7]- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص80.

[8]- حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين،ص195،196.

[9]- مجهول : الحلل الموشية،ص26،33.

عدم إثارتهم وهذا ما يتضح لنا جليا من وصية أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لولي عهده علي بن يوسف التي أوردها صاحب الحلل حيث يقول:" فلما قربت وفاته(أي وفاة يوسف بن تاشفين) أوصى ابنه وولي العهد بعده أبا الحسن علي بثلاث وصايا:إحداهما ألا يهيج أهل جبل درن ومن ورائه من المصامدة و أهل القبلة[1].ولإحكام السيطرة على قبائل المصامدة فضل المرابطون أن تكون عاصمتهم (مراكش) بجوار مواطنهم كسبا لودهم و مراقبة تحركاتهم خوفا من انقلابهم عليهم و نستشف ذلك من كلام ابن خلدون إذ يقول:" لم يزل أمر هؤلاء المصامدة بجبال درن عظيما و جماعتهم موفورة و بأسهم قويا... إلى أن أظلتهم دولة لمتونة فكان أمرهم فيها مستفحلا و شأنهم على أهل السلطان و الدولة مُهِمّا حتى لقد اختطوا مدينة مراكش لتزلهم جوار مواطنهم من درن ليتمرسوا بهم و يذللوا من صعابهم"[2].

ويبدوا أن المصامدة لم يستسيغوا قيام دولة مركزية تراقب كل نواحي النشاطات الاقتصادية أو تجعلهم يعيشون في ضائقة اقتصادية، فكان اجتياح المرابطين لسهل الحوز، وما صاحبه من استغلال لموارده يكون قد حرم المصامدة من مجال حيوي، لأن موارد الجبل وحدها لم تعد كافية لهم[3].وانطلاقا من هذه المعطيات فإننا نلاحظ أن المصامدة قد بدأوا في المرحلة الثانية من العهد المرابطي في إظهار ما كانت تضمره صدورهم من سخط تجاه الحكم المركزي و برزت عدة قبائل على الساحة السياسية شاركت في الإطاحة بالدولة المرابطية نذكر منها .

ب- هــــرغـــــة :هي إحدى قبائل المصامدة يرجع" ابن خلكان"[4]نسبها إلى الحسين بن علي بن طالب ويذكر بن منصور في كتابه قبائل المغرب أن اسمها البربري هو "أرغن"[5] ،كانت

---

[1]- مجهول : الحلل الموشية:ص82-83.

[2]- ابن خلدون: العبر مج6،ص266.

[3]-ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث ،ص29،30

[4]- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مج(4) تحقيق على طويل ،د. مريم قاسم طويل ، منشورات محمد على بيضون، دار دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ط 1- 1998 ،ص305

[5]- بن منصور: قبائل المغرب ،ج(1)،ص226. لكن من المستبعد أن تكون هذه التسمية أرغن التي ذكرها بن منصور تحريف لكلمة أرقان البربرية التي وردت عند الإدريسي وهي تشبه شجر الإجاص أغصانا و فروعا و أوراقا، و المعروف أن هذا الشجر متواجد بكثرة في جبل درن الذي تسكنه قبائل المصامدة و منها هرغة، و للمزيد عن هذا الشجر انظر: الإدريسي: صفة المغرب،ص65.

تستوطن جبل درن و هي قليلة العدد مقارنة بغيرها من القبائل[1] ذكرها "البيدق" وأحصى بطونها و كل من انضم إليها[2] وهذه القبيلة هي التي أنجبت الزعيم الروحي للدولة الموحدية المهدي بن تومرت[3].أما ثاني قبيلة من القبائل المصمودية هي قبيلة

ج – هنتـــــاتــــة

يرجع اسمها إلى اسم جدها هنتات الذي يدعى "ينتي" بلسان المصامدة[4] وهي قبيلة ضخمة و في بعضها رياسة وشرف في الدهر القديم[5].وتعد هذه القبيلة من أعظم قبائل المصامدة و أكثرها جمعا و أشدها قوة وقد عدّ لها النسابة ما يقارب تسعة بطون[6] ولكثرة عددها نسب إليها الجبل الذي كانت تقطنه[7].والى جوار هنتاتة كانت تتخذ قبيلة كدميوة أو جدميوة [8] موطنا لها فكانت فكانت تبعا لهنتاتة نظرا لقرب مواطنها منها[9]. في حين اتخذ البعض منها سهل جنوب مراكش موطنا لها، وقد بلغ عدد بطونها ما يقارب ستة وأربعون بطنا[10].يضاف إلى القبائل السابقة قبيلة تنملل أو ما يعرف باسم "أهل تنملل" و سميت بهذا الاسم نسبة إلى الموضع الذي اتخذته موطنا لها[11] وتشمل إحدى عشر بطنا، و تكمن أهميتها في انضمامها للدعوة الجديدة ،و إقامة المهدي بن تومرت بين ظهرانيهم، و اتخاذه مسكنه و مسجده في منطقتهم و عليه فقد حضيت هذه القبيلة بمترلة بين قبائل المصامدة[12] .

---

[1]– المراكشي: المعجب،ص243.

[2]– البيدق: المقتبس من كتاب الأنساب،ص37.

[3]– ابن خلدون: العبر، ج(6)،ص266،316،317 .

[4]– نفس المصدر،ص268.

[5]– المراكشي: المصدر السابق،ص243.

[6]– ابن خلدون: المصدر السابق ،ص 318. وانظر أيضا البيدق: المصدر السابق ،ص44

[7]– نفسه:ص321.

[8]– المراكشي: المصدر السابق،ص243.

[9]– ابن خلدون: المصدر السابق مج(6)،ص321.

[10]– البيدق: المصدر السابق ،ص44.

[11]– المراكشي المصدر السابق ،ص243

[12]– ابن القطان : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق د. محمود علي مكي ، دار الغرب الإسلامي ط2 1990،ص139.

كما تعد قبيلة هسكورة من قبائل مصمودة التي كانت تقطن جبل درن وان كان القسم الأكبر منها يقطن بالمنطقة المعروفة باسم ورزازات أو بلد هسكورة التي حددها البكري بميسرة أربعة أيام[1] وما يدل على كثرتها قول: ابن خلدون[2]: "وأما هسكورة فكان لهم بين الموحدين مكان و اعتزاز بكثرتهم و غلبهم إلا أنهم كانوا أهل بدو".

أما المجموعة الثانية: من مصامدة الجبال هي مصامدة منطقة الريف التي تعد بمثابة شريحة هامة من سكان القسم الشمالي الجبلي خلال العصر المرابطي و بعده، وسموا غمارة نسبة إلى جدهم غمار بن مصمود،أما العامة فتزعم أنهم عرب غمروا الجبال فسموا غمارة غير أن"ابن خلدون"فنّد هذا الزعم[3].ويعتبر"البكري"المعاصر لدولة المرابطين أهم جغرافي تحدث عن هذه الفئة الفئة من السكان خلال القرن الخامس الهجري،وحدد مجال مصامدة غمارة في منطقة الريف و امتدت بطونهم لتشمل ضواحي قصر صنهاجة[4] ومدينة البصرة، ومن البطون التي ذكرها في المنطقة الواقعة بين مدينتي طنجة و سبتة: دغاغ، وأصادة وبنو سمغرة و كتامة[5].

ومن خلال النصوص التي أشارت إلى قبائل غمارة اتضح لنا أن غمارة قد اتخذت من مناطق الريف مستقرا لها خلال الحقبة الإسلامية كلها ومن ضمنها العصر المرابطي، و كانت هذه القبيلة تفضل خاصة المناطق الأكثر ارتفاعا[6]

وبعد استيلاء المرابطين على مدينة سبتة و منطقة الريف خضعت قبيلة غمارة لسلطتهم ، وكان من نتائج الزحف المرابطي نحو الشمال- و خصوصا صنهاجة- عملوا على طرد بطون غمارة من طنجة[7]واستولت على أرضهم و اتخذوها مقراهم[8] في حين لم يتسنى لهم إزاحة

---

[1]- البكري: كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا و المغرب،ص152.

[2]- العبر مج6 ص311.

[3]- نفس المصدر،ص249.

[4]- يسميه الإدريسي: قصر مصمودة، والراجح أن هذه هي التسمية الصحيحة نسبة إلى من يسكنه من قبائل مصمودة ومنها غمارة للمزيد انظر الإدريسي : صفة المغرب،ص168.

[5]- البكري: كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا و المغرب ،ص104-110.

[6]- مجهول: الاستبصار:ص190-191.

[7]- ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث ،ص31.

[8]- مجهول: المصدر السابق،ص191.

مصامدة غمارة من جبال الريف نظرا لحصانتها و مناعتها الطبيعية وحتى يتسنى للمرابطين إحكام السيطرة على قبيلة غمارة ومراقبة تحركاتها عملت على بناء سلسلة من القلاع و الحصون[1] و الراجح أن هذه الإجراءات الأمنية التي أقدم عليها المرابطين قد أثّرت سلبا على الوضعية الاقتصادية لمصامدة الريف فحرموا من النزول إلى سهل ورغة الخصب.

أما المجموعة الثالثة: من المصامدة فهم مصامدة السهول أو (تامسنا) الذين يعدون أقلية مقارنة مع مصامدة الجبال[2]، ومع ذلك فقد وصفوا بأنهم "أمم لا تنحصر"[3] ويحدد حسن الوزان[4] مجالهم بالمنطقة المحصورة بين حاحة و وادي العبيد بما فيها دكالة و الجهة المواجهة لجنوب الأطلسي، وجميع السهول المجاورة له.وتشمل أربعة أقاليم هي حاحة وسوس وجزولة وناحية مراكش وهو بذلك لا يختلف كثيرا عن المجال الذي حدده ابن خلدون[5].وتعد المناطق السالفة الذكر خاصة منها تامسنا من أغنى و أخصب بلاد المغرب الأقصى هذا ما حذا بمارمول[6] أن يصفها "زهرة البربر" ويبدوا أن هذه الطبيعة الزراعية هي التي وجهت قبائلها نحو احتراف الزراعة[7].

وليس من السهل بمكان تحديد قبائل تامسنا رغم أن البكري[8] حدد مجموعة من القبائل التي كانت تدين بملة بورغواطة وذكر منها جراوة، وزواغة، و منصجة ، و مطغرة، و مطماطة وغيرها، لكن بتتبعنا لمناطق استقرار بعض هذه القبائل يتضح لنا أنها لم تستوطن منطقة تامسنا وهي بعيدة عنها كل البعد نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر جراوة و مطغرة و التي لا تمت بأية صلة للمصامدة.[9]

---

[1]- الإدريسي: صفة المغرب ،ص81.
[2]- ابن خلدون: العبر،مج(6)،ص245.
[3]- نفسه:314.
[4]- وصف افريقيا: ج(1)،ص31، مارمول: افريقيا ج(1)،ص90.
[5]- العبر:مج(6) ص314.
[6]- افريقيا ،ج(2)،ص126.
[7]- ابن حوقل : صورة الأرض،ص83. الإدريسي المصدر السابق ،ص71.
[8]- كتاب المغرب :ص140-141
[9]-ابراهيم القادري بوتشيش : مباحث في تاريخ المغرب،ص32.

ولعل ما يزيد في صعوبة تحديد قبائل تامسنا أن الإدريسي[1] أشار لأسماء القبائل التي تقطن تامسنا في عصره ، وهي أسماء تختلف عن تلك التي أحصاها البكري ومنها برغواطة، مطماطة، بنو تسلت، بنو يغمران وزقارة إلى جانب بعض القبائل الزناتية.ولا يتفق الجغرافيان في أسماء القبائل التي ذكرهما إلا في قبيلتي مطماطة وزناتة.

و الراجح أن هذا الاختلاف ينم عما لحق سكان تامسنا من تغيير في مجال الاستيطان، وعلى مستوى القوة البشرية خلال العصر المرابطي. وليس من المستبعد أن يكون الإدريسي قد حدد القبائل التي لم تشملها حملة الإبادة التي شنها المرابطون ضد سكان تامسنا فنتج عن ذلك نقص كبير في عدد سكان المنطقة جراء تلك المذبحة وهناك من المؤرخين[2] من حدد عدد القتلى في تامسنا بمليون شخص وإن كان هذا الرقم يبدوا مبالغا فيه كثيرا إلا أنه يعطينا دلالة أكيدة على ماعرفته المنطقة من فراغ قبل أن يحل بها الصنهاجين محل المصامدة و يعمروها نظرا لخصوبة تربتها ووفرة مزارعها.

وإلى جانب مصامدة تامسنا وجدت في العصر المرابطي قبائل مصمودية أخرى اتخذت من السهول مستقرا لها حددها ابن خلدون[3] وذكر من بينها هيلانه وبني ماكر، كما ذكر رجراجة في أقصى الجنوب ودكالة و تحديدا بمحاذاة نهر تانسيفت[4] هذا فضلا عن هسكورة و هزميره[5].وكلاوه وأصادة[6] وقبائل أخرى اتخذت من السهل الفاصل بين جبل درن و السوس موطنا لها.ومن القبائل المصمودية أيضا قبيلة دكالة التي بقيت على ولائها للمرابطين حتى آخر أيامهم رغم نسبها المصمودى إلا أن هناك من عدها -خطأ- ضمن قبيلة صنهاجة[7].

1- صفة المغرب ،ص70.
2- الوزان:وصف افريقيا ج(1)،ص155.
3- العبر مج6،ص364.
4- أبو علي صالح: كتاب الانساب ،و27.
5- نفسه و25.
6- بن منصور:قبائل المغرب ج1،ص325.
7- نفسه: ص324.

إلى جانب قبائل مصمودة هناك قبائل بربرية أخرى تعتمد حياة الاستقرار نذكر منها قبيلة كتامة التي حدد البكري مواطنها على طريق الموصل بين سبتة و طنجة، وطنجة وفاس[1] وهناك إشارات أخرى أوردها البكري تشير إلى بعض القرى التي عمرها الكتاميون كقلعة ابن خروب ووادي مغار في المنطقة الممتدة بين دمنة عشيرة وسوق كتامى كلها عبارة عن قرى متصلة فيما بينها تسكنها كتامة لخصوبتها ووفرة مزارعها وهذا ما شجعها على الاستقرار بها[2] غير أن لا نعرف و على وجه الدقة التحول الذي طرأ على هذه القبائل بعد دخول المرابطين خاصة و أننا نجد أن اسم قبيلة كتامة بدأ يختفي من المصادر المعاصرة لعصر المرابطين إذا ما استثنينا الإشارة الوحيدة التي وردت لدى الإدريسي[3] التي أشار فيها إلى مواطن كتامة على نهر سفدد القريب من البصرة و الراجح أن كتامة كانت من ضمن المجموعات المشكلة للمجتمع المرابطي،و لكنها اندمجت في القبائل المجاورة لها مثل غمارة و صنهاجة، وتخلت عن اسمها الحقيقي لتحمل اسما آخر وهذا ما يؤكده ابن خلدون[4] في قوله:"وهم ينتفضون من نسب كتامة و يفرون منه".وليس منه".وليس من المستبعد أن يكون السبب في ذلك يعود أساسا إلى موقف كتامة المؤيد للفاطميين إبان صراعهم مع الأمويين على المغرب و عليه فإنهم اثروا أن يخفوا أصولهم في عهد نظام سني يعادي الشيعة و أنصارهم كما يؤكد ذلك ابن خلدون نفسه إذ يقول "ويفرون منه (أي الانتساب) لما وقع منذ أربعمائة سنة من النكير على كتامة بانتحال الرافضة وعداوة الدول بعدهم فيتفادون الانتساب إليهم"[5].

وإلى جانب قبيلة كتامة نجد أيضا قبيلة أوربة المنتمية لفرع البرانس هي الأخرى قد استقرت بالمغرب الأقصى و يتجلى ذكرها خاصة في المقاومة التي أبدتها ضد الفاتحين في قلعة سقوما بالقرب من فاس على عهد موسى بن نصير[6].ولعل هذا ما حذى بابن خلدون[7] أن يصفها بكثرة

[1]- البكري: كتاب المغرب،ص109،104،114.
[2]- نفس المصدر ،ص109،110.
[3]- صفة المغرب ،ص169.
[4]- العبر، مج6 ، ص176.
[5]-نفس المصدر و الصفحة.
[6]- البكري: المصدر السابق ،ص117.
[7]-العبر مج 6 ،ص172.

بكثرة عددها وقوة بأسها . وقد لعبت هذه القبيلة دورا هاما في تأسيس دولة الأدارسة إذ تعد القبيلة الأولى التي بايعت الإمام إدريس سنة 172 هـــ/789م وهي أولى القبائل المستوطنة لمدينة فاس مباشرة بعد إتمام بنائها[1].

ومن خلال مقارنة المعلومات السابقة يتضح لنا أن مواطن قبيلة أوربة لم يطرأ عليها أي تغيير رغم الفارق الزمني بين فترة الفتوح الأولى و بين قيام دولة الأدارسة و ليس من المستبعد أن تكون القبيلة قد حافظت على مواطنها ثم ركنت إلى العزلة وهذا ما أدخلها في طور النسيان.إلا أنها عادت إلى الظهور على واجهة الأحداث في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، إذ يشير إليها البكري[2] محددا منطقة استقرارها جنوب نكور، غير أن لا نملك معلومات توضح طبيعة علاقتها بالدولة المرابطية و ماخلفه حكمها للمغرب الأقصى من نتائج على مناطق تعميرها واستقرارها.

ومما سبق يمكننا أن نخلص إلى نتيجة مفادها أن المصامدة كانوا يشكلون الفئة الأكثر قوة و عددا متمركزين في الجبال و السهول، ورغم خضوعهم للحكم المركزي إلا أن المرابطين لم يتمكنوا من إزاحتهم عن مواطنهم الأصلية و إبعادهم عنها ولذا فضلوا إحكام الحصار عليهم و مراقبتهم مع تشديد الخناق الاقتصادي بحرمانهم من النزول إلى السهول ، في حين أقدموا على إبادة مصامدة تامسنا وحلوا محلهم وهذا ما أدى إلى تغيير الخريطة البشرية في تلك المنطقة.

بـــر بـــر الأندلس

و ما دمنا بصدد الحديث عن العناصر البربرية المستقرة يجد ر بنا دمج بربر الأندلس ضمن هذه المجموعة نظرا لطابع الاستقرار الذي يميزهم. و ا لمعر وف أن استقرار البربر بالأندلس جاء نتيجة امتزاج تاريخي من أربع مجموعات:

---

[1]- ابن خلدون العبر مج 6،ص174.

[2]- كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا و المغرب ص90.

الأولى: تعود إلى أيام الفتوح الأولى للأندلس في عهد موسى بن نصير و انصهرت مع باقي الشرائح الاجتماعية الأخرى و في هذا يقول الإدريسي:[1] "والجزيرة الخضراء أول مدينة افتتحت من الأندلس في صدر الإسلام... وافتتحها موسى بن نصير من قبل المروانيين... ومعه قبائل البربر".

أما الثانية: فتتمثل في المجموعة التي استقدمها المنصور بن أبي عامر للخدمة في الجيش وفي هذا الصدد يقول ابن عذار ى[2]:" وأذل قبائل الأندلس بإجازة البربر.... و استكثر من أعدادهم". في حين تتمثل الثالثة: في صنهاجة اللثام الذين لبوا دعوة ملوك الطوائف لردع الخطر النصراني، فأنزلوا قبائلهم في المدن و الثغور[3].إلى جانب الفئات السابقة الذكر يضاف إليها فئة رابعة: تتشكل من بربر العدوة الذين تدفقوا على الأندلس خلال العصر المرابطي في فترتين متباعدتين أولاها: كانت في سنة 515 هـ/1121م وكانت قبلتهم نحو قرطبة وجاءت هذه الهجرة عقب ثورة العامة التي شهدتها قرطبة وما أنجر عنها من نتائج .ولهذا بادر المرابطون إلى حشد الحشود من صنهاجة و زناته و المصامدة على نحو لم يجتمع مثله للمرابطين و عبروا بهم إلى الأندلس و كان الهدف من ذلك هو إعادة الأمور إلى ما كنت عليه من قبل[4] .

أما الهجرة الثانية: للبربر نحو الأندلس في العهد المرابطي فكانت سنة 535 هـ/1140م يبدوا أنها تميزت عن سابقتها لكثرة الأعداد التي انتقلت إلى الأندلس و هذا ما جعل صاحب البيان[5] يسميها "با لانجلاء العظيم إلى الأندلس".وهناك من المؤرخين من يرجع أسباب الهجرة

---

[1]- صفة المغرب،ص176-177.وانظر أيضا: ابن عذارى: البيان المغرب ج(1)،ص43،ج(2) ص6.

[2]- البيان المغرب،ج(2)،ص274.

[3]- عن عبور البربر الى الأندلس مع بن تاشفين.انظر. ابن عذارى: البيان المغرب ج(4)،ص115 -117-121، وانظر أيضا : عز الدين احمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس هجري ،دار الشروق ط1، 1983، ص84.

[4]- الكامل في التاريخ ،مج(9)مراجعة وتصحيح د.محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط2 ،2003، ص188. وانظر أيضا عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ج(1)، بيروت 1971-1972 ،ص143-144.

[5]- ابن عذارى ج(4)،ص98.

إلى جملة من العوامل كانعدام الأمن و غلاء المعيشة و ظهور المجاعات خاصة في أواخر عهد المرابطين ووصول الموحدين في زحفهم إلى المنطقة الشمالية للمغرب الأقصى[1] .

إلى جانب العوامل السالفة الذكر لا يمكننا استبعاد سبب تنقل البربر إلى الأندلس إلى محاولات إعادة الأمن و الاستقرار إلى بعض المناطق التي شهدت أحداثا و ثورات ضد الحكم المرابطي، ولعل ما آل إليه الوضع في قرطبة و تحديدا سنة 534 هـ/1139 م وسعي البعض للاستقلال بقرطبة لدليل على ذلك[2] .ولعل ما نلاحظه عن تواجد البربر في الأندلس أن تعدادهم كان في تزايد مستمر. وهذا ما نستنتجه من تحديد ابن الخطيب[3] نسبة البربر إلى الأندلس في أول المائة الخامسة بنصف معشار أو أقل و الواضح أن هذا التزايد المضطرد في استقرار البربر في الأندلس قد أحدث مشاكل اجتماعية و هذا ما لم يتحمله الأندلسيون ولذا وصفوا البربر بأوصاف عدة من جملتها أنهم أصحاب نكد و شؤم و الدماء عندهم هوان[4] أو أنهم "إذا غضبوا قتلوا أو جرحوا"[5] ولم يسلم البربر من هجاء الشعراء و القدح حتى في نسبهم[6] و الراجح أن

[1]- من غلاء المعيشة أن سطل الشعير بلغ ثلاث دنانير، وليس من المستبعد أن تكون للظروف الأمنية التي يمر بها المغرب آنذاك و الفيضانات التي شهدها سببا في ظهور المجاعات ، انظر عن ذلك: ابن عذارى : البيان المغرب ج(4)،ص99 و للمزيد انظر أيضا: ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث ،ص35.

[2]- حمدي عبد المنعم محمد حسين: تاريخ المغرب و الأندلس في عصر دولة علي بن يوسف المرابطي،نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة و النشر، اسكندرية، 1986،ص146.

[3]- تاريخ اسبانيا الإسلامية أو أعلام الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام،ق(2) تحقيق ليفي بروفنسال ،دار المكشوف، بيروت 1956 ، ص227

[4]- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ،ص71.

[5]- ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب، نشرت ضمن ثلاث رسائل أندلسية ،تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ،1955 ص28.

انظر عن ذلك ما أورده الشاعر أبو بكر يحي بن سهل اليكي-على عهد بن يوسف بن تاشفين- حيث وصفهم بالدناءة و الانحلال، وعدم العفة، بالرغم ادعائهم المضحك لحمير، وقد اتخذ من لثامهم مادة للسخرية البالغة منهم قوله :

في كل من ربط اللثام دناءة *** ولو أنه يعلو على كيوان
ما لفخر عندهم سوى أن ينقلوا *** من بطن زانية لظهر حصان
المنتمون لحمير لكنهم *** وضعوا القرون مواضع التيجان
لا تطلبن مرابطا ذا عفة *** واطلب شعاع النار في الغدران

[6] - انظر:ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب ج(2) تحقيق شوقي ضيف، نشر دار المعارف، القاهرة ،ط3 1955،ص267

البربر قد اتخذوا من الأندلس بحواضره و بواديه مستقرا لهم مختلفين في أقاليمه وقد رصدت لنا المعلومات المتناثرة بين المصادر أسماء لقبائل بربرية كانت لها إسهامات في الأحداث السياسية الأندلسية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قبائل نفزة و مكناسة التي اتخذت من المنطقة الممتدة بين قرطبة و بلاد الجلالقة موطنا لها، في حين كانت تقيم قبيلتي هوارة و مديونة بشنت برية.[1]

أما بعض البطون المنتمية لقبيلة مصمودة فقد انتشرت في قرطبة و الجزيرة الخضراء و مارده.[2]والراجح أن الهجرة البربرية من المغرب الأقصى نحو الأندلس كانت موجهة للحواضر الكبرى مثل قرطبة و غرناطة و هذا مصداقا لما جاء في قول ابن الخطيب عن سكان غرناطة." أن فيهم البربر و المهاجرة كثير"[3].كما أمدنا ابن حزم بأسماء لقبائل بربرية استقرت في أنحاء الأندلس من الفتح مثل مصمودة وصنهاجة وهوارة وزناتة.[4]

مما سبق يتضح لنا أن زحف المرابطين نحو الأندلس لصد هجمات القوى النصرانية أضاف عناصر أخرى جديدة من قبائل البربر التي اتخذت من الأندلس مستقرا لها وأصبحت إلى جانب العناصر الأولى تشكل قوة اجتماعية لا يستهان بها.

ثانيـــا: العـــــــــرب

أ- عرب المغرب الأقصى: هم العنصر الثاني من سكان المغرب الأقصى الذي شارك البربر الإقامة بالمنطقة وحتى يتسنى الإلمام بهذه الفئة فإن ذلك يتطلب العودة إلى بداية الفتح الإسلامي لأن صلة العرب بالمغرب الأقصى، تعود إلى أيام عقبة و موسى بن نصير حينما أخضعا المنطقة

---

[1]- الاصطخري: المسالك والممالك ،تحقيق ،الجيني ،مراجعة شفيق غربال ، القاهرة 1961ص 36

[2]- انظر عن مثلا بني سفيان وبني سالم.راجع : أبو علي صالح:كتاب الأنساب و 28، ابن خلدون: العبر مج(4)،ص181.

[3]- الإحاطة في أخبار غرناطة مج(1) ، شرحه و ضبطه و قدم له د. يوسف علي الطويل، منشورات بيضون ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط1 ،2003 ،ص36

[4]- جمهرة أنساب العرب ،ص498-503.

للسلطة المركزية في دمشق، ولأجل نشر الدين الإسلامي تركا مجموعة من العرب تعلم أهالي المغرب الأقصى قواعد الدين الحنيف و تنشر بينهم تعاليمه[1].ومن هنا بدأ مجتمع المغرب الأقصى يتطعم بعناصر جديدة من العرب التي أقامت في ربوع البلاد تؤدي وظيفتها التي أقبلت من أجلها وأصبح بذلك المغرب الأقصى موطنا لمن يفضلون الإقامة في ربوعه من العرب كما وجد فيه أصحاب الدعوات الخارجية الفارين من بطش الخلافة في المشرق ملجأ و ملاذا لهم فأشاعوا أفكارهم التي فشلوا في نشرها في المشرق الإسلامي[2].

وزاد توافد العرب على المغرب الأقصى خاصة في عهد الأدارسة وقد أشار إلى ذلك "ابن أبي زرع" حيث ذكر أنه في سنة 189 هـ/804م وفدت على إدريس وفود العرب من بلاد افريقية و بلاد الأندلس في نحو الخمسمائة فارس من القيسية و الأزد ومدلج وبني يحصب وغيرهم.[3]كما كان لأحداث قرطبة سنة 202هـ/817م أو ما يعرف بثورة الربضي أيام الحكم بن هشام أن تقاطر عدد كبير من عرب الأندلس نحو عاصمة الأدارسة واستقروا بعدوة الأندلس[4]، وقدر عدد الوافدين حسب رواية ابن أبي زرع إليها بنحو ثمانية ألاف بيت[5] في حين بلغ عدد الأسر العربية الوافدة من القيروان لوحدها صوب مدينة فاس عما لا يقل عن ثلاثمائة بيت [6]وأمام تنامي الهجرة أصبحت المدينة لا تتسع لهذا العدد الهائل من الوافدين إليها[7].

ولم يقتصر توافد العرب نحو مدينة فاس فحسب بل شمل توافد الأسر العربية مدنا مغربية أخرى وقد رصدت لنا المصادر الجغرافية خلال القرنين الرابع و الخامس الهجري/العاشر و الحادي عشر الميلادي، نماذج لتدفق العرب صوب تلك المدن إذ يشير"ابن حوقل" [8].إلى تواجد

---

[1]- ابن عذارى: البيان المغرب ج(1)ص42.

[2]- حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس عصر المرابطين و الموحدين ، ص307.

[3]- الأنيس المطرب، ص 13.

[4]- ابن عذارى: البيان المغرب ج(2)، ص 77.

[5]- الأنيس المطرب، ص 25.

[6]- نفس المصدر والصفحة.

[7]- الجزنائي: كتاب تاريخ مدينة فاس المعروف ،زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق وتعليق ، مديحة الشرقاوي ، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2001،ص49.

[8]- صورة الأرض ،ص65.

تواجد جالية كبيرة من تجار البصرة و غيرهم من عرب المشرق في بعض المدن التجارة خاصة الجنوبية منها التي اتخذوها مقرا للإشراف المباشر على تجارتهم.

ويشير "البكري"[1] "مع بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلى انتشار العرب في بعض المدن الشمالية للمغرب الأقصى كمدينة "سبتة" التي اتخذتها بعض القبائل العربية التي يعود نسبها إلى "صدف" موطنا لها.ومع بداية قيام دولة المرابطين تضافرت عوامل عديدة ساعدت على استقطاب الأسر العربية نحو المغرب الأقصى للاستقرار به ، لما ذاع لمسامع الناس من شيوع الأمن و الاستقرار بعد جهاد دام ربع قرن جني خلاله يوسف بن تاشفين ثمرة أتعابه وبسط سيطرته على المغرب بعد أن قضي على الفوضى الزناتية التي عمت البلاد سابقا[2].

كما نجم عن ضم الأندلس إلى سلطة الدولة المركزية انتعاش المجال الحرفي و الصناعي و التجاري، وبدأ تدفق الأسر الأندلسية على المغرب الأقصى بعد أن استقدم الأمراء المرابطين عددا منهم للاستعانة بهم في بعض الخدمات ، و مما يؤكد ذلك استقدم يوسف بن تاشفين أحسن صناع قرطبة لبناء عدد من الأرحاء[3].ونفس النهج اتبعه ابنه "علي" حينما أراد بناء قنطرة قنطرة وادي تانسيفت وهذا ما يؤكد الإدريسي[4]. في قوله:" وكان أمير المسلمين علي بن يوسف بني على هذا النهر- أي نهر تانسيفت- قنطرة عجيبة البناء متقنة الصنع، بعد أن جلب إلى عملها صناع الأندلس وحملا من أهل المعرفة بالبناء فشيدوها"

إلى جانب هؤلاء العمال و الصناع المهرة حلّ بالمغرب العديد من عرب الأندلس للعمل في ميادين مختلفة نذكر منها على الخصوص الميدان القضائي و الإداري لدرجة أن عددا كبير من الوزراء في عهد المرابطين كانوا عربا أندلسيين مثل"مالك بن وهيب"[5]يضاف إلى هؤلاء أن

---

[1]- كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقيا و المغرب،ص103.

[2]- سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب و الأندلس عهد يوسف بن تاشفين، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت،ط1985،1 ،ص57.

[3]- الجزنائي: زهرة الآس،ص78،76.ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص90

[4]- صفة المغرب،ص60.

[5]- ابن عذارى :البيان المغرب ج 4 ،ص57.

عاصمة الدولة المرابطية كانت قبلة لرجال العلم الأندلسيين وهذا ما جعل "المراكشي[1] يصف إقبال العرب الأندلسيين على عهد علي بن يوسف بقوله:" و لم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك".

كما شهد المغرب الأقصى وبلاد الأندلس على عهد المرابطين دخول عنصر جديد المتمثل في عرب بني هلال، وبدأ التفكير في الاستعانة بعرب افريقية منذ عصر الطوائف لإنقاذ الأندلس لكن هناك من عارض هذا الاقتراح نتيجة لما سمعوه من أخبار التي ألمت بافريقية نتيجة الغزو الهلالي فخافوا على أموالهم ودورهم وملكهم، ولذلك عدلوا عن هذا الرأي وفضلوا الاستعانة بالمرابطين[2].

و بالرغم من ذلك فإن النصوص التاريخية تشير إلى مشاركة القبائل العربية بافريقية ضمن قوات المرابطين التي عبرت إلى الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين[3]، وشكل العرب فرقة من أهم فرق الجيش المرابطي، ينتمي بعضها إلى العرب الأندلسيين الذين استقروا في شمال المغرب الأقصى في عهد الأدارسة[4].ولعل ما يدل مشاركة العرب الأندلسيين وعرب بني هلال وبني سليم الذين تسربوا إلى المغرب الأقصى خلال القرن الخامس الهجري في جيش المرابطين، أن قسما خاصا من الجيش المرابطي كان يحمل رايات اشبيلية و مالقة وغرناطة و غيرها[5]، أضف إلى مشاركتهم في موقعة كنسوجر (consuegra) سنة 490 هـ/1096م تحت قيادة

[1] المعجب في تلخيص اخبار المغرب،ص123

[2]- الناصرى السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولتان المرابطية والموحدية) ،ج(2) تحقيق وتعليق أ / جعفر الناصري ، ومحمد الناصري ،دار الكتاب ،الدار البيضاء 1954ص37.

[3]- حركات ابراهيم: النظام السياسي و الحربي في عهد المرابطين، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء. د.ت،ص155.

[4]- حمدى عبد المنعم: تاريخ المغرب وا لأندلس في عصر المرابطين، 1986،ص297 ، وانظر :أيضا: المريني عبد الحق: الجيش المغربي عبر التاريخ، الرباط ، بوتيه 1967،ص19.

[5]- يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين الموحدين:ترجمة محمد عبد الله عنان مؤسسة الخانجي طبعة ،3 القاهرة 1958/1377 ، ص479. وانظر أيضا: حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي ج4 ،دار نفائس الأندلس بيروت ، ط1،1967 ص379.

يوسف بن تاشفين وفي هذا الصدد يقول ابن الكردبوس: "فجرد (يوسف بن تاشفين) عسكرا جرار من مرابطين، وعرب، وأندلس الشرق و الغرب و قدم عليهم محمد بن الحاج فالتقوا بكنشرة، فكانت بينهم جولات و حملات إلى أن زلزل الله أقدام المشركين وولوا مدبرين فا لتحفتهم السيوف واختطفتهم الحتوف"[1].

ويبدوا أن تجنيد عرب افريقية استمر على عهد علي بن يوسف برسم الجهاد ضد النصارى في الأندلس ويؤكد المؤرخون بلاء بعض الفرسان العرب في معركة إقليش ucles سنة 501هـ/1107م ويتضح ذلك مما أورده ابن القطان حيث يقول:" واستشهد في هذه الوقيعة (أي اقليش)الإمام الجزولي، وكان رجل صدق، وجماعة من الأعيان و العربان"[2]كما تتضمن رواية " الفتح بن خاقان" المعاصر لعصر المرابطين تواجد العرب ضمن الجيش المرابطي إذ يؤكد أنه شاهد بأم عينه جملة من العربان ضمن إحدى الحملات العسكرية المتجهة نحو طليطلة وبلنسية[3].ومع هذا فإننا نجهل عدد العرب الذين عملوا ضمن صفوف المرابطين و الظاهر أنه عدد قليلا بالمقارنة مع العناصر الرومية و الزنجية،وأنهم كانوا يعملون كمتطوعة فقط[4].ونستشف ذلك مما ذكره صاحب الاستقصا أنه في سنة513 هـ/1119م بعد أن استولى المسيحيون على قلعة أيوب في شرق الأندلس جاز على بن يوسف إليها جوازه الثاني" ومعه خلق كثير من المرابطين و المتطوعة من العرب وزناته وسائر قبائل البربر"[5].

ويفهم من خلال قراءة نص"السلاوى" أن عبارة خلق كثير قد تعود على العرب أيضا ولكن الترتيب الموجود في النص (المرابطون، ثم العرب....) يجعلنا نميل إلى أن عدد العرب المتطوعة أقل من عدد المرابطين و بالرغم من ذلك فإنهم كانوا دائما في الصفوف الأولى من جيش المرابطين المجاهد في الأندلس نظرا لما يتمتعون به من شجاعة و براعة في القتال ووفائهم للمرابطين حتى

---

[1]- تاريخ الأندلس قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، نشر و تحقيق احمد مختار العبادي ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية مج(13) مدريد،1965-1966،ص107-108.

[2]- نظم الجمان ،ص66.

[3]- قلائد العقيان تصحيح و تعليق محمد الطاهر ابن عاشور الدار التونسية للنشر مطبعة دار القلم ط1 1990 ،ص162.

[4]- ابن الخطيب: الاحاطة في أخبار غرناطة،مج (4) ص45.

[5]- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،ج(2) ،ص61.

آخر أيامهم ورغبتهم في كسب ثمار النصر وحدهم، وهذا ما يتضح لنا فيما أورده صاحب "البيان المغرب"[1]أنه في سنة ثلاثين وخمسمائة أغزى تاشفين بن علي بن يوسف الروم في شعبان المكرم بعدما استحضر زعماء المرابطين ونظرا ما عندهم في لقاء عدوهم، فقالوا:" الدولة لنا فأمّا تركها أو حمايتها لا يتقدّم منا أحد إلى لقاء عدونا، فإذا استشهدنا فالأمر لمن شاء الله بعدنا، ثم دعا العرب فقالوا: أرم العدو بنا ولا تشرك أحد معنا، وسيرى الله عملنا"، ومن الأسر العربية التي كانت تقطن المغرب نذكر منها مثلا: أسرة بني حنين وهم من كنانة وبني عشرين وهم من عرب الخزرج، وبيت بني حدور من الأنصار.هذا فضلا بيت بني الملجوم التي أنجبت أحد قضاة مكناسة و مراكش في العصر المرابطي و غيرها من القبائل العربية التي انتشرت في كل من حاحة ورجراجة وأزمور و اختلطت مع العنصر البربري[2].

بــ – عـــــرب الأنـــــدلس

ومادمنا بصدد الحديث عن العنصر العربي في عصر المرابطي فإن ذلك يتوجب علينا التطرق إلى عرب الأندلس، على اعتبار أنه كان يتبع الإدارة المركزية للدولة المرابطية وسوف يقتصر حديثنا في هذا المجال عن فترة الدراسة دون العودة إلى المراحل الأولى للتواجد العربي في الأندلس الذي تعود أساسا إلى أيام الفتوح الأولى مع نهاية القرن الأول الهجري و ما تبعه من هجرات عربية. لمختلف فروعها وبطونها وما ترتب عنها من نتائج ايجابية كانت أم سلبية إلى غاية العصر المرابطي الذي تميز فيه عرب الأندلس بخاصية تجلت في خفة حدة النعرات القبلية و العصبية التي ظلت تطبع العلاقات الاجتماعية منذ مطلع الفتح إلى القرن الرابع الهجري، بعد أن تناسى العرب أصولهم المشرقية وتخلوا عن مظاهر حياة البداوة و التأثير القبلي الذي خيم عليهم في شبه الجزيرة العربية[3].

ولعل ما ميز الفترة المرابطية أن المصادر لا تشير إلى أية هجرة عربية مشرقية نحو الأندلس إذا ما استثنينا هجرة قبائل بني هلال الذين كانوا قد أنهوا حروبهم في افريقية و المغرب الأوسط و لم

---

[1]- ابن عذارى: ج(4)،ص94.

[2]–ابراهم القادري بوتشيش: مباحث ،ص38-39.

[3]- عصمت عبد اللطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين و مستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني 510هــ/ 546 هـ /1116م /1151م، دار الغرب الإسلامي ببيروت ،ط1988،1،ص247-249.

يجدوا مجالا آخر غير الأندلس لإفراغ طاقتهم القتالية خاصة و أنهم وجدوا في الدولة المرابطية دولة حرب تشجع على قدوم مثل هذه العناصر لاستعمالها في معاركها ضد نصارى الأندلس[1].

أما الفرضية الثانية لانتقال العرب نحو الأندلس فتمثل في القبائل العربية التي كانت تتخذ من المغرب الأقصى موطنا لها ودخلت هي الأخرى ضمن تشكيلات الجيش المرابطي عدا هذا لا نجد إشارات تبين إن كانت هناك هجرات عربية صوب الأندلس.وعلى العكس من ذلك كان للتحرشات النصرانية على مدن الثغور في الأندلس خلال العصر المرابطي أثر على استقرار السكان حيث اضطرت الكثير من الأسر العربية إلى الجلاء عن المناطق التي كانت تطالها التهديدات النصرانية متخذة اتجاها من الشمال صوب الجنوب وبدا ذلك واضحا خاصة أثناء حصار الفونسوا لمدينة طليطلة لمدة سبع سنوات ثم سقوطها في مستهل صفر 478 هـ/1085 م.وقد أحدث سقوط طليطلة دويا هائلا في العالم الإسلامي الغربي، وبات المسلمون في حال من الضياع التام لا يعرفون كيف يتصرفون، وبدأوا بمغادرة المناطق المتاخمة لألفونسوا وافقرت طليطلة من سكانها الذين هجروها جماعات إلى بطليوس هربا من الاضطهاد وحفاظا على دينهم[2] ويصف لنا ابن "الكردبوس"[3]حال ملوك الطوائف وقتئذ بقوله "وذل الرئيس و المرءوس، وافتقرت الرعية، وفسدت أحوال الجميع بالكلية وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية وأذعن من بقي منهم خارج الذمة إلى أداء الجزية". وقد صور الشاعر الأندلسي عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور" بابن العسال" الآثار المتوقعة لمصير الإسلام في الأندلس بعد سقوط طليطلة حاثا أهلها على عدم الإقامة فيها[4].كما غادر سكان بلنسية مدينتهم نتيجة الحصار الذي طبقه الكمبيادور عليها و الذي دام أكثر من عشرين شهرا وتسبب ذلك في ظهور

---

[1]- ابراهيم القادري بوشيش: مباحث ،ص37.

[2]- سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب و الأ ندلس، عهد يوسف بن تاشفين ،دار النهضة العربية للطباعة و النشر، ط1 ،1985،ص60-61.

[3]- تاريخ الأندلس قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ،ص77.

[4]- مما قاله الشاعر الأندلسي عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال الطيطلي

يا أهل أندلس حثّوا مطيّكم *** فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى *** ثو ب الجزيرة منسولا من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا *** كيف الحياة مع الحياة في سفط

انظر المقري : نفح الطيب مج(4)تحقيق إحسان عباس دار صادر بيروت1968، ص352.

مجاعة فيها لدرجة أن الناس أكلت الجلود و لحوم الدواب، ولما دخلها اجل من بها من المسلمين و احل محلهم النصارى[1].

أمام هذا الوضع عرفت خريطة الأندلس حدوث تغييرات هامة في أماكن استقرار عرب الثغور من الشمال إلى الجنوب.ومما يؤكد أهمية العنصر العربي في الأندلس نجد أن ابن حزم خصص كتاب بأكمله لذكر القبائل العربية التي استقرت فيه ويظل أهم مصدر يمدنا بأسماء القبائل العربية في الأندلس و أماكن إقامتها و تمكن أهميته خاصة انه عاش قريبا من عصر المرابطين، كما أمدنا "ابن غالب" في كتابه "فرحة الأنفس" حسب رواية المقري بمعلومات لا تقل أهمية عن ابن حزم ومن خلال تتبع هاذين المصدرين يمكننا تحديد بعض الأسماء للقبائل العربية التي اتخذت من الأندلس موطنا لها نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر بنو القليعي بقرية صالحة قرب مالقة، و بني حمديس و الأصبحيون بقرطبة، وبنو هديل في تدمير،بنوهوازن و بنوزهرة في اشلبية ،و اليحصبين و المخزومين وبني سعيد في قلعة بني سعيد التي سميت باسمهم[2].كما ذكر" الإدريسي"[3] أن سكان مدينة" شلب" وقراها عرب من اليمن و غيرها و ميزهم أنهم يتحدثون باللغة العربية الفصيحة وينظمون الشعر وهم "فصحاء نبلاء خاصتهم و عامتهم."

ثالثـــا:المولديـــــــن

إلى جانب البربر و العرب هناك عنصر ثالث يشكل جزءا كبيرا من سكان الأندلس يطلق عليهم اسم المولدين و يعني السكان الأصليين المنحدرين من أصل اسباني ممن اعتنقوا الإسلام أو ولدوا من أب مسلم فنشئوا على الديانة الإسلامية و تعود أصولهم إلى الروم و الجلالقة

[1]– ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ،ص 103. ابن عذارى: البيان المغرب ج(4)،ص38. وانظر أيضا سعدون عباس نصر الله : دولة المرابطين في المغرب و الأندلس عهد يوسف بن تاشفين،ص138،139.

[2]– انظر الملحق الخاص بالقبائل العربية في الأندلس و أماكن استقرارها المستخرجة من كتابي ابن حزم وابن غالب في الملاحق.

[3]– صفة المغرب ،ص180.

والقشتاليين والأراغونيين و منهم من كان من اليهود الذين استقروا في الأندلس قبل فتحها[1].وقد لوحظ أن المولدين كانوا أوفر العناصر حركة، وأكثرها أهمية في الحياة العامة وفي الفاعلية الاقتصادية للأندلس حيث اشتهر الكثير من المولدين بالقوة و النفوذ و الثراء العظيم خصوصا في اشبيلية و امتهنوا عدة مهن كتربية الماشية و الزراعة في الأرياف، وصيد الأسماك، أما في المدن فقد زاولوا حرفا مختلفة، واشتغلوا بالتجارة، فكانوا بذلك أكثر العناصر نشاط وأكثرهم تلاؤما مع ظروف الحياة في البلاد الأندلسية[2].

وبإلقاء نظرة على أسماء المولدين يتضح لنا أن البعض منهم تعصبوا لأصلهم الاسباني، فاحتفظ كثير منهم بأسمائهم القديمة أمثال بنوا نجلين Angelio وبنو الجريح Jarge و بنوالقبطرنة Kabturno وبنوا شبرقة Sabrica وبنومردنيش Martinez وبنو غرسية Garcia[3]... الخ . و الجدير بالملاحظة أن المولدين كثيرا ما اتحدوا ضد العرب، وتمردوا على سلطانهم ودخلوا معهم في صراع مرير استفحل أمره في عهد "الأمير عبد الله بن محمد" الذي تولى الإمارة في سنة 275 هـ/888م، 300هـ/912م، وقد ساقت لهم الظروف أخطر شخصية في تاريخ المولدين هو "عمر بن حفصون"[4] الذي استمر البلاء على يديه ثمانية وعشرين عاما حيث استمر تمرده إلى أوائل خلافه عبد الرحمان الناصر 300 هـ/912م،350 هـ/961م، ولم يتم التخلص منه إلا في سنة 305 هـ/917م[5] غير أنه سرعان ما خفت

---

[1]- حسن احمد النوش : التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي دار الجيل بيروت،ط،1،1992 ،ص33.وانظر أيضا: عصمت عبد اللطيف دندش : الأندلس في نهاية المرابطين و مستهل الموحدين،عصر الطوائف الثاني،510ص249.

[2]- حسن احمد النوش : نفس المرجع و الصفحة.

[3]- سامية مصطفى مسعد: صور من المجتمع الأندلسي رؤية من خلال أشعار الأندلسيين و أمثالهم الشعبية الناشر: عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1998ص34.

[4]- هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفرا الاسلمي، كان أبوه من مسالمة أهل الذمة و ينتمي الى أسرة فقيرة اعتنقت الإسلام منذ أيام جده جعفر الاسلمي في عهد الأمير الحكم بن هشام.وقد تزعم عمر بن حفصون ثورة المولدين بكورة رية ضد الدولة الأموية منذ عهد الأمير محمد وظلت ثورة ابن حفصون مشتعلة حتى العقد الثاني من عهد الخليفة الناصر حيث تم إخضاعها و القضاء عليها سنة 315 هـ/927 م. راجع: ابن عذارى: البيان المغرب ج(2)،ص 104-106. وانظر أيضا سامية مصطفى مسعد: صور من المجتمع الأندلسي ،ص36.

[5]- ابن عذارى: نفس المصدر ،ص104-106-171.

ثورات المولدين فيما بعد وتمكنوا من تأسيس عدة إمارات طائفية في عصر ملوك الطوائف إلا أن الاجتياح المرابطي للأندلس أتى على معظم إماراتهم و لم يبق لهم إلا بعض الإمارات الثغرية كإمارة بني هود[1]

ثالثا: الأقلــيات الأخـــــرى

أ ــ الصقــالبـــــة والـــروم

المقصود بالصقالبة في الكتب العربية سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التي تمتد أرضيها من بحر قزوين إلى البحر الأدرياني[2].على أن كلمة صقلب exlave فرنسية قديمة و معناها:عبد أو رقيق وهي التسمية التي أطلقها الجغرافيون العرب في العصور الوسطى على الشعوب السلافية عامة لأن بعض الجرمان و الاسكندنافيين أبوا على سبي الشعوب السلافية وبيع رجالها و نسائها إلى عرب الأندلس و لذلك أطلق عليهم اسم الصقالبة[3] ويعرفون أيضا بأسماء عديدة مثل الفتيان و الخلفاء و الخرس أو الخصيان و المجابيب وهذه كلها نعوت عادة ما تتردد ذكرها في المصادر الأندلسية فسموا بالخلفاء لأن هذه التسمية كانت تطلق على أكابرهم وبالخرس لأنهم لم يكونوا يعرفون لغة البلاد في بداية أمرهم فكانوا أشبه بالخرس[4] وهناك من يسميهم بارستقراطية العبيد[5].

---

[1]-ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ ،ص44.

[2]- ابن حوقل : صورة الأرض،ص106.

[3]-نفس المصدر و الصفحة. يطلق على كل الصقالية (الخصيان) وهذا لا يزيد على كونه اصطلاح، وحسبنا في ذلك أن بدر بن احمد الصقالبي، وصيف الأمير عبد الله بن محمد 275 هــ/888م،300هــ/912م.يوصف في المصادر بأنه خصي مع أنه أنجب ولدين. انظر: ابن الابار: الحلة السيراء ج(1) تحقيق حسين مؤنس القاهرة ، 963 1،ص252.

[4]-المقري: نفح الطيب مج(1)،ص342،ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)، قسم 3 مج(1، تحقيق احسان عباس دار الثقافة، بيروت لبنان،1979،ص112.وانظر أيضا محمد بنشريفة: الأندلسيون من خلال أدا بهم، المعهد الجامعي للطبع الرباط 1972،ص1.

[5]- ادم ميتز: الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ج(1) القاهرة الطبعة3 ،1957،ص280.

والمعروف أن كلمة الصقالبة قد اتسع استعمالها لدى العرب فأصبحت تشمل كل الأرقاء الذين يجلبون من أيه أمة من الأمم المسيحية[1] وقد استخدم الأمويون الصقالبة في الخدمة داخل قصورهم بصفة عامة وخدمة الحريم بصفة خاصة[2].وكان الحكم بن هشام الربضي 180 هـ/796م، 206 هـ/821م، قد أعلا قدرهم عندما اتخذ منهم حرسه الخاص[3].وقد أخذ عدد الصقالبة يزداد فبلغوا في القرن الرابع الهجري/العاشر ميلادي في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ثلاثة آلاف وسبع مائة وخمسون صقلبيا في حين كان عدد الخادمات الكبريات و الصغريات بقصر الزهراء ستة ألاف وثلاثمائة خادمة[4] ثم ارتفع هذا العدد حتى بلغ ثلاثة عشر ألف وسبعمائة و خمسون من الرجال فقط[5].

و لم يكن استخدام الصقالبة قاصرا على الخلفاء و الأمراء فقط بل استكثر أثرياء الأندلس من الصقالبة وذلك بقدر زيادة ثرواهم.هذا وقد جاء أكثر الصقالبة أطفالا من الجنسين إلى الأندلس حيث ربوا تربية إسلامية ودربوا على أعمال القصر[6].وعلى الرغم من أن الصقالبة لم يذوبوا في في المجتمع الأندلسي مثل العرب و البربر فقد استطاع عدد منهم أن يحتل مكانة عالية في المجتمع الأندلسي[7] فمنهم من وصل قائدا للجيش أو صاحب شرطة، وزاد نفوذ هؤلاء لما سقطت الدولة الأموية وانقسمت الأندلس إلى إمارات صغيرة متناحرة عرفت باسم دول الطوائف فاستأثر الصقالبة بشرق الأندلس وانشئوا فيه الممالك فكان في بلنسية الصقلبيان مبارك و المظفر وفي دانية مجاهد و في المرية خيران و زهير وفي طرطوشة لبيب[8].

---

[1]- سامية مصطفى مسعد: صور من المجتمع الأندلسي ،ص23.

[2]- ابن الابار : الحلة السيراء ج(1)،ص252-253.

[3]- المقري: المصدر السابق، 341-342 وانظر أيضا ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب ، ج(1) ص39.

[4]- ابن عذارى: البيان المغرب ج(2)،ص232.

[5]- المقري المصدر السابق، ص 145، 384 .

[6]- صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة، بيروت 1965،ص72 . احمد مختار العبادي: الصقالبة الصقالبة في أرض اسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعوبية مدريد 1953،ص11.

[7]- ابن الابار :الحلة السيراء ج(1)،ص258.

[8]- ابن عذارى : البيان المغرب ج(3)،ص158-160-163-166-169.

أما في المغرب الأقصى فقد ورد ذكر لانتشار الصقالبة في إمارة نكور خاصة أيام سعيد بن صالح .ويبدو أنهم كانوا من الكثرة بحيث استطاعوا قيادة تمرد ضده، انتهى بفشلهم[1].وفي شمال المغرب الأقصى دائما أوكلا بنوحمود الأدارسة حكم سبتة وطنجة إلى "من وثقوا بهم من مواليهم الصقالبة"[2].

ويشير أحد الدارسين [3] إلى أن المرابطين استخدموا الصقالبة حرسا لهم، وذلك استناد إلى رواية صاحب "الحلل الموشية"[4].القائلة بشراء يوسف بن تاشفين من " الأندلس... جملة من العلوج، فأركبهم، وانتهى عنده منهم مائتان وخمسون فارسا" وهي الرواية نفسها التي وردت لدى ابن "عذارى[5]" إذ يقول:" وبعث إلى الأندلس فابتيع له بها جملة من الأعلاج.... وانتهى عنده منهم شراء ماله مائتان وأربعون فارسا" وإن كانت الروايتين مختلفتين حول العدد حيث حددها الأول بمائتين و خمسون و الثانية بمائتين و أربعون علجا، فإنهما تتفقان حول استعمال لفظ العلوج أو الأعلاج، وليس الصقالبة وإن كان محقق كتاب" الحلل"[6] قد نبه إلى أن لفظ العلوج يضم الصقالبة وسواهم من الرقيق الأوروبي الأبيض البشرة في حين يذهب البعض[7] إلى أن مصطلح الصقالبة اختفى من معظم المصادر التاريخية خلال العهد المرابطي حيث أصبحت تستعمل بدلها مصطلحات الروم و الحشم و العلوج.

ويبدوا أن المرابطين لم يقتصروا في شرائهم للصقالبة على العنصر الرجالي فحسب بل تعداه إلى العنصر النسوي ولعل ما يؤكد ذلك أن بعضهن كان من ضمن الهدايا التي أهداها يوسف بن تاشفين إلى الأمير أبي بكر بن عمر بعد عودته من الصحراء يقول ابن عذارى: و بعث له

---

[1]- البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقيا و المغرب ،ص93-94.

[2]- الناصري السلاوي : الاستقصاء ،ج(2)ص30.

[3]- حركات ابراهيم : النظام السياسي و الحربي في عهد المرابطين، منشورات مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء.د.ت.ص149،150.

[4]- مؤلف مجهول :ص25.

[5]- البيان المغرب ج(4)،ص23.

[6]- مجهول : المصدر السابق: ص25،حاشية32.

[7]- ابراهيم القادري بوتشيش : مباحث ،ص46.

عشرين جارية أبكارا و جملة من خدم الخدمة[1].والراجح أن إقبال يوسف بن تاشفين على شراء تلك المجموعة من الأعلاج و اتخاذهم حرصا خاص له القصد منه هو فرض هيبته وملكه تحسبا لأي طارئ وهذا ما يفهم مما ذكره صاحب" البيان المغرب [2]"في قوله:"واركب الجميع فغلط حجابه وعظم ملكه". فما كان على أبي بكر بن عمر إلى الرضوخ لإدارة يوسف وتسليم زمام السلطة له بعدما رأى "كثرة جيشه" وعلم "أنه مغلوب عليه".[3]في حين تشير المصادر إلى أن عليا بن يوسف المولود من أم رومية يعتبر أول من استخدام الروم وأركبهم في المغرب[4]، وهذا ما يعد تناقضا مع ما ذكرناه سابقا من اتخاذ يوسف بن تاشفين للأعلاج حرسا له.

وليس من المستبعد أن يكون القصد مما ذكره ابن عذارى هو التوسع في استخدامهم في عهد علي بن يوسف ، حيث لم يصبح استخدامهم يقتصر على الحراسة و العمل في الجيش بل تعدى إلى مجالات أخرى كجباية الأموال حسبما أشار إليه "النويري[5] " في قوله:" إن لأمير المسلمين (أي علي بن يوسف) عدة من المماليك الفرنج و الروم، وإنهم يصعدون إلى هذا الجبل في كل عام مرة يأخذون مالهم فيه من الأموال المقررة من جهة السلطان".

و لم يستغن الأمراء المرابطون عن خدمة الأعلاج إلى آخر أيامهم إذ وردت إشارات في المصادر تؤكد بلاء بعض العناصر منهم مثل الروبيتر (المعروف بالعلج الأعرج) إلى جانب تاشفين بن علي في الدفاع عن دولة المرابطين أمام الموحدين في عدة معارك إلى أن قتل في المعركة التي خاضها مع الموحدين بتلمسان سنة 539 هـ/1144 م[6].

---

[1]- ابن عذارى :البيان المغرب ج(4)،ص26.

[2]- نفسه،ص23.

[3]- نفسه،ص24.

[4]- نفسه،ص101-102.

[5]- النو يري : نهاية الأرب مج(11) ج(24)،ص155. وانظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ مج 9 ،ص 198

[6]- ابن عذارى : المصدر السابق ،ص98 ،103 وانظر عن الدور الذي قام به الروبيتر: حمدي بن المنعم محمد حسين: تاريخ المغرب و الأندلس في عصر المرابطين دولة علي بن يوسف المرابطي ،ص115-119-123. وانظر أيضا :عصمت دندش: الأندلس في نهاية دولة المرابطين و مستهل الموحدين،ص143.

مما سبق يتضح لنا الصقالبة أو الروم برغم قلة عددهم إلا أنهم لعبوا دورا هاما في المجتمع المرابطي خاصة و أنهم كانوا وصلوا إلى مراتب عالية في هرم السلطة الإدارية أو العسكرية.

ب ـــ –السودانيون

ارتبط إقبال المغاربة على عبيد السودان الغربي بالعلاقات التجارية بين بلاد المغرب و إفريقيا الغربية ، التي مهد لها المرابطون بانطلاقهم من الصحراء وحفاظهم على نفوذهم فيها وتأمينهم للطرق التجارية المارة بأراضيهم واستقرار العلاقات بين غانة وبلاد المغرب، كلها عوامل شجعت على تدفق السود (عبيد وأحرار) على بلاد المغرب وأول ذكر للسود في العصر المرابطي يعود إلى أيام الأمير يوسف بن تاشقين بعد أن أقدم هذا الأخير على شراء مجموعة من السودانيين بلغ عددهم نحو ألفين فارس[1]، ولا نعتقد أن الأمر اقتصر على هذا العدد بالنظر إلى الصلات القائمة بين المرابطين وغانة خاصة وأن لنا الأرقام التي تقدمها لنا المصادر المعاصرة لفترة الدراسة تكشف عن تواجد أعداد كبيرة للعنصر السوداني من المجندين في حملات الدولة المرابطية و حروبها وهذا ما يرجح استمرار تدفق هؤلاء على المغرب سواء عبر التجارة أم الأسر. ويكفى أن نشير إلى مشاركة زهاء أربعة ألاف جندي في معركة الزلاقة الشهيرة[2].ولجوء الأمير المرابطي على بن يوسف إلى تقسيط عدد الجند السودان الذي كان على كل مدينة تقديمه للدولة، وتحمل نفقات تجهيزه بالسلاح و المال، وذلك بغية التصدي للمد الاسباني في الأندلس، فكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم برزقهم وسلاحهم و نفقاتهم، يخرجون ذلك من أموالهم ففعلوا[3].

ومما يفيد الحضور القوي للعنصر السوداني في العصر المرابطي تلك الإشارة التي أوردها ابن عذارى أثناء حديثه عن الهجوم الموحدي بقيادة عبد المؤمن بن علي سنة 524 هـــ/1129م على مدينة أغمات أين قتل الموحدون "في يوم واحد نحو ثلاثة آلاف أكثرهم سودان"[4]. وبتتبعنا وبتتبعنا للنصوص التاريخية يتضح لنا أن تواجد العنصر السوداني في مجتمع المغرب و الأندلس

[1]- ابن عذارى: البيان المغرب ج(4)،ص 23، مجهول : الحلل الموشية ،ص25.

[2]- المقري :نفح الطيب مج(4) 367-368.

[3]- ابن القطان: نظم الجمان،ص152.

[4]- ابن عذارى : المصدر السابق ص84.

خلال عصر المرابطين لا يقتصر على استغلالهم كطاقة حربية تستجيب لحاجة الدولة لهم في الغزو و الجهاد فقط بل تعدى استخدامهم لمجالات أخرى كاستعمالهم كحراس و أدلاء للقوافل التجارية و هذا ما نستشفه من سياق حديث "الإدريسي"[1] عن تجار مدينة أغمات حيث يقول:" وما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل و السبعون و الثمانون جملا كلها موقرة" وبنوع من المبالغة يشير "البكري"[2] إلى استخدام تجار مدينة أودغست للخدم حتى أن الواحد منهم يمتلك "ألف خادم أو أكثر ".

و لم يقتصر استخدام المرابطين للسود على فئة الرجال لوحدهم بل شمل فئة النساء السودنيات اللواتي تم تستخيرهن للعمل في الخدمات المنزلية أو كجواري للمتعة و الترفيه حيث تشير النصوص إلى استخدام النسوة السودانيات كطباخات لمهارتهن فيه و منهن من تألق خاصة في صناعة أنواع مختلفة من الحلويات كالجوزينقات و القطايف و غيرها فبيعت الواحدة منهن بمائة مثقال أو أكثر[3].أما اللواتي اتخذت للمتعة و الترفيه قد طغى الحديث خاصة عن جواري مدينة أودغست على غيرها من المناطق الأخرى.و أفاضت المصادر في الثناء عليهن ومما جاء في وصفهن أنهن " جوار حسان الوجوه بيض الألوان منثنيات القدود لا تنكسر لهن نهود لطاف الخصور ضخام الأرداف واسعات الأكتاف ضيقة الفروج المستمتع بإحداهن كأنه يتمتع ببكر أبدا"[4].وبقراءة متأنية للنص السابق الذي يتقاسمه كلا من" البكري "المعاصر لفترة الدراسة، ومن بعده" الحميري" في وصف تلك الجواري بأنهم "بيض الألوان" يتبادر إلينا هذا التساؤل.هل يتعلق الأمر هنا بسودانيات أم بمغربيات مقيمات بمدينة أودغست؟

---

[1]- صفة المغرب ،ص66.

[2]- كتاب المغرب،ص168 و انظر أيضا : ابراهيم القادري بوتشيش: الإسلام السري في المغرب العربي، الناشر سينا للنشر،القاهرة، ط (1)1995ص235

[3]- البكري :نفس المصدر،ص158.

[4]- البكري :نفس المصدر والصفحة ، وانظر نفس الوصف لدى الحميري مع الاختلاف في البسيط في بعض المفردات الحميري: ا لروض المعطار، ص64.

إن النصوص التاريخية لا تسعفنا في الاجابة عن هذا التساؤل بشكل دقيق، وإن كانت هناك إشارات تؤكد أن سكان مدينة أودغشت في زمن البكري هم من "زناتة و" العرب"[1] وعليه فإنه يمكننا القول أن الأمر ربما يتعلق بجواري مختلطة الأصول بربرية و عربية و سودانية .بقي أن نشير إلى أن المصدر الرئيسي للعناصر السودانية المشكلة للمجتمع المرابطي كانت ترد إلى المغرب الأقصى من بلاد" غانة" لمجاورتها معها أو من أرض" زغاوة، "وقد وصف لنا الإدريسي[2] الطريقة المتبعة من أهالي المدن المجاورة لأهل زغاوة، وكيفية سرقة أبنائهم حيث يعمد جيرانهم إلى سرقتهم ليلا و إخفائهم مدة معينة ثم يبيعونهم إلى التجار الوافدين عليهم بأثمان بخسة ويخرجونهم إلى المغرب الأقصى حيث "يباع منهم في كل سنة أمم وأعداد لا تحصى".

أما عن أماكن تمركز هذه الفئة فالواضح أنهم كانوا منتشرين في سائر أنحاء المغرب الأقصى خصوصا ونحن ندرك أنهم كانوا يشكلون قسما من الجيش المرابطي، غير أن نسب تمركزهم كانت تتفاوت من مدينة إلى أخرى.فتجدهم مثلا يشكلون نسبة كبيرة بمدينة" سبتة "حيث أثار حضورهم بها مضايقة أهلها إذا ورد سؤال عن السودان و السودانيات الذين يجتمعون للعب في الأعراس و أفتى في هذه النازلة الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأموي ت (527 هـ/1132م) أنه ينبغي أن يمنعوا من ذلك و يزجروا[3].و حسبنا أن سبب تواجدهم بكثرة مدينة "سبتة" يعود أساسا لكونها إحدى مناطق عبور القوات المرابطية إلى الأندلس[4]. و ينفرد "البكري" المعاصر لفترة الدراسة بإشارة مفادها اقتصار سكان بعض المناطق من المغرب الأقصى على السودانيين لوحدهم دون غيرهم و هذا ما نستشفه من قوله: " ولا يسكن بوادي سفدد أبيض اللون إلا اعتل وقلّ ما يسلم من علّته, وإنما يسكنه السودان, وإذا رأوا رجلا أبيض اللون قد دخل عندهم ينادي بعضهم بعضا ميز ميز"[5].

---

[1]- البكري كتاب المغرب ،ص168.وانظر أيضا : عبد الالاه بنلمليح: الاسترقاق في المغرب الإسلامي بين الحرب و التجارة ،ط1 منشورات كلية الآداب و العلوم الانسانية ، وجدة، المغرب، 2003 ص126

[2]- صفة المغرب،ص33.

[3] – القاضي عياض: مذاهب الحكام في نوازل الأحكام: تحقيق محمد بن شريفة ،ط ، دار الغرب الإسلامي بيروت 1990 ص87

[4] – ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص93

[5]- البكري :المصدر السابق ص 87

ولم يقتصر تواجد العنصر السوداني على المغرب فحسب بل تعداه إلى الأندلس أيضا لأن الأمراء المرابطين قد شكلوا منهم فرقا كلفت بالمهمات الصعبة خاصة في نهاية المعارك لانتزاع النصر وضرب قوى العدو و بلغ عددهم في معركة الزلاقة لوحدها أربعة آلاف اسود و قد نقل "المقرى" و صفا كاملا لبسالتهم فقال: "و لم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان, فترجل منهم زهاء أربعة ألاف، و دخلوا المعترك بدرق اللمط، و سيوف الهند، و مزاريق الزان فطعنوا الخيل فرمحت بفرسانها، و احجمت عن أقرانها، و تلاحق "الأذفونش" بأسود نفذت مزاريقه، فأهوى ليضربه بالسيف، فلصق به الأسود، و قبض على عنانه ،و انتضى خنجرا كان متمنطقا به، فأثبته في فخذه، فهتك حلق درعه، و نفذ من فخذه مع بداد سرجه، وكان وقت الزوال، وهبت ريح النصر"[1].

ويبدوا أن هذه العناصر كانت تثير قلاقل في بعض المناطق الأندلس و لذا أنكر الناس على جماعة السودان بعض صفاقم الذميمة, لدرجة أن "ابن عبدون" طلب من المعدين في المراسي "ألا يجوزوا أسود.......ممن يعرف أن له تعديا على أموال الناس"[2]. وربما منهم من تسبب حتى في اندلاع بعض الثورات كما حدث في مدينة قرطبة سنة 514هـ/1120م[3]. وربما كان هذا هو السبب في أن بعض قضاة الأندلس لم يخفوا مشاعرهم و تعصبهم ضد العنصر الأسود في شبه الجزيرة, فقد روى عن قاضي قرطبة "احمد بن حمدين"(ت 847 هـ/1443م) أنه حضر إلى مجلس حكمه أسود يخاصم زوجة له بيضاء فأوحى إليه الموقف بقوله الساخر:

رأيت غرابا على سوسنه *** فكان بشيرا بسوء السّنة

فيا مزود الساج زد عزة *** و يامكحل العاج زد مهونة[4]

---

[1]- المقرى : نفح الطيب مج (4) ص 367-368

[2] - رسالة في آداب الحسبة والمحتسب ص 56

[3] - يرجع "ابن الأثير" سبب اندلاع هذه الثورة إلى أن أحد عبيد أبي بكر بن يحي مد يده إلى امرأة و امسكها, فاستغاثت, فأغاثها الناس و كانت سبب في وقوع الفتنة بين الحامية المرابطية بقرطبة و بين الأهالي. انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ مج (9) ص187-188

[4]- ابن سعيد: رايات المبرزين و غايات المميزين, تحقيق د. النعمان عبد المتعال القاضي، طبعة القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1973 ص68

ومهما يكن من أمر فإنه لا يخطر على البال أن مثل هذه المشاعر المتحاملة على السود، لم تكن قاعدة اجتماعية سائدة، بل كانت على التأكيد حالات فردية في شبه الجزيرة.

ج – الأغـــــــزاز

اختلفت الروايات التاريخية حول تواجد العنصر التركي في المغرب و الأندلس في عهد المرابطين إذا أننا لا نجد أية معلومات في المصادر تشير إلى تواجد هذا العنصر ضمن مجتمع المغرب إلا لدى" أبي زرع"[1]و" الناصرى"[2] الذي أشار إلى أن" يوسف بن تاشفين" استخدم الأتراك الغز ضمن جيشه و يبدو أن الذي انفراد بهذه المعلومة هو" ابن أبى زرع" و ليس من المستعبد أن يكون" الناصري "قد نقل عنه ما عدا هذا لا نجد أية إشارة عنهم خلال فترة الدراسة و إن كان" إبراهيم القادرى بوتشيش "[3] يشير إلى تواجدهم في الأندلس خلال المرحلة الثانية من الحكم المرابطي وحدد منطقة تمركزهم في مدينة غرناطة معتمد على وثائق الجنيزة اليهودية.ويشير إلى أن هذه العناصر نظرا لمحدوديتها في ظل مجتمع واسع لم يكن لها دور في مناحي الحياة الاجتماعية و الاقتصادية غير أنه لم ينف أنها شريحة من الشرائح الاجتماعية المشكلة للمجتمع المرابطي لكن بنسبة أقل مقارنة مع باقي العناصر الأخرى.

---

[1]- الأنيس المطرب: ص89

[2]-الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى ج (2) ص25

[3]-مباحث ص51

الفصـــــل الثـــــاني

أهل الذمة

التعريف بأهل الذمة

أولا: الطائفة المسيحية (النصارى)

التواجد المسيحي في المغرب والأندلس ووضعيتهم

وضعية النصارى الاجتماعية والدينية

الوضعية الاجتماعية

عملية تغريب المعاهدة إلى المغرب وأبعادها

الوضعية الدينية للنصارى في العصر المرابطي

دور النصارى في المجتمع المرابطي

ثانيا: الطـــــائفة اليهـــــودية.

التواجد اليهودي في المغرب والأندلس

وضعية اليهود الاقتصادية والاجتماعية والدينية

وضعيتـــهم الاقتصـــــــادية

وضعية اليهود الاجتماعية والدينية

إسهامات اليهود في الجانب الفكري

أهل الذمة:

تناول في هذا الفصل فئة أخرى من الفئات المشكلة للمجتمع المرابطي وقضية العلاقات بين المرابطين وبين الطوائف الأخرى غير الإسلامية، ممن تعارف المسلمون على تسميتهم بالذميين، وهم أهل الكتاب من النصارى واليهود، ومن لهم شبهة بأهل الكتاب من المجوس، نظرا لأنها تتعلق بطوائف تمتعت بحضور قوي وفعال في العهد المرابطي، كما حظيت بمكانة جعلتها في أحيان كثيرة تستبد بأمور المسلمين، وتحاول تقويض دولتهم.

التعريف بأهل الذمة:

الذمة في اللغة تعني: العهد والأمان والكفالة والحق والحرمة[1] أما في الاصطلاح فيقصد بأهل الذمة غير المسلمين ممن يلتزمون بأداء الجزية، وهؤلاء ذمة مؤبدة بمقتضى التزامهم بأحكام القانون الإسلامي، لأنهم يقيمون إقامة دائمة في الدار التي يجري عليها حكم الله والرسول، ومن ثم فإن النظام العام للدولة يحتم سريان القانون الإسلامي عليهم[2] وهم بذلك يعدون من مواطني الدولة الإسلامية، فصفة المواطن تشمل المسلم والذمي على حد سواء.

أولا: الطائفة المسيحية (النصارى).

إن الدارس لتاريخ الطائفة المسيحية (النصارى) أو ما يعرف بالمستعربين في الأندلس في عصر المرابطين تعتريه صعوبات جمة ويجد نفسه في حيرة من أمره، وهذا راجع في الأساس إلى سببين أساسيين:

الأول:يتمثل في نقص النصوص التاريخية التي يمكن العودة إليها لإماطة اللثام عن كثير من القضايا الخاصة بهذه الفئة، وهذا ما أشار إليه بعض المؤرخين المحدثين.[3]

والثاني: يكمن في كثرة وتنوع المصطلحات التي تستخدمها المصادر التاريخية لما تشير إلى هذه الطائفة ولا بأس من استعراضها هنا حتى تتضح الرؤى ويزيل هذا اللبس فنجد مثلا " ابن

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، مج (12) تحقيق ومراجعة عامر أحمد حيدر، عبد المنعم خليل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2002، ص 258.

[2] -ابن الحاج: المدخل، مج(1) قرأه وضبط نصه، حسن أحمد عبد العال، المكتبة العصرية، صيد، بيروت، ط 1 2005، ص 7.

[3]-ابراهيم القادري بوتشيش : مباحث ، ص 67.

عذارى" أثناء ذكره لهذه الفئة يتأرجح بين استخدامه لمصطلح " الروم"[1] للتعبير عن كل نصارى الغرب المسيحي دون أي تمييز سواء أكانوا مقيمين في بلادهم أو دخلوا دار الإسلام محاربين في جيوش الإسلام،أو تجار عابرين، وبين تسميتهم "بالعلوج" أو المعاهدين." [2]

وهناك من المؤرخين من أسماهم " بالنصارى أو "النصارى المعاهدين[3]"في حين أطلق بعض المؤرخين المحدثين[4]على نصارى الأندلس المحاربين لفظ عجم الأندلس، أما الذين ظلوا على المسيحية من سكان البلاد الأصليين فقد أطلق عليهم اسم "الروم البلديين[5]". أما ابن الأثير فقد سماهم " الممالك الفرنج والروم[6] ".وحتى يتسنى لنا الإلمام بدراسة هذه الفئة التي كانت تشكل شريحة من شرائح المجتمع في العصر المرابطي يتوجب علينا العودة إلى العهود السابقة لمعرفة حالهم وأماكن تواجدهم في كل من المغرب الأقصى والأندلس.

التواجد المسيحي في المغرب والأندلس ووضعيتهم.

إن أول ما يستدعي انتباه الدارس في هذا المجال أن المصادر التاريخية لاذت بالصمت عن ذكرهم قبل العصر المرابطي، ولعل هذا ما يوحي إلى أن تواجد هذه الفئة كان ضئيلا مقارنة مع باقي الفئات المشكلة للمجتمع المغربي على عصر المرابطين والبقية الباقية منهم كانت تسير نحو الزوال[7] غير أن هذا لم يمنع وجود بعض الإشارات التي تؤكد بقايا أقلية صغيرة تدين بالنصرانية في بعض مناطق المغرب الأقصى بعد الفتح، فيشير" الجزنائي" إلى أن معظم سكان حصون "تامسنا"و"ماسة"كانوا على دين النصرانية واليهودية والمجوسية. والإسلام بها قليل.[8] وعليه فقد

1- البيان المغرب: ج(4) ص ص 102

2- نفسه:ص ص،23، 70 - 71

3 - الونشريسي: المعيار المغرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب مج (8) دار الغرب الإسلامي بيروت، 1990 ص 56. مؤلف مجهول: الحلل الموشية ص 90، 93.

4- حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة 512هـ (1118) مع أربع وثائق جديدة، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1992، ص 129 .وأنظر أيضا: حسن أحمد النوش: التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي ، ص 40.

5 - ابن عذاري: المصدر السابق ،ج (4)، ص 39.

6- ابن الأثير : الكامل في التاريخ مج 9، ص 573.

7-ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث ، ص 68.

8- الجزنائي: كتاب تاريخ مدينة فاس المعروف بزهرة الآس ، ص 45.

جهز إدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة حملة عسكرية غزا بها تلك المناطق، وتمكن من القضاء نهائيا على التواجد النصراني بها"فأسلم جميعهم، و لم يبق بالمغرب موضع يعبد غير الله فيه[1] " وهذا على حد تعبير الجزنائي، غير أن هذا الرأي يناقضه ما ذهب إليه" ابن القاضي" الذي يشير إلى أن إسلام قوم من زناته المعروفين(ببني يزغتن) الذين كانوا يدينون بالنصرانية والمقيمين بعدوة الأندلس كانوا قد أسلموا على يد " إدريس الثاني". [2]

والراجح أنه أمام ضغط دولة الأدارسة على هذه الطائفة في المغرب الأقصى لم تجد لها ملاذا إلا الجهة الشرقية من المغرب فانزاحت نحو مدينة تلمسان بالمغرب الأوسط واتخذتها موطنا لها وظل تواجدها قائما إلى غاية منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وهذا ما يؤكده"البكرى" [3] بقوله:"وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا ولهم بها كنيسة معمورة".

ومن خلال هذا النص الذي استعمل فيه البكرى كلمة –"بقية من النصارى"– يتبين لنا أن تواجد هذه الفئة كان قليلا و لم يعد لهم أي تأثير يذكر فيما يجري من أحداث متسارعة على أرض المغرب الأقصى وبخاصة في المرحلة الأولى من توسع المرابطين إذ لم تشر المصادر إلى أية مواجهة حدثت بين الطائفة المسيحية وبين المرابطين الحاملين لشعار–الحكم بكتاب الله وسنة رسوله– أيام توسعهم في أرض المغرب، غير أن هذه المعطيات سوف تتغير مع تأسيس الدولة حيث بدأ عدد النصارى يتنامى ويزداد في المغرب الأقصى بعد شراء عدد منهم لاستخدامهم في الجيش أو نتيجة نفي عدد من مستعربي الأندلس نحو العدوة المغربية أو عن طريق الأسر خاصة في المرحلة الثانية من عهد الدولة المرابطية.

فالنسبة لظاهرة الشراء بدأت على عهد يوسف بن تاشفين الذي اشترى منهم نحو مائتين وأربعين[4] وزاد عددهم في عهد علي بن يوسف بعد أن استخدمهم أجناد وحراسا خصوصيين

---

[1]- الجزنائي: كتاب تاريخ مدينة فاس المعروف بزهرة الآس ص 46

[2]– ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، القسم الأول، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1974، ص 18.

[3]– كتاب المغرب، ص 76.

[4]- عن عملية الشراء انظر: ابن عذارى: البيان المغرب ج (4) ص 23

له[1]وتعاظم عددهم في أيام تاشفين ليصل عدد ما اصطحبه من الممالك النصرانية زهاء أربعة آلاف مسيحي.[2]

أما الرافد الثاني: لتواجد النصارى في المغرب كان نتيجة نفي طائفة المعاهدين النصارى من أهل الأندلس أو ما يعرف باسم المستعربين Les Mozarabes أو الذين أرغموا على التغريب حيث وقع النظر على تغريبهم وإجلائهم عن أوطانهم فنفذ العهد إلى جميع بلاد الأندلس بإجلاء المعاهدين إلى العدوة فنفي منهم في شهر رمضان من سنة519هـ/ 1125م عدد جم[3]واتخذوا من" مراكش" وسلا" ومكناسة "وغيرها من بلاد العدوة مستقرا لهم.[4]

كما يعد أسرى الحرب رافدا آخر لتوافد المسيحيين وتواجدهم بأرض المغرب الأقصى إذ اعتبرنا أن نصر" الزلاقة" أول احتكاك مرابطي اسباني، ولم يكن الأمر يتعلق بمواجهة عادية ومحدودة لأن كل طرف أعد لها ما استطاع من قوة لذلك لا نعجب من وصول عدد الأسرى الذين سقطوا في يد المرابطين إلى عشرين ألف، تم نقلهم إلى المغرب الأقصى إن صحت رواية مارمول.[5]

ويبدوا أن عدد السبايا في معركة اقليش (ucles) 501هـ/ 1107م كان من الوفرة إلى حد أن المرابطين يتتاحفون " بهدايا السبايا".[6]وخلال جواز الأمير المرابطي على بن يوسف إلى الأندلس سنة 503هـ/ 1109م دخل "طلبيرة" "ووقع النهب والسبي فيها"[7]،وفي جوازه سنة 511هـ/ 1117م وبعد جولاته في نواحي مدينة "قلمرية" عادت جيوشه إلى "إشبيلية"، وقد

---

[1] -ابن عذارى:البيان المغرب مج(4) ص 23

[2] - مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص 131.

[3] - ابن عذارى: المصدر السابق، ص 72-73.

[4] - مارمول كربخال: إفريقيا ج (2) ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، محمد زنيبر وآخرون ، الجمعية المغربية للتأليف مكتبة المعارف الرباط ، 1984 ، ص 50- 56- 57.ابن عذاري: البيان المغرب، القسم الموحدي، ص 24.

[5] - افريقيا: ص 56.

[6] - حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين ، ص 37.

[7] - ابن عذارى: البيان المغرب ، ج(4) ص 52.

أصابت غنيمة عظيمة وأسرى كثيرة [1] وفي السنة ذاتها جلب قائد الأسطول المرابطي محمد بن ميمون من نصر له " خمسون رأسا من السبي". [2]

و لم يقتصر الأسر على هذه الأصناف من المسيحيين فقط بل يضاف إليهم العديد من السبايا والجواري الروميات اللواتي كن يستقدمن إلى المغرب إما عن طريق السبي أو عن طريق الشراء من أسواق الرق فبخصوص الحالة الأولى يذكر ابن أبي زرع. [3] أنه في سنة 532هـ/ 1137م عاد الأمير تاشفين بن علي من الأندلس إلى المغرب " بعد أن غزا مدينة "اشكونية" وحمل من سبيها إلى العدوة ستة آلاف سبية. أما الثانية فتنعكس في أسواق الجواري الموجودة في مختلف المدن المغربية والأندلسية. [4]

أما مناطق انتشارهم في المغرب الأقصى فتتجلى خصوصا في مراكش- عاصمة الدولة- التي اتخذها النصارى أهم مركز لتجمعهم ويعود ذلك أساسا إلى كون معظمهم من ضمن الحرس الخاص أو ما يعرف بالحرس الأميري [5] وأخذ عددهم يتنامى مع مرور الوقت لكثرة استخدامهم في الجيش حتى وصل عددهم في عاصمة الدولة لوحدها في أواخر أيام المرابطين أربعة آلاف [6] ولعل ما يشير إلى زيادة أعدادهم في نهاية الدولة المرابطية،أن الأمير" تاشفين بن علي" عندما خرج لقتال الموحدين سنة 534هـ/ 1139م كان معه جمعا من النصارى في جيشه [7] كما تشير المصادر أيضا إلى فرار الجند الروم مع" يحي الصحراوي" صاحب "فاس" عندما فتح الموحدون المدينة سنة 540هـ/ 1145م [8] وعقب انهيار دولة المرابطين ،نظم المسيحيون

---

[1]- ابن عذارى: البيان المغرب مج(4) ص64.

[2]- نفسه ص 66 . وراجع عن غنائم حملات أخرى أصابت سبيا كثيرا لدى المؤلف نفسه ص 88، 95.

[3]- الأنيس المطرب، ص 107.

[4]- السقطي : رسالة في آداب الحسبة، نشر ليفي بروفنسال، باريس، 1931، ص 48، 50 وانظر أيضا: بوتشيش مباحث، ص 69.

[5]- ابن عذارى :المصدر السابق ص 23، مجهول: الحلل الموشية ص 184

[6]- مجهول: نفسه، ص 131.

[7]- ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب قسم الموحدين تحقيق الأساتذة،محمد ابراهيم الكتاني ،محمد بن تاويت ،محمد زنيبر ،عبد القادر رزمامة ، دار الغرب الإسلامي ،ط1 بيروت لبنان، 1985، ص19

[8]- البيدق :أخبار المهدى بن تومرت راجعه عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية،الرباط، ط2 ،2004، ص62-63

العاملون في جيش المرابطين إلى صفوف الموحدين، بعد أن سهلوا على عبد المؤمن بن علي دخول مدينة مراكش سنة 541هـ/ 1146م.[1]

و لم يقتصر التواجد المسيحي على مراكش فحسب بل تعداه إلى مدن أخرى حيث وجدت جالية مسيحية هامة من النصارى المبعدين من الأندلس في مدينة مكناسة، وقدر ابن عذارى عددهم بنحو ثلاثة آلاف [2] في حين كان " لسلا" نصيب هام من هؤلاء المبعدين[3] كما لم تكن تكن مدينة فاس بمنئ عن تواجد أعداد كبيرة منهم فيها.[4]

وكانت مساكنهم في أحياء خاصة بهم وعادة ما تكون تلك الأحياء مزودة بكل المرافق الاجتماعية التي تخصهم ففي مراكش مثلا خصص لهم حي به حانات وأسواق لبيع الخمور ولحم الخنزير وهذا ما شاهده " ابن تومرت" لما حل بمراكش فأثار حفيظته، وأعلن عن جام غضبه أمام أحد القضاة في مجلس الأمير علي بن يوسف.[5] كما كان لهم في مدينة مكناسة حيين أحدهما يعرف بدرب الفتيان في حين يحمل الثاني اسما اسبانيا يطلق عليه درب فيرو.[6]

أما فيما يخص نصارى الأندلس الذين تسميهم الوثائق المسيحية بالمستعربين كانوا يؤلفون إبان الفتح الإسلامي للأندلس أغلب سكانه[7]ويمكن القول أن العرب الفاتحين قد أظهروا كثيرا من الحكمة والعدل في ممارسة الحكم في الأندلس فمنحوا المسيحيين – شأن غيرهم- الأمن والحرية وشملوا بذمتهم ماداموا على الطاعة، و لم يفرضوا عليهم إلا تلك الضريبة المالية الزهيدة في صورة جزية أو خراج حسبما تنص عليه الشريعة الإسلامية وزيادة في التسهيل فقد جعلوها مندرجة متفقة مع قدرات المسيحيين المالية.[8]

---

[1]-النويري :نهاية الأرب، مج 11 ج(24) ص 163.و انظر أيضا: عبد القادر زمانة:"فاس وصناعتها التقليدية"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، جامعة محمد بن عبد الله، العدد (4) والخامس 1980- 1981، ص 468

[2]- ابن عذارى: البيان المغرب القسم الموحدي، ص 24.

[3]- مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص 90.

[4]- حسن الوازن: إفريقيا ج (1)، ص 201.

[5]- ابن خلكان: وفيات الأعيان مج (4)، ص 300.

[6]- بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 72.

[7]- حسن أحمد النوش: التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ص 40.

[8] - أنظر تفاصيل هذا التدرج والتخفيف على المسيحيين: ستالين بول: قصة العرب في اسبانيا، ترجمة على الجارم، دار المعارف، مصر 1947، ص 48.

وتكثر الأدلة على التسامح العظيم الذي أبداه المسلمون نحو نصارى الأندلس فقد كانوا يرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين،وباستثناء الجزية،والخراج لم يمس المسلمون غالبا بممتلكات المسيحيين إلا الأموال الخاصة بالكنيسة، أو ما كان من ممتلكات الأسرة الحاكمة، أو ما كان مملوكا لهؤلاء الذين حملوا السلاح في وجه المسلمين، ثم قتلوا في الحرب أو الذين فروا إلى الشمال تاركين أموالهم من خلفهم[1] واستثنى المسلمون من ذلك أهل الصلح الذين حافظوا على أراضيهم وأموالهم، بل أن الولاة أقطعوا الأرض لأبناء الملك غيطشة.[2]

وتقلد المستعربون أو النصارى في عصر الإمارة المناصب العليا فتولوا شؤون الدواوين ولم يتعرضوا لأية مضايقات تذكر رغم حركة العصيان التي قاموا بها في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي[3] وإن كان المؤرخ الفرنسي المعاصر " بيير غيشار"[4] يخالف هذا الرأي ويشير إلى إلى أن المستعربين الأندلسيين قد عاشوا فترة مأساوية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ويشير إلى من نفذت فيهم أحكام الإعدام " بشهداء قرطبة" ويرجح أن تلك الأحداث كانت سببا في اعتناق بعض المستعربين أو النصارى الديانة الإسلامية ومن بقي منهم على النصرانية هاجر نحو شمال الجزيرة الأيبيرية.

أما المؤرخ الأمريكي " ريتشارد وليام بوليت" فيرى أن النصارى استمروا في الثورة إلى العقود الأخيرة من القرن التاسع الميلادي ومع منتصف القرن العاشر.ويذكر أن هذه الأحداث لم تقتصر على قرطبة بسبب الخلافات العقائدية بل شملت حتى القرى الأندلسية التي ثار فيها الفلاحون النصارى تعبيرا على سوء أحوالهم بسبب استخدامهم من طرف الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في الأملاك الزراعية الكبرى.[5]

---

[1]- حسن أحمد النوش: : التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي ، ص 40- 41.

[2]- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مج 1، ص 21 وأنظر أيضا: المقري: نفح الطيب مج 1، ص 266.

[3] - أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، ص 155 وأنظر أيضا: إبراهيم إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي ، ص 70.

[4]- "التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين" (من بداية القرن الثامن إلى نهاية القرن الثالث عشر) دراسة شاملة منشور ضمن كتاب: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ج (2) ترجمة مصطفى الرقي، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1 بيروت، 1998، ص 970- 971.

[5]- نفس المرجع ص 971.

أما في عصر الخلافة فإن الانطباع يوحي بتعايش أقل نزاع بين العناصر المسيحية وبين المسلمين وعليه فإننا نجد من النصارى من وصل في عهد "عبد الرحمن الثالث" إلى العمل في القصر، ولعل ما وصل إليه "عريب بن سعد" المعروف سابقا باسم – برشموند- لدليل على ذلك حيث كتب هذا الأخير "لعبد الرحمن الثالث" التقويم القرطبي" المشهور، وقام بشغل عدة وظائف دبلوماسية في "جرمانيا "وبيزنطة،" وكوفئ بتولية أسقفية البيرة.[1]

وفي عصر الطوائف وجد هؤلاء بكثرة في معظم المدن الأندلسية وقد استغلوا ضعف أمراء الطوائف ليستولي بعض الأعيان من النصارى على بعض المناصب لدى ملوك الطوائف.

أما في العهد المرابطي فقد ذهبت الدراسات الغربية إلى الطعن في المرابطين واتهامهم باضطهاد المسيحيين فيشير"بيير غيشار" إلى أن النصارى مروا بمحنة شديدة في عهد المرابطين ويرجع سبب تلك المحنة إلى التوتر الذي ساد بين النصارى والمسلمين في عهد المرابطين[2] لدرجة جعلت "دوزى"[3] يذكر أن التسامح الذي ساد في عصر الطوائف أصبح "جريمة" في عصر المرابطين في حين ذهب آخر[4]إلى وصف المرابطين بأعداء النصارى واليهود معا فإلى أي حد صدقت هذه الدراسات في إصدار أحكامها على المرابطين ؟ وكيف كان حال النصارى في العصر المرابطي ؟

وضعية النصارى الاجتماعية والدينية

الوضعية الاجتماعية:

بالرغم من تحامل المؤرخين الغربيين على المرابطين في تعاملهم مع أهل الكتاب (النصارى واليهود) ورمي التهم عنهم جزافا دون رويّة ولا تمحيص، هذا ما يستوقفنا للنظر في وضعية النصارى وأحوالهم خلال العهد المرابطي.

فمن خلال النصوص يتبين لنا أن النصارى كانوا يتمتعون كغيرهم من الفئات الأخرى المشكلة للمجتمع المرابطي بمكانة اجتماعية محترمة، وشاركوا في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية

---

[1]- بيير غيشار:التاريخ الاجتماعي لاسبانيا المسلمة ص971،

[2]- نفس المرجع، ص 972. وانظر أيضا: بوتشيش: مباحث ، ص 70.

[3] -Dozy Reinhart : Recherches sur l’histoire et la littérature de l’Espagne pendant le moyen age,Leiden,Brill, 1881 .p.48

[4]- Béraud-Villars (j) les Touaregs au pays du Cid :les invasion Almoravides en Espagne aux Xle et Xlle siècle .paris, 1946, p 195

فمنهم من تقلد الوظائف الحكومية،ومنهم من امتهن المهن على غرار باقي الفئات الاجتماعية الأخرى دون تمييز عن غيرهم، إلا أن هذا لم يمنع تعرض البعض منهم لمضايقات- جراء مواقفهم- وصلت إلى درجة النفي والتشريد.

وقبل الحديث عن أوضاعهم الاجتماعية يستوجب الإشارة إلى أماكن انتشارهم واستقرارهم في الأندلس في العصر المرابطي ومن خلال تتبعنا للنصوص. يتضح لنا أن معظمهم استوطنوا غرناطة[1] واشبيلية[2] وبلنسية[3] والبيرة[4] وبطليوس[5] وطركونة[6] ومالقة[7] فضلا عن استقرار بعضهم بعضهم بالبوادي.

وما يؤكد كثرتهم فيها الإشارة التي أوردها صاحب "الحلل الموشية"[8] أثناء حديثه عن الفونسو الفونسو المحارب"،بحيث يشير إلى توافد الكثير منهم عليه أثناء إقامته في "بلنسية" فانضموا إليه وقدموا له يد المساعدة والعون وأرشدوه على عورات المسلمين حيث يقول: " ووصله عدد وافر من النصارى المعاهدين يكثرون سواده،و يدلونه على الطريق، وينبهون على المراشد التي تضر المسلمين وتنفعه".

و يبدوا أن استقرار النصارى في بوادي الأندلس على عهد المرابطين هو استمرار لما شهده ابن حوقل في عهده في بوادي الأندلس وأكده في قوله: "وبالأندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدن وهم على دين النصرانية روم".[9]

والراجح أن عدد النصارى بالأندلس كان كثيرا حيث كشف لنا صاحب "الحلل الموشية[1] عن عن عدد المسيحيين(في غرناطة لوحدها) الذين تطوعوا لمساعدة الفونسو المحارب باثني عشر ألفا

---

[1]- مجهول: الحلل الموشية ، ص 91.

[2]- عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الاسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة إسكندرية 1985، ص 111-112.

[3]- ابن عذارى: البيان المغرب ج (4) ص 41، وانظر أيضا: بيير غيشار: التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة، ص 972.

[4]- Lagardere : (v) communautés Mozarabes et pouvoir Almoravide en 519 H/ 1125. in studia islamica.T , LXVII ,1988, P. 103.

[5]- مجهول : المصدر السابق، ص 53.

[6]- الإدريسي: صفة المغرب، ص 191.

[7]- بيير غيشار:المرجع السابق ، ص 972.

[8]- مجهول: ص 91- 92.

[9]- ابن حوقل:صورة الأرض، ص 106.

فما بالك بالأندلس برمته. لكن الملاحظ أن عدد النصارى بدأ يتناقص بسبب هجرة البعض نحو الممالك النصرانية وترحيل الفونسو المحارب لعدد كبير من الأسر المسيحية.

أما فيما يخص التنظيمات الاجتماعية والإدارية للطوائف المسيحية فليس من المستبعد أن يكون المرابطين قد اتبعوا نفس النهج الذي سار عليه المسلمين منذ فتح المغرب والأندلس المتمثل في نظام " القماسة" حيث تركت الحرية للمسيحيين بتنظيم شؤونهم المدنية والدينية كيفما شاءوا.[2] فقد كانت لهم إدارة محلية يختارونها بأنفسهم ويديرها رجال منهم أطلق على كل واحد منهم لفظ " قومس"(Sensor) وهو لقب يقوم حامله بمهمة جليلة اتجاه طائفته، وكان هؤلاء الرؤساء يحاطون بمظاهر التبجيل والاحترام، وكانوا مسئولين أمام المسلمين عن كل ما يتصل برعاياهم النصارى فيجمعون منهم الضرائب ويفصلون فيما يحدث بينهم من نزاعات[3] وهذا ما يؤكده ابن الخطيب في وصفه لهم حيث يقول:" وكان يرأسهم(أي النصارى) أشياخ من دينهم أولو حنكة ودهاء ومداراة ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم".[4]

وما يدل دلالة أكيدة على بقاء هذا التنظيم الاجتماعي والإداري للنصارى على عهد المرابطين أن المصادر التاريخية التي تناولت الفترة المرابطية سجلت لنا أسماء بعض "القومسات" نذكر منهم مثلا " قومس" " غرناطة" المعروف باسم " ابن القلاس" الذي استدعى الفونسو المحارب إلى غرناطة ووعده بمساعدته غير أنه لم يف له بوعده وهذا ما يتضح من قول "ابن عذارى[5] " وفي خلال ذلك سفر إلى رأس من رؤوس المعاهدة بالحضرة يعرف "بابن القلاس" يوبّخه على استدعائه، ويلومه على تضمنه بما لا يفي به، ولا يقدر عليه".

وفي رواية أخرى يذكر أن عبدا من عبيد "تاشفين بن علي" قد طعن "قومس" الروم في المعركة التي خاضها المرابطون مع الروم في فحص البكار[6]سنة 528هـــ/ 1123م.[7]

---

[1]- مجهول: ص 91- 92.

[2] - حسن أحمد النوش: التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ص 41.

[3] - حسن أحمد النوش :نفس المرجع و الصفحة. وانظر أيضا: ليفي بروفنسال: الحضارة العربية،في اسبانيا، ترجمة د الطاهر أحمد مكي، دار المعارف ط (2) 1985، ص 100.

[4]- ابن الخطيب: الإحاطة مج (1)، ص 21.

[5]- البيان المغرب: ج (4)، ص 71.

[6]- Albacar منطقة تقع شمال قرطبة.

[7]- ابن عذارى: نفسه ص 91.

أما فيما يخص الجانب القضائي فقد كان للنصارى قضاء خاصا بهم بعيد تمام البعد عن تدخل الدولة في شؤونه يرأسه قاضي يعرف باسم "قاضي النصارى" مهمته النظر في أمور الجنايات والتراعات الخاصة بهم.[1] أما في حالة ما إذا كان التراع بين مسلم ومسيحي فالفصل بين طرفي التراع في هذه الحالة يكون لقاض مسلم.[2] ومن المظاهر الاجتماعية الأخرى الخاصة بالنصارى أن الدولة المرابطية خصصت لهم مقابر خاصة،وهذا تماشيا مع عاداتهم وتقاليدهم في دفن موتاهم وتعرف هذه المقابر باسم مقابر الذميين.[3]

وقد حرص الأمراء المرابطين على حفظ الحقوق الاجتماعية للنصارى والضرب على أيدي كل من حاول المس بهم خاصة في عهد " علي بن يوسف" وهذا حسب رواية ابن عذارى[4] الذي سجل لنا الشكوى التي تقدم بها مسيحيي " غرناطة" للأمير " علي بن يوسف" في بلاط غرناطة حول التعسف والجور الذي نالهم من عامل المدينة " عمر يناله" فلما تحقق من الأمر وثبتت حججهم على عامل المدينة أمر بسجنه وأنصفهم من ظلماته.وهناك قرائن أخرى تدل على إنصاف النصارى بعد أن ثبت هضم حقهم، ولعل ما ذهب إليه " ابن رشد" في تحويل الحكم الذي كان لصالح مسلم إلى نصراني لدليل ثابت على ذلك.[5]

و قد شارك النصارى المسلمين في استغلال المرافق الاجتماعية حيث سمح لهم باستقاء المياه مع المسلمين من بئر واحدة[6] ونظرا للتسامح الديني معهم وصل الحد بالمسلمين إلى السماح لنصارى بالخروج مع المسلمين في صلاة الاستسقاء.[7]

---

[1]- عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص 176.

[2]- ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 74.

[3]- ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة ج (2)،حققه وعلق حواشيه طه عبد الرؤوف سعد منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط(2) 2002 ص 158- 159.

[4]- البيان المغرب ج (4) ص 77، وانظر عن هذه الحادثة: محمد الأمين بلغيث :دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، دار التنوير للنشر والتوزيع 1426ه/ 2006، ص 14- 15.

[5]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد، س (3)،تقديم وتحقيق د .المختار بن الطاهر التليلي دار الغرب الإسلامي، لبنان ، ط الأولى 1987 ص 1619.

[6]- نفسه، السفر (1)، ص 605- 606.

[7]- ابن المؤقت المراكشي:تعطير الأنفاس في التعريف بالشيخ أبي العباس،طبع حجر ،د.ت ص40 .وانظر: ابراهيم القادري بوتشيش:المرجع السابق ص75

مما سبق يتضح لنا أن النصارى كانوا يتمتعون بمكانة محترمة في المجتمع المرابطي إلا أن هذا لم يمنع وجود دلائل أخرى تثبت ما تعرضوا له من تشدد من طرف الفقهاء وقد تضمنت كتب الحسبة والمصنفات الفقهية بعض تلك الدلائل كمطالبة "ابن عبدون"[1] بمنع المسيحيات من الدخول إلى الكنائس إلا في أيام الاحتفالات والأعياد وذلك بدعوى أنهن يدخلن إلى الكنائس فيأكلن ويشربن ثم يقمن بأعمال الدعارة مع القسيسين وهذا ما يدل على شيوع عادة دخول النساء إلى الكنائس في غير أيام الأعياد والأيام المشهورة، وإن كان هذا التشدد الذي يبديه " ابن عبدون" مع النصارى ربما يعد مظهرا من مظاهر النزعة المتشددة التي سادت حكم المرابطين، وإن كان هذا لم يمنع من أن يقوم النصارى بشعائرهم الدينية.[2]كما ظهرت بعض الأصوات التي تنادي بالتشديد على النصارى وإجبار القسيسين على الختان " كما فعل بهم المعتضد بن عباد (ت 462هـ/ 1069) على أساس أنهم متبعون بزعمهم لسنن عيسى- عليه السلام- وعيسى اختتن، ولهم في يوم اختتانه عيد يعظمونه ويتركون ذلك".[3]

والراجح أن النصارى كان لهم لباسا خاص يعرفون به ويلبسون زنارا مميزا لملابسهم[4] ، وإن كانوا لا يلتزمون به في أحيان كثيرة ولهذا طالبهم المرابطون بالالتزام به إلا أنهم عادوا إلى عدم التقيد به وهذا ما نستشفه من إشارة " ابن عبدون"[5] " يجب أن تكون لهم علامة يعرفون بها على سبيل الخزي لهم" والمؤكد أن النصارى وصل بهم الأمر أن تزيّوا بأزياء المسلمين حتى لم يعد

---

[1]- رسالة في آداب الحسبة، ، ص 48- 49.

[2] - الونشريسي : المعيار ج (2) 218، 226.

[3] - ابن عبدون : المصدر السابق ، ص 49.

[4] - يتضح لنا ذلك من قصيدة أبي عبد اله بن أحمد بن الحداد من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي إذ يقول:

وبين المسيحيات لي سامرية *** بعيد على الصب الحنيفي أن تدنو

مثلثة قد وحد الله حسنها *** فثني في قلبي بها الوجد والحزن

وطي الخمار الجون حسن كأنما *** تجمع فيه البدر والليل والدجن

وفي مقعد الزنار عقد صبابتي *** فمن تحته دعص ومن فوقه غصن

انظر:ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،ق(1) مج(2) تحقيق احسان عباس ، دار الثقافة بيروت ،1978 ، ص708

[5]- رسالة في آداب الحسبة، ص 51.

يفرق بينهم وبين غيرهم، وزادوا في مظاهر التأنق وهذا ما حذا بالجرسيقي[1] أن يشدد في منع أهل الذمة من التزيي بما هو من زي المسلمين أو بما هو من أبهة وأجبرهم على وضع شارات يتميزون بها كالشكلة للذكور والجلجل للإناث.

وطالب"الجرسيقي" بمنع النصارى من الإشراف على المسلمين من منازلهم والتكشيف عليهم، ومنعهم من إظهار الخمر والختزير في أسواق المسلمين.[2] كما حدد بعض المهن الرذيلة الأولى أن تكون حكرا بالنصارى كطرح الأزبال ونقل آلات الخمر، ورعاية الخنازير، وخدمة الدواب.[3] و قد حددت كتب الحسبة والمصنفات الفقهية بعض العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والنصارى بحيث لا يترك نصراني يتطبب لمسلم لأن النصارى من عاداتهم أن لا يقدموا النصح إلا لأهل ملتهم. وكذا عدم بيع الكتب العلمية لهم لأنهم غير أمناء في نقل العلوم لذلك حذرت كتب الحسبة التعامل معهم في هذه الأمور لأنهم يقومون بترجمة تلك الكتب وينسبونها لأهلهم وأساقفتهم، وهي من تأليف المسلمين[4]، وحث المسلمون على تجنب الاتجار مع النصارى لأن معظم معاملاتهم ربوية[5] ،وكذا تجنب ذبائحهم.[6]

وتشير المصادر التاريخية أن كثيرا من المسيحيين تعرضوا للاسترقاق وعمد المرابطون على الاحتفاظ بهم باعتبارهم رأسمال يمكن استثماره على حد تعبير أحد المؤرخين[7] من أجل فداء أسرى المسلمين وهو ما تم في عدة مناسبات مثل سنة 523هــ/ 1128م قرب "طليبرة"[8]وفي

---

[1]- رسالة في آداب الحسبة، منشورة ضمن ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، اعتنى بتحقيقها ليفي بروفنسال، القاهرة 1955، ص 122.

[2]- نفس المصدر ، ص 122.

[3]- نفس المصدر و الصفحة. وانظر ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ،ص48.

[4]- ابن عبدون: نفس المصدر ص 57.

[5]-ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة ج (1) ص 205.

[6]- ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق فاطمة الإدريسي، دار ابن حزم، ط 1، بيروت، لبنان 2005، ص 81.

[7]- Dalché (J Gautier) : Islam et Chrétienté en Espagne au XII°e siècle, contribution à l'étude de la nation de frontière.Hespris, Année 1959, 3=e 4 =e trimestre TXLVII ,p. 214 .

[8]- ابن عذارى: البيان المغرب ج (4)، ص 80.

سنة 526هـ/ 1131م قرب "قرطبة"[1]،وتحدثت عنه بعض نوازل الفترة محددة المبلغ الواجب دفعه مقابل ذلك[2] وتحدثت أيضا عن أبوق العبيد النصارى.[3]

ومهما كان تشدد الفقهاء حسبما جاء في كتب الحسبة والمصنفات الفقهية إلا أن هناك من المؤرخين المحدثين من يرى أن ذلك مجرد محاولات من رجال الحسبة لتجاوز أحداث وقعت، فيشير إلى أن طبيعة وظيفة المحتسب الدينية كانت تهدف إلى إصلاح السلوك الاجتماعي والحفاظ على الحد الأدنى من الأخلاق العامة في التعامل، وعليه فإن كل ذلك كان مجرد طموح يسعى المحتسب لبلوغه، لكن ذلك تجاوزه مع الواقع المعاش.وما كان على بعض الفقهاء إلا أن يتعاملوا مع ذلك بنوع من الواقعية والمرونة، ويرى في الفقيه " ابن الحاج" المعاصر لفترة الدراسة نموذجا لذلك الاتجاه الواقعي فيشير إلى أن "ابن الحاج" سعى إلى " منع أهل الذمة من صنع الخمر بالزبيب" وفي الوقت نفسه يشير وبمرونة كبيرة يفهم منها حين أضاف إلى أمره بالمنع " ومن كان معه شيء يسير ترك له"[4] ومما يؤكد تساهل الفقهاء مع النصارى الرواية التي أوردها " ابن عذارى"[5] عن الحادثة التي جرت مع قاضي اشبيلية أبو بكر بن العربي، مع أحد سفلة اشبيلية الذي وجدت عنده حاملة خمر، وأثناء سؤاله أجابه بأنه يملك خادمة رومية وأنه ابتاعها لها فلعنه ابن العربي وخلى سبيله.

وعلى العموم كيفما كان تشدد الفقهاء من عدمه في المرحلة الأولى من حكم المرابطين لم يبلغ ما بلغه في المرحلة الأخيرة من أيامهم إذ تعرض مسيحيو الأندلس لمحنة شديدة تعد بمثابة معلمة أساسية ميزت العصر المرابطي ألا وهي محنة التغريب التي تم فيها إبعاد المسيحيين قسرا من الأندلس نحو بلاد العدوة. فعلى من كانت المسؤولية؟ ومن المتسبب فيها؟ وهل شمل ذلك كل نصارى الأندلس؟ أو اقتصر على عناصر معينة. هذا ما نحاول الإجابة عنه.

---

[1]- ابن عذارى :البيان المغرب ج(4) ص 85- 86.

[2]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد، السفر(1)، ص 586.

[3]- عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس ط 1، الناشر مكتبة الثقافة الدينية 1997، ص ص ص 356 ، 358 ، 360 ، 362 ، 364.

[4]- بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص 76.

[5]- البيان المغرب :ج(4)، ص93-94.

عملية تغريب المعاهدة إلى المغرب وأبعادها.

لقد أجمعت المصادر التاريخية[1] على عملية التغريب والإبعاد لمعاهدة الأندلس وحددت تاريخها بسنة 520هـ/1126م، ويعود السبب في اتخاذ "علي بن يوسف" لهذا القرار بعد استفتاء القاضي "ابن رشد" لكون "معاهدة غرناطة" قد حاكوا مكائد لتمكين "الفونسو المحارب" من المدينة بعد أن استثاروا طمعه واتبعوا جشعه وأعزوه بأوصاف غرناطة وفضائلها.

وقد اعتبر المؤرخون[2] تعاون النصارى "المعاهدة" وتقديم العون لألفونسو بمثابة نقض وخروج من الذمة فكانت فتوى "ابن رشد" بتغريبهم وإجلائهم من أوطانهم وذلك أخف عقاب لهم. ويعد هذا رد فعل طبيعي من السلطة المرابطية على النصارى لما صدر من معاهدتها، وما جروه إليها من استدعاء لألفونسو المحارب وتقويته على المسلمين وإمدادهم العون له.

والتساؤل الواجب طرحه في هذا المقام كيف فسر الغربيون أسباب هذا التغريب؟ وما هي الدوافع الخفية التي جعلت النصارى المعاهدة يمدون يدهم إلى ألفونسو المحارب؟

لقد فسرت معظم الدراسات الغربية أسباب التغريب والإبعاد والدوافع الحقيقية الكامنة من ورائه إلى الاضطهاد الذي ألم بمسيحي غرناطة، غير أنها اختلفت فيما بينها عن الدوافع الكامنة وراء مد يدهم لألفونسو المحارب فأرجع البعض[3] ذلك إلى عوامل سياسية تمكن أساسا في رفضهم السيطرة الإسلامية عموما والمرابطية خصوصا.بعد التوتر الذي ساد في العلاقات بين النصارى والمسلمين في عصر المرابطين فنحن نعرف مثلا أن سكان غرناطة قد حطموا سنة 492هـ/1098م.الكنيسة الأساسية للمستعربين الخاصة بالطائفة النصرانية نزولا على أمر الأمير المرابطي "يوسف بن تاشفين" كرمز لتشدد العلماء[4] في حين فسرها البعض[5] بانعدام روح روح التسامح لدى المرابطين، ومنهم من أعادها إلى مجرد حماية قام بها "ألفونسو المحارب" لبني جلدته نتيجة الخوف على مصيرهم ووضعهم المتدهور باستمرار[6].

---

[1]- عن عملية التغريب: انظر: ابن عذارى: البيان المغرب ج(4)، ص72-73. وانظر أيضا: مجهول: الحلل الموشية، ص90.

[2] - نفس المصادر والصفحات.

[3]- بيرغيشار:التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة، ص972.

[4]- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة مج(1)، ص21.

[5] - بيرغيشار: المرجع السابق ، ص972.

[6] - نفس المرجع والصفحة.

ومهما كان الاختلاف بين المؤرخين الغربيين، فالراجح أنه لا يمكن دراسة عملية التغريب والإبعاد بمعزل عن جذورها الاقتصادية، والظاهر أن شكوك لاقاردير[1] كانت في محلها حينما أشار إلى أن حملة الفونسو كانت مخططة ومهيأ لها وهدفها هو إجلاء المسيحيين الراغبين في الهجرة إلى المناطق المسيحية في الشمال لتعميرها وتنمية زراعتها، لأن غالبيتهم يمتهنون الفلاحة، ولهم خبرة واسعة فيها.[2] وليس من المستبعد أن يكون تغريب المرابطين للنصارى الهدف منه قطع أحلام الفونسو بمعاودة الهجوم على غرناطة ذات الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية التي أثارت شهية الفونسو"لكثرة فوائدها من القمح والشعير والكتان وكثرة المرافق من الحرير والكروم والزيتون، وأنواع الفواكه......وأنها المباركة التي يملك بها غيرها"[3] والحيلولة دون هجرة الأيدي العاملة المسيحية لتعمير المناطق التي استردتها القوى النصرانية، وعدم حرمان بيت المال المرابطي من موارد هامة تتجلى في الجزية التي كان يؤديها أكثر من اثني عشر ألف من المعاهدين، فضلا عما كان يجبى من الضرائب على أراضيها الخراجية.[4]

وقد أكد بوتشيش هذا الرأي اعتمادا على ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن الفونسو المحارب سبق له وأن هجر عشرة آلاف أسرة مسيحية إلى "أراغون". وعلى هذا الأساس لم يستبعد أن يكون قرار ترحيل " علي بن يوسف" للنصارى(معاهدة غرناطة) نحو العدوى لمنع تكرارا تلك العملية.

كما يرى أن القصد من إبعادهم هو حرمان أعدائهم من خدمة هؤلاء. و الاستفادة منهم ومن خبرتهم في المجال الزراعي لتنمية الزراعة في المغرب الأقصى.[5]

أما فيما يخص عدد المسيحيين الذين شملتهم عملية الترحيل فإن المصادر لم تفصح عن العدد الرسمي الذي شملهم قرار (على بن يوسف) وهل اقتصر ذلك على معاهدة غرناطة كما أشار إلى

---

[1]- La gardere : (v) : communautés Mozarabes et pouvoir Almoravide en 519H, p. 100.

[2] - عن خبرة المعاهدين في فلاحة الأرض، أنظر: ابن الخطيب: الإحاطة، مج (1) ص 21. وانظر أيضا: عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس ،ط 1، دار الشروق، بيروت 1983، ص 109.

[3] - عن الأهمية الاقتصادية لمدينة غرناطة: اأنظر: مجهول: الحلل الموشية، ص 91. وانظر أيضا: الحميري: الروض المعطار، ص 46.

[4] - ابن الخطيب:المصدر السايق، ص 21 وانظر أيضا: بوتشيش: مباحث ص 80.

[5] - بوتشيش: نفس المرجع والصفحة.

ذلك "ابن الخطيب"[1] أم أن ذلك شمل جميع معاهدة الأندلس كما نصت عليه بعض الروايات الأخرى [2]بما في ذلك الرسائل الرسمية.[3]

ومن خلال تتبعنا للمصادر التي تناولت عملية التغريب يتجلى لنا أن تلك العملية شملت جميع معاهدة الأندلس وهذا ما نستشفه من الروايتين اللتين أوردها صاحب "البيان" و"الحلل" إذ أشارا أن القرار شمل جميع معاهدة الأندلس حيث ذكرا ذلك بقولهما: "ونفذ عهده إلى جميع بلاد الأندلس بإزعاج (إجلاء) المعاهدين[4].

ولعل ما يؤكد أن القرار شمل جميع معاهدة الأندلس ما جاء في الرسالة التي أوردها الونشريسي[5]على لسان "علي بن يوسف" حول بيع أملاك النصارى في اشبيلية" الذين رحلوا إلى إلى "مكناسة" وأن عملية الإجلاء تمت على ثلاث دفعات فشملت مسيحي "مالقة" و"غرناطة"و"اشبيلية"[6]غير أن العدد الرسمي للمبعدين غير معروف لعزوف المصادر عن ذكره والاكتفاء بقولها: "وأزعج إلى العدوة منهم عددا جما"[7] وإن كانت بعض الروايات[8]قد أمدتنا بعدد متطوعي غرناطة من النصارى المعاهدين الذين سجلوا أسماءهم في اللائحة التي بعثوا بها إلى "ألفونسو المحارب" يعرضون فيها خدمتهم له وقدرتها باثني عشر ألف إلا أن هذا العدد يبقى محل جدل لأنه لا يعكس الرقم الحقيقي للمبعدين ،لأننا لا نعرف تحديدا من شملهم النفي هل المتطوعين فقط؟ أم شمل جميع معاهدة غرناطة؟ كما أن هذا الرقم لم يشمل باقي نصارى المدن الأندلسية "كمالقة" و"أشبيلية" وغيرها.

ومهما كان عدد المبعدين الذين شملهم قرار الترحيل فالراجح أن هناك عدد منهم لم تطأ أقدامهم أرض "المغرب الأقصى" أصلا وأدلتنا في ذلك تتضح في ما يلي:

---

[1]- الإحاطة في أخبار غرناطة مج (1)، ص25.

[2]- أنظر عن ذلك مثلا ما جاء في مؤلف مجهول: صاحب الحلل الموشية، ص90.

[3]- محمود علي مكي: "وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، قدم لها د محمود علي مكي. الناشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ط1، 2004، رسالة (1)، ص20.

[4]- البيان المغرب: ج(4)، ص73، مجهول: المصدر السابق: ص90،97.

[5]- المعيار: ج(8)، ص56.

[6]-ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص79.

[7]- مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص97. وانظر أيضا: ابن الخطيب: المصدر السابق ، ص25.

[8]- انظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ص69. وانظر عن ذلك: مؤلف مجهول: المصدر السابق، ص91.

أولا: أن بعض المصادر التي تحدثت عن عملية التغريب تشير إلى أن منهم من "أكلتهم الطرق ونسفتهم الأسفار، ونزل فيهم الوباء وفرقهم الله شذر مدر"[1]

ثانيا: أن هناك عددا لا يستهان به من النصارى المعاهدين ظلوا مستقرين بالمدن الأندلسية تمارس عليهم أحكام أهل الذمة.[2]

وبالرغم من ذلك فإن بعض الدراسات الغربية قد أحاطتها بهالة كبيرة من التفسيرات وأعطتها أبعادا أكثر من حجمها الأصلي، لدرجة جعلت من عملية التغريب والإبعاد "خطة محكمة لإخلاء الأندلس من المسيحيين"[3]في حين أشار البعض[4]منها إلى أنها محاولة لإضعاف إيمان المسيحيين، وذلك عن طريق توطينهم في أراضي يجهلونها أصلا، وأقاموهم بين جماعات مسلمة تمارس عليهم أنواع الضغوط.

و لم يكتف أصحاب تلك الدراسات بهذه التفاسير فحسب بل ذهب البعض[5]منهم إلى أبعد من من ذلك، وفسرت عملية التغريب بأنها خطة لتصفية الأهالي.

ولعل ما يدحض هذه الآراء هو اعتراف بعض المؤرخين الغربيين[6]أنفسهم بعدم مغادرة النصارى المعاهدة كلية للأندلس، وتأكيد تواجدهم "في غرناطة" بعد عملية التغريب والترحيل. وهو نفس الرأي الذي ذهب إليه" ابن الخطيب"[7] وأكده ببقاء عدد منهم لا يستهان به.

وإن كان كلا من دوزي[8]Dozyو فيلار (villarrs)[9] قد زعما أن المجموعة المتبقية منهم لم لم تجد ملاذا إلا في الجبال أو الاحتماء بذوي النفوذ والأعيان من المسلمين وإلا كان مصيرها القتل.

---

[1]– ابن عذارى: البيان المغرب، ج(4)، ص73. مجهول: الحلل الموشية، ص91،97.

[2]– ابن عذارى: نفسه، ص77.

[3]- Dufourcq : (C.E) les Mozarabes du 12 eme siècle et le prétendu « évêque de Lisbonne » revue d'histoire et de civilisation du Maghreb. 1968, p.125

[4]- Dozy:Histoire des Musulmans d'Espagne Leiden , Tome III 1937., p160

[5]- Dufourcq :(C.E) la vie quotidienne dans l'Europe médiévale sous domination Arabe, Paris, Hachètte, 1978, p235.

[6]–انظر: عن ذلك مثلا. بيير غيشار: التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة، ص 972.

[7]–الإحاطة في أخبار غرناطة، مج (1) ص 25.

[8] –Dozy: op.cit, p.160

[9]- Villarrs (J), les Touaregs au pays du Cid .p. 127

ولعل ما يفند مزاعمهما تلك الرواية التي أوردها ابن عذارى[1] والتي أكد فيها تواجد النصارى المعاهدة في مدينة "غرناطة" بعد عملية تغريب بسنتين وإنصاف الأمير "علي بن يوسف" لهم بعد الشكوى التي قدموها له في "مراكش" ضد عامله على "غرناطة" "عمر يناله"، وصلت إلى حد سجنه. فهذه الرواية دليلا قاطعا على أن المسيحيين ظلوا متواجدين في "غرناطة" تمارس عليهم أحكام الذمة، وتصان حقوقهم دون تمييز بينهم وبين باقي فئات المجتمع المرابطي.

وعلى العموم فإن الطائفة المسيحية رغم ما عرفته أحيانا من مضايقات، فإنها حظيت بتسامح قلّ ما نجد نظيره بالنسبة للمسلمين الذين عاشوا في دار الحرب[2] وهذا ما سنحاول توضيحه.

الوضعية الدينية للنصارى في العصر المرابطي

إن الحديث عن الوضعية الدينية للنصارى خلال العهد المرابطي يجرنا حتما إلى معرفة مواقف الفقهاء من أهل الذمة عموما والذي على أساسه كان الأمراء المرابطين يتخذون قراراتهم اتجاه هذه الفئة. فالمعروف أن الأحداث كشفت عن تشدد المرابطين إزاء النصارى، ولعل أمر" يوسف بن تاشفين" تهديم كنيسة مدينة "البيرة" سنة 492هـــ/ 1098م بعد استفتاء الفقهاء في ذلك يؤكد ظاهرة التشدد حيث صيرت تلك الكنيسة قاعا.[3]

ولم يكتف الفقهاء بإصدار أحكام هدم الكنائس فحسب بل أكدوا على عدم السماح للنصارى ببناء كنائس جديدة في مدائن المسلمين،على أساس أن أراضي الأندلس التي يقيم فيها المسيحيون أراضي عنوية، وعليه لم يسمحوا لهم ببنائها حسب مقتضيات التشريع المالكي[4] ولعل ولعل لجوء "علي بن يوسف" إلى استصدار الفتوى من الفقهاء سنة 521هـــ/ 1127م القاضي بضم ملكية أحباس الكنائس وبيع المعاهدة الذين فروا أو أجلوا إلى العدوة المغربية[5] إلا تأكيد إلى ما ذهبنا إليه.كما نصت كتب الحسبة على منع المسيحيين من ضرب نواقسهم.[6]

---

[1]- البيان المغرب ج (4)، ص 77.

[2]- انظر عن ذلك :ابن الكردبوس تاريخ الأندلس قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، ص103- 104. عبد الإله بنلمليح: الاسترقاق في الغرب الإسلامي بين الحرب والتجارة، ص 63.

[3]- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة مج (1) ص 21.

[4]- الونشريسي: المعيار ج (2) ص 240.

[5]- الونشريسي: نفسه ج (8) ص 56- 58.

[6]- ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب، ص 55.

وبالرغم مما اتصف به العهد المرابطي من التشدد إزاء أهل الذمة إلا أن هناك قرائن تؤكد عدم تعرض جل الكنائس إلى نفس المصير كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين.[1]

فمن خلال تتبعنا للمصادر الجغرافية وبعض رسائل الحسبة المعاصرة لفترة الدراسة يتضح لنا انتشار الكنائس في أرجاء الأندلس نذكر منها كنيسة " الغراب" الواقعة في النتوء الخارج في البحر المحيط، والتي يعود تاريخ بنائها إلى العهود القديمة وظلت قائمة إلى أيام الإدريسي وهذا ما يفهم من قوله:"وهذه الكنيسة من عهد الروم إلى اليوم لم تتغير عن حالها".[2]

وزودنا الإدريسي بمعلومات هامة عن تلك الكنيسة التي كانت مقصدا للنصارى، ولمكانتها وتمييزها عن غيرها كانت"عامرة بالقسيسين والرهبان"حسب تعبير الإدريسي، وعليه فإنه ليس من المستبعد أن تكون تلك الكنيسة مكانا لتخرجهم نظرا لما أحيطت بها الكنيسة من رعاية لدرجة أن جميع مسيحيي البلاد الغربية يصلونها بالأموال، ناهيك عن الأموال التي يتبرع بها يوميا المترددين عليها والتي أصبحت حبسا على الكنيسة فتوافرت أموالها وكثرت ذخائرها، وعادة ما كانت تنفق على خدام الكنيسة أو على إطعام الواردين إليها والمجتازين بها، وتلك عادة يتوارثها الخلف عن السلف فلم تتغير و لم تبدل عبر مر العصور.[3]

إلى جانب كنيسة الغراب تحدث "أبو حامد الغرناطي"[4]المعاصر هو الآخر لفترة المرابطين عن وجود كنيسة قرب مدينة "غرناطة"، كما تحدث "ابن عبدون"[5] في رسالته عن كنيسة "اشبيلية". كما وجدت كنيسة صغيرة بمدينة "بجانة" يؤمها المستعربون القاطنين في تلك المدينة[6]

ولعل ما يؤكد عدم تعرض جل الكنائس إلى الهدم في العصر المرابطي أن البعض منها ظل موجودا إلى القرن الثامن الهجري ككنيسة "قرطبة" التي كانت تحظى بالتقديس لدى النصارى[7]

---

[1] -Dozy : <u>Histoire des Musulmans d'Espagne</u> T.III , p 159.

[2]- <u>صفة المغرب</u> ، ص 180.

[3]- نفس المصدر، ص 180- 181.

[4]- القزويني : <u>مقتبسات القزويني من تحفة الألباب</u> منشورة ضمن ملحق كتاب: أبو حامد الأندلسي الغرناطي: <u>الألباب تحفة نخبة الإعجاب</u>، تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989، ص 158.

[5]- <u>رسالة في آداب الحسبةو المحتسب</u>، ص 48.

[6]- السيد عبد العزيز سالم: <u>تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة الأسطول الأندلسي</u>، الناشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية 1984، ص 26

[7]- المقرى : <u>نفح الطيب</u> مج 1، ص 520.

هذا فضلا عن وجود كنائس أخرى في باقي المدن الأندلسية ككنيسة مدينة "لورقة" بحومة "الجبل"[1] ، وكنيسة مشهورة بمدينة "أونبة".[2]

ويبدو لنا من خلال ما ورد في كتب النوازل أن الأمراء المرابطين لم يمنعوا النصارى من القيام بشعائرهم الدينية شريطة أن يمنعوا من ضرب النواقيس[3] كما سمحوا لهم بتنظيم الاحتفالات الخاصة بهم، وكانت تلك الاحتفالات بادية للعيان حتى أن بعض المسلمين المتعودين على بساطة الشعائر الإسلامية كانوا يبدون دهشتهم إزاء ما كانوا يشهدونه من احتفالات النصارى بالمناسبات الدينية ومواكبهم فيها[4] وهذا ما حذا "بابن عبدون"[5]إلى منع المسلمات من مصاحبة مصاحبة صديقاتهن المسيحيات إلى الكنائس للفرجة على تلك الاحتفالات التي يقيمونها أيام الأعياد.

ونظرا للتسامح الديني حاول رجال الحسبة تنظيم العلاقات الموجودة بين معتنقي الديانة المسيحية وأماكن عبادتهم حفاظا على عدم تفشي بعض الظواهر اللاّ أخلاقية فشدد على منع المسيحيات من التردد على الكنائس في سائر الأيام، ما عدا أيام المناسبات والأعياد، لتفشي ظاهرة الزنا بين المترددات على الكنائس والقسيسين [6]وهذا حفاظا على الطابع الأخلاقي العام. كان هذا حال النصارى في الأندلس.

أما الوضعية الدينية للمسيحيين في المغرب الأقصى يكتنفها نوع من الغموض نظرا لضبابية النصوص وعدم وضوحها وإن كان "البكري" [7]يشير إلى بقاء جماعة من النصارى في مدينة تلمسان في منتصف القرن الخامس الهجري، وذكر أن بها كنيسة معمورة.

كما أشار في حديثه عن الطريق الرابط بين "سبتة" و"فاس" إلى موضع يعرف باسم الكنيسة[8] واكتفى بذكر ذلك فقط دون أن يمدنا بأية معلومات، وهل هذا يتعلق فعلا بوجود كنيسة بهذا

---

[1]- الحميري: الروض المعطار، ص 512.
[2]- نفسه ص 63.
[3]- الونشريسي: المعيار ج (2) ص 215.
[4]- عن ذلك انظر: المقرى: نفح الطيب مج(1) ص 525- 526.
[5]-الونشريسي المصدر السابق، ص 48.
[6]- ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب، ص 48.
[7]- كتاب المغرب، ص 76.
[8]- نفسه ص 114.

الموضع في زمانه؟، أم أن تسميته باسم الكنيسة يعود إلى بقايا كنيسة تعود لأيام خلت وعرفت المنطقة باسمها؟وأصبح ذلك متداولا بين الناس.

وفي إشارة أخرى يتفق كلا من " البكري" المعاصر لفترة الدراسة و" الحميري" فيما بعد إلى وجود كنيسة بمدينة "سبتة" التي أصبحت مسجدا[1] غير أنهما لم يشيرا إلى زمان تحويل هذه الكنيسة إلى مسجد.

والراجح أن هذه الكنيسة تعود إلى الأيام التي سبقت الفتح على أساس أن مدينة "سبتة" كانت تخضع لحكم "يوليان" وبمجرد فتح هذه المدينة حولت تلك الكنيسة إلى مسجد. كما وردت إشارات أخرى في المصادر[2] تشير إلى تسمية إحدى أبواب مدينة "فاس" باسم باب الكنيسة، و لم تؤكد إن كانت بالفعل أن هناك كنيسة بالجهة الشرقية لمدينة "فاس" أم لا ؟ وقد استمرت هذه التسمية متداولة بين المغاربة منذ بنائه من طرف " إدريس الأول" إلى أن هدم على يد "عبد المؤمن بن علي".

أمام هذا النقص الواضح في النصوص التاريخية وعدم وضوحها أحيانا كانت سببا في اضطراب آراء بعض الباحثين[3] والخروج ببعض الاستنتاجات مثل الإشارة إلى وجود تنظيم كنسي"بمراكش" غير أنه لم يشر إلى مصدر تلك المعلومة وهذا ما أوقعه في ريبة وشك من أمره وبنى معلوماته على أساس وجود بعض النصوص التي تؤكد السماح للمسيحيين المبعدين من الأندلس أو الفئات الموجودة أصلا في الحاميات العسكرية من المرتزقة ببناء كنائس في المناطق التي نزلوا بها والسماح لهم بإقامة شعائرهم الدينية دون ضرب النواقيس.[4]

وعلى النقيض من ذلك نجد رسالة أجاب فيها القاضي" ابن ورد"[5]وفقهاء غرناطة عن استفسار "علي بن يوسف" حول عدة قضايا تخص النصارى المبعدين نحو "مكناسة" منها طلبهم بناء كنيسة، فكان رد "ابن ورد" يتضمن عدم السماح لهم بذلك "اللهم إلا أن يقيم كل إنسان منهم شريعته في داره".

---

[1]- البكري: كتاب المغرب ، ص 103، 104،الحميري: الروض المعطار، ص 303.

[2]- البكري: نفسه ص 116. أحمد ابن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم (1) ،ص 34.

[3]-ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي ص 83.

[4]- الونشريسي: المعيار ج (2)، ص 215،241.

[5]- نفسه ج(8) ص 58، 59.

ولعل ما يؤكد إجبار النصارى على إقامة شعائرهم الدينية داخل منازلهم ما تؤكده نازلة أخرى[1]حول رجل نصراني بمدينة "مراكش" كان يظهر الإسلام ويبطن المسيحية ولما اكتشف أمره وتم تفتيش مترله وجد فيها بيت يشبه الكنيسة ومن بين ما وجد في هذا البيت قنديل معلق وآثار كثيرة ألصقت فيها شموع، كما وجدت فيه كتب بخطوط النصارى وشموع كثيرة ولوح على أربع قوائم تشبه المحمل وعصا على رأسها عود مصلب وأقراص من عجين قد جفت وفي كل واحدة منها طابع.

وبعد استشارة من يعرف أحوال النصارى وأمور شرعهم اتضح أن الشموع المذكورة مما يتقرب بها النصارى ويهدونها إلى قسيسهم ليوقدوها في معابدهم، وأن اللوح الذي على أربع قوائم مما يضع عليه قسيسي النصارى الإنجيل حين قراءتهم إياه، وأن العصا التي رأسها عود مصلب مما يتوكأ عليها وقت قيامهم لقراءة الإنجيل، وأن الأقراص المذكورة هي قربان النصارى التي يترقبون بها عند تمام صومهم.

من خلال هذه النازلة يتبين لنا أن النصارى كانوا يخفون حتى ديانتهم، ويبدو أنه لو كانت هناك كنائس لما وجدت هذه الأشياء في مساكنهم ولما أقاموا تلك الشعائر في منازلهم.

ولعل ما يزيد تدعيم هذا الرأي أنه من المعروف أن بابوات روما كانوا يبعثون رسائل إلى الكنائس المسيحية الموجودة في دول المغرب الإسلامي كالدولتين "الزيرية" و "الحمادية"، وقد نشر "دوماس لا تري" تلك المراسلات من بينها مراسلة "البابا ليون التاسع" المؤرخة في 17 ديسمبر 1053م/445هـ إلى أسقف إفريقية[2]،ورسالة من "البابا غريقوري"السابع إلى أسقفية قرطاج المؤرخة في 16 ديسمبر 1073م/466هـ[3] وأخرى إلى "الناصر بن علناس" يشكره فيها على اعتنائه بالرعاية المسيحيين[4]في حين لم نعثر على أية رسالة تعود الى العصر المرابطي وجهت إلى إحدى الأسقفيات سواء في مراكش أو المدن الأخرى التي تتواجد فيها تجمعات

[1]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد: السفر الثالث، ص 1462- 1463.

[2]-De Maslaterie: Traites de Paix et Documents divers concernant les relations des Chrétiens et des Arabes –au moyen âge, Paris, 1866- 1875 , Tome , 2, p ,1

[3]- I bid, p, 5

[4]- I bid, p ,7

للنصارى "كمكناسة "و"سلا" و"فاس"، في حين نجد فيما بعد عدة رسائل بابوية بعث بها إلى بعض الخلفاء الموحدين.[1]

وهنا نتساءل هل يعود ذلك إلى عدم تواجد الكنائس في المغرب على عهد المرابطين نتيجة تشدد الفقهاء؟ أم أن أكثر النصارى الذين دخلوا ضمن خدمة الدولة قد اعتنقوا الديانة الإسلامية؟ وهذا ما نستبعده. أم أن النصارى المتواجدين في المغرب كانوا يقيمون شعائرهم الدينية في مساكنهم كما دلت على ذلك بعض النوازل.[2]

من خلال تتبعنا للنصوص التاريخية والفقهية يتضح لنا أنه بالرغم من فتوى "ابن الحاج" إلا أن المرابطين لم يسمحوا للنصارى ببناء كنائس جديدة إذ أن جميع مصادر المعاصرة لفترة الدراسة لم تشر من قريب أو بعيد إلى أن النصارى قاموا ببناء كنائس جديدة في العهد المرابطي.

ولعل هذا يعود إلى ظروف تلك الحقبة التي بلغت فيها الحروب الصليبية ذروتها وهذا ما حذا بالفقهاء إلى اتخاذ مواقف متشددة إزاء النصارى، وحسبنا أن هدم كنيسة "غرناطة" وقع في نفس السنة التي استولى فيها الصليبيون على بيت المقدس[3]وليس من المستبعد أن تكون التجاوزات التي كان يقوم بها بعض النصارى قد شكلت ذريعة أخرى لهذا التشدد حيث ورد في نوازل ابن الحاج[4]ما يثبت ذلك كسب النصارى لرسول الله صلى الله عليه وسلم علنا،كما أن بعضهم وصل بهم الحد إلى الاعتداء على المسلمين، واتضح ذلك جليا بعد أن كلفوا بجمع الضرائب فاستذلوا الأعراض خاصة في درن.[5]

ومما يزيد من تأكيد تلك التجاوزات ما أوردته المصادر التاريخية[6]من إقدام بعض العناصر المسيحية التي كانت تضمر الغدر وتتربص الفرص للإطاحة بالمرابطين من مساعدة ألفونسو المحارب للدخول إلى مدينة غرناطة فكان جزاؤهم التغريب إلى العدوة المغربية غير أنهم لم يعتبروا خاصة ونحن نعرف أنهم لعبوا دورا في إسقاط الدولة المرابطية بعد تآمرهم مع الخليفة الموحدي

---

[1]- De Mas Latrie:Traites de paix, p.11-12

[2]- أنظر عن ذلك مثلا: ابن رشد: فتاوى ا بن رشد، السفر(3)، ص1463.

[3]- مجهول: الحلل الموشية، ص89. سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، ، ص177. وانظر أيضا: بيير غيشار: التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة، ص972.

[4]- نوازل ابن الحاج :مخ بالخزانة العامة للوثائق والمخطوطات بالرباط رقم ج 55، ورقة119.

[5]- النويري: نهاية الأرب مج11 ج(24)، ص155.

[6]- ابن عذارى: البيان المغرب ج(4)، ص70-71، مجهول: المصدر السابق، ص138.

"عبد المؤمن" الذي أمّنهم على أنفسهم مقابل مساعدته في فتح أحد أبواب "مراكش" لتسرب جيوش الموحدين إلى داخل المدينة.[1]

ومن خلال هذه التصرفات والتجاوزات التي قام بها النصارى يرى بعض الباحثين[2] أن ما قام به المرابطين اتجاههم يعد إجراءا عادلا لنقضهم العهود وخيانتهم للمواثيق.

و مهما قيل عن تشدد الفقهاء والأمراء المرابطين إزاء النصارى إلا أنه لم يبلغ درجة القسوة التي عامل بها الأمراء المسيحيون المسلمين الذين تم أسرهم. إذ غالبا ما تم الحكم عليهم باعتناق الديانة المسيحية وإلا أصبحوا في تعداد الرقيق والعبيد.[3] وكان لسقوط بعض المناطق في أيدي القوى النصرانية أن أنجر عنه مضايقات للمزارعين المسلمين الذين أثقلت كاهلهم بأنواع الضرائب[4]ناهيك عما اتبعوه من سلب ونهب لأموال وأملاك المسلمين[5] وما تلاه من غدر وتهجير جماعي[6] كما طالت أيادي النصارى حتى الأماكن المقدسة حيث تم تحويل الجامع الكبير بطليطلة إلى كاتدرائية[7]. هذا دون احتساب ما قاموا به من أعمال مشينة مست كرامة ومشاعر ومشاعر المسلمين، بعد أن أقدموا على تمزيق مصحف عثمان بن عفان أثناء دخولهم قرطبة سنة 539هـ/1144م.[8]

و لم تسلم حتى النفوس البشرية من عمليات الحرق التي اقترفوها حيال المسلمين ومثالنا في ذلك ما قام به القمبيطور أثناء حصاره لمدينة "بلنسية" التي عبر عنها ابن عذارى: "وجدّ الطاغية في حرق من خرج من المدينة"[9] و لم ينجو من عملية الحرق حتى قاضيها أحمد بن جحاف.[10]

---

[1]- النويري: نهاية الأرب مج (11) ج (24)، ص163.

[2]- حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، ص367.

[3]- عبد الإله بنلمليح: الاسترقاق في الغرب الإسلامي بين الحرب والتجارة، ص54.

[4]- ابن عذارى: البيان المغرب ج(4)، ص38: وانظر أيضا بيير غيشار: التاريخ الاجتماعي لاسبانيا المسلمة ، ص989.

[5]- ابن عذارى: نفسه، ص37.

[6]- نفسه، ص36.

[7]- حسين مؤنس: الثغر الأعلى الأندلسي، ص133.

[8]- الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. ذيل لكتاب جذوة المقتبس للحميدي قدم له وضبطه وشرحه د.صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية صيدا ،بيروت ط1 ،2005، ص45.

[9]-ابن عذارى: المصدر السابق ، ص39.

[10]- نفسه، ص38.

ووصل بهم الحد إلى التمثيل بجثث الموتى المسلمين التي علقت على "صوامع الأرباض وبواسق الأشجار".[1]

وعلى عكس هذه الصورة القاتمة التي ميزت تعامل الممالك النصرانية مع المسلمين ظهر تسامح الدولة المرابطية اتجاه النصارى، وقد أمدتنا المصادر العربية بمعلومات تؤكد احترام المرابطين لحقوقهم والضرب على أيدي من حاول المس بهم واتضح ذلك جليا في عهد "علي بن يوسف".[2] وهذا ما أقره الغربيون أنفسهم الذين أكدوا رعايته لهم، فشملهم بعطفه وصلاته،وأنعم عليهم بالذهب والفضة، وتعلق بهم أكثر من تعلقه برعيته، فأسكنهم القصور بعد أن اتخذهم حرسا له.[3]

وتتضح صور التسامح من خلال رصد الأدوار التي لعبها النصارى داخل كيان المجتمع المرابطي

دور النصارى في المجتمع المرابطي:

إن الحديث عن دور النصارى في المجتمع المرابطي تجلى في ميادين شتى من الحياة العامة، وبرز دورهم في أكثر من مجال تصدرها المجال العسكري.وتفطن "ابن خلدون" إلى ظاهرة استخدام النصارى في الجيش وعممها على دول المغرب بقوله " فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جندا من هذه الأمة المتعودة الثبات والزحف وهم الإفرنج.[4]

وعلى هذا الأساس استخدم النصارى في الجيش المرابطي كحرس خاص للأمراء المرابطين، و لم يلبث هذا الحرس أن أصبح ركنا أساسيا من أركان الجيش المرابطي، ولا سيما أن "عليا" قد ضم إليه الكثير منهم، إما عن طريق الشراء أو بواسطة الأسر في الحروب التي خاضها ضد المسيحيين، وبرز دور هذا الحرس الخاص بأن تعدى حراسة معاقل المغرب وذلك بمشاركته في حروب الدولة مع الموحدين، ولعل ما أظهره قائد فرقة النصارى الشهير " بالروبيتير" لدليل على ذلك.[5]

ذلك.[5]

[1]- ابن عذارى: المغرب البيان ج(4) ص39.

[2]- أنظر عن ذلك مثلا: ابن عذارى :نفسه، ص77.

[3] -Villarrs : les Touaregs au pays du Cid, p234

[4]- ابن خلدون: المقدمة ص 289.

[5]- عن مشاركة الجند الروم في الدفاع عن الدولة انظر: مجهول: الحلل الموشية ص 131. وانظر أيضا: حمدي عبد المنعم محمد حسين: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين"دولة علي بن يوسف المرابطي، ص 286.

ومما لا شك فيه أن استخدام العنصر النصراني في الجيش كانت له انعكاسات هامة على الجيش المرابطي بشكل عام، إذ أدخل هؤلاء طرقا في القتال تختلف عما تعود عليه المرابطين في بيئتهم الصحراوية فعمل هؤلاء على تطوير صناعة الأسلحة والاستفادة منهم في استخدام بعضها كالعرادات والمنجنيقات والتروس.[1] هذا ما حذا بأحد المؤرخين[2] إلى القول بأن استخدام النصارى في الجيش المرابطي قد أحدث نوعا من التوازن القبلي داخل قيادات الجند، فبعد أن كانت قيادات الجند في المرحلة الأولى حكرا على القبائل المشكلة للحلف القبلي الصنهاجي فتغيرت هذه الوضعية فيما بعد لتصبح حكرا على لمتونة، والفضل في ذلك يعود إلى تلك العناصر.

ولعل ما نخلص إليه من خلال تتبعنا لدور النصارى في الجيش المرابطي أن هذا الأخير كما عمل على تقوية الجهاز العسكري للدولة كان له نصيبا في إسقاطها بعد أن تآمر مع الموحدين لتسهيل مهمة دخوله إلى عاصمة الدولة.[3]

أما فيما يخص الجانب السياسي فقد قام الجند المسيحي بدور لا يقل خطورة عن الدور العسكري خاصة بعد أن أسندت لهم مهمة الحرس السلطاني لأول مرة في تاريخ المغرب الأقصى فزاد ذلك من فعالية الأجهزة الأمنية داخل جهاز الدولة والبلاط. ووضعت حد الظاهرة العصبية القبلية كما أنها كانت القوة الضاربة لكل محاولة للمطالبة بالحكم ولعل هذا ما يفهم من قول ابن عذارى:"إن عليا هو أول من استعمل الروم وأركبهم في المغرب، وجعلهم يحقدون على المسلمين في مغامراتهم".[4]

---

[1]- انظر عن ذلك مثلا الدور الذي قام به عبد الله بن همشك والتعديلات التي أدخلها على الرماح: مجهول: الحلل الموشية،ص 115 .وانظر أيضا: إبراهيم حركات: النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، منشورات الوحدة العربية،الدار البيضاء، المغرب د.ت ص 223، وانظر توفيق مزاري عبد الصمد: التنظيمات العسكرية المغربية في عهد المرابطين والموحدين: رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، قسم التاريخ، إشراف د. إبراهيم فخار، 1999/ 2000م، ص 131.

[2]- ابراهيم القادري بوتشيش : مباحث، ص 90.

[3]- مجهول: المصدر السابق، ص 138.

[4]- ابن عذارى: البيان المغرب ج (4)، ص102.

ونظرا لابتعادهم عن العصبية القبلية كان الأمراء المرابطون يستخدمونهم تلقائيا لتقديم البيعة لكل أمير مرابطي جديد[1] وحتى النسوة الروميات كان لهن دخل في تحديد السياسة العامة للدولة بعد أن أصبحن يتدخلن في اختيار أولياء العهد.[2]

ولم يقتصر دور النصارى في العهد المرابطي على المجالين العسكري والسياسي بل تعداه إلى وظائف أخرى حيث عهدت لهم جباية الضرائب[3] وليس من المستبعد أن يكون المرابطين قد اضطروا إلى الاستعانة بهم تفاديا لرفق المسلمين بأهل ملتهم، وهذا ما يفهم من بعض الإشارات التي أوردتها المصادر التاريخية التي تفيد استخدام النصارى القوة مع المسلمين لجباية الأموال ووصل بهم الحد إلى استباحة الأعراض خاصة في منطقة درن.[4]

كما تعدى دورهم إلى بعض الخدمات الاجتماعية ذات الصلة المباشرة بالخدمات العامة كممارسة مهنة التطبيب، حيث برز منهم الأطباء، ويبدوا أن الضرورة الصحية قد دفعت بالمرضى المسلمين إلى الإقبال على الأطباء النصارى. ولو أدى ذلك حتى إلى كشف النسوة أجسادهن أمامهم.[5] ولعل هذا ما حذا "بابن عبدون"[6] في دعوته إلى مقاطعة الأطباء النصارى على أساس أن دواءهم غير مأمون الجانب، وأنهم لا ينصحون غير إخوانهم في الدين.

كما تجلى دورهم أيضا في خدمة بعض المرافق العامة كاستخدامهم في إيصال المياه إلى عاصمة الدولة المرابطية بعد حفرهم ما يقارب أربعمائة قناة كانت تمر عبرها مياه جبل درن إلى مبنى خاص بتجميع المياه في مراكش لتزويد المدينة بالمياه الصالحة للشرب وسقي البساتين التي انتشرت حولها والراجح أن عدد الأسرى المسيحيين الذي قدرته بعض المصادر بثلاثين ألف أسير

---

[1]- ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث، ص 89

[2]-ابن عذارى:البيان المغرب ج(4)،ص97.وانظر أيضا:عصمت عبد اللطيف دندش: أضواء جديدة على المرابطين ،دار الغرب الإسلامي ،ط1، 1991 بيروت، لبنان ،ص175

[3]- مجهول: الحلل الموشية، ص 84- 85.

[4]- النويري: نهاية الأرب مج (11) ج (24)، ص 155.

[5]- ابن الزيات يوسف بن يحي التادلي : التشوف إلى الرجال التصوف ، تحقيق د علي عمر، الناشر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ط(1)ص 262.

[6]- رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، ص 57.

كان يتناسب مع هذا العمل الضخم، الذي استفاد منه المرابطين ومن خدماتهم في المجال الزراعي الذي اشتهروا به.[1]

ثانيا: الطـــــــائفة اليهـــــــودية.

التواجد اليهودي في المغرب والأندلس.

إن الحديث عن الطائفة اليهودية في المغرب والأندلس على عهد المرابطين يتطلب منا العودة إلى العهود الأولى لتواجدها في العدوتين.فالمعروف أن اليهود يرجع تواجدهم في المنطقة إلى فترة ما قبل الفتح الإسلامي، غير أن ما يعتري الدارس في هذا الجانب هو عدم وجود نصوص تاريخية واضحة تميط اللثام عنها في تلك الفترة خاصة في المغرب الأقصى إذا ما استثنينا بعض الإشارات التي تؤكد وجود اتصال بين يهود اسبانيا وأبناء ملتهم في المغرب، وقويت رابطة الاتصال بينهم خاصة بعدما علموا بأخبار الحرية الدينية التي كانوا يتمتعون بها في ظل الدولة الإسلامية.

وعلى هذا الأساس قد انتشر اليهود في العديد من مدن المغرب الأقصى في العهد الإسلامي، فتشير المصادر إلى أن"إدريس الأول" لما أراد بناء مدينة " فاس" اشترى الموضع الذي أقام فيه مدينته عن اليهود بمبلغ خمسة الآف وخمسمائة درهم [2]،ولما شرع في فتوحه لمنطقة المغرب وجد أكثر سكان تامسنا يهودا فأدخلهم إلى الإسلام[3] وهذا ما حذا ببقية اليهود إلى الوفود عليه في جموع كثيرة تطلب منه الأمان فأمنهم في أنفسهم وأموالهم بعد أن قبلوا أداء الجزية فبلغت جزيتهم السنوية ثلاثة الآف درهم، ثم أنزلهم بالمنطقة الممتدة بين أغلان وباب حصن سعدون.[4] ولكثرة اليهود المقيمين "بفاس" وصفها "البكري" بأنها " أكثر بلاد المغرب يهود".[5]

---

[1]- الادريسي: صفة المغرب، ص 67- 68 ، مارمول: إفريقيا ج(2)، ص 47، 56.

[2]- أحمد بن القاضي:جذوة الاقتباس ، ق(1) ، ص18 .

[3]- الجزنائي: كتاب تاريخ مدينة فاس، ص 45- 46.

[4]- أحمد بن القاضي: المصدر السابق، ص 39.

[5]- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص 115.

كما استوطن اليهود مكناسة[1] وبلاد فازاز[2]وأغمات إيلان[3] وسجلماسة [4]ونكور حتى أن أحد أبوابها سمي بباب اليهود.[5]

والراجح أن يهود المغرب الأقصى لم يكونوا بمنأى عن الأحداث التي عصفت به في عصر الإمارات الزناتية نتيجة الصراعات السياسية التي اشتعل فتيلها بين مختلف الطبقات السياسية، وعليه فقد تعرض يهود "فاس"للبطش والتنكيل على يد"تميم بن زيرى" اليفرني الزناتي الذي استباح أموالهم وقتل منهم سنة 424هـ/ 1032م عدد لا يستهان به قدرته المصادر التاريخية بنحو ستة آلاف يهودي.[6]

وعلى الرغم مما تعرض له اليهود من نكبات جراء الفوضى السياسية التي عمت بلاد المغرب الأقصى إلا أن اليهود ظلوا مستوطنين به حتى العهد المرابطي.

أما في إسبانيا فكان تواجدهم أكثر بكثير مقارنة مع المغرب الأقصى وبرز دورهم خاصة في العهد القوطي إذ كانوا يتصدرون بعض الأعمال المالية والحسابية في دواوين الحكومة غير أن القوط عادة ما كانوا يكنون لهم الكراهية بسبب اختلاف عقيدتهم، وبسبب تعاملهم بالربا، فتعرضوا لكثير من المضايقات وهذا ما حذا بهم إلى محاولة قلب نظام الحكم عن طريق الثورة حينا، وعن طريق المؤامرات في أخرى.[7] وكانت الفرصة مواتية لهم بعد فتح المسلمين لبلاد المغرب الأقصى فكثّف يهود إسبانيا الاتصال بأبناء ملتهم وبالعرب المسلمين في محاولة منهم لإسقاط الدولة القوطية وهذا ما جعل الملك (Egica) 687- 68هـ/ 702م- 83هـ يدعو إلى عقد مجمع ديني سنة (694م- 75هـ) هدفه الحكم حسب رأيه في المآمرة التي دبرها يهود إسبانيا. وقد أصدر هذا المجمع مرسوما يقضي بمصادرة أملاك اليهود، وفصل أبنائهم عنهم بعد سن السابعة وتربيتهم في أوساط مسيحية حتى ينشأ هؤلاء نشأة مسيحية.

---

[1] - البيدق : أخبار المهدى، ص 76.

[2] - الحميري: الروض المعطار، ص 445.

[3] -الإدريسي: صفة المغرب، ص 69، وانظر ايضا: الحميري: الذي يسميها أغمات هيلانه: المصدر السابق، ص 46.

[4] -البكرى: كتاب المغرب، ص 148، 149، الحميري: م س ، ص 306.

[5] - البكرى: نفسه ص 90، الحميري: نفسه ص 577.

[6] – أحمد ابن القاضي: جذوة الاقتباس ، ص 173.

[7] – أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص 52.

وكان هذا القرار قد أثار غضب اليهود وحقدهم على الدولة القوطية[1] فوجدوا ضالتهم بعد عبور المسلمين إلى الأندلس حيث تقربوا منهم وكشفوا لهم عورات البلاد، وكان بديهيا أن يكافئهم المسلمين نظير تلك الخدمة، فاتخذوا منهم حرسا لما يفتحونه ولقوا بعد ذلك تسامحا قلما وجدوه من قبل[2]

و مع استقرار الأمر للمسلمين في الأندلس زادت مكانة اليهود في ظل الدولة الإسلامية، ونالوا حظوة كبيرة أوصلتهم إلى أعلى المراتب في السلطة. وحسبنا في ذلك إلى ما وصل إليه اليهود في بعض الإمارات الطائفية كإمارة غرناطة التي أصبحوا فيها أصحاب الحل والعقد[3] وهذا وهذا ما حذا"بابن عذارى" إلى وصف تلك الظاهرة بقوله: "وصارت باليهود صولة على المسلمين".[4] فتنامت أعدادهم بعد أن أصبح الأندلس مكان جذب لهم فقدر بعض الباحثين عددهم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ما بين 20 ألف إلى 30 ألف يهودي.[5] وقد استقرت الطائفة اليهودية في مختلف المدن الأندلسية.

ويبدوا أن عددا قليلا منهم قد استقر في البوادي بحكم ابتعادهم عن العمل الزراعي وتعاطيهم كليا للتجارة، وعلى هذا الأساس كان تمركزهم أكثر بالمدن المعروفة آنذاك كمحطات تجارية، أو الواقعة في طرق تجارة العبور وأهمها "غرناطة" التي كانت تعرف باسم " غرناطة اليهود" لأن نازلوها من اليهود.[6] كما عرفت "اليسانة" و"طركونة" باسم مدينتي اليهود.[7]إشارة إلى كثرة العنصر اليهودي بهما،هذا فضلا عن مدينة "قرطبة" التي كانت بها حارة

---

[1]- أحمد مختار العبادي :في تاريخ المغرب والأندلس، ص 53.

[2]- المقري : نفح الطيب مج (1)، ص 263. وانظر أيضا: حسين مؤنس: فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (711م/ 756م، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر ، 959 1، ص 523.

[3]- عن المراتب السياسية التي وصل إليها بعض العناصر اليهودية. انظر: ابن عذارى: البيان المغرب ج (3)، ص 264.

[4]- نفسه ص 265، وانظر أيضا : أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، تعريب. فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان ، الطبعة العربية الأولى، 1423هـ/ 2002م، ص 148.

[5] -dufourcq: (C E.) la vie qoutidienne : p 187

[6]- الحميري : الروض المعطار، ص45.

[7]- الإدريسي :صفة المغرب ، ص205، 191.

حارة تعرف بحارة اليهود.[1] فكيف كان حال هؤلاء في العصر المرابطي؟ وما دورهم إبان تلك الفترة؟.

وضعية اليهود الاقتصادية والاجتماعية والدينية

وضعيتـــهم الاقتصــــــــادية

إن حال اليهود في العصر المرابطي لا يختلف عن حال باقي فئات أهل الذمة عامة ولعل الاختلاف الوحيد يكمن في ارتباط هذه الطائفة بالجانب السياسي والمالي للدولة خاصة ونحن ندرك أن الدولة المرابطية دولة مغازي فكانت بحاجة ماسة إلى الأموال، واليهود كانوا يشكلون موردا هاما لاقتصاديات الدولة سواء عن طريق الجزية أو عن طريق الضرائب التي يدفعونها عن التجارة [2]خاصة. وأنهم سبق لهم في عصر الطوائف بالأندلس أن سيطروا على المناصب الإدارية والاقتصادية، فضلا عن سيطرتهم على أعمال الصيرفة[3]واستقرارهم بالمدن الجنوبية للمغرب المؤدية إلى ذهب السودان الغربي[4]، الشيء الذي مكنهم من الدخول في انتعاش مادي لا مثيل له له وأعطيت هذه السيطرة ثمارها في العصر المرابطي إذا أصبحوا يشكلون طبقة ثرية ذات سمعة كبيرة، وهذا ما حذا بصاحب "الاستبصار" أن يصفهم بقوله:"إن بعضهم صار عنده المال الممدود"[5]،فكان بديهيا أن ترمقهم أنظار الأمراء المرابطين خاصة وأنهم على جانب كبير من الثراء مما دفع "يوسف بن تاشفين" سنة 464هـ/1071م إلى فرض فريضة ثقيلة قدرها ابن عذارى[6]"بمائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار" وهذا ما ينظر إليه بعض المؤرخين على أنه تعسف واضطهاد للطائفة اليهودية.[7]

وحسبنا أن "يوسف بن تاشفين" قبل إقباله على هذا الإجراء يكون قد استفتى العلماء في ذلك، وشفيعنا في ذلك أن "يوسف بن تاشفين" حينما أراد أن يفرض المعونة على سكان

---

[1]- O'callaghan. Joseph. F. A: History of medieval Spain Ithaca, 1975 , p286

[2]- د أوليفياريمي كونسبتل: التجارة والتجار في الأندلس، ص199،200.

[3]- أنظر عن ذلك مثلا: ابن عذارى: البيان المغرب، ج3، ص264-265.

[4]- الحميري: الروض المعطار، ص306.

[5]- مجهول: ص202.

[6]- البيان المغرب ج(4)، ص23.

[7]- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ج(2)، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي، ط1، 1949، ص180، وانظر وانظر أيضا: فليب حتي: تاريخ العرب، مج II، ترجمة مبروك نافع ، ط(3) دار العالم العربي ، 1952، ص704.

الأندلس عارضه فقيه المرية وقاضيها "ابن الفراء"[1] واشترط عليه أن يحلف في حضرة العلماء بأن بيت المال خال من الدراهم ولا يملك شيئا.[2] أضف إلى ذلك أن "يوسف بن تاشفين" والأمراء المرابطين الذين خلفوه لم يستثنوا باقي طبقات المجتمع المرابطي في حالة احتياجهم للمال. وما يؤكد هذا الرأي أن "عليا بن يوسف" فرض (سنة 530هـ/1135م) معونة على أهل المدن المغربية لتجهيز جيشه فكان نصيب أهل "فاس" لوحدها من تلك المعونة عشرين ألف دينار.[3]

على ضوء الحقائق السابقة يمكننا القول أن العلاقة التي تربط الدولة المرابطية والطائفة اليهودية علاقة جدلية ذات صلة كبيرة باقتصاد الدولة قوة وضعفا،ويزداد ذلك وضوحا من خلال تتبعنا لمناطق استقرار اليهود التي سبق وأن أشرنا إليها فكان ارتباطهم بالمدن التجارية ارتباطا وثيقا سواء في المغرب أو الأندلس. فكانت لهم بها أحياء خاصة سميت بأسمائهم. ولدينا من ذلك نماذج نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ربض باب اليهود في قرطبة.[4]

والراجح أن حي اليهود "بقرطبة" لم يكن حكرا على الطائفة اليهودية فحسب بل كانت فيه دورا للمسلمين ويفهم ذلك من الإشارة التي أوردها "ابن سهل" في إحدى القضايا التي عرضت على قاضي الجماعة "بقرطبة" من طرف أحد وكلاء يتيم يطلب فيها بيع دارا له "لقربها من دور اليهود حيث تباع الخمر ومجمع أهل الشر والفساد"[5]،وكانت حجة وكيل اليتيم لإقناع قاضي الجماعة والفقهاء "بقرطبة" بأنه أراد أن يخرج اليتيم من مجتمع اليهود إلى مجتمع الإسلام. أما مدينة اليسانة فكان وسطها خاصا بالطائفة اليهودية دون أن ينازعهم في ذلك مسلم البتة على

---

[1]- هو عبد الله بن الفراء كان قاضيا في المرية، وهو الذي رد على طلب أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين لما طلب المعونة من أهل الأندلس ومما جاء في رده قوله: "أما بعدما ذكر أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخري عن ذلك وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب (ض) اقتضاها، وكان صاحب رسول الله (ص) وضجيعه في قبره ولا يشك في عدله فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك مترلته في العدل فالله سائلهم عن تقلدهم فيك...انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان مج(7)، ص117-118.

[2]- المقري: نفح الطيب مج(3)، ص386-387.

[3]- ابن القطان: نظم الجمان، ص250.

[4]- المقرى : نفسه مجI، ص466 .انظر أيضا: محمد عبد الوهاب خلاف: قرطبة الاسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي الميلادي –الخامس الهجري- الحياة الاقتصادية والاجتماعية، الدار التونسية للنشر أفريل 1984، ص266.

[5]- ابن سهل: ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام ،تحقيق د يحي مراد دار الحديث القاهرة ط 2007،ص104.

حد تعبير "الإدريسي" الذي عاصر فترة الدراسة في حين كان ربضها للمسلمين مع قلة من اليهود.[1]

مما سبق يتضح لنا أن بعض اليهود قد فضلوا الانعزال من تلقاء أنفسهم سواء في الأندلس أو خارجه وتآلفوا فيما بينهم إلى درجة جعلت " أوليفيا ريمي"[2]. تذكر أن التجار اليهود الذين يعملون خارج بلادهم قد شكلوا نوعا من النادي المغلق حيث يعرف بعضهم بعضا وبصورة عامة لا يمكن لغير اليهود أن يشارك فيه.غير أن هذا الانعزال لم يشكل قاعدة عامة تجري على سائر اليهود فالنصوص التاريخية تشير إلى تعايش وتفاعل كبير بين المسلمين واليهود فرضته الوحدة الجغرافية وظروف الحياة اليومية خصوصا في المعاملات التجارية.

فبالنسبة للأولى: تشير إحدى النوازل إلى سكن أحد اليهود بجوار مسلم وشربهما معا من بئر واحدة [3]، بل أن دور اليهود كانت ملاصقة أحيانا للمساجد[4] وحسبنا في ذلك أن "علي بن يوسف" لما عزم على توسيع "جامع القرويين" لضيقه من كثرة المصلين اشترى الأملاك الواقعة إلى قبلة الجامع وقيل أن أكثرها كان ملكا لليهود.[5]

أما الثانية: فقد أوردت لنا الأمثلة العامة ما يكشف عن تعامل اليهود مع المسلمين يوميا في التجارة، وهذا ما خلق تواصل واندماج فيما بينهم.[6] ولعل ما يؤكد هذا الاندماج في المجال التجاري أن" الونشريسي" أورد فتوى تعالج شكوى من باعة جوالين يهود تتحدث خاصة عن سهولة وصولهم إلى النساء في البيوت لبيعهن البضائع[7] وقد سلطت هذه الشكوى الضوء على القابلية الخاصة للتجار اليهود للتحرك في الوسط الاجتماعي دون تمييز فوصل بهم الحد حتى الولوج إلى القسم الخاص بسكن النساء.

---

[1]- صفة المغرب ، ص205.

[2]- أوليفيا ريمي كونستيل: التجارة والتجار في الأندلس، ص107.

[3]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد السفر 1، ص 605.

[4]- الونشريسي: المعيار ج (7)، ص 53.

[5]- أحمد بن القاضي: جذوة الاقتباس، قسم1، ص 68.

[6]- من بين الأمثلة " من فتح حانوت للتجارة يبيع من اليهود والنصارى" الزجالي:أمثال العوام في الأندلس ج ،1تحقيق محمد بنشريفة مطبعة محمد الخامس ،فاس 1975،ص 246.

[7]- أوليفيا ريمي: المرجع السابق، ص 114.

ومما يزيد إثبات اندماج المسلمين واليهود والتعامل اليومي معهم هو بروز بعض الخلافات والتزاعات فيما بينهم. وقد حفظت لنا نوازل الفترة ما يشير إلى ذلك من بينها النازلة التي أوردها صاحب "المعيار" والتي يشير فيها إلى تأذي المسلمين بعد شراء أحد اليهود لدار من مسلم والسكن فيه، وما انجر عنه فيما بعد من أذى لجيرانه بعد شربه للخمر.[1]

وضعية اليهود الاجتماعية والدينية

أما فيما يخص الحياة الداخلية والتنظيم الاجتماعي لدى الطائفة اليهودية فإن لليهود نفس الحقوق التي كانت للنصارى في انتخاب رؤسائهم الذين يراعون فيها أقدرهم وأعرفهم بشؤون مذهبهم.وإذا كانت الطائفة اليهودية تنتخب رؤسائها فإن السلطة الإسلامية تثبتهم بمرسوم أو ما في حكمه، ويهم المرسوم الحبر الأكبر أو الحاخام الأكبر وقد أورد "عبد العزيز بنعبد الله" اسم أحد أحبار مدينة مراكش المعروف باسم "ساموبل الفاسي" الذي اعتنق المسيحية أيام المرابطين وسمي Samuel Marrochitanus والذي كان يشغل منصبا هاما في بيعة سجلماسة[2] أما من دونهم فيعينهم رئيس الطائفة ويرشحهم لدى السلطة الإسلامية[3] وعادة ما يرأس كل جماعة منهم نفر يدعى الواحد منهم البرور، ويسمى أحيانا مقدما أو نعمانا، ولهذا النفر مجلس يعرف باسم البروريم وتمثل مهمة البرور الذي يكلف لمدة سنة مسؤولية طائفته أمام الإدارة الإسلامية خاصة فيما يتعلق بالضرائب، وباقي الالتزامات[4] كالجزية التي كانت ملزمة لهم على غرار باقي أهل الذمة، وفرض على اليهود استظهار شهادة حيثما حلوا في أرجاء القطر تثبت صحة أدائهم لها.[5]

---

[1] - الونشريسي :المعيار ج(8)، ص 437.

[2] - عبد العزيز بنعبد الله: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، معلمة الصحراء، ملحق (1) مطبوعات، وزارة الثقافة والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، 1976، ص 121.

[3] - إبراهيم حركات: المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، إفريقيا، الشرق ،بيروت لبنان 1998، ص 145- 146.

[4] - حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 535، 536.

[5] - أمين توفيق الطيبي: جوانب من الحياة الاقتصادية في المغرب في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي من خلال جنيزة القاهرة. مأخوذة من كتاب Acte du 3=eme congres du Maghreb et de la civilisation, T I . , Alger 1983, p 63

وحرصت الدولة المرابطيية أن يتم تقاضي الطائفة اليهودية أمام محاكمهم الخاصة فيما يخص نزاعاتهم وقضاياهم التي ليس فيها طرف غير يهودي دون تدخل الإدارة المرابطية في شؤونها، ولقضاتهم كامل الحرية والصلاحيات في تقدير وتطبيق ما يصدرونه من أحكام وعقوبات على بني ملتهم.[1]

أما إذا كان الخلاف بين مسلم ويهودي فإن التراع يرجع إلى المحاكم الخاضعة لسلطة الدولة المرابطية وأمام قاضي مسلم.[2] لكن يبدو أن هذا الأمر لم يكن معمولا به في جميع الحالات إذ وردت بعض الاستثناءات أين رفع التراع إلى المحاكم اليهودية. وقد حفظت لنا وثائق الجنيزة بنماذج منها كان المتخاصمان فيها رعيتين إحداهما مسلمة والأخرى يهودية. كما في القضية التي رفعها "إسحاق بن إبراهيم" ضد خادمه "أبو الحسن قاسم" إلى محكمة "دانية" سنة 1083م/ 476هـ يتهم فيها خادمه بأنه لم يحسن التصرف لبيع حمولة مرسلة من "دانية" إلى "المهدية"(بإفريقية) غير أن المحكمة لم تفصل في التراع، ورأت أنها لا يمكن إثبات الحالة، وهناك حالة أخرى عجزت فيها محكمة يهودية في الفصل فيها أيضا.[3]

مما سبق نصل إلى حقيقة واستنتاج مفاده أنه ومهما أحيلت التراعات إلى المحاكم اليهودية للفصل فيها بين المسلمين واليهود فإن المحاكم اليهودية لا تصدر حكما نهائيا، ولعل هذا ما يعيد النظر في التراع من جديد أمام المحاكم الإسلامية الخاضعة للسلطة الدولة المرابطية لإصدار الحكم النهائي. ولقي اليهود تسامحا من جانب المرابطين في تعليم أبنائهم علوم التوراة والكتابة بالعبرية، وفي ظلهم بعثت اللغة العبرية والأدب العبري من جديد.[4] وعلى غرار النصارى كان للطائفة اليهودية بعض عاداتهم الاجتماعية الخاصة بهم فيعد يوم السبت يوم عيد وعطلة لهم [5]، وسمحت

---

[1]- إبراهيم حركات: المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط ، ص 146. وانظر أيضا:ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث، ص 96- 97.

[2]- أوليفيار ريمي: التجارة والتجار في الأندلس، ص 151.

[3]- نفس المرجع، ص 133، 151.

[4]- أنظر عن ذلك مثلا ما ألفه السموءل بن يحيى بن عباس المغربي: إفحام اليهود: تقديم ودراسة Ibrahim Marazka ,Reza Pourjavady,Sabine Schmidtke Harrassowitz.Verlage Wiesbaden 2006

[5]- المراكشي: المعجب ، ص 94. وعن اتخاذ اليهود يوم السبت عيد وعطلة لهم ما يؤكده المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس الذي كان ينتظر وفود أخيه عليه من شنترين يوم الجمعة فاتاه يوم السبت، فلما لقيه عانقه وانشده:

تخيرت اليهود السبت عيدا *** وقلنا في العروبة يوم عيدا

لنا أمثال العامة رصد معلومات قيمة قلما نجدها في المصادر التاريخية عن مقابر اليهود وجنائزهم ومعابدهم، فوصفت قبورهم بأنها "شط ضيق"[1] ومن عاداتهم أنهم لم يخرجون جنائز موتاهم نحو المقابر يسيرون في صمت وخفة في المشي،[2] وهذا ما جعلهم محل نقد وسخرية.

أما فيما يخص المهن التي امتهن اليهود فتنوعت بين الوظائف الإدارية كما في عهد علي بن يوسف بن تاشفين حيث تولوا جباية الضرائب[3] والكتابة ومهن أخرى كالطب[4] والهندسة غير أن غالبية اليهود كان يمتهن التجارة والصناعة[5] واشتهر يهود "فاس" بصناعة القناديل وزخرفة المعادن[6] في حين أختص يهود سجلماسة بالبناء والكنافة اللتين اعتبرهما "البكري" من المهن الرذيلة الموقوفة على اليهود.[7]

ومهما يكن من أمر فإن ما يبرز الوضعية الإجتماعية والمكانة التي تبوأها اليهود في عصر المرابطين هو الحضور الشامل والكلي للطائفة اليهودية في معظم حوض البحر الأبيض المتوسط، واتصالاتهم المتيسرة عن طريق الروابط العائلية، والشراكة مع غيرهم وهذا ما مكنهم من خلق شبكة اتصالات تجارية قوية فزادوا ثراء لدرجة أن البعض منهم كان يمتلك عبيد للاستعانة بهم

فلما أن طلعت السبت فينا *** أطلت لسان محتجّ اليهود

انظر: المقري : نفح الطيب مج (3)، ص 447- 448.

[1]- ابن عاصم : أمثال ابن عاصم من كتابه" حدائق الأزاهر" منشورة ضمن كتاب: إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين، دراسات مهداة من أصدقائه وتلاميذه، أشرف على إعدادها، عبد الرحمان بدوي، دار المعارف مصر 1962 مثل رقم 571، ص 340.

[2]- انظر عن ذلك: المثل الذي أورده ابن عاصم: جنيزت يهودي الجري والسكوت: نفس المصدر مثل رقم 364، ص 324.وانظر أيضا: سامية مصطفى مسعد: صور من المجتمع الأندلسي، ص 102.

[3]- وهذا ما يفهم مما أورده ابن عذارى في قوله "وجعلهم يحقدون على المسلمين في مغامرتهم، ويأخذون منهم في نفقاتهم وأكثر ما يجب عليهم:انظر ابن عذارى: البيان المغرب ج(4) ص102، 103. وانظر أيضا: عز الدين موسى: النشاط الاقتصادي ص171، ويخالفه هذا الرأي لكنه لم يحسم رأيه في ذلك انظر: محمد الأمين بلغيث: الحركة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين 479هـ/539هـ 1085-1144م أطروحة دكتوراه دولة، إشراف عبد الحميد حاجيات، معهد التاريخ، 2003 ص603.

[4]- ابن عذارى: المصدر السابق ص77، وانظر أيضا: عن ممارسة اليهود للطب: ابن عبدون: رسالة في آدا ب الحسبة والمحتسب، ص57

[5]- اوليفيا ريمي: التجارة والتجار في الأندلس، ص113.

[6]- حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ص368

[7]- كتاب المغرب ،ص148، 149.

في تصريف تجارهم[1]، وقد أوردت لنا نوازل الفترة المعاصرة للدراسة إشارات تؤكد ملكية اليهود للعبيد.[2]

ومما لا شك فيه أن شبكة الاتصالات والرابطة اليهودية التي أقامها اليهود في عالم البحر الأبيض المتوسط مكنتهم من افتداء أسراهم من اسبانيا النصرانية وحسبنا أن الرسالة التي كتبها أحد يهود طليطلة سنة 520هـ/1126م حول فدية سجينة يهودية في مملكة أرغون لخير دليل على ذلك. وفي السياق نفسه نجد رسالة أخرى كتبها أحد التجار من ذوي السمعة العالية والمكانة المرموقة إلى أحد أصدقائه يطلب منه الاتصال بأقاربه وبصاحب الشرطة لإطلاق سراح السجينة المذكورة[3].

ومما لا جدال فيه أن لشبكة العلاقات القوية التي تربط يهود الأندلس مع بني ملتهم في عالم البحر الأبيض المتوسط واسبانيا النصرانية خصوصا نجد أن المسلمين كانوا يستعينون بهم لفداء أسراهم. وقد أوردت لنا "أوليفيا ريمي"رواية تؤكد أن تاجرا يهوديا استؤجر من مسلم لإنقاذ بناته اللواتي أسرن من قبل المسيحيين في حصار برباسترو(Barbastro) سنة 1064م/476هـ وعلى الرغم من أن المحاولة لم تنجح فقد ضلت حكاية التاجر اليهودي مثلا على النخوة العالية، وعدم التعصب[4].

من خلال ما سبق يتضح لنا أن اليهود قد احتلوا مكانة اجتماعية هامة لا تختلف عن باقي الطوائف المشكلة للمجتمع المرابطي، وأنهم ساهموا في الحياة الإجتماعية والاقتصادية، لكن هذا لم يمنع بعض المؤرخين الغربيين[5] ومن سايرهم في هذا الركب من الباحثين العرب[6] من أن اليهود اليهود تعرضوا إلى بعض المضايقات خاصة في عهد "يوسف بن تاشفين" وولي عهده واتخذوا من الفريضة التي فرضها يوسف بن تاشفين سنة 464هـ/1071م على يهود المغرب والتي قدرها

---

[1]- اوليفيا ريمي: التجارة والتجار في الأندلس ص113

[2]- ابن سهل: ديوان الأحكام الكبرى: ص 168 -169.

[3]- ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث ص98.

[4]-اوليفيا ريمي: المرجع السابق ص114.

[5]- انظر ما قاله المؤرخ الألماني بروكلمان: عن يهود" اليسانة"أنهم اشتروا حرية العبادة بجزية ثقيلة، تاريخ الشعوب الإسلامية الإسلامية ص323

[6]- ابراهيم القادري بوتشيش: المرجع السابق ص98. وانظر أيضا: موسى عز الدين: النشاط الاقتصادي ص112.

ابن عذاري[1] بمبلغ مائة ألف عشرية ونيف على ثلاثة عشرألف دينار وعلى يهود اليسانة بالأندلس سنة 496هـ/1102م[2]، ذريعة لرمي التّهم على يوسف بن تاشفين لدرجة أن وصل الحد "ببروكلمان"[3] أن يقول "أن يهود اليسانة اشتروا حرية العبادة بجزية ثقيلة".

ولتفنيد ما ذهب إليه هذا الأخير على أساس اعتبار ما فرضه يوسف بن تاشفين "جزية" فإننا نرى في مثل هذه الحالة أن يوسف بن تاشفين لم يخرج عن الإطار الشرعي الواجب إتباعه مع أهل الذمة الذي ينص صراحة على أن يدفع أهل الذمة الجزية، وفي هذه الحالة يكون اليهود من ضمن هؤلاء،وأن الإجراء الذي اتبعه يوسف بن تاشفين لا يدعو إلى الاستغراب خاصة لمن وقف على سياسة المرابطين المالية إذ لم تكن هذه الفريضة أو الضريبة قاصرة على اليهود فقط بل جبل المرابطون على فرض مغارم ومكوس على مختلف الشرائح الإجتماعية كضريبة المعونة وضريبة التعتيب وغيرها من الضرائب الأخرى التي كان يقوم عليها كيان الدولة المرابطية[4] وعليه وعليه نجد أن "يوسف بن تاشفين" أقدم على فرض تلك الضريبة على يهود المغرب سنة 464هـ/1071م، والدولة في طور البناء، وأكملها على يهود الأندلس لما توسعت الدولة وشملت العدوة الأندلسية وهدفه من جمع تلك الأموال هي "الاستعانة بها عمن يقف في سبيله[5] خاصة من الممالك النصرانية، فوجد "يوسف بن تاشفين" في يهود "اليسانة" المشهورين بثرائهم الفاحش[6]ما يعينه على تلبية رغبته الجهادية ومطالبة الحرية.

وأخيرا أن "يوسف بن تاشفين" قبل أقدامه على فرض تلك الفريضة على اليهود كان قد استشار قاضي الجماعة أبا عبد الله محمد بن علي بن حميد بن التغلبي في الأمر[7] خاصة ونحن نعلم نعلم تمام العلم أن "يوسف بن تاشفين" لا يقدم على قرار إلا بعد استشارة الفقهاء والأخذ فيها برأيهم ثم يقضي فيما بعد على نفسه بفتواهم[8] وهذا الذي تم مع قاضي الجماعة الذي جاءه

---

[1]- ابن عذارى: البيان المغرب ج(4)،ص23

[2]- مجهول : الحلل الموشية ص81.

[3]- تاريخ الشعوب الإسلامية ص 323.

[4]- الونشريسي: المعيار ج(11) ص132، ابن عذارى: المصدر السابق، ص73، 74.

[5]- مجهول : الحلل الموشية ص25.

[6]- عن الثراء الذي بلغه يهود "اليسانة" أنظر: الإدريسي: صفة المغرب ص205.

[7]- مجهول: ص81.

[8]- ابن عذارى : المصدر السابق، ص46.

بقرينة حدثت في التاريخ الإسلامي مفادها: أن أحد عمال "البحرين" جمع اليهود في كامل عمالته ثم سألهم عما يقولون في عيسى فكان جوابهم أنهم قتلوه وصلبوه، فأشار عليهم إن كانوا قد دفعوا فدية فكان ردهم بلا، ساعتها أقسم لهم بأن لا يخرجوا حتى يؤدوا ديته، ثم أغرمهم بعشرة آلاف دينار.[1]

من خلال هذه القرينة التي أوردها "صاحب الحلل" يفهم أن "يوسف بن تاشفين" لم يفرض تلك الفريضة إلا بعد أن وجد لها قرينة مماثلة، وإلا لما فعل ذلك، رغم ماله من صلاحيات تؤهله لاتخاذ أي إجراء من هذا النوع أين ما كان وحيثما شاء.

أما من وصف عهد المرابطين بالتعصب والاضطهاد الديني[2] فالراجح أنهم استغلوا النص الذي الذي أورده صاحب "الحلل الموشية" ومفاده أن سبب جواز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس الجواز الرابع قاصدا مدينة "اليسانة" تحديدا أن رجلا من فقهاء الأندلس وجد مؤلفا من تأليف ابن مسرة الجبلي القرطبي أخرج فيه حديثا رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم "أن اليهود ألزمت نفسها أنها إذا جاءت السنة الخمسمائة من مبعث الرسول "ص" ولم يجئهم نبي منهم على ما زعموا فإن الإسلام لازم لهم".[3] فاتخذوا من هذا النص مطية للتحامل على المرابطين وعلى "يوسف بن تاشفين" وفسروا عبوره إلى الأندلس أساسا لإجبار اليهود على اعتناق الدين الإسلامي لكن وبقراءة متأنية للنص تتضح لنا عدة نقاط يمكننا أن ندحض بها ما ذهب إليه الغربيون. ومن انساق نسقهم من الباحثين العرب و يمكننا إجمال تلك النقاط فيما يلي:

أولا: أن النص الذي أورده " صاحب الحلل" لم يشر صراحة أن يوسف أجبر اليهود على اعتناق الدين الإسلامي، و إنما المؤلف يذكر بصراحة العبارة أن يوسف" اجتاز إلى مدينتهم ليرى ما يصنع فيهم"[4] من هذه العبارة يتضح لنا أن يوسف بن تاشفين لم يجبر أصلا اليهود على التخلي عن دينهم واعتناق الدين الإسلامي،ولم يتخذ قرار في ذلك.

---

[1]- مجهول:الحلل الموشية ، ص81.

[2]- عن الأوصاف التي وصف بها المرابطون انظر. عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق، حسين مؤنس ط(I) مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، 1997 ص49- 53.

[3]- مجهول: ص80.

[4] – مجهول: المصدر السابق، ص 81.

ثانيا: أن ما يزيد من هشاشة هذا الرأي الاستنتاج الذي خلص إليه" أحد الباحثين"[1] و مفاده أن الحديث الذي نسب إلى الرسول صلى الله عليه و سلم لا أساس له من الصحة، وإنما هو حديثا موضوعا ومختلقا، وإلا كيف نفسر مطالبة يوسف بن تاشفـــين اليهود اعتناق الإسلام في سنة 496 هـــ/ 1103م بينما نص الحديث المزعوم على ظهور نبي اليهود على رأس السنة الخمسمائة من الهجرة ، أي أنه لا يزال على موعد الظهور أربع سنوات.

ثالثا: مما لا جدال فيه أنه جواز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة 496 هـــ/1003 م ليس القصد منه إجبار اليهود على اعتناق الدين الإسلامي، و إنما الغرض منه كما حدده صاحب"الحلل" و شاركه في ذلك " ابن عذارى" أنه كان برسم التجوال في الأندلس و النظر في مصالحها، و من بينها تنظيم البيعة لولده " علي"[2]

و يبدوا أن خروج" يوسف بن تاشفين " إلى مدينة " اليسانة" كان عرضيا لأن " يوسف" في هذه الفترة كان في حاجة ماسة إلى استقرار الأوضاع بالأندلس، و حسبنا أن الشروط التي اشترطها على ابنه من أجل تقديمه لولاية العهد ،كترتيب قوة عسكرية مكونة من سبعة عشر آلاف فارس في الأندلس[3] لإحكام قبضته عليه يفهم منها أن " يوسف" لا يريد فتح أي باب من أبواب المناوئين لولي عهده خاصة باب اليهود المعروفين بدسائسهم. و لعل ما يزيد ترجيح هذا الرأي تلك الوصايا التي أوصى بها " يوسف بن تاشفين " ولده و التي تدل على خبرة ودراية وبعد نظر، فأوصاه أن لا يحاول إثارة أهل" درن" و من والاهم من" المصامدة" ،وأهل الجنوب، وأن يترك بني هود على ما هم عليه من الاستقلال حتى يكونوا حائلا بينه و بين النصارى ،وأن يكون لأهل قرطبة وضع خاص فيقبل من محسنهم و يتجاوز عن مسيئهم.[4]

و مما لا جدال فيه أن تلك المخاوف التي أبداها يوسف بن تاشفين خوفا على ولي عهده ونصحه له تنمّ عن خبايا و أسرار لا يعرفها إلا يوسف بن تاشفين وحده، ولعل مرضه الذي

---

[1] – ابراهيم القادري بوتشيش : مباحث في التاريخ الاجتماعي ،ص 103، 104 .

[2] – مجهول:الحلل الموشية ص 77 ؛ البيان المغرب، ج(4) ، ص 42 ، 43.

[3] – عن ترتيب تلك القوة و توزيعها على بعض الأقاليم انظر : مجهول : نفسه ، ص 80.

[4] – مجهول: المصدر نفسه ، ص 82 ، 83

ذيع صيته في العدوة الأندلسية مباشرة بعد عودته منها سنة 498 هـ/1104م[1] ترجح ما ذهبنا إليه آنفا.

رابعا: لو أن " يوسف بن تاشفين" كان هدفه إجبار اليهود على اعتناق الإسلام لما فتح لهم مجالات الكتابة بحرية تامة. و لعل الأبحاث في الديانة اليهودية من الدلائل القاطعة على ما تمتع به اليهود من حرية العقيدة و الفكر في ظل الحكم المرابطي.

ويعد ظهور العديد من المفكرين و العلماء اليهود الذين أسهموا في تطوير الثقافة و الفكر اليهودي خلال العصر المرابطي دون معارضة من السلطة القائمة على نشاطهم ينم عن روح التسامح الديني الذي لاق رواجا في عهد المرابطين ،وحسبنا أن ظهور ألمع الأسماء اليهودية،واستقرارها بمدن مغربية وأندلسية كإسحاق الفاسي[2](ت 497 هـ /1103م الذي هاجر من قلعة بني حماد واتخذ من الأندلس مستقرا له سنة 481 هـ/ 1088م و موسى بن ميمون القرطبي[3] و يهودا اللاوي أو أبو الحسن اللاوي[4]،و غيرهم كثير لدليل على دحض آراء المشككين و الناقمين على المرابطين.

أما الذين يرون عدم سماح " علي بن يوسف" لليهود المبيت في عاصمة الدولة- مراكش- و قرار الأمير المرابطي أنه متى عثر على يهودى قضى ليلته في العاصمة استبيح دمه وماله[5]أنه إجحاف في حق اليهود و تضييق عليهم فنرى:

---

[1] – عن مرض " يوسف بن تاشفين ومحاولة استغلاله من طرف النصارى:انظر: ابن عذارى : البيان المغرب ، ج،(4) ، ص 44 ، 45.

[2] – ولد إسحاق الفاسي عام404هـ /1013 م بقلعة بن حماد بالمغرب الأوسط و كان يدير مركز يهوديا كبيرا بفاس البالي إلى غاية استقراره بالأندلس في عصر المرابطين لمنافسة كبار أحبار اليهود الأندلسيين في غرناطة و قرطبة و أليسانه. أنظر. بلغيث محمد الأمين: الحركة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين ،ص 606.

[3]– هو موسى بن ميمون القرطبي ولد " بقرطبة" ثم أقام بفاس مدة و منها اتجه إلى مصر حيث قضى بقية حياته، أهم ما كتبه في ا لديانة اليهودية" السيراج" و يدعي هذا الكتاب أيضا " اليد القوية" و له كتاب آخر في الديانة اليهودية يعرف " بمقالة في التوحيد" للمزيد :أنظر : مسعود كواتي : اليهود في المغرب الإسلامي ،دار هومه للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر،ص 184.

[4] – عاش بالأندلس خلال 462 هـ/1075 مـ 536 هـ /1141 م . ، كتب بالعربية كتاب " الحجة و الدليل في نصر الدين الذليل" يقال أنه حرر هذا الكتاب في مدة عشرين سنة ردا على سؤال أحد اليهود،ودفاعا عن الديانة اليهودية ، للمزيد: أنظر : كواتي : نفس المرجع ،ص 185 ، 186.

[5] – الإدريسي: صفة المغرب،ص 69 ؛ الحميري: الروض المعطار، ص 47.

أولا: أنه لو أراد " علي بن يوسف التضييق على اليهود لما سمح لهم بالدخول نهارا إلى مراكش أصلا.

ثانيا: أن " عليا بن يوسف" سمح لليهود ممارسة نشاطهم نهارا بكل حرية دون أذية لأي كان من اليهود، ولو كان الأمير المرابطي يريد التضييق عليهم لما استعان بهم هو نفسه حسب ما يفهم من أحد النصوص التي أوردها أحد الجغرافيين المعاصرين للفترة حيث يقول:" و ليس دخولهم في النهار إلا لأمور له و خدم تختص به"[1]- أي تختص بعلي بن يوسف- من هذه العبارة يفهم أن عليّا قد استعان باليهود في بعض الأعمال. وحددها أحد الباحثين[2]بأنها تخص مصالح الأمير الشخصية و التجارية منها على الخصوص.

في حين نرى أن القصد من تلك الخدمة التي تختص بالأمير هنا لها علاقة بإنجازات" علي بن يوسف "العمرانية التي اشتهر بها وخص بها عاصمته كبنائه لمسجد الكتيبين و المنارة[3] و جسر تانسيفت[4] و السور بمدينة مراكش[5].بعدما أشار عليه الفقيه" أبو الوليد بن رشد" بتصوير المدينة فكل هذه الانجازات قد أحضر إليها الفعلة و الصّناع من أوابد الدنيا على حد تعبير صاحب" الحلل".[6] و ليس من المستبعد أن يكون هؤلاء من يهود العدوتين خاصة و أنهم معروفين بتفانيهم بتفانيهم وإتقانهم البناء لأن تلك الحرفة موقوفة عليهم[7].

أما فيما يخص عدم سماح علي بن يوسف لليهود المبيت في مراكش فيرجعه أحد الباحثين[8] إلى إلى أن ذلك إجراء وقائي فرضته الظروف الأمنية خاصة أن عهد " علي بن يوسف" شهد معارك عدة سواء في العدوة الأندلسية ضد النصارى أو في العدوة المغربية ضد " ابن تومرت. فكان ذلك من باب الحيطة ضد احتمالات التجسس- و التحالف مع قوى خارجية- التي يمكن

---

[1] - الإدريسي: صفة المغرب، ص69 ؛ الحميري : الروض المعطار،ص 46.

[2] - ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي ،ص 99.

[3] - مجهول : الحلل لموشية،ص 97.

[4] - الإدريسي: المصدر السابق،ص 69 ؛ الحميري: ،ص 127 ،ص 540.

[5] - ابن عذارى : البيان المغرب، ج(4)، ص 73 ؛ مجهول ، المصدر السابق ص 97.

[6] مجهول: المصدر السابق ص97.

[7] - البكري: المغرب في ذكر افريقية و المغرب ،ص 148 ، 149 ؛ الحميري: : المصدر السابق ،ص 306.

[8] - حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس ، ص 366 ، 367

أن يقوم بها اليهود في عاصمة الدولة مقر إدارة الدولة، و تجمعات الجند و ما يتعلق بذلك من الخطط و تحركات الجيش المرابطي.

و يبدوا أن ما ذهب إليه هذا الأخير له ما يبرره إذا ما استلمنا بالفرضية التي جاء بها "مارمول"[1] و مفادها أن عدد اليهود الذين يقطنون وسط مدينة مراكش يضم تجمعا يزيد عن ثلاثة آلاف مترل. فهذا العدد الكبير تصعب مراقبته و التحكم فيه خاصة في حالة انضوائه تحت سلطة مناوئة للدولة في مثل تلك الظروف العصبية التي مرّ بها عهد " علي بن يوسف" فبتحالف الطائفة اليهودية مع أي قوى خارجية يمكنها إحداث شرخ في قوات الجيش المرابطي و قلب موازين أي معركة تخوضها ضد أعدائها.

و على هذا الأساس تم إبعاد اليهود خارج مدينة " مراكش" حيث خصص لهم حيا في ناحية باب أغمات ،وتم إحاطته بسور له باب تفضي إلى المدينة لفصلهم عن المسلمين المتواجدين بها[2] والأكيد أن هذا الإجراء يسّهل على الدولة و على الجند المرابطي التحكم في مراقبة تحركات العناصر اليهودية.

أما فيما يخص موقف فقهاء الدولة المرابطية من اليهود فهناك من الباحثين[3] من رأى أن الفقهاء المرابطين كانوا متشددين إزاء اليهود، وحسبنا أن هذا التشدد الذي أكدوا عليه لم يخص الطائفة اليهودية فقط بل شمل جميع طوائف المجتمع المرابطي بما فيهم المسلمين أنفسهم[4] وباعتبار اليهود من ضمن الفئة المشكلة للمجتمع المرابطي لذا شملهم هذا النظام.

و يبدوا أن ما جاء في المصنفات الفقهية و كتب الحسبة هو عبارة عن محاولة لتجاوز أحداث وقعت، فالفقهاء و المحتسبون بحكم وظيفتهم الدينية كانوا يهدفون إلى إصلاح السلوك الاجتماعي و الحفاظ على الحد الأدنى من الأخلاق في التعامل،وعلى هذه الأسس جاءت أحكامهم و تنبيهاتهم لما يجب أن يكون عليه حال المجتمع ككل بما فيهم اليهود، خاصة و أن هؤلاء تحكمهم أحكام أهل الذمة، فلما شهدوا بعض التجاوزات منهم حاولوا الحد منها دون أي تمييز عرقي أو ديني معتمدين في ذلك على ما جاء في الكتاب و السنة واجتهادات الفقهاء و

---

[1] – مارمول كربخال: افريقيا ج(2) ، ص55.

[2] – نفس المصدر و الصفحة.

[3] – ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث، ص 100

[4] – عن تشدد فقهاء العصر المرابطي أنظر: بيرغيشار : التاريخ الاجتماعي لأسبانيا المسلمة ،ص 981.

منها جاء إلزام اليهود بلبس لباس خاص بهم يخالف زي المسلمين ،مع إجبارهم[1] على وضع إشارة يتميزون بها كالشكلة للذكور و الجلجل للإناث و منعهم من ارتداء زي الفقهاء و الأخيار[2] لكن الواقع يثبت أن اليهود تزيوا بزي الأعيان و لم يلزموا لباسهم متجاوزين بذلك كل المحاذير الفقهية و عليه حددت كتب النوازل الفقهية لباس اليهود فذكر "الونشريسي"[3] في إحدى فتاويه أن يكون لباس اليهودي مميز عن المسلمين،بأن يجعل اليهودي رقعة مخيطة على قميصه أو برنسه أو جبته من نحو الشبر من طوقه إلى آخر الكتفين، ورقعة أخرى من قدّها على الصدر مصبوغتين،وزاد الونشريسي [4] الأمر إيضاحا أكثر فذكر أن الواجب في لباس اليهود أن لا تكون العمامة رفيعة الثمن، و لا من رقيق الكتان لما في ذلك من التباهي على المسلمين، و ألا يعظموا أكوام العمائم ،ولا يرسلوا ذوائب بين أكتافهم و ألاّ يجعلوا لها أحناكا و هو العثنون تحت الذقن لأن ذلك من زي العرب، و أجازوا لهم لبس الخاتم لكن ما صغر منها و رقّ ولطف قضيبه دون النقش عليها بالعربية، وإذا لبسوا قلانس كان لزاما عليهم أن يجعلوا في وسطها و أعلاها رقاعا من لبود حمر أو خرق يعرفون بها. و يشدون الزنانير على أوساطهم و لم يسمح لهم لباس اللون الأصفر،ولا الفاخر من الثياب و الواجب عليهم لبس الغيار و التقلد بدنانير النحاس، و الرصاص أو القصدير و جعلها في رقابهم أثناء دخولهم الحمام.

و أكد " ابن عبدون" بأن لا يدبج يهودي لمسلم[5] و لا يخدم مسلم يهودي في الحمام[6] ، وأن لا يبيع المسلمون كتبهم لليهود[7] و لا يجلس أطبائهم لتطبيب المسلمين[8].

مما سبق يتضح لنا أن ما جاء في النوازل الفقهية و كتب الحسبة من أحكام خاصة باليهود ليس القصد منها الحد من حريتهم و التشديد عليهم. بل الهدف منها هي محاولة إلزامهم بحدودهم دون تخطيها لأنه تبيّن للفقهاء و رجال الحسبة أن عدم التزام اليهود بما نصت عليه

[1] - الجرسيقي: رسالة في آداب الحسبة، ص 122.
[2] - ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة ،ص 51.
[3] - المعيار:ج (2) ،ص 257.
[4] - نفسه: ص 255-256.
[5]- ابن عبدون :المصدر السابق ،ص 49.
[6] - نفسه، ص 48.
[7] - نفس المصدر، ص 57.
[8] - نفس المصدر و الصفحة.

النوازل وكتب الحسبة نجم عنه أذى للمسلمين واتضح ذلك جليا من خلال المعايشة اليومية و الاحتكاك المباشر مع اليهود.

و يبدو أن الأحكام التي أصدرها الفقهاء و التحذيرات التي أطلقها رجال الحسبة كان لها وقعها على العامة فالأمثال الشعبية الأندلسية قد سخرت من اليهود و جنائزهم[1] و مقابرهم[2] و و معابدهم و رجال دينهم[3].كما استعملوا في أمثالهم الألفاظ القرآنية الواردة في بني إسرائيل كاللّعنة و الشقاء[4] ،و غضب الله[5]و أمثال أخرى تدل على تفضيلهم العمل في التجارة، واستعمال الحيل فيها[6] ،وتفضيل اليهودي على المسلم الذي يحترف حرفة الصناعة واحتقاره وذمه لكون هذه الحرفة موقوفة خاصة على اليهود.[7]

من خلال تتبعنا لنوازل الفترة المرابطية و تحذيرات رجال الحسبة و سخط العامة على اليهود،نصل إلى نتيجة مفادها أن اليهود لم يلتزموا بأحكام أهل الذمة التي حددها الشرع.

والراجح أن بعض تصرفاتهم عادة ما كانت تثير مشاعر المسلمين خاصة لما وصل الأمر بهم إلى الاعتداء على المسلمين و لعل حادثة قرطبة سنة 529 هـ/ 1134م التي وجد فيها أحد المسلمين مقتولا بحي من أحياء اليهود كان سببا كافيا لإثارة أهل " قرطبة، فاقتحمت منازل

---

1 – من أمثلة العامة عن جنائز اليهود قولهم: "جنيترت يهودي الجري و السكوت".انظر : عبد العزيز الأهواني: أمثال العامة ،ص 325 مثل رقم 364.

2 – ما قيل عن قبور اليهود قولهم: "قبر يهودي شط و ضيق" نفس المرجع و الصفحة، مثل ابن عاصم 571.

3 – و مما قيل في معابدهم قولهم: "بحل ربي في شنوع يتحرك و يبزق". انظر: محمد بنشريفة: تاريخ الأمثال و الأزجال في الأندلس و المغرب ج(1) ، ص 262 مثل رقم 642.

4 – منها المثل القائل: "خادم شنوع شاقي ملعون".

عبد العزيز الأهواني:المرجع السابق ، ص 328. مثل ابن عاصم رقم 396.

5 – مما جاء في هذا المجال المثل القائل: "بحال يهودي في غضب الله ".عبد العزيز الأهواني ،نفس المرجع ص 320 ، مثل ابن عاصم رقم 296.

6 – مما جاء في هذا الخصوص قولهم:"إذا رأيت اليهود يذم السلع أراد.أن يشتريه". مثل رقم 31. و يقولون أيضا: "حاج بقطاع يهود يقضيها "مثل رقم 805."إذا فلس اليهود يفتش دفاتر ولده مثل رقم 57.

أنظر: محمد بنشريفة: المرجع السابق، ص 260.

7 – و مما جاء في ذلك: "مسلم صاغ يهودي أحسن منه" انظر :محمد بنشريفة: نفس المرجع والصفحة.

اليهود و نهبت أموالهم،وقتل نفر منهم[1] ، كما تعرض يهود غرناطة لإجراء مماثل بعد عشرين يوما من حادثة قرطبة.[2].

و يشير أحد " الباحثين"[3] إلى أن حال يهود المغرب لا يختلف عن حال يهود الأندلس خاصة في أواخر الدولة المرابطية إذ تعرض يهود المغرب لحملة من البطش و التنكيل على أيدي " المهدي بن تومرت" و الخليفة" عبد المؤمن بن علي" معتمدا في ذلك على المصادر اليهودية كرسائل" الجنيزة" و بعض القصائد الشعرية التي نظمها أحد شعراء اليهود. و التي صور فيها المذبحة – على حد تعبيره- التي تعرض لها اليهود لما استولى" عبد المؤمن بن علي" على مدينة " درعة" إذ رأى الرجال و النساء و دمائهم تسيل كالماء. و لم يكتف بذلك فقط بل حدد حتى المجموعات اليهودية التي نُكّل بها، و يشير إلى أن هذا البطش الموحدي طال باقي اليهود المتواجدين في كل من " مراكش" و " فاس" و " مكناسة" و " سبتة".

و ذهبت رسالة أخرى أبعد من هذا الحد في إشارتها إلى أنه لم يبق- في عهد عبد المؤمن- شخص واحد يوصف بأنه يهودي من مدينة " بجاية" حتى " جبل طارق" ،إمّا أنهم ارتدوا عن اليهودية – أي دخلوا في الإسلام- أو قتلوا[4].

و في نفس السياق ألف" إكارد اشميد" Iggerd Hechmedرسالة عن الاضطهاد سماها " رسالة التعذيب" دعى فيها اليهود إلى ترك مواطنهم في المغرب و الأندلس و الذهاب بعيدا لإقامة مشاعرهم الدينية وقراءة التوراة بحرية دون خوف، واعتبر أكارد Iggerd Hechmed عبد المؤمن بن علي عرافا ارتكب آثاما في حق اليهود[5].

مما سبق يتضح لنا أن جل النصوص التي أوردتها وثائق الجيزة أو المصادر اليهودية تعطينا صورة قاتمة عن وضع اليهود في أواخر عهد الدولة المرابطية و بداية الاجتياح الموحدي للمغرب والراجح أن السبب في ذلك يعود أصلا إلى ندرة النصوص العربية إن لم نقل انعدامها و هذا ما

---

[1] – ابن عذارى : البيان المغرب ج(4) ، ص 93.

[2] – اوليفى ريمى كونستبل: التجارة و التجار في الأندلس، ص148.وانظر :ابراهيم القادري بوتشيش ، مباحث ص 102

[3] – ابراهيم القادري بوتشيش : نفس المرجع و الصفحة

[4]-Gouitien:,A Mediterranean society، volume. v. London، 1971, 1988 p.61.

[5] -Mohamed Kenbib :des Juifs dans une cité sainte de l'Islam : un article dans le livre (Fès medival) Paris.1991, p.167.

حذا بأصحاب الدراسات الحديثة إلى الاعتماد اعتمادا كليا على المصادر اليهودية لسد الفراغ الموجود فانساقوا وراء ما ذهبت إليه تلك الدراسات.

لكن في الواقع أن أول إشارة تمدنا بها المصادر العربية عن أوضاع اليهود بالمغرب الإسلامي مع بداية الدعوة الموحدية هو ما أورده " البيدق"[1] في أخبار المهدي بن تومرت الداعية الموحدي عند دخوله مدينة تونس ظهر يوم جمعة حيث صلى على جنائز موتى المسلمين و صلى المهدي على نعش يهودي شهد له الناس بأنه كان يؤدي الصلاة.

من الدراسة السابقة يتضح لنا أن اليهود تمتعوا بروح التسامح و الحرية الدينية — سواء مع بداية قيام الدولة أو أثناء فترة الاجتياح الموحدي للمغرب- على عكس ما ذهب إليه الغربيين[2] في دراساتهم و من نهج نهجهم من الباحثين العرب[3] نظرا لاعتمادهم على تلك الدراسات وحسبنا أن الدلائل القاطعة على ما تمتع به اليهود من حرية العقيدة و الفكر في ظل الحكم المرابطي هو ظهور العديد من العلماء و المفكرين اليهود الذين طوروا الفكر والثقافة اليهودية و هذا ما نوضحه من خلال رصد إسهامات اليهود في المجال الفكري مختلف الأدوار التي قاموا بها في المجتمع المرابطي.

إسهامات اليهود في الجانب الفكري:

مما لا شك فيه أن اليهود لعبوا دورا هامة في العصر المرابطي باعتبارهم فئة من الفئات المشكلة للمجتمع المرابطي و برز دورهم خاصة في إسهاماتهم الفكرية في شتى مناحي المعرفة و يمكننا القول أن الحقبة المرابطية تعتبر محطة من محطات تطور الفكر اليهودي إذ برزت أسماء لامعة لعلماء و مفكرين يهود يأتي في طليعة هؤلاء المفكرين" إسحاق الفاسي" (ت 497هـ/1103م الذي هاجر من قلعة بني حماد إلى مدينة فاس و منها إلى الأندلس ليتخذ من مدينة اليسانة مستقرا له في سنة 481 هـ/1088 م ويؤسس بها مدرسة أصبحت من أهم مراكز الدراسات التلموذية ، وبرع إسحاق الفاسي خاصة في الدراسات التلموذية بعد أن استغرق في

---

[1]- أخبار المهدي ، ص 11.

[2] – انظر عن ذلك ما ذهب إليه.

Jacob Oliel: Les juifs au Sahara, paris 1991 p.47.

[3] - انظر: عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ، ص 111- **115**.

شرحه للتلمود ما يقارب الخمسين سنة[1].و ممن اشتهر أيضا في الدراسات الدينية بعد إسحاق الفاسي نذكر براهام بن عزرا 466هـــ -565 هـــ/1073 - 1163م الذي شرح القوانين التلموذية في 24 مجلد[2].

أما في الفلسفة فقد برز العديد من الفلاسفة اليهود يأتي على رأس هؤلاء الفلاسفة يهودا بن الصمويل هاليفي المعروف في المصادر العربية باسم أبي الحسن 478 هـــ-544 هـــ /1085 م – 1148م صاحب كتاب " الحجة و الدليل في نصرة الدين الذليل" الذي سعى إلى نقد الفلسفة اليونانية و نقد الأديان الأخرى[3].

كما اشتهر موسى بن يعقوب بن عزرة المولود بغرناطة بين سنوات447/هـــ 452هـــ 1055- 1060م من عائلة يهودية ذات جاه و عراقة- .بمعرفته بالتوراة و الآداب اليهودية على اختلافها دينية و أدبية و شعرية، عارفا باللغة العربية و الأدب العربي نصوصا و تاريخا، كان شديد الاهتمام بالفلسفة اليهودية و الإسلامية ومن مآثره في هذا المجال الدراسة المعنونة بـــ " مقالة الحديقة في معنى المجاز و الحقيقة" التي وضع فيها معارفه الفلسفية لخدمة التوراة، و له كتاب آخر يعرف باسم "المحاضرة و المذاكرة" الذي جمع فيه عدة فنون تنوعت بين اللغة و النحو و الفلسفة و الأخلاق[4]. و من بين الفلاسفة أيضا نذكر "أبو عمران يوسف بن الصديق" الذي صنف مؤلفات في الفلسفة يهدف من خلالها إلى تعريف معاصريه بالحقائق الكبرى للأخلاق، هذا إضافة إلى جعفر بن يوسف بن حسداي الذي تأثر بابن باجة و جمعت فيما بينهما عدة مراسلات أما فيما يخص العلوم الرياضية فقد نبغ فيها السمؤال المغربي" الفاسي النشأة الذي ألف العديد من الكتب نذكر منها " رسالة في مسائل حسابية و جبر و مقابلة".و كتاب " القوافي في الحساب الهندي" و كتاب " في المياه" و كتاب آخر يعرف باسم " الباهر في الجبر" و غير هما[5].

---

[1] -محمد الأمين بلغيث: الحركة الفكرية ، ص 607 ؛ بوتشيش : مباحث ، ص 106.

[2] -ابراهيم القادري بوتشيش: نفس المرجع : ص 106.

[3] - كواتي مسعود : اليهود في المغرب الإسلامي ، ص 204.

[4] - محمد الأمين بلغيث :المرجع السابق ، ص 207- 209.

[5] - كواتي مسعود: المرجع السابق،ص 209-210.وانظر أيضا : محمد الأمين بلغيث: المرجع السابق ،ص 495.

كما عرفت الفترة المرابطية بروز عدة شعراء يهود نذكر منهم " يهودا هاليفي" الذي نظم أشعاره في قوالب و موضوعات عربية ،وألف رسالته المعروفة باسم الحجة و الدليل في نصرة الدين الذليل" ومن الشعراء اليهود أيضا " موسى بن عزرا الذي لازم كتابة الشعر مدفوعا بالألم الداخلي الذي عاشه طوال حياته نظرا لظروف حالت بينه و بين الزواج بمحبوبته[1].كما نبغ الشاعر إلياس بن مدور الطبيب الشاعر الذي كان يرد على غريمه في المهنة عن طريق الشعر[2].

و لم يقتصر شعراء الطائفة اليهودية على فئة الرجال فحسب بل تعداه إلى العنصر النسوي فبرزت الشاعرة اليهودية "قسمونة بنت إسماعيل" المولودة بغرناطة و التي تأدبت على يد أبيها فبلغت شأنا عظيما في قول الشعر إلا أن ما ميّز شعرها عن غيرها أن معظمه كان يعبر عن العزلة والمعاناة اليومية التي كانت تعيشها الشاعرة خاصة و أنها بلغت من اليأس و لم تتزوج فعبرت عن ذلك في شعرها.[3]

و مما لا شك فيه أن دور اليهود قد تجلى خاصة في حركة الترجمة من العربية إلى العبرية و اللاتينية. ونجم عن ذلك نقل الثقافة الإسلامية إلى أوروبا بعد أن نعم اليهود بالتسامح في ظل الدولة المرابطية،هذا التسامح الذي جعلهم ينعمون بالحرية التامة، فتعلموا اللغة العربية، فكان هؤلاء بمثابة وسطاء في الأندلس بين الثقافة الإسلامية و المسيحية- مساعدين للباحثين المسيحيين على ترجمة الإعمال العربية إلى اللاتينية[4].

و عليه فإن بعض الباحثين جعلوا من القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي بداية حقيقية لانطلاق حركة الترجمة سيما وأن بعض أمراء الكيانات النصرانية حرصوا على دعوة بعض المترجمين للاقامة بين ظهرانيهم نذكر منهم "موسى السيفاردي" المشهور في مجال الترجمة و الطب و الطبيب الخاص لألفونسو المحارب[5]، و ممن اشتهر من اليهود في مجال الترجمة في عهد

---

[1] - كواتي مسعود : اليهود في المغرب الإسلامي،ص 204، بوتشيش : مباحث،ص 107.

[2] - يوسف فرحات: يوسف عيد، معجم الحضارة الأندلسية ،ص 126.

[3] - المقري: نفح الطيب، مج (3) ،ص 530.

[4] - مسعود كواتي : المرجع السابق ،ص 222.

[5] - ابراهيم القادري بوتشيش : المرجع السابق ،ص 108.

الدولة المرابطية أيضا" ابراهام بن عزرا" و فرح بن سالم"وإبراهيم بن يحي" المتوفى سنة 511هـ/ 1136 م[1].

و الراجح أن مجاورة اليهود للمسلمين كانت ذات أثر عليهم سيما وأنهم درسوا بعمق العلوم الإسلامية النقلية و العقلية ، فكان البعض منهم تلامذة لابن رشد و الغزالي و بعد خروج اليهود من دار الإسلام و هجرتهم منها نقلوا تلك المعارف التي تحصلوا عليها إلى أوربا من خلال معرفتهم للاتينية ،وعلى اعتبار الترجمة مصدرا هاما للارتزاق.و عن طريق الترجمة التي كان لليهود فيها دورا كبيرا تمكن الغرب من التعرف على ابن رشد: و " أوليروي" المتخصص في الدراسات اللاهوتية يقر بهذه الحقيقة حينما يقول: و لقد نشأت بين اليهود في الواقع مدرسة رشدية قوية كانت الوسيلة الرئيسية فيما بعد في إدخال نظرياته إلى الغرب المسيحي"[2].

و إلى جانب العلوم السالفة الذكر ساهم اليهود إسهاما كبيرا في ميدان الطب أين نبغ الكثير منهم فى هذا المجال في العصر المرابطي نذكر منهم مثلاً" موسى بن ميمون القرطبي" الذي وصف بأنه" أوحد زمانه في صناعة الطب و في أعماله"[3]، ومن كثرة حرصه على مجال تخصصه كان على اتصال دائم بالأطباء، فذكر في إحدى مقالاته مناقشته لطبيبين في بلاط الأمير " علي بن يوسف"، و وصلت عدد مصنفاته الطبية إلى عشرة بين مقالة و رسالة دونت جميعها بالعربية، و نقل أغلبها إلى العبرية، و بعضها إلى اللاتينية. و أهم ما وصلنا منها " فصول القرطبي" أو " فصول موسى" التي تعد أكبر رسائله الطبية حجما و شهرة، بالإضافة إلى كتاب " المختصر" و هو عبارة عن مختصر لكتب " جالينوس" ، ناهيك عن المقالات العديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر المقالة المعروفة باسم "تدبير الصحة" و مقالة في شرح "فصول ابقراط "و مقالة" في بيان الأغراض" و غيرها.[4]

و من بين الأطباء اليهود أيضا نذكر " ابن حسداي" أبو جعفر يوسف بن أحمد " الذي تجمعه صداقة " بابن باجة " نذكر من تصانيفه الطبية "الشرح المأموني" لكتاب" الإيمان لأبقراط

---

[1] – مسعود كواتي : اليهود في المغرب الإسلامي ،ص 223.

[2] – نفس المرجع و الصفحة

[3] ابن أبي أصبيعة : عيون الأنباء ، ج(2) تحقيق نزار رضا، اصدار دار الفكر، بيروت 1956م ،ص 490.

[4]– اسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب): موسى بن ميمون حياته ومصنفاته ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط I ، 2005 القاهرة ،ص 142-153.

وشرح المقالة الأولى من "كتاب الفصول" لأبقراط[1]. ومنهم أيضا "أبو الحسن يهوذا" الذي كان يستغل أوقات فراغه لمعالجة المرضى، فكان الناس يتزاحمون عليه لشهرته، و منهم من كان في البلاط المرابطي كالطبيب سلمون أبي يعقوب،وحسن بن كنوا و غيرهم[2]، إلا أن هذا لم يمنع دعوة بعض الفقهاء إلى عدم إفساح المجال أمام الأطباء اليهود لمزاولة مهنتهم تحت ذريعة أنهم " لا يرون نصيحة إلا أن يطببّوا أهل ملتهم، و من لا يرى نصيحة مسلم، كيف يوثق"[3]

[1] – يوسف فرحات: يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية ،ص 228.
[2] –ابراهيم القادري بوتشيش : مباحث ،ص 110.
[3] – ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ،ص 57.

الفصـــــل الثـــــالـــــث

طبقات المجتمع و تصنيفاته

أولا-الطبقة الحاكمة

الأمراء

الكتاب والوزراء

الولاة

مشرفو المدن

الفقهاء

ثانيا-الطبقة الوسطى

التـــــجـــار

الصيارفة و كبار السماسرة (الوسطاء)

السماسرة

أصحاب المهن الحرة

أصحاب الوظائف الحكومية(الوظائف المتوسطة)

صاحب الأحكام

صاحب المدينة

المحتسب

ثالثا–طبقـــة العامـــة

أ- صغار التجار و الباعة المتنقلون

ب - الفـــلاحون

ج - الصناع أو الحرفيين

مهن أخرى امتهنها العامة

فئـــات أخرى من ضمن العامة

أ - الأيتام

ب - السبايا أو الأسرى

ج - العبيد

الطبقة المهمشة (المتسولين والدّعرة)

أثر المجاعات و الحروب على العامة

طبقات المجتمع و تصنيفاته

عرف المجتمع خلال عصر المرابطين تنوعا في طبقاته نتيجة الظروف السياسية و الاقتصادية التي مرت بها البلاد المغربية و الأندلسية، و سوف نحاول عرض بعض طبقات المجتمع إبان فترت الدراسة و أهميتها على النحو التالي:

أولا-الطبقة الحاكمة:

الأمراء: لقد أمدتنا المصادر التاريخية المعاصرة للفترة المرابطية بمادة وفيرة عن أحوال هذه الطبقة الاجتماعية نظرا لاهتمام المؤرخين برصد أخبارهم. و مما لا شك فيه أن وضع الجيل الأول من الأمراء المرابطين اختلف عن الجيل الثاني إذ ظل الجيل الأول من الأمراء المرابطين وفيا لروح العصبية، محافظا على تراثه الصحراوي إلى جانب خشونته وبدواته و تقشفه في الملبس و المأكل و اقتصاره على الضروري من العيش، فكان لباسهم الصوف و طعامهم خبز الشعير مع لبن الإبل ولحومها.[1]غير أن هذا التقشف في الملبس و المأكل سرعان ما تغير منذ تولى "علي بن يوسف" إمارة المرابطين إذ مثل هذا الأخير مرحلة "الحضارة" و الترف فأصبح التألق في اللباس و لطعام عادة مألوفة لدى الأمراء.[2]

و قد أمدنا صاحب كتاب" الطبيخ في المغرب و الأندلس" بألوان مختلفة من المأكولات المتنوعة والشهية التي جبل على أكلها الأمراء و ذوي النعمة [3].كما تفننوا في الملبس فقلدوا العباسيين في اتخاذ لون السواد في ألبستهم التي شملت اللثم و الغفائر القرمزية و العمائم ذات الذوابات. [4] وحملو السيوف المحلاة[5]، و أصبح نوع اللثام يرمز إلى وضع اجتماعي متميز.

---

[1]- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس ص87 وانظر أيضا: ابن عذارى :البيان المغرب ج(4)، ص 46. ابن الخطيب: أعمال الاعلام ق(3)تحقيق احمد مختار العبادى ومحمد ابراهيم الكتاني،الدارالبيضاء1964،ص 233، 234.

[2] -حسن أحمد محمود:قيام دولة المرابطين، ص422.

[3]- مجهول: كتاب الطبيخ في المغرب و الأندلس ،نشره، امبروزيو أويثي ميراندا ،في" صحيفة معهد المصري للدراسات الإسلامية"،مجلدي 9،10،1962،1961 ص 63- 85.

[4]- ابن عازى: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، المطبعة الامنية، الرباط 1952، ص 6.

[5]- مجهول: الحلل الموشية، ص 27.

و لم يقتصر تألق الأمراء المرابطين في الملبس و المطعم بل تعداه لتشيد القصور و المنيات[1]، فتفنن المهندسون في زخرفة القصور، و مختلف الأبنية التي يترلها الأمراء في أواخر العهد المرابطي و هذا ما يوافق المرحلة التي يسميها "ابن خلدون" تحصيل ثمرات الملك فيقول: " ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني و المساكن و الملابس فيبنون القصور...ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا"[2].و امتلأت قصور الأمراء بالعبيد و الخدم و الإماء والجواري من الافرنج[3] و السودان[4] وكانوا من الكثرة ما جعلهم يقسمون حسب خدماتهم داخل البلاط إذ اقتصر عمل بعض العبيد على خدمة الأميرات[5]. و مما زاد في ثراء الأمراء المرابطين و كثرة نعمهم، إغداق أمراء الثغور عليهم بالهدايا النفيسة و التحف المملوكية فأمير سرقسطة المستعين أحمد بن يوسف المؤمن كان قد وجه إلى يوسف بن تاشفين سنة 496هـ/1102م هدية ضمت أربعة عشر ربعا من أنية الفضة [6] و ظل أبي هود يتحفه و يهاديه "مما تحصل بعده من نفيس الذخائر و اليواقيت،و الجواهر و رفيع الدنانير"[7].

و لعل ما يعكس مدى الثراء الفاحش الذي عم حياة الأمراء المرابطين هدية يوسف بن تاشفين لابن عمه أبي بكر بن عمر التي كانت معظم موادها محلاه بالذهب[8] و كان لثراء الأمراء الأمراء المرابطين أن أصبح بلاطهم مقصدا للشعراء التماسا للعطايا و رجاء النوال خصوصا وأن

[1]- يوضح ذلك وصف ابن خاقان للمنية التي كان يترلها الأمير علي بن يوسف في اشبيلية، انظر:ابن خاقان: قلائد العقيان، ص 411 .والمنيات: هي بيوت ريفية تقوم وسط جنان كثيرة عامرة أنظر: سلوى عبد الخالق: الحياة الاجتماعية و الثقافية في قرطبة القرن الرابع الهجري رسالة ماجيستر كلية الآداب، دار العوم جامعة القاهرة 1990، ص 334.

[2]- ابن خلدون: المقدمة مج(I)ص 177.

[3]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق(3)، ص 259.

[4]- ابن عذارى: البيان المغرب، ج (4)، ص 23، . و انظر أيضا: عبد الإلاه بنمليح: الاسترقاق في المغرب الإسلامي بين الحرب و التجارة، ، ص 128.

[5]- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، مج (11) ج (24) ص 146.

[6] - ابن الأبار: الحلة السيراء، ج (2)، ص 249.

[7]- مجهول: الحلل الموشية، ص 76 و انظر ايضا: ابن عذارى: المصدر السابق ، ص 146.

[8] -مجهول نفسه ص ، 27. ابن عذارى:نفسه ص26

من الأمراء المرابطين من عرفوا بكرمهم و بسط أيديهم[1] حتى أن ابن الخطيب "وصف الأمير" أبا بكر بن ابراهيم" صهر علي بن يوسف أنه"كان مثلا في الكرم وآية في الجود، أنسى أجواد الإسلام و الجاهلية [2]" و يفيض ديوان "ابن خفاجة [3]"و الأعمى التطيلي[4]"و غيرهما بأروع القصائد التي كالت المدح للأمراء كيلا، فوصفتهم بعلو الهمة وأشادت بأخلاقهم المتمثلة في العرض المصون و العطاء المبذول و الخير و التقوى و حسن التدبير و الشجاعة، و مدافعة الخطوب، فضلا عن جملة من الصفات الروحية التي لا تكون إلا للأولياء[5].

غير أن ما يقدمه شعر المدح من معلومات حول فضائل الأمراء و شمائلهم لا يمكن أن يؤخذ إلا بتحفظ لأن هدف الشعراء انحصر في العطايا و الهبات، و من البديهي أن يسبحوا بحمد أولياء نعمتهم حيث تشير المصادر إلى أن بعض الأمراء انغمسوا في شرب الخمر و السمر مع الجواري و الغلمان و حسبنا أن الأمير أبو بكر بن إبراهيم جبل على شرب الخمر و السمر مع قيانه مع إفراطه في تبذير الأموال[6]. خاصة و أن القصور غاصة بالجواري الروميات اللائي أصبحن محظيات و بعضهن أمهات أولاد[7] الأمر الذي انتقده ابن تومرت بشدة ووظف دعايته ضد الأمراء المرابطين و لم يقتصر تواجد الشعراء و الجواري في البلاط لوحدهم بل تعداه ليشمل حتى بعض الفكاهيين الذين استخدمهم الأمراء للترفيه عن أنفسهم.[8]

---

[1]- ابن الزقاق: ديوان ابن الزقاق، تحقيق عفيفة محمود ديراني، طبعة درا الثقافة، بيروت، د.ت، ص 185.

[2] – الإحاطة في أخبار غرناطة ، مج I ص 218 و عن أخبار أبي بكر بن إبراهيم في الكرم . انظر:ابن الخطيب : نفسه ص219، 220

[3]- ديوان ابن خفاجة :دار صادر 1381/1961 ص 95، 126، 130، 145. و انظر أيضا: يوسف فرحات، يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية، ص 111، 112.

[4]- ديوان الأعمى التطيلي: تحقيق إحسان عباس بيروت، 1913، ص ص 16، 100، 113، 200.

[5]- نقل ابن سعيد قصائد بعض الشعراء الذين توافدوا على البلاط المرابطي، انظر: المغرب في حلى المغرب، ج (1) 1964 ص 146، 147، 257 و انظر أيضا: ابن خاقان: قلائد العقيان في محاسن الأعيان ، ص 537ـــ538.

[6]- ابن سعيد: المقتطف من أزاهر الطرف، تحقيق سيد حنفي، الهيئه العامة للكتاب، القاهرة، 1983، ص 257 و انظر أيضا: ابن الخطيب: المصدر السابق، ص 219، 220.

[7]- عصمت عبد اللطيف دندش: أضواء على المرابطين، ط I، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991، ص 174، 175. .175

[8]- المقري: نفح الطيب، مج (4) ص 72، 73 و انظر أيضا: عصمت عبد اللطيف دندش: نفس المرجع، ص 179.

وقد انحصرت القيادة السياسية في عصر المرابطين في الأمير يوسف بن تاشفين و بنيه من بعده و بذلك أصبحت أسرته تتمتع بالنفوذ و السيادة في بلاد المغرب و الأندلس و أصبحت قبيلة لمتونة تحتل مكانة مرموقة بين قبائل البربر لأن الطبقة الحاكمة تنتمي إلى هذه القبيلة بالإضافة إلى قبيلة صنهاجة و منهم جدالة و مسوفة و لمطه، و قد أشار إلى ذلك صاحب "الحلل الموشية"[1] بقوله:" وبعث (أي يوسف بن تاشفين) سنة 470هـ/1077م إلى الصحراء للمتونة، و مسوفة، و جدالة و غيرهم،يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب، و طاعة أهله و يؤكد عليهم في القدوم إليه، فوفد عليه منهم جموع كثيرة و لاّهم الأعمال و صرف أعيانهم في مهمات الأشغال، فاكتسبوا الأموال، وملكوا رقاب الرجال،وكثروا بكل مكان وساعدهم الوقت و الزمان وكثرت جموعهم، و توفرت عساكرهم."

و مع اتساع رقعة الدولة المرابطية و زيادة الموارد بدأ الأمراء و السادة ينفقون عن سعة فيذكر "حسن أحمد محمود" أن هؤلاء الأمراء والسادة اندمجوا في الحياة الاجتماعية في الأندلس و رغم أن الجيل الأول من الأمراء استطاع أن يقاوم هذا التيار و هذه المؤثرات إلا أن أمراء الجيل الثاني لم يصمدوا طويلا إذ تغلبت الحياة الأندلسية بمتعتها و بهجتها و مسراتها، فعاشوا حياة لا تختلف عن الحياة التي كان ملوك الطوائف يحيونها.[2] و بالمثل ساهم بعض الأمراء في مجالس الغناء الغناء و اللهو فنجد صاحب سرقسطة الأمير" ابن تيفوليت "اعتاد على منادمة "أبي بكر بن باجة" و كانت تطربهما قنية من القنيات المجيدات في الشعر و الغناء.[3] كما أن الشاعر" أبو بكر محمد بن الروح الشلبي" كان ينادم الأمير" إبراهيم بن يوسف تاشفين.[4]و اتخذ الأمراء المرابطين و و قوادهم من القصور الحسان مترلا لهم بعد أن تفنن المهندسون في بنائها و زخرفتها و هذا لا دليل أكيد على مدى الثراء و الترف في عهدهم، و من القصور الجميلة و البديعة التي كان أمير

---

[1]- مجهول: ص 33.

[2]- قيام دولة المرابطين: ص 421، 422.

[3]- ابن سعيد: المقتطف من أزاهر الطرف ، ص 257.

[4]- مما قاله في الأمير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين قوله:

أنا شاعر الدنيا و أنت أميرها *** فما لي لا يسري إلي سرورها

انظر المقري: نفح الطيب، مج (4) ص 72 و انظر ايضا يوسف فرحات، محمد عيد: معجم الحضـــارة الأندلســـية، ص 115.

المسلمين "علي بن يوسف" يؤثر النزول بها كلما حل بالأندلس "قصر المغرس" المطل على الوادي الكبير باشبيلية.[1] في حين أحصى "المقري" عدد الدور في القصر الكبير بقرطبة لوحده أيام لمتونة و الموحدين بأربعمائة دار و نيفا و ثلاثين، و بلغ عدد ديار أهل الدولة إذ ذاك ستة آلاف دار و ثلاثمائة دار فيقول :" و رأيت في بعض الكتب أن هذا العدد كان أيام لمتونة و الموحدين."[2]

و تجلت مظاهر الترف لدى الأمراء في ميدان التعليم فخصوا لأبنائهم بعض المؤدبين لتدريسهم داخل القصور، واختاروا لهم أجود المدرسين مثل "أبو عيسى لب بن عبد الوارث اليحصبي" الذي انتهى إلى غاية نبيلة في العلم فصار يقرأ أبناء أعيان دولة اللثام،[3] و مثله" أبي بكر بن الدوس" الذي اشتهر بالإقرار واقتصر بذلك على الأمراء و لم ينحط لسواهم[4]" كما جلس "الأمير إسحاق" لدى" أبي علي الصدفي" مجلس الدرس.[5]و لعل ما يؤكد حرص الأمراء و تفانيهم في تحصيل العلم و المعرفة أن الأمير "يوسف بن تاشفين" لم يكن يجيد اللغة العربية،[6] و رغم كبر سنه حاول تعلمها، فضلا عن شغفه بمجالسته للعلماء[7]، كما عمل بعض الأمراء أمثال أمثال المنصور بن محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجي اللمتوني على جمع كل ما هو نفيس فأصبح "منافسا في الدواوين العتيقة و الأصول النفسية، جمع من ذلك ما أعجز أهل زمانه"[8]وكان لمحمد بن ياسين اللمتوني"همة رفيعة في اقتناء الكتب"[9] هذا ناهيك عن أمراء آخرين تفانوا في طلب العلم و تكبدوا إزائه عناء الرحلة و مشقاها.[10]

---

[1]- عبد العزيز سالم: المساجد و القصور في الأندلس ،الاسكندرية 1986 ص 119.

[2]- نفح الطيب مج (1) ص 540.

[3]- يوسف فرحات،محمد عيد: معجم الحضارة الاندلسية ص 123.

[4]- ابن خاقان: مطمح الأنفس و مسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق علي شوابكه،مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983ص300

[5]- ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي،نشر غودير أوزايدين مدريد 1885 ، ص 55، 56.

[6] -ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج 5، ص 471.

[7]- ابن عذارى:البيان المغرب ج4 ص 46.

[8]- ابن الأبار: المصدر السابق ص 139.

[9]- السلفي: أخبار و تراجم أندلسية، تحقيق احسان عباس، بيروت 1963 ص 60، 145.

[10]- ابن عبد الملك: الذيل و التكملة، س (8)، ق (2)، تحقيق محمد بن شريفة، بيروت، د، ت، ص 427

وعلى الرغم من اهتمام الكثير من الأمراء بالعلم نجد بعض الأمراء تطاولوا على حرمة مدرسيهم و هذا ما نستشفه من رسالة الأمير "علي بن يوسف" لابنه يعنفه و يقرعه و يتوعده على ما صدر منه اتجاه شيخه "أبي مروان بن زهر" بقوله: "كتابنا ألهمك الله رشد نفسك من حضرة مراكش بعد وصول الوزير الجليل أبي مروان بن الوزير أبي العلاء بن زهر محل أبينا، يشكو ما يكدره و يقايسه من تضريبك فامسك عليك رمقك، و خذ من الأمور ما يسر وإلا أنفذناك إلى ميروقة".[1]

و يبدوا لنا أن المناصب الكبرى في الدولة كمناصب الوزراء وحكام الولايات (الولاة) و قيادة الجيش، كانت وقفا على أفراد البيت الحاكم كي يضمن أمير المسلمين ولاء هؤلاء الولاة و القادة له، و يندرج ضمن الطبقة الحاكمة الوزراء، و معلوم أن وظيفتي الكاتب والوزير تتداخلان إلى حد يصعب الفصل بينهما وعليه فإننا سنعرض لهما معا.

الكتاب والوزراء

يعتبر" ابن خلدون" خطة الكتابة كإحدى الصنائع التي تؤدي إلى مخالطة الملوك في خلواتهم و مجالس أنسهم"فلها بذلك شرف ليس لغيرها" [2] و تبرز أهمية الكاتب في المرحلة التي يشب فيها عود الدولة و يشرع الأمراء في تحصيل ثمرات الملك من الجباية و الضبط و مباهاة الدول و تنفيذ الأحكام فالكاتب هو المعين لهم في هذه المرحلة و عليه "يكون أرباب الأقلام فى هذه الحالة أوسع جاها، و أعلى رتبة و أعظم نعمة و ثروة و أقرب من السلطان مجلسا"[3].فحاجة الدولة المرابطية للكتابة تجلت في ضرورة توجيه الأمر للرعية و إرسال الرسائل للملوك والسهر على قوائم المستحقين للخراج و الجزية ،و مختلف الجبايات و المواريث وبيت المال، و ما يتطلبه ذلك من حسابات دقيقة هذا فضلا عن اتساع رقعة الدولة و ما يتطلبه ذلك من نقل للإخبار سواء في أيام السلم أو الحرب عبر المراسلات و كذا ضبط مقدار الغنائم و توزيعها.و قد حدد"

---

[1] –حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين و أيامهم في الأندلس، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد 1968، ص 70.

[2] – ابن خلدون: المقدمة، مج I، ص 432.

[3] –نفسه ص 271.

المواعيني "[1]بعض الشروط الواجب توفرها في الكاتب و من جملتها حلاوة الشمائل و حسن الإشارة، و طلاقة العبارة، و أضاف لها "ابن خلدون[2]" شروطا أخرى بحيث يختار صاحب هذه الخطة من أرفع طبقات الناس و من ذوي المروءة و الحشمة منهم، و زيادة العلم.

و من خلال الشروط المحددة لتولي خطة الكتابة تتضح لنا مكانة متوليها، و هذا ما تجمع عليه كل المصادر من أن الكتاب شملتهم رعاية الأمراء فبلغوا مترلة عالية و جاها عريضا لا يقل عن جاه الفقهاء و حسبنا أن تولي هذا المنصب كان مدعاة للتهنئة ، و هناك من الكتاب من جمع بين الكتابة و الوزارة حتى أن "الفتح بن خاقان" ترجم لبعضهم و أطلق على كل واحد منهم "اسم ذي الوزارتين".[3]وعاش الكتاب و الوزراء حياة البذخ و الترف و تكدست لديهم الأموال و الثروة الطائلة بفضل الهبات و الأعطيات التي أنعم عليهم بها الملثمون،[4] وتجلت مظاهر ترفهم في إقامتهم بالقصور و المنيات و حيازتهم الضياع و الإقطاعات و حسبنا وصف ابن خاقان[5] لضيعة الوزير أبي الحسن بن أضحى و إيراده نصا حول إقطاع الوزير المشرف أبي محمد بن مالك غني عن كل بيان، كما شملت أملاكهم الخدم و العبيد و الغلمان[6].

ونظرا لثرائهم حضيوا بمدح الشعراء طلبا للعطايا[7]لكن هذا لا يعني أنهم قد سلموا من العوام الذين صبوا عليهم جام غضبهم و هذا ما نستشفه من أمثالهم لدرجة أنهم وصفوهم بأقبح

---

[1]- ريحان الألباب و ريعان الشباب في مراتب الآداب، مخ، الخزانة الحسنية رقم 7647 ورقة 104.

[2] - المقدمة ص 260

[3]- الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس و مسرح التأ نس في ملح أهل الأندلس، تحقيق علي شوابكه،مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983 ص 217 .و من الكتاب الذين تلقبوا بهذا اللقب نذكر على سبيل المثال محمد بن الحاج و محمد بن مسعود بن خالصة المعروف بابن أبي الخصال انظر: ابن الخطيب: الإحاطة أخبار غرناطة مج 2 ص 269 و انظر أيضا: ابن خاقان : قلائد العقيان ص 421 هامش 1

[4] – و من الأمثلة على ذلك العطاء الذي أعطاه الأمير أبو بكر بن إبراهيم المشهور بابن تيفلويت صاحب سرقسطة للوزير أبا بكر بن الصائغ عطاء قل نظيره في ذلك الوقت و هو عبارة عن سبعة أحمال من الثياب و الفرش و المال ،وقدر بما قيمته اثني عشر ألف دينار ذهب انظر: ابن الخطيب: الإحاطة مج(1) ص 220

[5]- قلائد العقيان، ص 418-419

[6] –المقري: نفخ الطيب مج(3)، ص 232

[7]– ابن قزمان: ديوان ابن قزمان نشر ،د.كورينطي ،المعهد الاسباني العربي مدريد ،1980م، ص 594

الأوصاف[1].و بالرغم من ذلك كان لنفوذهم الاجتماعي و الاقتصادي داخل الدولة أن مكّنهم ذلك من لعب بعض الأدوار السياسية في العهد المرابطي[2].

الولاة: أما الولاة فإن وضعهم لم يكن أقل شانا خاصة أن معظمهم ينتمون إلى الطبقة الحاكمة ، و قد أمدنا "ابن الخطيب" بمعلومات وافية عن والي سرقسطة أبا بكر بن إبراهيم و صهر الأمير علي بن يوسف أنه" أقام بها مراسم الملك و انهمك في اللذات و عكف على المعاقرة، و كان يجعل التاج بين ندمائه و يتزيا بزي الملوك".[3]و لعل الهدايا التي منحها لأبي بكر بن الصائغ تكشف لنا مدى سعة ثروته لدرجة أنه أقسم بعد أن أخذته نشوة الخمر ألا يمشي أبا بكر بن الصائغ إلى مترله إلا فوق المال و الذهب[4].

و مما لاشك فيه أن الولاة قد استغلوا مناصبهم لزيادة ثروتهم لدرجة أن وصل الأمر بهم إلى اغتصاب أ موال الناس، و هذا ما أورده ابن رشد[5]. في إحدى فتاويه حيث يشير إلى أن أحد ولاة الصحراء أقدم على اغتصاب أموال و إبل أهل تلك المنطقة و منها قدم هديته لأمير المسلمين.وليس من المستبعد أن يكون الاختلاس و الرشوة قد مهد للولاة الطريق للمزيد من الكسب والثراء و هذا ما نستشفه من الرسالة التي أرسلها علي بن يوسف إلى القاضي الوحيدي يأمره فيها بمنع أي عامل تقوم عليه إحدى التهم حيث يقول:" ونتقدم إليك فيه أمر اللوازم الجارية هناك أن تتصفحها و تلمحها، فما لم يكن منها في عهودنا موجود، و لا من قبلنا محدود و لا في مصالح المسلمين معدودا فهو رد على كل وال رسمه، و مصروف على كل من ألزمه، لا يؤدي منه نقير، و لا يحمل منه فتيل، و أي عامل من عمال الرعية قامت الشهادة عندك بتعديه، و علمت صحة استهدافه و تصديه، فانه أمره".[6] و تجلت مظاهر الثراء في حياتهم

---

[1] – منها قولهم " بقية أخليع أخير من كتاب" ، الزجالي: أمثال العامة قي الأندلس ج(1)مثل رقم 575

[2]– انظر ما قام به الكاتب ابن القيصرة في سفارته بين يوسف بن تاشفين و ملوك الطوائف. ابن الأبار: أعتاب الكتاب تحقيق صالح الأشتر ،دمشق، 1961، ص 223

[3] –ابن الخطيب: الإحاطة مج، 1، ص 219

[4]– نفس المصدر، ص 220

[5]– فتاوى ابن رشد، السفر 2، ص 1018

[6] –محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، ص 65.

حياتهم فتأنقوا في بناء القصور و تفننوا في المأكل و الملبس[1] كما اتخذوا خدما و عبيد و جواري و حشم[2].و مما لا شك فيه أن الوضع المادي للولاة و نفوذهم السياسي كانت له انعكاسات على الحياة الاجتماعية وصل إلى درجة تخليص بعض السجناء من السجون و إطلاق سراحهم[3].

مشرفو المدن: كما شملت الطبقة الخاصة رجال الجهاز المالي و بخاصة مشرفو المدن المكلفون بجمع الضرائب الذين حضيوا هم الآخرون بمكانة عالية في العصر المرابطي و هذا ما نستشفه من قول البيدق الذي و صف مشرف مدينة فاس بقوله: " و كان الجياني " له حظ عظيم حتى لم يكن في زمن الحشم "[4]. و نظرا لما لهذا المنصب من شأن فإنه كان مدعاة للتهنئة و يتضح لنا ذلك جليا من الرسالة التي أرسلها الكاتب ابن أبي الخصال إلى الوزير المشرف أبي بكر بن أحمد بن رحيم يهنئه فيها توليه خطة الإشراف سنة 515 هـ /1114 م.[5]

الفقهاء: احتل الفقهاء في العصر المرابطي مكانتهم ضمن الطبقة الخاصة سيما و أن دولة المرابطين قامت على أساس ديني و دعوة إصلاحية، و اتسمت بمسحة دينية واضحة جعلت للفكر الديني و أهله مكانة مميزة و يتضح ذلك جليا منذ قيام دولتهم بعد تحالف فقهاء المالكية مع الأمراء المرابطين فاعتبروا بمثابة المنظرين الأساسيين لتوجهات الدولة[6]، فنالوا قدرا كبيرا من الاحترام و التقدير من جانب الأمراء، منذ الوهلة الأولى و كان الفقيه أبو بكر المرادي من أوائل الفقهاء الذين التحقوا بالبلاط المرابطي حيث اتصل بالأمير أبي بكر بن عمر و استطاع أن يكسب ثقته فاتخذه وزيرا و مشاورا و جليسا و معلما، و طلب منه أن يؤلف له كتابا في

[1]- ابن عبد الملك: الذيل و التكملة، س 1، ق 1، تحقيق محمد بن شريفة، بيروت، د، ت ص 113

[2] - ابن الخطيب:الاحاطة في أخبار غرناطة مج 1 ص 220

[3] - مثالنا في ذلك أن والي بلنسية أبا بكر بن عبد العزيز تمكن من إطلاق سراح محمد إسحاق بن طاهر و تخليصه من السجن انظر: ابن عبد الملك: الذيل و التكملة، س(5) ق (2)، ،تحقيق احسان عباس ،بيروت ، 1965، ، ص 592

[4]- أخبار المهدي بن تومرت، ص 24

[5] - المقرى: أزهار الرياض في أخبار عياض ج 5 تحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ،ط، التأليف التأليف والترجمة والنشر 1942 ص 165

[6]- سيدي بن مناه: الكتابة و السياسية عند قاضي المرابطين أبي بكر المرادي الحضرمي قراءة مغايرة لمصادر كتابه" الإشارة إلى أدب الإمارة" نشر ضمن:" أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين"، كلية الآداب، جامعة نواكشوط، 1999، ص 83.

أصول الحكم، فألف له كتاب السياسة في تدبير الإمارة[1].كما عرف يوسف بن تاشفين من بعده بتعلقه بالفقهاء مؤثرا لأهل العلم و الدين كثير المشورة لهم حتى أن حجة الإسلام أبا حامد الغزالي، لما سمع ما عليه من الأوصاف الحميدة و تقديره للعلماء عزم على التوجه إليه غير أنه تراجع على ذلك لما سمع بوفاته[2].و على نفس النهج سار ابنه "علي" حيث اشتد إيثاره لهم لدرجة أنه لا يصدر أمرا في جميع مملكته إلا بعد العودة إلى الفقهاء، و مما يزيد في تأكيد ذلك أن عليا كان إذا ولي أحدا من قضاته كان يحثهم بعدم استصدار الأحكام إلا بمحضر أربعة من الفقهاء[3].

و نظرا للمكانة و الحظوة التي بلغاها الفقهاء في عهد علي بن يوسف جعلت بعض المؤرخين يذكرون أن تلك المكانة لم يبلغها حتى فقهاء الصدر الأول من فتح الأندلس و هذا ما يؤكده صاحب "المعجب[4] "في قوله "ولم يزل الفقهاء على ذلك و أمور المسلمين راجعة إليهم، و أحكامهم صغيرها و كبيرها موقوفة عليهم طول مدته، فعظم أمر الفقهاء... وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت لذلك أموالهم، وأتعست مكاسبهم".

و الراجح أن عليا بن يوسف لم يكتف بمشورة الفقهاء في استصدار أحكامه و الحث على وجوب تعظيمهم فحسب بل وفر لهم الحماية الكاملة من أي مكروه، و هذا ما نستشفه من بعض الرسائل [5]، هذا فضلا عما حازوا من هبات و إنعامات وعليه قد ملكوا الكثير من الضياع[6] وثمة فيض من النصوص تبين بوضوح ما اكتسبه الفقهاء من الأموال وسعة الحال فابن

1- عصمت عبد اللطيف دندش: أضواء جديدة على المرابطين، 1991 ص 102 ، 103.

2- ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج (5)، ص 481-482.

3- المراكشي: المعجب ص 121

4- نفس المصدر والصفحة

5- انظر عن ذلك مثلا الرسالة الموجهة من علي بن يوسف يعبر فيها عند غضبه و استيائه لما كانت تقابل به أحكام الفقيه قاضي قضاة الشرف من اعتراض طائفة الناس: محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ص،ص 40 69، 70

وانظر أيضا: مرافعة أبو عبد الله بن الفخار على القاضي الوحيدي بعد تألب بنو حسون على القاضي المذكور: المقرى: نفح الطيب مج (3) ص 392

6- انظر عن ذلك مثلا الضيعة التي كان يمتلكها القاضي أبو الحسن بن أضحى قاضي غرناطة و سحرها: المقري: نفح الطيب مج 1 ص 675، 677

القاضي[1] يشير إلى أن الفقيه محمد بن عبد الله بن الجد " نال.... دنيا عريضة و استفاد ثروة عظيمة، و إليه كانت رآسة بلده". ونظرا لما بلغوه من الثراء الفاحش فإن البعض منهم أنفق بعض أمواله فى بناء المساجد ووقف الديار عليها،[2]و منهم من تبرع من أمواله الخاصة للمساهمة في بناء سور اشبيلية.[3] و كان هذا الثراء قد انعكس على حياتهم ومعيشتهم فسكنوا الدور والقصور الفخمة[4] التي فاقت قصور بغداد جمالا و روعة،[5] ناهيك عن تملكهم للعبيد و تأنقهم تأنقهم في المأكل و الملبس[6] كما ركبوا فأره الدواب [7]و تسروا بالنساء.[8] و بالرغم من ذلك ذلك فإن البعض منهم اتخذ الرشوة سبيلا له[9] و حسبنا في ذلك أن الفقيه "أبو غالب العبدرى " أطلق أخاه من السجن بما لقة بألف دينار رشوة ".[10]

و الراجح أن مكانة الفقهاء لدى الأمراء المرابطين و ثرائهم هذا مكنهم من لعب أدوار سياسية وتجلى دورهم خاصة في استيلاء المرابطين على الأندلس عندما شرحوا أحوال الأندلس لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين[11] وبعد إخضاع الأندلس وصل بهم الحد إلى سلطة الأمير نفسه بعد أن أكدوا له أن طاعته غير واجبة حتى يأتيه التقليد من الخليفة العباسي ببغداد، و هذا ما يؤكده النويري في قوله: "كان الفقهاء بالأندلس قالوا لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين: "

---

[1]- جذوه الاقتباس، ق (1) ص 272

[2]- المقري: نفح الطيب مج 3 ص 232

[3]- الذهبي: تذكرة الحفاظ ج(4)، طبعة حيدر أباد 1334، هـ. ص 88

4- ابن الأبار:التكملة لكتاب الصلة ،عني بطبعه وتحقيق حواشيه الفردبل،ابن شنب المطبعة الشرقية،الجزائر1919 ص 240

5 - انظر ما أورده أحد الشعراء في قصر ابن حمدين حيث يقول:

دع عنك صفرة بغداد و عجتها *** و لا تعظم بلاد الفرس و اليمن

فما على الأرض قصر مثل قرطبة *** و لا مشا فوقها مثل ابن حمدين

مجهول: ذكر بلاد الأندلس، و صفاتها و خصائصها و أصقاعها، مخ، الخزانة الحسينية، رقم 85 ج ورقة 35

[6]- المقري: نفخ الطيب مج(4) ص 204

[7]- المراكشي: المعجب، ص 121.

[8]- المقري: نفح الطيب مج(4) ص 204

[9]- ابن عبد الملك: الذيل و التكملة س(4) تحقيق احسان عباس ،بيروت 1964م ،ص 81

[10]- ابن الأبار: المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق د/ إبراهيم الأبيارى ،طبعة، 1983 ص 183

[11]- ابن خلكان: وفيات الأعيان مج(4) ص 280 ، 281

أنه لا تجب طاعتك على المسلمين حتى يكون لك عهدا من الخليفة "[1] و صار للفقهاء تدخل في في كل شئون الدولة السياسية و أصبحوا فئة مرهوبة الجانب مسموعة الكلمة و سما قدر القضاة و تمتعوا بسلطان عظيم حين أتاح لهم ولاة الأمير السلطة المطلقة و الحكم النافذ الذي لا يرد و هذا ما نستشفه من وقوف القاضي " ابن الفراء " قاضي المرية في وجه الأمير يوسف بن تاشفين حين طلب المعونة من أهل المرية على ما هو بصدده من الجهاد إذ طلب منه "ابن الفراء " أن يحلف أنه ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم حينئذ تجب معونته.[2] فهذه دلالة أكيدة على ما وصل إليه الفقهاء و القضاة من نفوذ و سلطة في عهد المرابطين و حسبنا أن إصغاء الأمير علي بن يوسف إلى الفقيه "ابن رشد" و تلقى قوله بالقبول في أمر المعاهدة و نصحه التعتيب بالأندلس و بناء الأسوار دليل آخر على مدى نفوذ هؤلاء و تأثيرهم على الأمراء في اتخاذ القرارات.[3]

وعليه فلا غرابة أن أصبح دخول بعض الفقهاء إلى المدن يشبه دخول الأمراء إليها و يتضح لنا ذلك جليا من وصف كاتب المرابطين ابن القصيرة للقاضي عياض لما همّ بدخوله إلى غرناطة بقوله: "لما ورد علينا القاضي عياض، خرج الناس للقائه، و برزوا تبريزا ما رأيت لأمير مأمور مثله وحرزت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركابا نيفا على مائتي راكب و من سواد العامة مالا يحصى كثرة".[4]و لعل ما يبرز مكانتهم الاجتماعية التي احتلوها في المجتمع تلك الأوصاف التي وصفتهم بها مصادر الفترة حيث نعت بعضهم "بالرتبة الرفيعة"[5] و البعض الأخر "سمو الرياسة"[6] الرياسة"[6] في حين أطلق على بعضهم صاحب الحظوة و العزة و الرفعة[7] ولم يتوانى المرابطون في في تسمية الأمير العظيم منهم الذين يريدون التنويه به بالفقيه.[8]هذه النعوت التي جاءت في

---

[1]- نهاية الأرب: مج 11 ج 24 ص 150

[2]- ابن خلكان: وفيات الاعيان مج 5(ص) 475-476

[3]- انظر عن ذلك: ابن عذارى :البيان المغرب ج(4)ص 72،73

[4]- المقري: أزهار الرياض: ج(3) ص 11

[5]- ابن خاقان: قلائد العقيان ص 539

[6]- ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، طبعة الفحامية مصر، 1351 ه ص 303، انظر أيضا: ابن بسام: الذخيرة في محاسن الجزيرة مج(2) ص 828

[7]- ابن خاقان: مطمح الأنفس ص 298،299

[8]- المقري: نفح الطيب مج (1)ص 221

المصادر تتفق مع الرسائل الرسمية الصادرة من الأمراء المرابطين أنفسهم ، حيث تعكس إحدى الرسائل التي أرسلها الأمير علي بن يوسف إلى أحد ولاته معاتبا إياه و ملاما عليه عدم اعتنائه بالقاضي ابن أسود و إعطائه ما يستحقه من الحفاوة و التقدير.[1]

ونظرا لمكانتهم الاجتماعية نال الفقهاء قسطا من مدح الشعراء[2] طمعا في عطاياهم و كرمهم، و لدينا في الفقيه و قاضي الجماعة أبو عبد الله بن حمدين نموذجا لذلك، فوصفه ابن بسام بقوله:" أبو عبد الله بن حمدين هذا في وقتنا غرة الزمان الزاهرة، و آية الإحسان الباهرة".[3] و ممن أثنوا عليه أيضا الفقيه أبا بكر العربي الذي جاء في مدحه قوله " فحلها-أي الأندلس- و النفوس إليه متطلعة، و لأنبائه متسمّعة، فناهيك من حظوة لقي، و من عزة سقي، و من رفعة سما إليها و رقي،وحسبك من مفاخر قلدها، و محاسن أنس أثبتها فيها وخلدها."[4]

وعلى نقيض المدح و الثناء نال فقهاء الفترة المرابطية نقدا لاذعا و هجاءا عنيفا أين صورهم بعض الشعراء بأنهم استغلوا نفوذهم في تسخير المذهب المالكي لنيل المال[5] و المناصب الرشوة.[6] و الرشوة.[6] و لم تسلم هذه الطبقة من ألسنة العامة و أمثالهم التي تدل على كراهيتهم لهم باستغلال

---

[1]- حسين مؤنس: سبع وثائق جديدة ص 75،74

2 - مما جاء في مدح أبو عبد الله بن حمدين قول أبي مروان عبد الملك بن محمد بن شماخ

لما وضعت صحيفتي *** في بطن كف رسولها
قبلتها لتمسها *** يمناك عند وصولها
حتى ترى من وجهك ال *** ميمون غاية سولها

انظر: ابن بسام: الذخيرة مج (2) ص 827

[3]- ابن بسام: نفسه ص 839

[4]- المقرى: نفح الطيب مج(2) ص 34

[5]- مما هجا به أبا جعفر احمد المعروف بابن البني الفقهاء قوله: =

أهل الرياء لبستهم ناموسكم *** كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتموا الدنيا بمذهب مالك *** و قبضتم الأموال بابن القاسم

انظر المراكشي: المعجب ص 121

[6]- مما جاء في هذا القصد وصف ابن الطراوة المالقى لبعض الفقهاء الضعاف النفوس و آكلي الرشوة بقوله:

إذا رأوا حجلا يأتي على بعد *** مدوا إليه جميعا كف مقتنص
إن جئتهم فارغا لزوك في قرن *** و أن رأوا رشوة أفتوك بالرخص

انظر: ابن الأبار: المقتضب ص 64

باستغلال النفوذ و الرياء، و النفاق. ومنها ما يصور قلة و رعهم و قولهم مالا يعملون به [1] و غيرها من النعوت التي نعت بها الفقهاء اقتصرنا على بعضها مثل نعتهم باستغلال الباعة في شراء حوائجهم بسعر رخيص،[2] و غيرها كثير.

كما لم يكن فقهاء العصر المرابطى بمعزل عن نقد بعض الفقهاء، و لدينا في الغزالي نموذجا لذلك فبتصفحنا لكتاب الأحياء نجد أن الغزالي بين أن الفقهاء لم يهتموا سوى بمعرفة الفروع[3] و حرصوا على الاستقلال بالفتوى من أجل تولي الأوقاف و الوصايا و حيازة مال الأيتام، و تقلد مناصب القضاء و الحكم. [4] و قد ميز بين " علماء السوء " و علماء الآخرة، وو قف كثيرا عند عند حقيقة علماء السوء حيث ذكر في ربع المهلكات " أنهم أي الفقهاء- اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات و الخصومات و لم يخرسوا اللسان عن الغيبة و لا البطن عن الحرام، و لا الرجل، المشيء إلى السلاطين".[5]و عليه فهو يتهم الفقهاء بالتحالف مع الأمراء محذرا إياهم من مخالطة السلاطين[6]، محاولا بذلك قطع الطريق عليهم بالدعوة إلى نبذ المال الذي صوره بأنه " حية فيها سم و ترياق[7] "يسهل المعاصي و" يشغل عن ذكر الله ".[8]

كما دعاهم إلى عدم مخالطة الأغنياء و معاشرة المستضعفين و الإحسان إلى الأيتام،[9] و بذلك تضاربت نصوص الأحياء مع واقع حياة الفقهاء في الدولة المرابطة التي اتسمت بالبذخ، فكان أن لقي الكتاب معارضة من طرفهم، و فهموا أن المغامزة تعنيهم مباشرة، بل تهدد النظام المرابطي برمته، و عليه فقد اعتبر الكتاب بمثابة صك اتهام موجه إلى كل الفقهاء و رجال السياسة و هذا

---

[1]- مثل قولهم : "خاف الله واتقيه، و لا تعامل الفقيه"انظر محمد بنشريفة:تاريخ الأمثال والأزجال في الأندلس و المغرب ج(1)منشورات وزارة الثقافة الرباط ،2006 ص 282

[2]- انظر قولهم: "شر فقيه: طيب و رخيص، و موصل للدار"محمد بنشريفة .نفس المرجع والصفحة

[3] - العزالي: كتاب أحياء علوم الدين ج (1) دار الفكر1980 ص 36، 37.

[4]- نفسه ص 37

[5]- نفس المصدر ج(3) ص 381

[6]-نفس المصدر ج (1) ص151

[7]- نفس المصدر ج(10)ص ص 12، 6 ،84

[8]- نفس المصدر ج(10) ص 13 ،14

[9]- نفس المصدر، ج(6) ص 29

ما يفسر الغضب الشديد الذي صبه الفقهاء عليه، و اتخاذهم قرارا إحراقه، مما يؤكد العلاقة بين ظاهرة الإحراق و ما يحمله الكتاب من شحنة اجتماعية مرتبطة بواقع المجتمع المرابطي.ولعل أعنف هجوم زعزع كيان الفقهاء كان من الزعيم الروحي لدولة الموحدين "المهدي بن تومرت" الذي كشف عوراتهم فاتهمهم بالضلال و بأنهم أكلة السحت والحرام، كما نعتهم بنعوت عدة منها أنهم " عبيد الدينار والدرهم[1]أو الذين "باعوا دينهم بعرض الدنيا".[2]

مما سبق نخلص إلى نتيجة مفادها أن الفقهاء كانوا يشكلون شريحة اجتماعية لها وزنها في المجتمع المرابطي على الصعيد الاقتصادي و حتى السياسي، و هذا ما نلحظه خاصة في نهاية عصر المرابطين و مستهل دولة الموحدين، حيث انتزى بعضهم في العديد من مدن الأندلس بعد أن أداروا ظهرهم للمرابطين فأسسوا كيانات مستقلة عن السلطة المرابطية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الفقيه ابن حمدين في قرطبة الذي تسمى بأمير المسلمين "المنصور بالله"[3] و لم يكتف بهذا فحسب بل سك عملة باسمه و دون الدواوين و جند الأجناد.[4] كما انتزى الفقيه أبو الحكم بن حسون الكلبي في "مالقه" أين دعا لنفسه واستبد بحكم المدينة[5]، في حين استقل عبد الرحمان بن طاهر القيسي بمدينة مرسية.[6]أما الفقيه أبو عبد الملك بن مروان بن عبد العزيز، فقد استقل في البداية بمدينة دانية و أسس بها إمارة ثم أضاف لها فيما بعد مدينة بلنسية و شاطبة و لقنت .[7]

و يرجع بعض المؤرخين سيطرة الفقهاء" الملاك " على دويلات المدن التي ظهرت عقب انحلال الدولة إلى خشيتهم من ضياع أموالهم لما شهدوا ما فعله الموحدون في بلاد المغرب الأقصى أثناء

---

[1]- ابن القطان: نظم الجمان ص 96

[2]- نفس المصدروالصفحة

[3]- انظر عنه أيضا الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، قدم له وضبطه و شرحه د .و صلاح الدين الهـــواري، المكتبة العصرية، بيروت ط 1 2005 ص 254

[4]- إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي ص 149

[5]- عصمت عبد اللطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين و مستهل الموحدين ص 82

6- ابن عبد الملك: الذيل و التكملة السفر(6) تحقيق احسان عباس ،بيروت 1973 ص 338 انظر أيضا: عصمت عبد اللطيف دندش المرجع السابق ص 91 .

[7] – عصمت دندش: نفس المرجع ص 87-89

ثورتهم فانقضوا على السلطة السياسية حفاظا على ملكياتهم.[1] و مهما قيل عن الفقهاء فإن واجب الموضوعية يستدعي عدم تعميم الأحكام السابقة على الجميع، إذ هناك من الفقهاء من كان زاهدا في الدنيا طوال حياته إلى أن وافته المنية[2] في حين حظي البعض منهم بمحبة الخاصة والعامة حتى صعب عليهم مفارقته[3]. و منهم من فضل إنفاق ثروته على المساكين و الأيتام و لم لم يبق منها إلا ما يسد به رمقه.[4]

ثانيا-الطبقة الوسطى:

إن المتتبع للتاريخ الاجتماعي لدولة المرابطين يمكن له تحديد الطبقة المتوسطة من المصادر المعاصرة لفترة الدراسة التي حددت لنا بدقة هذا المصطلح فابن الخطيب مثلا حددها في فئة من الناس " لا يتشوف إلى المزيد و لا يحذر من النقصان "[5]و حددها "ابن باجة"[6] في مجموعة من الناس الذين يتصنعون و يطمسون حقيقتهم بارتداء الملابس الأنيقة فوق الملابس البالية لإخفائها حتى يتقربوا من الكبراء، علّهم يصلون إلى مكانة الطبقة الخاصة، كما اعتبرها أسلم الطبقات" لأنها لا تهتضم من دعة و لا ترمق من رفعة"[7]. و تنوعت الطبقة الوسطى بين شرائح اجتماعية مختلفة كالتجار و الصيارفة و أصحاب الحرف و المهن الحرة كالأطباء و المهندسين، و أصحاب الوظائف المتوسطة.

---

[1]-ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث ص 96

[2]- انظر عن ذلك مثلا ترجمة الفقيه علي بن احمد بن خلف الأنصاري المعروف بابن الباذش:الضبي: بغية الملتمس ص 390

[3]- للمزيد انظر: محمد الحسن ولد احمد: الفقه و الفقهاء في عهد المرابطين دراسة ببيوغرافيا وصفية: بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا القمة جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب و العلوم الإنسانية مكناس 2003/2002/ ص52

[4]-انظر عن ذلك مثلا عرف به أبي زكرياء يحي بن محمد بن عبد الرحمان التادلي.ابن الزيات: التشوف ص199

8 - ابن الخطيب:تاريخ اسبانيا الاسلامية أوكتاب أعمال الأعمال تحقيق ليفي بروفنسال،دار المكشوف ط2 بيروت 1956 ص 45

[6]- كتاب تدبير المتوحد، تحقيق د. معن زيادة، بيروت، 1987، ص 76- 77.

[7]- نفس المصدر، ص 44

التـــــجـــار

تعدد أصناف التجار في المغرب و الأندلس إبان العصر المرابطي باختلاف مقادير الأموال و الوضع الاجتماعي لأصحابها و قد صنفهم أحد المؤرخين[1] إلى ثلاثة أصناف حسب القدرة على الاستثمار.

فالصنف الأول: هم الذين يستثمرون أقل من مائة دينار في تجارتهم و هؤلاء عادة ما يتولون العمل بأنفسهم سواء تجار متنقلين أو مقيمين، و نظرا لضعف استثماراتهم عجزوا في آخر الدولة حتى عن دفع إيجار حوانيتهم[2] و هؤلاء لا يصنفون ضمن الطبقة المتوسطة.

أما الصنف الثاني: فيطلق عليهم تجار القوافل أو ما يعرف بتجار الصحراء المولعون بدخول بلاد السودان الذين وصفهم ابن خلدون[3] بأنهم " أرفه الناس و أكثرهم أموالا " و يرجع سبب ثروتهم إلى ندرة سلع السودان في المغرب فتختص بالغلاء و كذلك سلع المغرب لديهم،" فتعظم بضائع التجار من تناقلها و يسرع إليهم الغنى و الثروة".[4] و هذا ما يؤكده " الإدريسي" في حديثه عن تجار أغمات حيث يقول: " وهم أملياء تجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال "[5] و يستطرد في قوله موضحا استخدام التاجر الواحد منهم لعدد من رجاله و عبيده بقوله :" و ما منهم رجل يسفر عبيده و رجاله إلا و له في قوافلهم المائة جمل و السبعون و الثمانون جملا كلها موقرة، و لم يكن في دولة الملثم احد أكثر منهم أموالا و لا أوسع أحوالا، و بأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم ."[6]

ونظرا لصعوبة المسالك المؤدية إلى بلاد السودان فإن تجار القوافل مهدوا طريق الصحراء بحفرهم للآبار، و تأمين الطريق،[7] و قبل انطلاق الرحلة كان يقرعون الطبول لإعلان ميعاد

---

[1]- عز الدين احمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي ص 278
[2]- نفسه ص 278-279
[3]- المقدمة ص 422
[4]- نفس المصدر ص 422-423
[5]- صفة المغرب ص 66
[6]- نفس المصدر والصفحة
[7]- المقري: نفح الطيب مج(5) ص 205

الرحيل، متخذين راية تتقدم المسير،[1] و ليس من المستبعد أن تكون تلك الراية بمثابة شارة لتذليل الصعوبات، و توجيه مؤخرة القافلة في حالة فقدانها لجادة الصواب.وبالرغم من الاحتياطات المتخذة من طرف التجار لتأمين تجارتهم، وكذا إشراف الدولة المرابطية المباشر على تأمين المسالك المؤدية إلى بلاد السودان لأن معظم تلك المسالك تقع بأرضيها،[2] إضافة إلى القرار الذي اتخذته السلطة المرابطية من إزالة المغارم و المكوس المفروضة من قبل على التجارة أن شجع ذلك الإقدام على تجارة السودان الغربي.[3]لكن دوام الحال من المحال خاصة في أواخر عهد الدولة الدولة أين تضاعفت المغارم و المكوس على التجار، و لم تتمكن الدولة من فرض سيطرتها فعجزت عن تأمين المسالك السابقة و بذلك تعثرت تجارة القوافل بسبب تعرضها للنهب و السرقة و هذا ما نستشفه من قول أحد الجغرافيين المعاصر للفترة حيث يقول " و أما الآن في وقت تأليفنا لهذا الكتاب فقد أتى على أكثر أموالهم المصامدة، و غيرت ما كان بأيدهم من نعم الله[4] "

واشتهر أيضا تجار مدينة أودغست المنتمين إلى زناته و العرب بكثرة أموالهم و رقيقهم لدرجة أن الرجل الواحد منهم يملك أكثر من ألف خادم.[5] وحتى يتسنى لتجار الصحراء تصريف تجارتهم تطلب ذلك أكثر من شريك، و قد أورد لنا المقري نصا هاما يشير فيه إلى اشتراك ثلاثة إخوة في تجارة السودان أحدهما كان يقيم في مدينة تلمسان و الثاني في سجلماسة و الثالث في السودان.[6]و مما لا جدال فيه أن تجار القوافل لم يكونوا بمعزل عن باقي تجار مدن المغرب و الأندلس خاصة الساحلية منها التي تعد منفذا لتجارة الصحراء صوب الأندلس، و غيرها من أصقاع العالم.وحسبنا في ذلك ما بلغه تجار سبتة من الثراء لدرجة أنهم كانوا يبتاعون المركب

---

[1] -المقري: المقري: نفح الطيب مج(5) ص 205

[4]- انظر ما ذكره البكري المعاصر لدولة المرابطين بخصوص بنو جدالة، ومحاذاتهم لبلاد السودان. البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ص 172

5- البكري : نفس المصدر ص 164. و انظر أيضا: حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين 402

[4]- الإدريسي: صفة المغرب ص 67

[5]- البكري: المصدر السابق ص 168

[6]- المقري: نفح الطيب مج 5 ص 205

الكبير بما فيه من بضائع في صفقة واحدة[1]، في حين اشتهر تجار "سلا" بسعة الأموال و نمو الأحوال.[2]ونظرا لارتباط المغرب و الأندلس وخضوعها لسلطة واحدة نشطت التجارة بين القطرين و برزت بعض المدن الأندلسية التي بلغت سمعتها الآفاق مثل المرية التي كانت قبلة للمشتغلين بالتجارة، خاصة البعيدة منها فازدادوا ثراء و هذا ما ينطبق على قول الإدريسي "لم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها مالا و لا أتجر منهم في الصناعات و أصناف التجارا[3]".كما عرف تجار قرطبة بأنهم "مياسير، لهم أموال كثيرة و أحوال واسعة"[4] وعليه ينطبق عليهم قول ابن خلدون[5] "أن المال إن كان كثيرا عظم الربح، لأن القليل في الكثير كثير".

أما الصنف الثالث: من التجار فهم تجار الجملة الذين اقتصرت رحلاتهم على المدن المغربية و الأندلسية فقط أو الذين يسميهم ابن خلدون" المترددون في الأفق الواحد ما بين أمصاره و بلدانه"[6] فمنهم من يشرف بنفسه على تجارته، و منهم من يضطر لاستعمال الوكلاء أو الشركاء الشركاء ليتفرغ إلى عمله لأن البعض منهم كان من الفقهاء أو أصحاب الخطط الرسمية أو ملاك الأراضي.[7] و يعمل الوكيل بمقتضى اتفاق مكتوب عقد[8] و تزخر كتب النوازل المعاصرة لفترة لفترة الدراسة ببعض المشاكل التي حدثت بين التجار ووكلائهم أو بين الشريكين.[9]و بناءا على مصادر الفترة تتضح لنا ثلاثة أنواع من الشراكة:

---

[1]- ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص 139.
[2]- الادريسي: صفة المغرب ص 73.
[3]- نفسه ص 197.
[4]- نفسه ص 208
[5]- المقدمة ص 421.
[6]- نفس المصدر ص 423.
[7]- إبراهيم القادري بوتشيش: مباحث ص 161.
[8]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد، السفر (1) ص 197، 333.
[9]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد س (1)ص ص 83، 191، 332. السفر II ص ص 872، 933، 934.

الأولى: يتساوى فيها الشركاء في رأس المال و العمل[1] والثانية: أن يشترك بعض التجار في إرسال أحدهم لجلب البضائع ثم يتقاسمونها على حسب رؤوس أموالهم وكل يبيع كيفما شاء.[2] أما الثالثة: أن يقرض أحدهم لآخر مالا يتجر به مسافرا على أن يكون الربح مناصفة.[3]

و على العموم مهما كان تنوع نشاط التجار وطريقة توظيفهم للأموال فإنهم قد حققوا أرباحا طائلة لا يستهان بها خاصة وأن الدولة المرابطية في بدايتها قد ألغت المكوس وسائر الضرائب المفروضة على التجار، كما وفرت لهم الأمن و الحماية اللازمة أثناء تنقلاتهم، غير أنه في أواخر الدولة أثقلت كاهلهم بمختلف أنواع الضرائب، و هذا ما أثر سلبا على التجار، ولعل هذا ما حذا بأبي حامد الغرناطي –المعاصر للفترة الأخيرة من عهد الدولة المرابطية بالأندلس– تمنيه أن يقتدي أمراء المسلمين بملوك الصين في معاملاتهم للتجار المسلمين الذين يدخلون بلاد الصين إذ أشار أثناء حديثة عن بلاد الصين و ملوكهم بقوله: "و يحترمون التجار من المسلمين غاية الاحترام، و لا يؤخذ منهم عشور في بيع أو شراء، و لا مكس، فيا ليت ملوك المسلمين اقتدوا بهذه السياسة الحسنة فهم كانوا أحق بها".[4]فمن هذا النص يفهم أن هناك إجحاف في حق التجار.

و الراجح أن ذلك كان نتيجة الأزمة المالية التي مرت بها الدولة في أواخر أيامها، فجل المصادر المعاصرة للفترة تشير إلى أن الدولة فرضت ضرائب على كل السلع، و هذا ما نستشفه من قول الإدريسي "وكانت القبالة على كل شيء يباع دق أو جل كل شيء على قدره"[5] بل أن الضريبة كانت تجبى أكثر من مرة: مرة من البائع و أخرى من المشتري، أو تؤخذ أكثر من البائع إن كان زارعا، مرة على الثمار أو الزرع و أخرى عند البيع[6] أو قد تستوفى في كل مدينة تمر بها

---

[1] –البرزلي: فتاوى البزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تقديم و تحقيق، محمد الحبيب الهيلة، ج (3) دار المغرب الإسلامي ط I بيروت 2002 ص 436.

[2] – الونشريسي: المعيار ج (8) ص 364

[3] – نفسه ص 200.

[4] – تحفة الألباب و نخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1989، ص 42.

[5] – صفة المغرب ص 70.

[6] – ابن عبدون:رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص 31.

بها السلعة.[1]هذا ناهيك عن انعدام الأمن على النفس و المال في البر و البحر[2] فكثرت حوادث قطع الطرق على السفار من التجار[3] بعد أن وجد قطاع الطرق من ذوي النفوذ في السلطة ليشمل كل امرأة من أكابر لمتونة و مسوفة اللواتي يشملن على كل مفسد و شرير و قاطع سبيل".[4]كل هذه العوامل مجتمعة أفقدت التجار مالهم وجاههم خاصة و أنهم لم يجدوا حماية من من السلطة فأصبحت أموالهم عرضة للنهب و الضياع.

الصيارفة و كبار السماسرة (الوسطاء):

يعد الصيارفة و كبار السماسرة من ضمن الطبقة الوسطى، و المعرف أن الصيارفة تكمن خدمتهم في التيسير على المسلمين لأن الإنسان إذا كان معه ذهب يتعذر عليه في الغالب أن يقضي كثيرا من ضروراته إلا بعد صرفه، فإذا صرفه تيسر عليه قضاء باقي حوائجه، و يشترط في الصيارفة أن يكونوا عالمين بأحكام الصرف لأن باب الصرف باب ضيق ليس كغيره، فكثيرا ما يفتح للمتعاملين فيه باب الربا.[5]

و يبدوا أن الصيارفة في المغرب و الأندلس على عهد المرابطين لم يلتزموا القواعد المنصوص عليها شرعا، بل اتبعوا مختلف أساليب التحايل والغش للزيادة في نسبة الصرف مستغلين تعدد العملات و اختلاف حالة الصرف من منطقة لأخرى. و يتضح لنا ذلك جليا من تصدي "ابن عبدون" لهم في رسالته ناهيا إياهم معتبرا علمهم ربا حيث قال: "أن ينهي الصيرفيون عن الربا وأن لا يجري في البلد إلا سكة البلد وحدها، فإن اختلاف السكك داعية إلى فساد النقد و الزيادة في الصرف، و اختلاف الأحوال و خروجها عن عادتها".[6]و من المعروف أن الغالبية

---

[1]- نفس المصدر ص 33.

[2] -نستشف انعدام الأمن في الأندلس و المغرب من الرسالة التي بعثها أمير المسلمين علي بن يوسف إلى الفقيه ابن رشد يستفتيه في أي الأعمال أفضل في تلك الفترة الحج أو الجهاد. انظر: ابن رشد: فتاوى ابن رشد، السفر II ص 1021-1026. و انظر أيضا: الونشريسي: المعيار ج I ص 432- 433.

[3]- البيدق: أخبار المهدي بن تومرت ص 26. ابن عذارى: البيان المغرب ج (4) ص 91.

[4] -المراكشي: المعجب ص 126.

[5]- ابن الحاج: المدخل مج II ج II .قرأه و ضبط نصه، الشيخ حسن احمد عبد العال، المكتبة العصرية، صيدا بيروت ط I 2005 I ، ص 188.

[6]-ابن عبدون : في آداب الحسبة و المحتسب ص 58.

العظمى من الصيارفة كانوا من اليهود و المغاربة[1] الذين جبلوا في معاملاتهم على الربا[2]. و هذا ما مكنهم من كسب أرباح هامة، خاصة و أن صغار التجار كانوا يودعون أموالهم عندهم[3] فيستغلونها لتسليفها إلى تجار آخرين مقابل فوائده كبيرة بلغت حتى 100% و في أخرى 60% و هذا ليس مستغرب لأن أجل السلف كان طويلا أين بلغت مدته بين إحدى عشر سنة و خمسة عشر سنة كما أن الدفع قد يكون منجما و يكون حتى في بلد آخر.[4]

السماسرة

كما يدخل السماسرة ضمن الطبقة المتوسطة، و تكمن مهمتهم في لعب دور الوسيط بين التجار فيما يتبايعونه أو فيما يبيعونه إلى المشتري، و كانوا عادة ما يتخذون حوانيت لتصريف تجارتهم، سيما و أن التجار الغرباء أو السفار يترلون بسلعهم عليهم، و عن طريق السماسرة يتم تسويق البضائع و هذا ما مكن السماسرة من كسب أرباح كبيرة خاصة و أنهم كانوا يتقاضون نصف الأرباح من التجار.[5] و في أحيان كثيرة كانوا يلجئون إلى بيع السلعة بأكثر من السعر الذي حدده التاجر[6] (صاحب السلعة نفسه).

و الراجح أن المرابطين في عهد "علي بن يوسف" كانوا يعرفون دخل التجار عن طريق السماسرة، و من ثم تقدر الدولة قيمة المغارم الواجبة فرضها على التجار. و تجنبا لدفع تلك المغارم أو تخفيضها يتم الاتفاق مسبقا مع السماسرة.[7] ومما لاشك فيه أن وجود السمسار أو

---

[1]- ابن يوسف الحكيم: الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة تحقيق حسين مؤنس صحيفة معهد الدراسات الإسلامية 1960ص 115، 116.ليس من المستبعد أن يكون المغاربة و الأندلسيين من غير اليهود قد ابتعدوا عن هذه المهنة خوفا من الوقوع في الربا، و خاصة و أن بعض الفقهاء أكدوا على أن أكثر أكلة الربا أهل الصرف. للمزيد انظر: ابن الحاج: المدخل مج 2 ج (2)، ص 188.

[2]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد السفر I ص 563، الونشريسي: المعيار ج (6) ص 433. و انظر ايضا: البرزلي: فتاوى البرزلي ج I ص 642.

[3]- الونشريسي: ، المعيار ج (6)ص 316، البرزلي: فتاوى البرزلي :ج (3)، ص 316.

[4] – عز الدين أحمد موسى:النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ص281.

[5]- ابن رشد : فتاوى ابن رشد س (2) ص 937.

[6]- الونشريسي : المعيار ج(5)ص 38.

[7]- الونشريسي :المعيار ج5 ، ص 32 ، نفسه ج 11، ص97.

الدلال كوسيط بين البائع و المشتري قد ألحق ضررا بالمستهلك و التاجر نفسه. و عليه فإن بعض التجار أصبحوا يخشون من نفوذهم و تواجدهم في الأسواق أين بلغ بهم الحد إلى الشكوى منهم خاصة و أن السماسرة كانوا يحققون أرباحا مماثلة لأرباح التجار، مع أنهم لا مال لهم يخشون الخسارة فيه.[1] و ليس من المستبعد أن يكون ذلك سببا في دفع بعض التجار للاشتغال بالسمسرة مع التجارة و تقاضي ثمن البيع كأجر عن دلالته.[2]

و إلى جانب السماسرة ظهر في العصر المرابطي بعض الوسطاء كالجلاسين أو ما يعرف باسم البزازين الذين لا يختلف دورهم عن دور السماسرة أين يفتحون محلاتهم و يتخذون دلالين فيها، فيترل التجار الأجانب عليهم، وكلما جاء أحد لشراء السلعة الواردة زاد الجلاس عليه حتى يبلغ السعر إلى أكثر مما حدده الدلال، فيتقاسم الجلاس و الدلال الزيادة، أو يشتري الجلاس ما وجده رخيصا من السلع الواردة إلى أجل فيربح فيها و يرد السلف إلى التاجر الغريب[3] و يرى السقطي السقطي منع هؤلاء الجلاسين من الأسواق كما يمنع التجار من البقاء معهم خشية أن يأخذ هؤلاء منفعة أو أسبقية من ضيوفهم الأجانب.[4]

أصحاب المهن الحرة

يدخل ضمن هذه الفئة من أصحاب المهن الحرة المهندسين و الأطباء خاصة و أن الأمراء المرابطين كانوا بحاجة إليهم لأنهم يحبون حياة الترف و التأنق في العمران و بناء القصور و الجنان[5] وحرصهم الشديد على تزويد المدن بالمياه، و الإكثار من الحدائق و المساحات الخضراء، الخضراء، و عليه فقد حظيت هذه الفئة برعاية كاملة من طرف الأمراء المرابطين، و حسبنا في ذلك ما ناله المهندس الأندلسي عبيد الله بن يونس من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بعد توفيقه في إيصال المياه إلى مراكش بطريقة هندسية مكنته من التغلب على غور المياه بها، فكثرت

---

[1]- الونشريسي :المعيار ج 5 ص 197.

[2]- ابن رشد : فتاوى ابن رشد س 2 ص 938.

[3]- احمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف: آداب الحسبة و المحتسب، تحقيق، فاطمة الإدريسي، دار ابن حزم، ط1 ،2005 ص 65.

[4]- اوليفاريمي كونستبل: التجارة و التجار في الأندلس، ص 188.

[5]- انظر عن ذلك مثلا: الإدريسي: صفة المغرب ص 77، 78.

بها الجنان و البساتين و حسن قطرها و منظرها، فاستحسن يوسف بن تاشفين ذلك منه فأعطاه أموالا و أثوابا و أكرم مثواه مدة بقائه بها".[1]

كما تعد شريحة الأطباء الغير مرتبطين بالبلاط المرابطي من ضمن الطبقة المتوسطة، حيث انتشروا في بعض المدن المغربية و الأندلسية متخذين أماكن خاصة بهم لممارسة مهنتهم[2].و قد أمدتنا المصادر بأسماء بعض الأطباء في كل من المغرب و الأندلس الذين اتخذوا من مهنة الطب مصدرا لعيشهم نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، "الطبيب إبراهيم بن أبي الفضل بن صواب الحجري" الذي جعل من مدينة طنجة مقرا لزوال نشاطه[3]، و أحمد بن مضا اللخمي بسبتة و إبراهيم بن صواف بطنجة، و الطبيب علي بن عتيق الخزرجي بفاس.[4]

و من الأطباء الأندلسيين نذكر "ابن جوشن الأزدي" و أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت" الذي يعد من أكابر الفضلاء في صناعة الطب. كما اتخذ" سليمان بن عبد الرحمن العبدري" مهنة الطب مصدرا لعيشه[5]، كما اشتهر "يحيى بن الفتح الأنصاري الحجاري بعنايته الكبيرة بالطب و طرق العلاج[6]، كما عرف العهد المرابطي بروز بعض العلماء الذين جمعوا بين العلوم الدينية و الطبية حيث مارس بعض الفقهاء مهنة التطبيب. و قد أوردت لنا بعض المصادر إشارات إلى ذلك إذ يذكر صاحب "الذيل و التكملة إلى أن الفقيه "عبد الملك بن علي بن سلمة العافقي" كان "ناظرا في الطب محترفا به" في حين كان "عبد الملك بن محمد" "أحد المهرة في صناعة الطب، معترفا له بالتقدم فيها".[7]كما وصف ابن الخطيب الفقيه "محمد بن عبد الرحمن

---

[1]- نفسه ص 67، 68

[2] -ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي ص 164.

[3] -يوسف فرحات و يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية ص 222.

[4] -جمال طه: الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي عصر المرابطين و الموحدين، الناشر دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية، مصر، ط I، 2004، ص 378

[5]- يوسف فرحات و يوسف عيد: المرجع السابق، ص 227، 250، 261.

[6]- نفس المرجع ص272.

[7]-. ابن عبد الملك: الذيل والتكملة س 5 ق(1) ص 45،24

العقيلي الجراوى" بأنه"فقيه أديب متطبب"[1] في حين كان "أبا الحسن علي بن عبد الرحمن الساعدي" المعروف بابن اللونقة بكونه فقيها ورعا له معرفة بالطب و تعاليق مفيدة فيه.[2]

و لم تقتصر هذه المهنة على المسلمين فحسب بل امتهنها بعض اليهود نذكر منهم "موسى بن ميمون[3] و إلياس بن مدور اليهودي[4] و حسداي بن يوسف بن حسداي[5] و غيرهم كثير.و بالرغم من أن مصادر الفترة قد أفردت لنا أسماء العديد من الأطباء الذين مارسوا هذه المهنة إلا أنها لم تذكر لنا شيئا عن وضعيتهم الاجتماعية، و الراجح أن هؤلاء كان يعيشون حياة متوسطة و رغم ذلك فإنهم نالوا احترام المجتمع إذ كان الناس يطلقون عليهم لقب الحكماء ، كما لقوا إقبالا كبيرا من طرف المرضى الذين كانوا يزدحمون عليهم طلبا للتداوي[6] خاصة و أن البعض منهم نال شهرة كبيرة أمثال الطبيب ابن أفلاطون المقيم بمدينة فاس الذي كان يتوافد عليه بعض المرضى حتى من خارج المدينة، و من ثم ارتفع أجره، و حسبنا أن أحد سكان مكناسة مرضت أخته فجهز مبلغ مائة دينار و توجه بها إلى ابن أفلاطون لعلاجها.[7]

أصحاب الوظائف الحكومية(الوظائف المتوسطة)

يدخل أصحاب الوظائف الحكومية والمشتغلين في أجهزة الدولة ضمن الطبقة المتوسطة كصاحب الأحكام، والمدينة و المحتسب و غيرهم كصاحب المواريث، و الأحباس.

صاحب الأحكام

يعد صاحب الأحكام بمثابة أحد أعوان القاضي يختار ممن شهد له بالثقة و الديانة و الأمانة، و اشتهر بالعفة و الزهد و التحفظ[8]. و يساعد صاحب الأحكام أعوان يتراوح عددهم

[1]- الإحاطة في أخبار غرناطة مج2 ص 332، 333.
[2]- يوسف فرحات، يوسف عيد: المرجع السابق ص 245.
[3]- انظر إسرائيل و لفنون (ابوذؤيب): موسى بن ميمون حياته و مصنفاته ص 142- 143.
[4]- المقري: نفح الطيب مج (3)، ص 528.
[5]- يوسف فرحات يوسف عيد: المرجع السابق ص 257.
[6]-ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي ص 165.
[7]- ابن الزيات: التشوف، ص 259، 260
[8]- محمد علي مكي: وثائق تاريخية جديدة ص 37، 64- 65.

ما بين سبعة و عشرة على حسب اتساع المدينة، و ما يكثر بها من خصومات و منازعات.[1] يكلف صاحب الأحكام من طرف القاضي للفصل في بعض القضايا البسيطة[2]، و يحق للقاضي عزله و عقوبته دون الرجوع إلى أمر السلطان نفسه و لا إلى أمر عامله على الإقليم[3]. و يتقاضى يتقاضى صاحب الأحكام أجرته من بيت المال، و يبدوا أن القاضي هو الذي يحدد قيمة هذا الراتب، لأن الأمراء المرابطين تركوا الحرية للقاضي في تحديد مرتبه غير مضيقين عليه، و يتقاضى أعوان "صاحب الأحكام" أجر يومي نظير عملهم، أما الذي يعهد إليه بالعمل خارج المدينة (في البادية) كانت له أجرة إضافية على كل ميل بعيد من مقر عمله تسمى "أجرة جهة".[4]

والراجح أن صاحب الأحكام كان يستغل منصبه لفرض مكانته في المجتمع فيحاول الظهور أمام أصحاب الشكاوي بأهميته و صلته الوثيقة بالقاضي، مما يجعل البعض يقع في حبائله عله يسهل أعماله، فيلجئون لرشوته بالرغم من أن القاضي كان يمنع عليهم الدخول و الخروج عليه إلا إذا استدعاه. لكن يبدوا أن البعض منهم لا يلتزم بأمر القاضي.[5]و ليس من المستبعد أن يكون يكون تحكم القاضي في تحديد مرتب صاحب الأحكام و دخله المتوسط هو السبب الداعي لاستغلال منصبه للتحكم في رقاب الناس و أخذ الرشوة عنهم –مخالف بذلك شروط توليته تلك الوظيفة– سعيا منه لكسب أكثر، علّه يبلغ مابلغه القضاة من مال و حظوة و جاه في المجتمع.

صاحب المدينة

تندرج خطة الشرطة التي يعرف صاحبها لدى العامة بصاحب المدينة و صاحب الليل ضمن الطبقة المتوسطة، و متولي هذه الوظيفة يحظى بتقدير الأمراء، و يختص صاحب المدينة بتنفيذ الحكم بالقتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان، و هذا نادر ،و في حالة تنفيذه لا يقع إلا بحضور السلطان كما يقوم بتنفيذ الحد على الزنا و شرب الخمر و كثير من الأمور الشرعية

---

[1]- ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب، ص 11، 12

[2]- نفس المصدر ص 13.

[3]- محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة ص 37

[4]- ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص ، 12.

[5]- نفس المصدر ص 10.

ترجع إليه.[1] و يساعده على أداء مهامه عدد من الأعوان لا يزيد عن العشرة لأن كثرتهم تفسد الأعمال و تعرقل المصالح، و تثقل الميزانية برواتبهم.[2]

و يتم اختيار أعوان صاحب المدينة ممن هم أعرف بأحوال الناس و طبقاتهم.[3] و يعد المخلفون من أهم أعوانه و مهمتهم تكمن في رفع الأخبار السرية إلى من يهمه الأمر،[4] و هي بذلك تماثل ما يعرف في عصرنا بالشرطة السرية. كما توكل مهمة الطواف بالليل إلى أفراد يعرفون باسم الدرابين و عرفت هذه الأخيرة خاصة بالأندلس لأن مدنها بها دروب توصد أبوابها عند حلول العتمة، ثم يتولى أمن كل زقاق حارس يسهر على المحافظة على أمن الزقاق بالمبيت فيه، فيزود بالسلاح و كلب الحراسة، و معه سراج معلق.[5] و لإحكام الخطط الأمنية في الأزقة يشدد على الحراس أو العرفاء بالمشي أدوار كثيرة، مع تغيير الطرق التي يسيرون فيها بين الفينة و الأخرى لأن اللصوص و الذعرة عادة ما يراقبون تحركاتهم، و ينطلقون بعد ذلك لطلب الشر و الفجور.[6]

و من المعروف أن الشرطة أو الحرس و العرفاء كما هم في كل زمان و مكان يلقون الرعب في قلوب الناس، و لذا كان يشدد عليهم بأنه في حالة القبض على شخص بالليل، لا يغير شكله، و لا تنزع عنه ثيابه، و إنما يسجن في فندق و يكون تحت ضمان الساكنين فيه إلى الصباح، حتى يمثل أمام صاحب المدينة بالهيئة التي وجد عليها.[7] كما شدد القضاة على ألا يسمع يسمع للأعوان و الحرس و العرفاء إلا ببينة من الجيران لأن من الممكن أن تكون التهمة ملفقة منهم أو من آخرين ضد شخص بريء، كما يمنع عليهم الدخول على الناس ليلا أو نهارا ألا

[1]- المقري: نفح الطيب مج I ص 218

[2]- ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ، ص 17.

[3] - ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ، ، ص 16.

[4]- ابن حوقل: صورة الأرض ص 111.

[5]- المقري: نفح الطيب مج1 ، ص 219.

[6]- ابن عبدون: المصدر السابق ، ص 18.

[7]- نفس المصدر ص 17 ، 18.

بإذن القاضي و إذا طلب شخص في قمه و لم يعثر عليه سمر محله، و لا ينهب ماله و لا تدخل داره إلا أن يحضر و يمثل أمام القاضي.[1]

و لفرض الأمن في المدن و الحد من الجرائم شدد الأمراء المرابطين في هذا الجانب حيث يذكر "ابن القطان"[2] أن أبا محمد عبد الله بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين، كان لا يفتر و لا يني عن قتل أهل الشر. و قد صور لنا "ابن قزمان" في أزجاله قسوة عقاب الأمير المرابطي و خوفه من توقيع العقوبة عليه بعد أن رغب في سرقة رغيف خبز خرج لتوّه من أحد الأفران، فظل واقفا ينظر إلى الرغيف و هو يدخل إلى الفرن حتى خرج ناضجا شهيا و راودته نفسه بالهجوم عليه لكنه لم يفعل.[3]و لعل ما يؤكد تنفيذ الأحكام على الجناة ما أورده "ابن عذارى" من تنفيذ القاضي أبي بكر بن العربي من عقاب على السفلة الذين ثاروا عليه باشبيلية حيث يقول: "و ذلك أنه كان له في عقاب الجناة اختراعات و مهلكات و مضحكات، فانتدب أنفسا جمة صلبا وضربا، و سيق إليه أحد الزمرة فأمر بضرب يديه و ثقب شد قيه"[4].

وبالرغم من تنفيذ الأحكام على الجناة و تشديد الحراسة و المراقبة المستمرة للأزقة و الدروب فإن اللصوص في الأندلس كانوا بارعين في المراوغة و أمور التلصص و تسلق المباني المشيدة، و كان سهلا عليهم فتح الأغلاق المحكمة، و لإخفاء جرمهم يقومون بقتل صاحب الدار حتى لا يتعرف عليهم. و هذا ما نستشفه من قول "المقري: " و لا تكاد في الأندلس تخلو من سماع "دار فلان دخلت البارحة" و "فلان ذبحه اللصوص على فراشه" و ذلك راجعا لشطارة عامتهم و كثرة شرهم.[5]والراجح أن كثرة الإجرام و قلته تعود إلى شدة الوالي و لينه، و رغم المحاولات

---

[1]- نفس المصدر ص 16، 17.

[2]- نظم الجمان ص 226.

[3]- يقول ابن قزمان في زجل 98.

و نراه في الفرن داخل *** و إذا خرج نغني

قد خرج محبوب برا *** و نريد ولس نجرا.

و يقلى قلب اهجم *** و نخاف من الملثم

[4]- البيان المغرب ج (4) ص 93.

[5]- المقري: نفح الطيب مج I ص 219.

الكثيرة للقضاء عليه و اجتثاث جذوره لدرجة أن وصل الحد إلى القتل لمن تجرأ على سرقة عنقود كرم إلا أن ذلك لم يقض على اللصوصية نهائيا.[1]

و يبدوا لنا من خلال تتبعنا لمهمة صاحب الأحكام و أعوانه التي هي في الحقيقة تنحصر في الحفاظ على أمن وسلامة المواطنين أن هؤلاء استغلوا وظيفتهم في إرهاب الناس و فرض الإتاوات لذلك وصفهم "ابن عبدون" بأن الشر أحب إليهم من الخير، فمنه يأكلون و يلبسون السحت، و منه يعيشون و ليس للخير إليهم طريق"[2]، وكان هذا سببا في التشدد عليهم.

المحتسب

إلى جانب الوظائف السابقة شملت الوظائف الحكومية أيضا صاحب الحسبة أو صاحب السوق الذي يحظى بمركز مميز بين الموظفين المدنيين، و تكمن مهمته في مراقبة الأسواق، و ما يتصل بها من تنظيم، و تأديب المخالفين للقوانين المنصوص عليها.[3] و يعد ديوان الحسبة من أهم دواوين الدولة، و قد بين الجرسيقي أهمية هذا الديوان بقوله: " إن ديوان الحسبة من أعظم الدواوين... و ليس بعد خطة القضاء أشرف من خطة الحسبة."[4]

و يشترط فيمن يتولى خطة الحسبة أن يكون فقيها عارفا بأحكام الشريعة ليعلم ما يأمر به و ما ينهي عنه، و أن يكون عفيفا ورعا عالما غنيا نبيلا عارفا بالأمور لا يقبل الرشوة لذلك فإنه يشترط فيه أن يكون غنيا حتى لا يأكل أموال الناس بالباطل و مهابا لأنه لا يهاب إلا من كان له مال و حسب[5]، كما يشترط فيه أن يكون عارفا بأصناف المعايش و حيل التجار حتى يستطيع معرفة الغش و التدليس الذي يحدث أثناء عملية البيع.[6]

---

[1]- نفس المصدر و الصفحة

[2]- ابن عبدون: في آداب الحسبة والمحتسب ص17

[3]- النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص 19. ابن عبدون: المصدر السابق ص 43.

[4]- الجرسيقي: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب، ص 119.

[5]- عبد الرحمن بن نصر الشيزري: كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق الباز العريني دار الثقافة ط (2)، بيروت 1981، ص 6.

[6]- السقطي: آداب الحسبة ص 48، 55.

مما سبق نخلص إلى نتيجة مفادها أن ارتباط هؤلاء الموظفين بجهاز الدولة أعطاهم مكانة و وجاهة في أوساط المجتمع فاستغلوها للتحكم في رقاب الناس بأخذ الرشوة منهم، و ما تأكيد "ابن عبدون" و حرصه على عدم تولي صاحب الحسبة و صاحب الأحكام إلا من شهد له بنزاهته و ترفعه عن الرشوة[1] سوى ترجمة أمينة لواقع فرض نفسه.

ثالثا–طبقـــة العامـــة

نعني مصطلح العامة السواد الأعظم من الرعية، و يرجع تسميتهم بهذا الاسم لكثرتهم و عدم الإحاطة بهم، و بذلك اختلفوا عن الخاصة، و لم يكن اختلافهم عن الخاصة بكثرة عددهم فقط بل لكونهم ليسوا من أصحاب السلطة.[2]و قد نعتت هذه الطبقة بنعوت منها: الدهماء[3]، الغوغاء[4]، السوقة[5]، السفلة[6]...الخ. و ربطها بعض المؤرخين بالجهل وقلة العلم[7] و منهم من وصل به الحد إلى نصح الأمراء لتهميش هذه الفئة، و هذا ما يتضح لنا جليا من قول المرادي الحضرمي المعاصر لفترة المرابطين حيث قال: "و اجعل جلوسك للخاصة أبسط منه للعامة"[8] " و و الحزم أن تلبس الانقباض للعامة"[9].و بالرغم من هذه النعوت التي نعتت بها، و الصفات التي وصفت بها إلا أن هذا لا ينقص من دورها في أي مجتمع من المجتمعات و في مختلف مناحي

---

[1]– رسالة آداب الحسبة و المحتسب، ص 20.

[2]– بدري محمد فهد: العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الرشاد، بغداد 1991، ص 11.

[3]– و تعني العدد الكثير: انظر ابن منظور: لسان العرب مج ، 12 تحقيق عامر احمد حيدر و مراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت ط I .2002، ص 246.

[4]– و تعني الدّبا. و هي صغار الجراد، وشبه بها سواد الناس انظر، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج(2) تحقيق محمد عبد القادر القادر شاهين، المكتبة العصرية، صيد، بيروت، 2004، ص 157.

[5]– السوقة بمنزلة الرعية التي تسوسها الملوك و سموا سوقة لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم. يقال للواحد سوقة و للجماعة سوقة.انظر ابن منظور: لسان العرب مج 10، ص 204.

[6]– و تعني نقيض العلية. انظر ابن منظور: نفسه مج 11 ص 403.

[7] –ابن خلدون: المقدمة مج (1) ص 348.

[8]–كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة،دراسة وتحقيق، د.رضوان السيد دار الطليعة للطباعة والنشر ،بيروت ط 1981.1 ص117

[9] – نفس المصدر ص 80.

الحياة. فبالعودة إلى كتب التراجم و الطبقات، و كتب المناقب و النوازل و الحسبة يمكننا استخراج مادة علمية توضح مدى مساهمة هذه الطبقة التي تضم شرائح متعددة كصغار التجار و الحرفيين، و الفلاحين، و شرائح أخرى ارتبطت بهذه الطبقة.و مما لا جدال فيه أن التهميش الذي عانته هذه الطبقة يكمن في أمرين أساسين هما:

الأول: يتمثل في معاناتها اليومية. و الثاني: يعود إلى عدم إعطاء هذه الفئة حقها من طرف المؤرخين لاستجلاء دورها الحقيقي في المجتمع.و لدراسة طبقة العامة و توضيح دورها في المجتمع المرابطي يمكن أن نلحظ دورها الطلائعي في أول وهلة لوضع أسس الدولة المرابطية نفسها.و لا غرو أن بناء مدينة مراكش – عاصمة الدولة المرابطية– ذاتها لم يتم لولا تضافر طاقتهم العضلية و كدهم الدءوب.و لعل ما يؤكد دور هؤلاء و إسهامهم في بناء مراكش ما قام به الفعلة و البنائين و مشاركة يوسف بن تاشفين لهم 'العمل في الطين"[1] أمر يفحص بطريقة غير مباشرة عن عن دورهم في بنائها، و إذا صدقنا ما ذهب إليه "مارمول" فإن ذلك يزيد الأمر تأكيد حيث يشير إلى استخدام شريحة من الشرائح المنضوية تحت طبقة العامة و المتمثلة في أسرى الحرب حيث يذكر أن يوسف بن تاشفين "استعمل في ذلك(أي من بناء مدينة مراكش) ثلاثين ألف أسير لينهي تشييدها في أقرب وقت"[2].وكما كان لطبقة العامة دور في وضع اللبنة الأساسية لعاصمة الدولة و هي في مرحلة النشأة يعزى إليها الفضل أيضا لتفي الدولة المرابطية بظلالها في ربوع المغرب و الأندلس إذ وجدت في طبقة العامة أعدادا من الجند المتطوعة[3] و يتجلى دور العامة أكثر في توطيد أركان الدولة الموحدية في المغرب خاصة في حروبها ضد المرابطين و هذا ما أقربه البيدق حيث قال: " ثم جمع (عبد المؤمن) السوقة بأجمعهم صغيرهم و كبيرهم و قال لهم: أعرف أن مالي إخوان، و لا جيرانا غيركم، و أنتم أهل الأمانات بارك الله لنا فيكم، و أعطاهم السلاح سيوفا و رماحا و درقا و سكاكين، و أمرهم أن يعملوا زقا".[4]

أ– صغار التجار و الباعة المتنقلون:

---

[1]- السلاوي:الاستقصا ج (2) ص 23

[2]- مارمول: إفريقيا ج(2) ص 47.

[3]- مجهول: الحلل الموشية، ص 33. ابن عذارى: البيان المغرب ج(4)، ص 94.

[4] -أخبار المهدي بن تومرت ص 79.

يمثل صغار التجار و الباعة المتنقلون شريحة كبيرة من الطبقة العامة على أساس أن التجارة هي "محاولة الكسب بتنمية المال، بشراء السلع بالرخص و بيعها بالغلاء أيّا ما كانت السلعة"[1] و هذا ما يمكن صاحبها من مغالبة الفقر و مدافعة نوائب الدهر.ولعل ما يدل دلالة واضحة على إقبال عامة الناس على التجارة أن الأمثال الشعبية المعاصرة لفترة الدراسة تعبر عن هذا الاتجاه فشملت أمثالهم الحوانيت أو الدكاكين التي كانت تسد رمقهم و تضمن عيشهم داخل المجتمع.[2]

و قد أمدتنا كتب الحسبة بمعلومات كثيرة من التجار و أنواع السلع التي يتم عرضها في الأسواق المغربية و الأندلسية على عهد المرابطين. و التي لا تختلف عن غيرها في معظم المدن الإسلامية. فكان لكل نوع من أنواع التجارة أو حرفة من الحرف شارعا أو سوقا باسمه[3]. فهنالك قياصرة خاصة لتجار المنسوجات الحريرية و القطنية و غيرها من أنواع المنسوجات.كما كان لتجار الأحذية شارعا خاصا بهم يعرف باسم سكة الاسكافيين[4]. و خصص مكان لتجار الخضر و الفواكه المختلفة الأصناف التي ترد من القرى القريبة للمدن المغربية و الأندلسية.و بجوارها ينتشر باعة اللحوم من بقر و غنم و ماعز[5] التي يشترط فيها على باعتها أن يجعل كل نوع في حانوت على حدة، حتى لا يحدث غش، و يخلط الجزار لهم الضان بالماعز.[6] و لا يخلوا السوق من مكان لباعة الطيور و الأرانب المذبوحة.و إلى جانبهم باعة الطيور الحية و غيرها، و يجلس بجوارهم أيضا باعة البيض، و بجانب كل بائع منهم إناء مملوء بالماء لاختبار البيض.[7]وشملت شريحة التجار الصغارأيضا باعة الزيت و الزبد و السمن و العسل[8] بينما ينتشر

[1]- ابن خلدون: المقدمة مج (1) ص 420.
[2]- قالت العامة:" الحانوت هي أن لم تغد تعشى"، الزجالي: أمثال العامة ج1ص 245، مثل 693.
[3]- ابن عبدون : رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب ص 43.
[4] -محمد عبد الوهاب خلاف: قرطبة الإسلامية ص 129، 130.
[5] - السقطي: آداب الحسبة ص 32 ابن عبدون: المصدرالسابق ص 43 ،44.
[6]- ابن عبدون :المصدر السابق ص 44
[7] ابن عبدون: نفس المصدر ص 43.
[8] -عبد الرحمن الفاسي: خطة الحسبة في النظر و التطبيق و التدوين دار الثقافة المغرب 1984، ص 137.

ينتشر هنا وهناك باعة المجبنات[1] و الإسفنج الساخنة و المركاس (السجق) و الهريس –الذين خص لباعتها سوق يعرف باسم (سوق الدخانين) التي و لع الأندلسيون بأكلها.[2]

كما نشط التجار المغاربة و الأندلسيين في تجارة الحبوب سيما أنها قوت العامة[3] فخصص لباعتها مكان يعرف باسم الرحاب[4] يباع فيها القمح و الشعير و الذرة و غيرها من البقول المختلفة.أما تجار الدقيق فكان لهم سوقا خاصا يعرف باسم "المدى"[5]. هذا فضلا عن انتشار تجارة العطارة[6] و الخدم و العبيد[7] و غيرهم كتجار الجير و الفحم و القفاف و الخبازين[8] و غيرهم من التجار الذين أحصتهم كتب الحسبة و هم كثر.

ب ـــ الفـــلاحون:

يعد الفلاحون ثاني أهم شريحة من شرائح العامة على اعتبار أن الفلاحة أهم مصدر لكسب العيش. و هذا ما ينطبق على ما ذهب إليه "ابن خلدون"[9] في إشارته إلى أوجه كسب المعاش و أصنافه فذكر أن الفرد بإمكانه "تحصيل الرزق و كسبه من النبات في الزرع و الشجر بالقيام عليه و بإعداده لاستخراج ثمره".

---

[1]– نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها و تقلى بالزيت، و من المدن الأندلسية التي اشتهرت بها شريس حيث قيل فيها: "من دخل شريس و لم يأكل بها المجبنات فهو محروم"، انظر: المقري: نفح الطيب مج (1) ص 184.

[2]– ابن عبدون: المصدر السابق ص 45، و عن تسمية اسم السوق "بسوق الدخان" انظر: الإدريسي: صفة المغرب ص 70.

[3]– ابن خلدون: المقدمة ص 386، 387. ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة و المحتسب ص 72.

[4]–عبد العزيز الأهواني: ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي (في لحن العامة) مج (3) ج (2) مجلة معهد المخطوطات العربية ، سنة 1957 ص 316.

[5]– نفس المصدر ص 311.

[6]–ابن عبد الرؤوف: المصدر السا بق ص 67، 68.

[7]– السقطي: آداب الحسبة ص 47، 48.

[8]– ابن عبدون رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص 38، 41- 43.

[9]– المقدمة ص 408.

كما تفطن "ابن عبدون"[1] المعاصرة لفترة المرابطين لأهمية الفلاحة حيث قال: "فالفلاحة هي العمران، و منها العيش كله، و الصلاح جله، و في الحنطة تذهب النفوس و الأموال، و بها تملك المدائن و الرجال، و ببطالتها تفسد الأحوال، و ينحل كل نظام". وعدها "ابن خلدون ضمن معاش المستضعفين و أقدمها لأنها بسيطة و طبيعة فطرية لا تحتاج إلى نظر و لا علم[2] وعليه كان كان إقبال عامة المجتمع المغربي و الأندلسي عليها في عصر المرابطين.

وأمدتنا المصادر المعاصرة لفترة الدراسة بمعلومات كثيرة توضح مدى ارتباط المغاربة و الأندلسيين بالأرض و ممارستهم للنشاط الفلاحي سواء من كان مقيم منهم في المدن أو في البوادي. و حسبنا أن عاصمة الدولة –مراكش- التي كان بها بستان واحد، أصبحت تعج بالبساتين و الجنان بعد أن اتبع الناس الطريقة التي استخدمها المهندس الأندلسي عبيد الله بن يونس في استخراج المياه.[3]كما كان الكثير من أهل فاس يعملون بالحراثة و الفلاحة[4] و لكثرة المنتوج الفلاحي عمل يوسف بن تاشفين على استقدام صناع الأرحى من أندلسيي قرطبة إليها فبنوا الكثير منها[5] حددها الحميري بأربعمائة رحى[6].

كما عمل أهل مكناسة في زراعة الأرض أين اشتهرت بكثرة البساتين المثمرة بها، و أكثرها من الزيتون الذي سميت باسمه لكثرة منتوجه.[7] ومارس أهل "تازا" النشاط الفلاحي لتوفر المياه المنبعثة من الجبل المحاذي لها عبر الأنهار فتسقى مزارعها و بساتينها[8]، في حين أحاط المزارعون بمدينة تادلى من كل الجهات مشكلين تجمعا كبيرا لما تدره تلك المنطقة من خيرات و أرزاق.[9]

---

[1]- رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص 5.

[2]- ابن خلدون: المصدر السابق ص 409 ، 420 .

[3]- عن الطريقة التي اتبعها المهندس الأندلسي عبيد الله بن يونس و تقليد الناس له في طريقة استخراج المياه، انظر: الإدريسي: صفة المغرب ص 67،68.

[4]- الجزنائي: كتاب مدينة فاس المعروف زهرة الآس ص 69.

[5]- ابن القاضي: جذوة الاقتباس ق (1) ص 50.

[6]- الحميري:الروض المعطار ص 434.

[7]- ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص 141.

[8]- الحميري:المصدر السابق ص 128.

[9] -نفسه ص 127.

و لم تقتصر فلاحة المغاربة على الأراضي المنبسطة و السهول فقط بل استغل الفلاحون حتى بعض المناطق الجبلية كجبل "درن"" المطل على البحر المحيط الذي يمتاز بخصوبته و كثرة مياهه فتنوعت فواكهه بين التين الطيب المتناهي في الطيب، و العنب العسلي و الجوز و اللوز، و من كثرة بعض أنواع الفواكه .كان الحمل منها يباع بقيراط واحد. في حين كان الفلاحين و أهل المنطقة لا يتباعون فيما بينهم بعض المحاصيل الزراعية لكثرتها[1]، و قد اقتصرنا هنا على ذكر الإنتاج الفلاحي لبعض المناطق فقط كنماذج أساسية دون التطرق إلى باقي المدن المغربية و بواديها لأننا سوف نتعرض لها في حديثنا عن القسم الخاص بالجانب الاقتصادي.

أما بالنسبة للأندلس فقد أدرك المسلمون منذ الفتوح الأولى أهمية الفلاحة فنزلوا بالبقاع الخصبة و اعتنوا بالزراعة في الأندلس عناية تامة فأدخلوا كثيرا من طرقها و أدواتها و نباتاتها الجديدة، و في الجملة فقد أضافوا جميع الوسائل الشرقية الراقية إلى ما كان معروفا من الوسائل القديمة في البلاد فتنوعت بها المحاصيل الزراعية.

وقد أمدتنا المصادر الجغرافية بمعلومات وفيرة عن تنوع المحاصيل الزراعية في مدن الأندلس و بواديه، فاشتهر أهل الشرق بفلاحة التين و الزيتون الذي يمتد على مسافة إثنى عشر ميلا[2] في حين عرفت مدينة "يبورة" بكثرة حنطتها و سائر البقول و الفواكه[3]، و اعتنى فلاحو بادية مدينة مدينة "قورية" بزراعة الكروم و التين و أصناف مختلفة من الفواكه[4] و اشتهر أهل فحص بلاطة القريب من لشبونة بخصوبة أراضيه لدرجة أن الحنطة التي تزرع به تقيم أربعين يوما ثم تحصد، و لكثرة انتاجها قيل أن الكيل الواحد منها يعطي مائة كيل.[5]

أما منطقة وادي الحجارة فعرفت بكثرة أرزاقها و خيراتها المتنوعة و معظم بساتينها و مزارعها تقع في الجهة الغربية منها حيث النهر الذي تسقى منه كرومها و مزروعاتها التي

---

[1]- الإدريسي: المصدر السابق ص 64، 65.

[2]- الإدريسي: صفة المغرب ص 178، وحدد "المقري" مسافتة بأربعين ميلا انظر: نفح الطيب مج (1) ص 159.

[3]- مدينة تبعد عن بطليوس بمرحلتين، انظر الحميري: الروض المعطار ص 616.

[4]- الإدريسي: المصدر السابق ص 183

[5]- نفس المصدر ص 186.

اشتهرت بها و خاصة الزعفران الذي كان يتجهز به إلى مختلف المناطق.[1] و غير بعيد عن المرية و تحديدا على بعد أربعة أميال منها و على الوادي المنسوب إلى بجاية تنتشر البساتين و الجنات التي كان يزود بها فلاحو المنطقة مدينة المرية. في حين برز مزارعي مدينة مالقة في زراعة التين الذي يصدر إلى عدة بلدان كمصر و بلاد الشام و العراق، و ربما وصل حتى الهند ناهيك عما يزرع في باقي المدن الأندلسية و بواديها.[2]

وما دمنا بصدد الحديث عن طبقة العامة و الفلاحين الذين يعدون شريحة منها فإن ذلك يستوجب دراسة العلاقة بين أرباب الأرض و المزارعين المستأجرين غير أن الدارس لهذه العلاقة يجد صعوبات جمة لكون المؤرخين القدامى أسدلوا الستار عن هذا الجانب نظرا لأن المشتغلين في هذا المجال من الطبقة الدنيا[3] التي لم تحض باهتمام المؤرخين، كما أنهم اهتموا بالحواضر دون البوادي (الريف) الذي هو مجال الفلاحين، و لولا النصوص التي وردت في كتب الفقه و النوازل و رسائل الحسبة بما تحويه من عقود مختلفة و نصوص ثمينة لما اتضحت لنا تلك العلاقة. فهذه الأخيرة كشفت لنا علاقات ملاك الأراضي بالمزارعين و طبيعة علاقتهم الإنتاجية، و كذا كيفية تقسيم العمل داخل المزارع. و السؤال الذين يتبادر إلى الأذهان هل كانت العلاقة بين أرباب الأراضي و المزارعين علاقة مباشرة أو هناك من ينوب عنهم؟

بعودتنا إلى مصادر الفترة اتضح لنا أن ملاك الأراضي معظمهم فضلوا العيش في المدن و تركوا أراضيهم لوكلاء ينوبون عنهم في البوادي[4] و هؤلاء الوكلاء عملوا على تأجير تلك الضيعات لمزارعين صغار مقابل حصة من الإنتاج تختلف من عقد لآخر. و بتلك الطريقة يكون المزارع حرا لا تربطه أية علاقة بصاحب الأرض.[5]و استنادا إلى النصوص المتاحة يمكن حصر عدة أشكال من العلاقات السائدة بين ملاك الأراضي و المزارعين في المغرب و الأندلس

---

[1]- الحميري: المصدر السابق ص 606.

[2]- الإدريسي:المصدر السابق ص 197، 200

[3]- ابن خلدون: المقدمة ص 420.

[4] -انظر عن ذلك مثلا: ابن القاضي: جذوة الاقتباس ق (2) ص 458، و انظر مثلا عن ذلك: الونشريسي: المعيار ج (1) ص 316.

[5]- إبراهيم القادري بوتشيش: إضاءات حول تراث المغرب الإسلامي و تاريخه الاجتماعي، دار الطليعة، بيروت ط I 2002 ص 77، 78.

تراوحت بين علاقات إقطاعية[1] و قبالية[2] فضلا عن نظام الخماسة[3] و المرابعة و المثالثة[4] و المناصفة.[5]

وكان أرباب الأملاك لا يختارون من الفلاحين إلا الشباب لأن هؤلاء أقوى على انحناء الظهر و الأكتاف، و المداومة على العمل، و أصبر على العمل في الحر و القر.[6] و مما كان يحرص عليه أرباب الأرض إذا كان الفلاحين كثيرين أن لا يعملوا جميعا في موضع واحد لأنهم إذا اجتمعوا كثر حديثهم، فأشار بعضهم على بعض بالمكر و الخبث في العمل، بل يقسم عليهم العمل بالتساوي و أن لا يتعدى مجموعتهم من عشرة إلى ستة، أما الذين يعملون بالفأس فلا يتعدوا الاثنين، و يشترط فيهم أن يكونوا أقوياء الأجسام طوال القامة.و للحصول على مزيد من الإنتاج و حث العمال على العمل يتم تعيين أمناء لمراقبة عملهم و يكون ذلك ممن يتصف بمواصفات معينة كأن يكون محبا للعمل و سباقا في النهوض من النوم ليقتدي به أهل القرى.[7]

مما سبق يتضح لنا أن الفلاحين كانوا يكدون لكسب قوت يومهم وبالرغم من ذلك فإن البعض منهم عاش وضعية مزرية، فأصبح دخلهم لا يفي بمتطلبات حياتهم و هذا ما يتضح لنا على لسان أحد الفلاحين حيث قال: "كنت مقدور في رزقي، و كان حرثي لا يقوم بي".[8] و يبدوا أن ذلك كان نتيجة عدة عوامل يمكن حصرها فيما يلي:

---

[1]- انظر عن منح المرابطين اقطاعات للجند، الطرطوشي: سراج الملوك ،المطبعة الأزهرية، القاهرة، د.س.ص 107.

[2]- عبارة عن الأراضي التي حاز عليها بعض المضاربين العقاريين عن طريق الكراء من كبار الملاك لمدة أربع سنوات، يؤدون ثمنها لهم على رأس كل سنة و بعدها يقوم هؤلاء بتأجيرها للفلاحين. انظر: الجزيري: المقصد المحمود في تلخيص الوثائق و العقود، مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط رقم 5221، 1661 و رقة 111.

[3]- عن نظام الخماسة انظر: الونشريسي: المعيار ج8 ص 150- 151.

[4]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد س3 ص1367

[5]- الجزيري: المصدر السابق ورقة 136 .و انظر أيضا ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة مج I ص 236.

[6]- ابن حجاج الاشبيلي: المقنع في الفلاحة تحقيق صلاح جرار، جاسر أبوصفية، تدقيق و إشراف عبد العزيـــز الـــدوري منشورات مجمع اللغة العربية الأردني 1402هــ/1982م، ص 9.

[7]- ابن حجاج الاشبيلي: نفس المصدر ص 9.

[8] -ابن الزيات: التشوف ص 225.

أولا:مرور المغرب و الأندلس في عصر المرابطين بفترة عصيبة ضرب فيها القحط و الجفاف مختلف أرجائه ونستشف ذلك مما أورده ابن رشد المعاصر لفترة الدراسة في إحدى نوازله، و ما انجر عنه من نزاع بين مالكي الجنان و أصحاب الأرحاء بمدينة "سبتة" حول استغلال المياه. فبالرغم من الاتفاق المسبق بين الطرفين على استغلاله بالتناوب أياما معلومة من السنة فإن ظروف المناخية بعثت الخوف و القلق في نفوس المزارعين جعلتهم يخالفون الاتفاق و يوضح ابن رشد ذلك بقوله: "ثم إنه تحدث في بعض السنين إذا كان جذب و قحط، حاجة بالجنات إلى السقي في غير الشهور المعروفة، و حاجة لترطيب أرضها و تثريته للحفير عند عدم الأمطار، فقام أصحاب الجنات بذلك، و ادعوا أن الصلح إنما كان على العادة".[1]

ثانيا: انعدام الأمن وأثره الكبير على الفلاحين نتيجة التقلبات السياسية التي حدثت في الأندلس بسبب الحصار أو الحروب التي خاضتها الدولة المرابطية مع القوى المسيحية[2] وما تلى ذلك فيما بعد في المغرب سيما في الفترة الأخيرة من عهد الدولة[3] –المرحلة الإنتقالية من الدولة المرابطية إلى الموحدية-.

ثالثا: معاناة المزارعين من تعسف الجباة خاصة المتقبلين منهم و الخراص الذين أمعنوا في تحصيل الأعشار، و مختلف المكوس غير الشرعية، التي تركت لاجتهاداتهم فاغتنموا الفرصة لفرض ما شاءوا من الضرائب واشتطوا في ذلك سيما وأن تلك المغارم لم تكن محددة بمبلغ معلوم ففرضوا منها ما شاءوا إرضاء لنزواتهم وهذا مما حذا بابن عبدون أن يصفهم "بأنهم أكلة سحت أشرار".[4] خاصة وأن القبالات كانت قد عمت كل شيء وهذا ما عبر عنه الادريسي المعاصر

---

[1]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد، س (2) ص 1088، 1089.

[2]- انظر ما آل إليه الأمر في دانية و ما اتصل بها من القلاع و القواعد من كثرة الغارات عليها، و توالي الضرب و عظم الضرر و انقطاع السابلة، ابن عذارى: البيان المغرب ج(4) ص 34. و انظر ما عانه أهل بلنسية من غلاء، و انعدام الأقوات و ما نتج عنه، ابن عذارى: نفسه ص 38، 39.

[3]- انظر عن ذلك مثلا ما آل إليه الأمر في عاصمة المرابطين –مراكش- بعد إحكام عبد المؤمن الحصار عليها حيث نفذ طعامهم و فنيت مخازنهم حتى أكلوا دوابهم، و مات منهم بالجوع ما ينيف على 120 ألف، و لطول الحصار هلكوا جوعا حتى أكلوا الجيف، و أكل أهل السجن بعضهم بعضا، و عدمت الحيوانات كلها، و الحنطة بأسرها، و اختبرت المخازن فلم يوجد بها شيء. انظر مجهول: الحلل الموشية، ص 137- 138.

[4]- رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص 5.

لفترة المرابطين بصراحة في قوله:"و كانت القبالة على كل شيء يباع دق أو جل كل شيء على قدره."[1]

ج – الصناع أو الحرفيين:

تعد شريحة الصناع و الحرفيين أهم شريحة من شرائح طبقة العامة التي لا يكمن الاستغناء عنها لدورها الكبير و مساهمتها في متطلبات الحياة اليومية للمجتمع و تزدادا أهمية الصناع والحرفيين مع اتساع العمران و ازدهار المدن و كثرة سكانها، و مرافقها و هذا ما يتفق مع ما ذهب إليه ابن خلدون في قوله: "أن الصنائع دائما تكمل بكمال العمران الحضري و كثرته".[2]ولأهمية الصنائع و الحرف في المجتمع اعتبرها البعض بأنها (أي الصنعة) أول ما ينبغي للإنسان أن يتعلمه بعد معرفته بدينه"[3] و لعل هذا ما جعل إقبال العامة على تعلمها إذا لم ينل حقه في التعليم و هذا ما نستشفه من قول المقري[4]: "أن الجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، و يربأ بنفسه أن يرى فارغا عالة على الناس".

ومما لا شك فيه أن أصحاب الصنائع و الحرف كانت غالبيتهم من العامة، و عليه فإن أمثلتهم لم تستثنيهم من ذلك بل حثتهم على الكد والسعي للعمل[5] و عليه فلا غرابة من تكليف أهل السوس و أغمات "نسائهم و صبيانهم التحرف و التكسب"[6]. وقد قسم ابن خلدون الحرف أو الصنائع إلى قسمين: القسم الخاص بأمر المعاش ضروريا كان أو غير ضروري،

---

[1]– الإدريسي: صفة المغرب ص 70.

[2]– المقدمة ص 427.

[3]– الاشبيلي أبو بكر بن إبراهيم: التيسير في صناعة التسفير، تحقيق عبد الله كنون، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد مج 7، 8 ، 1959-1960، ص 41.

[4]– نفح الطيب ج I ص 220.

[5]– انظر ما أورده ابن عاصم في أمثاله في هذا المعنى كقوله: "اخدم باطل و لا تجلس عاطل"انظر عبد الغزيز الاهواني :أمثال العامة ص314 مثل رقم 225،.

[6]– البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ص 163.

كالخياطة و الجزارة و النجارة و الحدادة و أمثالها.والقسم الثاني يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان كالوراقة و التجليد و الغناء...الخ.[1]

ولاكتساب الصنعة أو الحرفة فإن ذلك عادة ما يبدأ في الصغر و هذا ما توضحه المصادر المعاصرة للفترة إذ يشير السقطي[2] أنه شاهد بأم عينيه الأطفال الصغار و هم يشتغلون في الأرحاء. و ما يزيد الأمر تأكيدا هو ما ذهب إليه صاحب "الاستبصار" من أن أطفال مكناسة يتعلمون الحياكة داخل منازلهم[3] و فيهم من ورث الحرفة عن والده و لو كانت تلك الحرفة حقيرة و هذا ما أشارت إليه أمثال العامة[4]. و عليه فلا غرابة أن يسمي بعض الأشخاص باسم الحرف التي امتهنوها أو مارسها آباؤهم.[5]و بالعودة إلى المصادر يمكننا تصنيف الصناع أو أهل الحرف إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: هم الصناع الذين يملكون آلات العمل و دكاكين خاصة بهم، و معهم صبيان تحت التمرين يرتبطون بصاحب العمل كمعاونين لمعلمهم.

أما الصنف الثاني: فيتمثل في الصناع الذين لا يمتلكون كثيرا من آلات العمل و لا دكاكين خاصة بهم و هؤلاء عادة ما كانوا يتخذون الأزقة و الحارات لخدمة كل من يحتاج إليهم.أما الصنف الثالث: فهم الصناع المتجولون في أحياء المدن و الأرياف مثل صناعي الأدوات الحديدة و غيرها.[6]

وبناءا على هذا التصنيف يتضح لنا أن أهل المغرب و الأندلس قد اشتهروا بإتقانهم الصناعات و الحرف وما وصف الجزنائي لصناع "فاس" إلا دليلا صادقا على ذلك حيث يقول فيهم: "و لا

---

[1]- المقدمة مج I ص 426.

[2]- آداب الحسبة ص 23.

[3]- مجهول:الاستبصار ص 188.

[4]- انظر عن ذلك مثلا قو ل العامة "صنعة والدك و لو كان حشاش" الزجالي: أمثال العوام مثل رقم 1582.

[5]- انظر أمثلة عن ذلك في الضبي:بغية الملتمس ص 138، 168، 486.

[6] – أبي الحسن علي بن رحال: كشف القناع عن مسائل الصناع، مخطوط، ملحقة الخزانة الملكية الحسنية، بالرباط رقم 2113، ورقة 30.

صانع أصدق من صانعهم"[1] و عليه شهدت المدينة إقبال أهل الصناعات و الحرف عليها متخذين إياها مقرا لنشاطاتهم الصناعية و الحرفية "و اجتمع فيها ما ليس بمدينة من مدن الدنيا و أتتها التجارات و أهل الصناعات من كل صقع حتى تكامل بها كل متجر".[2]

و قد أمدنا "الجزنائي" بمعلومات قلّما نجدها في غيرها من المصادر حيث صنف لنا الصناعات و الحرف التي اشتهرت بها مدينة فاس ،كما أحصى لنا عدد دور كل صناعة و حرفة حيث بلغ عدد الحوانيت بها تسعة آلاف و اثنتين و ثمانين، و الأطرز ثلاثة آلاف و أربعة و تسعين، و دور عمل الصابون سبعا و أربعين. و دور الدباغين ستا و ثمانين، و دور الصناع مائة و ستة عشر، و دور تسبيك الحديد و النحاس إثني عشر، و دور عمل الزجاج بإحدى عشرة، و كوش الجير مائة و خمس و ثلاثين و أفران الخبز ألفا و مائة و سبعين، و أحجار عمل الكاغيد أربعمائة كل ذلك بداخل المدينة، و دور الفخارة مائة و ثمانين بخارج المدينة. ناهيك عن انتشار دور بعض الحرف و الصناعات التي تحتاج إلى المياه على طرفي الوادي الكبير كدار الصباغين و حوانيتهم، و حوانيت الخنافين، و القصابين، و السفاجين و المواضع المعدة لطبخ الغزل و الفوالين.[3]

كما تنوعت الصناعات و الحرف المغربية في عصر المرابطين بين الصناعات الحربية كصناعة الدروق اللمطية، و الرماح ذات العصي القصيرة و المتصفة بطول أسنانها و رقتها. و بين الصناعات الجلدية كصناعة السروج و اللّجم و الأقتاب المعدة لخدمة الإبل.[4] و برز حرفيو السوس في الصناعات النسيجية كالأكسية الرقيقة و الثياب الرفيعة التي لا يقدر أحد على صنعها عدا نساء السوس اللواتي اشتهرن بحذق صناعتهن اليدوية.[5] في حين اختص صناع مدينة "تادلة"

1- الجزنائي: كتاب تاريخ مدينة فاس، المعروف زهرة الآس ص 74.

2- نفس المصدر و الصفحة.

3- نفس المصدر ص 80.

4 -الإدريسي: صفة المغرب ص 59، 62.

5-نفس المصدر ص 62.

"تادلة" بالثياب القطنية[1] و سجلماسة بالصناعات الصوفية، حتى أن الثوب منه تعدى سعره عشرين مثقالا.[2]

أما مدينة "ايجلي" فقد اختص أهلها في صناعة السكر و النحاس المسبوك.[3] و مما لا شك فيه أن إخضاع الأندلس لسلطة المرابطين شجع على تنقل الأشخاص بين العدوتين المغربية و الأندلسية، بما فيهم الصناعيين و الحرفيين، و هذا ما أعطى قفزة نوعية و خبرة أكثر لأهل المغرب بعد توافد الأندلسيين عليه، خاصة و أن هؤلاء قد اشتهروا بحذق الصناعات اليدوية. فمتى دخلوا في شغل عملوه في أقصر مدة و افرغوا من أنواع الحذق و التجويد ما يميلون به النفوس إليهم.[4] حتى شبهوا بأنهم "صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن".[5]كما وصفوا بأنهم أهل احتياط و تدبير في المعاش خوف ذل السؤال، و عليه فإن الأندلسيين إذا رأوا شخصا صحيحا قادرا على العمل يتسول سبوه، و أهانوه، فضلا عن أن يتصدقوا عليه.[6] إذا فلا فلا غرابة أن يشتهروا بإتقان الصناعات و الحرف. فاختصت المرية و مالقه و مرسية بالموشي المذهب الذي يتعجب به أهل المشرق إذا رأوا منه شيئا لحسن صناعته، في حين اختص أهل غرناطة و "بسطة" في صناعة ثياب اللباس المحررة الصنف المعروف بالملبد المختم، و برز حرفيو مرسية في صناعة الأسرة المرصعة و الحصر الفتانة الصنع و آلات الصفر و الحديد من السكاكين و الأمقاص المذهبة و غيرها من أدوات العروس و الجند ما يبهر العقل.[7]

أما المرية فقد أمدنا عنها "الإدريسي"[8] المعاصر لفترة الدراسة بوصف دقيق لصناعتها و حرفها في في قوله: " و مدينة المرية في أيام الملثم كان بها من كل الصناعات كل غريبة و ذلك انه كان بها

1- الادريسي صفة المغرب: ص 75.
2- البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ص 197.
3- نفسه ص 162.
4- المقري: نفح الطيب مج (3) ص 152.
5- نفسه ص 151.
6- المقرى : نفح الطيب مج (1) ص 220، 223.
7- نفسه ص 201، 202
8- صفة المغرب ص 197.

من طرازالحرير 800 طراز يعمل بها الحلل[1]و الديباج والسقلاطون[2]والأصبهاني والجرجاني[3] والستور المكللة[4] والثياب المعينة[5]والخمر[6]والعتابي[7]والمعاجر[8]،وصنوف المعينة[5]والخمر[6]والعتابي[7]والمعاجر[8]،وصنوف أنواع الحرير " هذا ناهيك عن أصناف أخرى من أخرى من آلات النحاس و الحديد و سائر الصناعات ما لا يحد و لا يكيف.[9] و حدق حرفيو المرية و مرسية و مالقة في صناعة الزجاج والفخار المزجج المذهب.[10]

كما أولت الدولة المرابطية و صناعها عناية خاصة بالصناعات الحربية، خاصة و أنها دولة معازي، و عليه فإن تلك الصناعات كانت أكثر همّهم فبرزوا في صناعة آلاتها المختلفة من التراس و الرماح و الدروع و السيوف و السروج و الألجم و المغافر و غيرها.[11] و لعل ما يؤكد شهرة الأندلس بالصناعات الحربية تلك الإشارة التي أوردها صاحب "الحلل الموشية"والتي

---

[1]- عبارة عن نشيج حريري على خيوط الذهب. انظر عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية، قاعدة أسطول الأندلس، ص 157.

[2]- كلمة مشتقة من كلمة (cycle) و تطلق هده التسمية في ارو ربا على نسيج من الحرير المطرز بالذهب ، و يرجع أن أن هذا الاسم أطلق على هذا النوع من النسيج بسبب رسومات الدوائر التي تحملها المنسوجات البيزنطية و الساسانية و العربية و لعلة المختوم المرقم. انظر: نفس المرجع و الصفحة.

[3]- نوعان من النسيج ذاعت شهرتها في اصبهان و جرجان فسميت بها. انظر: نفس المرجع ص 158.

[4]- هي أقمشة من الحرير و الرقيق المزينة بزخارف نباتية و أزهارها تشبه الأكاليل:.. انظر عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية، قاعدة أسطول الأندلس ص158

[5] - نسيج من الكتان أو القطن مزين بترابيع صغيرة على شكل معينات و قيل أنها سميت بهذه التسمية لشبهها بالعيون. انظر: نفس المرجع و الصفحة.

[6]- هي أقمشة حريرية تغطى بها النساء رؤوسهن و تنسدل على الوجه فتغطيه. انظر: عبد العزيز سالم: نفس المرجع السابق. و هناك من يرى أنها تعني الحزام السري: انظر: رينهات دوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب: ترجمة أكرم فاضل دراسة الحرية للطباعة، بغداد 1971، ص 139، إلا أننا نرجح ما ذهب إليه عبد العزيز سالم.

[7]- نوع من نسيج الحرير الذي اختصت بصناعته بغداد و تنسب إلى محتلها المعروفة باسم العتابية. انظر: ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت 1959، ص 201.

[8]- قماش من الحرير شفاف تتخذه النساء لتغطية و جوهن ارشد رؤوسهن به. انظر: رينهات دوزي: المرجع السابق ص 243.

[9]- الإدريسي: صفة المغرب ص 197.

[10]- المقري: نفح الطيب مج I ص 201- 202.

[11]- نفس المصدر ص 202.

يفهم منها تعدد صناعاتها الحربية وتنوعها فيقول: و بعث (يوسف بت تاشفين) إلى الأندلس برسم شراء العدة و آلات الحروب، فاشترى له منها كثير".[1] و لم يستثن حرفيو الأندلس من صناعتهم بعض الأدوات ذات الاستعمال اليومي حيث تقطع الأخشاب من جبل "قيشاطة"[2] لتخرط منه القصاع و المخابي و الأطباق و غيرها من الأدوات.[3]

وقد أمدنا "الإدريسي"[4] بمعلومات هامة تبرز جهد الأندلسيين المشتغلين في المناجم موضحا خبرتهم بطرق استخراج المعادن من باطن الأرض يصل عمقها إلى 250 قامة و استخلاصها من الشوائب، حيث يذكر أنه شاهد بأم عينيه عملية استخراج الزئبق من المناجم بشمال قرطبة و ذكر أنه كان يعمل بها أكثر من ألف عامل، بعضهم للنزول فيه و قطع الحجر و البعض الآخر لنقل الحطب لحرق المعدن و آخرون لعمل أواني سبك الزئبق و تصعيده، و مجموعة أخرى لمراقبة الأفران و الخزف.كما استغل حرفيو الأندلس مناجم الرخام المنتشرة فيه أحسن استغلال و الذي تواجدت منه أنواع كثيرة في جبال قرطبة، مثل مقاطع الرخام الأبيض الناصع، و الخمرى، و كثرت في "باغة" من أعمال قرطبة مقاطع الرخام الغريبة الموشاة بالحمرة و الصفرة، أما الرخام الحالك فكان متواجد في أنحاء كثيرة الأندلس.[5]

أما في قطاع البناء و ما يتعلق به، فإن هذا النشاط قد عرف حركية كبيرة في العهد المرابطي منذ الوهلة الأولى لقيام الدولة وتأسيس عاصمتها التي تكون قد استقطبت الكثير من البنائين والحرفيين و الفعلة من مختلف مناطق المغرب و على الخصوص من يهود سجلماسة الذين احترفوا هذه المهنة.[6] و يبدوا أن مشاركة طبقة العامة في بناء مراكش كانت قوية و لم يستثن منها أحدا لتشمل أيضا شريحة كبيرة من الأسرى إذا ما صدقنا الرواية التي جاء بها" مارمول" و التي أشار فيها إلى مشاركة "ثلاثين ألف أسير لينتهي تشييدها في أقرب وقت".[7] و مما لا شك فيه

1- مجهول:الحلل الموشية ص 37

2 -يسميها الحميري: قيجاطة و هو من عمل جيان. انظر: الروض المعطار ص 488.

3- الإدريسي: صفة المغرب ص 203.

4- نفس المصدر ص 213، 214.

5- المقري: نفح الطيب مج 1 ص 200- 201.

6- البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ص 148، 149.

7- إفريقيا ج (2) ص 47.

فيه أن النشاط العمراني الذي ميز المغرب و الأندلس في عهد المرابطين من بناء للمدن و القصور[1] و المساجد[2] كان بحاجة إلى أعداد كبيرة من هذه الشريحة لتشييدها، و زادت حاجة الدولة إلى خدمة هذه الفئة خصوصا بعد ضم الأندلس لحاجة الأمراء المرابطين إلى بناء القلاع و الحصون لتأمين حدودهم من غارات المسيحيين، وكذا الحال مع نهاية الدولة و بداية ظهور أمر الموحدين.فكان للقرار الذي اتخذه "علي بن يوسف" لتسوير مراكش. و بناء جامعها و منارتها. أن احتاج هذا العمل إلى عدد وفير من البنائين و الحرفيين، فجمع "علي بن يوسف" لها من الصناع و الفعلة ما يكفي لاستكمال مشاريعه.[3]

ولتنظيم السير الحسن للصناع و الحرفيين عمدت الدولة المرابطية إلى تخصيص أحياء خاصة لكل صنعة أو حرفة[4] مع تعيين "عريف" أو "أمين" على رأس كل حرفة أو صنعة تكمن مهمته في رعاية مصالحهم، و الحسم في النزاعات التي تحدث فيما بينهم.[5] و تدلنا رسائل الحسبة المعاصرة لفترة الدراسة مدى مراقبة المحتسبين لهم و إحكام قبضتهم عليهم و عليه فليس من المستبعد أن يكون الصناع و الحرفيين قد تعرضوا لبعض المضايقات من طرفهم.

و على الرغم من الخدمات التي قدمتها هذه الشريحة سواء للدولة أو المجتمع فإنها لم تحظى بحماية خاصة في أواخر الدولة أين أثقلت كاهلهم بالضرائب. فأصبحت أكثر "الصنع متقبلة عليها مال لازم".[6] و زادت وضعيتهم سواء مع الاضطرابات السياسية و الفتن التي شهدها المغرب و الأندلس، و هذا ما أثر سلبا عليهم و يتفق ذلك إلى ما ذهب إليه "ابن خلدون" من أن الأمصار إذا قاربت إلى الخراب انتقصت منها الصنائع.[7]و مما لا شك فيه أن تلك الظروف التي عاشها الصناع و الحرفيين أثرت عليهم فلم يعد بمقدور البعض منهم حتى دفع كراء

---

[1]- انظر عن ذلك مثلا: الإدريسي: صفة المغرب ص 77، 78.

[2]- انظر عن ذلك مثلا الجزنائي: ، كتاب تاريخ مدينة فاس، المعروف زهرة الآس ص 76 ,و انظر أيضا مجهول: الحلل الموشية ص 90.

[3]- مجهول: نقس المصدر والصفحة.

[4]- السقطي: آداب الحسبة ص 43.

[5]- نفسه ص 24، 53.

[6]- انظر الإدريسي:المصدر السابق ص 70.

[7]- المقدمة مج I ص 430.

الحوانيت و عليه فقد اتخذوا من منازلهم مكانا لممارسة نشاطاتهم.ونظرا لما آل إليه الأمر أصبحت أجورهم غير كافية حتى لسد مستلزماتهم اليومية فاضطروا إلى الغش و التدليس و التماطل فيما وعدوا بإنجازه.[1]

مهن أخرى امتهنها العامة

تزخر المصادر التاريخية المعاصرة لفترة المرابطين بذكر الحرف التي زاولتها طبقة العامة، و ليس من السهل الإحاطة بكل المهن لتشعبها و تنوعها و عليه فإننا سوف نقتصر على ذكر البعض منها فقط لتعريف القارئ بها. خصوصا و أن هدف العامة من امتهانها لتلك المهن و الحرف هو الحصول على أجرة معينة تسد بها رمقها.و تنوعت ما بين المستحسن منها و المستقبح. فهناك من عمل كحمال في الأسواق أو في السفن[2]، في حين عمد البعض إلى العمل لدى المزارعين سواء كحراس لكرومهم أو لجنانهم[3]، و فيهم من عملوا كبوابين في المدن[4]، و يبدوا أن هؤلاء تعرضوا لشروط قاسية نوعا ما أين أرغموا على النهوض باكرا لفتح أبواب المدن ثم غلقها في ساعة متأخرة ليلا دون مقاضاة أية أجرة على ذلك سوى ما كان يجود به عليهم المحسنين من الخارجين و الداخلين إلى المدينة. و عليه فإننا نجد "ابن عبدون" قد ألح في رسالته على تخصيص أجرة للبوابين حتى يترفعوا على ما يقدم لهم من الهبات و الهدايا، لما فيه من إهانة لهم.[5]كما مارس البعض منهم الحمالة لنقل البضائع[6] ،أو العمل في الأسواق و البساتين لجني بعض المحاصيل المحاصيل كمحصول الزيتون[7]، و في الحصاد كحصاد القمح و الشعير[8]، و فيهم من عمل كراع

---

[1]-ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث ص 173.
[2]- ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة و المحتسب ص 106. و انظر أيضا:عن حمل الأحمال في السفن، الونشريسي: المعيار ج (8) ص 222.
[3]- الونشريسي: نفسه ج (9) ص 11.
[4]- مارمول كربخال: إفريقيا ج (2) ص 48.
[5]- رسالة آداب الحسبة والمحتسب ص 33.
[6] -الونشريسي: المصدرالسابق ج (8) ص 224، 311.
[7] -الونشريسى: المعيار ج (6) ص 325.
[8]- البرزلي: فتاوى البرزلي ج (3) ص 667.

كراع للغنم لدى مالكي المواشي كما أكدته مصادر الفترة.[1] و الراجح أن بعض المستخدمين لم يلتزموا بما اتفقوا عليه مع مستأجريهم، فنشبت بينهم نزاعات، و هذا ما أورده ابن رشد في إحدى نوازله من أن رجلا استأجر أجيرا بطعام في مجريط[2] ثم انتقلا إلى قرطبة، فلما طلب الأجير طعامه في قرطبة رفض المستأجر دفعه له على أساس أن الطعام الذي اتفق عليه في مجريط ثمنه مضاعف في قرطبة.[3]

وتذكر المصادر حرفا أخرى زاولها العامة في هذه الفترة لأجل كسب عيشهم مثل تكفل بعضهم بتغسيل الموتى[4]، أو بقراءة القران على القبور[5] و هناك من احترف السقاية سواء في الأماكن العامة كالأسواق أو إيصال الماء إلى البيوت، و في هذا الجانب أفرد لنا "ابن الحاج" فصلا كاملا يوضح فيه دور السقاء، و السمات الواجب توفرها فيه، و كل ماله علاقة بوسائل نقل الماء كالراوية و القربة و غيرها، مع تأكيده على طهارة الماء الذي يسقى به الناس، و الطريقة المتبعة في نقل الماء حتى يتجنب أذى الناس في الطرقات و الأسواق[6] .ومن العامة من اتخذوا من المناداة في الأماكن العامة كالأسواق وأماكن تجمع الناس حرفة لهم، ومهمتهم تكمن في الإعلان عن بعض القرارات أو الأحكام التي يتخذها ولاة الأمر، ومثالها ما أقدم عليه الأمير يحي بن فانو من أمره المنادي أن ينادي في الناس الذين نالهم ظلم أحد وزرائه ليصلوا إليه لرد الظلم عنهم[7] ومنها المناداة عن حالات الوفاة و التحاق النفس بخالقها[8].وهذا الأمر مازال معلوما به إلى يومنا هذا في بعض المناطق من الجزائر العميقة.بينما أحترف البعض الحجامة و في هذا الخصوص أورد لنا "النويري" نصا يشير فيه إلى استعمال يوسف بن تاشفين لأحد الحجامين للقضاء على محمد بن إبراهيم الجزولي-سيد قبيلة جزولة أن هذا الأخير تفطن لحيلة الحجام،

---

[1]- الونشريسي: المعيار ج (8) ص 263، ابن الزيات: التشوف ص 175.

[2]- مدينة بالأندلس بمقبرة من طيطلة بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن. انظر الحميري: الروض المعطار ص 523.

[3]-نوازل ابن رشد س2 ص 935- 936.

[4]- إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلاء: وصايا الدفن عند المسلمين في الأندلس من الفتح الى نهاية دولة الموحدين، مركز الإسكندرية للكتاب، إسكندرية 2005،ص6.

[5]- ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث ،ص177.

[6]- المدخل ج2، ص161-168.

[7]- البيدق: أخبار المهدي بن تومرت،ص22.

[8]- السلاوي: الاستقصا ج(2) ص 68- 69

وقتل بعد أن أمسك به وحجم له بمشاريطه المسمومة التي كان من المفروض أن يحجم بها لمحمد بن إبراهيم الجزولي[1].

كما لم يفوت العامة استغلال المناسبات و الأفراح للتكسب عن الغناء و يبدوا أن هؤلاء قد ضيّق عليهم في عهد المرابطين لما ينجر عن الغناء من لهو ومجون و عليه نجد قاضي اشبيلية أبا بكر بن العربي قد أمر بثقب أشداق زامر في الأعراس[2]، ولعل ما يزيد في تأكيد ما ذهبنا إليه و تشديد المرابطين على محاربة كل ما هو مخالف للشرع أن قاضي فاس"عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي"[3] لم يولي أي اهتمام للشاكين له عن فعل المهدي بن تومرت وصحبه بعد إقدامهم على تكسير ما وجدوه في الحوانيت من آلات اللهو و الطرب من دفوف و قراقر و مزامير وعيدان و روطا و أربية و كيتارات، وكان رده على الشاكين أنه لو لم يكن ذلك مخالفا للسنة لما أقدم ابن تومرت و صحبه على كسرها[4]. و لم يكتف المهدي بن تومرت بذلك فحسب فحسب بل قام بكسر الدفوف في أحد الأعراس بضواحي تلمسان لما شاهده من لهو فيها[5].

كما مارس بعض العامة مهنا وضيعة كرفع الأزبال و الذي يطلق عليهم اسم الكنّافين، وقد أشار "البكري" إلى أن المستغلين في هذه الحرفة بسجلماسة من المجذمين[6] و ربط بين حرفة الكنافين وحرفة البناء التي اشتهر بها يهود سجلماسة[7]. وعليه ليس من المستبعد أن تكون هذه الحرفة قد خص بها اليهود أيضا.ويبدوا أن المشتغلين في هذه الحرفة كانوا عادة ما يصابون بأمراض خطيرة و معديّة وهذا ما نستشفه من قول "البكري"والمجذمون عندهم هم الكنافون"[8]

[1]- نهاية الإرب في فنون الأدب مج11، ج24،ص149.
[2]- المقري: نفح الطيب مج 2،ص29.
[3]- هو عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي كان قاضيا بفاس على عهد السلطان المرابطي علي بن يوسف، أنجز بأمر منه عدد من المنشآت العمرانية بجامع القرويين وسائر المدينة، صرف عند القضاء سنة 533 هـ .انظر: البيدق:أخبار المهدي،ص 24 هامش 22
[4]- نفس المصدر23،24.
[5]- نفسه ،ص20.
[6]- أي المصابين بمرض الجذام انظر: ابن منظور : لسان العرب ج12،ص101-102
[7]-البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب ص148-149
[8]- نفس المصدر ،ص 148.

فئـــات أخرى من ضمن العامة

تشترك شريحة الأيتام و أسرى الحرب و العبيد على مر العصور و في مختلف المجتمعات في صفات عدة كالحرمان و الاستغلال و الفقر في بعضها. و في حريتها أحيانا على اعتبار الأيتام أحرار إلا أن حريتهم مقيدة في كثير من الحالات من طرف الأوصياء عليهم ، وعلى العكس منهم العبيد وأسرى الحرب فهم مسلوبي الحرية، وعلى هذه الأسس و الاعتبارات السابقة فهم يعدون من ضمن الطبقة العامة.

أ – الأيتام: وضع الفقهاء و اللغويون تعريفا شاملا لليتيم و سبب تسميته بذلك حيث ذكر الإمام أبو بكر الشيباني أن اليتيم هو "من مات أبوه من الذكور و لم يبلغ الحلم ، ومن الإناث من لم تحض."[1]أما أصحاب المعاجم اللغوية فقد فصلوا المعنى السابق ،فقالوا أن اليتيم من اليتم: أي الإنفراد ، وقيل الغفلة ، وأيضا الحاجة[2]، و الهم[3] وقيل أيضا الحرب ميتّمة ييتم فيها البنون[4] ولعل ولعل اشتقاق اليتيم من المعاني الأخيرة يرجع إلى شعور الصبي بالهمّ و الحزن لشدة حاجته لوالده الفقيد لاستكمال رعايته و تربيته.ومن تعريفات اللغويين نخلص إلى أن هذه الكلمة جمعت في معناها بين الموت الطبيعي، والموت الذي ينجز عن الحروب.

ومما لا شك فيه أن الإسلام حرص على تأكيد حقوق الأيتام الاجتماعية من خلال التشريعات التي كفلها لهم، وقنّنت تلك التشريعات لتأكيد حقوقهم من طفولتهم المبكرة نظرا لما لهذه المرحلة من أهمية بالغة في احتضانهم و إيوائهم لكي ينسوا مرارة اليتم، وليعوضوا ما فاتهم من عطف الأبوة.وقد حدد المولى عز وجل الدستور الواجب تطبيقه للوصول إلى الغاية السامية من رعاية حقوق الضعفاء، فخاطب الرسول (ص)بقوله:﴿ **ألم يجدك يتيما فأوى ووجدك ضالا فهدى، ووجدك عائلا فأغنى، فأما اليتيم فلا تقهر**﴾.[5]

---

[1]- أبو بكر احمد بن عمر الشيباني ،أحكام الأوقاف، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1904،ص323

[2]- ابن منظور: لسان العرب،مج12،ص770.

[3]- الفيروز أبادي : القاموس المحيط م2 ، ج4 مكتبة عيسى الحلبي ، القاهرة(ط2) 1952 ص195

[4]- ابن منظور:المصدر السابق،ص 770

[5]- سورة: الضحى: مكية ،الآيات 6-9.

من هذه الآيات تتضح لنا المشاكل التي يواجهها اليتيم من يوم فقده لوالده كالمسكن الذي يأوي إليه، والتربية الصالحة بما تشمل عليه من تأديب و تعليم، وأخيرا المال الذي ينفق منه.وللتكفل باليتامى كان الآباء يحرصون على أن يوفروا لأولادهم من يرعاهم بعد وفاتهم فأوصوا عند مرضهم أو احتضارهم إلى بعض ذويهم أو أقاربهم الثقات برعاية أيتامهم وهذا ما نستشفه من قول الخشني فإن " الرجل لا يعهد بوصيته ولا يأتمن على ولده وماله غير أوثق الناس" [1]وعليه فإن الوصي يعد بمثابة الأب في جميع أمور الولد الصغير ، فكل ما جاز للأب فيهم جاز للوصي إلا شيء واحد ليس أن يزوج الصغير إلا برضاها لحديث الرسول (ص) "تستأمر اليتيمة في نفسها، فإن سكتت فهو إذنها."

ومن خلال المصادر المعاصرة لفترة الدراسة يتضح لنا أن الوصي على الأيتام بتقديم أبائهم قد يكون جدهم،أوجدتهم أو أحد أعمامهم، أو إحدى عماتهم، وفي حالات أخرى تكون أم الأيتام وصية عليهم من قبل الأب[2] كما يوصي أحيانا أحد الأبناء الكبار على إخوته الصغار[3].وإلى جانب الأوصياء جعل بعض الآباء مشرفين مع الأوصياء الذين أوصوا لهم برعاية أيتامهم لكي يشرفوا على جميع أفعالهم " فابن رشد" المعاصر لفترة المرابطين ذكر أن أحد أهالي مدينة بطليوس مات وترك ولدا و بتنا بكر فأوصى لهما إلى رجل وجعل معه رجلا آخر يشرف على جميع أفعاله فيما يتولاه من أمر بنيه[4] ومن استقرائنا لبعض النصوص الفقهية اتضح لنا أن المشرف على الأيتام كان يطلق عليه أيضا لقب "المشاور"، وتكمن مهمته في الاستشارة لا غير، وهذا ما يفهم من قول الونشريسي[5]: "المشاور ليس بوصي ولا ولي و لا إليه من ولاية العقود شيء، وإنما وإنما إليه المشاورة التي جعلت إليه خاصة".وجرت العادة أن يكون الوصي و المشرف على الأيتام من المقيمين معهم في نفس محل إقامتهم ليتسنى لهم رعايتهم ومباشرة شؤونهم، ويتولى القضاة إقرار هؤلاء الأوصياء و المشرفين على الأيتام طالما عهد الأب إليهم بذلك قبل وفاته[6].أما

[1]- أبو عبد الله محمد بن الحارث: قضاه قرطبة، تحقيق إبراهيم الابياري ،ط1 ،دار الكتب الإسلامية، القاهرة بيروت،1982،ص204.

[2]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد (س) 1،ص196،615. وانظر أيضا: الونشريسي: المعيار مج3،ص276-342.

[3]- الونشرسي: نفسه ج(4)،ص243.

[4] –ابن رشد: المصدر السابق ،ص273-274.

[5]- المعيار:مج(9)،ص419،477.

وفاته[1].أما إذا توفي الأب ولم يترك وصيا أو مشرفا لأبنائه فإن القضاة هم الذين يقدمون الأوصياء والمشرفين العدول لرعاية مصالح الأيتام، وعادة ما يطلق على الواحد منهم لقب "مقدم القاضي"[2] أو " وكيل القاضي"[3].

ونظرا لكون مهمة الوصي و المشرف على اليتيم تكمن في رعايته حتى يبلغ سن الرشد فقد منحت للوصي خاصة صلاحيات كبيرة، فيحق له القيام بالحسبة على وصيه و النظر في مقدار ما خلفه أبوه من مال [4] كما يحق له التصرف في أمواله و أملاكه، كأن يستثمر أموال اليتيم في التجارة أو أي مشروع آخر يعود بالفائدة على اليتيم من شراء أملاك أو غيرها، كما يحق له بيع أملاك اليتيم إذا رأى الوصي في ذلك ضرورة[5].وتعددت وجوه استثمار الأوصياء لأموال أيتامهم في عصر المرابطين إذ أشارت بعض النوازل إلى قيام أحد الأوصياء بإدارة أصول أيتامه من أرض زراعية وغنم وبقر و الإنفاق عليهم من غلتها[6] كما أشرك وصي آخر أيتامه مع رجل رجل في قطيع الغنم الذي يخصهم وعقد بذلك عقدا بين الشركاء ليضمن لأيتامه حقوقهم[7] و بالرغم من أن مهمة الوصي مهمة نبيلة إلا أن مصادر الفترة المرابطية كشفت عن حدوث بعض النزاعات و الخلافات سواء بين الوصي و المشرف أو بين الوصي و اليتيم.

فمثال الأولى: ما أورده ابن رشد في إحدى نوازله التي ذكر فيها أن أحد القضاة قدّم امرأة وصية على ابنها البالغ ست سنوات وشرط عليها مشاورة ابن عم الوصي في بيع الأصول في الوقت الذي أرادت تلك المرأة-الوصية- أن تتزوج فادعى المشرف أن ذلك سببا في إتلاف المال، وذهب إلى عزلها بمجرد الزواج، وجعل يشتكي من ذلك رغم أن المرأة-الوصية- ثبت عليها أنها صالحة الحال وافرة المال ظاهرة السداد حسنة النظر لأبنها، وعليه فقد أفتى ابن رشد

---

[1]- إبراهيم عبد المنعم سلامة: رعاية الأيتام في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى نهاية دولة المرابطين، مركز الإسكندرية للكتاب 2005،ص11.

[2] -الونشريسي، المعيار ج 6 ،ص426.

[3]- نفسه،ص454

[4]- نفسه،ص 458

[5]- نفسه ،ص364،634.

[6]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد(س3)ص1273-1274 و انظر أيضا الونشريسي: المصدر السابق،ص456.

[7] -الونشريسي: المصدر السابق ،ص410.

أن تبقى على حالها، بعد أن يحصى أمر المال عندها بالإشهاد عليها. غير أن ابن رشد قد استدرك في فتواه السابقة أمرا مهما بخصوص زواج الأم الوصية على يتيمها الغني، فقد أفتى بعدم عزلتها إن جهل حالها من حيث الصلاح و السداد و حسن النظر ليتيمها، على أن يشرك معها مشرف لرعاية اليتيم يكون المال عنده ولا يترك عندها وكانت حجته في فتواه هذه "أن المرأة إذا تزوجت غلب على جلّ أمرها كما قال مالك- رحمه الله- ولا تعزل عن الإيصاء إلا أن يثبت عليها ما يوجب ذلك"[1].

أما مثال الثانية: فيتضح جليا في النازلة التي أوردها الونشريسي أن وصيا على أيتامه أشرك مع رجل في غنم كانت لأيتامه وللحفاظ على حق اليتامى وثّق ذلك بعقد غير أن أضاف في العقد ولفلان- يعني الوصي- على شريك الأيتام سبعون مثقالا من الذهب المرابطية، وبعد مدة عزل عن النظر للأيتام، وقدم على الأيتام سواه، وبعد مدة وقعت مفاصلة بين الأيتام ووصيهم الثاني فطالبهم بالسبعين مثقالا الموجودة في العقد في حين ادعى الوصي الأول أنه أحق بها لأنها ليست من الشركة وإنما هي دينا على الشريك[2].

ومن قراءتنا المتأنية للنوازل التي تؤكد الخلاف بين الوصي و المشرف أو بين الوصي و اليتيم، اتضح لنا أن جل الخلافات أسبابها مادية بحتة غير أنها متشعبة الأوجه و هذا ما توضحه النازلة التي أوردتها صاحب المعيار و التي تؤكد وجود خلاف بين اليتيم و وصيه، و مفادها"أن رجلا قبل وفاته أوصى على ولده وصيا ، فلما كبر الابن ادعى على الوصي بدين لأبيه وأراد استحلافه[3].

ومن خلال النوازل المعاصرة لفترة الدراسة يتضح لنا أن مشاكل الأيتام لا تقتصر على اليتامى الفقراء فحسب بل تعدتها لتشمل حتى الأيتام الأثرياء الذين ورثوا أموالا كثيرة عن ذويهم، فبدلا من أن تكون تلك الأموال سبيلا لسعادتهم أصبحت شقاء لهم، لأن يتمهم فسح المجال لضعاف النفوس في التسلط عليهم وعلى أموالهم، فأصبحوا تحت رحمة أوليائهم أو أوصيائهم. وعليه فقد

[1] -ابن رشد: فتاوى ابن رشد (س2)، ص1150-1151.
[2]-الونشريسي: المعيار ،ج (9)،ص410.
[3]- نفس المصدر ،ص452.

حرصت الشريعة الإسلامية على الحفاظ على أموال الأيتام وبدا ذلك واضحا في الآيات القرآنية الكريمة، فالإسلام أكد على احترام مال اليتيم و عدم التصرف فيه إلا بما يعود بالنفع عليه وهذا ما نستشفه من قوله عز وجل﴿ **وءاتوا اليتامى أموالهم، ولا تتبدّلوا الخبيث بالطّيب، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا**[1]﴾ وفي آية أخرى ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا**﴾[2]

و لم تقتصر الآيات الكريمة على النهي عن تجاوز وأكل مال اليتيم و التهديد و الوعيد بعذاب الآخرة ،بل لجأت إلى تنبيه الأوصياء و المشرفين بأنهم إذا ظلموا اليتامى و تجاوزوا و جاروا على حقوقهم، فليحذروا أن يكون جزائهم بن جنس عملهم مع اليتيم، و لينتظروا يوما يعامل فيه أيتامهم بنفس الطريقة وهذا مصداقا لقوله تعالى:﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم، فليتقوا الله و ليقولوا قولا سديدا**﴾[3].

وبالعكس من ذلك فإن الله سبحانه قد كافأ الصالحين الذين أحسنوا إلى الناس، بأن هيّأ لأيتامهم من يرعاهم ويحفظ لهم أموالهم وهذا ما يتضح جليا في قوله تعالى﴿ **وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة و كان تحته كنز لهما ،و كان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما و يستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطيع عليه صبرا**﴾[4]

ومن تصفحنا للمصادر المعاصرة للفترة المرابطية خاصة الفقهية منها نخلص إلى نتيجتين: الأولى: يتضح لنا فيها أن هناك من الأوصياء من التزم بما أقرته الشريعة السمحة من الحفاظ على حقوق الأيتام المالية، وتصرفوا فيها بما يعود بالنفع عليهم كأنه مالهم، وحسبنا أن ما أورده ابن رشد المعاصر لفترة الدراسة في إحدى نوازله لم يعتريه أدنى شك حيث يذكر أن أحد الأوصياء

---

[1] -سورة: النساء آية 2.

[2] - سورة :النساء آية 10

[3] - سورة :النساء ،آية 9.

[4] - سورة :الكهف، آية 82

في عصر المرابطين أشرك أيتامه مع رجل في غنم كانت لهم و عقد بذلك عقدا بين الرجل و أيتامه، وذكر أن له–الوصي–على شريك الأيتام سبعون مثقالا من الذهب المرابطية ،و بعد عزل الوصي عن النظر للأيتام طالب الوصي الجديد من شريك الأيتام السبعين مثقالا، وقام الوصي الأول يدعيها لنفسه، وقال: إنها لم تكن من الشركة وإنما كانت دينا على الشريك، وعند عرض هذه القضية على ابن رشد أفتى بردها إلى الوصي الأول[1] وقال :" إن كان السبعون مثقالا إنما ذكرت في عقد الشركة بعد انقضاء الكلام في أمر الشركة، و لم يكن فيه ما يدل على أنها للأيتام من الشركة ، استحقها الوصي مع يمينه على ما ادعاه"[2].وبلغ حرص أحد الأوصياء على مال يتيمة، ورغبته في إبراء ذمته من مالها، أن شهد عند موته أن لها عليه عشرين مثقالا ذهبيا، وأنها ليست مدينة له في شيء، وبعد موته طالبت اليتيمة ورثته بالذهب، فرفضوا السداد بدعوى أن للوصي عليها حضانة و يجب محاسبتها عليها، فأفتى"ابن رشد" بأنه لا يلتفت إلى ما أثبتوه ولا يحاسبونها بشيء، مستندا في حكمه هذا على أن " إشهاد الوصي عند موته بالعشرين مثقالا يوجبها لها، وتبطل دعوى الورثة عليها"[3].

أما النتيجة الثانية: التي خلصنا إليها من قراءتنا لبعض النوازل فتشير إلى وجود بعض الأوصياء و المشرفين الذين لم يهتموا بالأوامر و التحذيرات الإلهية، وصموا أذانهم عنها، واقترفوا آثاما كثيرة اتجاه أموال أيتامهم، وفي هذا المنحى أورد "ابن رشد" نازلة في وصي قام طالبا بعد عزله بنفقه على الأيتام، وزعم أن مالهم الذي كان بيده من الغنم و البقر و الحرث لم تكن فيه غلة لنفقتهم بينما شهد شهودا أن مال الأيتام كانت له غلة تكفى لنفقتهم[4].

كما عمل أحد الأوصياء في عصر المرابطين على أخذ حق أملاك يتيمه عندما أنكر غلات ربعة[5]، وعليه فقد أفتى "ابن رشد" بأنه لا يقبل قول الوصي أن لا غلة للربع، وحكم على هذا

---

[1]- فتاوى ابن رشد: س(2)،ص1262-1263.
[2]- نفس المصدر،ص1263.
[3]- ابن رشد: فتاوى س (1)،ص314-315.
[4]- ا بن رشد: فتاوى ابن رشد س3،ص 1273-1274.
[5]- الربع تطلق على الدار و ما حولها ، وهي العقار من الدور و الحوانيت.للمزيد: انظر: اسم منظور:لسان العرب ،مج 8،ص121.

الوصي الذي أكل مال يتيمه بأن يدفع غلة هذا الربع بما يعادل قيمة الرباع المشابهة له[1].و ثمة حالة أخرى شبيهة اقترفها أحد المشرفين على الأيتام بإخفائه مالا لهم كان قد اختلسه من عند الوصي عليهم، ولما اتهمه الوصي باختلاسه أنكر في البداية ،ثم أقر بأخذ المال بحجة احتياطه للأيتام و حفظه لهم، و عليه لما سئل ابن رشد عن أمر هذا المشرف أفتى بصرفه عن الإشراف و حجته في ذلك أن"اختلاسه المال من عند وصيه و صرفه بعد الإنكار له ريبة في أمره لا يسقطها عنه ما اعتذر به في ذلك ."[2]

وبعودتنا إلى مصادر الفترة المرابطية اتضح لنا أن التعدي على أموال اليتامى و حقوقهم لم يقتصر على الأوصياء و المشرفين كما أكدته نوازل الفترة، بل طالت فئات أخرى الأحرى بها أن تكون حريصة على أموالهم فشملت حتى بعض الفقهاء ، و حسبنا ما أقدم عليه قاضي مدينة "مرسية" المدعو ابن أسود في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف من تجاوز لاختصاصات منصبه فبدلا من أن يكون أمينا على الأيتام حافظا لأموالهم نراه يتعدى و يجور على أموالهم و يبخسهم حقهم فيها و يتضح ذلك جليا من الأبيات الشعرية التي أوردها الشاعر أبا بكر يحي بن سهل اليكي مستغيثا فيها بأمير المسلمين علي بن يوسف من تعدي هذا القاضي على أموال الأيتام و أحباس المساجد[3].

مما سبق يتضح لنا أن الأيتام في العهد المرابطي تعرضوا لتجاوزات عدة سواء من أوصيائهم أو مشرفيهم، و حتى من بعض الفقهاء ،و على هذا الأساس أصبحت هذه الفئة ظاهرة تطرح كمشكلة اجتماعية في العصر المرابطي نطرا لكثرة عدد اليتامى لكون الدولة المرابطية دولة

---

[1]- ابن رشد: ، فتاوى ابن رشد ،س3 ص1644.

[2]- ابن رشد : ، فتاوى ابن رشد س 2 ص1084 – 1085 .وانظر أيضا نفس النازلة في الونشريسي: المعيارج 9 ص411، 475.

[3]- و مما جاء في ذلك قوله : تسمع أمير المسلمين لنبأة *** تصم لها الأذان في كل مشهد

بمرسية قاض تجاوز حده *** و أخطأ وجه الرشد في كل مقصد

يطالبه الأيتام جل مالهم *** و يطلبه في حقه كل مسجد

فما بيضت كفاك بالعدل لم تزل *** تسوده بالجور كف ابن أسود

أنظر ابن سعيد :المغرب ج2 ص266-270

مغازي خاضت حروب كثيرة سواء في المغرب أو في الأندلس ،و لعل كثرتهم حالت دون تكفل الدولة التام بهم.فعجزت عن الحفاظ على حقوقهم و أموالهم ،و لدينا في النص الذي أورده صاحب "الحلل الموشية" [1] ما يفهم منه ما ذهبنا إليه وما تأكيد الجند المتطوعين من زناتة و الحشم الذين تطوعوا لقتال النصارى في شمال الأندلس سنة 530هـ/1135م على تاشفين بن علي أن يعيل أبنائهم لدليل على أن اليتامى من أبناء الجند المستشهدين في الحروب السابقة لم يلقوا العناية الكافية و الاهتمام بشؤونهم من طرف الدولة ،و هذا ما أثاره هؤلاء الجند المتطوعين مباشرة على أعلى هرم في السلطة المتمثلة في الأمير نفسه و شرطهم عليه كفالة الدولة لأبنائهم إن لاقوا حتفهم في ساحة الوغى .

ب – السبايا أو الأسرى

إن الحديث عن السبي أو الأسرى و العبيد و وضعيتهم الاجتماعية في العهد المرابطي يستوجب العودة أولا إلى مصدر تلك الشريحة و كيفية تواجدها في المغرب و الأندلس إبان عصر المرابطين و إن كانت إسبانيا المسيحية هي الرافد الأول للأسرى في العصر المرابطي [2] ، فإننا لا نستبعد مؤشرات على تواجد أسرى وافدين من الجهة الجنوبية للدولة ، رغم صمت المصادر عن العمل العسكري في تلك الجبهة وانشغالها بالتأريخ للمرابطين في الأندلس .

و لعل ما يؤكد هذه الفرضية ما يفهم من النص الذي أورده"أبو عبيد الله البكري"[3] المعاصر لفترة الدراسة في إشارة منه على أن قبيل من صنهاجة يعرفون بني لمتونة ..."مجاهدون للسودان" ومما لا جدال فيه أن الجهاد كان يفضي إلى القتل و السبي معا ، ومما يزيد تأكيد في هذه الفرضية ما أورده ابن عذارى في قوله: " و كان يلي لمتونة جبل فيه قبايل من البربر على غير دين الإسلام ، فدعاهم عبد الله بن ياسين إلى الدين فامتنعوا له ،فأمر يحي بن عمر بغزوهم ،

---

[1] - مجهول:ص 123،

[2] –عبد الالاه بنمليح: الاسترقاق في المغرب الإسلامي بين الحرب و التجارة ص 52

[3] - المغرب في ذكر بلاد إفريقياو المغرب ص164

فغزاهم لمتونة وسبوهم ، و قسموا سبيهم بينهم ، وأخذ أميرهم خمسهم ، وهو أول خمس قسمه اللمتونيون في صحرائهم."[1]

و لكي تتضح لنا الرؤية أكثر في هذا الجانب فإن ذلك يستلزم التمييز بين نوعين من السبي : السبي المسلم ،والسبي غير المسلم. فبالنسبة للسبي أو الأسرى المسلمين نعني به السبي الحاصل في المواجهات التي حدثت في المغرب و الأندلس و التي أسفرت عن أسر عديد من أبناء المغرب و بناته سواء في ذلك السبي الذي تم عقب صراعات صاحبت قيام دول و سقوط أخرى أم عبر مواجهات بين السلطة القائمة و معارضيها فكان كل ما يقع بين أيدي رجال المرابطين من مناوئين و معارضين لمشروعهم السياسي كان مصيره الأسر و الاسترقاق. [2]

أما يخص السبي غير المسلم في العصر المرابطي فإن ذلك يعود إلى الأيام الأولى لعبور المرابطين إلى الأندلس و مواجهتهم للنصارى ، ويعد النصر الذي أحرزوه في معركة الزلاقة أول احتكاك مرابطي (إسباني). و نظرا لكون المواجهة غير عادية فإن كل طرف أعد لها ما استطاع من قوة لذلك فلا عجب أن يصل عدد أسرى المرابطين من النصارى إلى خمسين ألف أسير إذا ما صدقنا الرواية التي أشار إليها أحد الباحثين .[3] و هذا ما يفهم من الإشارات التي أوردها "مارمول[4]" أثناء حديثه عن عاصمة المرابطين أن عدد الأسرى الذين ساهموا في حفر قنوات مياه مراكش لوحدها بلغ عددهم عشرين ألف أسير مسيحي.

ومما لا جدال فيه أن وفرة السبي الغير مسلم كان مرده أساسا إلى كثرة الحروب التي خاضتها الدولة المرابطية مع القوى النصرانية على امتداد التخوم الأندلسية .ففي الوقت الذي كانت

[1] - البيان المغرب: ج4 ص12

[2] -عبد الاله بنمليح: الاسترقاق في الغرب الإسلامي ص40

[3] - إبراهيم القادري بوتشيش: دور المصادر الدفينة في كشف الجوانب الحضارية المنسية للمدينة المغربية "دراسة تطبيقية حول مدينة مراكش من التأسيس حتى أواخر عصر الموحدين . منشور ضمن كتاب: تاريخ المغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع و الحضارة، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت ط1 1994 ص139
يبدوا هذا الرقم مبالغ فيه كثيرا خصوصا وأن مصادر تلك الفترة ذكرت أن عدد جند الأذفونش كان يتراوح بين أربعين ألف و خمسين ألف ، أنظر ابن عذارى : المصدر السابق ص135، النويري : نهاية الأرب مج11 ج23 ص267

[4] - افريقيا ج2 ص56

الحدود بين اسبانيا الإسلامية و المسيحية تكوّن حاجزا بينهما كانت أيضا منطقة تلاق و احتكاك دائمين [1] و هذا ما نستشفه من النص الذي أورده" الزهري" حيث يقول: "أن كل ساكن في الأندلس إنما هو كالآخذ بعنان جواد في سبيل الله ، و ذلك أنهم كانوا يسكنونها على رغم من العدو دمره الله ،ولهم مع العدو وقائع كل يوم مشهورة وغارات معلومة للمجاورة التي بينهم"[2]، ومما يزيد في توضيح طبيعة الصراع الدائر بين الدولة المرابطية و القوى النصرانية ما يفهم من النص الذي أورده ابن عذارى [3] إذ يقول :" ولم تزل بعد ذلك الحروب متصلة و المضارب متمردة ...و الغزوات متوالية" ثم يختم قوله :" و الحرب سجال و النفوس آجال."

والأكيد أن أسرى الحروب سيما المسلمين منهم عاشوا وضعية مزرية و مأساوية خاصة في دار الحرب و قد أورد لنا ابن عذارى نصا يوضح مدى معاناتهم فيقول " أن أعداء الله كانوا يومئذ يهتكون حريم أسراهم و بناتهم بحضرتهم إبلاغا في نكايتهم و يعبثون في الثيب ، و يفتضون البكر و زوج تلك و أبو هذه موثق في الحديد ، و من لم يرض منهم أن يفعل ذلك أعطاهن لغلمانه يعبثون فيهن ، فبلغ الفكرة يومئذ منهم مالا تلحقه الصفة"[4]

و على عكس النصارى كان المرابطين يحتفظون بالأسرى المسيحيين ، ولم يعملوا على التخلص منهم بالقتل كما هو معمول به ، بل يستعملونهم في البدل (الفداء) على حد تعبير الونشريسي[5]و هذا ما أشار إليه أحد الباحثين الغربيين إذ يذكر أن المرابطين يعتبرون الأسرى المسيحيين رأسمال يمكن استثماره[6]من أجل فداء أسرى المسلمين الذين كانوا يعانون. وقد عمل الأمراء المرابطون كل ما في وسعهم لفك أسرى المسلمين و هذا ما حدث في الكثير من المرات

---

[1]- Dalché : (J. Gautier): Islam et Chrétienté en Espagne aux XII siècle ,contribution à l'étude de la notion de frontiere ; p183

[2]- أبو عبد الله محمد الزهري: كتاب الجغرافية، 81

[3]- البيان المغرب ج(4)ص55

[4]- نفس المصدر: ج(3)ص226

[5]- المعيار: ج2 ص158

[6]- Dalché : (J. Gautier):ibid .p 214

نذكر منها سنة 523هـ/1128م قرب طلبيرة[1]و سنة 526هـ/1131م قرب قرطبة.[2] وقد أشارت كتب النوازل المعاصرة لفترة الدراسة في نوازل عدة إلى فداء أسرى المسلمين ، و حرص المسلمين على فداء أسراهم و هذا ما يفهم من النازلة التي أوردها لنا "ابن رشد" في حكم الأسير الذي لا سبيل إلى فك أسره إلا بالعلج الذي أبا صاحبه بيعه إلا بأضعاف ثمنه فكان جواب ابن رشد على تلك النازلة "أن الواجب أن يؤخذ منه بالأكثر مما اشتراه به" مستندا في حكمه على وجوب فداء المسلمين أسراهم بأنفسهم و أموالهم.[3] وعلى هذا الأساس فإن مسلمي المغرب و الأندلس على عهد المرابطين سلطة وشبعا عملوا بمختلف الوسائل و الطرق لتحرير أسراهم من قبضة النصارى، إما أسرى مقابل أسرى[4]، وهذا النظام لازال معمولا به إلى يومنا هذا.أو بشتى الطرق لدرجة أن هناك من كان يملك عبدا فوهبه لتحرير إخوانه[5]. وليس هذا فحسب بل أن هناك من أوصى بماله أو بجزء منه -بعد موته- لفداء أسرى المسلمين[6].

وإذا ما عقدنا مقارنة بين وضعية الأسرى المسلمين لدى النصارى والأسرى المسحيين لدى المرابطين، ، نجد أن أسرى المسلمين عاشوا أوضاعا مزرية و مأساوية و استغلوا أبشع أنواع الاستغلال فلم تسلم لا أجسادهم ولا أعراضهم[7] ولا حتى عقيدهم حيث وصل الأمر بالنصارى بالنصارى إلى إجبارهم عن التخلي عن دينهم و اعتناق الديانة المسيحية[8].و بالمقابل حافظ المرابطون على الأسرى المسيحيين دون أدنى أذى لهم ، رغم عددهم الكثير و عبئهم الثقيل على الدولة ، و لم يلجئوا إلى التخلص منهم بإراقة دمائهم ، كما لم يجبروهم على الدخول إلى الدين الإسلامي ، إلا من اختار منهم ذلك عن قناعة [9] ففي هذه الحالة يدمج ضمن المجتمع وتراعى كافة حقوقه ، أما البقية الباقية فلم يزج بهم المرابطون في السجون ، بل عملوا على إشراكهم في

1- ابن عذارى : البيان المغرب ج4 ص80

2- نفس المصدر :ص 85-86

3- فتاوى ابن رشد: س1 ص586

4- الونشريسي:المعيار ج2،ص159-161.

5- نفسه ص213

6- الونشريسي: المعيارج9،ص256

7- انظر النص الذي أورده ابن عذارى في كيفية معاملة أسرى المسلمين: البيان المغرب ج3 ص 226

8-ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي ،ص193.

9- انظر عن ذلك مثلا :إسلام أسير نصراني بمالقة الونشريسي : المعيار ج2 ص158

إنجاز بعض المشاريع و لدينا في النص الذي أورده "مارمول"[1] من إشراك لحوالي عشرين ألف أسير مسيحي في شق قنوات مياه مدينة مراكش خير دليل على ذلك.ومما لا شك فيه أن اشتراكهم في إنجاز بعض الأعمال و المشاريع ينسيهم جو الأسر أصلا، و هذا ما فعله المرابطون

ج – العبيد

صنف المؤرخون العبيد في أدنى سلم الهرم الاجتماعي و لم تنل هذه الشريحة حقها من طرف المؤرخين رغم الأعداد الهائلة منهم و دورهم المميز في المجتمع إلا أنه قلما ترد أخبارهم في المصادر ، و كل ما كتب عنهم جاء بشكل عرضي أثناء الحديث عن الحروب[2] أو عن الطبقة الخاصة فيرد ذكرهم لنوعية الخدمة التي يقومون بها داخل البلاط و البيوت [3] أو أثناء الحديث عن كبار التجار و استخدامهم لهذه الفئة لرعاية تجارتهم خصوصا أثناء تنقلاتهم إلى بلاد السودان الغربي أو كحراس و أدلاء للقوافل التجارية.[4]

وكان مصدر رقيق في المغرب و الأندلس إبان عصر المرابطين يعود أساسا إلى ما أسره المرابطون في حروبهم مع النصارى في الأندلس ، و يكفي كإشارة إلى وفرة أعدادهم بسبب الحروب ما أوردته بعض المصادر من أن يوسف بن تاشفين أسر منهم عشرين ألف أسير[5] ، في حين حمل ابنه "علي" في سنة 532هـ/1137م من الأندلس ستة آلاف سبية.[6] هذا ناهيك عن انتشار أسواق النخاسة التي مكنت الأمراء المرابطين و الأثرياء من شراء أعداد كبيرة منهم سواء من الأندلس أو بلاد السودان .[7]

[1]- إفريقيا ج2 ص 56

[2]- مجهول : الحلل الموشية ص25،38

[3]- انظر عن ذلك : المقري : نفح الطيب مج3 ص232

[4]- الإدريسي : صفة المغرب ص66

[5]- مارمول :المصدر السابق ص56

[6]- السلاوي : الاستقصا ج2 ص62

[7]- انظر عن ذلك مثلا : السقطى الذي حارب حيل التجار لإخفاء عيوب العبيد: رسالة في الحسبة ص49-50، وعن الرقيق المجلوب بلاد السودان: انظر الإدريسي : صفة المغرب ص33

و لم يقتصر امتلاك العبيد على الأمراء و الأثرياء فحسب بل تعداه ليشمل الفقهاء[1] ، و حتى بعض العامة[2] ، وعليه فإن عادة امتلاك العبيد في العهد المرابطي عادة طبيعية يسعى إليها الجميع خصوصا إذا كانت لديهم القدرة على شراء العبد و النفقة عليه فكيف كانت حالتهم الاجتماعية؟

لقد أشار أحد الباحثين[3] إلى أن معاملة العبيد في العصر المرابطي كانت معاملة كريمة على حد حد تعبيره نتيجة المعاملة الحسنة من طرف أسيادهم وعليه فإن وضعهم لم يستدع القيام بثورات .غير أن ما ذهب إليه هذا الباحث يخالف تماما ما أوردته المصادر المعاصرة لفترة الدراسة و حسبنا أن تحذير المرادي الحضرمي قاضي المرابطين منذ العهود الأولى لأمراء الدولة من مجالسة الخدم و العبيد لدليلا كافيا على ذلك حيث يقول: " ولا تجالس أصحاب الصنائع فإنهم يتحدثون بك على صنائعهم... ومهنهم فيخل ذلك بخدمتهم"[4] إلى أن يقول "إن الخديم لا يكون نديما وإن العبد لا يكون للحر قرينا"[5]و استمرت هذه الروح الاستعلائية حتى العصور اللاحقة وقد صورت لنا أمثال العامة وضعية العبيد الاجتماعية و دعت إلى تجنب الاختلاط بهم كقولهم "من خالط الخدم ندم" [6] و" الخديم لا يكون نديم"[7]كما أشارت بعض الأمثال إلى ضرورة الشدة و القسوة معهم و هذا ما نستشفه من قولهم"أسود بلا سياط بحال جامع بلا حصور."[8]

---

[1]- انظر عن ذلك الإشارة التي أوردها ابن خاقان من امتلاك القاضي عياض لعبيد يتصرفون بين يديه : قلائد العقيان ص546

[2]- عن امتلاك بعض العامة للعبيد انظر البيدق :أخبار المهدي ص74

[3]- عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ص120،122

[4]- المرادي:كتاب الإشارة في تدبير الإمارة ص96

[5]- نفس المصدر ص96، 97

[6]- محمد بنشريفة: تاريخ الأمثال ج1 ص226 مثل رقم 4120

[7]- نفسه مثل رقم 109 وانظر أيضا المرادي :المصدر السابق ص 96

[8]- عبد العزيز الأهواني : أمثال العامة في الأندلس ص315 مثل ابن عاصم: رقم235

كما صور بعض الشعراء الأندلسيين تحاملهم على السود و تعصبهم ضد العنصر الأسود و هذا ما يتضح جليا مما روي عن قاضي قرطبة "أحمد بن حمدين –المعاصر لفترة الدراسة – أنه حضر إلى مجلس حكمه أسود يخاصم زوجة له بيضاء فأوحي إليه الموقف بقوله الساخر :

رأيت غرابا على سوسنه *** فكان بشيرا بسوء السّنة

فيا مرود الساج زد عزة *** ويا مكحل العاج زد مهونة[1]

و لم يكتف الشعراء بالاستهتار و السخرية بالسود فحسب بل تعدى بعض الشعراء إلى التعبير عن حقدهم ومقتهم للعبيد و صب جام غضبهم عليهم خصوصا على العصاة منهم وهذا ما تبرزه الأبيات الشعرية التي قالها الشاعر أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت المعاصر للحقبة المرابطية في ذمه للعبيد حيث قال :

وربّ يوم حميت غيظا *** من أسود اللون كالخبيث[2]

كما رسمت لنا المصادر الفقهية العلاقة التي تربط العبد بسيده و سلطة الأسياد عليهم و في هذا الصدد ذكر الجزيري أن الأسياد كانوا يقومون بتزويج عبيدهم ويلزمونهم بشروط في عقود نكاحهم، واختلفت عقود زواج العبيد من عبد لآخر ،و كان الأسياد يتولون دفع صداق عبيدهم و في حالة عدم دفع السيد للصداق يدفعه العبد بإذن سيده[3] وللأسياد كل الصلاحية في في تزويج عبيدهم أو إمائهم حتى و إن كان الزواج لم ينل رضاهما[4] كما أن العبيد يورثون كما كما تورث الأملاك إلا إذا ترك السيد وصية بتحريره [5] و اعتبرت نوازل الفترة المرابطية العبد بمثابة سلعة من السلع [6] خصوصا وأنهم كانوا يشترون عن طريق عقود شراء يوضح فيها تاريخ

---

[1]– ابن سعيد :رايات المبرزين و غايات المميزين ،تحقيق د. النعمان عبد المتعال القاضى ط،القاهرة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية سنة 1973ص68

[2]– انظر :ابراهيم القادري بوتشيش: الإسلام السري في المغرب العربي ص240-242

[3]–الجزيري :المقصد المحمود في تلخيص الوثائق والعقود ورقة 12-13

[4]–- ابن سلمون : العقد المنظم للحكام ، مخطوط الخزانة العامة للوثائق و المخطوطات الرباط رقم 670 ورقة 27

[5]– ابن رشد : فتاوى ابن رشد، س 2 ص1580، س3 ص 1328

[6]– ابن الحاج : نوازل ابن الحاج ورقة 58

أو سنة البيع و خلو العبد من جميع عيوب الرقيق[1] لدرجة أنه كان يفحص بدقة[2] ولعل ما يبرز وضعيتهم الاجتماعية في الحقبة المرابطية حرمانهم من أدنى الحقوق أين حرموا حتى من تلقيب أنفسهم بأسماء الأشخاص الأحرار حيث يختار لهم من الأسماء ما يناسب الرقيق. [3] و لم تقتصر معاناة هذه الفئة لوحدها فحسب بل شملت حتى أبنائهم إذ تشير بعض الفتاوى معاناة أبناء الرقيق من إثبات نسبهم وهذا ما تؤكده النازلة التي وردت إلى الفقيه ابن رشد من مدينة سبتة في إدعاء أحد الرجال في رجل آخر أنه غلامه من أمة كانت له ، وزعم المدعي البنوّه وأنه ابنه من امرأة حرة بنت حرين. [4]

ومما لا شك فيه أن العبيد كانوا يشعرون بنوع من الحرمان و الإحباط النفسي ، خصوصا وأن المجتمع لم يراع شعور هؤلاء ، وهذا ما توضحه الأمثال الشعبية و بعض النوازل الفقهية التي تشير إلى أن المتخاصمين الأحرار أثناء تنابزهم ، وشتم بعضهم البعض يصف الواحد منهم الآخر بصفات العبودية والرق[5] هذا إلى جانب حرمانهم من القيام بأدنى الواجبات الاجتماعية كعزاء الميت مثلا و في حالة القيام بذلك يعد ذلك تطاولا و فضولا منهم [6] . هذا ناهيك عن الإهمال الكلي لهم و تركهم دون أية رعاية ،و هذا ما تسبب في تفشي الأمراض بينهم و التي أدت إلى هلاك معظمهم[7].وبالرغم من الظروف الاجتماعية التي مرت بها هذه الطبقة كان لهم دور وإسهام في المجتمع المرابطي في شتى مناحي الحياة ،فاستغلوا استغلالا فضيعا و سخروا في الأعمال المضنية إلى جانب الأعمال المترلية دون توقف وانقطاع لدرجة أنه لا ينتهي من عمل

[1]- الجزيري : المصدر السابق ورقة 116

[2] -J acob Oliel : les Juifs au Sahara، paris، 1991. p66

[3] -George Jehel : la méditerranée médivale, paris، 1992، p.105

[4]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد، س 2 ص1081 -1082

[5]- الونشريسي :المعيار ج2 ص514

[6]- انظر عن ذلك مثلا قولهم :" فضول سود في خيبر مشات تعزي، أبيعت في الأكفان". انظر محمد بنشريفة: تاريخ الأمثال والأزجال. ج1 ص265 مثل رقم 1743

[7] -انظر عن ذلك مثلا ابن الحاج : نوازل ابن الحاج ،ورقة 22،18

إلا ووجد عملا آخر ينتظره[1] ولم تستثن من تلك الأعمال حتى المستقذرة منها و هذا ما نستشفه من بعض أمثال العامة[2].

مما سبق يتضح لنا أن العبيد في الحقبة المرابطية عاشوا وضعية مزرية و حالتهم كانت جد متدنية إلا أنهم استكانوا لأسيادهم رغم السخط الكامن في صدورهم و لم يحولوه إلى انتفاضة رغم ما تكنه نفوسهم من تذمر و غضب رغم أن الظروف كانت مواتية خاصة في أواخر الدولة وأمثال العامة التي خلفتها الحقبة المرابطية تعكس روح الاستكانة ورضوخ العبيد لأسيادهم[3]

الطبقة المهمشة (المتسولين والدّعرة)

مادمنا بصدد الحديث عن الطبقات الاجتماعية المشكلة للمجتمع المرابطي فإنه لا يمكننا إغفال شريحة من شرائح المجتمع المتمثلة في المتسولين و اللصوص هذه الشريحة التي تعرضت هي الأخرى للإهمال و النسيان وأسدل عليها ستار من الصمت ،فهي بذلك تدخل ضمن الفئات المهمشة في المجتمع.و يرجع أحد الباحثين سبب تهميش هذه الشريحة لكونها شريحة غير منتجة بل كانت تشكل عبئا على كاهل الدولة و لكونها أيضا بعيدة عن المواقع السياسية و حقول المعرفة ناهيك عن كونها لم تلق اهتمام المؤرخين الذين جلبوا على طمس أخبار الشرائح الاجتماعية الدنيا.[4]

ولإماطة اللثام عليها يتوجب ذلك جمع الإشارات المتناثرة بين ثنايا الكتب. و تعد كتب المناقب و التصوف و الحسبة أهم المصادر التي تمدنا بمعلومات عن المتسولين وإلى جانب المتسولين يعد الدعرة (قطاع الطرق) في العصر المرابطي شريحة من الشرائح المهمشة، ويرجح

---

[1]- ما قيل في هذا الخصوص قولهم: "اطلق الفاس خذ المصحا ".انظر محمد بنشريفة: تاريخ الامثال والأزجال ج 1 ص267 مثل رقم :442

[2]- انظر عن استخدام السادة لعبيدهم في بعض الأعمال المستقذرة قولهم:"عفر خذ بيد سيدك يخرا": انظر محمد بنشريفة:المرجع السابق ص265 مثل رقم 1713

[3]- انظر عن ذلك المثل القائل "شتمت مولاي تحت كسابي" دليل قاطع على ميل هؤلاء إلى السكون و الدعة.محمدبنشريفة:نفسه ص 269 مثل رقم1881

[4]- ابراهيم القادري بوتشيش : الإسلام السري في المغرب العربي ص161

"أحد المؤرخين المحدثين[1] ظاهرة انتشار ذلك في العصر المرابطي إلى التمايز الاجتماعي الذي أفرزته مرحلة الحضارة و الترف فنجم عنها ظهور فئة عاجزة عن تحصيل عيشتها ناقمة عن الأوضاع، ومتمردة على شروط الحياة الجديدة فاتخذت من اللصوصية سبيلا، وسوف نتعرض إلى تنامي ظاهرة التسول و السرقة في العصر المرابطي ضمن دراستنا لبعض الآفات المنتشرة في المجتمع المرابطي.

أثر المجاعات و الحروب على العامة

مما لا جدال فيه أن لكثرة المجاعات و الحروب التي شهدها العصر المرابطي أثر على المجتمع لأن المجاعات و الحروب تطال كل طبقات المجتمع حيث تساوى في انعدام القوت الفقراء و الأغنياء[2]، غير أن أكثر الطبقات تضررا في تلك الحالات هي طبقة العامة لكون أكثرهم لا يملكون حتى قوت يومهم في حين كانت الطبقة الخاصة أقل تأثيرا بذلك لكون هذه الأخيرة تملك من الوسائل ما يمكنها من مقاومة الشدائد وقد عبر "ابن عذارى" عن ذلك أحسن تعبير حيث يقول:" ولا يصل إلى إدراك شيء من الموجود إلا أهل الجاه، وترمق سائر الناس بالجلود و الأصماغ و عروق السوس ، ومن دون هؤلاء بالفئرة و القطط"[3].

كما كان لتدخل الدولة لحماية وجوه الناس و أعيانهم أثناء الحرب و ترك عامة الناس من ورائهم أن تسبب ذلك في تضرر الفئة الأخيرة، وهذا ما نقله لنا ابن غازي في حديثة عن حصار الموحدين لمدينة مكناسة حيث نقل والي المرابطين "يدر بن ولجوط" إلى حصن "تاكررت" "وجوه الناس و أغنيائهم ، ولم يترك من الأقوات شيئا إلا نقلها إليه ،وترك جمهور الناس في مواضعهم "[4].

---

[1]- ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي ،ص190.

[2]- ابن عذاري: البيان المغرب،ج (4)،ص38.

[3]- نفس المصدر ،ص38،39.

[4]- ابن غازي: الروض الهتون،ص6.

وقد نجم عن الجفاف المستمر مجاعات عصفت بالعديد من أرواح العامة سواء في المغرب أو في الأندلس[1]، ومن نجي منهم اضطر إلى أكل جذور النباتات[2] بينما أجبر البعض إلى بيع بعض أملاكه بثمن زهيد للحصول على ما يسد به رمقه[3]. وقد صور"ابن قزمان" في أحد أزجاله حال الناس و ما يعتريهم من همّ حين تتوالى أيام الصحو[4]، كما عبرت أمثال العامة عن الكوارث الطبيعية و ما ينشأ عنها من مجاعات بقيت عالقة بأذهانهم[5]، فجاءت أمثالهم صورة صادقة على ذلك.كما لم ينجو العامة من الحروب التي خاضتها الدولة المرابطية، حيث كانوا أولى ضحايا تلك الحروب على اعتبار أن عيشهم يعتمد على الفلاحة فكانت تلك الحروب سببا في إتلاف المحاصيل الزراعية خصوصا وأن هجمات الجيوش النصرانية جعلت منها هدفا سيما في الأندلس[6].

و لم يكن المغرب أحسن حالا من الأندلس خصوصا في أواخر عصر الدولة نتيجة الحملات التي قام بها الموحدين على المدن المغربية فكان مصير الكثير من العامة، إما القتل أو الاستبعاد و حسبنا في ذلك ما أوردته المصادر التي أرخت لتلك الفترة فيشير صاحب الروض الهتون" أن جملة من عامة مكناسة تعلقوا بشجرة أملا في النجاة من سيوف الموحدين، غير أن هؤلاء جمعوا الحطب تحت الشجرة فأحرقوهم عن آخرهم[7] ، في حين يشير صاحب " الحلل" إلى محنة المحاصرين في مراكش ساعة دخول الموحدين لها أين استمر القتل و البطش فيهم ثلاثة أيام قتل في اليوم الأول سبعين ألفا[8] في حين استعبد من قدر لهم النجاة حيث "بيع عيال مراكش و

[1]- انظر عن ذلك مثلا: ابن الزيات: التشوف ،ص149،ابن عذارى: البيان المغرب ج4،ص39.
[2]- ابن الزيات:نفسه ،ص212.
[3]- نفسه،ص124.
[4]- محمد بنشريفة: تاريخ الأمثال و الأزجال ج1،ص308، 309 زجل رقم 99
[5]- مثل قولهم: "أشط من عام الجوع" .انظر عبد العزيز الأهواني :أمثال العامة في الأندلس ص298 مثل رقم 23
[6]- مجهول: الحلل الموشية،ص91.
[7]- ابن غازي: الروض الهتون،ص6-7
[8]- مجهول: المصدر السابق ،ص139.

أولادهم بيع العبيد"[1] ومن شدة الحصار هلكوا جوعا،حتى أكلوا الجيف ، وأكل أهل السجن بعضهم بعضا[2].

وأخيرا يمكن أن نخلص إلى نتيجة مفادها أن كل مجاعة كانت تعقبها أوبئة غالبا ما أدت إلى هلاك الكثير[3] ، وليس بغريب أن تكون تلك الوفيات في صفوف العامة أكثر من غيرها و هذا ما عبر عنه ابن عذارى صراحة في حديثه عن محنة المحاصرين في مراكش بقوله:" وكثر الموتى في الضعفاء."[4]

---

[1]- مجهول : الحلل الموشية ص143

[2]- ابن عذارى: البيان المغرب، قسم الموحدين،ص27.

[3]- ابن القطان: نظم الجمان،ص226.

[4]- ابن عذارى: البيان المغرب،ج (4) ،ص100.

الفصـــــــل الرابـــــع

مظاهر من الحياة الاجتماعية (القيم السائدة في المجتمع ،الآفات الاجتماعية)

تكوين الأسرة

الزواج

مهور الزوجات في عهد المرابطين

العلاقات الزوجية

الطـــلاق

نفقة الطلاق

الاحتفـــــــالات

الاحتفالات بالأعياد و المواسم

الاحتفالات الأسريـــة

الاحتفالات العامـــة

الترويح و التسلية

سبـــاق الخيل

الموسيقى و الغناء

القيم الســـائدة في المجتـــمع المرابطي

الـــكرم

النظـــافـــة

الفرد و الجمـــاعـــة

الحث على العمل

الآفات الاجتماعية

التـــسول

السرقـــة

البغاء(الدعارة)

الأوبئـــة و طرق معالجـــتـــها

الأوبئـــة (الأمراض)

طـــرق العـــلاج

أ- العلاج الطبي

ب- العلاج الطبيعي

ج- العلاج الروحاني

مظاهر من الحياة الاجتماعية (القيم السائدة في المجتمع ،الآفات الاجتماعية)

عرف سكان المغرب و الأندلس في عصر المرابطين عادات و تقاليد بعضها موروث عن الأجيال السابقة ،و بعضها استحدثت خلال هذه الفترة نتيجة ظروف سياسية و دينية مرت بها المنطقتين وسوف نتناول في هذا الجانب تكوين الأسرة بدءا بالزواج و ما يتضمنه من عادات و تقاليد المتعلقة به،وما ينجم عنه من المشكلات الزوجية يكون مصيرها الطلاق .هذا فضلا عن الأعياد و المواسم التي يحيونها ويبدون بهجتهم فيها، أو في مواكبهم واحتفالاتهم المختلفة ناهيك عن قضاء وقت فراغهم في الترويح والتسلية التي عرفوها ومارسوها مع الإشارة إلى القيم السائدة في المجتمع من كرم ونظافة والحث عن العمل وعلى النقيض من ذلك نتطرق إلى بعض الآفات الاجتماعية والأوبئة المنتشرة في الوسط الاجتماعي وطرق معالجتها.

تكوين الأسرة :

الزواج : تعد الأسرة نواة المجتمع المغربي و الأندلسي فهي بذلك لا تختلف عن بقية المجتمعات و عادة ما تتكون من الزوج و الزوجة و الأبناء ،و قد حددت الشريعة الإسلامية للزوج الحق في الزواج بأكثر من واحدة ،على أن لا يتعدى أربع زيجات [1] ،غير أن الملاحظ في العرف السائد لدى بعض رؤساء "جدالة "و لمتونة" أنهم كانوا يتزوجون بأكثر من العدد الشرعي ،و هذا ما نستشفه من النص الذي أورده ابن أبي زرع حيث يقول " و لما وصل(أي عبد الله ابن ياسين) مع يحي بن ابراهيم إلى بلاد صنهاجه ونزل بساحتهم رأى المنكرات ظاهرة فيهم شائعة عندهم ووجد الرجل منهم يتزوج ست نسوة وسبع نسوة وعشرة ،وما شاء فأنكر ذالك عنهم"[2] ولعل ما يزيد في تأكيد زواجهم بأكثر من واحدة قوله:: " ليس هذا من السنة ،إنما السنة في الإسلام أي بجمع الرجل بين أربع نسوة حرائر فقط،و له سعة فيما شاء من ملك اليمين"[3]وليس من المستبعد أن يكون هذا العرف متبعا بين الرؤساء دون العامة و قد حاول عبد الله بن ياسين تغير هذا الوضع ،فأرشدهم ،و بين لهم شرائع السنة و أمرهم بالمعروف و نهاهم عن المنكر، فلما

---

[1]- سورة النساء ،آية 3

[2]- ابن أبي زرع:الأنيس المطرب ،ص78

[3]- نفس المصدر والصفحة

رأوه قد شدد عليهم في ترك ما هم عليه من المنكرات تبرؤوا منه و هجروه،و نافروه و ثقل ذلك عليهم[1]. و يشير "ابن بطوطة"[2]إلى بعض عادات مسوفة الغريبة لدرجة أنه تعجب من ذلك فمن بين ما ذكره في هذا المجال أن النسوة إذا أردن الزواج تزوجن، لكن لا يسافرن مع أزواجهم ،و لو أرادت إحداهن ذلك منعها أهلها، و من بين العادات التي لا تمت بصلة للإسلام أن الرجال و النسوة منهم على حد السواء كانوا يتخذون الخليلات و الخلان دون أي إحراج و أنهم لا يرون في ذلك أي منكر.

و يبدأ الزواج عادة بالخطبة ،و يرى بعض الفقهاء أن شرطه الخطبة، و هذا امتثالا لأفعال الرسول (ص) [3] ،و كانت عملية الخطبة عادة ما تقوم بها النساء المسنات على سبيل حب الخير و الوصل بين الفتى و الفتاة ،و كان اختيار الفتى لعروسه عملية سهلة تتم بواسطة الأهل أو الأصدقاء ،أو أن يكون الفتى نفسه قد شاهد الفتاة في مكان عام ،غير أن هذا لم يمنع الأمهات من التدخل في اختيار العروس،و هذا ما يقابله في بعض الأحيان عدم رضا الفتى خصوصا إذا لم يقتنع بالعروس[4]،في حين كانت المرأة نادرا ما ترفض من تقدم لخطبتها لأن أمرها ليس بيدها إذ أن أغلب النصوص تشير الى أن المرأة لم يكن لها حق اختيار زوجها لأن الأب أو الولي كان له اليد الطولى في تزويج ابنته دون أدنى استشارة [5] و حسبنا في ذلك أن بعض النوازل المعاصرة لفترة الدراسة تشير الى أن رجلا غاب عن زوجته فزوجها والدها برجل آخر و عقد نكاحها معه في الوقت الذي عاد فيها زوجها الأول [6]. كما أن امرأة أخرى زج بها في السجن لأنها تزوجت بغير إذن وليّها [7]و لعل ما يزيد في التأكيد ما ذهبنا إليه أن يوسف بن تاشفين زوج

---

[1] -السلاوي:الاستقصا ج(2)ص7

[2]- رحلة ابن بطوطة ج (2) ص 271-272

[3]- ابن عبد الرؤوف:آداب الحسبة و المحتسب ص 49

[4] -محمد عبد الوهاب خلاف:قرطبة الإسلامية ص270

[5]- ابن الأبار :التكملة لكتاب الصلة، عني بطبعه وتحقيق حواشيه الفردبل ،ابن شنب، المطبعة الشرقية الجزائر 1919 ص 33

[6]- ابن رشد :فتاوى ابن رشد ،س(1) ص 178-179

[7]- ابن الحاج :نوازل ابن الحاج، ورقة 66-67

"علي المسوفي" بامرأة من أهل بيته تسمى "غانية "بعهد أبيها إليه[1]،كما أن الأمير علي بن يوسف عقد على أخته لأحد أبناء عمه.[2]

مما سبق نخلص إلى نتيجة مفادها أن زواج المرأة كان يعتبر شأنا عائليا فأسرتها ووالداها على الخصوص هو الذي يتكفل بترتيب أمور زواجها ، وهذا حسب ما يراه هو مناسبا لابنته و بالرغم من ذلك فإن بعض الشواهد تثبت أن المرأة في بعض العائلات الوجيهة كان لها رأيها في اختيار شريك حياتها فترفض من تقدم لخطبتها إذا لم يستهوها لسبب من الأسباب و حسبنا في ذلك أن الشاعرة" نزهون بنت القليعي" رفضت رجلا قبيح الوجه جاء لطلب يدها [3] خصوصا و أنها على غاية من الجمال و الحسن الرائق[4]، كما أن زينب النفزاوية لم تستجب لكثير من الشيوخ و الأمراء ، و اشترطت أن يكون زوجها ممن يقدر على حكم المغرب برمته.[5]

أما المواصفات المرغوبة في المرأة حسبما نستشفه من نصوص المعاصرة لفترة الدراسة فقد اختلفت بسبب المستوى الثقافي للناس فقاضي المرابطين الحضرمي نصح في عملية اختيار الزوجة توفرها على ثلاث خصال أساسية:أولها: طيب الأصل وثانيها:حسن الخلق وثالثها :كمال الدين[6] ،مع مراعاة مصاهرة البيوتات الطيبة المنبت[7]،بينما تنافس البعض في الزواج بالمرأة العالمة العالمة النبيهة الذكية[8] في حين فضل العوام المرأة الجميلة البدينة الشقراء[9] ،و نفروا من القصيرة القامة[10].

---

[1]- ابن خلدون : العبر مج (6)ص 225

[2]- ابن الخطيب: الإحاطة مج(1) ص 219

[3]- ابن الأبار : المقتضب من كتاب تحفة القادم ص 216

[4]- المقري : نفح الطيب مج (4) ص 295

[5]- ابن عذارى : البيان المغرب ج (4) ص 18

[6] -المرادي :كتاب الإشارة إلى أدب الامارة ص76

[7]- الونشريسي:المعيار ج(3) ص160

[8]- ابن الزبير : صلة الصلة ج(4)نشر ليفي بروفنسال ،الرباط المطبعة الاقتصادية 1937 ص 131

[9]- عن المرأة البدينة يقول المثل" الشحم زين ومن فقد حزين".انظر الزجالي : أمثال العامة ج 1ص34 . وعن المرأة الشقراء يقول مثلهم :أي هو النمش ثم أفتش " انظر الزجالي: نفس المصدر ص107

[10]- وعن المرأة القصيرة انظر مثلهم القائل:" أي هي ركبتها،ثم هي رقبتها".الزجالي:نفس المصدر ص34

و يبدوا أن الجمال قد ظل يسيل لعاب الرجال و يجذبهم و لا غرو في أن عبد الله بن ياسين الزعيم الروحي لدولة المرابطين لا يسمع بامرأة حسناء إلا خطبها [1] لكن يبدو لنا أن أهم شرط شرط يشترطه الرجل في المرأة التي ينوي الزواج بها أن تكون بكرا [2]، وحسبنا في ذلك كثرة النوازل التي وردت في هذا الشأن على فقهاء العصر المرابطي [3].و عليه فإن المرأة إذا نكحت على أساس أنها بكر و ثبت العكس فإن زوّجها أبوها أو أخوها كان عليها صداقها وردت إليها [4].و يعد ذلك عار كبير عليها.[5]

و بالرغم من ذلك فإن بعض الرجال لم يجدوا أي حرج في الزواج بالمرأة الثيب خصوصا من يجمع منهن بين الجمال و المال و المكانة الاجتماعية[6]، و حسبنا في ذلك أن "يوسف بن تاشفين" تاشفين" قد تزوج "بزينب النفزاوية"،بعد أن كانت قد نكحت قبله ثلاث أزواج[7]،كما أن الأمير "أبو طاهر تميم" قد تزوج حواء بنت تاشفين بعد وفاة زوجها[8] .و يتضح لنا من مصادر الفترة حرص الآباء على تزويج بناتهم حرصا عليهن،خصوصا و أنهن يشكلن مصدر همّ للآباء في الحياة و بعد الممات و خاصة إذا كثر عددهن حسب ما توضحه بعض الأمثال[9]و لهذا نراهم يفكرون في تزويج بناتهم منذ صغرهن و ينصحون بتزويجهن لأول خاطب فيقولون: "إذ قالت

---

[1]- البكري : كتاب المغرب ص 169

[2]- لقد حث الرسول(ص) ،على نكاح الأبكار في قوله :" عليكم بنكاح الأبكار فإنهن أعذب أفواها ،و انتق أرحاما و أرضى باليسير ".انظر : ابن عبد الرؤوف :آداب الحسبة و المحتسب ص 50 ،هامش (3)

[3]- ابن الحاج :نوازل ابن الحاج ورقة 72 الونشريسي : المعيار مج (3)ص ص 82، 83، 136، 255، 258، 260، 266، 352

[4]- ابن رشد :فتاوى ابن رشد س(2) ص 1308 -1309-1320.و انظر أيضا الونشريسى :المصدر السابق 285،386

[5]- الوزان :وصف إفريقيا ج(1) ص 199، 200

[6]- انظر عن ذلك مثلا زينب النفزاوية.ابن عذارى : البيان المغرب ج (4) ص18

[7]- ابن خلدون:العبر مج(6) ص 217

[8]- ابن رشد:المصدر السابق ص 1223-1224

[9]- مثل قولهم :"هم البنات للممات" ،مثل رقم 779 و قولهم: "من كثر بنات كانوا الكلاب اختان".مثل رقم 1446 و قولهم :"ويّ على من مات و خلّى سبع بنات" .مثل رقم 1965 .انظر محمد بن بنشريفة .تاريخ الأمثال و الأزجال ج(1) ص 300

البنت ددّ ،فكر لها في مخدّ "،و "إن رفعت القدح لفمها تحتاج ما تحتاج أمها[1]".و يتضح لنا من بعض الأمثال حرص الآباء في البحث و الاطلاع و اختيار الفتى المناسب لبناهم[2]،مع أن الزواج في جملته– قسمة ونصيب– حسب ما يفهم من بعضها[3] .و من الأمثال المعاصرة لفترة الدراسة الدراسة ما يشير إلى أن المرأة بصفة عامة و المغربية و الأندلسية خصوصا لم تكن تقبل أن تكون ضرّة و تؤثر الموت على ذلك[4].و ما يزيد تأكيد هذا الطرح ما أوردته بعض الوثائق الأندلسية من اشتراط الزوجة أو وليها عدم زواج الزوج عليها مرة أخرى[5]. و انتقدت أمثالهم زواج الشيوخ الكبار السن بالصبايا[6].كما لم يسلموا حتى من ألسنة الشعراء الذين كانوا يسخرون من من الشيوخ الذين يتزوجون الصغيرات [7]

مهور الزوجات في عهد المرابطين

ليس من السهولة بمكان تحديد المهر الذي يدفع للمرأة في عصر المرابطين لأن الأصل في الصداق غير محدد لقوله تعالى ﴿**و آتوا النساء صدقاتهن نحلة**﴾[8]،و قوله﴿**و إن أردتم استبدال زوج مكان زوج و ءاتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا**﴾[9].

و بالرغم من ذلك فقد حدد بعض الفقهاء الحد الأدنى للصداق بربع دينار أو ثلاث دراهم[10]،أما المتعارف عليه في العهد المرابطي أن المهر قد اختلفت قيمته حسب الوسط

---

[1]– محمدبنشريفه: تاريخ الأمثال و الأزجال ج(1) ، مثل رقم 27 ص301

[2] – مثل قولهم: "من خطبك أزواج" ابن عاصم مثل رقم 638 انظر عبد العزيز الأهواني :أمثال العامة في الأندلس ص346 .و قولهم أيضا :"زوج سو.خير من فقد" مثل رقم 1007 انظر محمد بنشريفة :المرجع السابق، ص 301

[3]– مثل قولهم :"زوجني و اضمن لي البخت" مثل رقم 1040 .محمد بنشريفه: نفس المرجع و الصفحة

[4]– مثل قولهم :مشية للحفر، ولا مشية لبيت اخرا..انظر محمد بنشريفة: نفس المرحع مثل رقم 1541

[5]– ابن سهل: ديوان الاحكام الكبرى ص221 .وانظرأيضا محمد بنشريفه: نفس المرجع ص 203.

[6]– انظر عن ذلك قولهم :"إذا ازوج الشيخ لصبي :يفرح صبيان القري". انظر محمد بنشريفة: نفس المرجع و الصفحة.مثل رقم(3) .

[7]– محمد بنشريفة: نفس المرجع ص 303،302

[8]– سورة : النساء، آية، 4

[9]– سورة : النساء،آية 20

[10]– البرزلي:فتاوى البرزلي،ج(2) ص178

الاجتماعي و اختلاف البيئات ،ففي المناطق الصحراوية التي كانت موطن اللثام كان الزعيم الروحي لدولة المرابطين – عبد الله بن ياسين – "لا يتجاوز بصدقاتهن أربعة مثاقيل"[1].و بمقارنتنا بمقارنتنا لما جاء في المصادر المعاصرة لفترة الدراسة يتضح لنا أن الصداق لدى القبائل المرابطية و في المغرب الأقصى لم يكن مكلفا مقارنة مع الأندلس إذ ورد في أحد النوازل بلوغ صداق إحدى النساء ستون مثقالا ناهيك عن الثياب و الجوهر[2] و هو مقدار باهظ دون شك إذا ما قورن بما دفعه "عبد الله بن ياسين" و باستقرائنا لبعض النصوص يمكننا أن نخلص إلى نتيجة مفادها أن تكاليف الزواج في الأندلس التي يشكو منها العامة لا تعود إلى أصل المهر و إنما تعود أساسا في رأينا إلى النفقات التي تنجر وراء إقامة العرس و هذا ما يفهم من بعض أمثال العامة[3]، ومنها ما صورت الزواج بأنه مدعاة إلى الفقر و الاحتياج و المسكنة و إن كان هذا يتناقض مع قوله تعالى ﴿و أنكحوا الأيامى منكم و الصالحين من عبادكم و إمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله و الله واسع عليم﴾[4].و عليه ليس من المستبعد أن يكون القصد منها تعبير عن فكر واعي يرى أن الزواج لا يكون قبل الاستعداد له و القدرة عليه خصوصا و أن مطالب الزواج عديدة و الزوجات لا يرحمن و هو ما يفهم من بعض الأمثال مثل قولهن: حلّيني و إلا خلّيني ،و قولهن :"بع كساك،و اعمل كذاك[5]".و مهما قيل عن ثقل تكاليف الزواج فإن بعض الأمثال تدعوا و ترغب الفقراء في الزواج خصوصا و أن الزواج لابد منه ،بل هو مرغوب فيه ، و عليه فإن المجتمع ينظر إلى القادر على الزواج و لم يتزوج بعين الارتياب ،و هذا ما صورته أمثلة العامة[6].

و مهما يكن من أمر فإن المهر في العهد المرابطي كان يؤدي بصيغ مختلفة،فيؤدي أحيانا عينا أو نقدا ،و في هذه الأخيرة لا يكتب في عقد الصداق بحسب الدينار المرابطي ،بل حسب صرف

---

[1]- البكري :كتاب المغرب ص 169

[2]- القاضي عياض :مذاهب الحكام و نوازل الأحكام و رقة 29

[3]- مثل قولهم :"العرس طيب و لكن نفقته كبيرة".انظر بنشريفة:تاريخ الأمثال و الأزجال ج(1)ص 298 و قولهم :"ما أطيب العرس لولا النفاقه"،انظر عبد العزيز الأهواني:أ مثال العامة ، ص353 مثل رقم 723

[4] –سورة: النور آ ية 32

[5]- محمد بنشريفة،المرجع السابق ،ص300

[6]- مثل قولهم :"عازب و متفنّق :ثلثي قطم يفتي فيه"انظر محمد بنشريفة: نفسه ،مثل رقم 1664،ص300

كل مدينة[1] و اعتبر الحد الأدنى في المهر ربع دينار ذهبا أو ثلاثة دراهم[2]، ومن عجز عن أدائه دفعة واحدة أدى قسطا وأخّر آخر[3]،وبهذا الخصوص جاء في رواية للسلفي[4] أن أحد متصوفة الأندلس لم يؤد مهره المؤجل كاملا لزوجته إلا عندما شعر بقرب ساعة موته.

العلاقات الزوجية

عرفت العلاقات الزوجية في الحقبة موضوع الدراسة حياة تتجاذبها عوامل التلاحم و الانسجام و أخرى صبغت بالتنافر و التوتر ،و على هذا الأساس يمكننا تصنيف العلاقات الزوجية إلى صنفين: الأولى: تميزت بالانسجام و التلاحم و الثانية :مليئة بالتوتر و النزاعات المستمرة ،و التي كانت عادة ما تؤدي إلى الانفصال و الطلاق بين الزوجين.

فبالنسبة للأولى: أمدتنا المصادر الفقهية بنصوص في غاية الأهمية تشير إلى سعي المرأة لكسب ود زوجها بمختلف الطرق ،و لو كان ذلك ماديا ،و حسبنا في ذلك استفتاء القاضي عياض لابن رشد حول امرأة في "سبتة "،أمتعت زوجها في أملاكها[5] و عن أخرى "وهبت لزوجها في صحتها نصف صداقها.[6]و للحفاظ على تلك العلاقة نجد البعض منهن قد ساهمن في شراء السكن العائلي شريطة أن لا يتزوج عنها و لا يتسرى بالإيماء[7].

مما سبق نخلص إلى نتيجة مفادها أن بعض الزوجات سعين إلى كسب محبة أزواجهن عن طريق وهب أموالهن إليهم، وهذا ما بينه الفقيه "ابن الحاج" المعاصر لدولة المرابطين بجلاء في قوله: " و المتعارف فيما يوسع النساء به على أزواجهن من أموالهن إنما يردن بذلك استجلاب

[1]- البرزلي: فتاوى البرزلي ج(2)ص 250
[2]- نفسه: ص 178
[3]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد س(1) ص 180
[4]- أخبار و تراجم أندلسية،مستخرجة من معجم السلفي،تحقيق إحسان عباس ،طبعة دار الثقافة ،بيروت1963 ص 19، 20
[5]- ابن رشد :فتاوى ابن رشد (س2) ص 126-127
[6]- الونشريسي :المعيار ح(2) ص143،البرزلي: نفسه ج(5) ص500
[7]- البرزلي نفسه ج(2) ص 204، 243،الونشريسي نفسه ج(3) ص 138 405

مودتهم و استدرار محبتهم،و جميل عشرتهم "[1].و ما إقدام "زينب النفزاوية" على الوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسها اتجاه الأمير" أبي بكر بن عمر" إلا دليلا قاطعا على ما ذهب إليه " ابن الحاج"و في هذا الصدد يقول ابن عذارى : "فخطبها – أبي بكر بن عمر– و تزوجها فوعدته بمال كثير تخرجه له ،ثم أدخلته في دار تحت الأرض معصب العينين ،ثم أزالت العصابة ،ففتح عينيه فرأى بيوتا فيها ذهب كثير و فضة و جواهر و يواقيت فعجب من ذلك....لما عاين من الذخائر الذهب و الفضة،فقالت له زوجه زينب :هذا كله مالك و متاعك أعطاك الله إياه على يدي فصرفته الآن عليك"[2] و نفس التصرف كانت قد أقدمت عليه بعد زواجها من الأمير يوسف بن تاشفين أين بسطت له السلطة و أمدته بالأموال اللازمة لبناء دولته[3] .

و لعل ما يدل على قوة الرابطة التي تجمع بين الزوجة و زوجها أن بعض النصوص مكّنتنا من رسم تلك الصورة التي توصف مدى تعلق الزوجة بزوجها،و ما كانت تبديه المرأة من أسى المفارقة الأبدية بالوفاة ثم ما كانت تأخذ بها نفسها من ألوان الحرمان من متع الدنيا بعد رحيل زوجها عنها ،وفاء لذكراه،و إخلاصا له،و حسبنا في ذلك الموقف الذي اتخذته الحرة "حواء بنت تاشفين" بعد وفاة زوجها "الأمير سير" و القسم الذي أقسمته بأن تتصدق بثلث مالها على المساكين ،و تحرر رقيقها ،و يلزمها صوم سنة بأن لا تعود إلى تلك الدار أبدا و هذا هو نص الرسالة التي بعث بها الأمير "أبا طاهر تميم" للفقيه ابن رشد يستفتيه أمر هذا القسم بعد زواجه منها و إجبارها على السكن معها في دار الإمارة التي كانت سكنتها مع زوجها الأول "سير"لمدة ثلاثة و عشرين سنة فرفضت سكناه متعللة بقسمها[4].ومما جاء في نص الرسالة" ما تقولون رضي رضي الله عنك في امرأة توفي عنها زوجها ،و كان ساكنا معها في دار الإمارة بالبلد الذي توفي فيه ،إذ كان أميرا فيه،فلما وضع في نفسه و أخرج من دار الإمارة إلى قبره،خرجت تتبع نعشه،فلما فرغ من دفنه وهي على شفير قبره قال لها قائل:قومي و ارجعي إلى دارك فقالت مجيبة له :إلى أي دار تعني ؟قال لها: إلى دارك المعروفة التي خرجت منها فقالت :ثلث مالي على

[1]– ابن الحاج :نوازل ابن الحاج ، ورقة 5

[2]– ابن عذارى :البيان المغرب ج(4) ص 18

[3]– نفس المصدر ص 22

[4]– ابن رشد :فتاوى ابن رشد س(2) ص 1223-1224

المساكين صدقة،و صوم سنة يلزمني، و رقيقي أحرار لوجه الله ،لا رجعت إلى تلك الدار أبدا.أين الوجوه التي كنت أعرف فيها؟ و أسكنها معهم؟"[1]

و تبدي لنا بعض النصوص مدى شدّة تعلق المرأة بزوجها و محاولاتها استبعاد أي منافس لها في زوجها و لو أدى الأمر إلى قتل منافستها و هذا ما أقدمت عليه الأميرة "قمر" حينما أحست بأن صاحبتها "الثريا" حاولت استمالة قلب زوجها(أمير المسلمين) الذي أبدى ميلا نحوها،فدست لها السم البطيء الذي سبب لها إسهالا حادا و آلاما مبرحة أدى إلى انسلاخ الطبقة الداخلية لأمعائها و أودى بحياتها بعد أكثر من أربعين يوما من المعاناة و حيرة الأطباء في علاجها.[2]

و مما لا جدال فيه أن هذا التآلف و الانسجام لم يخص طرف دون آخر بل أن الزوج كان جد متعلقا بزوجته،و عليه فقد عمل الكثير لأجل إرضاء زوجته،و نظر للإفراط الكبير في حبه و تعلقه بها أصبح ألعوبة في يدها و حسبنا في ذلك ما صار إليه أمر يوسف بن تاشفين مع زوجته زينب النفزاوية التي يعدها "أحب ما لديه" [3] لدرجة أنها أصبحت امرأة غالبة عليه حتى أنه لم يكن يصدر أمرا إلا عن رأيها ،و نظرا لاستهوائها له و تمكين قلبها منه أنه كان يعتز بها و يصرح بذلك في مجالسه بمكانتها و فضلها حتى أنه إذا انفرد ببني عمه و ورد ذكرها قال لهم: "إنما فتح البلاد برأيها" [4] .

أما فيما يخص الصنف الثاني: من العلاقات الزوجية و التي ميّزها النفور و النزاعات الزوجية فإنه ليس من السهل الإلمام بجل المشاكل الزوجية و هذا لتشعب تلك الخلافات، و لإعطاء صورة و لو بسيطة عنها يمكننا التمييز بين نوعين من المشاكل الأولى :منها هي التي يكون للزوجة فيها ضلعا واسعا.و الثانية : هي التي يتحمل فيها الزوج قسطا من المسؤولية. فبالنسبة للأولى: و التي يقع فيها عاتقها على الزوجة.فأول ما يسترعي الانتباه إليه مسألة نفور المرأة من

---

[1]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد س(2) ص 1223-1224

[2]- ابن زهر: التسيير في المداواة و التدبير:تحقيق دميشيل خوري، المنظمة العربية للتربية والتعليم ، دمشق ، 1983ص 250

[3]- ابن عذارى:البيان المغرب ج(4) ص 30

[4]- نفس المصدر والصفحة

زوجها أحيانا لسبب من الأسباب و هذا ما تؤكده إحدى الروايات التي أوردها "البكري" على لسان امرأة عندما سألها أهلها عن أسباب عدم رغبتها في معاشرة زوجها و النفور منه فقالت: إني أكرهه و أبغض قربه و أحب بعده ،و لا أجد من نفسي معينا على غير ذلك ....فلا تتركوني معه فإن ذلك يقتادني إلى الحمام و يفضي بي إلى أنواع السقام."[1]

و من بين المشاكل الزوجية التي عادة ما تفضي إلى الخلاف بين الزوجين عدم انصياع الزوجة لأوامر زوجها ،و إن كانت هذه الظاهرة متفشية أكثر في أوساط العائلات الوجيهة ،و حسبنا في ذلك أن "حواء "زوجة "سير بن أبي بكر" أبت مرافقة زوجها بعد تعيينه على رأس ولاية اشبيلية،إلا أن ألزمها الأمير يوسف بن تاشفين بالسير معه[2].وليس هذا بغريب عن الأسرة المرابطية ،و عن نساء "مسوفة" خاصة "فابن بطوطة" يشير في إحدى رواياته إلى أن نساء "مسوفة" لا يسافرن مع أزواجهن و لو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها[3].و من بين المشاكل التي كانت سببا في سوء العلاقات الزوجية و التي أشارت إليها كتب المناقب و الأمثال كثرة مطالب الزوجات لأزواجهن و عدم قدرة هؤلاء على تلبية مطالبهن، وهي مشاكل كثيرا ما وجدت سبيلها خاصة في أوساط الطبقة الفقيرة[4].

كما أشارت النصوص إلى بعض المشاكل الأخلاقية و ما ينجم عنها من تهديم لكيان الأسرة بأكملها ،فتناولت المصادر المعاصرة لدولة المرابطين تفشي هذه الظاهرة في وسط المجتمع المرابطي بالرغم من منع و تحذير رجال الحسبة لبعض تلك الظواهر المؤدية إلى الوقوع في المعصية[5].إلا أن ذلك لم يمنع وقوعها ،"فالبكري"[6] يشير في إحدى الروايات إلى أن شيخا تزوج بشابة فتعلق بها بها أحد الفتيان فاتفقت معه على خيانة زوجها.و نظرا لكون زواج الشيوخ بالصبايا كثيرا ما

[1]- البكري:كتاب المغرب ص 187

[2]- ابن الحاج :نوازل ابن الحاج ورقة 120

[3]- ابن بطوطة :رحلة ابن بطوطة ج(2) ص 272

[4]- انظر عن ذلك مثلا :ابن الزيات: التشوف ص 177، 222 و انظر أيضا محمد بنشريفة: تاريخ الأمثال و الأزجال ج(1) مثل رقم 816، مثل رقم 589 ص 300

[5]- ابن عبدون:رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص 45 -47

[6]-كتاب المغرب ، ص 184

تترتب عنه بعض المشاكل الأخلاقية لاعتبارات عدة فقد نال الشيوخ المتزوجين بهن سخرية الشعراء و نقدا لاذعا من العامة لهم في أمثالهم[1].

ويبدوا لنا من بعض النصوص استفحال ظاهرة الخيانة الزوجية حيث ذكر "البكري"[2]رواية مفادها أن شيخا تزوج بشابة فتعلق بها أحد الفتيان، فا تفقت معه على خيانة زوجها.و نظرا لتفشي هذه الظاهرة في وسط المجتمع المرابطي فقد تناولها العامة في أمثالهم[3].و منهم من يقر بفعلها و حسبنا في ذلك "ابن قزمان" المعاصر لفترة الدراسة الذي يذكر أن نفسه تاقت إلى زوجة جاره فراودها حتى تمكن منها [4]. و لم ينجو من هذه الظاهرة حتى بعض الأشقاء حيث وصل الأمر أن يخون الأخ أخاه في غيابه و هذا ما نستشفه من النص الذي أورده "ابن الزيات"[5] الزيات"[5] عن أبي يغزي قوله لأحد زائريه"لم تخون أخاك و تأتي زوجه وهو غائب؟" .مما سبق نخلص إلى نتيجة مفادها أنه لولا تفشي هذه الظاهرة في الوسط المرابطي لما تناولتها المصادر بمختلف أنواعها ،و لما أشارت إلى جرائم قتل الرجال لزوجاتهم انتقاما منهن بعد انكشاف أمرهن[6]

أما الحالة الثانية: و التي يتحمل فيها الزوج المسؤولية،فقد تعددت أوجهها و دوافعها فمنها ما يعود إلى أسباب مادية بحتة،و حسبنا في ذلك ما أورده ابن سهل من أن رجلا التزم في عقد نكاحه ألا يضرب زوجته، وألا يأخذ شيئا من مالها بغير إذنها،غير أن الزوج خالف التزامه،فمد يده إلى مالها حتى أضرّ بها.[7]و منها ما يصدر عن الرجل أحيانا من تعسف و إجحاف في حق الزوجة[8]و قد انجر عن توتر العلاقات الزوجية الوصول أحيانا إلى حد الضرب العنيف المؤدي إلى

---

[1]- محمد بنشريفة: تاريخ الأمثال و الأزجال ج(1) ص 302 -303

[2]- كتاب المغرب ص 184

[3]- مثل قولهم :بين ذا وذا ،زوجها جا ،و يقال في المرأة التي يدركها زوجها متلبسة بالجريمة .انظر الزجالي: أمثال العامة ص 124

[4]- ابن قزمان :ديوان ابن قزمان ص 146 زجل 20

[5]- التشوف،ص 174،و عن مراودة النساء للرجال،انظر :ابن الزيات : نفسه ص 193

[6]- البكري:كتاب المغرب ص 185

[7]-ابن سهل:ديوان الأعلام الكبرى أو الأعلام بنوازل الأحكام ص253-254 ،البرزلي:فتاوى البرزلي،ص89

[8]- نفس المصدر ص243

إلى القتل[1]. و هذا ما تؤكده كتب المناقب و النوازل حيث جاء في مناقب الشيخ "أبي العباس السبتي" أن امرأة اشتكته أذى زوجها و اعتياده على ضربها باستمرار لدرجة أنها كانت "تريد إلقاء نفسها في البئر"[2] و جاء في إحدى النوازل أن امرأة أشهدت في صحة من عقلها و ذهنها و و هي مضطجعة على الفراش تشكو ألم ست جراحات من جسدها، أن زوجها جرحها ذلك على وجه الاعتداء و عاين القاضي تلك الجراحات ،و تحقق أنها من الجراحات التي لا يمكن أحد أن يفعلها بنفسه،و كانت نتيجة هذا الاعتداء أن توفيت الزوجة بعد ذلك بأيام،وأن زوجها فر في عقب التدمية المذكورة بحيث لا يعلم مستقره.[3]

كما كان لغياب الزوج عن زوجته ،و استمراره لمدة طويلة أن ساهم في تفاقم المشاكل الزوجية و أدى أحيانا إلى الطلاق ،و هو ما يفهم من النازلة التي أوردها "ابن الحاج" و التي حكم فيها لزوجة ادعت غياب زوجها أن تنتظر أربعة أعوام،فإن لم يرجع إليها أصبحت حرة في تطليق نفسها[4].و بالرغم من أن المصادر الفقهية أشارت إلى غياب الزوج عن زوجته إلا أنها لم تفصح عن أسبابه إلا إذا تعلق الأمر بالتجارة أو الخروج للحرب[5] ،بحيث لا يعرف إذا كان الزوج على قيد الحياة أو قتل في المعركة ،أو أنه وقع أسيرا،و في هذه الحالات فإن فقهاء الحقبة المرابطية أفتوا بأن أمر الزوجة يظل معلقا لا تتزوج و لا تورث حتى يوقن موته.[6]

ومن بين المشاكل التي تؤدي إلى تصدع الحياة الزوجية و انفصال الزوجين عن بعضهما البعض إقدام الرجل على الزواج بامرأة ثانية أو تسريه بجارية من الجواري و هذا ما أشارت إليه المصادر المعاصرة لفترة الدراسة[7].مما سبق نخلص إلى نتيجة مفادها أن للمرأة مسؤولية في ظهور

---

[1] -الونشريسي :المعيار ج(2) ص 289

[2]- مؤلف مجهول :نبذة من مناقب الشيخ السبتي مخ، الخزانة العامة الرباط، رقم 2896د ورقة 102

[3]- الونشريسي :المصدر السابق ص 289 و انظر أيضا :البرزلي: فتاوى البرزلي ج(6) ص 92 -93

[4]- ابن الحاج:نوازل ابن الحاج ورقة 100

[5] – ابن سهل:ديوان الأعلام الكبرى أو الأعلام بنوازل الأحكام ص191

[6]- ابن الحاج:المصدر السابق، ورقة، 100

[7]- كانت المرأة لا تقبل أن تكون ضرة و تؤثر الموت على ذلك و هو ما يفهم من أمثالهم :
"مشية للحفر،و لا مشية لبيت أخرا". انظر: محمد بنشريفة :تاريخ الأمثال ج (1)ص 301، مثل، 1541

المشاكل الزوجية في بعض الحالات ،إلا أن هذا لم يمنع من أن يكون للرجل ضلع فيها ،و عليه يكون الطلاق آخر حل يلجأ إليه الزوجين لوضع نهاية لمشاكلهما.

الطـــلاق

كما يعد الزواج ظاهرة اجتماعية طبيعية كان الطلاق أيضا إحدى الظواهر الاجتماعية الموجودة في المجتمع،و يرى" ابن عبد الرؤوف" أن يؤدب من حلف بالطلاق أو بطلاق الثلاث و طلب أن يؤدب من شكت به امرأته، و عليها أثر ضرب مبرح على حسب ما يظهر عليها من ذلك،إلا أن يكون ضربه إياها على مضجعها فلا يعرض له بمكروه [1].كما يؤمر الموثقون أن لا يعقدوا مراجعة رجل طلق امرأته طلاق خلع أو تمليك،و هي حامل منه،و قد أثقلت أو دخلت في الشهر السادس من حملها ، لأنها مريضة ،و نكاح المريضة لا يجوز[2]، كما يؤمر الرجل أن لا يكون محللا لغيره،فإن فعل ذلك عوقب هو و المرأة و الشهود و الذي عقد النكاح إن عملوا بذلك [3].و يعد الطلاق الحل الأنسب في حالة عدم فلاح الصلحاء في استئصال شأفة التوتر داخل بيت الزوجية،و عليه يلجأ الزوجين للطلاق[4].و هناك إشارات كثيرة تدل على وقوع الطلاق للأسباب التي سبق و أن ذكرناها و حسبنا في ذلك الصورة التي قدمها لنا ابن سارة الشنتريني (ت517هـ/1123م) عن طلاق زوجته بعد أن تأكد من استحالة العيش معها[5].

و لعل ما يزيد في تأكيد تفشي ظاهرة الطلاق في المجتمع المرابطي أن الزعيم الروحي لدولة المرابطين"كان يتزوج في الشهر عددا منهن و يطلقهن[6]".و ظاهرة الطلاق لم تقتصر على الرجل فحسب بل يمكن للمرأة تطليق نفسها لسبب من الأسباب و حسبنا من ذلك أن زينب النفزاوية هي التي طلبت الطلاق من زوجها "أبا بكر بن عمر" فأسعفها في ذلك[7]،كما يمكن للمرأة تطليق

---

[1]-ابن عبد الرؤوف :آداب الحسبة و المحتسب ص 58-59

[2]- نفس المصدر، ص 56

[3]- نفس المصدر ص 55-56

[4]- لقد عبرت أمثال العامة عن ذلك بقولهم:إن وفق وفق و إلا حانوت الوثاق.انظر الزجالي:أمثال العوام ص 58

[5]- ابن بسام :الذخيرة في محاسن الجزيرة ق(2) مجلد (2) ص 844

[6]- البكري:كتاب المغرب ص 169

[7]-ابن عذارى: البيان المغرب ج(4)،ص21

تطليق نفسها نزولا عند رغبتها و هذا ما أكده "البكري[1]"من أن امرأة رغبت في تطليق نفسها فاستجاب زوجها لرغبتها،و رد له أهلها كل ما صيره في حقها.

نفقة الطلاق

كان الطلاق على العموم عبء على الرجل بسبب النفقات المفروضة عليه و قد حدد فقيه المرابطين "ابن الحاج" نفقة الزوج الفقير على زوجته المطلقة "بربع و نصف دقيق" و ثمن زيت،و حمل حطب،و أربعة دراهم صرف و بيت تسكنه و كسوة مع نصف درهم في الشهر"[2] أما نفقة الابن فتساوي فيها الغني و الفقير. في حين أفتى القاضي ابن حمدين بقرطبة للمرأة المطلقة بربعين من دقيق ،و ثمنين من زيت ،و ثماني عبادي(السكة العبادية).[3]و اختلفت النفقة المفروضة على الزوج فكانت نفقة الرجل المتوسط الحال في حال تطليق زوجته و هي حامل أو مرضعة ربع دقيق و ثمن و نصف زيت و نصف حمل حطب،و ستة دراهم صرف،و مسكن و كسوة[4]، كسوة[4]، في حين فرض على الرجل الغني كلية الإنفاق على امرأته المطلقة ما مقداره ربع دقيق ،و ثمن زيت و حمل حطب و خمسة عشرة درهما في الصرف كل شهر،و يكري لها مترلا ،أما إذا كانت في بداية الحمل فيبتاع لها قميصا و سراويل و غير ذلك من الكسوة،و إن كان لها خادم فرض له ما يفرض للمرأة.[5]

الاحتفالات:

الاحتفالات بالأعياد و المواسم:

تعد الأعياد والمواسم ظاهرة اجتماعية عرفها البشر منذ زمن بعيد، منها ما هو إحياء لمناسبات عامة يحتفل بها الناس جميعا، و منها ما يرتبط بشعائر دينية أو مناسبات اجتماعية، و عليه كانت

1-كتاب المغرب ص 187

2- ابن الحاج:نوازل ابن الحاج ورقة 90

3- نفس المصدر ورقة 91

4- نفس المصدر و الصفحة

5- نفس المصدر ورقة 90، 91 و انظر أيضا: ورقة 93، 94

الاحتفالات لاتنقطع في الأسرة المرابطية على اختلاف فئاتها، احتفالات بزواج فيها، أو ولادة[1] أو ختان أو مأتم[2] و عليه فإن الحياة العامة للمجتمع المرابطي لم يخلوا منها فإذا بلغت تلك الاحتفالات الشريحة العليا من المجتمع أخذت أبعادها في البذخ و الترف و الإنفاق الواسع[3] أما سائر الفئات فكانت لها تقاليدها المعروفة فى الولائم ، وعلى العموم فإن ما يجري فى تلك الاحتفالات لا يختلف عما يجري في المشرق إلا في العادات و التقاليد المحلية و كثير منها مورثة عن أجيال بعيدة.

و مما لا شك فيه أن لتلك الاحتفالات دلالات اجتماعية القصد منها الترويح عن النفس بشكل أو بآخر.وتنوعت الاحتفالات بين التي كانت تقام في المدن المرابطية باختلاف المناسبات فيحتفل بالمولد النبوي الشريف في الثاني عشر من ربيع الأول من كل سنة، ويعد عيد من أعياد المسلمين و موسما من مواسمهم، و لإبداء الفرحة بمولده يتم إيقاد الشموع و التزين بما حسن من الثياب، و ركوب فاره الدواب.[4]و لإدخال البهجة في وسط الأسرة يتم تحضير مختلف الأطعمة للتوسيع على الأطفال بما أمكن من الميسور و التصدق بالبعض منها.[5] و يتم الاحتفال بهذه الليلة الليلة باجتماع الناس إحياءاً لمولده، و ذكر لمحاسنه والصلاة عليه «ص » في سائر البقاع، غير أنه يحرّم استعمال آلة اللهو عند الاجتماع في تلك الليلة، و لا يجوز تعظيم نبي الله تعالى إلا بما يرضيه، و يرضي الله تعالى، و قد استحسن بعض الفقهاء عدم صوم هذا اليوم لأنه يوم فرح وسرور فلا يستقيم فيه لأنه يوم عيد.[6]

و يحتفل أيضا بالعيدين — عيد الفطر و عيد الأضحى- كما يحتفل بهما في سائر أنحاء العالم الإسلامي بنوع من الأبهة و العظمة، فتوقد الأنوار في جميع المدن و تتعالى أصوات المصلين و التكبير والتهليل. ولإ ظهار فرحة العيد يقدم الناس على لباس الثياب الجديدة التي اشتروها

---

[1]- كان يحتفل بقدوم الأولاد بالعقيقة انظر الونشريسي: المعيار ج (1) ص 22.

[2]- انظرا عن ذلك مثلا: ابن الزيات: التشوف ص 243.

[3]- الونشريسي: نفسه ج (2) ص 533.

[4]- الونشريسي: نفسه ج (8) ص 278.

[5]- نفسه: ص 279.

[6]- نفس المصدر و الصفحة

خصيصا لهذه المناسبة ثم يتجملون و يتزينون للظهور في أحسن مظهر.[1] كما يقبلون على شراء الأضاحي، و عليه فقد نال كبش العيد في المغرب و الأندلس مكانة كبيرة في أشعارهم وأمثلة عامتهم وأزجالهم" فابن قزمان" في ديوانه خص كبش العيد بسبعة أزجال[2]. و يبدوا من أمثلة العامة و أزجالهم أن شراء كبش العيد كان ينوء بحملها كثيرا من سواد الناس و تعد أزجال ابن قزمان نموذجا صادقا على ذلك، حيث جعلنا نعيش معه في الرحلة التي عاشها،والتي لا يبدوا فيها اختلاف كبير عما نعيشه في أيامنا المعاصرة، إذ يصف إلحاح الزوجة و الأولاد على شراء الأضحية فيضطر الزوج بعد هذا الإلحاح أن يشتريه "و القصد فرح الأولاد".[3]

كما صور لنا عادات الناس في المدن الأندلسية في شراء الأضاحي والتي لا زالت قائمة في كثير من المدن الإسلامية، فقبل عيد الأضحى تساق الخراف من كل مكان إلى ميادين تسوّر بأخشاب و يذهب الناس يوم « الوقفة» «يوم منى» إلى تلك الأسواق التي تشتد فيها الزحام أين يتم اختيار الخرفان بعناية فائقة.وبعد الاتفاق مع البائع و دفع ثمن الخروف ينادى المشتري للحمال، فيرفع هذا الأخير الكبش على عنقه و يمضي به إلى بيت صاحبه الذي يوصيه طول الطريق بالعناية بالكبش بصوت عال ليسمعه الناس.[4]

و في صباح العيد تكون الأسرة كلها مشغولة بتهيئة الأضحية و الكل مشمر على ساعده لإعدادها بعد الذبح، فتعلق ليتم تقطيعها[5] ثم ترسل الأسرة برأس الكبش إلى الحارة أين يتم تشويط الرأس في حفر،[6] في حين تنشغل الأسرة كلها في طهي السقط أو ما يعرف بالقلايا أو التقلاية، ثم الشواء و الأكل.[7] وهكذا تقضي الأسرة طول يوم العيد في تحضير مختلف الأطعمة و

---

[1]- ابن القطان: نظم الجمان ص93.

[2]- ابن قزمان:ديوان ابن قزمان،أزجال رقم8، 48 ،85، 89 ،91، 118

[3]- نفسه ، زجل رقم 48 . إن زجل ابن قزمان يذكر أن شراء الأضحية القصد منها إدخال الفرحة على الأولاد. ونحن نعرف أن القصد منها إتباع سنة محمد" صلى الله عليه و سلم"

[4]- ابن قزمان: المصدر السابق، زجل رقم 82.

[5]- نفس المصدر: زجل رقم 89.

[6]- نفس المصدر: زجل رقم 48.

[7]- نفس المصدر: زجل رقم 82.

و التهادي مع غيرها حاملين الأطباق و القلل، و في استقبال الأقارب مما يرهق الجميع غير أن هذا الإرهاق سرعان ما يزول فبمجرد نهاية اليوم تجد الأسر تتحصر على فواته.[1]

و من المناسبات الدينية المتكررة التي يحتفى بها صلاة الجمعة و شهر رمضان الذي يحظى بمكانة خاصة لدى المرابطين، فكان لقدوم هذا الشهر معنى خاص، إذ تبدأ الاحتفالات به منذ رؤية الهلال، فيتم إيقاد النار في تلك الليلة، و يظهرونها من قرية إلى أخرى إثباتا لرؤيته.[2] ولم يخص المرابطون إيقاد النار ليلة الرؤية فحسب بل تتعداها إلى سائر أيام الشهر حيث يذكر "الجيلالي" في "رسالته"[3] أن المرابطين كانوا ينيرون المآذن ليلا في مدينة فاس طيلة شهر رمضان.ويحتفل المرابطون بهذا الشهر كغيرهم من دول العالم الإسلامي بقراءة القرآن والأدعية،وعقد لحلقات دينية في المساجد[4]. و إحياء للياليه تقام صلاة التراويح على مدار الشهر الشهر ثم يختمون الشهر بالقيام جماعة،[5] كما تحظى ليلة السابع والعشرين من الشهر بالتعظيم و التكريم،[6] و يولي المتصوفة و الصالحين لهذا الشهر أهمية كبرى رجاء الحصول على كبير الثواب أين يتقطعون للتعبد و هذا ما نستشفه من قول ابن الأثير[7] " و نزل تاشفين بن علي ــ بظاهر وهران على البحر في شهر رمضان سنة تسع و ثلاثين فجاءت ليلة سبع و عشرين منه، و هي ليلة يعظّمها أهل المغرب، و بظاهر وهران ربوة مطلة على البحر و بأعلاها ثنية يجتمع فيها المتعبدون، و هو موضع معظّم عندهم، فسار إليه تاشفين في نفر يسير من أصحابه متخفيا، و لا يعلم به إلا النفر الذين يقصدون معه، و قصد التبرك بحضور ذلك الموضع مع أولئك الجماعة الصالحين".

---

[1]- ابن قزمان :ديوان ابن قزمان، زجل رقم 48.

[2]- الونشريسي: المعيار ج (1) ص 412.

[3]- رسالة في ذكرمن أسس مدينة فاس، القاهرة، دار الكتب المصرية رقم 8861ح.

[4]- حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس ص 424.

[5]- الونشريسي: المصدر السابق، ص 147، 148.

[6]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ مج9 ص202

[7]- نفس المصدر و الصفحة، و انظر ايضا: ابن خلكان :و فيات الأعيان مج (5) ص 483.

و يحتفل المغاربة و الأندلسيين بعيد عاشوراء أو ما يعرف عندهم بعيد الفاكهة، و لا زالت هذه العادة إلى يومنا هذا فكانوا يشترون الفواكه المتعددة و الياميش و الحلوى احتفاء بهذا اليوم[1] كما يحتفل المغاربة و الأندلسيين بقدوم شهر شعبان، أين تقام المآدب التي تعرف باسم الشعبانية و يشتري فيه الأبواق أو النفير للصبيان يلهون بها فيملئون الدنيا صياحا.[2]كما يحتفل المغاربة و الأندلسيين في العصر المرابطي بأعياد موسمية كعيد "النيروز" ويسمونه "ينير" ومن عاداتهم في هذا العيد إقبالهم على شراء فواكه معينة، و صنع تماثيل مختلفة من الحلوى و المعروفة باسم "مدائن ينير" لأنها تصنع على شكل مدائن مصغرة ذات أسوار.[3]

و قد وصف لنا "ابن عبد الملك المراكشي" [4]طريقة صنع تلك المدائن فذكر أنها "تنقش و تصنع فيها أشكال من العجين مركبة على البيض المصبوغ بالحمرة أو الخضرة، أو بغير ذلك من الألوان بحسب المتخير لها، ثم يفدّم الجميع بالزعفران، و يطبخ في الفرن و يجمع إليه أصناف الفواكه، و يحتفل كل إنسان بانتخابها و تجويد صنعتها، و يتباهى بالإنفاق فيها على قدر وسعه و اعتنائه بذلك، ثم يدفع ذلك كله إلى الأصاغر إدخالا للسرور عليهم، و توسيعا في الترفيه لأحوالهم، و تبشير بخصب عامهم و تفاؤلا لبسط الرزق فيه لهم فيبهجون، و يتمكن جذلهم و يتفاخرون بمقاديرها بينهم، و تتمادى.... لديهم أياما بحسب كثرتها و قلتها، ثم يأتون عليها أكلا و تفكها بما معها من أصناف الطرف و الفواكه".

أما العيد الموسمي الثاني الذي يحتفل به المغاربة و الأندلسيين فيعرف بعيد المهرجان أو العنصرة[5] و اشتهر هذا العيد بشعلة النار التي كانوا يقيمونها ويقفزون فوقها،[6] و احتفاءا به يبدي المغاربة الأندلسيين بهجتهم بموسم العنصرة بلبس اللباس الجديد و إجراء لسباق الخيول.[1]

[1]- محمد بنشريفة: تاريخ الأمثال و الأزجال ج (1) ص 292.
[2]- نفسه ص 296.
[3]- نفسه ص 292، 293
[4]- الذيل و التكملة س (1) ص 565، 566.والنقاط الموجودة في النص بياض في الأصل
[5]- هو يوم مشهور ببلاد الأندلس، و يصادف اليوم الرابع و العشرون من حزيران فيه ولد يحي بن زكرياء عليه السلام، للمزيد، انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان ج(5)، ص 576-577.
[6]- محمد بنشريفة: المرجع السابق ص 294.

وتعد أعياد رأس السنة (الينروز) وعيد العنصرة وعيد الميلاد إلى جانب أعياد أخرى ورثتها اسبانيا المسيحية عن العصور الوثنية السابقة أعيادا نصرانية.[2] و اعتبر أبو بكر الطرطوشى الأعياد الموسمية في الأندلس من البدع[3] و انتقدها بشدة أكثر "أبو القاسم العزفي السبتي[4] الذي أفرد لها فصلا أسماه "البدع" أين علل انتشارها بين المسلمين في الأندلس لمجاورة النصارى و مخالطتهم، و في المغرب بالإتباع لهم و الانقياد وراءهم و ذكر أن ما عبر من بر الأندلس إلى بر المغرب بدعة أشنع منها، و قد عمل العزفي على تحويل أهل بلده عن هذه البدع، و حث أهل السلطان و العلماء على محاربتها والعمل على إبطالها، معتبر الاحتفال بها مصدر للشر خاصة وأن الأندلسيين صاروا يستعدون لها من أجل إحيائها في جو من المرح و الفخامة لا يقل عما يحيط بالأعياد الإسلامية، لدرجة أن النسوة أصبحن يثقلن أزواجهن لإسرافهن في الإنفاق استعداد لتلك الأعياد و التفنن في المطعم و المشرب، و في الأخير يبدي نصحه لمسلمي الأندلس للحفاظ على إيمانهم الخالص اجتناب الاختلاط بالنصارى والامتناع عن الاحتفال بأعيادهم مذكرا أيامهم بالاحتفال بعيد مولد النبوي الشريف الذي أصبح لا يظفر بمثل تلك العناية التي يولونها للأعياد النصرانية.

الاحتفالات الأسريـــة

و من بين الاحتفالات التي يحتفل بها في عهد المرابطين احتفال الخطبة و الزواج، فبعد اختيار العروس المناسبة، يتم تحديد يوم الخطبة وعادة ما كانت تقوم النساء المسنات بعملية الخطبة على سبيل حب الخير و الوصل بين الفتى و الفتاة.[5] و لما تتم الخطبة يتفق أهل العروسين على مقدار

---

[1]- محمد بنشريفة: تاريخ الأمثال و الأزجال ج (1) ص295.

[2] -ابن خلكان: وفيات الأعيان ج5،ص576- 577. و انظر للمزيد، فرناندو دى لاجرانخا: "الأعيـــاد المســـيحية و الاحتفال بها في المجتمع الأندلسي." المنشور ضمن التقرير الخاص بنشاط معهد الدراسات الإسلامية بمدريد لشهر أكتـــوبر 1962 ص 42.

[3]- محمد بنشريفة: المرجع السا بق ، ص 296.

[4]- هو أبو القاسم العزفي السبتي الذي كان قد ورث حكم مملكة سبته الصغيرة عن آبائه في القرن الثالث عشر المـــيلادي، للمزيد عن نقد العزفي للمجتمع الأندلسي، انظر: فرناد و دى لاجرانخا، المرجع السابق ص 42، و انظر أيضـــا: محمـــد بنشريفة: المرجع السابق ص297.

[5]- عصمت دندش: الأندلس في نهاية عهد المرابطين، ص 330.

الصداق و هدايا العروس، ليتولى بعدها الموثق تسجيل عقد الزواج حسب الشروط المعهودة المتمثلة في الولي و الصداق و الشهود [1]ليعلن بعد ذلك عن يوم العرس أو الزفاف، و الذي كان عادة ما ينفق فيه ببذخ، ويكون مجالا للمباهاة و الظهور، حيث يستدعي العازفون على آلات الطرب المختلفة من عود ودف وغيره،[2] كما يستعان بالحواة في الأعراس لإدخال الفرحة و السرور على المدعوين بألعابهم، ولا يستثني من العرس الراقصات اللواتي يرقصن حاسرات الرأس، كاشفات عن شعورهن[3] أما العروس فتبدو مجلوة في غاية الزينة[4] و على رأسها تاج.[5]و يبدوا لنا مما ذكره الحميدى أن هناك من الأندلسيين من يقيم احتفاله بالشارع حيث وصف زفة العرس بقوله: "فلعهدي بعرس في بعض الشوارع بقرطبة، و النكورى الزامر قاعد وسط الحفل و في رأسه قلنسوة و شي،وعليه ثوب خز". [6]

و من خلال كتب الحسبة المعاصرة لفترة الدراسة يتضح لنا أن تلك الاحتفالات عادة ما يتخللها ضروبا من اللهو والعربدة و الشراب و الاختلاط بين النساء و الرجال،[7] و عليه فقد حرص هؤلاء على "منع اللهو كله، على أنواعه في الأعراس و غيرها كالعود و غيره، إلا ما كان من الدف العربي الذي هو شبه الغربال".[8]وللحفاظ على الأمن العام والسير الحسن للحفل يتوجب على أهل العروس أن يحصلوا على تصريح من القاضي، إذا كانت العروس ستزف خارج المدينة، حتى يأمر القاضي بأن يصحب الموكب عدد من الحرس لحراسة الموكب من العربدة. [9]

---

[1]– ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة و المحتسب ص 52.

[2]– نفسه ص 58.

[3]– ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص 51.

[4] – ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق ص 58.

[5]– ابن قزمان: ديوان زجل رقم 21.

[6]– الحميدي: جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس قدم له وضبطه وشرحه د:صلاح الدين الهواري،المكتبة العصرية بيروت بيروت ط(1) 2004 ص143.

[7]–الجرسيقي: في آداب الحسبة و المحتسب ص 121.

[8]– ابن عبد الرؤوف: المصدر السابق ص 58.

[9]– ابن عبدون: المصدر السابق ص53،54.

ومن المناسبات الأسرية التي يحتفل بها المرابطين إنها إذا رزقت بمولود جديد احتفلت ابتهاجا بقدوم المولود الجديد تعرف بالسابع أو العقيقة،[1] فيتم ذبح كبش أو أكثر، و هذا حسب إمكانية كل أسرة.كما يحتفل بختان الصبيان، و لعل ما تنفرد به الأسرة المرابطية دون سواها أنها لا تعتبر الفرد مكتمل الرجولة، إلا إذا ارتدى لثامه، لذلك تحتفل الأسر عند بلوغ الأولاد سن الرشد بارتداء اللثام فيقيمون لذلك احتفالا كبيرا، هو نذير باستكمال الفرد لحقوقه المدنية، و اعتباره عضوا عاملا في المجتمع الملثم.[2]

الاحتفالات العامـــة

و من ضمن الاحتفالات العامة أيضا العروض العسكرية التي يقيمها المرابطون سواء أكانت استعدادا لحملة عسكرية، أو خروج ولي الأمر على رأس جنوده إلى معركة من المعارك، و هذا ما يوضحه المراكشي في قوله: " ثم أن يوسف... استعرض جنده على حصن الرقة، فرأى منه ما يسره".[3]كما استعرض حفيده (تاشفين بن علي)عسكره سنة 538هـ/1143م قبل أن يخوض حربه مع الموحدين و هذا ما أشار إليه صاحب "الحلل" في قوله: " و أمر (أي تاشفين) بعرض الجيوش، و سائر الوفود و الجنود، والتمييز عليهم، فميزوا و برزوا، و عجب الناس من كثرة عُددهم و عددهم واحتفالهم في الزينة، حتى زعموا أنهم لم يروا مثل تلك الجيوش حسنا و جمالا، و عدة و كمالا... و ذلك كان آخر جيش احتفل فيه المرابطون".[4]

و تتم تلك الاستعراضات برفع الجند للرايات والأعلام و البنود المختلفة الألوان، مع قرع الطبول،[5] و مما يلحق بتلك المواكب العسكرية، احتفالات النصر بمعركة من المعارك أو ما يعرف "بمراسم النصر" احتفاءا بانتصار جيوشهم وإعلان ذلك للعامة و تتجلى مظاهر تلك الاحتفالات بقرع الطبول في المدن التي يتم فتحها إيذانا بالنصر و إعلانا لسلطانهم عليها و هذا ما نستشفه من وصف "ابن عذارى" لاحتفالات المرابطين بعد الزلاقة حيث يقول: "فركب أمير

---

[1]- الونشريسي: المعيار ج (1) ص 12، و انظر ايضا. ابن قزمان: ديوان ابن فزمان زجل 89.

[2]- حسن احمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص 50.

[3]- عبد الواحد المراكشي: المعجب ص 94.

[4]- مجهول: الحلل الموشية: ص 31، و انظر ايضا ابن عذارى البيان المغرب، القسم الموحدى، ص 19، 20.

[5]- ابن الخطيب: الإحاطة مج I ص 252.

المسلمين، و أحدق به أنجاد خيله ورجاله من صنهاجة ورؤساء القبائل، فعمدوا إلى محلة الأذفونش فاقتحموها ودخولها، وقتلوا حاميتها، و ضربت الطبول، فاهتزت الأرض، و تجاوبت الآفاق".[1]و من مظاهر الاحتفال أيضا إقامة صلاة الشكر و إخراج الناس الصدقات، و عتق الرقاب شكرا لله تعالى على صنيعه الجميل و فضله.[2]هذا ناهيك عما يقيمونه من احتفالات خصوصا إذا ما كان القتيل قائدا، وحسبنا أن ما أقدم عليه المرابطين عقب النصر الذي أحرزه "ينتان بن علي" [3]سنة 524 هـ/ 1129م على الروم يتضح جليا من قول: "ابن عذارى" و سيق رأس زعيمهم غشتون (Gaston Del Bearne) إلى أغرناطة...فنصب على ذروة رمح و طيف به في الأسواق و السكك و شهر بضرب الطبول".[4]

الترويح و التسلية: تعددت طرق التسلية والترويح بين الغناء، والعزف،و الشرب والهوايات والنزهات والألعاب.و تشير المصادر إلى أن المرابطين في بداية دعوتهم قد حاربوا وسائل اللهو، فعندما قدموا إلى المغرب الأقصى، حرص داعيتهم عبد الله بن ياسين على إلغاء كافة وسائل اللهو، و حرق متاجر الخمر و ذلك ما فعله في مدينة سجلماسة و في هذا الصدد يقول ابن أبي زرع: " و أقام بها حتى هدّنها، و أصلح أحوالها و غيّر ما وجد فيها من المنكرات، و قطع المزامير، و أحرق الديار التي كانت بها بيع الخمر".[5]وقد اتبع عبد الله بن ياسين في ذلك التعاليم الدينية التي كان يدعوا إليها بنفسه، إلا أن حدّة تلك الشدة التي ظهرت في بداية أيام الدولة أخذت تخف، بعد ذلك، وصارت هناك بعض الجواري اللائي يحسنّ الغناء، من ضمن الهدايا التي أهداها يوسف بن تاشفين إلى المعتمد بن عباد.[6]

و بعد وفاة يوسف بن تاشفين مال المرابطون (في العصر الثاني) إلى ألوان الترف، خصوصا بعد احتكاكهم بالأندلسيين، و اطلاعهم على أساليب الحياة في المدن الأندلسية مما جعلهم

---

[1] –ابن عذاري :البيان المغرب ج (4) ص 117.

[2] – ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص 97.

[3] – هو اصغر أبناء على بن يوسف بن تاشفين و لي على بلنسية بعد وفاة محمد بن يوسف بدر، انظر: ابن عذارى: المصدر السابق، ص 81.

[4] – نفس المصدر و الصفحة.

[5] – ابن أبي زرع: المصدر السابق ص 128.

[6] – المقري: نفح الطيب، مج (4) ص 276.

يتأثرون بحياة الرفاهية و المتعة التي كان يحياها أبناء الأندلس، و بدأنا نسمع عن المجالس التي يحضرها المغنون و الشعراء[1] ، و ليس من المستبعد أن تكون عاصمة الدولة نفسها مليئة بالأدباء و الشعراء و المغنين نظرا لما وصلت إليه في آخر الدولة،إذ كانت تعج بعدد كبير من قصور الأمراء و القادة وخدام الدولة[2] ، وعليه قد أصبحت أدوات اللهو و الغناء متوفرة في المدن المغربية وهي في ذلك لا تختلف عن الأندلس، إذ يشير "البيدق"[3] إلى أن الحوانيت في آخر أيام العصر المرابطي "مملوءة دفوفا، و قراقر و مزامير و عيدانا و روطا و أربية و كيتارات، و جميع اللهو".

و الراجح أن انتشار أدوات اللهو في العصر المرابطي وميل المجتمع المرابطي إلى اللهو، و ألوان الترف خصوصا في أواخر أيامهم يعود أساسا إلى احتكاكهم بالأندلسيين واطلاعهم على أساليب الحياة في المدن الأندلسية فتأثروا بحياة الرفاهية و المتعة التي يحياها أبناء الأندلس، بالرغم من أن فقهاء المرابطين كانوا يقاومون مثل هذا التوجه بحكم دورهم الديني في الوعظ و الإرشاد، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، لكن مثل تلك الحملات لم تؤثر في الناس إذ ظلوا مقبلين على الغناء و الطرب و اللهو و أصبحت سيرة عندهم.[4]

و بالرغم من نقص المعلومات عن وسائل الترويح و التسلية و اللهو البريء في العصر المرابطي إلا انه يمكننا إجراء قياس على وسائل التسلية و الترويح في العالم الإسلامي المعروفة آنذاك إذ لا يوجد شعب على هذه المعمورة لا يستمتع أفراده بأوقات فراغهم بوسائل التسلية المختلفة وذلك ترويحا عن أنفسهم من عناء العمل، و تجديدا للنشاط، و بعثا للحيوية و القوة.

سبــــاق الخيل:

يعتبر سباق الخيل من بين أنواع وسائل الترفيه المنتشرة في ربوع العالم الإسلامي فكان له ذكر في الجاهلية و استمر في الفترة الإسلامية ،و عليه فإن المجتمع المرابطي لا يختلف عن غيره من

---

[1]- ابن عذارى: البيان المغرب ج (4) ص 57.
[2] -الإدريسي: صفة المغرب ص 68.
[3]- أخبار المهدي بن تومرت ص 23، 24.
[4]- نفسه ص 22.

المجتمعات الإسلامية بحيث أولى خاصته وعامته عناية فائقة لتربية الخيل و تجهيزه بعد خروجهم من الصحراء –التي يغلب عليها تربية الإبل-.و لعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه أن الخيل كانت من ضمن الهدايا التي أهداها يوسف بن تاشفين إلى الأمير أبي بكر بن عمر، وفى هذا يقول ابن عذارى" شرع يوسف في توجيهه الهدية المذكورة، و ذلك خمسة و عشرون ألف دينار من الذهب و سبعون فرسا منها خمسة و عشرون مجهزة بفاخر الجهازات".[1]

و يتضح لنا من بعض الإشارات التي وردت في المصادر اهتمام الأمراء المرابطون أنفسهم بالخيل و ركوبه، وحسبنا في ذلك أن الأمير تاشفين بن علي كانت نهايته من على فرسه المسماة عنده ريحانة المشهورة بالسّبق، بعد أن هوت به من على حافة،[2] بالرغم من أنه كان فارسا بارعا يهوي ركوب الخيل، و هذا ما نستشفه من قول ابن خلكان[3]: "فخرج تاشفين راكبا فرسه، وشد الركض عليه ليبث الفرس النار و ينجوا".و يبدو أن هواية الفروسية (سباق الخيل) لم تقتصر على الخاصة فحسب بل تعدته إلى عامة المجتمع حيث تشير المصادر المعاصرة لفترة الدراسة إلى استخدام الخيل في مطاردة طيور النعام[4] و هذا ما يتطلب مهارة و خفّة كبيرة.

و إلى جانب الفروسية كانت هواية الصيد تستهوي المغاربة و الأندلسيين خصوصا، و أن طبيعة المنطقتين معروفة بتنوع حيواناتها و طيورها كالغزلان و الأيائل و الأرانب البرية و الشواهين و البزاة و غير ذلك من الحيوانات و الطيور،[5] و عليه كان الخاصة يجدون في الصيد متعة لهم و وسيلة من وسائل اللهو، فكانوا يخرجون في نزهات لصيد طير الباز و خاصة حول لشبونة و في جبال الشرق و الجزائر الشرقية.[6]

---

[1]- البيان المغرب ج (4) ص 26.
[2]-البيدق: أخبار المهدي بن تومرت ص 59 و انظر أيضا: مجهول: الحلل الموشية ص 133.
[3]- وفيات الأعيان مج (5) ص 483.
[4]- الإدريسي: صفة المغرب ص 71.
[5]- ابن الخطيب: نفح الطيب مج (1) ص 168.
[6]- هنري بريس،: الشعر الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، ترجمة الطاهر احمد مكي، دار المعارف،القاهرة ، 1988 ص ص 307-308.

و الراجح أن هواية الصيد لم تقتصر على الخاصة بل شملت العامة، و قد خصّنا "الإدريسي" المعاصر لفترة الدراسة بنصوص في غاية الأهمية يتحدث فيها عن الطرق المتبعة في صيد الأسود وطيور النعام، فيشير إلى أن سكان وادي أم الربيع و ضواحيه كانوا يتميزون عن غيرهم في صيد الأسود فيقول: "غير أن أهل تلك النواحي لا يهابونها، و قد تمهروا في مقاتلتها بأنفسهم من غير سلاح ،و إنما يلقونها بأنفسهم عراة، يلقون أكسيتهم على أذرعهم، و يمسكون معهم قتات من شوك السدر و سكاكينهم بأيديهم لا غير، و قد لقيت الأسود منهم هناك نكايات، فلا مهابة بذلك لها عندهم بل تخاف ضرهم و تتجنب طرقهم ".[1]

وفي نفس السياق تشير إلى صيدها من قرية تسمى "ايكسيس[2]" و كان هواة الصيد عادة ما يخرجون في أيام العطل كالجمعة، و هذا ما نستشفه من قول الإدريسي: "و كانت القرية المسماة "ايكسيس" متخذ لصيد الأسود حتى ربما صيد منها في الجمعة الثلاثة و الأربعة و الأكثر من ذلك و الأقل، و الأسود تفر من النار إذا رأتها و لا سبيل لها على صاحب النار".[3]في حين يتم صيد طيور النعام في الفحص الطويل الواقع قبالة "أنقال"[4] التي تتخذها مرتعا لها بالآلاف، وسكان تلك المناطق "يصيدونها طردا بالخيل فيقبضون منها، جملا كبار و صغارا".[5]

و لم تقتصر وسائل الترويح و التسلية على سباق الخيل و الصيد فحسب بل تعدّته إلى ألعاب أخرى "كالشطرنج" و "النرد" و" القرق"[6] و الأزلام، و قد نهى رجال الحسبة على لعبها لأنها تشغل عن الفرض، و يحرم لعبها أساسا على سبيل القمار[7].

---

[1]- صفة المغرب ص 71.

[2]- قرية تبعد عن مدينة سلا بمرحلة، انظر:الادريسي: نفس المصدر ص 72.

[3]- نفس المصدر و الصفحة.

[4]- أو أنكال قرية بأرض المغرب بالقرب من وادي الربيع و تسمى أيضا بدار المرابطين، انظر الحميري: الروض العطار ص35.

[5]- الإدريسي: المصدر السابق ص 71، الحميري: نفس المصدر و الصفحة.

[6]- القرق بكسر القاف، لعبة يلعب بها أهل الحجاز، و هو خط مربع في وسطه خط مربع، و في وسطه خط مربع، ثم يخط يخط من كل زاوية من الخط الأول إلى الخط الثالث، و بين كل زاويتين خط، فيصير أربعة و عشرين خطا، انظر ابن منظور: لسان العرب مج (10) ص 387.

[7]- ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب ص 53.

و للترويح عن النفس اعتاد الناس على الخروج إلى المنتزهات و ارتياد الحدائق، فالترهات إلى الرياض و البساتين مألوفة في كل مكان و زمان خاصة و أن المغرب و الأندلس كان مملوءا بمواضع الترهات حول المدن في الأماكن ذات الخضرة و النّظارة فكانت تلك الأرباض حول الأنهار العظيمة، كالوادي الكبير،و أم الربيع و تنسيفت و أبي رقراق، هي المتنفس للناس، و وسيلة للترويح، و تغيير أجواء المدينة و المترل.[1]

الموسيقى و الغناء

ومن أساليب الترويح عن النفس و التسلية أيضا، الموسيقى و الغناء، مع أن فقهاء المرابطين كانوا يكرهون سماع المغاني، و كتبوا في ذمه على اعتبار أنّ المتّبع لسبيله يؤدي به إلى الانحراف و المفاسد[2] إلا أن معظم الناس من الخاصة و العامة و منهم بعض العلماء و الفقهاء كانوا يميلون رغم ذلك إلى سماع المغاني كلون من ألوان التسلية،[3] و شغل الأوقات الفراغ، و يعد الأندلس مجالا خصبا للمعنيين و المغنيات فكانت قصصهم أكثر من أن تحصى، و قد اشتهرت اشبيلية باحتضان الغناء الأندلسي خاصة، و تعدّ شهادة المقري مثالا صادقا على ذلك حيث يقول: "و إن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية".[4]

ومما لا مجال للشك فيه أن لأبي بكر بن باجة الفيلسوف دورا في تطوير الموسيقى الأندلسية حيث أولى اهتماما بالنواحي الموسيقية عامة، و بالموشح خاصة، يجعلنا نقدر دوره في تطوير الموسيقى الأندلسية يشبه دور زرياب، لأنه كان ذا معرفة بالأصول الموسيقية، و ثانيه لأنه درب تلامذه مشهورين نذكر منهم: أبو عامر بن الحمارة الغرناطي، الذي برع في علم الألحان و نظم الشعر و يصنع عود الغناء بيده و يلحن ما ينظمه، و منهم اليهودي إسحاق بن شمعون القرطبي أحد عجائب الزمان في الاقتدار على الألحان، حيث كان يغني و يعزف بالعود.

---

[1]- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم تحقيق غازي طليمات ،نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي،دمشق 1980ص 159.

[2]- ابن الحاج: المدخل مج II ج 1 ص 114.

[3]- انظر ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ،طبعة الفحامية مصر، 1351 ص 49.

[4]- المقري: نفح الطيب، مج 1 ص 155.

وثالثا لأنه من الناحية العلمية كان يقوم بنظم الشعر و الموشحات و بتلحين هذين الفنين، أما في الشعر فنحن نعلم أنه نظم في رثاء صاحبه أبي بكر بن تيفلويت(والي سرقسطة) قصائد و غنى بها في ألحان مبكية.و أما في الموشح فقد ورد في المصادر بأنه نظم موشحا في مدح ابن تيفلويت أيضا، ثم لحنه و ألقى اللحن على إحدى القيان لتغنيه.[1]

مما سبق يتضح لنا أن الخاصة و العامة كانوا يقبلون على مجالس الغناء و اللهو لدرجة أن حريتهم اقتربت من الفوضى في بعض الأحيان و حسبنا أن الصورة التي أمدنا بها "البيدق"- مع الأخذ بها بنوع من الحيطة و الحذر- وعايشها بنفسه مع المهدي بن تومرت و أحد رفقائه في القرية المعروفة باسم "قلال"،[2] و التي يروى فيها سماعهم صراخ الرجال والنساء فخرجوا لنهيهم عن ذلك، فلم ينتهوا، وكان ردهم عليهم أن تلك سيرة عندهم، فلما ألحوا عليهم أمروهم بالخروج و إلا نكل بهم، فما كان عليهم إلا الخروج.[3]والملاحظ أن ظاهرة اللهو و المبالغة فيه عمت حتى أفراحهم و هذا ما نستشفه من قول البيدق: "لما دخل ابن توترت إلى تلمسان وجد بها عروسا تزف لبعلها، و هي راكبة على سرج، و اللهو و المنكر أمامها".[4]

من الشهادة السابقة نصل إلى نتيجة مفادها أنه وبالرّغم من نهي الفقهاء عن اللهو الماجن، وحرص رجال الحسبة على محاربته كأن تصطحب مواكب الأعراس بالحرس، لحراستها من العربدة خصوصا إذا كان العرس خارج المدينة، إلا أن ذلك لم يمنع اللهو و المنكرات في داخل المدن نفسها و ربّما أن ما يحدث يقع أمام مرأى القضاة، ورجال الحسبة أنفسهم خصوصا في أواخر الدولة، و ما عرس مدينة تلمسان إلا عيّنة على ذلك.

---

[1]- إحسان عباس: أخبار الغناء و المغنين في الأندلس نشر ضمن بحوث دراسات في الأدب و التاريخ مج II درا الغرب الإسلامي ط I بيروت 2000، ص 300 - 301

[2]- هي القرية المعروفة اليوم بعين بوقلال الواقعة بتراب قبيلة مكناس على الطريق الرابط بين تازة و اكنول، انظر: البيدق: أخبار المهدي ص 22 هامش 21.

[3]- نفس المصدر و الصفحة

[4]- نفسه ص 20.

القيـــم الســـائدة في المجتـــمع المرابطي

يقصد بالقّيم بعض أشكال السلوك و القواعد الأخلاقية التي وجهت مشاعر الناس و تصرفاتهم و اختياراتهم و حددت مواقفهم في بعض أمور الحياة، و نظمت علاقتهم بالواقع و بالآخرين،و مما لا جدال فيه أن البيئة حددت مجموعة من القيم كما أن الوضع الاقتصادي صقلها و أعطاها وجهها الحقيقي ، وإن كان من الصعب بمكان الإلمام بكل القيم السائدة في المجتمع المرابطي ،إلا أننا سوف نحاول إبراز البعض منها كالكرم ،و النظافة، و التمسك بالجماعة و حب العمل.

الــكرم: يعد الكرم من السمات السائدة في المجتمع المرابطي،وليس من المستبعد أن يكون ذلك مرتبطا أساسا بطبيعة المجتمع الصحراوي الذي يعد عصب الدولة المرابطية و هذا على تعبير "ابن خلدون"[1] الذي يرى أن أهل البدو أقرب إلى الخير و على هذا الأساس نجد "الحضرمي"[2] فقيه المرابطين اعتبر "الجود ساتر للعيوب، غارس للمحبة في القلوب."

ومن هذا الباب نجد أفراد المجتمع قد دأبوا على الكرم و التسابق فيما بينهم على فعله،و عليه فقد نال الضيف حقه في الإكرام و الإيثار لدرجة أن اضطر البعض منهم إلى بيع أثاثهم أو رهن بعض الأشياء من أجل إطعام الضيف و حسبنا في ذلك ما أورده "ابن الزيات"[3]من أن رجلا باع سريره و أنفقه على ضيوفه ، وأن آخر رهن غزل امرأته في سمن يأتدم به ضيفه[4]،كما أن بعضهم اشترى أضحية ثم تصدق بها رغم فقره.[5]

النظـــافـــة: تعد النظافة من القيم السائدة في المجتمع المرابطي حيث حرص أفراد المجتمع على نظافة محيطهم و أجسادهم،وقد أمدتنا المصادر المعاصرة لفترة الدراسة بمعلومات في غاية الأهمية توضح مدى حرص هؤلاء على النظافة، فبالنسبة لنظافة المحيط أفرد "ابن عبدون" في رسالته

---

[1]- المقدمة ص 132

[2]- كتاب الإشارة في تدبير الإمارة ص 209

[3]- التشوف، ص 191

[4]- نفس المصدر، ص 96

[5]- نفس المصدر، ص 222

ضمن الفصل المتعلق بالمباني وإصلاح الطرق والسروب والمزابل وإماطة ما فيه ضرر للمسلمين معلومات طيبة عن ذلك حيث أمر أهل الأرباض بحمايتها من طرح الأزبال و القاذورات فيها[1] كما أمر بإصلاح الأماكن التي تتجمع فيها المياه و الطين لما فيها من أذى للناس[2]،و حث كل فرد من أفراد المجتمع على نظافة فناء داره و حمايته،مع حرص على إصلاح القنوات التي تتسرب منها الأوساخ،وهذا لقطع الضرر عن الناس خصوصا زمن الصيف،لما لهذا الفصل من خصوصية في سرعة انتشار الأوبئة.كما أمر بأن لا يطرح شيء من الأزبال داخل المدينة،وألا تنقى الكنف إلا خارج الأبواب في الفدادين أو الجنات،أو الأماكن المعدة خصيصا لذلك،وأكد على أهل الأرباض أن يلتزموا بتنقية ما اجتمع عندهم من زبل،وأن لا يترك مجتمعا بين أظهرهم،و أجبر باعة الحشو و الدوم،و كل ماله زبل أن يحرصوا على نظافة مواضعهم، وأن لا يجلسوا أو يبيعوا سلعهم إلا في أماكن نظيفة.[3]كما حرص أفراد المجتمع المرابطي بمختلف طبقاته على نظافة أجسادهم و ملابسهم ،و الظهور بمظهر لائق،و هو ما يفهم من الإشارات التي أوردتها المصادر المعاصرة لفترة الدراسة فيشير "الإدريسي" مثلا في حديثة عن أهل السوس بأن شعورهم كثيفة إلا أنهم كانوا جد حريصين على حفظها و نظافتها،فكانوا يصبغونها في كل جمعة بالحناء،و يغسلونها في كل جمعة مرتين برقيق البيض و بالطين الأندلسي.[4]

أما أهل الأندلس فكانوا أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون، وما يفرشون،و غير ذلك بما يتعلق بهم ، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائما و يبتاع صابونا يغسل به ثيابه ،و لا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها[5].كما صور لنا "ابن قزمان" في أزجاله مدى حرصه على نظافة جسمه و الظهور بمظهر أنيق في لباسه رغم ضيق حاله[6].و لعل ما يزيد

---

[1]- ابن عبدون :رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص37

[2]- نفس المصدر ص 37

[3]- نفس المصدر و الصفحة

[4]- الإدريسي: صفة المغرب ص 62

[5]- المقري:نفح الطيب مج(1)ص 223

[6]- يقول ابن قزمان :في زجل رقم 68

من شان العاشق أن يرجع ظريف قميصا أبيض وقرقا نظيف

ورأسا مغسولا و روحا خفيف فأوحش ما عندي عاشق مزيلي

في تأكيد حرص أفراد المجتمع المرابطي على نظافة أجسامهم أن ذلك يرتبط ارتباطا كليا بما أنجزوه من حمامات في مختلف أنحاء الدولة سواء قي المغرب أو في الأندلس ،و ما حرص رجال الحسبة لما يجب أن تكون عليه صهاريج الحمامات ،و ما يجب أن يتحلى به المستخدمون فيها إلا تأكيدا على ارتباط عضوي بها[1].

الفرد و الجمـــاعـــة

من القيم السائدة في المجتمع المرابطي الدعوة إلى التمسك بالجماعة و الحث على عدم الخروج عن دائرتها و هذا ما صورته لنا أمثالهم كقولهم: "مت مع الناس و لا تعش وحدك"[2]. و منها ما صور قوة الجماعة و خضوع الفرد لأحكامها، و يدخل أيضا في ذلك الأمثال التي تدعوا إلى التعاون، إلا أن هذا لم يمنع وجود النزعة الفردية و السلوك الأناني و هذا ما بينته بعض الأمثال[3]

الحث على العمل

يعتبر العمل و الحرص عليه من القيم السائدة لدى أفراد المجتمع المرابطي خصوصا و أن الشريعة الإسلامية حثت عن العمل و السعي إليه و ذمت الكسل و العجز،و تطبيقا لمبادئ الشريعة الإسلامية نجد أفراد المجتمع المرابطي كانوا يسعون إلى العمل للعيش من أيديهم و هذا ما نستشفه من معظم المصادر التي عاصرت فترة الدراسة [4] ،و ما تأكيد "المقري" على أن الطريقة المتبعة للتسول في الأسواق و الأماكن العامة مذمومة في المجتمع خصوصا منها المجتمع الأندلسي لدرجة أنهم إذا رأوا شخصا قادرا على العمل يتسول سبوه و أهانوه ،فضلا عن أن يحسنوا عليه[5].كما أكدت أمثال العامة الحث عن العمل و السعي إليه و هذا ما يفهم من بعض أمثالهم

[1]- ابن عبدون :رسالة في آداب الحسبة ص 48

[2]- عبد العزيز الأهواني :أمثال العامة في الأندلس ص 355 مثل(ا بن عاصم) رقم 750

[3]- انظر عن ذلك مثلا قولهم :ليس يدري أحد ،بحبس احد .انظر محمد بنشريفة :تاريخ الأمثال و الأزجال ج(1) ص 335 مثل رقم 1619

[4] -انظر عن ذلك مثلا :ابن الزيات: التشوف ص 238 ، 239

[5]-المقري :نفح الطيب مج (1) ص 220

مثل قولهم : " اخدم باطل و لا تجلس عاطل" [1] ."الجلوس بال شغل يحمق "[2]، "من حب لل يرقص الليل كل"[3].كما عبرت بعض الأمثال على مداومة العمل و المواظبة عليه مثل قولهم: من واظب الرحا يطحن[4]،"و حثت الأمثال على عدم تأجيل العمل إلى وقت آخر حيث قالوا :من خلا شغل اليوم لغدا ،ما يفلح أبدا[5]و خلصت الأمثال إلى أن الراحة تأتي بعد التعب و في هذا المعنى كقول قرّ قول من سعا[6]

الآفات الاجتماعية

التـــسول :يربط بعض الباحثين ظاهرة التسول بالطبقات الدنيا من المجتمع نظرا لما طرأ من تحولات اقتصادية و اجتماعية على المجتمع المرابطي و استفحال الفوارق الطبقية،و ازدياد حركة البذخ و الترف خاصة في العهد الثاني من عصر الدولة ،و ما نتج عنه من غلاء فاحش[7].غير أننا نستبعد هذا الرأي.و نرى أن ما ذهب إليه "ابن خلدون"[8].أقرب إلى الصواب حيث ربط بين ظاهرة الفاقة و السؤال أساسا بعمران المدن،فأهل الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر و الخصاصة،لكون أعمالهم لا تفي بضرورتهم،و هم لذلك مساكين محاويج ،في حين ما كان عمرانه من الأمصار أكثر و أوفر كان حال أهله في الترف أبلغ من حال المصر التي دونه.

ولدراسة ظاهرة التسول خلال العهد المرابطي،فإن ذلك يستدعي العودة إلى كتب المناقب و التصوف والحسبة التي تضمنت أخبارهم وبتجميع المعلومات المتناثرة بين ثناياها اتضح لنا أن أعدادهم كان في تزايد مع مرور الزمن لدرجة أنهم أثاروا انتباه "ابن عبدون" – المعاصر لفترة الدراسة — الذي لاحظ أن المتسولين كانوا يستغلون المناسبات و الأعياد الدينية و أيام الجمعة

---

[1]- عبد العزيز الأهواني :أمثال العامة ص 314.مثل (ابن عاصم) رقم 225

[2] -نفسه ص 310 مثل عاصم رقم (172)

[3]- محمد بنشريفة : تاريخ الأمثال و الأزجال ص 332

[4]- عبد العزيز الأهواني :المرجع السابق ص 350 مثل(ابن عاصم)رقم688

[5]- محمد بنشريفة: المرجع السابق ص 333 مثل رقم 1456

[6]- عبد العزيز الاهواني:المرجع السابق، مثل (ابن عاصم) رقم 563

[7]- ابراهيم القادري بوتشيش :مباحث في التاريخ الاجتماعي ص 189

[8]- المقدمة ص 385

للدخول إلى رحاب المساجد استدرار لعطف المصلين[1]،ونظرا لكون المساجد أماكن مخصصة للعبادة،وما كان في سؤال المتسولين من إحراج للمصلين رأى منعهم من فعل ذلك، وطلب من القائمين على المساجد و المؤذنين " أن لا يترك ساع في رحاب الجامع".[2]

ولعل ما يؤكد تفضيل المتسولين للمساجد ما يفهم من النص الذي أورده" ابن الزيات[3]" أن من عادة المتسولين اتخاذ ساحة مسجد "علي بن يوسف" بمراكش" مكانا لتجمعهم. وإلى جانب المساجد كان المتسولون يستغلون أماكن تجمع الناس كالأسواق و الطرقات[4] ويقومون بإنشاد مقاطع من الأغنيات الشعبية أو الزجل كسبا لعطف ورحمة المارة ،و هذا ما كان معمولا به في الأندلس[5].ومنهم من يلجأ إلى طرق أبواب المنازل و السؤال عن حاجتهم[6]. ولاستدرار عطف عطف الناس كان المتسولون يتّبعون أساليب مختلفة كالانزواء و الانقطاع في المساجد رجاء الصدقة و الإحسان[7] و استغلال أيام المواسم و الأعياد، و هذا ما شاهده "ابن خلدون" بأم عينه عينه في مدينة فاس حيث يقول:"ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم"[8].وللفت انتباه الناس وكسب عطفهم منهم من كانوا يتخبطون في الأسواق و يوهمون الناس أنهم صرع، ومنهم من يظهر الأورام و القروح البشعة، ومن يتعلق مصرانه من جنبه و الذي يصيح بوجع الحصا، و منهم من يظهر أنه مقعد، و الذين يقرحون أيديهم و يوهمون الناس أن ذلك كله بلاء نزل بهم، وهم يكذبون ،و ذلك كله منهم حيل لأخذ أموال الناس بالباطل[9].

---

[1]- ابن عبدون : رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص 24 و انظر أيضا : البرزلي: فتاوى البرزلي ،ج (1) ص 359

[2]-نفس المصدر و الصفحة.

[3]- كتاب التشوف، ص199.

[4]- ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة و المحتسب،ص109.

[5]- انخل جنثالت بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة حسين مؤنس مكتبة النهضة، القاهرة 1955،ص160.

[6]- التميمي الفاسي: المستفاد من مناقب العباد بمدينة فاس و مايليها من البلاد ق2 ، تحقيق د.محمد الشريف منشور كلية الآداب و العلوم الإنسانية بتطوان، ط(1) ، 2002،ص53

[7]- إبراهيم القادري بوتشيش: الإسلام السري في المغرب،ص385،

[8]- المقدمة،ص 385.

[9]- ابن عبد الرؤوف:المصدر السابق ،ص219.

ولعل ما يؤكد استخدامهم لمختلف الأساليب و الحيل للحصول على مبتغاهم ما أورده " ابن القاضي"[1] من أن رجلا محتالا جاء إلى" أبي عبد الله التاودي"- أحد المتصوفة- فقال له: رأيت النبي "ص" في المنام فقال لي: اذهب إلى عبد الله و مره أن يدفع لك أثوابه فما كان على أبي عبد الله أن قال له: اتبعني، فدخل لداره و تجرد من أثوابه و دفعها له من وراء الباب و بقي عريانا.ويشير ابن خلدون"[2]إلى أن المتسولين" بفاس" كانوا يبالغون في سؤالهم بحيث لم يكتفوا بالسؤال عما يسد رمقهم فحسب بل كانوا يسألون أيام الأضاحي أثمان أضاحيهم،والسؤال عن كثير من أحوال الترف،واقتراح المأكل مثل سؤال اللحم،والسمن، والملابس والماعون، كالغربال و الآنية.وهم بذلك يختلفون عن المتسولين في مدينتي تلمسان،ووهران.حيث يذكر ابن خلدون "أن المتسولين لو سألوا هذا السؤال بتلمسان ووهران لاستنكر ذلك وعنّفوا وزجروا"[3].غير أن ذلك لم يمنع تنامي وتفشي ظاهرة التسول في العهد المرابطي سواء في المغرب أو في الأندلس.

ففي المغرب كان يتواجدون خاصة في المدن الكبرى مثل فاس و مراكش وتلمسان ووهران وغيرها[4].أما في الأندلس فيبدوا أنهم كانوا منتشرين في مختلف أنحائه وإلا لما أشارت إليهم العامة العامة في أمثالهم.[5]وللقضاء على تلك الظاهرة و المندسين من بعض الأشخاص الذين كانوا يتخذون من ظاهرة التسوّل-حرفة لهم- عمل رجال الحسبة على محاربتهم، و معاقبة كل من يلجأ إلى تلك الحيل و الأساليب[6].و لم تقتصر محاربة تلك الظواهر على أعوان الدولة فحسب بل بل تعدته لتشمل كافة أفراد المجتمع و هذا ما نستشفه مما يرويه "المقرى" نقلا عن" ابن سعيد" من أن الأندلسيين كانوا يستقبحون ظاهرة التسول، وعملوا على محاربتها خاصة إذا كان المتسول قادرا على العمل حيث يقول: "إذا رأوا-الأندلسيين-شخصا صحيحا قادرا على الخدمة

---

[1]- جذوة الاقتباس،ق1،ص 219.

[2]- المقدمة، ص385.

[3]- نفس المصدر و الصفحة.

[4]- نفس المصدر و الصفحة.

[5]- انظر عن ذلك مثلا قولهم:" بحال من سعا و اهترق ل.انظر: عبد العزيز الأهواني: أمثال العامة في الأندلس،ص318.مثل (ابن عاصم) رقم 277.

[6]- ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة و المحتسب،ص109.

يطلب سواه سبّوه، وأهانوه، فضلا عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد في الأندلس سائلا إلا أن يكون صاحب عذر"[1]

مما سبق يتضح لنا أن الناس كانت تحتاط من بعض المتسولين خاصة من الذين اتخذوها حرفة لهم لأكل أموال الناس بالباطل و ما تأكيد رجال الحسبة على معاقبة كل من يلجأ إلى تلك الحيل و الأساليب و استقباح الأندلسيين للتسول و إنزال أنواع الشتائم و الإهانات على القادرين على العمل بدل الصدقة عليهم دليلا على حرصهم وحيطتهم من المدمنين على تلك الظاهرة.ومهما يكن من أمر يبدوا لنا من خلال بعض مصادر الفترة أن المتسولين وجدوا في المتصوفة خير معين لهم خصوصا وأن العصر المرابطي غلب عليه طابع التصوف و حسبنا في ذلك ما أقدم عليه"عبد الله التادلي"من إيثاره للسائل الذي سأله،فوصل به الحد أن تصدّق له بلباسه حتى أنه لم يجد ما يستر به نفسه[2].

ومن القرائن الأخرى التي تعكس ما حضي به المتسولين من عطف المتصوفة أن المتصوف " يحي بن محمد بن عبد الرحمن التادلي" أمر أحد أصدقائه بالصدفة بجزء من القمح الذي يملكه، فلما علم أن الناس قد اشتد بهم الحال، أمر بالتصدّق بجمعيه و لم يبق منه شيئا، بالرغم أنه كان له ابنا ضريرا، فلما سأله أحد أصحابه عن حال ولده، ووجوب ترك شيء له كان جوابه"أن من وثق عند ربه لا يضيع عنده" ومن شدة إيثاره و إحسانه للفقراء و المساكين أنه كان مارا بإحدى الشوارع و خلفه أربعة مساكين، و في يده أوراق من كرنب، فأخرج قدرا من سمن لم يبق له شيء سواه فجعل يخرج السمن و يجعله على ورقة و يدفعها للمساكين، حتى لم يبق منه شيء[3].وتذكر رواية منقبية أخرى أن المتصوف" أبا الحسن علي بن إسماعيل بن حزرهم"كان مارا في بعض الطريق فإذا بسائل يسأل شيئا لله،فنزع الفقيه مئزره من على رأسه ودفعه إلى السائل[4].وفي السياق ذاته أورد" ابن الزيات"[5]في ترجمة أبي شعيب أيوب بن سعيد

---

[1]- المقرى: نفح الطيب، مج(1)،ص220.
[2]- ابن القاضي: جذوة الاقتباس،ق1،ص219.
[3]- نفسه،ق2،ص542.
[4] –التميمي الفاسي: المستفاد،ق2،ص25.
[5]- التشوف إلى رجال التصوف،ص154.

الصنهاجي(ت561هـ/1165م) أن سائلا وقف عليه واشتكى له مرضه وفقره وكثرة عياله،فطلب من أحد مريده أن يحسن إليه،فدفع له ثلاثة دنانير،فانصرف السائل فرحا. وجاء في ترجمة"أبي إسحاق الأندلسي" أن جماعة من أصحابه صنعوا طعاما لعشائهم فإذا بمتسوّلة تقبل عليه،تشكوا ما ألمّ بأبنائها من جوع فآثرها بالطعام المذكور[1].

وعلى العموم فإن ما يمكن استخلاصه من استقرائنا لمصادر الحقبة المرابطية هو رسوخ و ثبات الناس على بعض القيم كالرحمة و الإحسان داخل المجتمع و المعروف في عصرنا "بالتكافل الاجتماعي" و حسبنا أن ما خلفته كتب الفقه و النوازل "كالمعيار" على سبيل المثال لا الحصر من إشارات كثيرة تؤكد حرص المحسنين على الصدقة بجميع أموالهم أو بجزء منها على المعوزين من الفقراء و اليتامى إلا تأكيدا لما ذهبنا إليه[2].هذا ناهيك عما تزخر به كتب النوازل من وصايا يوصى فيها أصحابها بأموالهم للفقراء و المساكين[3]. ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو: هل وجدت شريحة المتسولين تكفل من طرف الدولة أم لا؟

إن الإجابة على هذا التساؤل يتطلب العودة إلى الأيام الأولى لقيام الدولة و الشعار الذي اتخذته و المتمثل في الحكم بكتاب الله و سنة رسوله، و إقامة العدل بين الناس[4]. و مما لاشك فيه أن هذا الشعار يحمل دلالات كثيرة و من بينها المساواة بين الناس في الحقوق و الواجبات، وهذا لا يتعارض وواقع المجتمع المرابطي خصوصا في العهد الثاني للدولة، التي حدثت فيه تغيرات اجتماعية و اقتصادية نتج عنه تباعد طبقي فزاد الأغنياء غنى و الفقراء فقرا.ولعل ما زاد في تأزم وضعية الطبقة الدنيا و تفشي الفاقة و الفقر بينهم وزاده تجدر أكثر ظهور فئة عاجزة عن تحصيل عيشها ناقمة عن الأوضاع، ومتمردة على شروط الحياة الجديدة.

السرقــة: شكل الدعرة أو ما يعرف بقطاع الطرق في العصر المرابطي شريحة أساسية من الشرائح المهمشة، ويرجع أحد المؤرخين المحدثين ظاهرة انتشار اللصوصية في العصر المرابطي إلى التمايز الاجتماعي الذي أفرزته مرحلة الحضارة و الترف فنجم عنها ظهور فئة عاجزة عن

---

[1] – ابن الزيات : التشوف إلى رجال التصوف ، ص151-152.

[2]– انظر عن ذلك مثلا: الونشريسي: المعيار،ج(2)،ص212،ج(7)،ص76،105

[3] –الونشريسي: نفسه،ج(9)،ص ص268،354،485،496،ج(10)،ص301.

[4]– البكري: كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ،ص164.

تحصيل عيشها ناقمة عن الأوضاع، و متمردة على شروط الحياة الجديدة، فاتخذت من اللصوصية سبيلا لها[1]ومن مصادر المعاصرة لفترة الدراسة يتجلى لنا تنامي ظاهرة السرقة و كثرة قطاع الطرق سواء في المغرب أو في الأندلس و حسبنا أن الموضوع الذي بنيت فيه عاصمة المرابطين-مراكش- كانت مأوى للصوص و هذا إذا صدقنا الرواية التي أوردها "ياقوت الحموي" بخصوص كلمة "مراكش" و التي تعني -بالبربرية-(أسرع المشي)لأن موضع مراكش كان قبل ذلك مخافة يعتدي فيه اللصوص على القوافل ، فكانت هذه الأخيرة إذا انتهت إليه قالوا مراكش حتى لا يعترض سبيلها قطاع الطرق.[2]

و لم يكن الأندلس أحسن حالا من المغرب و هو ما يفهم من قول "ابن الخطيب" حيث أشار إلى كثرة "التعدي في الطرق و الدوائر في السّبل و الفتك بالرفاق"[3] وكان اللصوص -قطاع الطرق- عادة ما يتخذون من الأماكن الخالية كمائن لضحاياهم[4]، بعد تدربهم على طرق الاختلاس[5]، وقد أمدتنا المصادر المعاصرة لفترة الدراسة ببعض أوصافهم وسماتهم حيث أشار "ابن عبدون" إلى أن العلامة التي تميز أهل الشر و الذعر هو الشعر الطويل و حملهم للرماح الطوال[6].وكانت الفئة الأكثر استهدافا من طرف قطاع الطرق و اللصوص هم كبار الملاك من أصحاب الأجنة و الأثرياء و أرباب المواشي[7].وليس معنى هذا أن بقية الفئات الأخرى من عامة الناس بمنئ عن شرهم، وحسبنا في ذلك تلك الحادثة التي أوردها "ابن الزيات" [8] عن أبي حفص حفص عمر بن أبي يعقوب (ت 595هـ-1198م) أنه كان خارجا من داره في اتجاه إحدى مساجد وادي أم الربيع فإذا باللصوص خارج القرية يترقبون من يمر بهم فيجردونه من ثيابهم،

---

[1]- ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي ، ص190.

[2]- ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج5،تحقيق فريد عبد العزيز الجندي،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان د.ت ص111.

[3]- ابن الخطيب:تاريخ اسبانيا الاسلامية أوكتاب أعمال الأعلام، ص249.

[4]- ابن الزيات: التشوف،ص233.

[5]- وهذا ما يفهم من قبل المثل القائل:" آش يضرب السارق على سرقت الّي قلّت درّية." انظر: عبد العزيز الأهواني:أمثال العامة،ص306، مثل(ابن عاصم) رقم 110

[6]- ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب،ص55.

[7] -الونشريسي: المعيار ج(9)،ص11.

[8]- التشوف، ص251 وانظر أمثلة شبيهة نفس المصدر، ص296،344. و انظر أيضا : التميمي: المستفاد ق2،ص122.

فعاينوا كساء أبي حفص وهو أبيض في ظلام الليل غير أنه سبقهم إلى المسجد وأخذوا ينتظرونه عند المسجد، وقالوا إذا خرج علينا أخذناه كساءه.

مما سبق نصل إلى نتيجة مفادها أن اللصوص أو قطاع الطرق كان ضحاياهم تتراوح بين كبار الملاك و الأثرياء، وبين عامة الناس .وقد عملت السلطة المرابطية على قطع شوكة اللصوص حيث أطلقت يد الحرس و العرفاء لتتبعهم، لكن يبدوا أن هؤلاء لم يقوموا بالدور المنوط بهم، وعليه نجد "ابن عبدون" يحثهم على المزيد من العمل، وذلك بأن لا يكتفوا بدورة واحدة في المدينة، بل عليهم القيام بدورات متعددة،ويقوموا بتغيير طريقهم لأن اللصوص والذعرة والطائفين بالليل يترقبون تحركات الحرس، وينطلقون بعد ذلك لطلب الشر و الفجور[1]، كما طالب بقطع عمل الخناجر لأن اللصوص يتخذونها سلاحا لهم.[2]

ونظرا لكون الدولة المرابطية حريصة على أمن مواطنيها، فقد أولى الأمراء المرابطون عناية فائقة لذلك خصوصا مع تنامي ظاهرة السرقة و كثرة قطاع الطرق ، وهذا ما توضحه الرسالة التي أوردها "ابن خاقان" على لسان أحد أمراء المرابطين موجها أمره إلى صاحب المدينة بتعقب قطاع الطرق و الضرب على أيديهم دون شفقة أو رحمة ومما جاء فيها،" أن يذكي العيون على الجناة، وينفي عنها لذيذة السناة، ويفحص عن مكامنهم حتى يغص بالروع نفس أمنهم، فلا يستقر لهم موضع، و لا يقر منهم مخب ولا موضع".[3]ومن الدلائل التي تؤكد عزم السلطة في محاربة اللصوص ما ذكره "ابن القطان" عن"ابن قنونة" الذي كان لا يتهاون في الفتك بقطاع الطرق[4]. ولم تقتصر محاربة قطاع الطرق على الدولة فحسب بل هناك من الشخصيات التي سخّرت نفسها لمحاربة قطاع الطرق، وحسبنا في ذلك "أبو صالح عبد الحليم بن هارون بن سعيد الهسكوري" (ت 593 هـ/1196م) الذي انتدب نفسه لحماية المسافرين من بلد إلى آخر،

---

[1]- ابن عبدون: رسالة: آداب الحسب و المحتسب،ص18.

[2]- نفس المصدر،ص59.

[3]- المقري: أزهار الرياض، ج5،ص101-102.

[4]- ابن القطان: نظم الجمان،ص226.

ونظرا لشهرته في محاربة قطاع الطرق أن اللصوص إذا سمعوا بأنه تقدم رفقة فروا و لم يتعرضوا لها[1].

ورغم الجهود المبذولة من طرف السلطة المرابطية و أفراد من المجتمع إلا أن ذلك لم يضع حدا لظاهرة السرقة، و عليه فقد اضطر الناس إلى تحصين أنفسهم بإصلاح الأسوار و الدروب تحسبا لتحركات اللصوص و الدعرة، و هذا ما بينته بعض النوازل المعاصرة لفترة الدراسة.[2]وما يزيد في تأكيد أثرهم الواضح على المجتمع ما أورده " ابن سعيد" حيث يقول: و لا تكاد في الأندلس تخلو من سماع " دار فلان دخلت البارحة" و "فلان ذبحه اللصوص على فراشة".[3]

ونظرا لانتشار ظاهرة اللصوصية و قطاع الطرق في كل من المغرب و الأندلس رصدت لنا المصادر المعاصرة لفترة الدراسة أسماء بعض قطاع الطرق المشهورين سواء في المغرب أو في الأندلس، وحسبنا في ذلك مثلا قاطع الطريق (مراكش) إن صحت رواية المراكشي[4] ،و قاطع الطريق "أبو يعقوب تصولي" من أرض دكالة الذي كان يرهب الناس قبل إعلان توبته،[5] و الفلكي الأندلسي الذي اشتهر بأنه "فاتكا شهما قاطع سبيل" بالأندلس ، فعفي عنه أمير المسلمين "علي بن يوسف" و استماله إليه و ضمّه إلى عسكره و صيّره من قوّاده، واسند له مهمة بناء سلسلة من الحصون لحماية المنطقة الغربية من مراكش[6]. و الراجح أن خطر قطاع الطرق و اللصوصية قد ازداد خصوصا في أواخر الدولة المرابطية بعد أن عمت الفوضى، و انعدم الأمن في البلاد و عليه فقد لجأت نساء أكابر "لمتونة" و مسوفة إلى استخدام هؤلاء و هذا ما

---

[1]- ابن الزيات: التشوف،ص278.

[2]- أورد ابن الحاج في هذا الخصوص نازلة يقول فيها: " نزل عندنا في بعض الأعوام خوف شديد من كثرة السراق بالليل فذهب بعض الجيران....إلى التحصيل على أنفسهم بإصلاح دروب و بإقامتها...."انظر ابن الحاج: نوازل ابن الحاج و289.

[3]- المقري: نفخ الطيب ،مج(1)،ص219.

[4]- المعجب ص72

[5]- ابن الزيات: المصدر السابق،ص107

[6]- مجهول: الحلل الموشية ص113 وأنظر أيضا: ابن القطان :نظم الجمان ص 132 -133

نستشفه من قول صاحب "المعجب " وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة و مسوفة مشتملة على كل مفسد و شرير و قاطع سبيل"[1]

البغاء(الدعارة)

من المعروف أن المبادئ الأساسية التي قامت عليها الدولة المرابطية هي الحكم بكتاب الله وسنة رسول و محاربة كل ما هو مخالف للشرع[2]، وعليه فقد عملت منذ تأسيسها على تطبيق ذلك، و محاربة كل ماله علاقة ببعض الآفات المتفشية في الوسط الاجتماعي مثل إقامة الحد على الزاني إذا ثبت عليه ذلك. وقد ذهب الزعيم الروحي للدولة المرابطية إلى أبعد من ذلك حتى أنه شد في بعض الأحكام بالنسبة لمريده بخصوص هذا الجانب حيث ذكرى "البكري" المعاصر للمرحلة الأولى من الدولة المرابطية" أن الرجل إذا دخل دعوتهم-الدعوة المرابطية- وأراد التوبة عن سالف ذنوبه، "قالوا له: قد أذنبت ذنوبا كثيرة في شبابك ، فيجب أن يقام عليك حدودها، و تّطهر من إثمها، فيضرب حد الزاني مائة سوط".[3]كان هذا في بداية الدولة غير أنه ومع اتساع رقعة الدولة وضم الأندلس ـــ لسلطة الدولة المرابطية-المعروف بتنوع أجناسه و حياة الترف به أدى ذلك إلى تمايز طبقي فنجم عنه ظهور بعض الآفات الاجتماعية صعب على الدولة التحكم فيها ، ومن بينها ظاهرة البغاء.

ويبدوا أن الدولة المرابطية عملت كل ما في وسعها لمحاربة تلك الآفة غير أنها لم تتحكم فيها، وللتقليل من حدّتها و انتشارها في الوسط الاجتماعي عامة عملت على حصرها في أماكن خاصة بها، و هذا ما يفهم من الإشارة التي أوردها" ابن عبدون" المعاصر لفترة الدراسة الذي يشير إلى تواجد فنادق خاصة بالعاهرات تعرف " بدور الخراج"[4] كن يتخذن منها مكانا لممارسة البغاء تكسبا للعيش غير أن هذه الشريحة كانت تحت مراقبة المحتسب حيث نهى نساء دور الخراج عن الكشف عن رؤوسهن خارج الفندق ، وعدم الظهور بزينتهن أمام باقي النساء،

[1]- المراكشي: المعجب ص126.
[2]- البكري :كتاب المغرب ص164.
[3]- نفس المصدر ص169
[4] -ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب،ص50.

أو السير بينهن، كما نهين على مشاركة باقي النّسوة الأفراح و لو دعين لذلك[1].وليس من المستبعد أن يكون سبب حرص "ابن عبدون" على عزلهن عن بقية النسوة من عامة المجتمع حتى لا يكنّ سببا في إغراء غيرهن من النساء و الإيقاع بهنّ.كما أشار "ابن عبدون" إلى نوع آخر من المومسات اللائي سمّاها الطرّزات ، فمنعهن من الدخول إلى الأسواق، و هذا لشهرتهن بممارسة البغاء[2] ، و نظرا لكثرتهن في وسط المجتمع أثارت انتباه ألسنة العامة فوصفوا بأقبح الأوصاف[3].

وقد أولى رجال الحسبة أهمية كبيرة للحد من تلك الظاهرة فعملوا على مراقبة الأماكن المشتبه فيها كالحمامات[4] و الفنادق[5]،والأجنّة التي اعتادت النسوة الخروج إليها للغسل، و يتخذن منها أوكارا للزنا[6] ،كما شددوا حرصهم على الكنائس خصوصا و أن القسيسين كانوا يعمدون إلى إدخال النساء للمبيت فيها لأجل الزنا معهم، وقد صار ذلك عرفا عندهم خصوصا، وأنهم كانوا يمتنعون عن الزواج[7].

مما سبق نخلص إلى نتيجة مفادها أنه و بالرغم من حرص الدولة المرابطية على محاربة تلك الآفة الاجتماعية إلا أن هذا لم يمنع بروزها في وسط المجتمع المرابطي نتيجة للأسباب السالفة الذكر، أو لبعض الأسباب التي لها علاقة خاصة بحصانة المرأة و الرجل، كالعزوف عن الزواج لغلاء المهور[8]، أو لظاهرة الطلاق المتفشية في المجتمع المرابطي بشكل واضح.

---

[1]- ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص50-51.

[2]- نفس المصدر ص47 و في هذا الصدد يقول :قطع الطرازات عن السوق واجب ،فإنما هي قحا ب

[3]- من الأمثلة التي قيل فيهن قول ابن عاصم :"ري قحبة سكر انه طرفه محلول ووسطه مبلول" انظر عبد العزيز الأهواني : أمثال العامة ص329 مثل(ابن عاصم) رقم 415

[4]- ابن عبدون : المصدر السابق ،ص49.

[5]-نفس المصدر و الصفحة

[6] -نفس المصدر،ص45.

[7]- نفس المصدر،ص48-49.

[8]- عن غلاء المهور التي كانت سببا في عزوف الشباب عن الزواج ما جاء في أمثلة العامة مثل قولهم " ما أطيب العرس لولا لولا النفاقة" انظر عبد العزيز الاهواني: المرجع السابق،ص353 مثل (ابن عاصم) رقم 723، وقولهم أيضا: زوجوه حوّجوه .انظر محمد بنشريفة: تاريخ الأمثال ج1، مثل رقم 1035،ص299 ، وقولهم أيضا: "من زوج حوج".انظر:محمد بن شريفة: نفس المرجع و الصفحة.

الأوبئـــة و طرق معالجـــتـــها

لا يخلو عصر من العصور التاريخية من ظهور الأوبئة و الكوارث الطبيعية، ونظرا لكونها لا تخص أمة دون غيرها، فإن المجتمع المرابطي عان هو الآخر من ويلات تلك الأوبئة و المجاعات و الكوارث، و حتى يتسنى لنا الإلمام بها فإن ذلك يستوجب العودة إلى المصادر المختلفة تاريخية كانت أو جغرافية، أو كتب المناقب و السير و غيرها، وهذا لتناثر المعلومات بين ثنايا تلك المصادر و بتجميعها يمكننا إما طامة اللثام بما ألمّ بالمجتمع المرابطي.

الأوبئـــة (الأمراض):تنوعت الأمراض المنتشرة خلال الحقبة المرابطية سواء في المغرب أو في الأندلس، و من خلال المصادر الجغرافية يمكننا رصد بعض الأمراض المنتشرة في تلك الحقبة ولو أنها مقتضبة و متناثرة إلا أنها تعد إشارات هامة."فالبكري" المعاصر للمرحلة الأولى من عهد الدولة المرابطية أشار إلى داء الحميات و الطحال الذي انتشر بين سكان مدينة أودغشت بشكل مثير، حتى أنه لا يكاد يخلو أحد منهم من إحدى العلتين [1] في حين يشير "الإدريسي" إلى شيوع أمراض العيون بين أهالي "سجلماسة"، حتى أنه قلما يوجد من أهلها صحيح العينين، بل أكثرهم عمش[2] هذا ناهيك عن مرض الجذام الذي ساد بعض المدن المغربية و الأندلسية على السواء "كفاس" [3] ومراكش[4]، وسجلماسة التي كانت أكثر مجذوميها من الكنافين[5]، و في الأندلس كمرسية وهو ما يفهم من النازلة التي أوردها "ابن رشد" حول رجل مجذوم[6].

ونظرا لخطورة المرض و سرعة انتشاره بين الناس، و اتّقاء للعدوى خصصت الدولة حارة للمصابين به خارج المدن، كما هو الحال عليه بمدينة فاس و مراكش[7].غير أن ما يثير الانتباه بالنسبة لمرضى الجذام تلك الإشارة التي أوردها "البكري" و التي يذكر فيها أن سجلماسة " لا

---

[1]- البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب،ص158.

[2]- الإدريسي: صفة المغرب،ص61.

[3]- المقري: أزهار الرياض ج(3)ص86.

[4]- ابن الزيات: التشوف،ص216.

[5]- البكري: المصدر السابق،ص148.

[6]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد، س(2) ص882،883.

[7]- انظر عن ذلك مثلا: المقري: المصدر السابق ج3 ص86، ابن الزيات: المصدر السابق،ص216

يتجذّم من أهلها أحد، وإذا دخلها مجذم توقفت عنه علته" إلا أنه لم يشر إلى أكثر من هذا وما سبب توقف العلة.ويبدوا لنا من خلال المصادر المعاصرة لفترة الدراسة أن مرض الجذام كان متفشيا بكثرة بين أوساط المجتمع المرابطي، وعليه فقد عملت الدولة بكل ما في وسعها للتكفل بهم فخصصت لهم أماكن خاصة بهم.و لم يقتصر ذلك على كاهل الدولة فحسب بل نالت هذه الفئة عطف حتى العامة من الناس لدرجة أن هناك من تصدق بميراثه لهم[1].

وإلى جانب مرض الجذام رصد لنا الجغرافي" مارمول"رغم تأخره عن فترة الدراسة انتشار الحمى الوبائية في أنحاء مختلفة من بلاد المغرب نتيجة تساقط الأمطار خلال شهري جويلية وأوت. [2]كما كان للخلل في النظام الغذائي أن تسبب ذلك في ظهور بعض الأمراض وهذا ما يوضحه لنا ابن خلدون في قوله بأن الأمراض الناتجة عن النظام الغذائي تصيب أهل الحضر أكثر من أهل البوادي ويفسر ذلك بكثرة أكل الصنف الأول ، و تنوع الأغذية لديهم، في حين تكون أطعمة أهل البادية قليلة في الغالب الأعم، وتتميز عادة بندرة إدامها[3]كما كان للإكثار من بعض الفواكه الجافة سببا في حدوث بعض الأمراض، وهو ما حدث للطبيب "ابن زهر أبو مروان بن أبي العلاء" الذي لم يتفطن إلى خطورة تناول التين باستمرار حتى أصابته نغلة بين كتفيه لقي حتفه بسببها[4].

كما انتشرت في تلك الحقبة جملة من أمراض الأطفال كالقروح التي تصيب الرأس ، وداء "الحية" الذي كان يتسبب في سقوط الشعر ،هذا إلى جانب داء "السعفة" و هو عبارة عن قروح تصيب رأس الصبي ووجه[5] ناهيك عن مرض "الخذر" الذي تسبب في وفاة عدد من أعلام فترة الدراسة[6]. و إلى جانب الأمراض السالفة الذكر عرف العهد المرابطي أمراضا أخرى أصابت

---

[1]- انظر عن ذلك مثلا: ابن الزيات: التشوف،ص138.

[2]- إفريقيا ج(1)،ص31.

[3]- ابن خلدون: المقدمة،ص94-95.

[4]- ابن أبي اصيبعة:عيون الأنباء،مج 1 ج3،ص108

[5]- ابن زهر: جامع أسرار الطب مخ، الخزانة العامة للوثائق و المخطوطات الرباط ضمن مجموع رقم 532، ورقة17، 19،20، 36.

[6]- انظر عن ذلك مثلا ترجمة على عبد الله المتيطي الأنصاري: ابن القاضي: جذوه الاقتباس قسم 2،ص481.

أكثرية السكان كالطاعون وداء الجرب[1] و البرص[2] و الفالجية و الصداع و الشقيقة و البرسام وهو مرض يصيب الرأس و الطفرة- التي هي عبارة عن لحم عصبي ينبت في اماق العين و القلاع، و السلاق التي تعم الفم و اللسان، و الذبحة التي اعتبرت آنذاك أخطر الأمراض، و السعال، وسدد الكبد[3]، ومرض الفواق الذي توفي به أحد القضاة حسبما يذكر "ابالإسهال[4]،و الأمراض الجلدية[5]،وداء البطن[6] و"الرتق"[7] و "العقم"[8] ناهيك عن بعض الأمراض الأخرى "كالصرع" و و "الجنون"[9] .

طــرق العــلاج

تعددت أساليب العلاج في العهد المرابطي غير أنه يمكننا حصرها في ثلاث أوجه هي :العلاج الطبي ،و العلاج الطبيعي ،و العلاج الروحاني

أ-العلاج الطبي يعتبر الطب العربي بشهادة الدارسين المنصفين معلمة بارزة في تاريخ التجربة الطبية الإنسانية ، وقد ساهم الغرب الإسلامي مساهمة محترمة في النهوض بحركة الطب .خاصة و أن هؤلاء نالوا حظوة كبيرة لدى الأمراء المرابطين و عمالهم ،[10] و هذا ما شجعهم على قضاء حياتهم في العلاج و تدريس الطب، و تمدنا المصادر بعدد من الأطباء الذين نالوا شهرة عالمية آنذاك نذكر منهم على سبيل المثال "ابن باجة،"و ابن رشد" الذي لم تكن شهرته في الشرق و الغرب قائمة على شرحه "لأرسطو" أو على "تهافت التهافت" فحسب ،إنما قامت شهرته على

[1]- ابن قزمان: ديوان ابن قزمان،ص74.

[2]- ابن الزيات :التشوف ص217-218 .

[3] -انظر عن هذه الأمراض ابن زهر: جامع أسرار الطب ، ورقة 39،44،47،48،90،91.

[4]- ابن عبد الملك: الذيل و التكملة س(6) ص151

[5]- ابن زهر: المصدر السابق ورقة 44،47،78.

[6]- انظر عن ذلك مثلا وفاة ابن القطان بداء البطن.ابن القاضي : : جذوه الاقتباس قسم2 ، ص471.

[7] -ابن الحاج: نوازل ابن الحاج ورقة 70.

[8]- مؤلف مجهول: الاستبصار،ص219.

[9]- انظر عن هذين المرضين: ابن الزيات :المصدر السابق ،ص188،246.

[10]- إحسان عباس :جانب من التاريخ السري للمرابطين منشور ضمن بحوث و دراسات في الآداب و التاريخ مجلد (2) دار الغرب الإسلامي ط 1. 2000 بيروت، ص 588، 589

ما أنجزه في حقل الطب النظري و العلمي [1]، هذا ناهيك عما بلغته أسرة آل زهر الذين قضوا حياتهم في خدمة الأمراء المرابطين نذكر منهم أبو مروان عبد الملك،و أبو العلاء زهر بن أبي مروان ،أبو مروان عبد الملك بن العلاء و أبو بكر محمد المعروف بالحفيد،فهؤلاء منهم من كان طبيبا خاصا لأمراء المرابطين [2]

و مما لا شك فيه أن لتواجد هؤلاء الأطباء في هرم السلطة قد ساهم في تنوير عقول الأمراء،و تحسيسهم بما تتطلبه الرعاية الصحية لعامة الناس ،و عليه فقد عملت الدولة على إقامة مؤسسات لمداواة المرضى و علاجهم على نفقة الدولة،فوجد أصحاب مرضى الجذام قدرا لا يستهان به من الرعاية الطبية ففي العاصمة مراكش ،كان هناك مكان خاصا للمجذومين ،كما كانت لهم حارة خاصة بهم خارج مدينة فاس ،خصصت كسكن للمجذومين تقع تحت مجرى الريح الغربية ،فتحمل الريح أبخرة المرضى ، فلا يصل منها لأهل المدينة شيء ،كما يكون تصرفه من الماء و غسلهم بعد خروجه من المدينة ،و بهذه الطريقة يكونوا قد تجنبوا انتقال العدوى إلى سكان المدينة[3] .

ومن جانب آخر تشير النصوص التاريخية إلى وعي الرعية بأهمية الطب و العلاج ،فكان المرضى يقصدون الأطباء طلبا للعلاج أين اتخذ هؤلاء عيادات خاصة بهم خصوصا في المدن الكبرى،فكان المرضى يعدون العدة ،و ينتقلون إلى الأطباء من مدينة إلى أخرى بحثا عن أفضلهم و حسبنا في ذلك ما ذكره "ابن الزيات"[4] عن "علي بن عبد الكريم" عندما ظهرت بأخته لمعة برص بوجهها أعد لعلاجها مائة دينار و حملها من مكناسة إلى مدينة فاس حيث طبيبها المشهور آنذاك أفلاطون.و من خلال المصادر المعاصرة لفترة الدراسة يتضح لنا مدى التقدم الذي بلغه الطب و مدى دقة فحص الأطباء لمرضاهم،و حسبنا في ذلك ما ذكرته المصادر عما بلغه أبا العلاء بن زهر من مهارة طبية حيث تقول "و له علاجات مختارة تدل على قوته في صناعة

---

[1] -يوسف فرحات و يوسف عيد: معجم الحضارة الأندلسية ص 219

[2] -إحسان عباس: جانب من التاريخ السري للمرابطين ص 589 – 591 .و انظر أيضا يوسف فرحات و يوسف عيد : : المرجع السابق، ص 219

[3]- ابن القاضي:جذوة الاقتباس قسم(1) ص34

[4]- التشوف ص 217

الطب و اطلاعه على دقائقها و كانت له نوادر في مداومته للمرضى و معرفته لأحوالهم ،و ما يجدونه من الآم من غير أن يستخبرهم عن ذلك بل بنظرة إلى قواريرهم أو عندما يحس نبضهم"[1]

ب – العلاج الطبيعي

يعتبر العلاج الطبيعي من الأساليب التي اعتمدها المجتمع المغربي والأندلسي في عهد المرابطين, و يرجع أحد المؤرخين المحدثين [2] أسباب ذلك إما لقلة دخل السواد الأعظم من الناس أو لعجز الأطباء عن المعالجة بعض الأمراض, و عليه فقد اتجه الناس إلى العلاج الطبيعي, الذي يقتصر على ما يقدمه لهم العطارين من أشربة و معاجن و دهون, أو أنهم يلجئون إلى المياه الحمامات و العيون ن وغيرها و إن كان "ابن خلدون" يحصر النوع الأول من العلاج في البيئة البدوية مشير إلى أنه مبني في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص و يتداولونه متوارثا عن مشايخ الحي و عجائزه, و ربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي[3].

وعلى الرغم من حصر "ابن خلدون" هذا النوع من العلاج على أهل البادية إلا أن النصوص المعاصرة لفترة الدراسة تشير إلى إقبال أهل الحضر من المغاربة و الأندلسيين على العلاج الطبيعي وحسبنا في ذلك النازلة التي أوردها "ابن رشد" عن حالة عطار أبرص من مدينة سبتة كان يعقد الأشربة و يعمل المعاجين بيده[4] إلا دليلا ينهض على الإقبال الكبير على هذا النوع من العلاج.و يفهم مما جاء في رسالة "ابن عبدون" رواج استعمال هذا العلاج بين عامة الناس، و عليه فقد عمل بعض العطارين ممن لا خبرة لهم في التداوي بالأعشاب على استغلال حالات المرض لبيع شرابهم و معاجنهم فحرص "ابن عبدون" على محاربة هؤلاء لما ينجر عن ذلك من مضرة للناس وفي هذا الصدد يقول: " لا يبيع الشراب، ولا المعجون، ولا يركب الدواء، إلا الحكيم

---

[1]- ابن أبي اصيبعة: عيون الأبناء ج(2) ص 64

[2]- إبراهيم القادري بوتشيش: العلاج الطبيعي و الروحاني بالمغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين, منتصف ق 5 هـــ – منتصف (6) هـــ، منشور ضمن" أعمال مؤتمر الطب و الصيدلية عند العرب افريل 1998" ، مركز التراث القومي و المخطوطات كلية الآداب جامعة الإسكندرية ص 205

[3]- ابن خلدون: المقدمة ص 548

[4] –ابن رشد: فتاوى ابن رشد السفر (2) ص 1062

الماهر، ولا يشتري ذلك من عطار، ولا شرابي، فإنهم حرصاء على أخذ الثمن بلا علم،فيفسدون الفتوى، ويقتلون الأعلاء ،لأنهم يركبون أدوية مجهولة مخالفة للعمل".[1]

وتمدنا المصادر المعاصرة لفترة الدراسة بعدد كبير من أسماء هؤلاء العطارين نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر " أحمد بن أبي عبد الله الأموي" المعروف "ابن العشاب " الذي كان حسن العلاج في طبه، وإمام أهل المغرب في معرفة النباتات و تمييز الأعشاب و تحليتها و علم منافعها و مضارها، وكان له دكان واسعا يجلس فيه لبيع النباتات الطبية و النفع بها[2] وهناك من اشتهرت تسميته باسم "العطار" أو "ابن العطار" لأن كلاهما كان يحترف حرفة العطارة فنسبت إليه أو لوالده[3]، ونظرا لوفرة الأعشاب الطبية سواء في المغرب أو الأندلس فقد أقدم هؤلاء على تحضير بعض الخلطات خصوصا، وأنه قد شاع لدى سكان الأقاليم اعتقادات معينة في بعض الأعشاب، فاستعمل سكان "السوس" زيت "الهرجان" لمعالجة الكلى و البول[4] ، في حين تم استعمال دهن الصنوبر لعلاج داء الفالج[5]، أما بالنسبة لأمراض العيون فإنه ينفع فيه الاكتحال بشراب الورد، واستخدام الأندلسيون الدهن البشامي المستخرج من شجر البشام لعلاج بعض الأمراض [6]، كما استخدموا القرفة للعلاج المعوي و بعض التوابل لوجع الأسنان و الاكتئاب[7].

الاكتئاب[7].

و لم يقتصر استخدام الأعشاب على الطبقة العامة فحسب،بل تعداه إلى الطبقة الخاصة حيث يشير " البكري" إلى أن أحد ملوك غانة بعث إلى أحد أمراء المرابطين دواء عبارة عن نبات يعالج مرض العقم "يأكله الرجل العقيم فيولد له"[8].واستخدم العامة لحوم بعض الحيوانات كلحم كلحم السلحفاة لمعالجة الجذام شريطة أن يتناوله المريض سبعة أيام متتالية، وأن لا يتعدى عمر

---

[1]- ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب،ص47.
[2]- ابن عبد الملك : الذيل و التكملة،س1 ق2،ص487-513.
[3] -انظر عن ذلك مثلا: ابن الزيات: التشوف ،ص189-364.
[4]- البكري: كتاب المغرب،ص162.
[5]- ا بن زهر: كتاب مختصر في الأغذية مخ، خ ح رقم2430 ورقة 57.
[6] -إحسان عباس: جانب من التاريخ السري للمرابطين،ص589.
[7]- اوليفيا ريمي كونستبل: التجارة و التجار في الأندلس،ص233.
[8]- البكري: المصدر السابق ،ص174.

السلحفاة سبع سنوات[1]. كما استعملوا لحوم بعض الحيوانات البحرية للقضاء على داء النقرس و الفالج و البرد[2] و استخدموا شحوم النعام ضد الصمم و سائر أوجاع البدن[3].

وإلى جانب العلاج بالأعشاب تعاطي عامة المغرب و الأندلس ، العلاج الطبيعي في الحمامات و العيون المنتشرة في المغرب و الأندلس كحمامات غرناطة [4]و المرية[5]. ومدينة ريّة التي عدّت حماماتها من أشرف حمامات الأندلس لكون مائها يجمع بين الحرارة و البرودة [6]، و لم تكن حمة مدينة بجّانة أقل شأنا في طيب مائها و عذوبته و صفائه و لدونته و نفعه، وعموم بركته. فيقصدها أهل الأسقام و العاهات من جميع النواحي فيلزمون المقام بها فتستقيم عللهم و يشفوا من أمراضهم، ولكون الإقبال على حمة بجّانة كبيرا فقد بلغ سعر كراء مسكن بها لمدة شهر ثلاثة دنانير مرابطية أو أكثر[7].

وبالموازة مع الحمامات قصدت مختلف الشرائح الاجتماعية العيون اعتقادا منها في نجاعة مياهها في الشفاء و تطهير الأبدان وفي هذا الصدد يذكر "الجزنائي"[8] أن ماء "نهر الجواهر" بفاس بفاس ليس له نظير لصفائه و عذوبة مائة و صفته، و برودة عيونه في زمن الصيف وسخانتها في زمن الشتاء ، وهو يسخن سريعا و ينهضم سريعا، وهذه لصفات محمودة عند الأطباء ... ومن منافعه أنه يفتت الحصى التي في المثانة .كما يشير إلى حمة خولان، وحمة أبي يعقوب " اللتين كان يقصدهما العامة للاستحمام و التداوي[9].

و لم يقتصر اعتقاد سكان بعض المناطق في المغرب في نجاعة مياه العيون للشفاء من الأمراض، بل وصل الحد بالسكان المجاورين لإحدى العيون المتواجدة بمغارة "بلاد فازاز" أنهم إذا أرادوا

---

[1]- مارمول: إفريقيا، ج(1)،ص83.

[2]- أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب و نخبة الإعجاب،ص 111،114.

[3]- الإدريسي: صفة المغرب،ص72.

[4]-ياقوت الحموى: معجم البلدان،ج 4، ،ص221.

[5]-الإدريسي:المصدر السابق ،ص197.

[6]-ياقوت الحموى :نفسه ج3 ص131

[7]-الإدريسي: المصدر السابق ،ص200،الحميري: الروض المعطار،ص79.

[8]-الجزنائي: كتاب تاريخ مدينة فاس المعروف ب ،زهرة الاس ،ص68.

[9]-نفس المصدر،ص70.

معرفة شفاء المريض أو موته حملوه لرأس العين... فيغطسونه فيها حتى يقرب أن يطفو ثم يخرجونه ، فإن خرج على فمه دم يستبشرون بحياته وإن لم يخرج من فمه دم أيقنوا هلاكه،وهذا عندهم متصادق لا ينكر. و إن كان هذا الاعتقاد بعيد كل البعد عن المنطق و العقل و يعد هذا جهل. فإن فعله أحد بأحد فمات فإنه يقتص منه.[1]وفي الأندلس يشير "الحميري" إلى عين على بعد أربعين ميلا من مرسية يقصدها من علق العلق بحلقه ، فيفتح فاه فيسقط العلق لحينه[2] و بالقرب من غرناطة توجد عين يقصدها الناس في يوم معلوم من السنة للتداوي[3].

ج –العلاج الرووحاني

يعد العلاج الروحاني من بين الطرق التي يعتقد بها عامة المجتمع المرابطي و يرجع أحد المؤرخين المحدثين[4] سبب إقبال الناس على ذلك يعود أساسا إلى تشبع المجتمع المغربي و الأندلسي الأندلسي بروح التصوف،و اعتقاده الجازم في كرامات الأولياء و الصلحاء، وقدرتهم على معالجة ما عجز عنه الأطباء.وبعودتنا إلى مصادر التصوف و المناقب المعاصرة لفترة الدراسة يتجلى لنا الأمر بوضوح حيث يذكر "التميمي الفاسي" أن طفلا صغيرا أصابته قرحة في رأسه أعيت الأطباء ، ولم ينجح فيها علاج ،غير أنه و بمجرد عرضه على الشيخ" أبو جبل يعلى" شفي الصبي من تلك القرحة[5] وينقل نفس المؤرخ عن راو وصفه بالثقة أن رجلا من أهل "مكناسة" كان له صبيا عمره أربع سنوات، لم يكن يقدر على النطق ولو بكلمة واحدة ، فأشير إليه بزيارة أبو الحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم أحد أولياء فاس ممن بلغت شهرته الآفاق،فزاره ، فدعا الولي للإبن بالشفاء، وكان ذلك بعد صلاة العصر، فرجع الرجل المذكور إلى مكناسة ثاني يوم من دعاء الشيخ لولده، فتلقّاه الناس يهنئون بنطق ابنه أمس بعد صلاة العصر[6].بل أن هذا الولي نجح في إشفاء امرأة كانت مريضة ومقعدة لسنوات من أوجاع

---

[1] –ابن القاضي: جذوة الاقتباس ق(1)،ص47، الجزنائي : كتاب تاريخ مدينة فاس المعروف ب ،زهرة الاس ،ص73-74.

[2] –الحميري: الروض المعطار ،ص539.

[3] –أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب،ص 158.

[4] –ابراهيم القادري بوتشيش: العلاج الطبيعي و العلاج الروحاني،ص212.

[5] –التميمي: المستفاد ق(2)،ص190-191.

[6]– نفس المصدرص20.

بوركيها[1]. وتمكن ولي آخر اتخذ مسجدا له على أميال من مدينة مكناسة من إشفاء صبية من برص عجز أطباء فاس ومنهم الطبيب أفلاطون المشهور من إشفائها، وشفيت على يده عن طريق مسح ريقه على موضع البرص لعدة مرات، فلم يبق على وجهها للبرص أثر[2].كما اشتهر المتصوف و الزاهد "أبو يغزي " بقدرته على علاج الأمراض المستعصية حيث تشير النصوص أن جارية كانت تتألم من وجع في عينيها، فمد يده إلى عينيها و مسحهما، فشفيت تلك الجارية[3].

ويبدوا لنا من خلال المصادر التي ترجمت "لأبي يغزى" أنه اشتهر بمعالجة أمراض العيون و العمي على الخصوص ، وعليه فقد تدفق عليه هؤلاء طلبا للشفاء و حسبنا في ذلك ما أورده "ابن الزيات" من أن رجلا أصابه العمى فأقعده لمدة عامين لا يبصر شيئا ، فلما سمع به أبا يغزى أرسل له رقعة من برنوسة و أمره بحرقها بالنار، و الاكتحال برمادها، فعاد له بصره [4] و لم و لم تقتصر معالجة"أبي يغزى" لمرضى العيون فحسب بل تتعداه إلى أمراض أخرى بحيث يذكر "التميمي الفاسي" أنه رأى رجلا في بيت "أبي يغزى" و في وجه أكلة (قرحة) ذهبت بأحد خدّيه، فسأله عن حاله،فأخبره بأن الناس دلّوه على الشيخ فأتى إليه، وذكر له بأن "أبا يغزى" يرقيه صباح كل يوم،حيث يقوم بمضغ ورق الزيتون، و يتفل ذلك على موضع العلة فتوقفت زيادة العلّة[5].

ويتضح لنا من ترجمة "ابن القاضي" لأبي يغزى" مدى إقبال الناس عليه من ذوي العاهات و الأمراض بما في ذلك النساء وعليه فقد ذكر أن فقهاء فاس أنكروا عليه لمس صدور النساء، فكان جواب "أبا يعزى" أن ليس يجوز عندهم أن يلمس الطبيب تلك المواضع لعلّة [6] ، وبذلك يكون أبا يعزى قد ماثل نفسه بالأطباء.أما الطريقة التي كان يتبعها "أبا يغزى" في معالجة مرضاه أن كل مريض كان يأتيه بإناء فيه زيت أو بقية طعام، أو بعشب من أعشاب الأرض فيرقيه لهم،

---

[1]- التميمي: المستفاد ق(2)،،ص22.

[2]- ابن الزيات:التشوف،ص217-118.

[3]- نفس المصدر،ص176.

[4]- نفس المصدر ،ص229.

[5]- التميمي: المصدر السابق ،ص39.

[6]- ابن القاضي: جذوة الاقتباس ،ق 2 ،ص564.

ومن المرضى حتى من سأله عقد خيط، فيكون ذلك سببا في شفائه[1] هذا إن صحت تلك الروايات المنقبية.

و لم يقتصر اعتقاد عامة المجتمع المرابطي في العلاج الروحاني بزيارة الأولياء وهم أحياء طلبا في الشفاء،بل تعدى الأمر بهم بأن كان منهم من يستشفى بتراب قبور بعض الأولياء[2] ، وليس من المستغرب أن يقتنع عامة الناس في العهد المرابطي بمثل تلك الاعتقادات، فما بالك بما نشاهده و نسمعه في أيامنا هذه، ونحن نعيش قمة النهضة في مختلف العلوم وعلى رأسها الطب.

1- التميمي: المستفاد ق2،ص38.

2- انظر عن ذلك مثلا ابن الزيات:التشوف ،ص70، 108، 115.

الفصـــــــل الخــــامس

الألبســـة والأطعمـــة

أولا:اللبـــاس

لباس الرأس

أ ــ اللثام

ب ــ الغفائر القرمزية

ج ــ العمامة

لباس البدن

أ- البرنس

لباس القدمين

أ ــ النــعال

ب ــ الخف

ج ــ القرق

د ــ البلغة

لباس الأعيان والعلماء

لبـــاس المتصوفـــة

الخـــرقـــة

ثيـــاب العامـــة

لبـــاس الذمـــيـــين

أ ـــ الزنـــار

ب ـــ الشكلـــة

لبـــاس النســـوة

لباس نساء الطبقة الخاصة و الأعيان

لباس الرأس

لباس نســـاء العامـــة

ثانيا: الأطعـــمـــة

أ - طعام و شراب الخاصة

ب - طعـــام العامـــة

الألبســـة والأطعمـــة

تنوعت الألبسة والأطعمة في المغرب والأندلس في عصر المرابطين نظرا لتنوع أ قاليمه وتنوع الطبقات الاجتماعية المشكلة للمجتمع المرابطى، فكان لباس وطعام قبائل الملثمين في غاية البساطة وهم في صحرائهم، وشهد نوعا من التغير والتنوع بعد ضمّهم لبلاد المغرب وبلغ غاية التطور والتنوع فى المرحلة الثانية من حكهم خاصة بعد ضم الأندلس لسلطة الدولة المرابطية و احتكاك المغاربة با لأند لسيين وهذا ما نحاول توضيحه في هذا الفصل

أولا: اللبـــاس

تعتبر الملابس الصوفية أكثر الملابس انتشارا بين السكان في أوائل عهد المرابطين،و هذا يعود أساسا إلى وفرة الأغنام في سهول المغرب و هضابه،[1] فمنها كانت تؤخذ الأصواف لصنع الملابس، هذا ناهيك أن كثيرا من القبائل التي انتقلت من الجنوب، و أقامت بالمغرب الأقصى، كانت ملابسها الصوف، و على رؤوسهم عمائم الصوف المسماة بالكرازى.[2]ومع تأسيس الدولة المرابطية تمخضت عدة تحولات في المجتمع المغربي إذ أصبحت لمتونة و حلفائها، بعد انفراد يوسف بن تاشفين بالسلطة عنصرا جديدا و متميزا في مجتمع القرنين الخامس، و السادس الهجري ، الحادي عشر و الثاني عشر الميلادي، مما أظهر شريحة جديدة من الملثمين احتلت مركز الصدارة، و مع أول احتكاك لها بالجبهة الأندلسية كانت الحياة البسيطة التي عهدها المرابطون، أمام محك حقيقي بالنظر إلى مظاهر الأبهة في حضارة الأندلس،[3] و التي عاين يوسف بن تاشفين جزء منها منذ لقائه بالمعتمد بن عباد بالجزيرة الخضراء، و أثناء مقامه بقصر اشبيلية بعد معركة الزلاقة،[4] فأغراه بعض أصحابه بحسن الحال بالأندلس من توفر المطعوم والمشروب و

---

[1]- الإدريسي: صفة المغرب ص 73، 75، 76، 79.

[2]- نفس المصدرص 58.

[3]-المقري : نفح الطيب ج (1) ص 201-211

[4]- المراكشي: المعجب ص 93، 95-96.

الملبوس و المفروش قائلين له " أن فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم و اللذة كما هو المعتمد و أصحابه".[1]

وقد أنكر الأمير يوسف بن تاشفين على من أغراه خصوصا أنه كان معروفا عنه ولعه بالاختصار في ملابسه[2] و اقتصاده في أموره غير متطاول و لا مبذر غير سالك نهج الترف و التأنق في اللذة و النعيم إذ ذهب صدر عمره في بلاده بالصحراء في شظف العيش[3]، غير أنه لا ينبغي أن ننساق كليا وراء هذه الروايات فغداة اتخاذ يوسف بن تاشفين للقب أمير المسلمين و ناصر الدين نجده قد أوصى بإجراء هذين الاسمين على الألسنة في مخاطبته في الكتب عنه و إليه و إثباتها في أعلامه، و مطارده و طرازه و جرى العمل به إلى آخر أيامه[4].ومعنى ذلك أن الدولة المرابطية قد بدأت منذ عهد يوسف بن تاشفين تتخذ علامات خاصة بها في طرز الأثواب المعدة للباس تماشيا مع وضعها الشرعي الجديد، القائم على اعتراف الخلافة العباسية بشرعية حكمها.

وتفيد رواية "صاحب الحلل" أن هذا اللقب أصبحت كلماته منقوشة أو مكتوبة على كل قطعة من النسيج مختصة بالدولة كالبنود والألوية و الرايات، و بعض الأزياء، و هذا ما يتفق مع ما ذهب إليه "ابن خلدون" من أن للسلطان شارات وأحوالا تقتضيها الأبهة والبذخ فيختص بها و يتميز بانتحالها عن الرعية و البطانة وسائر الرؤساء في دولته[5] ومنها اتخاذه الآلة من نشر الألوية و الرايات[6] خصوصا و أن طبيعة الملك الدعة والسكون ومعناه النعيم ورغد العيش و الراحة، و هي مرحلة يطبعها نزوع الفئة الحاكمة إلى الاستهلاك الذي حدد "ابن خلدون بعض معالمه في اقتناء المباني و المساكن والملابس والتأنق في أحوالها بمقدار ما يتحصل من الثروة و الترف فيميل الأمراء إلى اتخاذ علامات تختص بالدولة في طرز الأثواب المعدة للباس من الحرير و الديباج و هذا ما اختص به أمراء المرابطين،[7] و هذا ما يطرح استبعاد ظاهرة الزهد والتقشف

---

[1]- المقري: نفح الطيب مج (4) ص 374.

[2]- ابن عذارى: البيان المغرب ج (4) ص 46.

[3]- المقري: المصدر السابق ص 374- 375.

[4]- مجهول الحلل الموشية ص31

[5]- المقدمة ص 271.

[6]- نفس المصدر و الصفحة.

[7]- نفس المصدر ص 149، 273.

التي جبل عليها الأمراء المرابطين فى المرحلة الأولى، و يسمح لنا باستنتاج أن قادة الدولة بعد ضمهم للأندلس أقبلوا على حياة جديدة، استهوتهم بكل ما احتوته من مظاهر الترف و البذخ، في وقت كانت روح هؤلاء القادة مشبعة و متأججة بتعاليم الإسلام، ومنغمسة في تحقيق رسالة سامية أساسها إقامة الحق و نصرة الدين، و ليس ذلك إلا معركة جديدة نفسية و اجتماعية لا تقل خطورة عن الواجهة العسكرية بالنظر إلى تأثيرها في أنماط السلوك، و نتج عن ضغطها احتواء أكبر عدد من رجالات الدولة و قادتها.و لعل رسالة الإمام أبي بكر الطرطوشي إلى يوسف بن تاشفين تدخل في هذا السياق و تؤكد ما ذهبنا إليه سابقا، و مما جاء فيها قوله: " و توارى عنك يا أبا يعقوب، و قد بلغني أنك استأثرت على المسلمين بالحظ الوافر من حطام الدنيا، و زخرفتها، فلبست الناعم و أكلت اللين، و تمتعت بلذاتها و شهواتها". [1]

و مما لا شك فيه أن مثل هذه النصوص تعكس تلك الجدلية المستمرة بين المثل الإسلامية التي يصنع منها الدعاة والمصلحون قوام دعواتهم الإصلاحية، وبين ماتجري به حياة المسلمين أحيانا كثيرة من خرق لتلك المثل وا لانحراف عنها، فالمجتمع المرابطي بدأ يعرف مرحلة انتقالية ارتسمت معها معالم جديدة من السلوك همت جانب اللباس، فقبل تأسيس الدولة و كمبدأ عام غلب طابع الخشونة على ملابس المرابطين أول أمرهم، فملابس لمتونة ولمطة كانت من أكسية الصوف، والعمائم المسماة الكرازى[2]، و يعكس الزي الرسمي للمرابطين جوانب من هذا التحول. و أهم ما يميزهم:

لباس الرأس

أ ـــ اللثام:يعد اللثام أهم عنصر في لباس المرابطين و تضاربت أراء الرحالة و المؤرخين حول أسباب اتخاذ هذه العادة، فربطها البعض باعتقادهم أن الفم عورة يجب إخفاؤها، فإذا أراد الرجل منهم أن يربط لثامه اختفى عن الأنظار حتى عن أهله[3] إلى أن هذا التعليل يصادفه

---

[1]- انظر: رسائل أبي بكر بن العربي، نشر و تحقيق عصمت عبد اللطيف دندش "دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا"، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، ص 211.

[2]- الإدريسي: صفة المغرب ص 58.

[3]- ابن حوقل: صورة الأرض ص 99، البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب ص 170، النويري: نهاية الأرب مج (11) ج (24) ص 145.

اعتراض وجيه، مرده أن النساء المرابطيات لا يتلثمن، فلو كان الأمر يتعلق بهذا الاعتقاد لانطبق عليهن أيضا.في حين يرجع بعض المؤرخين سبب اتخاذهم اللثام لأجل التنكر وكوسيلة للخدعة في المعارك[1] ولكننا نرى أن هذا التفسير لا يعد مقبولا لأصل هذه العادة، فلو كان الأمر كذلك لأشارت المصادر إلى تغيير خططهم في الحروب اللاحقة. فيما ذهب بعض الشعراء إلى أنهم تلثموا من كثرة الحياء و الحشمة، و الشجاعة و الاستعداد لخوض الحروب[2]، لكن يبدوا أن هذا التعليل يندرج في سياق المدح الذي جبل عليه الشعراء بما يقتضيه ذلك من اختلاق الفضائل و الشمائل، رجاء لنيل الهبات و الإنعامات.[3]

ومن المؤرخين من أعاد تلثم المرابطين إلى عوامل مناخية[4] لاتّقاء منغصات جو الصحراء لكن ما يدحض هذه الفرضية هو عدم تلثم النساء المرابطيات و هن يعشن جنبا إلى جنب مع الرجال، أضف إلى ذلك أن اللثام لدى قبائل صنهاجة الجنوب اتخذ طابعا غربيا و فريدا فهم يرتادونه ليلا و نهارا أثناء الراحة أو العمل بل ينامون و هم منقبون و يأكلون و هم ملثمون[5] حتى أن الرجل عندهم لا يعرف إذا أماط اللثام عن وجهه، كما لا يعرف الشيخ من الشاب، و لا الكهل إلا إذا تنقب، و إذا قتل منهم رجل في معركة و زال قناعه لم يعرف من هو إلا إذا وضع القناع على وجهه.[6]وهذا ما حذا "بالبكرى" إلى التعبير عن ذلك بقوله: " وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم".[7]

وقد تباينت اجتهادات الدارسين المحدثين حول نفس الموضوع فيرى "حسن أحمد محمود" أن الفرد لا يعتبر مكتمل الرجولة إلا إذا ارتدى لثامه، لذلك تحتفل الأسر عند بلوغ الأولاد سن الرشد و هذا الاحتفال هو نذير باستكمال الفرد لحقوقه المدنية،و اعتباره عضوا عاملا في المجتمع

---

[1]- مجهول: الحلل الموشية ص 19 النويري نهاية الأرب مج11 ج 24ص145

[2]- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص 88.

[3]- ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث ، ص 133.

[4]- ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج 5، ص 485.

[5]- النويري: المصدر السابق، ص 145.

[6]- البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، ص 170.

[7]- نفس المصدر و الصفحة.

الملثم.[1] و منهم من أعاده إلى الظروف المناخية للصحراء[2]، ثم توارثه الأبناء عن الآباء، فأصبح مع مضي الزمن عادة متغلغلة في النفوس سمت إلى مرتبة العقيدة لديهم.[3] في حين يرى بعضهم أن ذلك يعود إلى اعتقادهم الراسخ بأن لبسه يقيهم من شر الحسد[4] و هي عادة مأخوذة من زنوج زنوج إفريقيا، و أن ظاهرة التلثيم لها أصول دينية سحرية قديمة[5].وذهبت اجتهادات أخرى إلى أن تسمية الملثمين لا ترجع لظاهرة اللثام، لأن معظم القبائل العربية و غيرها من قبائل السودان كانت تتخذه و مع ذلك لم يطلق عليها هذا الاسم، و إنما تسمية الملثمين تعود إلى شكل لثام المرابطين المختلف عن شكل اللثام الذي اعتادته مختلف القبائل بإضافة "النقاب"، و هو فوق اللثام حتى لا تبدوا منه إلا محاجر عينيه" [6] هذا مع بداية حركة المرابطين.و تعتمد هذه الاجتهادات كمصدر لها فتوى "ابن رشد" في تلثيم المرابطين حيث يقول: "و التلثيم للمرابطين هو زيهم الذي اختاروه لأنفسهم و نشئوا عليه، و توارثوه، و درجوا عليه سلفا عن خلف... لأنه شعارهم الذي تميزوا به من سائر الناس في أول أمرهم"[7]، كما تستند إلى رواية "النويري" التي تقول عن المرابطين أنهم "لما ملكوا البلاد ضيقوا اللثام".[8]

و بالرغم من وجاهة هذا التحليل، فإنه لا يمكن الجزم بأن المقصود من تضييق اللثام، هو شكل النقاب الذي ى لالبسه المرابطون ابتداء من دعوتهم الإصلاحية، خصوصا و أن الجغرافي "اليعقوبي[9]" كان قد أشار إلى ظاهرة اللثام منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. كما أن

---

[1]- قيام دولة المرابطين، ص 50.

[2] -Delafosse (M) Les relations du Maroc avec le Soudan à Travers les ages, Hesperis, T 4, 1942, p 156.

[3] – حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص 51.

[4]- أحمد مختار العبادى: الصفحات الأولى من تاريخ دولة المرابطين مجلةكلية الآداب،جامعة الاسكندرية ،عدد 21 1967 ص 46.

[5]- شعيرة عبد الهادي محمد: المرابطون(تاريخهم السياسي) مكتبة القاهرة الحديثة، ط1،1969 ص 21.

[6]- البكري: المغرب، ص 170.

[7]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد، السفر الثاني، ص 965.

[8]- نهاية الأرب، مج 11، ج 24، ص 145.

[9]-كتا ب البلدان ،ط2 ،طبع بريل 1892ص360

رواية 'ابن حوقل" في القرن (4هـــ) /10م تفيد استعمال النقاب بزمن طويل و هذا ما نستشفه من قوله: "و لم ير لأحدهم و لا صنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم[1]".

والراجح أن المقصود من تضييق اللثام، ليس إضافة نقاب جديد بل تغيير طريقة ربط اللثام، و ذلك بلفه جيدا على الوجه و هو التضبيق الذي ورد في رواية "النويري" عن أصل هذه العادة حين أمر مشايخ لمتونة النساء أن يسترن وجوههن باللثام و أن يضيقنه بهدف التنكر للعدو[2]. ومعنى ذلك أن اللثام لم يكن يستعمل فيما قبل ملتصقا بالوجه و يمكننا مقارنة هذا التضييق بالعادة المتبعة في مملكة مالي، حيث كان الملك كلما زادت فروسية الفارس، يلبسه سراويل متسعة، و كلما زادت فروسية البطل يزيد في كبر سراويله.[3]و هكذا يبرز الزي في ضيقه و اتساعه كرمز للقوة و النفوذ.

و يشير "حسن احمد محمود" إلى وجود نوعين من اللثم : نوع يسمى "الريط" لونه أخضر، و آخر يسمى "بالسمارى" لونه قرمزي[4] كما تغير لون اللثام من الأزرق إلى اللون الأسود الذي يرمز إلى الارتباط بالخلافة العباسية،[5] و قد اختصت الفئة الحاكمة و الميسورة الحال بهذا النوع و لعل ما يؤكد ذلك ما روي عن "المعتصم بن صمادح" صاحب المرية، الذي ارتدى ثوبا مرابطيا أسودا بهدف التقرب من المرابطين[6] بينما اختص العبيد باللثم البيضاء.[7]و بذلك يتضح لنا أن اللثام أصبح يؤدي وظيفة اجتماعية و سياسية، فهو يشير إلى وضع اجتماعي مميز، وصار علامة لولاة الأمر وكبار رجال الدولة، وأبناء القبائل المرابطية وهذا ما يتجلى من زجل "ابن قزمان"[8]، و عليه لم يسمح لغير المرابطين باستعماله خصوصا بعد أن تزي به بعض عبيد المرابطين سعيا للظهور بمظهر السلطة و النفوذ، فروعوا الناس، و أكلوا أموالهم ثم أخذ العامة و

[1] – ابن حوقل :صورة الأرض ص 89.
[2] – نهاية الأرب، مج 11، ج 24، ص 145.
[3]– العمري: مسالك الأبصار ص 65.
[4]– قيام دولة المرابطين ص 51.
[5] –ابن خلدون: المقدمة، ص 272.
[6] –ابن الأبار: الحلة و السيراء، ج (2) ص 86، 89.
[7]– حسن احمد محمود: المرجع السابق، ص 51.
[8]– بالذي يعطيك رضي الأمير*** أيك تلثم إلا كبير، انظر: ديوانه زجل رقم 70ن ص 454.

العبيد يتطاولون عليه متشبهين بهم رغبة في السطوة و النفوذ.[1] ولذلك اشترط "ابن عبدون"[2] بأن بأن لا يتلثم إلا صنهاجي، أو لمتوني ،أو لمطي، و دعا العبيد الذين كانوا يتلثمون على غرار المرابطين إلى وضع علامة يعرفون بها، كأن يتلثموا بخمار أو مئزر و شبه ذلك، خصوصا بعد أن أصبح اتخاذ اللثام طموحا يحد كل شرائح المجتمع لاكتساب النفوذ والإعلاء من مكانتها داخل التشكيلية الاجتماعية وحسبنا في ذلك أن بعض مشايخ الصوفية لم يسمحوا لأبي "إسحاق بن يحي المسوفي" الالتحاق بأهل الزهد و المريدين، إلا بعد أن طلبوا منه إزالة لثامه تواضعا لما في لبس اللثام من كبرياء، و ترفع عن الناس[3]، و هذا ما يعكس أهمية هذا الزي كقيمة و رمز لشريحة مترفعة في المجتمع.

وقد احتل اللثام حيزا هاما ضمن المديح الذي خص للإشادة بالمرابطين[4]، فاقترنت الممارسة السياسية بحمل النقاب كشارة من شارات الولاية والحكم في صفوف الأسرة المرابطية، و لعل ما يعكس تلك الحقيقة الرسالة التي كتبها "أبو عبد الله بن أبي الخصال" عن الأمير "على بن يوسف" إلى حامية "بلنسية"، حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم "ابن رذمير" و مما جاء فيها قوله: "و أنتم قد قدحتم في ملكنا، و أذنتم بانتثار ملكنا، فلولا من لدينا من ذويكم و ضراعتهم إلينا فيكم ،لألحقناكم عجلا بصحرايكم وطهرنا الجزيرة من رحضايكم، بعد أن نوسعكم عقابا و نحد أن لا تلووا على وجه نقابا".[5]

مما سبق نخلص إلى نتيجة مفادها أن ظاهرة اللثام قد احتلت حيزا هاما ضمن الزي المرابطي، و يمكننا أن نجعلها من ضمن الثقافة المرابطية، التي جعلت من لبس اللثام مفخرة يمتدح به كما

---

[1]- ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص 28.

[2]- نفس المصدر والصفحة

[3] ابن الزيات: التشوف ص 205.

[4]- مما قاله ابن خفاجة في مدح الأمير أبي يحي المعروف بابي تيفلويت

و الريح تلطم فيه أرادف الرّبى لعبا و تلثم أوجه الأزهار

انظر المقري: نفح الطيب مج 1 ص 683.

[5]- حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين،مجلة المعهد المصري بمدريد، العدد 3سنة،1955ص 118.

يمتدح العربي بسيفه.[1] ومما لا جدال فيه أن تأسيس الدولة من طرف القبائل الصنهاجية قد أضاف إلى ثقافة اللثام رموزا أخرى لها علاقة بالحكم و السيادة و هي ثقافة يصعب استجلاء جميع مظاهرها، و خباياها رغم المعلومات التي سيقت حولها، صعوبة نابغة من كون اللباس يعيش في توافق ضيق مع المحيط التاريخي أكثر بكثير من اللغة.[2] و كما كان اللثام محل نفوذ، و استعلاء، و تفاخر و مدح عدّه البعض شذوذا و خروجا عن المألوف، بل عيبا كبيرا استغله "أبي تومرت" للإطاحة بسمعة المرابطين، فلقبهم "بالحشم" لأنهم في نظره في حكم الحشم: أي الخول و العبيد، أو في حكم النساء المحتشمات لأنهم كانوا يتلثمون[3]، و هو ما نهى الشرع عنه حسب ابن تومرت –و عليه فقد اعتبر التشبه بهم حرام".[4]

ب ـــ الغفائر القرمزية:

تعد الغفائر "القرمزية"[5] من بين الألبسة التي لبسها المرابطون، و عرّف "دوزي"[6] الغفائر بأنها بأنها جمع غفارة، كانت قديما تشير إلى طاقية من طواقي المرأة، في حين عرفها "ابن منظور"[7] بأنها خرقة تلبسها المرأة فتغطي رأسها ما قبل منها و ما دبر غير وسط رأسها، أو أنها خرقة توقي بها المرأة الخمار من الدهن.و يشير دوزي إلى أنها كانت في الأندلس و المغرب تشير إلى طاقية –يلبسها الرجال تحت العمامة–معتمدا في تفسيره هذا على بعض النصوص التي وردت في المصادر، و منها ما ذكره صاحب "الحلل الموشية"[8] أن من ضمن الهدايا التي أهداها يوسف بن تاشفين إلى ابن عمه أبي بكر بن عمر مائة غفارة لكن الراجح أن "دوزي" قد جانب الصواب

---

[1]- حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص 51.

[2] Barthes: (R): Histoire et sociologie du vêtement, A.E.S.C, N°= 3 juillet- sep. 1957.p438.

[3]- البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، ص 24، 35، 36.

[4]- ابن تومرت: أعز ما يطلب تحقيق د عبد الغني أبو العزم ،الرباط مؤسسة الغنى للنشر الرباط 1997، ص 263.

[5]- لون يستخرج باستخدام القرمزية، و هي حشرة طفيلية تعيش على شجر البلوط، انظر الزجالي: أمثال العامة ج 2،مثل 2،مثل رقم 400.

[6]- المعجم المفصل بأسماء الملابس العربية ترجمة أكرم فاضل، العراق، بغداد 1971، ص 255- 257.

[7]- لسان العرب، مج (5) ص 30.

[8]- مجهول ص 27.

لما اعتبر الغفائر عبارة عن غطاء للرأس عند النساء والرجال فحسب دون الإشارة إلى استخدامها من قبل الأطفال، و استعمالها كلباس جسدي للرجال.[1]

ويرى "فيدريكو كورنيتي"[2] أن الغفارة أخذها أهل الأندلس عن المغرب، وأنها تعني برنس مزخرف بالذهب، و هو يوافق بذلك "ابن هشام"، و وردت أيضا كلباس لغطاء الرأس لفقهاء الأندلس[3] و بعض المتصوفين في المغرب.[4] و بالعودة إلى مصادر الفترة المعاصرة الدراسة يتضح لنا لنا أن الغفائر قد استعملت لتعني غطاء للرأس، و أيضا كلباس لبسه الكبار و الصغار على حد سواء، و هذا ما نستشفه من النازلة التي أوردها "ابن رشد" أين عدت الغفارة من ضمن ثروة المرأة التي تخرجها لزوجها[5]، و اعتبرت لباسا للصغار في إجابة أبي "عبد الله بن الحاج" قاضي المرابطين في الأندلس على نازلة يذكر فيها أن ثريا طلق زوجته و معها طفل في عمر الرضاعة ففرض القاضي للطفل "غفيرة أو طويق خز".[6]ويتضح لنا من نازلة أخرى "لابن الحاج" أن الغفارة لبسها الكبار، فاستعملت لتأدية بعض المهن حينا و في أخرى للزينة خصوصا في صلاة الجمعة والعيدين، فيقول: " و للزوج أيضا غفارتان احدهما للمهنة و الأخرى للعيدين و الجمعة".[7]

ولعل ما يزيد الأمر توضيحا أكثر من أن الغفارة استعملت كلباس ما يفهم من الرواية التي أوردها "البيدق"[8] من أن المهدي ابن تومرت لما اقبل على جامع علي بن يوسف (بمراكش) وجد الأمير "علي" جالسا على غفارة "ابن تيزمت"[9]، فطلب منه عدم الجلوس عليها لأنها تعقد

---

[1]- ابن الحاج: نوازل ابن الحاج، ورقة 90، 91، 94.

[2] -ابن قزمان: ديوان ابن قزمان ص 100.

[3]- ابن هشام: ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام، تحقيق عبد العزيز الاهواني، مجلة معهد المخطوطات العربية 1957، مج مج 3، ج (2) ص 300.

[4]- ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف ص 113.

[5]- ابن رشد: فتاوى ابن رشد سفر (3) ص 1558.

[6]- ابن الحاج: نوازل ابن الحاج ورقة 90.

[7]- نفس المصدر ورقة 95.

[8]- أخبار المهدي بن تومرت ص 27.

[9]- هو أبو بكر بن تيزمت خادم علي بن يوسف و مشاوره، للمزيد انظر: البيدق: نفس المصدر ص 65- 66، ابن عذارى: البيان المغرب –القسم الموحدى- ص 29.

بالنجاسة.و بالرغم من الغموض الذي يكتنف هذا اللباس فقد أمدنا "ابن قزمان" بمعلومات قيمة عن الغفارة، و خصها بعدة أزجال أوضحت لنا أن الغفائر عدة أشكال، و هو بذلك يتفق مع ما أورده ابن الحاج من أن الغفائر استخدمت في أداء بعض المهن و للزينة، و هذا ما نستشفه من زجله القائل"و غفائر ملاح على أجناس".[1]و ما يزيد في تأكيد ما ذهب إليه ابن الحاج من استخدام الغفائر للخروج و الزينة و المباهاة هو طموح ابن قزمان للبسها، و هذا ما بينته أزجاله[2]، و منها يتضح لنا أن الغفائر كانت تحلى ببعض الحلي "كاللوزة"[3] التي اتخذها الأندلسيون من الذهب الخالص لتضفي عليها جمالا أكثر حيث يقول: " إلا كما اللوز في الغفائر".[4]كما بينت لنا أزجال "ابن قزمان" تفضيل الغفائر عن الألبسة الأخرى[5]، خصوصا المصنوعة و المفصلة منها، بإحكام دون سواها من الغفائر التي تباع في الأسواق.[6]

ويبدو لنا من بعض أمثال الزجالي أن الغفائر القرمزية كان لباسها حكرا على الفئات الميسورة الحال، و هذا ما يتضح لنا جليا من قوله: "ثلاثة من الناس ما يلباس غفار، و لا يوقد قنديل في مناره ... صياد بصنارة، و ميّار بحماره، و جنان بخطارة"[7] و في هذا إشارة إلى تعذر استعمال هذا اللباس على الفئات الاجتماعية المتوسطة الحال و الفقيرة، و إجابة "ابن الحاج" المعاصر لفترة و الدراسة تصب في هذا المنحى، لما أجاب على نازلة لزوج ثري طلق زوجته و معها طفل في سن الرضاعة ففرض القاضي للطفل "غفيرة أو طويق خز".[8]

---

[1]- ابن قزمان: ديوان ابن قزمان زجل رقم 78 ص 267.

[2]- و في هذا يقول : أي نهار نخرج و نلبس مزهر فسطوان داري و ثم نغفر

واس خيريا قوم نمشي و مطرطر و نجر أذيال و نفعل و نصنع.

انظر ابن قزمان:نفس المصدر ص 41 – 42 زجل رقم 7

[3] -هي حلية تعلق في قلب البرنس، انظر: المقري: نفح الطيب مج (1) ص 393.

[4]- ابن قزمان: المصدر السابق زجل رقم 146 ص 417، و انظر أيضا: الزجالي: أمثال العوام ج (2) مثل رقم 132.

[5] -ابن قزمان نفس المصدر زجل رقم 24 ص 101.

[6]- نفس المصدر زجل رقم 24 ص 100.

[7]- الزجالي المصدر السابق ص 170، مثل رقم 756.

[8]- ابن الحاج: نوازل ابن الحاج ورقة 90.

ونظرا لكون هذا النوع من اللباس يقتصر على فئة معينة من المجتمع فإن أماكن صناعتها في المغرب لم يرد لها ذكر في المصادر المعاصرة لفترة الدراسة إلا في مدينة سجلماسة. وقد أمدنا "ياقوت الحموى" بنص في غاية الأهمية حيث أن نساء سجلماسة كن يبدعن في صناعة الأزر التي تصنع منه الغفائر القرمزية، و كانت تلك الأزر في غاية الحسن و الأحكام لدرجة أنها فاقت القصب المصري الذي يشتهر بتطريزه بصفائح الذهب و الفضة فيقول: " و لنسائهم –أي نساء سجلماسة– يد في غزل الصوف، فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الأزر، يفوق القصب الذي بمصر يبلغ ثمن الأزر خمسة و ثلاثين دينار و أكثر... و يعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلكن و يصبغونها بأنواع الأصباغ".[1]

ج ــ العمامة:

اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ دخول العمامة لبلاد المغرب، فالبعض يرجع عهدها إلى ألف الثالث أو الثاني قبل الميلاد، أين كان الناس يضعون على رؤوسهم ما يعرف باسم "القنور"[2]، فيما يرى أحد الباحثين إلى أن العمامة أصلها فارسي، نقلت إلى المغرب مع الفتوحات الإسلامية[3]، غير أن "ابن خلدون" في حديثة على عموم البربر يقول: " و رؤوسهم في الغالب حاسرة و ربما يتعاهدونها بالحلق"[4] في حين يشير "البكرى"[5] الذي عاصر الفترة الأولى من عهد الدولة المرابطة إلى أن سكان برغواطة لا يعتمون إلا في حالة حرب مستثنيا من ذلك الغرباء على المنطقة، و هذا يعني شيوع استخدام العمامة خلال هذا العهد و هو ما تؤكده المصادر التاريخية[6] حيث تذكر أن من ضمن هدية يوسف بن تاشفين لابن عمه "أبو بكر بن عمر" مائه عمامة مقصورة.

---

[1]- ياقوت الحموى: معجم البلدان ج (3) ص 217.

[2]- مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، تقديم و تصحيح محمد الميلي ح (1) مكتبة النهضة الجزائرية 2004، 2004، ص 113.

[3] -Sefrioui: (A) costume et parures d'Afrique , Maroc, imprimerie Gaillard CAsablanca 1982 , P13.

[4]- ابن خلدون: العبر مج (6) ص 104.

[5] -كتاب المغرب ص 137 و نظر أيضا: ابن خلدون: المصدر السابق ص 247.

[6]- مجهول: الحلل الموشية ص 27.

ويمدنا صاحب "الاستبصار" بنص في غاية الأهمية يشير فيه إلى عمائم ملوك صنهاجة ذات الشرب المذهبة التي تراوحت قيمتها ما بين الخمسمائة دينار و الستمائة أو أكثر، و التي تفنن المغاربة في صناعتها، فبلغت أجرة ما يأخذه الصانع عن العمامة الواحدة دينارين أو أكثر، و عنها يقول: " كان لملوك صنهاجة عمائم شرب مذهبة يغلون في أثمانها، تساوى العمامة الخمسمائة دينار والستمائة دينار و أزيد، وكانوا يعممونها بأتقن صنعة، فتأتي تيجان، وكان ببلادهم صناع لذلك يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين أو أزيد، وكانت لهم قوالب من عود في حوانيتهم يسمونها الرؤوس يعممون عليها تلك العمائم".[1]

وتشير إحدى "الروايات"[2] إلى اتخاذ خاصة المرابطين للعمائم ذات الذؤاب، و قد فسر "ابن منظور"[3] "الذؤابة" بمعنى أعلى كل شيء، و هذا ما يتفق ما ذكره "المقرى"[4] في قوله: " و الذؤابة لا يرخيها إلا العالم" على اعتبار أن العالم من علية المجتمع.وتستعار للغزة و الشرف فيقال ذؤابة قومهم: أي أشرافهم و هو في ذؤابة قومه: أي أعلاهم[5] و منه يفهم استخدام هذا الزي كتعبير عن علو المرتبة أو الشرف و هذا ما يؤكده "ابن قزمان" في أزجاله حيث يقول: " بالذي يعطيك رضا الأمير، إياك تلثم إلا كبير فالعمامة بالله نغير[6]"، " وعمائم و بيق تساوى مال"[7]، كما أشار أيضا في زجل آخر إلى صعوبة الحصول على عمامة شبيهة لعمائم الولاة المرابطين.[8]

1- مجهول: كتاب الاستبصار ص 129.

2- ابن غازي: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، ص 6.

3- لسان العرب مج (1) ص 443.

4- نفح الطيب مج (1) ص 223.

5- ابن منظور: المصدر السابق، ص 242، 243.

6- ابن قزمان: ديوان ابن قزمان، زجل رقم 70 ص 218.

7- نفس المصدر زجل رقم 87 ص 267.

8- يقول الزجل: عمائم يا أخي نريد *** أو الأمير موسى

مليح من سوسا *** من قد متاع من ولى

وأن عطيتها لي *** حررت مني بوسى

ومن أه مثل أنا *** عمائم ترسل له.

انظر: نفس المصدر زجل رقم 157 ص 431

وتختلف عمائم الملوك و الخاصة عن عمائم العامة من لمتونة و صنهاجة المصنوعة من الصوف و هذا ما يوضحه "الإدريسي"[1] في حديثه عن لمتونة و صنهاجة فيصفهم بقوله: " ولباس الرجال منهم و النساء أكسية الصوف و يربطون على رؤوسهم عمائم الصوف المسماة بالكرازى".أما الأندلسيين فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيما في الناحية الشرقية منه، أما في غربه فلا يلبسها إلا القضاة و المشاورين،[2] و قد ارتبطت العمائم في الأندلس بالبربر حتى عرفوا عرفوا بأصحاب العمائم و الأندلسيون بأصحاب القلانس.[3]

ويبدوا لنا أن لبس العمامة قد لقي استهجان الأندلسيين و حتى بعض المؤرخين أمثال "ابن عذارى" و هذا ما نستنتجه من سياق حديثة عن خبر التعميم حيث يقول: "و كان من أنكى ما ارتكب به عبد الرحمن رجال المملكة و ذوي الهيئات من طبقات أهل الخدمة إثر ولايته للعهد أن أوعز إليهم بطرح قلانسهم... و أمرهم بالانتقال عنها إلى العمائم ضربة وعدهم على التفريط في ذلك بالعقوبة، فاستعان كثير منهم بجيرانهم من البرابر و إخوانهم حتى لبسوها على أكره حال و أشد مشقة... فكانوا بها أقبح منظر و أهجن زي و ملبس لمخالفة العادة، و أصبحوا في الناس فضيحة".[4]و لعل ما يزيد من تأكيد ما ذهبنا إليه ما نال المعتصم بن صمادح(صمادح(أمير المريه) بعد لبسه للعمامة و البرنس من سخرية غريمه المعتمد بن عباد الذي ضاحك به أحد جلسائه في هذا الشأن.[5]وعلى النقيض من ذلك مجد الشاعر "أبو الحسن بن أضحى" الأمير المرابطي"عبد الله بن مزدلي"وأصحابه الذين استردوا سرقسطة من أيدي النصارى مشير إلى عمائمهم معتبرا إياها رمز فخار، و وقار و جمال.[6]

---

[1]- صفة المغرب ص 58

[2]- المقرى: نفح الطيب، مج (1) ص 222.

[3]- حسن أحمد النوش: التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي ص 191.

[4]- ابن عذارى: البيان المغرب، ج 3، ص 48.

[5]- ابن الأبار: الحلة السيراء، ج (2) ص 86، 87.

[6]- فيقول: يأيها الملك مضمون لك الظفر *** ابشر فمن جندك التأييد و القدر

وحولك الصيد من لمتونة وهم *** الأبطال يوم الوغى و الأنجم الإلى أن يقول:

من كل أروع وضّاح عمامته *** كالبدر نحو لقاء الجيش يبتدر

انظر: ابن خاقان: قلائد العقيان ص 532.

مما سبق نلخص إلى نتيجة مفادها أن المجتمع المغربي في عهد المرابطين عرف تنوعا فى لبس العمائم فمنها تلك التي اختص بها الأمراء و الولاة كالعمامة المذهبة ذات الشرب، و العمامة المقصورة و العمامة ذات الذؤابة التي تعبر عن علو المرتبة و الشرف التي لبسها خاصة المجتمع من العلماء و الفقهاء، في حين كانت العمامة المسماة بالكرازى المصنوعة من الصوف يلبسها عامة الناس. فمن نوعية العمامة يمكننا معرفة الفئات الاجتماعية للمجتمع المرابطين و تحديد نوعية الانتماء الطبقي لكل فئة من الفئات

لباس البدن

أ- البرنس: اختلفت المؤرخون في تحديد أصل هذه التسمية فمنهم من ذهب إلى أن أصل التسمية مشتق من الاسم الإغريقي بيروس (Birras) و تعني "الثياب الطويلة"[1] أو من الكلمة الإغريقية بيرنو (Burnu) و تعني أسمر[2] في حين يذهب"البكرى"[3] أن أصل الكلمة مشتق من كلمة "البِرْسُ" و تعني: القطن. أما "ابن منظور[4]" فيعرف البرنس بأنه "كل ثوب رأسه منه ملتزق به" في حين يعرف "الجوهري" البرنس بأنه قلنسوة طويلة كان النساء يلبسونها في صدر الإسلام،[5] و يمنحه"دوزي" نفس التسمية كالجوهري، و يذكر أن الأسبان اشتقوا كلمتهم (Allbarnoz) من الكلمة العربية واصفا إياه بأنه "معطف مقفل مزود بقبعة، يلبس أثناء السفر، و هو مصنوع من قماش لا ينفذ الماء فيه و يستعمل المغاربة هذا النوع من المعاطف كثيرا، أو يتخذونه غطاء".[6]و بمقارنة بسيطة بين ما ذهب كل واحد منهم يتضح لنا أن كل هذه الأوصاف تنطبق على ما يعرف في وقتنا الحالي باسم "البرنوس."

---

[1] - Compas (G) : Berbèrs aux marges de l'histoire، paris 1980, P 90,.

[2] -Sefrioui (A) : Costume et Parures d'Afrique, Maroc, P10.

[3]- معجم ما ستعجم من أسماء البلاد و المواضع، مج I حققه و ضبطه: مصطفى السقا، عالم الكتاب بـــيروت، ط 3، 1983، ص 241.

[4]- لسان العرب مج 6 ص 31.

[5]- نفس المصدر و الصفحة.

[6]- المعجم المفصل بأسماء الملابس العربية ص 66، 70

ونظرا لكون البرنس لباسا اشتهر به المغاربة من القدم نجد بعض المؤرخين أمثال "جوتيه" (Gauttier) يرى أن الذي دعى العرب إلى تقسيم البربر إلى: برانس، و بتر أنهم ميزوا بين البرنس الطويل المخروط، و جعلوه زيا للبرانس، و البرنس الصغير أو المبتور و نسبوه إلى البربر البتر[1]، غير أن "جوتية" قد حاد عن الصواب في تفسيره هذا، حيث أن المصادر تشير إلى البرنس دون تمييز بين البرنس الطويل و القصير و حسبنا في ذلك أن "ابن خلدون"[2] في كتابه العبر قد أشار إلى لباس البرنس كزي موحد من غير تمييز المبتور عن الطويل.

وتعددت ألوان البرنس في العصر المرابطي بين الأبيض و الأسود و الأحمر، و هذا ما توضحه لنا هدية يوسف بن تاشفين لابن عمه أبي بكر بن عمر التي كان من ضمنها مائتي برنس منها: "بيض،و كحل، و حمر".[3]ويشير "دوزى"[4] إلى أن البرانس السود كانت لباسا لليهود القاطنين بمراكش في حين يلبس بقية الناس البرانس البيض و الحمر، لكن و بعودتنا إلى المصادر تبين لنا أن لباس البرانس السود لم تكن حكرا على اليهود فحسب، "فابن خلدون" يشير إلى أن سكان المغرب القديم –في حديثة عن البربر– كانوا يلبسون "البرانس الكحل".[5]ولعل ما يزيد في دحض دحض ما ذهب إليه "دوزي" من كون لباس البرانس السود مقتصرا على اليهود فقط النص الذي جاء به "البكرى" المعاصر للفترة الأولى من عصر الدولة المرابطية و الذي يشير فيه إلى أن سوق "نكور"[6] كانت حافلة "يعمل بها برانس سود لا ينفذها الماء".[7]وعلى العموم، فإن البرنس البرنس يعد الزي الرسمي للمغاربة منذ القدم لتسمى باسمه[8]، و تجاوز لباسه بلاد المغرب ليشمل الأندلس.و يفهم من بعض النصوص مدى اهتمام الأندلسيين بالبرنس حتى أنه كان من ضمن

---

[1] - Gautier (E.F) : <u>le passe de l’Afrique du nord,</u> ,p p 225- 227- 230.

[2]- <u>العبر</u> مج 6 ص 104.

[3] -مجهول: <u>الحلل الموشية</u>، ص 27.

[4]- <u>المعجم المفصل</u> ص 70.

[5]- ابن خلدون: المصدر السابق، ص 104

[6]- مدينة بالمغرب الأقصى بالقرب من مليلة لا تبعد عن البحر كثيرا سميت بهذا الاسم نسبة لنهر بها يسمى نكور: انظر الحميري: <u>الروض المعطار</u> ص 576- 577.

[7]- البكري: <u>كتاب المغرب</u>، ص 155.

[8]- من الذين تسموا بأبي تبرنوست أبو وجلوط تونارت المشترائي و هو عبد صالح زاهدا في الدنيا كان مجاب الدعوة، انظر: ابن الزيات: <u>التشوف إلى رجال التصوف</u>، ص 236.

الهدايا الملوكية التي ذكرت في عهد الحكم الثاني المستنصر[1] كما تزي به بعض الأمراء الأندلسيين، وحسبنا في ذلك "المعتصم بن صمادح" صاحب "المرية" الذي حمل العمامة و لبس البرنس.[2] و لإضفاء الطابع الجمالي عليه زودت البرانس في الأندلس بزخارف و أطرزة كاللوزة -و هي حلية تعلق في قلب البرنس- مصنوعة من خالص الذهب و مرصعة بالجوهر و الياقوت[3]، غير أننا لم نجد لتلك الزخرفة ذكر في بلاد المغرب، و ليس من المستبعد أن تشمل تلك الزخرفة البرانس المصنوعة في المغرب خصوصا، و أن الفئة الحاكمة دائما تسعى إلى التميز، فاتخذت برانسها من رقيق الصوف و الحرير و الديباج، فكانت أثمانها تختلف وفق نوعيتها و جودتها فبلغ مثلا الزوج من برانس "نول لمطة" "خمسين دينار و أقل و أكثر"[4] و اشتهرت مدينة مدينة "نكور" بصناعة البرانس السوداء التي لا ينفذ منها الماء[5]، في حين اختص "جبل مديون" بصناعتها فأصبحت تعرف بالبرانس المديونية.[6]

ولعل أهم نتيجة نخلص به حديثنا عن البرنس، أنه إلى جانب وظيفته كلباس، كانت له دلالات أخرى ربما يكون لبعضها البعد السياسي وحسبنا في ذلك أن الاسم الذي أخذه المكان الذي اجتمع فيه يوسف بن تاشفين مع ابن عمه أبي بكر بن عمر، لما أراد هذا الأخير التنازل له عن الحكم سنة 465هـ/1072م، فبعد أن جلسا على برنس بسط لهما سمي هذا المكان "بفحص البرنس"[7] تخليدا لذكرى التنازل أخذ بُعد و دلالة أخرى حيث أصبح فرش البرنس مظهرا من مظاهر التقدير و علو المكانة، فهو مما فرش لأمير تلمسان مزدلي بن تلكان.[8]

---

[1]- المقري: نفح الطيب، مج 1، ص 393.

[2] -ابن الأبار: الحلة السيراء، ج 2، ص 86، 87.

[3]- المقري: المصدر السابق، ص 393.

[4]- الإدريسي: صفة المغرب، ص 89.

[5]- البكري: المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب ص 155.

[6]-ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص 141.

[7]-ابن عذارى: البيان المغرب، ج 4، ص 25.

[8]- ابن الزيات: التشوف، ص 91.

لباس القدمين

يجد الدارس صعوبات جمة عند تناوله لباس القدمين، و هذا نظرا لإهمال المؤرخين له إذ نادرا ما تشير إليه المصادر، كما أن مجال التطور والتحديث فيه يعد محدودا، ولتغطية هذا النقص اعتمدنا على بعض الإشارات الواردة في النوازل و الكتب الفقهية، ومن ألبسه القدمين المعروفة في العصر المرابطى نذكر

أ ــ النــعال: تعد النعال من ضمن عدة أنواع من لباس القدمين الذي لبسه الخاصة و الأعيان، و لعل أشهرها ما انتعله الحكام من نعال جلدية التي تتخذ أساسا من فراش جلدي أو نحوه يوضع فوق القدم، ويشد إليها بواسطة شريطين من الجلد يمر أحدهما وسط الرجل و الآخر بين الأصبع الأكبر و الذي يليه.[1] و يبدو لنا من خلال كتب الحسبة أن صانعي النعال عادة ما يلجئون إلى أساليب الغش و عليه كان حرص المحتسبين على منع صانعيها من تغليظ حواشيها قبل خرزها، مع منع الذين يفصلون الجلد الطري أن يحدوا على موضع القطع بقفا السكين أو بحديدة يتخذونها لإخفاء رقّة الجلد.[2] و يفهم من الإشارة التي أوردها "المراكشي"[3] أن النعال كانت من ضمن ألبسة القدمين التي يلبسها الأعيان حيث يشير إلى أن "ابن تومرت" كان يضرب شاربي الخمر بالنعال تشبّها بالصحابة[4] كما لبسها العامة من الناس، وحسبنا في ذلك الرواية التي أوردها صاحب "المستفاد" حيث يقول: "و نزعنا ما كان بأرجلنا من النعال و الأقراق بجري الماء"[5] تحسبا لأي طارئ.

ب ــ الخف: يعتبر الخف من بين ألبسة القدمين التي لبسها الناس في عهد المرابطين سواء كان ذلك في المغرب أو الأندلس، و الخف هو ما يلبس في القدمين إلى الكعبين، و قد يطول إلى نصف الساق أو يقترب من موضع الركبتين، و يتخذ من الجلد أو من الصوف أو الكتان أو

---

[1]– ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة،تحقيق د عبد الهادي التازي، دار الغرب الاسـلامي، ط 1 بـيروت 1964 ص 117، ابن عذارى: البيان المغرب، القسم الموحدى، ص 68.

[2]–ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة و المحتسب، ص 94

[3]– المعجب، ص 136.

[4]– نفس المصدر والصفحة

[5] –التميمي: المستفاد، ق (2)، ص 33.

غيره.[1] ويتضح لنا من خلال الكتب الفقهية أن الخفاف تعددت أنواعها و أشكالها، و لعل أكثرها رواجا الخفاف الصّرارة لأن النساء يستعملنها عامدات فيلبسنها و يمشين في الأسواق و مجامع الناس فيسمع صريرها و عليه فقد نُهي على لباسها كما نُهي الخرازون عن صنعها فإن تمادوا في ذلك نزلت عليهم العقوبة حسب رأي بعضهم.[2] و لم يقتصر لباس الخفاف الصراة على النساء فحسب بل هناك من الرجال من أقدم على لبسها و هذا من باب إظهار الأناقة و حبا للترف غير أن لبسها لم يلق استحسانا لدرجة أن لابسها شبهوا بالمغنى و الزامر.[3]

ج ـــ القرق: هو نوع من النعال يعرف صانعها بالقراق عرفت انتشارا واسعا في المغرب و الأندلس، و عليه فقد حرص رجال الحسبة على اختبار جلودها وتنظيفها قبل الشروع في صناعتها، و هذا ما يتجلى في قول "الجرسيقي"[4]: "و كذلك القراقين، في اختبار الجلد و اعتدال تبشيرها و تنظيفها".و يمدنا "ابن عبد الرؤوف" بنص في غاية الأهمية يوضح فيه الطريقة المستعملة في صناعة القرق و ما يمنع على القراق عمله، و تبيان نوعية المواد المستعملة في القرق، كأن يكون الخيط من قنب و يكون كعب القرق من أفراخ الجلد البقري المبلولة بالغراء ، و هذا ما يوضحه في قوله: "و كذلك يمنع القراقون ألا يخرزوا وصلا يقع في القرق إلا بشعرتين و أن يفصلوه كاسيا خفية أن يقع خرز النعال على التوصيل و أن يقربوا أيديهم في خرز النعال و يكون، الخيط من قنب، و يكون كعب القرق من أفراخ الجلد البقري مبلولة بالغراء، و لا يجعلوا فيه و لا تحت النعال طفلة، فإن فعلوا غير ما حدّ لهم فتق عليهم و عوقبوا".[5]

وانتشرت صناعة الأقراق و لبسها في شتى أنحاء المغرب، فخصصت لها أسواق لبيعها كان أشهرها أسواق مدينتي فاس و سبتة.[6] وتعدى انتشار الأقراق حدود المغرب الأقصى ليشمل

---

[1]- ابن أبي زيد القيرواني: النوادر و الزيادات،مخطوط، بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة، ميكر و فيلم رقم 125، فقه مالكي ج (3)، ورقة 77.

[2]- الونشريسي: المعيار ج (6) ص 420 و انظر أيضا، يحي بن عمر: كتاب أحكام السوق، تحقيق محمود على مكـــي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد مج (4)، عدد1، 2، 1956، ص 126

[3]- يحي بن عمر: نفس المصدر و الصفحة.

[4]- رسالة في آداب الحسبة و المحتسب، ص 124.

[5]- ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة و المحتسب، ص 95

[6]- ابن القطان: نظم الجمان، ص 268.

المغرب الأوسط، كما تنوعت أشكال القرق فمنها العادية، و منها الزرارية أي التي كانت تصنع بأزرار، و قد نهى ابن تومرت عن لبسها أثناء تواجده بمدينة بجاية وعدها من بين أزياء النساء.[1]

د ـــ البلغة: تعتبر البلغة أيضا من بين ألبسة القدمين التي انتشر لباسها في عصر المرابطين، و البلغة عبارة عن نعل مشدود عليه رقعة مشدودة بحبال،[2] و تنوعت أشكال البلغات منها ما اتخذ من الحلفاء، و منها ما كان فراشه من خشب الفلين.[3]وتعد البلغة في العصر المرابطي أهم لباس الفقراء و الزهاد،[4] و قد أجاز الفقهاء المسح على البلغة قياسا على الخف إذا كانت الرقعة تستر محل الوضوء.[5]و إلى جانب البلغة لبس المغاربة "الهراكس و تعني بلسان أهل فاس الأحذية الأحذية الخشنة أو البالية، و قد أجاز الفقهاء الصلاة بها إذا أدخل رجليه فيهما على وضوء.[6]أما وضوء.[6]أما "الأمنوق" :فهي نوع من الأخفاف المصنوعة من الجلد و قد تكون من الصوف، كما لبس المغاربة ما يعرف بالسباط الشفارى الذي أجاز الفقهاء أيضا المسح عليه في حالة الوضوء.[7]

لباس الأعيان والعلماء

كان لقيام الدولة المرابطية في بلاد المغرب أن تلاه تغير في التشكيلة الاجتماعية للمجتمع المغربي فضمت فئة الأعيان أقرباء يوسف بن تاشفين من لمتونه، إلى جانب أعوان الدولة المرابطية من الكتاب و القضاة و الفقهاء و علماء الدين، الذين كانوا في رغد من العيش، و هذا انظر لما

1- البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، ص 13.

2- الونشريسي: المعيار ج(1)، ص 13.

3 -Sefrioui (A): Les Babouches (El Balgha) la Grande Encyclopédie du Maroc، Imprimer en Italie GEP, édition n°= 2, 1987, P126.

4- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل و التكملة السفر (6)تحقيق احســـان عبـــاس،دار الثقافـــة،بيروت ط 1، 1983 ص451.

5-الونشريسي: المصدر السابق، ص 13.

6- نفس المصدر، ص 12، 13.

7- نفس المصدر، ص 13.

نالوه من حظوة و نفوذ في العصر المرابطي[1]، و عليه فإن أغلب المصادر التاريخية تسمي هذه العناصر من المجتمع بفئة الأعيان، و وصفتهم بأنهم "نظفاء الملبس، حسناء الهيئة".[2]وتشير إحدى الروايات[3] بأن الأمراء المرابطين لم يتشددوا في اتخاذ أزياء خاصة بهم تميزهم عن خاصتهم سيما إذا كان لها نفس الانتماء القبلى و حسبنا في ذلك ما أورده "ابن عبدون"[4] حيث يقول: " و لا لا يلتثم إلا صنهاجي أو لمتوني أو لمطي"، و انطلاقا من ذلك فإن أفراد القبائل الصناهجية كانوا يتزينون بنفس أزياء الحكام.[5]

وقد أمدتنا المصادر المعاصرة لفترة الدراسة بعدة أزياء اعتادت على لبسها مختلف الشرائح الاجتماعية في العهد المرابطي غير أن ما يميز لباس الأعيان عن غيرهم هو دقة صنعه و جودة مادته، فكانت ملابسهم رفيعة ناعمة[6] خصوصا و أن المغرب و الأندلس على عهد المرابطين يزخر بالعديد من المناطق و الأماكن التي اختصت في تلك الصناعات نذكر منها: بلاد السوس[7]، و نول لمطه[8] و سجلماسة[9]، أما الأندلس فقد بلغت المرية فيها شأنا كبيرا فعدّ "الإدريسي"[10] بها ثمانمائة طراز من الحرير، أين وجدت فئة الأعيان ضالتها فيما تنتجه تلك المصانع من الثياب الرفيعة.و من بين الملابس التي اعتادت فئة الأعيان لبسها البرانس ذات الشارات و في هذا الصدد يذكر "المقري"[11] أن أحد فقهاء مدينة "سبتة" جاء يوما و عليه برنس أبيض، و قد حسنت شارته وكملت هيئته فنظر إليه بعض أصدقائه و أنشد:

لبس البرنس الفقيه فباهي *** و رأى أنه المليح فتاها

---

[1]- عن المكانة التي حظيت بها فئة الأعيان، انظر:المراكشى : المعجب، ص 115- 125.

[2] -المراكشي: الذيل و التكملة السفر الأول،القسم الأول ، تحقيق ،بنشريفه، دار الثقافة،بيروت ص 71.

[3]- ابن غازي: الروض الهتون، ص 6.

[4]- رسالة في آداب الحسبة و المحتسب، ص 28.

[5]- ابن غازي: المصدر السابق ص6

[6] - البكري: كتاب المغرب، ص 147، الإدريسي: صفة المغرب، ص 62.

[7] - الإدريسي: نفس المصدر و الصفحة

[8] - نفسه ص 56.

[9] - البكري: ، ص 147.

[10]- صفة المغرب، ص 197.

[11]- أزهار الرياض، ج (5)، ص 17.

و لو زليخا رأته حين تبدّى *** لتمنّته أن يكون فتاها

و إلى جانب البرانس ذات الشارات هناك من الفقهاء من لبس الثياب المطرّزة، رغم نهي بعضهم على لبسها[1]، كما تزيوا بأجود المنسوجات خاصة الأندلسيين منهم الذين عجّ بهم البلاط المرابطي.

و قد أمدّنا صاحب "الحلل الموشية"[2] بنص يمكننا منه تحديد لباس الأعيان من خلال هدية يوسف بن تاشفين لابن عمه أبي بكر بن عمر التي تضمنت "سبعمائة كساء مصبوغة" كما ذكر نوعا آخر من منسوجات الصوف الرفيعة اعتاد الأعيان على لبسه و هو "الأشكرى"[3] نسبة إلى مدينة "أشكر" الأندلسية التابعة لإقليم غرناطة المعروفة بجودة أغنامها.[4]ومن الألبسة التي ذكرها أيضا الجلباب المسمى "اشكرلاط ملف"[5] و هو نوع من الثياب الصوفية الرفيعة تخاط منه الأكسية والأردية، وكان الملف من الألبسة المشهورة في أزياء الأندلس سيما لدى سكان مدينة غرناطة،[6] و شاع استخدامه من قبل الأعيان في العصر المرابطي. وأورد "صاحب الحلل" في سياق حديثة عن هدايا يوسف بن تاشفين "مائتي قبطية شال،[7] و هي قطعة طويلة من من نسيج رقيق تلف فوق غطاء الرأس[8]، والراجح أنها من ثياب الكتان الأبيض المصنوعة في مصر.و إلى جانب قباطي شال ذكرت المصادر المعاصرة لفترة الدراسة نوعا آخر من "القباطي" و هو عبارة عن لباس دون أكمام، و هذا ما أوضحه لنا ابن قزمان[9] فى زجله القا ئل

أنا بالقباطي مغرا *** إنها أشكال و أطرا

1- الونشريسي: المعيار ج 11 ص 187- 188.

2 - مجهول ، ص27.

3- نفسه، ص 27.

4- ابن الخطيب: معيار الاختبار في ذكر المعاهد و الديار، ص 87

5- مجهول : المصدر السابق، ص 27 هامش 41.

6- ابن حوقل: صورة الأرض، ص 110

7- مجهول : المصدر السابق، ص 27.

8 - دوزي : المعجم المفصل، ص 266.

9- ديوان ابن قزمان ص 313 زجل رقم 98.

القباطي عندكم أحكم *** لس نريد ثوبا مكموم

ويتضح لنا من خلال أمثال العامة أن البعض منهم كانوا يتطلعون في الظهور بملابس الأعيان[1]كما مال الرجال خصوصا من الطبقة المترفة إلى لبس الحرير المصنوع على شكل خيوط خيوط فضية و ذهبية توشى بها الأقمشة مما يزيد من قيمتها[2] و هو ما نهى عنه ابن تومرت مع بداية الدولة الموحدية.[3]

لبـــاس المتصوفـــة

عرف العهد المرابطي ظهور أقطاب التصوف بالمغرب و الأندلس وشاع السلوك الزهدي و فشت في المجتمع ظاهرة الصلحاء و الأولياء، لدرجة جعلت "ابن قنفذ"[4] يصنف أرض المغرب المغرب بأنها "تنبت الصلحاء كما تنبت الكلأ" فانتشر المتصوفة في البادية و الحاضرة.[5]و اتصفت اتصفت فئة المتصوفة في العصر المرابطي بالورع و ترك الطمع و الزهد في الدنيا، و القناعة باليسير، و هذا ما حذا بصاحب "التشوف[6]" إلى وصفهم بقوله: "مقتوا الدنيا، فما مالوا إلى ملاعبها... و استطالوا مدة المقام بها".

ونظرا لكون اللباس أهم مظهر خارجي يجسد سلوك الصوفي و من أهم المؤشرات الدالة عليه فإنه لم يكن عندهم إلا للضرورة المحققة لإغراض محددة منها "فكان لباسهم ما ستر و طعامهم ما حضر".[7]و جاء حرص المتصوفة على التقشف في اللباس كمظهر من مظاهر التقوى و حسن حسن السيرة، حتى أن الشيخ "أبو العباس السبتي" اعتبر سر فرض الحج هو أن يبرز الإنسان في

---

[1]- انظر عن ذلك مثلا المثل القائل:" أفقر من قايد شبيوط اللي كان يرقع قبطية بقشور البطيخ"، الزجالي: أمثال العوام ج (2) ص 108 مثل رقم 483.

[2]- الونشريسي: المعيار ج (3)ص 311.

[3]- ابن تومرت: أعز ما يطلب ص 258.

[4]- أنس الفقير و عز الحقير، تحقيق اودلف فور و محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي ،الربـــاط،1965، ص 63.

[5]- انظر عن ذلك مثلا تراجم الصوفية الواردة في كتاب التشوف

[6]- ابن الزيات: ص 19.

[7]- نفس المصدر و الصفحة.

زي المساكين محلوق الرأس أشعث، و لبس الأخلاق، و التحرر من ثياب الرفاهية، و التذلل لله عز وجل و إظهار العبودية.[1] و بلغت درجة عزوف بعضهم عن اللباس أن منهم من تصدق بثيابه و بقي عريان[2] و منهم من ليس عليه ما يواريه إلا خرقة توارى عورته[3] في حين بلغت الفاقة بالبعض درجة كبيرة حتى أن أحدا منهم ولدت زوجته و لم يكن له إلا كساء فقسمه نصفين، أعطاها النصف، و لبس هو النصف الآخر[4] و بتصفحنا لكتب المناقب يتجلى لنا استعمالها لغة التقشف للتعبير عن بعض أحوال المتصوفة في اللباس حتى أن هناك من لقب بها و حسبنا في ذلك أن الشيخ أبو يعزي كان يكنى بأبي "وجرتيل"[5] و معناه أبو حصيرة،[6] و قد وصفت ملابسهم بمفردات و صفات عديدة كالمرقعة[7] و الخرق[8] البالي و التليس[9]، و الحلس[10].و يبدوا لنا من المترادفات التي استعملها المتصوفة أنها منتقاة سعيا منهم للتعبير عن تجربة صوفية تقشفية محسوبة بدقة لديهم.ومهما يكن من أمر فقد ظل اللباس المتواضع رمزا من رموز المتصوفة، و حسبنا في ذلك قول أحد المتصوفة لرجل أراد التصوف "أزل عنك هذه

---

[1]- الصومعي: كتاب المعزي في مناقب سيدي أبي يعزي، تحقيق على الجاوي، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بأكادير، جامعة ابن زهر 1997، ص 78.

[2]- ابن الزيات: التشوف، ص 143.

[3]- نفسه ص 349.

[4]- نفسه ص 120.

[5]- وجرتيل كلمة أمازيغية و تعني الحصير، و لا زالت تطلق عليه إلى يومنا هذا.

[6]- ابن الزيات: نفس المصدر ص 176، و انظر عن اتخاذ الحصير كغطاء ابن الزيات :نفس المصدر ص 306.

[7]- التميمي الفاسي: المستفاد ق (2) ص 32.

[8]- الخرقة: تعني القطعة من خرق الثوب، و الخرقة المزقة منه، و يقال خرقت الثوب إذا أشققته، و يقال للرجل الممـــزق الثياب منحرف السربال، انظر: ابن منظور: لسان العرب مج (10) ص 78.

[9]- تليس جمع التلاليس وتلاس بالاسبانية (Teliz) عبارة عن قطعة كبيرة من نسيج خشن من صوف أو شعر الماعز أو الخوص، يستعمل كبساط أو غطاء أو لباس، و قد يتم تخيطه ليعمل منه أكياس لحمل المزروعات، انظر: ابن منظور: لسان العرب مج (6) ص 39 و انظر أيضا:

M: Benchaneb: Observations Sur Mot "Teliz" Son Origine Revue Africaine N°= 287 année 1912, P56 . وانظر أيضا: دوزي: المعجم المفصل ص 245

[10]- هو كساء أو لبس أو شيء يجعل على ظهر البعير تحت القنب يلازمه، انظر: القاضي عياض: مشارق الأنوار علـــى صحاح الآثار بيروت، دار صادر 1984 ص 143.

الثياب... و اخرج فارّا بنفسك في طلب الصالحين"[1].وعلى هذا الأساس يمكننا تحديد لباس المتصوفة والذي يتمثل فيما يلي :

أ ــ **الخــرقــة:** تعتبر الخرقة أهم قطعة في لباس المتصوفة و هي تشير إلى الثوب أو الرداء الغليظ الذي يلبسه الفقراء لاسيما المتصوفة منهم[2] و تعد الخرقة لدى المتصوفين بمثابة العهد لديهم، يرعى حقها و حق من أخذت منه و هي على نوعين:خرقة العهد، و خرقة البترك، فخرقة البترك تلبس و تعطى لكل من يطلبها من باب التبرك شريطة أن يرعى فيها حق الأدب.أما خرقة العهد، فلا يلبسها إلا من دخل في الطريق، و كان في عقد أهلها و سلك مسلكها على المنهج القويم.[3]

ويعتبر المتصوفة لبس الخرقة بمثابة سند مبارك و وسيلة يتصل بها المريد (المتصوف) عن طرق شيخه –بخالقه-.[4]ويمدنا "الصومعي" بنص يوضح فيه كيفية لبس الخرقة لأحد متصوفي المغرب فيقول: "طلبت من الشيخ أحمد زروق أن يلبسني الخرقة على طريقة القوم فقال: لي هات طاقية، فأتيته بها، أكسنيها بيدك فكسوته إياها، ثم قال لي: اجلس فجلست بين يديه مستقبل القبلة، و كان مستقبلا فسمى الله علي فكساني" فلبس الخرقة ارتباط بين الشيخ و المريد و تسلسل في سند الطريقة "ألبسته الخرقة كما ألبسني، و حدثته بها كما حدثني بأسانيده عن شيخه الذي ينتمي إليه فهي من رواية الأكابر عن الأصاغر[5]".

و إلى جانب الخرقة لبس متصوفة المغرب في عصر المرابطين ملابس أخرى يغلب عليها الطابع الخشن، فتذكر المصادر أن أحد متصوفة مدينة فاس ارتدى في فصل الصيف "دراعة"[6] من قطن مصبوغة و طاقية، و مئزرا قصيرا على الرأس، أما في الشتاء فيزيد دراعة ثانية من

1- ابن الزيات:التشوف ص302
2- دوزي: المعجم المفصل ص 126.
3- الصومعي: كتاب المعزي في مناقب سيدي أبي يعزي ص 355.
4- نفس المصدر ،ص 348.
5- نفس المصدر ص 350، 351.
6- الدراعة و المدرع: ضرب من الثياب التي تلبس، و قيل جبة مشقوقة المقدم: انظر ابن منظور: لسان العرب مـــج (8) ص97.

قطن.[1] وتمدنا كتب المناقب بقرائن كثيرة تثبت تقشف الصوفية في الملبس واقتصارهم على الخشن منه، و حسبنا في ذلك أن الشيخ" أبو الفضل يوسف بن يوسف" المعروف بابن النحوي أخذ نفسه بالتقشف، فهجر اللين من الثياب، و لبس الخشن من الصوف، و كانت جبته إلى ركبته".[2] أما الشيخ أبو يعزي فكان يلبس برنس أسود مرقع يصل إلى تحت ركبتيه و على رأسه شاشية من عزف وجبة من تليس مطرق[3].

و توضح لنا كتب المناقب شدة تقشف المتصوفة في لباسهم فكان الشيخ أبو الحجاج يوسف المعروف بالفرّار ممن انقطع إلى الله و لا يملك إلا جبة صوف.[4] و من ضمن ألبسة المتصوفة أيضا أيضا الكساء و العباءة و الإحرام[5] و السراويل المصنوعة من الصوف ، فكان أبو محمد عبد السلام يلبس كساء خشنا على جلده،[6] في حين كان لباس أبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير المتوفى سنة 520هـ /1126م عبارة عن عباءة من صوف تصنعها له زوجته من صوف أضحيته.[7] أما أبو العباس أحمد بن لب السلاوى، فكان لباسه الإحرام و السراويل المصنوعة من الصوف.[8]

أما فيما يخص أغطية الرأس فكان أشهر ما لبسه المتصوفة هي الشاشية من العزف[9] و العمامة[10] و الغفارة[11] و بالنسبة للباس القدمين فقد انتعل البعض منهم النعل[12]، و النعل

---

[1]- التميمي الفاسي: المستفاد، ق (2) ص 17.

[2]- ابن الزيات: التشوف ص 82.

[3]- التميمي الفاسي:المصدر السابق ص 33، ابن الزيات:المصدر السابق ص 175.

[4]- التميمي الفاسي: نفس المصدر ص 141.

[5] -مصدر إحرم و القصد به هو الثوب الغير مخيط انظر: ابن منظور: لسان العرب مج (12) ص 141.

[6]- ابن الزيات: المصدر السابق ص 91.

[7]- نفس المصدر: ص 87.

[8]- التميمي الفاسي: المصدر السابق ص 144.

[9]- نفسه ص 33.

[10]- نفسه ص 77.

[11]- نفسه ص 144.

[12]- المراكشي: المعجب ص 136.

المرقع[1]، والبلغة[2]، و منهم من كان حافي القدمين.[3]أما النسوة المتصوفات فكان لباسهن الكساء الكساء و الجبة، و في الوقت نفسه يتخذن الخمار المصنوع من الصوف كعطاء لرؤوسهن.[4]

ــ ثيــاب العامــة:

تنوعت ألبسة طبقة العامة خلال العصر المرابطي بين الجبة و الكساء، و العمامة و السراويل و البرانس و الدراعة و غيرهما.و الغالب على تلك الألبسة أنها مصنوعة من الصوف على اعتبار أن لباس الصوف يعد لباسا عاما شاع استعماله في بلاد المغرب، فتشير المصادر التاريخية إلى لبس الجبة المصنوعة من الصوف، في شتى أنحاء المغرب و الأندلس.[5]و عن لباس العامة للكساء و و العمامة تشير بعض المصادر الجغرافية المعاصرة لفترة الدراسة إلى أن قبائل صنهاجة رجالا و نساءا كانوا يلبسون أكسية الصوف، ويربطون على رؤوسهم عمائم الصوف المسماة بالكرازي. [6]

ويبدوا من بعض الإشارات الواردة في المصادر أن كل منطقة من مناطق المغرب لها لباس تتميز به وحسبنا في ذلك مثلا أن أهل "السوس" قد اختصوا بلباس الأكسية من الصوف التفافا كما كانوا يحتزمون في أوساطهم بمآزر صوف المعروفة لديهم باسم " أسفاقس".[7]أما أهل وجدة فقد ارتدوا الأكسية المسماة "بالعبيدى"، [8] في حين كان إقبال عامة فاس على ثياب "النصافي"[9] الذي كانوا يتهادونه فيما بينهم إذ تشير إحدى رسائل الجنيزة المؤرخة في سنة 535هـ /1140م الصادرة من تاجر أندلسي كان بمدينة فاس إلى والده بالمرية يذكر له فيها أنه

---

[1]- ابن الزيات: التشوف ص17.

[2]- ابن عبد الملك المراكشي: الذيل و التكملة، السفر (6) ص 58.

[3]- ابن الزيات: المصدر السابق ص 64، 104.

[4]- نفسه ص 92.

[5]- انظر عن ذلك مثلا: التميمي الفاسي: المستفاد ق 2، ص 32، 86، مجهول: الحلل الموشية ص 27.

[6]- الإدريسي: صفة المغرب، ص 58.

[7]- نفسه ص 62.

[8] -مجهول: الاستبصار، ص 177.

[9]- عبارة عن قماش ثمين من الحرير أو الكتان، للمزيد انظر:

Goitien (S.T) Letters of Medieval Jewish Trades, London، 1973, P54.

بإمكانه بيع كل النصافي في مدينة فاس، و أنه باع عشرة أزواج منها بمبلغ ثمانين دينار، بما في ذالك العشرة الرديئة.[1]

ومن ضمن الألبسة العامة أيضا السراويل، و هي عادة ما تتألف من مجرة و ساقين، و لعل ما يميزها عن باقي اللباس أنها تستر من الجسم أسفله و تكون مفصلة و مخيطة، و هي على أنواع منها سراويل أسماط أي محشوة وسراويل مخرفجة ومفرخسة و هي السراويل الواسعة .[2]وتعد السراويل لباسا عاما لبسه أعاظم الناس و أصغارهم و عليه فإنها تختلف في شكلها و نوعها و لونها من فئة إلى أخرى، لأنها اتخذت من قبل مختلف الطبقات التي تتفاوت في المركز الاجتماعي و المادي.

كما لبس العامة البرنس الذي يعد أكثر الملابس شيوعا ببلاد المغرب خصوصا و أن سكان البربر جميعا يرتدون البرانس البيضاء و السوداء على حد سواء،[3] وكما هو معروف، فالبرنس لباس صوفي كان يستعمل في فصل الشتاء للوقاية من البرد و المطر، و نظرا لكونه أكثر الألبسة انتشارا فقد اشتهر في عدة مناطق بصناعته مثل "نكور" و "جبل مديون" اللتين اشتهرتا بصناعة البرانس التي لاتنفذ منها المياه.[4]كما لبس العامة الدراعة[5] المصنوعة من قطن والمصنوعة صيفا ويزيدون شتاءا دراعة ثانية.[6]

وعن لباس الأندلسيين أمدّنا المغني زرياب بنص في غاية الأهمية حيث بيّن نوعية الملابس و الألوان التي يرتد ونها حسب اختلاف الفصول، فكانوا يلبسون اللباس البيضاء من أواخر شهر جوان إلى أول شهر أكتوبر، أما في باقي السنة فكانوا يلبسون اللباس الملونة، فكان لباسهم في

---

[1]- أمين الطيبي: جوانب من النشاط الاقتصادي بالمغرب من خلال رسائل جيزة القاهرة، مجلة البحوث التاريخية، منشورات جامعة محمد الفاتح، ليبيا السنة السادسة العدد II 1984، ص 471- 472.

[2]- ابن منظور: لسان العرب مج (11) ص 399، 400.

[3]- ابن خلدون: المقدمة ص 104، و انظر أيضا مجهول: الحلل الموشية ص 27.

[4]- البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، ص 155، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص 141.

[5]- نوع من الثياب التي تلبس، وقيل جبة مشقوقة المقدم انظر: ابن منظور: المصدر السابق مج (8) ص 97.

[6]- التميمي الفاسي: المستفاد ق (2) ص 17.

فصل الربيع عبارة عن جباب الخز[1] و الملحم[2] و المحرر و الدراريع التي لا بطائن لها لخفتها أما آخر الصيف وأول الخريف فكانوا يلبسون المحاشي المروية و الثياب المصمتة وما شابهها من الثياب الخفيفة الملونة ذوات الحشو و البطائن الكثيفة، أما في فصل الشتاء فينتقلون إلى أخشن منها من الملونة و يضيفون من تحتها صنوف من الفراء إذا احتاجوا لذلك .[3]

لبـــاس الذمـــيـــين:

أولى التراث الفقهي عناية فائقة للعلاقات التي جمعت المسلمين وأهل الذمة، فرسمت اجتهادات الفقهاء العلاقات الاجتماعية التي تربط كلا الفئتين ضمن ما يعرف أحكام أهل الذمة ،و ضمن ما تناولته مجموع تلك الأحكام صفة لباس أهل الذمة التي أفردت لها حيزا مهمّا، و لم يكن ذلك وليد عصر المرابطين بل يعود إلى أبعد من ذلك بكثير، و تحديدا إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، حينما كتب نصارى الشام وثيقة تعهدوا فيها برسم العلاقة بينهم و بين المسلمين، و من ضمن ما جاء فيها صفة لباسهم و منها قولهم : " و لا تتشبه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة، ولا عمامة و لا نعلين ...و أن نلتزم زيّنا حيثما كان و أن نشد الزنانير على أوسطنا ".[4]

ونظرا لكون أهل الذمة من بين الفئات المشكلة للمجتمع المرابطي خاصة بعد ضم الأندلس إلى سلطة الدولة المرابطية فإنه من خلال هذه الوثيقة يمكننا تحديد معاملة المرابطين لأهل الذمة فيما يخص زيهم. و لعل السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هو هل التزم أهل الذمة بزيهم خلال العهد المرابطي أو خالفوا ذلك ؟.

إن الإجابة على هذا التساؤل يكمن فيما جاء في كتب الحسبة أين دعا رجال الحسبة إلى التشديد على أهل الذمة في لباسهم فطالب" الجرسيقي"[5] بمنعهم من "التزيي" بما هو من زي

---

[1]- ثياب أصوله عربية ينسج من صوف و ابر يسم انظر ابن منظور: لسان العرب مج (5) ص 404.

[2]- نوع من الثياب الذي اشتهرت به الأندلس. ابن منظور: نفسه مج 12 ص 637.

[3]- المقري: نفح الطيب مج (3) ص 128.

[4]- الونشريسي: المعيار ج (2) ص 237.

[5]- رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص 122.

المسلمين، أو بما هو فيه أبّهة و ينصب عليهم علما يمتازون به من المسلمين كالشكلة في حق الرجال و الجلجل في حق النساء" كما حرص "ابن عبدون"[1] أن تكون لهم علامة يعرفون بها على سبيل الخزي لهم".

مما سبق يتضح لنا أن أهل الذمة خلال العصر المرابطي لم يتقيدوا بزيهم، وعليه فإن الفقهاء كانوا يؤكدون على تنفيذ أحكام أهل الذمة، وحسبنا في ذلك النازلة التي أوردها "الونشريسي"[2] بشأن يهودي تشبه بزي المسلمين و أسقط حليته التي يعرف بها فأجاب الفقهاء بأن يعاقب بالسجن والضرب ويطاف به في مواضع اليهود و النصارى، ردعا لأمثاله و تشريدا لهم بسبب ما حل به .و لعل ما يزيد في تأكيد ما ذهبنا إليه من عدم التزام أهل الذمة بزيهم في العصر المرابطي، تلك النازلة التي أوردها بعض الفقهاء من أصحاب القاضي "أبي بكر بن العربي" و التي جاء فيها أن اليهودي الحكيم بن قنبال كان يعمم... و يعقد في حانوته من غير غيار و لا زنار، و يمشي في الأسواق بغير غيار يعرف به، و لم يكتف بذلك فحسب بل تزي بأفضل و أحسن ما كان به كبار المسلمين،[3] و حتى يتسنى معرفة أهل الذمة من أول وهلة يستوجب التطرق إلى ما يميزهم عن المسلمين.

أ ــ الزنــار:عرف "ابن منظور[4]" الزنار بأنه "ما على وسط المجوس و النصارى" أو ما يلبسه الذمي و يشده على وسطه، وهذا التعريف ينطبق على ما اشترطه نصارى الشام على أنفسهم.[5]
أنفسهم.[5] و بيّنت لنا كتب أحكام أهل الذمة كيفية لبس الزنار بأن لا يكتفي الذمي بشدها تحت الثياب بل لا تكون إلا ظاهرة بادية فوق الثياب.[6] أما ما يؤكد لبس أهل الذمة للزنار في عهد المرابطين ما يستفاد من الفتوى التي وردت على أصحاب "ابن العربي" التي ذكروا فيها أن

1- رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص 51.

2- المعيار ج (6) ص 69، 421، و انظر أيضا: يحي بن عمر: أحكام السوق، ص 128.

3- الونشريسي: المعيار ج (2) ص 254.

4- لسان العرب مج (4) ص 381.

5- الونشريسي: المعيار ج (2) ص 237.

6 – ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة ج (1) تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت ، ط (2) 2002، ص 184.

من بين غيار أهل الذمة الذي يتميزون به عن المسلمين الزنار، و يفهم ذلك من قولهم "ويشدون الزنانير على أوساطهم".[1]

ب ـــ الشكلـــة: تعد الشكلة من بين الألبسة التي لبسها أهل الذمة و عليه فقد ذكرتها كتب الحسبة، وجعلتها من الألبسة التي يميز بها أهل الذمة عن سائر المسلمين[2]، و ذكر "ابن عذارى"[3] الشكلة الخاصة باليهود بأنها تتكون من القميص، و البرنس و القلنسوة لهم لون موحد هو اللون الأزرق (الكحلى).

وأمدتنا المصادر بمعلومات قيمة عن شكل قمصانهم و عمائمهم فقمصانهم تبلغ أطوال أدرانها ذراع في عرض ذراع،[4] و تتميز بأكمام مفرطة في السعة تصل إلى قريب من أقدامهم[5]، أقدامهم[5]، و ما يميز اليهود أكثر تلك الرقعة المخيطة على قمصانهم و برانسهم أو جباتهم من نحو الشبر من الطوق إلى آخر الكتفين، و رقعة أخرى من مثلها على الصدر مصبوغتان بالزعفران، و نفس العلامة للنصراني لكن بلون اغبر.[6]أما عمائمهم فطولها مقدار ذراع[7]، و ذكر "المراكشي"[8] أن اليهود قد استبدلوا العمائم بكلوتات تصل إلى تحت آذانهم، تظهر في أبشع صورة لدرجة أنه شبهها بالبرادع أو "ما يعرف بالحلس الذي يلقى تحت الرحل"[9]، و قد شاع هذا الزي لدى جميع يهود المغرب . و قد أجاز الفقهاء لأهل الذمة لبس العمامة شريطة أن تكون لطيفة قريبة الثمن، و لا تكون رفيعة غالية من رقيق الكتان و لا من "الشروب"[10] و أن لا يعظموا أكوار عمائمهم، و أن لا يرسلوا لها ذوائب بين أكتافهم، و أن لا يجعلوا لها

---

[1] -الونشريسي: المعيار ج(2)، ص 256.
[2]- الجرسيقي: في آداب الحسبة و المحتسب ص 122.
[3]- البيان المغرب: القسم الموحدي ص 228.
[4]- نفس المصدر و الصفحة.
[5] -المراكشي: المعجب ص 217.
[6]- الونشريسي: المصدر السابق ص 257.
[7]- نفس المصدر و الصفحة
[8]- المعجب ص 217.
[9]- ابن منظور: لسان العرب مج (8) ص 9.
[10]- يعني ما بين الحرير و بين الكتان انظر. ابن منظور: نفسه مج (1) ص 567.

أحناكا، و هو العثنون تحت الذقن، لأن ذلك من زي العرب، و عليه فقد منعوا منه، وهذا لما فيه من التباهي على المسلمين.[1]وإلى جانب العمامة أجاز الفقهاء لأهل الذمة لبس القلانس شريطة أن تكون لطيفة مقاربة و يكون في أعلاها أو في وسطها رقاع من لبود حمر أو خرق حمر تخالف ألوان القلانس التي يلبسها المسلمين ليعرفوا بها.[2]كما أجاز الفقهاء لأهل الذمة لبس ما صغر وزن قضيبيه من الخواتم، على أن يكون فصه زجاجا مما لا مباهاة فيه على الإسلام، وأن لا ينقشوا على خواتمهم بالعربية.[3] و للتمييز بين المسلمين و أهل الذمة يتم تقليدهم بدنانير من نحاس أو رصاص أو قزدير في رقابهم أثناء دخولهم الحمامات حتى يميزوا عن سائر المسلمين.[4]أما المسلمين.[4]أما نساء أهل الذمة فقد اشترط الفقهاء، عليهم أن يكون أحد خفهن أسود و الآخر أبيض أو أحمر.[5]

لبـــاس النســـوة:

يعتري الباحث صعوبات عدة أثناء محاولته تشخيص بعض ملامح الحياة الاجتماعية لدى المرأة خلال العهد المرابطي و يزيد الأمر أكثر تعقيدا خصوصا إذا تعلق الأمر بمظهر من المظاهر الاجتماعية كاللباس و يعود ذلك أساسا إلى أن النساء عادة ما كن يمكثن في البيوت ومن خرج منهن كن يلتزمن فيما نعتقد اللباس المحافظ و هذا ما نستشفه من قول "ابن الحاج.[6]" فتقعد المرأة في بيتها على ما هو معلوم من عادتهن بفحش ثيابها وترك زينتها".هذا بالإضافة إلى أن المؤرخين و الجغرافيين المعاصرين لفترة الدراسة لم يقدموا إلا النذر اليسير عن لباس المرأة و زينتها في العصر المرابطي. و حتى يتسنى للدارس إماطة اللثام عن لباس المرأة في العهد المرابطي يستوجب العودة إلى مختلف المصادر الفقهية و المنقبية منها، و من خلالها اتضح لنا و جود تباين بين لباس نساء الخاصة و الأعيان، و لباس نساء العامة.

---

[1]- الونشريسي: المعيار ج (2) ص 255

[2]- نفس المصدر ص 256

[3]- نفس المصدر ص 255

[4]- نفسه ص 265

[5] -نفس المصدر والصفحة.

[6]- نوازل ابن الحاج ورقة 90.

لباس نساء الطبقة الخاصة و الأعيان

حظيت المرأة في العصر المرابطي بمكانة رفيعة، سواء في الحاضرة أو في البادية سيما شريحة الفئة الحاكمة منها ، كما تتمتعت بوضع كريم في القبيلة الصنهاجية بشكل عام، و نالت مكانة لائقة في مجتمعها فشاركت الرجل في مجلس القبيلة، وكانت على قدر من المساواة التامة مع الرجل[1] و زادت أهمية المرأة و نفوذها خاصة بعد أن اشتغلت بالسياسة أو تدخلت فيه.[2]

و مما لا شك فيه أن لهذا التحرر الذي بلغته المرأة في العهد المرابطي خصوصا فئة الخاصة قد منحها نوعا من الحرية فيما تقتنيه من اللباس و نوعيته، و قبل الخوض في تفاصيل لباس المرأة المرابطية، من خلال ما أوردته المصادر يتضح لنا أن لباس المرأة المرابطية مرّ بمراحل عدة، كل مرحلة لها طابعها الخاص . فكان لباس المرأة المرابطية لما كانت في مرحلة الانتجاع عبارة عن أكسية من الصوف على حد تعبير الإدريسي[3] غير أنه سرعان ما تغيّر مع أول احتكاك للمرابطين بأرض المغرب و استقر لهم المقام به و يمكننا رصد هذا التغيّر في نوعية الثياب التي تضمنتها هدية يوسف بن تاشفين لابن عمه أبي بكر بن عمر حيث تنوعت الثياب الرفيعة فيها بين السوسي، و الأشكرى، و القبطي، و الملف الرفيع.[4]

و مما لاجدال فيه أن نساء الطبقة الخاصة من الأمراء و الأعيان قد وجدن ضالتهن فيما تنتجه بلاد المغرب من أنواع الثياب الفاخرة وحسبنا في ذلك ما كانت تنتجه سجلماسة من الثياب التي تصنع من أجود أنواع الأصواف حتى أن سعر الثوب الواحد فاق عشرين مثقال[5] هذا

[1]- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار ج(2) ، ص 271.
[2]- ابن عذارى: البيان المغرب ج (4) ص 22، 97.
[3]- صفة المغرب، ص 58.
[4] -مجهول: الحلل الموشية، ص 27.
[5]- البكري: كتاب المغرب ص 147.

ناهيك عما بلغته بلاد السوس و ما يصنع بها من الأكسية الرّقاق و الثياب الرفيعة ما لا يقدر لأحد على صنعه بغيرها من البلاد.[1]

ونظرا لكون المرأة المرابطية قد تمتعت بحرية المظهر، فإنها قد لبست الرقيق من الثياب مما يشف عن جسمها و قد أثار ذلك حفيظة "ابن تومرت" و اعتبرها المقصودة في حديث رسول الله "ص" "و نساء كاسيات عاريات مميلات مائلات"[2]، و يتصل بهذا الموضوع بسفور المرأة المرابطية، و إن كان ذلك لا يعدّ قاعدة عامة، و ليس من المستبعد أن يكون خاصا بفئة قليلة ممن ينتمين إلى الطبقة الخاصة، و حسبنا في ذلك ما تشير إليه المصادر إلى أن "ابن تومرت' اعترض –عند بدء دعوته– على سفور أخت أمير المسلمين علي بن يوسف، حين قابلها في إحدى طرقات مراكش ومعها جواريها، وكلهن سافرات، فزجرهن و وبخهن على هذا الصنيع، و في ذلك يقول ابن خلدون: [3]"ولقي –أي ابن تومرت– ذات يوم الصورة أخت علي بن يوسف حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين في زي نسائهم، فوبّخها، و دخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه".

و من خلال ما ورد في المصادر الفقهية و النوازل الخاصة بجهاز العروس و بعض نوازل الطلاق يتسنى لنا التعرف على أزياء نساء فئة الخاصة و الأعيان كالقطيفة مثلا التي عادة ما يتكرر ذكرها في شورة النساء، حيث تعد من بين الألبسة التي تتجهز بها العروس إلى زوجها و تستمتع المرأة بلبسها أكبر مدة ممكنة، و على هذا الأساس كان الأزواج يحرصون على منع زوجاتهم من بيعها.[4]كما كانت نسوة هذه الطبقة يفضلون ثياب الملف الرقيقة و ملاحف القطن، و شايات الملف في الفصل الشتاء[5]، و من بين الألبسة التي كانت ترتديها النسوة في

---

[1]- الإدريسي: المصدر السابق ص 62.

[2]-ابن تومرت: أعز ما يطلب ص 259.

[3]- العبر مج (6) ص 268.

[4]- الونشريسي: المعيار ج (3) ص 119، ج(6) ص 116.

[5]- نفسه ص 249

العصر المرابطي نجد أنواع من أثواب الحرير و أثواب الديباج، و ثياب الزردخان.[1] و تمدنا نوازل "ابن الحاج"[2] بمعلومات قيّمة فيما يخص لباس النساء الميسورات الحال، و هذا من خلال ما فرضه زوج ثري لمطلقته من قمصان و سراويل. و في نازلة أخرى فرض لمطلقته من الكسوة في فصل الشتاء فروة نسر بوجه خز و دراعة عن فصلي الربيع و الخريف إلى جانب قميصين جديدين و محبشتين و وفرتين جديدتين أيضا.[3]

و مما لا شك فيه أن ضم الأندلس لسيادة السلطة المرابطية، و ما نجم عنه من ظهور لحياة الترف و البذخ على فئة الطبقة الخاصة قد شمل أيضا المرأة المرابطية، فوجدت في الأندلس ما كانت تفتقده ربما في المغرب، لما اشتهرت به المدن الأندلسية من صناعة الملابس المتعددة الأنواع و الألوان، مما يتناسب مع أذواق النساء. و حسبنا في ذلك ما بلغته المرية في أيام المرابطين خصوصا في الصناعات الحريرية التي بلغت فيها طرز الحرير ثمانمائة طراز يعمل بها من الحلل و الديباج و السقلاطون، و الأصبهاني، و الجرجاني و الثياب المعّينة و الخمر و العتاب و المعاجر، و صنوف أنواع الحرائر.[4]هذا ناهيك عما اشتهرت به كلا من مالقة و مرسية و غرناطة من صناعة الملابس الفاخرة و المذهبة من الحرير و القطن و الكتان.[5]

و الراجح أن نساء الفئة الخاصة قد تفنن في استخدام الأقمشة الغالية، و جعلن منه أثواب تلائم أجسادهم و تظهر محاسنهم، و عملت النساء أن تكون ملابسهن ملائمة لفصول السنة، فالملابس الخفيفة ذات الألوان الزاهية في جميع أيام السنة إلا أيام الشتاء حيث كانت تلبس لباسا غليظا من الفرو[6]، و وجدت المرأة المرابطية ضالتها في الأندلس لتنوع صناعته و ألبسته لدرجة أن أصبحت بعض المدن مختصة بألبسة المناسبات و الأفراح و حسبنا في ذلك أن العروس إذا

---

[1]- الونشريسي: المعيار مج (3) ص 100.والزردخان كلمة فارسية تعني دار السلاح ،ويرجح أنها أطلقت على هـذا النوع من المنسوجات لأن الدروع المصنوعة من الزرد وغيرها كانت تغطى بطبقة نسيج سميك مزركش من الحرير الأصفر والأحمر

[2]- ابن الحاج: نوازل ابن الحاج ورقة90.

[3]- ابن الحاج :نوازل ابن الحاج ورقة 91.

[4] -الإدريسي: صفة المغرب ص 197.

[5]- المقري: نفح الطيب مج (1) ص 201، الحميري: الروض المعطار ص 46.

[6]- المقري نفسه مج(3) ص 128.

أرادت أن تتجهز بما يلزمها من ثياب و غيره من أدوات العرس فإنها تذهب إلى مرسية التي اشتهرت بصنع تلك الأدوات.[1]كما كانت نساء الطبقة الخاصة مغريات باقتناء الحلي و الجواهر و التفاخر به و إظهاره دلالة على الغنى و المكانة الاجتماعية، و يصف لنا "ابن الخطيب[2]" تفنن نساء غرناطة في اقتناء الحلي و الجواهر بقوله: "و قد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد و المظاهرة بين المصبغات و التنفيس بالذهبيات و الديباجيات والتاجن في أشكال الحلي إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين الدهر، و يكفكف الخطب و لا يجعلها من قبيل الابتلاء و الفتنة"[3].

و لم يكتف ابن الخطيب بهذا فحسب بل أمدّنا بنص في غاية الأهمية يوضح فيه نوع و شكل الحلي و الجواهر فيقول: " وحليهم في القلائد و الدمالج و الشنوف و الخلاخل الذهب الخالص إلى هذا العهد في أولي الجدّة و اللجين في كثير من آلات الرّجلين، فيمن عداهم، و الأحجار النفسية من الياقوت والزبرجد والزمرد و نفيس الجوهر كثير ممن ترتفع طبقاتهم المستندة إلى ظل دولة أو أصالة معروفة موفّرة"[4]كما كانت نساء الطبقة الخاصة يستخدمن علبا علبا أشبه بالصناديق الصغيرة لحفظ الحلي و العطور، وكانت أشكالها إما اسطوانية مع غطاء نصف كروي و إما ذات قاعدة مستطيلة مع غطاء مسطح، أو على شكل هرم ناقص، و حجمها متفاوت الأجزاء والتي تعلوها عادة ما تكون من فضة تزدان ببعض الزخرفة، وقليلا من نحاس مموّه بالذهب، أما باقي جسم العلبة فهو من العاج و كانت هذه العلب الأنيقة تملا بأنواع الحلي المختلفة. [5].

أ ـــ لباس الرأس

---

[1]- المقري: نفسه مج (1) ص 201.

[2]- ابن الخطيب: الإحاطة مج (1) ص 40.

[3]- ابن الخطيب: الإحاطة مج (1)ص40.

[4]- نفس المصدر و الصفحة.

[5]- ابن تومرت: أعز ما يطلب ص 259.

تشير المصادر التاريخية المعاصرة لفترة الدراسة إلى أن المرأة المرابطية عادة ما تخرج سافرة الوجه لأنها كانت تتمتع بالحرية المطلقة فيما يخص مظهرها[1]. و الراجح أن المجتمع الصنهاجي لا يرى في تلك العادة عيبا و لا خرقا لتعاليم الدين، و هذا ما نستشفه من بعض الروايات، إذ يشير "ابن الخطيب" إلى أن أبا بكر بن إبراهيم "دخل يوما على زوجة ابن عمه "يوسف بن تاشفين" في خبائه، و زوج ابن عمه تمتشط في موضع قريب من الخباء فاشتغلت نفس أبي بكر بالمرأة لحسنها و جمالها"[2] و ليس من المستبعد أن يكون سفورها سببا في إثارته.و مما يزيد في تأكيد ما ذهبنا إليه من سفور النساء المرابطات و تحررهن هو استنكار الداعية ابن تومرت لذلك، فكان سفورهن من الأمور التي استغلها الموحدين للنيل من المرابطين و الطعن فيهم لتشويه سمعتهم كأفراد و جماعات، و يتضح لنا ذلك جليا من الوصف الذي وصف به "ابن تومرت" النساء الصنهاجيات حيث يذكر "أنهن يتشبهن بالرجال في الكشف عن الوجوه بلا تلثم، و لا تنقب".[3]

و لم يستثن الداعية الموحدي من توبيخه للنساء المرابطات حتى الخاصة منهن، و هذا ما يفهم من الإشارة التي أوردها "ابن خلدون[4]" أن ابن تومرت عندما كان بمراكش اعترض موكب أخت الأمير علي بن يوسف حيث يقول: "و لقي ذات يوم الصورة أخت علي بن يوسف حاسرة قناعها على عادة قومها الملثمين في زي نسائهم فوبّخها، و دخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه".

كما يتضح لنا مما أورده "البيدق" من خلال تتبعه لرحلة "المهدي ابن تومرت" في أنحاء المغرب أن ظاهرة سفور المرأة لم تخص المرأة المرابطية فحسب بل أنها كانت ظاهرة عامة، حيث يشير "البيدق" إلى اختلاط النساء و الرجال في الأماكن العامة، و المناسبات المختلفة، و هذا ما

---

[1]- ابن الأثير: الكامل في التاريخ مج (9) ص 196.جورج مارسيه: بلاد المغرب و علاقاتها بالمشرق الإسلامي، ترجمة محمد عبد الصمد هيكل، الإسكندرية منشأة المعارف، 1991 ص 28.

[2]- ابن الخطيب: الإحاطة مج (1) ص 219.

[3]- ابن تومرت: أعز مايطلب، ص 259.

[4]- العبر مج 6 ص 268.

لاحظه "ابن تومرت" و نهى عنه في كل من مدينتي "بجاية" و "تلمسان".[1] و لعل ما يزيد في تأكيد عدم التزام المرأة المرابطية و المغربية بصفة عامة بلباس الرأس أن حليتهن التي كن يتزيّن بها أثناء خروجهن كانت تبدوا للعيان و هذا ما نستشفه من قول البيدق: " فلما دخل ابن تومرت صاء نظر للنساء مزينات محليّات يبعن اللّبن، فغطا المعصوم وجهه حتى جازهن"[2] ويستطرد "البيدق" في ذلك موضحا استغراب "ابن تومرت" من تلك الظاهرة بسؤاله للفقيه "يحي بن يصلتن" الحاضر معه، "كيف تترك النساء محليات مزينات كأنهن قد زففن لبعولتهن".[3]

مما سبق يتضح لنا عدم التزام النساء المرابطيات بغطاء الرأس، فلو التزمن به لما بدت تلك الحلي "لابن تومرت" على أساس أن المرأة عادة ما تتخذ في أذنيها و رقبتها حليا. و يبدوا أن سفور المرأة، و اختلاطها مع الرجال في أماكن اللهو يبدوا أمرا عاديا، و هذا ما نستشفه من جواب أهل "قلال"[4] للداعية الموحدي وصحبه حينما نهاهم عمّا هم فيه، فكان جوابهم لهم: "إن الرجال و النساء معا لا فرق بينهم؟ فقالوا هكذا السيرة عندنا".[5] و مهما قيل عن سفور المرأة المرابطية إلا أن هذا لا يعني غياب كلي لغطاء الرأس، و حسبنا في ذلك أن أشد المناوئين لسفور المرأة المرابطية –المهدي بن تومرت- يشير إلى اتخاذ النساء المرابطيات لغطاء فوق تسريحة شعرهن والتي شبهها بسنم الجمل[6]. و قد عرف "دوزي"[7] هذا الغطاء بأنه عبارة عن قطعة من من النسيج الرقيق طوله نحو ذراع تعصب به المرأة رأسها و يلتف ليرتفع على شكل سنم الجمل بنحو ربع ذراع، و يزخرف بالذهب واللؤلؤ و غيره من الأحجار الكريمة. و ارتدت النساء الأندلسيات في العصر المرابطي المقنع كغطاء للرأس[8] كما اتخذن الخمار من الصوف أومن

---

[1]- البيدق: أخبار المهدي بن تومرت ص 13، 21.

[2]- نفس المصدر ص 21.

[3]- البيدق: أخبار المهدي بن تومرت ص 21

[4]- لم يستبعد عبد الوهاب بنمنصور أن تكون هذه المنطقة هي المعروفة اليوم "بعين بوقلال" الواقعة بين تازة، و اكنـــول، انظر البيدق: نفس المصدر هامش 21 ص 22.

[5]- نفس المصدر و الصفحة.

[6]- ابن تومرت: اعز ما يطلب ص 259.

[7]-- المعجم المفصل ص 197.

[8] ابن الحاج: نوازل ابن الحاج ورقة 90.

الأقمشة الحريرية التي تختلف من حيث درجة جودته في ثمنها[1] وعادة ما يمسكنه بالإبر، و يتحفظن علي نفسهن أن ينكشف رأسهن أو يُبيّن وجوههن لغير محارمهن[2] كما استعملن المعاجر و هو حرير شفاف لتغطية الوجه أو شد الرأس.[3]

لباس نســـاء العامـــة

كان لباس نساء العامة في عمومه من الصوف و هو بذلك لا يختلف كثيرا عن لباس الرجال فقد لبسن الأكسية[4] و الملحفة[5] و الإزار[6] و الجبة و الخمار من الصوف[7]. و السراويل التي لم لم يكن لباسها شائعا في صفوف النساء إلا أن هذا لم يمنع وجود إشارات تشير إلى لبس النساء للسراويل في بعض المناطق مثل مدينة فاس التي أمر قاضيها "محمد بن عبد الرحمن" المعروف بابن العجوز الكتامي –الذي ولاه عليها يوسف بن تاشفين- الرجال و النساء لبس السراويلات[8]. و يبدوا أن نساء مدينة فاس كن يلبسن السراويل عند الخروج فقط، و هذا ما يفهم من تعليق ابن الحاج على هذا اللباس في قوله: "و الغالب عليهن أن يقعدن في بيوهن... بغير السروايل... و لا يلبسن السراويل إلا عند الخروج".[9] كما يبدوا لنا من بعض الإشارات المعاصرة لفترة الدراسة أن النساء لم يكن يلتزمن بلبس السراويل خاصة المسنّات منهن وهذا ما يفهم من الإشارة التي أوردها "ابن الزيات"[10] حيث يشير إلى سقوط عجوز من على راحلتها، فاكتشف ساقها و اتضح أنها ليس عليها سروال.

---

[1] ابن الزيات: التشوف ص 29، عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأنـــدلس، 1984 ص 158. عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين و مستهل الموحدين ص 321.

[2]- ابن الحاج: المدخل مج (1)ج (1)ص 121.

[3]- عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص 158.

[4]- الإدريسي: صفة المغرب، ص 58.

[5]- الونشريسي: المعيار ج (2) ص 499.

[6]- نفسه ص 84

[7]- ابن الزيات: التشوف ص 92.

[8]- ابن القاضي: جذوة الاقتباس ق (1) 252-253.

[9]- ابن الحاج: المدخل مج (1)ج (1) 203.

[10]- ابن الزيات :المصدر السابق ص 320.

وعلى عكس نساء الخاصة والأعيان اللواتي تفنن في اتخاذ أزيائهن من الحرير و المنسوجات الرفيعة، فان نساء العامة اقتصرن في ملابسهن على الصوف و أحيانا على القطن و الكتان حيث كانت الشقة يصنع منها أثواب للرجال و النساء على حد سواء[1]. و الغالب على نساء العامة أنهن كن يعتمدن على نسج لباسهن داخل بيوتهن لسد حاجتهن و حاجات الأسرة.[2]

ثانيا: الأطعـــمـــة

أ ـــ طعام و شراب الخاصة: ما من شك فيه أن طعام الأمراء و الخاصة في العصر المرابطي قد تباين بين مرحلة و أخرى، و تأثر بأحوال الدولة ففي بداية الدولة قدّم لنا "المرادي" قاضي المرابطين بالصحراء نص في غاية الأهمية نصح فيه الأمراء بالاعتدال في الطعام و اختيار ما ينفع الجسم حيث قال: " أول ما أوصيك به... أن تأخذ نفسك بالاعتدال في جميع الأحوال في مطعمك و مشربك... و اعلم أن بطنك لا يسع جميع الأطعمة فاختر له أفضلها، و فضل الطعام من عدّة أوجه،أولها: قرب وجوده،والثاني: تمام نفعه، والثالث :قلّة ضرره،والرابع: لذّة طعمه، والخامس :ذكاء ريحه،والسادس: إحكام صنعه، فإن لم تجمع به من هذه الأمور في طعامك فاعمد إلى أقرب الأطعمة من نفعك ،وأشبهها بحالك .واعلم أن ما أخللت به من هذه الأوصاف التي وصفتها لك مضربك في نفسك و مزر عليك عند مؤاكلك، وأن مطاعم الرجال يستدل بها على عقولها، ويستشهد بها على همّتها ومروءاتها، فإنه لا يحكم آراءه من ليس يحكم غذاءه."[3]

وبالرغم من تلك النصيحة التي قدمها "الحضرمي" للأمراء المرابطين إلا أن كل الدلائل تشير إلى اقتصار الأمراء المرابطين في مرحلة تأسيس دولتهم على الضروري من العيش، فالزعيم الروحي للدولة المرابطية عبد الله بن ياسين كان عيشه من صيد البرية و نحوها متذرعا عن أكل

---

[1]- التميمي الفاسي: المستفاد ق (2) ص 138.
[2]- انظر ذلك مثلا: التميمي: نفس المصدر ص 144.
[3]- المرادي الحضرمي: كتاب الاشارة إلى أدب الامارة ص 75

شيئا من اللحم و شرب ألبان[1] أما يوسف بن تاشفين فكان مأكله الشعير ولحوم الإبل و ألبانها مقتصرا على ذلك، فلم يعرف عنه مدة عمره الإسراف في الطعام على ما منحه الله من سعة الملك و خوّله من نعمة الدنيا[2]، غير أنه و بمجرد ضم الأندلس إلى سلطة الدولة المرابطية أصبح الأمراء و الخاصة يعيشون في رغد من العيش و الترف فكثر الإقبال والتفنن بل التنافس على شتى أنواع الأطعمة نظرا لحياة الترف التي يحياها الأمراء و الأثرياء،[3] فشهدت موائدهم تنوعا في الأطعمة خصوصا و أنهم كانوا يكثرون من المآدب الكبرى لزائريهم في المناسبات المختلفة سواء كانت سياسية، و أو دينية، أو بمناسبة الاحتفالات التي تقام استعداد لغزو أو نصر عسكري، فكان الإطعام فيها يدوم بين خمسة عشرة يوما وشهر كامل .[4]

وفقد تنوعت أطعمة و أطباق الخاصة حيث شملت شتى أنواع المأكولات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر بعض الأطباق المصنوعة من التفايا المكونة من لحم الغنم السمين مع اللوز المقشر المدقوق المحلول بماء الورد مع البندق و هي تعد من الأطباق العجيبة،[5] كما كان يتم تحضير بعض الأطعمة المتمثلة في شواء بعض الحيوانات الكبيرة مثل الخراف والعجول التي توضع بداخلها الطيور المشوية،[6] هذا ناهيك عن لون الطعام يسمى الصنهاجي الملوكي الذي يختلف في طريقة إعداده عن صنهاجي العامة.[7]

و لم تقتصر أطعمة الخاصة على الأطباق المحلية، بل تعدتها إلى أطباق ذات بعد مشرقي حيث تنسب المصادر بعض الأكلات إلى الدولة العباسية[8] كالدجاجة العباسية، و البرمكية،[9] ومنها ما

---

[1]- البكري: المغرب ص 165.

[2]- ابن خلكان:وفيات الأعيان ، مج 5 ،ص477

[3]- جمال طه: الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي (عصر المرابطين و الموحدين)دار الوفاء ط1،اسكندرية2004، ص 187.

[4]- ابن صاحب الصلاة: المن الإمامة ص 75، 182 .

[5]- مجهول: كتاب الطبيخ في المغرب و الأندلس، ، ص 86.

[6] -نفس المصدر ، ص 32.

[7]- نفس المصدر ص 24.

[8]- نفسه ص 45

[9]- نفسه ص ، 48.

ما ينسب إلى مصر كالفروخ المصري و المرزونة المصرية[1]وغيرها. و ما لاجدال فيه أن تحضير مثل هذه الأطعمة يتطلب ذوي الخبرة و الكفاءة، و عليه فقد استعانت فئة الخاصة بالنساء السودانيات اللواتي اشتهرن في تحضيرها، و هذا ما يوضحه صاحب الروض في قوله: " و يجلب منها (أي من أودغست) سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة دينار كبار و أزيد لحسن عمل الأطعمة الطيبة، و لاسيّما أصناف الحلاوات مثل الجوزينيات، و اللوزينجات و القاهرات، و الكنافات، و القطائف و المشهدات، و أصناف الحلاوات، فلا يوجد أحذق بصنعتها منهن". [2]

و لم تحض أطعمة الخاصة بالتنوع فحسب بل تعدها إلى أشياء أخرى مثل مراعاة كيفية تقديمها في الأواني المناسبة و غيرها حتى أن بعض الفئات منها كانت تستعمل السباني، و هي عبارة عن مناديل كبيرة تستعمل أثناء الطعام و كانت أثمن أنواع السباني تتخذ من رفيع القطن و الكتان، مما يشير إلى مدى الرخاء المادي، مع الرفاهية، التي كان يحياها الناس في تلك الفترة، و عليه كانت موائدهم تشمل أكثر من صنف و لون تقدم على موائد الخاصة في نظام و ترتيب.[3]

ب ــ طعــام العامــة:

كان طعام قبائل صنهاجة بالصحراء، اللحم الجاف المطحون الذي يصب عليه الشحم المذاب أو السمن، و هم لا يعرفون الخبز لدرجة ربما ينفد عمر أ حدهم و ما رأى خبزا و لا أكله إلا في حالة ما إذا مرّ بهم التجار من بلاد الإسلام فيطعمونهم الخبز[4]، و لعل ما يؤكد ندرة ندرة الخبز لديهم أن الخبز كان من ضمن الهدايا التي أهداها يوسف بن تاشفين لابن عمه أبي بكر بن عمر و في هذا يقول ابن عذارى: " و وجه له... ألف ربع من دقيق الدرمق و أثنى عشر ألف خبزة و سبعمائة مدّ من الشعير". [5]

---

[1]- نفسه ص25 ،72،41.

[2]- الحميري: الروض المعطار ص 64، البكري: المغرب: ص 158.

[3]- ابن الأبار: الحلة السيراء ج (2) ص 185.المقري:نفح الطيب مج 3 ص128

[4]- البكري: المصدر السابق ص 170، 164.

[5]- البيان المغرب ج (4) ص 26.

أما شرابهم، فكان اللبن لدرجة أنهم استغنوا به عن الماء، فيبقى الرجل فيهم أشهرا لا يشرب ماءا، و مع ذلك فإن أبدانهم كانت متينة قوية.[1]أما قبائل "لمتونة" فكان معظم طعامهم و أفضله لديهم الطعام المسمى عندهم بالبربرية "أسلّو" الذي يعد أشهى الأطعمة عندهم، حيث يأخذون الحنطة فيقلونها قليا معتدلا ثم يدقونها حتى تصبح جريشا، ثم يمزجون العسل بما يماثله سمنا و يعجنون به تلك الحنطة على النار ثم يصنعونها في مزاود، فإذا أخذ أحد ملء كفه منها و أكله ثم شرب عليه اللبن، فإنه لا يحتاج إلى طعام آخر طول يومه[2]. في حين كان شرابهم عبارة نقيع الزبيب، حيث يأخذون الزبيب فيدقونه ثم ينقعونه في الماء، و يشربون صفوه نقيعا.[3]

كما اعتاد أهل صحراء لمتونة على أكل لحوم بعض الزواحف و الحيات مثل لحوم السلاحف التي مثلت جل غذائهم[4]، و قد أشار "ابن زهر" إلى الخاصية التي تنفرد بها لحوم السلاحف و الحيات بأنها تنفع من الجذام و من فساد المزاج إذا أكلت تفايا، حيث يذكر أن أيام امتحان الأمير علي بن يوسف له احتاج أن يطعمها إلى من به فساد في مزاجه، و الأفاعي هذه غير موجودة، فأمره أن يأكل من سائر الحيات الفتايا السمان البرية فانتفع بذلك.[5]

و لم يقتصر غذاء أهل الصحراء على الزواحف فحسب بل عمد أهل سجلماسة على تسمين الكلاب و أكلها كما يفعل أهل قفصة و قسطيلة[6]، كما يأكلون الخرذون، الذي يسمّونه بالبربرية أقزيم و تشير المصادر إلى أن النساء كن يعتمدن أكل هذا الحيوان طلبا للسمن و خصب البدن و عليه فإن نساءهم تظهر في غاية السمن.[7]أما قبائل "جدالة" وسكان "نول لمطة" لمطة" فكان طعامهم قديد الجمال وشرابهم لبن النوق[8]، و كان أهل السوس و مراكش يأكلون الجراد أكلا كثيرا مقليا و مملّحا حتى أن بمراكش لوحدها يباع منه في اليوم الواحد ما يفوق

---

[1]- البكري: المصدر السابق ص 170، الإدريسي: صفة المغرب ص 58.

[2]- الإدريسي: صفة المغرب ص 59.

[3]- نفس المصدر و الصفحة.

[4]- البكري: كتاب المغرب ص 171مجهول: الاستبصار ص 215،.

[5]- ابن زهر: كتاب مختصر الأغذية، مخ خ.ح.م.رقم 243 ورقة 19.

[6]- البكري: المصدر السابق ص 148، الإدريسي: صفة المغرب ص 61.

[7]- الادريسي: المصدرالسابق ص 61.

[8]-ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص 112.

الثلاثين حملا[1]، في حين كان شراب أهل السوس، الشراب المعروف عندهم باسم –أنزيز–، الحلو المذاق، المسكر سكرا عظيما، إذ يفعل بشاربه ما لا تفعله الخمر، لمتانته ، و غلظ مزاجه، و قد أمدّنا "الإدريسي" بمعلومات عن كيفية تحضيريه، بحيث يؤخذ عصير العنب الحلو و يطبخ على النار إلى أن يذهب منه الثلث، فيزال من على النار و يرفع حيث يشرب، و لا سبيل إلى شربه إلا بعد خلطه بمثله ماءا، وكان أهل السوس يرون شربه حلالا، ما لم يتعدّ به إلى حد السكر.[2]

أما أهل أودغست فكثيرا ما كانوا يطبخون الكمأة مع لحوم الجمال و يزعمون أن هذا الطبق لا مثيل له على الأرض، إذ يعد من ألذ الأطعمة عندهم، وهذا ما يؤكده الإدريسي نفسه الذي يبدوا أنه ذاق طعمه وهذا ما نستشفه من قوله: "يزعمون أن ما على الأرض مثله، و قد صدقوا".[3]أما أهل "نفيس" وأغمات و ريكة" فقد اعتادوا على أكل الخبز وحسبنا في ذلك كثرة كثرة أرحاء طحن الحنطة فيهما[4]، و قد حذا حذوهما سكان بعض مناطق من "جزوله" و لمطة" لمطة" و "صدراته الذين اتخذوا من صدف السلاحف البرية معاجن للدقيق.[5]

واعتمد أهل "السوس" ودرعة "على الشعير كمادة غذائية أساسية[6]، أما مراكش عاصمة الدولة فقد عرف أهلها عدة أنواع من الأطعمة، غير أنها انفردت عن غيرها بطعام يعرف باسم تاحصصت: و هو نوع من التفايا المقلية المصنوعة من اللحم السمين الذي يقطّع إلى أجزاء صغيرة، تضاف إليه بعض التوابل، مع قليل من البصل و الزيت و الماء، و يتم تحريك تلك الخلطة حتى تجف، بعدها تقلى في الزيت حتى ينضج[7]، كما عرف أهل مراكش طعاما آخر

[1]– الإدريسي: المصدر السابق ص 62، 69.
[2]– الادريسي :صفة المغرب 62، 63.
[3]– نفس المصدر ص 32.
[4]– الحميري: الروض العطار، ص 46، الادريسي: نفسه ص 63.
[5]– الادريسي المصدر السابق، ص 70.
[6]– الإدريسي: نفسه ص 62، مارمول: إفريقيا ج (3) ص 145.
[7]– مجهول:كتاب الطبيخ ص87.

يسمى البلاجة.[1]أما طعام أهل فاس التي كانت تعد من أشهر المدن المغربية تحضّرا فقد وصفت بطيب طعمها و مأكلها، و عرف سكانها عدة أنواع من الأطعمة نذكرمنها اللمتونية التي كانت تصنع بفاس، وبجميع المدن المغربية أيضا[2]، كما اشتهرت بوجبة خفيفة أساسها اللحم المسلوق مؤلفة من الخبز و الفواكه اليابسة مع البلح باللحم المسلوق و حنطة الشعير، و لقي هذا الطبق إقبالا كبيرا من الفاسيين لاسيما في الصباح[3]، كما اعتمدوا في غذائهم على بعض الأكلات الخفيفة و السريعة في آن واحد مثل الأجبان المختلفة الأنواع البقري منها و الغنمي.[4]

و اشتهر أهل "سبتة" بتفننهم في طبخ الأسماك، و قد أمدنا "الزهري" بمعلومات عن أسماك ذات قيمة غذائية عالية مثل "حوت موسى" الذي كان سببا في ثراء تجار سبتة[5]، و تزخر المصادر الجغرافية بمعلومات في غاية الأهمية بخصوص ثروة سبتة السمكية، فيشير "الإدريسي" إلى توفر وتنوع السمك بها حيث يصطاد بها منه نحو مائة نوع، وكان أكثره سمك التونة، هذا ناهيك عما تنتجه "سلا" من الحوت الطيب المعروف لديهم بالشابل[6]، و عليه فقد تنوعت أطباق الأسماك، فيشير "ابن رزين" إلى اسماك السردين مسجلا في كتابه عدة وصفات أساسها السمك، مثل السمك مع اللوز، أو مع عسل النحل، أو عصير العنب[7]، و لعل ما يؤكد تنوع طبخه أن "ابن زهر" يشير إلى أن الناس استعملوه بطرق مختلفة مدح بعضها و ذم البعض الآخر.[8]

---

[1]- عبارة عن طبق من اللحم الغنمي المقطع إلى أجزاء صغيرة جدا، يوضع في قدر ثم يضاف إليه البصل و الكزبرة اليابسة و يوضع على نار هادئة حتى ينضج ثم يصفى من المرق و يقلى في زيت كثير حتى يحمر ثم يطرح في طاجن و يصب عليه بعض الدسم و المرق و يفقص عليه البيض ثم يضاف إليه الفلفل و الكزبرة و يضرب حتى يختلط، و يدخل في الفرن حتى يجف مرقه و يخرج، انظر مجهول:نفس المصدر ص 49.

[2]- نفس المصدر ص187.

[3]-جمال طه: الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي ص199

[4]- مجهول: كتاب الطبيخ ص 199

[5]- الزهري: كتاب الجغرافية ص 120

[6]- الإدريسي: صفة المغرب ص 168، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص 138.

[7]- ابن رزين التجيبي: فضالة الخوان في طيبات الطعام، تحقيق محمد بن شقرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1984، ص 197، 209.

[8]- ابن زهر: كتاب مختصر الأغذية ،أوراق 105-107.

واعتبرت الأطعمة المتكونة من البقوليات من بين الأغذية المستحسنة لدى المغاربة[1]، فكانت الأطباق التي كان أساسها الفول منتشرة جدا، حيث أشار "ابن رزين" إلى عدة وجبات أساسها الفول أشهرها الفستقية[2]، غير أن الطبق الذي نال شهرة كبيرة هو ما كان يعرف باسم "البيسار" الذي يكثر استهلاكه في فصل الشتاء سواء من الخاصة أو العامة و أكثر المناطق شهرة به منطقة، جبل غمارة.[3]

كما كان العدس و الحمص من بين البقول التي يعتمد عليها المغاربة في غذائهم حيث حضّر العدس بالطماطم والبيض، والعدس باللحم المقلي[4] فاستحسنه الفقهاء[5]، أما الحمص فطبخ بالمري والزيت والكمون والشبت[6]، و كانت الأطباق المحضّرة من البقول تعد بمثابة الطبق اليومي في المدن المغربية لاسيما في أيام الشتاء، و بذلك تكون البقول قد استخدمت في تحضير الأطباق كمنتج مستبدل في غياب وفرة المحاصيل الزراعية و الخضروات الطازجة.[7]

أما بالنسبة للخضروات، فكانت الكوسة، و اليقطينة، من الخضروات الأكثر استخداما، و عرض "ابن رزين" إحدى عشر وصفة أساسها اليقطينة[8]. كما استخدموا الباذنجان كغذاء لهم، و هذا ما يفهم من الإشارة التي أوردها "ابن الزيات" من أن "ابن العريف" كان قد سمّ في طبق من الباذنجان، الذي يعد من أحب الأطعمة إليه، لما حل بمراكش في عهد علي بن يوسف بن تاشفين سنة 536هـ/1141م.[9]

---

[1]- نفس المصدر ورقة 57.

[2]- ابن رزين التجيبي: المصدر السابق ص 239- 240.

[3]- نفس المصدر ص 240.

[4] -علي بن حسن المراكشي: علاقة السعادة في حكم الأغذية المعتادة مخ ،معهد المخطوطات العربية، القاهرة رقم 598 طب ورقة 64.

[5]- ابن رزين التجيبي: فضالة الخوان في طيبات الطعام المصدر السابق ص 242.

[6]- نفس المصدر ص 241.

[7]- نفسه ص 222، 226.

[8]- ابن زهر: كتاب مختصر الأغذية ورقة 6

[9]- الزيات: التشوف ص 98، 99.

و يتضح لنا من بعض النصوص المعاصرة لفترة الدراسة أن مراكش قد خصت بطبق الباذنجان و هذا ما نستشفه من قول الوزير أبي الحسن بن الإمام الغرناطي كاتب تميم بن يوسف بن تاشفين في هجائه لمراكش عاصمة الدولة المرابطية بقوله:

يا خضرة الملك ما أشهاك لي وطنا *** لولا ضروب بلاء فيك مصبوب

ماء زعاق وجو كله كدر *** و أكلة من باذنجان ابن معيوب

و ابن معيوب هذا كان من خدّام "أبي العلاء بن زهر " يزعم الناس أنه سّم ابن باجة لعداوته لابن زهر في باذنجان.[1]كما عرف المغاربة في عهد المرابطين بعض الأطعمة المرتبطة بالمواسم مثل مثل الجنابنية التي جرت العادة بعملها في الجنان و البساتين أثناء خروج الناس إليها في فصول الربيع و الصيف و الخريف[2]. و مما لا شك فيه أن الأطباق السابقة الذكر حتى يستقيم طعمها و و مذاقها كان المغاربة يستعملونها في تحضيرها خصوصا زيت الزيتون التي تشتهر بها عدة مناطق من المغرب.[3] ناهيك عن استعمال دهن "الهرجان" أو الهلجان"، و المعروف بلسانهم باسم "أرقان" خاصة في طهي الإسفنج[4]، بالإضافة إلى بعض التوابل كالكمون و الكروياء و غيرها من التوابل التي اشتهرت بها بلاد المغرب في تلك الفترة.[5]

[1]- المقري: نفح الطيب مج (4) ص 12- 13.

[2]- مجهول: كتاب الطبيخ ص 172.

[3]- الإدريسي: صفة المغرب، ص 65، 73، 78، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص 125.

[4]- البكري: كتاب المغرب ص 162، 163. الإدريسي: نفس المصدر ص 65.

[5]- الإدريسي: المصدر السابق ص 61، 71.

الفصـــــل الســـــادس

الزراعـــــــــــــــــة

وضعية الأراضي الزراعية (ملكية الأراضي)

العوامل المساعــدة على النشاط الزراعـــي

العوامل البشرية

عامل الأمن و الاستقرار

قلة المجابي

اليد العامـــلة

العوامل الطبيعيـــة

أثر الموقع الجغرافي في التنوع الزراعي

العوامل المؤثرة على الإنتاج الزراعي

الكوارث الطبيـــعية

الجفاف (انحباس المطر)

المجاعات

السيول و الفيضانات

الجراد

طريقة الزراعة و أساليبها

المياه والري

أهم المحاصيـــــل الزراعيــــة

القمح والشعير والحنطة

الذرة و أنواع أخرى من الحبوب

الزيتون

قصب السكر

القطن و الكتـــان

الفواكه

الغابات

الثروة الحيوانـــة

مناطق الرعي

الأغنام و الأبقار

الإبل و الخيل و البغال و الحمير

اللمط و دواب الفنك والكباش الدمانية

تربـــية الدواجن

الحيوانات غير المستأنسة

الزراعـــــــــــــــة:

وضعية الأراضي الزراعية (ملكية الأراضي):

لا يختلف المجتمع المرابطي عن سائر المجتمعات الإسلامية في القرن الخامس الهجري/ الحـــادي عشر الميلادي ، باعتباره مجتمعا يعتمد على الاقتصاد الزراعـــي، يعـــتني بـــالأرض وامتلاكهـــا، واستصلاحها،وفلاحتها، لكن يبدو أن المرابطين لم ينجحوا في إدارة الأرض واســـتغلالها بشـــكل مناسب،مما تسبب في بعض الثورات كثورة قرطبة سنة 539هـ/1144م. وحتى يتسنى لنا فهم ذلك و النشاط الزراعي فإن ذلك يستوجب معرفة ملكية الأراضي قبل الفتح المرابطي، وما آلـــت إليه ملكية الأراضي و سياسة الدولة في هذا المجال. وقد كانت ملكية الأرض قبل الفتح المرابطـــي تتقاسمها القبائل فيما بينها،فكانت غمارة تحتل الجزء الغربي الخصيب من الجبال التي عرفت باسمها[1] و جاورتهم لمطة الشمال في سهول غمارة الزراعية و نجودها[2] ، وشاركتهم صنهاجة البز[3] الـــتي امتدت ديارها إلى شواطئ المحيط الأطلسي متصلة إلى مشـــارف جبـــل درن[4] محترفـــة للزراعـــة والحياكة[5] ثم سكنت تامسنا من المصاميد ديار بورغواطة،فاحتلت المنطقـــة الممتـــدة بـــين ســـلا وآسفي[6].، و كان المصاميد يشتغلون بالزراعة،وهذا ما يفهم من قول المراكشـــي[7]: إنمـــا كـــانوا أصحاب فلاحة و رعاة غنم".

أما صنهاجة الجبل فقد أقامت في المنطقة الزراعية الجبلية بين تازا و تادلا ومعدن فازاز قـــرب جبال درن[8] من وادي درعة إلى وادي أم الربيع،متصلين بدكالة التي نزلت بـــين نهـــر أم الربيـــع وتنسيفت[9] وامتهنت الزراعة ،وعملت في زراعة البساتين والحدائق المختلفة[10].

---

[1]- ابن خلدون : العبر مج(6) ص 249 .

[2] – الإدريسي: صفة المغرب ، ص 81.

[3] – ابن خلدون : المصدر السابق ، ص 244-245.

[4] – تفس المصدر، ص 264.

[5] – نفسه، ص244

[6] – نفسه ص 245

[7] – المعجب ، ص 243

[8] – ابن خلدون : المصدر السابق ،ص 243.

[9] – ابن خلدون: نفسه ص 244.

[10] – مجهول: الاستبصار ، ص 209.

وفي المنطقة الجبلية سكنت قبيلة هسكورة[1] — من المصاميد أيضا- كما استقرت بعض قبائلـــهم في جبل درن متصلة غير منفصلة[2] و من شدة تمسكهم بالفلاحة وصفوا بأنهم زراع ملتصقون بالأرض بالأرض مستقرين فيها، وكانوا من أكثر الناس تكسبا وطلبا للرزق.....[3].

أمّا صنهاجة الصحراء ،فقد انتشرت بين أطلس الصحراء وبلاد السودان[4]ومنهم لمتونة ومســـوفة وجدالة،وهم رعاة إبل بحكم بيئتهم،وعليه فإن الملثمين بعد أن فتحوا المغرب الأقصـــى اختـــاروا مراكش عاصمة لهم لكون موقعها مسرح خصيب لجمالهم..[5]

وبعد الفتح المرابطي تغيرت مواطن القبائل ومراكزها،فانتقلت قبائل الملثمين من منطقة الصـــحراء الجنوبية إلى منطقة السهول والواحات الشمالية ،فترلت لمتونة ومسوفة رحبة مراكش[6]،ثم توالـــت جموعهم من الصحراء باستدعاء يوسف بن تاشفين لهم أيام نيابته عن أبي بكر بن عمر فـــأقطعهم الأراضي، و في ذلك يقول ابن عذارى[7]" و كتب- أي يوسف بن تاشفين- إلى بعض إخوانـــه في السرّ من أبي بكر يحضهم على الوصول إليه والقدوم عليه ،ويعدهم بالخير الجزيل،فوصـــل منـــهم جماعة كبيرة".

و بعد انفراد يوسف بن تاشفين بالسلطة قدمت جموع أخرى من قبائل لمتونـــة و مســـوفة و جدالة وغيرهم، و في هذا يقول صاحب الحلل[8]" لما كانت سنة سبعين وأربعمائـــة، شـــرع- أي يوسف بن تاشفين- في تجديد العساكر ووفورها،وبعث إلى الصحراء للمتونة و مسوفة وجدالـــة و غيرهم يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب و طاعة أهله،ويؤكد عليهم في القدوم إليه، فوفـــد عليه منهم جموع كثيرة،ولاهم الأعمال وصـــرف أعيـــانهم في مهمـــات الأشـــغال ،فاكتســـبوا الأموال،وملكوا رقاب الرجال، وكثروا بكل مكان،وساعدهم الوقت والزمان،وكثرت جمـــوعهم وتوفرت عشائرهم،وعظم ملك يوسف بن تاشفين".

---

1 - ابن خلدون:العبر مج (6) ، ص241.
2 - نفسه، ص316.
3 - البكري: كتاب المغرب،ص 163.
4 - نفسه، ص149.
5 - مجهول: الحلل الموشية، ص16.
6 - المراكشي: المعجب ص 71
7 - البيان المغرب ، ج (4) ص 23.
8 - مجهول:المصدر السابق ص 33

و مما لا شك أن ذلك أثّر على ملكيات الأراضي بالمغرب،لأن الأرض كانت تملك بوضع اليد[1]، أو بالشراء،[2]ومثال ذلك تملّك أرض" مراكش" فعندما قدم المرابطون إلى المغرب وأرادوا تأسيس مراكش أسسوها، حسب رواية ابن عذارى فوق منطقة حدودية بين قبيلة هيلانة و قبيلة هزميرة،وهي منطقة دون مالك خارجة عن نفوذ القبيلتين و في ذلك يقول:" و في هذه السنة 461 هـ/1068 م ضاق المجمع بمدينة أغمات و ريكة،عن الخلق فيها، فشكا أشياخ وريكة و هيلانة بذلك إلى الأمير أبي بكر بن عمر مرة بعد مرة أخرى، إلى أن قال لهم:" عينوا لنا موضعا أبني فيه مدينة إن شاء الله تعالى" واجتمع أشياخ قبائل المصامدة ،وغيرهم فوقع تدبيرهم أن يكون موضوع تلك المدينة بين هيلانة و هزميرة[3].و كرّر صاحب " الحلل الموشية"[4] المعنى نفسه مع اختلاف بسيط بسيط في بعض الكلمات .

أما الإدريسي[5] ،فينسب ملكية الأرض إلى بعض سكان أغمات كملكية خاصة و في هذا يقول:" و بشمال هذه - أي أغمات- و على اثني عشر ميلا منها مدينة بناها يوسف بن تاشفين في صدر سنة 470 هـ/1077 م بعد أن اشترى أرضها من أهل أغمات بجملة أموال".في حين يذهب "ابن أبي زرع" إلى شرائها من المصامدة،وهو بذلك يتفق مع الإدريسي بأن تملك المرابطين لأرض مراكش كان عن طريق الشراء حيث يقول :" وفيها أي سنة 454 هـ/1062 م.اشترى ابن تاشفين موضوع مراكش، ممن يملكه من المصامدة[6]" .

ومهما كان الاختلاف في الروايات و التواريخ بين مجموع ابن عذارى و صاحب الحلل وبين مجموعة الإدريسي وابن أبي زرع،فالراجح أن أرض مراكش أصبحت ملكا للدولة الناشئة تتصرف فيها كيفما شاءت ،ووقت ما شاءت من موقع السلطة،فإذا توحد المالك توحد التصرف.وبذلك يكون المرابطون قد أحدثوا انقلابا في الملكيات و تحولت ملكية الأرض إلى الارستقراطية الجديدة

---

[1] - الونشريسي : المعيار ،ج (6) ص 134

[2] - الإدريسي: صفة المغرب، ص71

[3] - ابن عذارى : البيان المغرب ،ج(4) ص 19.

[4] - مجهول ص 15-16:

[5] - صفة المغرب، ص69.

[6] - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ، ص 89.

من الملثمين وأتباعها،خصوصا وأن أول ما فعله المرابطون هو استلائهم على أراضي القبائل المغلوبة على أمرها والمناوئين لهم سواء في المغرب أو في الأندلس.[1]

و قد كان للسياسة التي اتبعها المرابطون في بداية دولتهم،معينا لهم في مصادرة الأراضي مما جعل الدولة هي المالك لكثير من الأراضي المغربية و الأندلسية خاصة بعد أن ضموا أراضي غمارة وزناتة و مصمودة ،كما ضموا إليهم أراضي ملوك الطوائف . فيما بعد[2] ، ذلك أن المرابطين حكموا على كل من ناوأهم و صد عن دعوتهم بالكفر، فوجب من وجهة نظر ابن ياسين قتالهم،واعتبر مالهم غنيمة و فيئا،وبذلك فقدت زناتة و بورغواطة أراضيها[3] و تحولت ملكية الأراضي في بورغواطة،وغمارة من يد القبائل المالكة لكثير من الأراضي إلى يد الدولة الجديدة،ولا شك أن ذلك كان على حساب سكان تلك المناطق من قبائل زناتة (مغراوة، بني يفرن)الذين كانوا يتخذون من سجلماسة و أغمات،وقلعة مهدى بن توالى وفاس مستقرا لها.[4].

والدارس لسياسة المرابطين في تملكهم للأراضي يمكن أن يتبين ثلاث مراحل متعاقبة: أولاها: تبدأ بسن عبد الله بن ياسين سياسة " التطييب"[5]. و المرابطون بعد في صحرائهم قبل فتح بلاد المغرب الأقصى ، تليها سياسة التخميس و توزيع الغنائم على الفاتحين منذ بداية الفتح حتى تأسيس مدينة مراكش[6]،لكن الراجح أن أمراء الدولة المرابطية تخلوا عن هذه السياسة بعد تأسيس مراكش وإعلان قيام الدولة خصوصا،وأن الجيش المرابطي أصبح يضم عناصر غير صنهاجية من مصمودة و زناتة و مرتزقة من العبيد و السود[7]. و حسبنا في ذلك أن المصادر المعاصرة لفترة الدراسة لم تشر إلى أي أرض خمست بعد تأسيس مراكش.

و الراجح أن الدولة أصبحت تتبع سياسة إقطاع الجند من تلك الفترة ،ويتضح لنا ذلك جليا بعد أن تمكن المرابطون السيطرة على الأندلس حيث عمدوا إلى إتباع السياسة القديمة في إقطاع

---

[1] –عن ضم أراضي زناتة و مصمودة انظر.ابن عذارى:البيان المغرب ج(4) ص15،17

[2] – عن ضم الأراضي في الأندلس:انظر : ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج(2) ص 175.

[3] – البكري: كتاب المغرب ، ص168.

[4] – نفسه ،ص 168 وانظر أيضا مجهول ،الاستبصار ، ص 187.

[5] – هو أخذ ثلث مال من ينضم إليهم من صنهاجة الصحراء، لتطييب الثلثان الباقيان،وقد اتبع ابن ياسين هذه السياسة و زعم زعم أنها تطيب المال أنظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج(4) ص 10 ، 16.

[6] – ابن عذارى : نفس المصدر، ص 13.

[7] – مجهول: الحلل الموشية، ص 5 ، 33

الأراضي للجند يفلحونها،ويستثمرونها،وهو ما أشار إليه صاحب" الحلل الموشية"[1] بقوله:" فمن ظهرت نجدته و إعانته و شجاعته أكرموه بولاية موضع ينتفع بفوائده".

لكن يبدو أن سياسة التخميس و الإقطاع فيما بعد ثم التعدي على الأراضي التابعة لبيت المال عن طريق البيع قد أفقد الدولة الكثير من الأراضي وبدا ذلك جليا في عهد علي بن يوسف الذي حاول زيادة أراضي الدولة بوسائل مختلفة مستعينا بالفقهاء[2] . سيما و أن سياسة المرابطين في إقطاع الجند و غيرهم من قبائل الملثمين قد أضرّت بالملكيات الزراعية حتى كادت أرض الخمس أن تتلاشى[3] و ربما أن هذه السياسة أفادت الأرض و الإنتاج من قبل أصحاب الملكيات الصغيرة ،لكن كبار الملاك كانوا لا يفلحون ما يملكون،ويديرون أملاكهم بالوكالة،مما سبب مشكلة زراعية في نهاية الدولة(عهد علي بن يوسف) خلفت نتائج خطيره، لم يستطع المرابطون مواجهتها،وهذا ما ترك آثارا سلبية على الزراعة والإنتاج الزراعي.

ولتفادي تلك الآثار و مواجهتها حاول علي بن يوسف سنة 515 هـ/1121 م،استعادة الأراضي عن طريق مصادرة أملاك الأمراء والعمال المرابطين المغضوب عليهم ،هم و حاشيتهم[4].و في السنة نفسها أراد علي بن يوسف مراجعة الملكيات العامة التي آلت إلى ملكيات خاصة منذ أيام بني عامر و بني عباد واستفتى الفقهاء في ذلك[5].وعمل في سنة 521 هـ/1127 م ضم أحباس الكنائس و بيع المعاهدة المبعدين إلى أرض المغرب_ أو الذين فروا إلى أرض العدو- إلى ملكية الدولة و هي أراضي واسعة[6].

و مما لا شك فيه أن سياسة مراجعة الدولة لملكياتها التي آلت إلى ملكيات خاصة كانت من أنجح الأساليب جميعا إذ لو تمت لمكنّت الدولة من استعادة الكثير من الأراضي،ولأثرت على كثير من الناس سيما الفقهاء. لكن يبدوا أن علي بن يوسف كان يشعر بخطورة هذا الإجراء، فحرص على دعم الفقهاء له و هذا ما يفهم من الرواية التي أوردها البرزلي عن ابن الصيرفي حيث يذكر أن

---

1 - مجهول: الحلل الموشية، ، ص 82.

2 - نفس المصدر ص 21 ، الونشريسي : المعيار ج(9) ص 613 .

3 - حسين مؤنس: فجر الأندلس ص618-621.

4 - ابن عذارى : البيان المغرب ج(4) ص 77. ابن الأبار : المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي، تحقيق كوديرا وريدين،مجريط ، روخس 1885 ص 56.

5 - البرزلي: فتاوى البرزلي ج(3) ،ص 52.

6 - الونشريسي: المعيار ج (8) ،ص 56-58.

ابن رشد و غيره أفتوه- أي علي بن يوسف- بالتصرف في الملكيات الخاصة إلا أن ابـــن حمـــدين خالفهم الرأي، وأدى ذلك إلى ثورة العامة في قرطبة على ابن رشـــد و مـــن وافقـــه في تلـــك الفتوى،فصرفهم ابن حمدين عنهم[1].و هذا ما يشير إلى عنف الثورة، و تراجع علي بن يوسف عن رغبته.

و لم تكن سياسة التخميس و الإقطاع و التعدي على ملكية الأراضي التابعة لبيت المـــال عـــن طريق البيع هي الوحيدة التي أفقدت الدولة الكثير من الأراضي بل شهدت أيضا فترة الفتنة الـــتي أعقبت سقوط الدولة المرابطية ضياع الكثير من أراضي الدولة، وما تغلب زعماء الفتنة على أملاك الناس أمثال " ابن عزون" ،" ابن ملحان" و " ابن مردنيش"[2] و غيرهم الذين كـــانوا لا يملكـــون شيئا، و صاروا من أكبر الملاك إلا دليلا على ذلك[3] فاضطر الناس إلى بيع أراضيهم بأسعار زهيدة حيث انتهز بعض الأشخاص تلك الفرصة ،واشتروا أملاك الكثيرين و هذا ما يطلـــق عليـــه ابـــن خلدون اسم " حوالة الأسواق"[4] .

في حين احتفظ البعض بأرضه عن طريق الإنزال، فيترل شخصا ما في ملكه فيعتمر الأرض على كراء ،ويكون الإنزال على فائدة المال دون رقبته،ويبدو أن المترلين كانوا أصحاب النفوذ إذ كثيرا ما يمتنعون عن دفع الكراء.[5].

العوامـــل المساعـــدة على النشـــاط الزراعـــــــي:

تعددت العوامل المساعدة على النشاط الزراعي في عصر المرابطين بين عوامل بشـــرية وأخـــرى طبيعية.

العوامل البشـــــرية:

عامل الأمن و الاستقرار: عملت الدولة المرابطية جاهدة على تثبيت دعائم الاستقرار في المغـــرب حينما طردت زناتة ،وشتت جموعها[1] ،وأقامت القلاع و الحصون في ديار المصامدة لتراقبهم حتى لا يعبثوا بالأمن و الطمأنينة، أو يغيروا على مواطن الخصب و الإنتاج الوفير[2].

---

[1] - البرزلي: فتاوى البرزلي .ج (3)،ص 52-53.

[2] - عن زعماء الفتنة في الأندلس أنظر: عصمت دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ص ص 79 ، 83 ، 94.

[3] _ عصمت دندش:نفس المرجع ص162

[4]- ابن خلدون: المقدمة ص 424.

[5]- الونشريسي : المعيار ج(6) ص 198.

أما في بلاد الأندلس فقد اطمأن الناس بعد أن تضاءل الخطر القشتالي إذ لم يعد النصارى في الأندلس بمقدورهم مواصلة سياسة العدوان القديم، تلك السياسة التي أشاعت في البلاد جوا من القلق و الاضطراب[3]. كما هدأت الأحوال ببلاد الأندلس،بعد أن قضى المرابطون على ملوك الطوائف، و أراحوا البلاد من الفتن و النزاعات التي كانت لا تفتأ تثور بين تلك الدويلات المتحاسدة المتباغضة، فجعلت من الأندلس بلدا آمنا بعد ما كان يعيش حالة رعب و فزع دائمين[4] فكان لعامل الأمن والاستقرار أن عاد الفلاحين إلى مزارعهم لفلاحتها.

قلــــة المــجابـــــــي:

تعتبر قلة المجابي على الأراضي من العوامل التي ساعدت الفلاحين على الإقدام على الفلاحة، وحتى يتسنى لنا توضيح السياسة الجبائية التي اعتمدها المرابطون فإن ذلك يستدعي الإشارة إلى ما كانت عليه المغرب في عهد الإمارات الزناتية ،وما كانت عليه الأندلس في عهد ملوك الطوائف.

فالمعروف أن بلاد المغرب قبل الفتح المرابطي كانت تخضع لسلطة زناتة و كانت هذه الأخيرة تفرض ما تشاء من الضرائب ،متبعة أعنف الوسائل في جبايتها، و لم يكن الأندلس أحسن حالا من المغرب حيث ضيّق ملوك الطوائف على أهل البلاد ،ففرضوا عليهم ضرائب باهضة وازدادت كلما ضيق عليهم صاحب طليطلة الفونسو السادس[5] .ومن الطبيعي أن الزرّاع كانوا أكثر الناس تأثرا بهذه السياسة سواء في المغرب أو في الأندلس لأن الجباية في تلك الفترة تقوم أساسا على الزراعة. أمام تلك المعاناة التي كان يحياها الفلاحون ظهرت حركة دينية بقيادة عبد الله بن ياسين تدعوا إلى الحكم بكتاب الله وسنة رسوله، تعمل على رد المظالم و قطع للمغارم،[6] سرعان ما تحولت تلك الحركة الدينية من مجرد حركة إلى دولة ،فعمل أمرائها – فيما بعد- على تطبيق ما سنّه لهم الزعيم الروحي ابن ياسين.

---

[1] – ابن عذارى : البيان المغرب ج(4) ص 15 ، 18 ؛ ابن خلدون : العبر مج (6) ص 219.

[2] – ابن خلدون : نقس المصدر ص 218.

[3] – نفس المصدر ص 222.

[4] – نفس المصدر والصفحة

[5] – ابن عذارى: البيان المغرب ج(4) ص10 ؛المراكشي : المعجب ص 96 ،وانظر أيضا : حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص 407.

[6] – ابن خلدون : المصدر السابق، ص217.

ونظرا لمعاناة المغاربة و الأندلسيين فإنهم كانوا يرون في المرابطين أنهم المنقذين الأساسيين لهم من بطش أمراء زناتة و ملوك دول الطوائف في الأندلس فيما بعد خاصة لما شاع عن المرابطين من التزامهم لحدود الشرع بحيث كانوا لا يأخذون إلا الزكاة و العشر و قطعوا غيرها من المغارم[1]. فكان لهذه السياسة أثرها على المجتمع المغربي و الأندلسي، وأدى ذلك إلى انتعاش الزراعة حيث أقبل الناس على العمل في الزراعة و هذا ما يتطابق على ما ذهب إليه ابن خلدون حيث يقول:" أن الدولة و إن كانت على سنن الدين، فليست تقتضي إلا المغارم الشرعية... و إذا قلت الوزائع و الوظائف على الرعايا نشطوا للعمل و رغبوا فيه، فيكثر الاعتمار و يتزايد محصول الاغتباط بقلّة المغرم"[2].

فمقولة "ابن خلدون" تنطبق تمام الانطباق على سياسة الدولة المرابطية في هذا الجانب،ومما لا شك أن الأمراء المرابطين يدركون ذلك تمام الإدراك، فعملوا على تطبيق ذلك و حسبنا في ذلك أن ابن عبدون[3] أحد كتبة الأمراء المرابطين يؤكد تلك السياسة حيث يقول: "فالفلاحة هي العمران، ومنها العيش كله، و الصلاح جله، و في الحنطة تذهب النفوس و الأموال، و بها تملك المدائن و الرجال و ببطالتها تفسد الأحوال، و ينحل كل نظام" و هذا لا يتأتى إلاّ بقلة المغرَم.

اليد العاملة:

مما لا جدال فيه أن وفرة اليد العاملة كان عاملا مساعدا على النهضة الزراعية خصوصا و أن المغاربة الذين نشأوا على أرض المغرب اتخذوا من الفلاحة مهنة لهم يتوارثونها عن آبائهم و أجدادهم فكانت هذه الطبقة قد أخذت على عاتقها مهمة فلاحة الأرض،واستغلال الظروف الطبيعية في استثمار المحاصيل الزراعية المختلفة،فكانت قبائل دكالة تمتهن الزراعة،وتعمل بزراعة البساتين والحدائق المختلفة[4].كما اشتغلت قبائل تامسنا بالزراعة ،وهذا ما حذا بالإدريسي أن يصفهم بقوله:" وقبائل تامسنا شتى متفرقة منهم بورغواطة و مطماطة و بنو تسلت،وبنو يغمران وزقارة، وبعض من زناتة...وكل هذه القبائل أصحاب حرث"[5]. و في الوقت نفسه كانت قبائل

[1] – ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص 82.
[2] – ابن خلدون : المقدمة ص 294.
[3] – رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب ص5
[4] – مجهول: الاستبصار، ص209.
[5] – الإدريسي: صفة المغرب ص 70-71.

المصامدة تشكل مجموعة كبيرة من سكان المنطقة تهتم منذ القديم بالزراعة، و غـــرس الأشـــجار،و بفضلهم ازدهرت الفلاحة في البلاد[1].

وبجانب اليد العاملة المغربية كانت للهجرات المختلفة التي جاءت من افريقية، واستوطنت بعض الأقاليم في المغرب مثل سلا قد ساهمت في تزويد سكان المغرب بالخبرات الفلاحية ،وهذا ما أسهم في تنشيط الزراعة [2]. هذا بالإضافة إلى اقتباس المغاربة لكثير من العادات الفلاحية من أهل الأندلس بعد أن أصبح هذا الأخير إقليما تابعا للمغرب فاستفادوا من معارف الأندلسيين في جوانب كثيرة كنظام الدورات الزراعية و تسميد الأرض[3].و أهمية الحرث خاصة في المســاحات الكــبيرة الــتي يصعب تسميدها،حيث يذكر " ابن بصال " أن الأراضي الواسعة الــتي لا يســتطاع تســميدها يستعاض عن ذلك بالحرث عدة مرات،وهذا يفيد التربة كثيرا لأنه يفتح مسامها و يسرى الهـــواء الحار بداخلها[4].

كما نستدل على مدى تقدم علم الفلاحة عند الأندلسيين، و تطور الأساليب الزراعية عنـــدهم بما ورد في كتب الفلاحة كمعرفتهم لطريقة التركيب أو التلقيح[5] و التشذيب[6] و غير ذلك، و ممـــا لا شك فيه أن هذا عامل مساعد على تطوير الزراعة خاصة بعد احتكاك المغاربة بهم.

العوامـــــــل الطبيعيـــــــــــة:

أثر الموقع الجغرافي في التنوع الزراعي:

إن ما يميّز المغرب الأقصى عن بقية أقطار المغرب هو تنوع تضاريسه و مناخه،وخصبة تربته[7]، و و هذا لكون واجهته الشمالية تشرف على البحر المتوسط،وواجهته الغربية تطل على البحر المحيط[8] المحيط[8] و يلي الإقليم الساحلي إقليم الريف الممتد على شكل أقواس مفتوحة نحو جبـــل طـــارق،

[1] – حركات ابرهيم: المغرب عبر التاريخ ط 1 الدار البيضاء 1965 ص 357.

[2] – نفس المرجع ص 353.

[3]– أنظر عن هذا النظام:ابن بصال: كتاب الفلاحة(أو كتاب المقصد و البيان) نشر خوسى مارية مياس بييكروسا، ومحمد عزيمان،تطوان 1955 ص 57.

[4] – ابن بصال : نفسه ص 56.

[5] – عريب بن سعد: كتاب الأنواء أو تقويم قرطبة لعام961 م/350 هـــ،نشر العلامة رينهات دوزي تحت عنوان La calendrier de cordove de lannée 961، leyden .p. 109

[6] – عن تشذيب الأشجار ، أنظر ابن بصال : المصدر السابق، ص89-90.

[7] – أنظر عن ذلك مثلا : المراكشي : المعجب ص 257.

[8] – ابن خلدون : العبر، مج (6) ص 115.

ويمتاز هذا الإقليم بتربته الخصبة حيث تخترقه عدة أنهار تصب في البحر المتوسط. تليه منطقة الوديان الغنية التي تجري فيها أنهار المغرب، يصب بعضها في البحر المتوسط و البعض الآخـــر في المحـــيط الأطلسي و قد كونت هذه الأنهار وديانا وسهولا خصبة تعد من أغنى السهول المغربية.[1]

وأهم هذه الأنهار التي ساعدت على قيام زراعة ناجحة في المغرب نذكر نهر ملويـــة،وهو نهـــر عظيم منبعه من فوهة في جبال قبلة تازا[2] . و نهر سبو المنحدر من الأطلس المتوسط الذي تتفرع منه منه عدة أدوية تسقى المنطقة الواقعة بين فاس و مكناس ليصب في البحر المحيط[3]. و يجـــاور هـــذا النهر نهر آخر يسمى ورغة الذي يصب هو الآخر في البحر المحيط بعد أن يلتقي مـــع نهـــر ســـبو بموضوع يُدعى المعمورة[4]. كما يعد نهر أم الربيع من أهم أنهار المغرب الأقصى المعـــروف بـــوفرة مياهه و سرعة جريانة[5]. كما يتميز وادي تانسيفت البعيد عن مراكش بثلاثة أميال بجريانه الدائم، لكون هذا الأخير تصب فيه عدة أودية مثل وادي وريكة و وادي نفيس و أودية أخرى كثيرة[6] ، وإلى جانب الأودية السابقة الذكر هناك أنهار أخرى عديدة نذكر منها نهر السوس الأقصى و نهـــر بلاد حاحة وبعض أودية الأنها ر التي تجف صيفا[7]. و يصف لنا المراكشي[8] الأنهـــار و الأراضـــي الواقعة بين مدينتي تازا و مكناسة بقوله:" و هي أخصب رقعة على الأرض فيما علمت و أكثرهـــا أنهارا مطردة وأشجار ملتفة و زروعا و أعنابا" و في حديثه عن فاس يقول" و ما أظـــن في الـــدنيا مدينة كمدينة فاس أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات ،وذلك أنها مدينة يحفها المـــاء و الشجر من جميع جهاتها،ويتخلل الأنهار أكثر دورها"[9]

و تلي منطقة الوديان و السهول جنوبا منطقة فقيرة نسبيا هي الواحات حول جبال درن و هـــي مناطق رعوية أو شبه صحراوية يستغلها أهل تلك المناطق في رعي مواشيهم متنقلين صيفا و شتاءا

---

[1] – عن أنهار المغرب التي تصب في البحر الرومي و البحر المحيط، انظر : المراكشي : المعجب ص 262-263.

[2] – ابن خلدون :العبرمج(6) ،ص 119.

[3] – الصديق بن العربي: كتاب المغرب، صادر عن الجمعية المغربية للتأليف و النشر ، دار الغرب الاسلامي ط(3)1984 ص ص 228.

[4] – المراكشي: المصدر السابق ، ص262.

[5] – الإدريسي : صفة المغرب، ص 71.

[6] – الحميري: الروض المعطار ص 54.

[7] – المراكشي : المصدر السابق ، ص 63.

[8] – نفسه ، ص 181.

[9] – نفسه ، ص 257.

بين إقليم السهول الشمالية الخصبة، و بين إقليم المراعي جنوبه طلبا للرزق[1].في حين كانت مناطق الجنوب موطنا للملثمين قبل انتقالهم إلى الشمال.

أما بلاد الأندلس فهي تطل على البحر الرومي شرقا(المتوسط) و المحيط الأطلسي غربا و جنوبا،أما شمالا فهي تطل على خليج بسكاي،أي أنها محاطة من معظم جهاتها بالبحار، و لذلك تتعرض شبه الجزيرة الايبرية لتيارات بحرية محملة ببخار الماء الذي يسقط عليها في صورة أمطار غزيرة في فصل الشتاء[2]، فكان لهذا التنوع في المناخ و التضاريس أن ساعد في تنوع المحاصيل الزراعية فاشتهرت الأندلس بثروتها الغابية و النباتية خاصة و أن معظم مدنها تشقها أنهارا و وديانا تسقي بها أراضيه فكانت أراضي اشبيلية و قرطبة تسقي بمياه الوادي الكبير[3].أما الأراضي الزراعية في غرناطة فكانت تسقى بمياه نهر حدرّو و شنيل[4] ، في حين اعتمد في ري أراضي كورة بلنسية على الترع و القنوات.

العوامل المؤثرة على الإنتاج الزراعي:

الكوارث الطبيعية:

شهدت بلاد المغرب و الأندلس على عهد المرابطين العديد من الكوارث الطبيعية كان لها وقعها على الإنتاج الزراعي ،والمقصود بهذه النوازل تلك الظواهر الطبيعية التي لا دخل للإنسان فيها وأدت إلى حدوث مجاعات وانتشار الأوبئة و الأمراض ، بالإضافة إلى ما كانت تتعرض له البلاد من تدمير و خراب و مثال ذلك انحباس المطر في المناطق التي تعتمد على الزراعة أو هطول الأمطار بغزارة أكثر مما تحتاجه الأرض مما يؤدي إلى تلف المحاصيل الزراعية ، أو السيول التي تجتاح ما يقابلها من منشئات كالسدود و القناطر، و ما يحدث من خراب و دمار و بوار للأراضي الزراعية،أو هبوب الرياح الشديدة والعواصف التي تؤدي إلى اقتلاع الأشجار أو انتشار الجراد الذي يأتي على الأخضر واليابس.

ومما لا شك فيه أن تلك الكوارث الطبيعية تعد من أسباب الأزمات الاقتصادية والمجاعات التي يتعرض لها الإنسان في كل زمان و مكان ،لأنها تعصف بالمزروعات والحاصلات و تلحق بها أكبر

[1] – حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص 24.

[2] – رضوان البارودي : الكوارث الطبيعية في الأندلس ، دار الفكر العربي ، 1992 ص 4.

[3] –الإدريسي: صفة المغرب، ص196.

[4] – الإدريسي : نفسه ص 23 و يسميه ياقوت الحموي نهر حدارّة انظر: معجم البلدان ج(4) ص 221.

الضرر، و يتبع ذلك ضعف المحصول و قلّته،وبالتالي يحدث نقص في الغذاء بل و ندرته في أحيـــان كثيرة.

الجفـــــاف (انحبـــــاس المطـــــر): تمتاز بلاد المغرب و الأندلس بتوافر مياه الأمطار في العديد من أنحائه و خاصة في فصل الشتاء لكون العدوتين تطلان على البحر المتوسط و المحيط الأطلســـي، فيتعرض كلاهما لتيارات بحرية باردة محملة ببخار الماء الذي يسقط عليها في صورة أمطار غزيرة في فصل الشتاء ،وعليه قد اشتهر المغرب و الأندلس بثروتهما الغابية و النباتية،بالإضـــافة إلى تنـــوع محصولاتهما الزراعية[1] نتيجة وفرة المياه اللازمة للري.

وتعتمد الزراعة في المغرب و الأندلس على مياه الأمطار بصفة أساسية ، بالإضـــافة إلى الأنهـــار والعيون و الآبار[2]، و مع ذلك فإن المصادر التاريخية المعاصرة لفترة الدراسة تتضمن ما يشـــير إلى تعرض بلاد المغرب و الأندلس لفترات من الجفاف و القحط بسبب انقطاع المطر، و قد أشـــارت المصادر و المراجع إلى حدوث ذلك في عدة مناطق منهما ، ففي المغرب عرفت المنطقة الواقعة بين طنجة و مكناسة موجة جفاف كانت سببا في خروج الناس لصلاة الاستسقاء طلبا للغيث، وهذا ما شاهده " المعتمد ابن عباد" بأمّ عينيه لحظة نقله من طنجة إلى مكناسة.[3]

كما عمت موجة الجفاف مدينة " فاس" أكثر من مرة و هذا ما يفهم من الإشارة التي أوردها " ابن الزيات"[4] في ترجمته للولي الصالح أبو جبل يعلى المتوفى(سنة 503 هــ/1109م) حيـــث يقول: "وقحط الناس في بعض الأعوام،فبعثوا إليه رجلا عساه أن يدعو لهم بماء المطر". و ما يزيـــد في تأكيد ما ذهبنا إليه قول نفس المؤرخ " ثم صعدنا " جبل العرض" في سنة قحط فكنا نطـــوف على المزارع و أنا أقول هذا الفدان فات صلاحه و هذا الفدان يصلح إن مطر"[5]

---

[1] – عن المحاصيل الزراعية و الثروة الغابية في المغرب الأقصى: انظر : الإدريسي ، صفة المغرب ، ص60-82 . وعن الأندلس:انظر : المقري : نفح الطيب مج 1 ص 98-99.

[2] – عن الأنهار و العيون في المغرب ،انظر: ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ، ص138-141.

وعن الأندلس انظر: المقري: المصدر السابق: 140.

[3] – أمين توفيق الطيبي: دراسات و بحوث في تاريخ المغرب و الأندلس ،الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس 1989 ص 189.

[4]– التشوف ، ص 85

[5]– نفسه، ص 165.

و لم تكن عاصمة الدولة- مراكش – بمنئ عن موجة الجفاف حيث يشير صاحب" الحلـــل" إلى ذلك بقوله:" و غلت الأسعار، و توالت الفتن و عمّ الجذب"[1].هذا ناهيك عما عرفتـــه مدينـــة " نفيس"[2] و " داي" من جذب شديد[3].

و لم يكن الأندلس أحسن حالا من المغرب إذ عرف هو الآخر ســـنوات جـــذب و جفـــاف وهذا ما وضحه "ابن عذارى" و هو يؤرخ لما حدث سنة 498هــ/1104م حيـــث يقـــول :" تناهى القحط في بلاد الأندلس و العدوة حتى أيقن الناس بالهلاك[4] ، كما تعرضت مدينة غرناطـــة سنة 524 هــ/1129م لحالة من الجفاف و القحط نتيجة عدم سقوط الأمطـــار[5] و لم توضـــح المصادر التي أوردت هذه الأخبار كيفية تغلب الأندلسيين على هذا القحط و لا النتائج التي ترتبت عنه.

المـــــجاعـــــات:

مما لا جدال فيه أن لانحباس نزول الأمطار في المغرب و الأندلس نجم عنه حدوث عدة مجاعات غير أن الملفت للانتباه أن تلك المجاعات اقترنت زمنيا بأواخر العصر المرابطي، و هذا ما يتطابق إلى ما ذهب إليه" ابن خلدون" في هذا المجال حيث يقول:" ثم إن المجاعات و الموتان تكثر عند ذلك في أواخر الدولة. و السبب فيه:أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر، بسب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال،والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقـــاص الرعايـــا و كثـــرة الخوارج لهرم الدولة ... وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات...أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج و القتل"[6] فهذا القول ينطبق أساسا على المرحلة الأخيرة من الحكم المرابطـــي الذي انتشرت فيه الفتن و تعددت فيه المغارم و المكوس.

وتطلعنا المصادر المعاصرة لفترة الدراسة وقوع مجاعات مختلفة بالمغرب الأقصى نـــذكر منـــها مجاعة سنة 535هــ/1140 التي انعدمت فيها الأقوات و ضاقت الأرض بالمســـاكين[7] واضـــطر

---

[1] – مجهول: الحلل الموشية، ص 119-120.
[2] – ابن الزيات: المصدر السابق ، ص 73.
[3] – نفس المصدر ، ص 122.
[4] – ابن عذارى: البيان المغرب ج(4) ص 95.
[5] – ابن الزبير : صلة الصلة،نشر ليفي بروفنسال ،الرباط 1937 ص 24.
[6] – ابن خلدون:المقدمة ص 320-321.
[7] – ابن الزيات: التشوف، ص149.

الناس إلى أكل جذور النباتات[1] ، و عرفت الفترة الانتقالية من الحكم المرابطي إلى الموحدي ظهور مجاعات مختلفة بسبب حصار الموحدين للعديد من المدن المغربية و حسبنا في ذلك حصار مدينة مراكش الذي دام قرابة عشرة أشهر فنفذ طعام الناس، و فنيت مخازنهم ،حتى أكلوا دوابهم،ومات منهم بالجوع ما ينيف على مائة و عشرين ألف، و لما طال الحصار ،واشتدت أحوالهم هلكوا جوعا،حتى أكلوا الجيف، و أكل المساجين بعضهم بعضا، و عدمت الأقوات كلها، و الحنطة بأسرها، واختبرت المخازن فلم يوجد بها شيئ[2].كما ضاقت مدينة مكناسة ذرعا لكثرة الوقائع و تمادى الحصار عليها ففنيت الأقوات،واضطر الناس إلى أكل خسيس الحيوان حتى عدم كل ذلك،وهلك الناس قتلا و جوعا.[3]

و لم يكن الأندلس أحسن حالا من المغرب خصوصا وأن الأندلسيين عانوا من غارات النصارى و تكالبهم على المسلمين،ولعل أصدق وصف لحال الأندلس في تلك الفترة ما وصفه به " ابن عذارى" حيث يقول: " واشتد فزع المسلمين... من ذلك الصقع من القلاع و القواعد وكثر شر الغارات...وتوالى الضرب، وعظم الضرر ،وانقطعت السابلة وخافت الطرق"[4] فكان لانعدام الأمن و كثرة الحروب أن أدى ذلك إلى ظهور مجاعات وحسبنا في ذلك ما آل إليه الأمر " ببلنسية جراء حصار "الكنبيطور" لها سنة 487 هـ/ 1094م حيث انعدمت الأقوات بالجملة، وهلك الناس، و لم يبق من ذلك الجم " إلا نزر يسير، و توالى اليبس واستحكم الوباء، و بينما الرجل يمشى سقط ميتا[5] ومن شدة المجاعة وصل الأمر بالناس أن أكلوا الفئران و الكلاب و الجيف و ليس ذلك فحسب بل أكلوا بعضهم البعض،و لم يسلم من ذلك حتى موتاهم و بلغ الناس من الجهد ما لا يطيقون[6]، واتّقاءا لذلك لجأ أهالي بعض المناطق إلى تخزين المحاصيل، كما هو عليه حال أهل " فحص البلوط"[7]

---

[1] – ابن الزيات: التشوف ،ص 212.

[2] – ابن غازي : الروض الهتون ، ص9

[3] – مجهول : الحلل الموشية ص 137-138 ؛ابن عذارى : البيان المغرب، القسم الموحدي ، ص 27.

[4] – ابن عذارى : البيان المغرب ج(4) ص 34.

[5] – ابن عذارى:نفس المصدر ص 39.

[6] –نفسه ، ص 147.

[7] – فحص البلوط: منطقة بالأندلس تبعد عن مدينة قرطبة بمرحلتين أو ثلاث تشتهر بكثير من المحاصيل الزراعية وخصوصا منها منها البلوط و عليه فقد سمي هذا الفحص باسمه انظر : الحميري : الروض المعطار ، ص 435-436 ؛ الإدريسي : صفة المغرب ص 213.

الذين يلجأون إلى تخزين البلوط لاستعماله في سنوات الشدة و المجاعة.[1] ونظرا للفاقة الـتي ألمت بالناس أيام المجاعات اضطر البعض إلى بيع أملاكهم كما حدث مع امرأة من أهل أغمات.[2]

السيـــول و الفيضـــانـــات:

بالرغم من أن قلة الأمطار كانت تصيب البلاد بحالة من الجفاف و القحط إلا أن زيادتها عن الحد المعتاد نتج عنه سيول أدت إلى غرق الأراضي الزراعية و إلى ارتفاع منسوب المياه في الأنهار و بالتالي حدوث فيضانات سببت أضرارا كبيرة خصوصا و أن بلاد المغرب و الأندلس تتميز بكثرة أنهارها و أوديتها التي تقع عليها العديد من المدن، و لعل أهمها في المغرب الأقصى ،نهر تانسيفت، نهر نكور، نهر زيز و غيرهما[3] بالإضافة إلى عدد من الأودية كوادي فاس ، ووادي أم الربيع ، وادي وادي سبو، وادي السوس[4] . و لهذا اهتم المرابطون ببناء السدود و القناطر على تلك الوديان لتفادي السيول التي تحدث عقب هطول الأمطار و حسبنا في ذلكوادي تاننسيفت الذي عادة ما يحمل زمن الشتاء بسيل كبير لا يبقى و لا يدر، و كان الأمير علي بن يوسف قد بنى على هذا النهر قنطرة عجيبة البناء متقنة ،بعد أن جلب إليها صناع الأندلس و جملا من أهل المعرفة بالبناء فشيدوها وأتقنوا بنايتها حتى كملت،غير أن هذه القنطرة لم تلبث غير أعوام يسيرة حتى أتى عليها السيل فهدمها و حمل أكثرها و رمى بها في البحر[5].

وشهدت مدينة طنجة سنة 532 هـ/1137 م سيلا عظيما دمّر الدّور و الجسور و تسبب في هلاك خلق عظيم من الناس و الحيوانات[6].كما أشار البيدق إلى هبوب رياح قوية اصطحبتها أمطار غزيرة دامت خمسين يوما سنة 536 هـ/1141 م أدت إلى حمل الوديان ،فحمل وادي فاس و أتى على القنطرة المعروفة بباب السلسلة،وفتقت جزيرة مليلة، و عمت مياه البحر مدينة طنجة حتى الجامع، كما حمل وادي سبو ووادي ورغة فأتى على أخبية لمطة و هذا ما أدى إلى

---

[1] – الإدريسي : : صفة المغرب ص 213.

[2] – ابن الزيات : التشوف، ص124-125.

[3] – عن تلك الأنهار، أنظر: الحميري : الروض المعطار،ص ص 305،540،577،578.

[4] – و عن الأودية :أنظر : نفس المصدر ، ص ص 330،435،605،606.

[5] – الإدريسي: صفة المغرب ص69 ؛وانظر أيضا : ابن الزيات : المصدر السابق ص 103.

[6] – ابن عذارى : البيان المغرب ج(4) ، ص 96.

ارتفاع سعر الشعير حيث بلغ السطل منه ثلاثة دنانير ، في حين بلغ سعر رطل الحطب دينار لشدة برودة تلك السنة[1] .

كما شهدت مدينة فاس وضواحيها سنة 536 هـ/1141 م نزول أمطار غزيرة تسببت في حدوث فيضانات حيث حملت الوديان،واشتد البرد فهلك الكثير من جيوش المرابطين بردا و جوعا لانقطاع الطرق و من شدة البرد وصل الأمر بجند المرابطين بعد حلولهم بمنطقة النواظر الواقعة بناحية تازا أن أحرقوا السروج و صحاف العود، و لم يتسنى لهم غرس أوتاد الأخبية لرخاوة الأرض نظرا لعدم توقف الأمطار عن السقوط لمدة عشرة أيام. وهذا ماأدى إ لى كثرة الموتى سيما في الضعفاء من الناس .[2]

ويشير "البيدق" أيضا في حديثه عن إحدى غزوات عبد المؤمن بن علي في المغرب الأقصى أن شهدت منطقة " المزمة" بعد نزول الموحدين بها هبوب رياح قوية مصطحبة بأمطار دامت ثمانية أيام، فكاد الطين أن يهلك دواب الموحدين، و عليه سمي عبد المؤمن تلك الغزوة " تاغزوت ن و الوط"[3] و تعني باللغة العربية " غزوة الطين".

و لم تكن بلاد الأندلس هي الأخرى بمنأى عن حدوث بعض السيول خصوصا و أنها هي الأخرى معروفة بكثرة أنهارها و أوديتها التي تشق العديد من المدن،ولكون تلك الأنهار تمتلئ بالمياه في فصل الشتاء خاصة منها أنهار بلنسية و المرية و شلب[4] ، فقد اهتم حكام الأندلس ببناء السدود و القناطر على تلك الوديان.ويشتهر الوادي الكبير بكثرة حركة المد فيه خاصة بناحية اشبيلية حيث يذكر " المقري" نقلا عن الرازي أنه " إذا حان حمله في أيام المطر اشفت اشبيلية على الغرق و توقع أهلها الهلاك"[5] وكان المد بهذا النهر من القوة بحيث يهدم القناطر التي أقيمت عليه ،ولعل السيل الذي دمّر جانبا من سور اشبيلية القبلى المحاذي لانحناءة الوادي خير دليل على ذلك، فقام المرابطون بترميم تلك الأسوار. كما أشار " ابن القطان" إلى نزول الأمطار على حصن البراجلة سنة

---

[1] - البيدق: أخبار المهدي بن تومرت، ص52-53.
[2] - ابن عذارى: البيان المغرب ج(4) ص 99-100 .
[3] - المصدر السابق، ص 55.
[4] - عن أنهار الأندلس :أنظر : ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ، ص 166-167.
[5] - المقري: نفح الطيب، مج(1) ، ص 480.

532هـ/1137 م مدة عشرين يوما دون انقطاع كانت سببا في غرق الجيوش القشتالية ،لأن هطول تلك الأمطار تزامن و حملة القشتاليين على المنطقة.[1]

الجـــــــــراد:

يعتبر الجراد من أخطر الكوارث الطبيعية التي تصيب البلاد نظرا لأنه يأتي على الأخضر و اليابس،وكثيرا ما يسبب أضرارا فادحة للثروة الزراعية سواء في المغرب أو في الأندلس أو في غيرها، وتشير المصادر المعاصرة لفترة الدراسة إلى تعرض المغرب الأقصى لزحف الجراد على منطقة " أغمات " مما دعى الناس إلى الاجتماع و الخروج لمحاربته، و لم يكتفوا بذلك فحسب بل قصدوا أحد الأولياء و شكوا له ما نزل بهم من الجراد، وتذرعوا له بالدعاء ،فدعا الله لهم أن يصرفه عنهم، و بعد ذلك بيوم خرج الناس إلى المزارع والجنات فلم يجدوا جرادة واحدة هذا إن صدقت كتب المناقب.[2]

كما اشتدت وطأة الجراد على بلاد الأندلس في العهد المرابطي وقد زودنا " ابن القطان" بأخبار وافية عما أحدثه الجراد في بلاد الأندلس حيث يشير أنه في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف هاجم الجراد بلاد الأندلس لمدة ستة أعوام متصلة من 526 هـ/1131م-531 هـ/1136م حيث أتى على ما في الأرض من زرع و كلأ.[3].

وتشير المصادر إلى أن هناك مناطق بالأندلس اشتهرت بمهاجمة الجراد لها مثل منطقة " لورقة" وهو ما يفهم من الإشارة التي ذكرها الحميري في حديثه عن " لورقة" في هذا الخصوص حيث يقول:" و كثيرا ما تجتاح زروع لورقة بالجراد"[4] .

ومما لا شك فيه أن الأضرار الجسيمة التي سببها الجراد أثرت تأثيرا سلبيا على الأحوال الاقتصادية في بلاد الأندلس حيث ندر وجود الغذاء و لذلك عني المرابطون عناية كبيرة بمكافحة الجراد بحيث أصبح هذا الأمر الشغل الشاغل لأمير المرابطين " علي بن يوسف" و يتضح ذلك من الرسالة التي بعث بها إلى أهل الأندلس يحثهم فيها على بذل الجهد لمقاومة الجراد و مما جاء فيها قوله:" فأخرجوا إليه الجم الغفير و لا يتخلف الكبير منهم و الصغير، و لا يأو أحدكم لفراشه حتى

---

[1] - ابن القطان : نظم الجمان ، ص 235.

[2] - ابن الزيات: التشوف، ص204-205.

[3] - المصدر السابق ، ص ص 228، 230،252،250،242.

[4] - الحميري: الروض المعطار، ص512.

تحرقوا فراشه،و تبيدوا آثاره....فجدوا في إطفاء هذا الجمر و لا تتهاونوا بهذا الصفر"[1] و قد نفذ والي "قرطبة" التعليمات التي بعث بها والده علي بن يوسف فأمر أهل قرطبة بالخروج من ديارهم لمكافحة الجراد" فساقوا منها خمسة آلاف عدل. و ثلاثمائة و ثلاثين عدلا. وما غاب عن العيون أكبر من ذلك تركت في الموضع الذي قتلت فيه و لم تحمل"[2].

وقد عمل الأندلسيون على مكافحة الجراد في مراحله الأولى و هذا ما يفهم من النص الذي أورده صاحب" كتاب الأنواء(تقويم قرطبة) حيث يذكر أنه في شهر مارس " يظهر دبيب الجراد فيؤمر بعقره"[3] و عملوا على مكافحته إما باستخدام الشباك الضيقة المسام. أو بإشعال الأشجار لدفع خطر الجراد، لأن الدخان المتصاعد من تلك الحرائق يساعد على طرد الجراد، أو باستخدام زبل الحمام كسماد لأراضيهم لاعتقادهم أنه يقتل الجراد الذي يهاجم محاصلهم.[4]

طريقة الزراعة و أساليبها:

لقد انعكس النظام الإقطاعي الذي اتبعه المرابطون في توزيع الملكيات الخاصة على طريقة إدارة الأرض[5] ، فكان كبار الملاك سواء من الأمراء اللمتونيين أو الجند، لا يفلحون ما يملكون من أراض إذ كانوا يسكنون المدن، و يديرون أراضيهم الممنوحة لهم بالوكالة[6] . حيث يتخذون وكلاء على أراضيهم ،فيقوم هؤلاء بالإشراف على كراء أراضي موكليهم،أو مزارعتها أو مغارستها[7] . وعليه فقد انتشرت ظاهرة وجود العمال المزارعين في المغرب و الأندلس، سواء أكانوا عمال مغارسة يدفعون الكراء مقابل زراعتهم لأراضي الملاك[8]. أو عمال مزارعين مشاركين لأصحاب الأرض في في الإنتاج مقابل الخمس لهذا كانوا يعرفون باسم الخماسين[9] ، بينما كانت تختلف النسبة في البلاد الأندلسية، فتصل إلى النصف أو الثلث أو الربع[10] .

---

[1]- محمود علي مكي :وثائق تاريخية جديدة ص79

[2]- ابن القطان: نظم الجمان، ص 242.

[3] - عريب بن سعد: كتاب الأنواء أو تقويم قرطبة ص 41

[4]- رضوان البارودي: الكوارث الطبيعية في الأندلس ، ص 58.

[5] - عن سياسة إقطاع الأراضي . أنظر: مجهول: الحلل الموشية ، ص 82.

[6] - حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ، ص 405.

[7] - الونشريسي: المعيار، ج8 ، ص 169.

[8] - نفس المصدر و الصفحة.

[9] - نفس المصدر ، ص 150-150 و الخماس في نظر سحنون شريك

[10] - ابن رشد: فتاوى ابن رشد س (2) ، ص 10- 11 ؛ الونشريسي : المصدر السابق، ص 152.

وبالإضافة إلى الخماسين كان هناك عمال الأجرة سواء للحرث أو البذر أو التنظيف و القطف والحصاد[1]. وكانت الأرض التي يزرعها أصحابها قليلة بحيث كان لا يبادر لزراعة الأرض إلا أصحاب الملكيات الصغيرة الذين يتخذون من فلاحة الأرض معاشا لهم و لأفراد عائلاتهم.

أما طريقة العمل الزراعي ، فيشرحها "ا بن بصال" في كتاب الفلاحة فيقول بالدورة الزراعية الثلاثية، فالأرض عنده بين بور، و قليب و معمور، فالأرض البور لا تصلح إلا بالقليب والتزبيل.[2]والقلب هو حرث الأرض مرتين أو ثلاث مرات، و أفضل شهر لتقليب الأرض هو شهر شهر مارس،و ينصح في قلب الأرض استعمال السكة الكبيرة[3]. و بالرغم أنه عمل شاق لكنه لا مفر منه لكون بعض المحاصيل لا توجد إلا في أرض القليب كالقمح و العدس[4] ، و نظرا لكون القليب يجيد الأرض ، فكان عادة ما يشترط في كراء الأرض أو مزارعتها أو مغارستها[5]. و في حالة حالة الاستغناء عن القليب ينصح بزراعة بعض المحاصيل كاللوبياء و الفول و الترمس و غيره فهي تزيد من خصوبة الأرض[6] ،و عادة ما يحرص الفلاح على استغلال أرضه بزراعة أكثر من محصول في وقت واحد في ذات الأرض[7] و يستعان بالثيران في حراثة الأرض باستخدام السكك غير أن عددها يختلف باختلاف الأرض و نوع الزرع أو الغرس[8] و نظرا لما يعتري الفلاح من صعوبة أثناء أثناء الحرث كان يشترط عددها في عقود المزارعة و المغارسة.[9]

وبعد الحرث يتم تسوية الأرض ليسهل سقيها، و عادة ما كان يستعمل المرجيقل (ميزان الماء) في تسوية الأرض الصغيرة،والجاروف الذي تجره الثيران في الأراضي الكبيرة[10] . ولما يتم تسوية

---

[1] – عز الدين أحمد موسى:النشاط الاقتصادي، ص 187.

[2] – ابن بصال: كتاب الفلاحة ، ص 57.

[3] – ابن حجاج الاشبيلي: المقنع في الفلاحة، ص 14.

[4] – المصدر السابق، ص 56-57.

[5] – الونشريسي: المعيار ، ج8 ، ص 169.

[6] – ابن بصال: المصدر السابق، ص113.

[7]– الونشريسي : المصدر السابق، ص147.

[8] – ابن بصال: المصدر السابق، ص 56-112-113.

[9] – –ابن رشد: فتاوى ابن رشد، س (1) ، ص 160.

[10] – ابن بصال : المصدر السابق، ص55

الأرض تخطط الأرض خطوطا مستقيمة مقابلة للريح من كل جهة ثم يشرع في الغراسة ويراعى في ذلك تباعد الغروسات باختلاف أنواع الثمار[1].

وكان الفلاحون يهتمون بتزبيل الأراضي لإعطاء منتوج أكثر و قد أشار ابن حجاج الاشبيلي[2] إلى أنواعه فذكر أن أفضلها خرو الحمام وأجود الأرواث روث الخيل و البغال و الحمير، ثم زبل الضان و الماعز، ثم أرواث البقر،وإن كان الزبل مخلوطا كان أحسن، و أفضله الذي مرت عليه ثلاث سنوات إلى أربع، و شرح طريقة تحضيره و أي نوع يوافق أنواع التربة.

ونظرا لما بلغه الأندلسيين من تطور في أساليب الزراعة فإنهم كانوا يعرفون ما ينفع الزرع ويكثره، و يدفع عنه الآفات بمختلف أنواعها من طرد الدود و الهوام[3] ، بالإضافة إلى معرفتهم طرق طرق تركيب الشجر(التطعيم) و أنواعه[4]

و طرق جني المحصول و حصاده[5] ناهيك عن حفظ الطعام من الفساد سواء أكان ذلك حبوبا أو فواكه[6] ،و لم يكتفوا بذلك فحسب بل أنهم كانوا على دراية بتحويل بعض المحاصيل الزراعية كتحويل العنب و صنعه خلا[7]،واستخراج الزيت من الزيتون[8].

المياه والري:

يعتبر توفر المياه هو أساس قيام أيه نهضة زراعية ناجحة في أي منطقة على وجه البسيطة، ويزداد مع وجود طبيعة أو تربة مناسبة للزراعة، و حتى يتسنى لنا دراسة مصادر المياه في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين فإن ذلك يتطلب العودة إلى المصادر الجغرافية بصفة خاصة و إلى غيرها من المصادر الأخرى التي وردت فيها المعلومات عن المياه بشكل عرضي .

وبعودتنا إلى تلك المصادر اتضح أن مصادر المياه في المغرب و الأندلس لا تختلف عما هي عليه في عصرنا الحالي، إذ كان أساسها إما مياه الأمطار، أو الأنهار و الوديان أو مياه الآبار

---

[1] - ابن بصال:كتاب الفلاحة ، ص ص 56-60-62-67.

[2] - المقنع في الفلاحة: ص 10-11.

[3] - نفس المصدر: ص 11.

[4] - نفس المصدر: ص 27.

[5] - ابن حجاج الاشبيلي:المقنع فى الفلاحة ص 16 ، 54.

[6] - أنظر عن حفظ القمح و الدقيق، و العنب : ابن حجاج :نفس المصدر، ص 17 ، 18 ، 32.

[7] - أنظر عن تحويل العنب إلى خل: ابن حجاج ، نفس المصدر ، ص 52.

[8] - عن استخراج الزيت من الزيتون: انظر نفس المصدر ، ص 55-56 و عن استخراج الزيت من شجر آرقان، أنظر : الادريسي : صفة المغرب ، ص 65.

والعيون.ونظرا لكون مياه الأمطار عادة ما ترتبط بفصل الشتاء، و عدم انتظامها في بقية فصول السنة سواء في المغرب أو في الأندلس واختلاف سطح الأراضي المزروعة من سهول ومرتفعات،من هذا المنطلق أصبح من الضروري إيجاد بديل يضمن الحصول على إنتاج كاف وثابت من المحاصيل الزراعية لمواجهة احتياجات السكان . فكان اعتماد الفلاحين على مياه الأنهار في سقي مزارعهم و بساتينهم خاصة و أن بلاد المغرب تتميز بكثرة أنهارها و أوديتها التي تقع عليها العديد من المدن المغربية و لعل أشهرها نهر تانسيفت الذي ينبع من جبل درن ليمر بالجهة الشرقية و الشمالية لمدينة مراكش، ومن هذا النهر تخرج جداول لسقي البساتين القائمة هناك، ثم يأخذ مجراه ليصب بنهر نفيس فتسقي مياهه مزارع الكروم و الأعناب و البساتين الكثيرة المنتشرة على ضفتيه[1] .

كما تسقى مياه نهر نكور بساتين الفواكه المختلفة سيما الكمثري و الرومان[2] ،أما نهر زيز الذي تنبعث مياهه من موضع يقال له أجلف،فيأخذ مجراه نحو سجلماسة، فإذا قرب منها تشعّب إلى نهرين أحدهما يمر بشرقها و الآخر بغربها[3] ،ومياه نهر زيز تزيد في الصيف،كزيادة النيل[4]، و به تسقى بساتين النخيل و الأعناب و غيرها من الفواكه[5] . هذا ناهيك عن عدد من الأودية أشهرها وادي فاس، الذي تجرى مياهه في بسيط من الأرض إلى أن يصل المدينة فينقسم في داخلها على جداول كثيرة،و يشق أكثر جهاتها، فينتفع بمياهه في سقي جنانها[6].كما يعد وادي أم الربيع من أهم أهم أودية المغرب الأقصى، ينحدر من الأطلس المتوسط ليسقي سهول تادلا و دكالة[7] أما مياه وادي سبو فتسقى به الأراضي الممتدة بين فاس و مكناس[8]، في حين يسقى وادي ملوية أراضي المنطقة الواقعة بين تلمسان و رباط تازا[9].

---

[1] – ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ، ص125.

[2] – الحميري: الروض المعطار، ص 577.

[3] – البكري: كتاب المغرب، ص148.

[4] – الحميري: المصدر السابق ، ص305.

[5] – البكري: المصدر السابق ، ص148.

[6] – الجزنائي: زهرة الآس، ص68.

[7] – الصديق بن العربي: كتاب المغرب ،ص 56.

[8] – نفسه: ص 28.

[9] – المراكشي : المعجب ، ص 260.

وإلى جانب الأنهار والأودية اعتمد المرابطون في سقي مزارعهم على مياه الآبار بعد أن أدخلـــوا طرقا جديدة في استخراجها. وهذا ما أشار إليه " الإدريسي"[1] بقوله:" وماؤهـــا- أي مـــراكش- الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة" وذلك بعد أن قام المهندس الأندلسي عبيد الله بن يونس بحفر بئر مربعة كبيرة التربيع،ثم حفر منها ساقية متصلة الحفر على وجـــه الأرض و أخذ يحفر بتدريج من أعلى إلى أسفل حتى أوصل الماء إلى البساتين و هذا ما مكن الناس فيما بعد من إتباع الطريقة التي اعتمدها المهندس الأندلسي في استخراج المياه لسقي البساتين،و هذا مـــا زاد في عمارة مراكش فزادت جنانها و حسن قطرها ومنظرها.[2] كما استفيد من مياه العيـــون في ري عدة مناطق زراعية من المغرب مثل تلمسان[3] ، مكناسة الزيتون[4]، سجلماسة [5] ، فاس [6].

أما في الأندلس فقد اعتمد الزراع في سقي مزارعهم و حقولهم على مياه الأمطار كما هو الحال عليه في المغرب، إلى جانب مياه الأنهار خاصة و أن معظم المـــدن الأندلســـية تشـــقها أنهـــارا و وديانا،فكانت مزارع اشبيلية و قرطبة تسقى بمياه الوادي الكبير[7]، أما الأراضي الزراعية في غرناطة فكانت تسقى بمياه نهر حدرّو و شنيل[8] في حين اعتمد في ري مزارع كورة بلنسية على التـــرع و القنوات المتفرعة من الوادي الأبيض ونهر شقر [9] ،أما منطقة سرقسطة،و ما حولها من مدن و قرى فكانت تروى بمياه نهر ابرو وشلون[10] ،أما مياه نهر مرسية فكانت تسقى قبلي مرسية وجوفها[11] كما اعتمد في سقي الأراضي الزراعية على مياه الأنهار في كل من مالقة[12] ، و الجزيرة الخضـــراء[1] ورندة[2] ، و وادي آش[3].

---

1 – صفة المغرب: ص 67.

2 – الادريسي: صفة المغرب ص 68.

3 – البكري :المصدر السابق ، ص76.

4 – الحميري : الروض المعطار، ص 544.

5 – البكري: المصدر السابق، ص148.

6 – أثناء حديث ابن سعيد عن فاس يذكر أن فيها من العيون عدد أيام السنة ،أنظر: ابن سعيد : كتاب الحغرافيا ص 141،140.

7 – الإدريسي : المصدر السابق ، ص 196

8 – نفسه، ص 203.

9 – الإدريسي : نفسه ، ص 192 ؛ الحميري : المصدر السابق ، ص 602.

10 – الإدريسي: نفسه، ص 190.

11 – الحميري: ، المصدر السابق ص 540

12 – الإدريسي: المصدر السابق ، ص 200.

أما الري من العيون و الآبار فقد اعتمد عليه في مناطق جيان[4] و أرشذونة[5] و قرمونة[6] و" لبلة" التي اشتهر غربها بوفرة مياه العيون الصالحة للري و الشرب[7]

و لم يكتف الزراع الأندلسيين في سقي مزارعهم على مياه الأمطار و الأنهار و العيون فحسب بل تعداه ليشمل حفر العديد من الآبار خاصة في المناطق البعيدة عن مجاري الأنهار، والتي يقلّ بها تساقط الأمطار لضمان مصدر هام من مياه الري، و كان الأندلسيين على دراية واسعة في اختيار أماكن توفر المياه لحفر الآبار فيها و يستدلون عن كثرة المياه أو قلتها و قربها أو بعدها عن سطح الأرض و حلوها من مرها عن طريق النباتات و الحشائش التي تنمو في الموضع الذي سيحفر فيه البئر[8]، وكان الفلاحون يحرصون عند حفر البئر أن يكون في مكان مرتفع من البستان ليصل الماء سريعا إلى جميع الأنحاء[9].ولسحب المياه من البئر أو رفعها من النهر لأعلى مستوى لها كان الأندلسيون يستخدمون عجلة مائية ذات أصل فارسي تسمى دولابا أو ناعورة أو آلات أخرى مثل الدالية و السانية الخطارة[10]و لعل ما يؤكد اهتمام المرابطين بتطوير نظام الري في الأندلس و إعطائه اهتمام أكبر هو تشييد تاشفين بن علي نواعير على نهر قرطبة[11] ، و للحفاظ على عدم ضياع المياه و الاستفادة منها عمل ابن هدية ، صاحب المستخلص زمن علي بن يوسف على غرس الأشجار في مناطق المياه لتخفيف تبخرها.[12]

أهم المحاصيل الزراعية: تنوعت المحاصيل الزراعية بالمغرب و الأندلس في عصر المرابطين و عرفت وفرة في الإنتاج سواء أكان ذلك حبوبا أم فواكه أو خضرا أو غيرها من النباتات

---

1 – ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج (2) ، ص 158.

2 – ياقوت: نفسه ج (3) ، ص 84.

3 – الإدريسي: صفة المعرب، ص 202.

4 - نفسه، ص 202.

5 – الحميري: الروض المعطار ، ص 25.

6 – نفس المصدر ، ص 461.

7 –الإدريسي :المصدر السابق ، ص178.

8 – ابن حجاج الاشبيلي: المقنع في الفلاحة، ص 7-8.

9 – ابن بصال: كتاب الفلاحة، ص174.

10 – موسى عز الدين: النشاط الاقتصادي، ص 62.

11 – ابن القطان:نظم الجمان،ص252

12– ابن الخطيب:الإحاطة مج 1 ،ص236

الأخرى، غير أن زراعة الحبوب كانت تتصدر نلك الحاصلات باعتبارها الغذاء الأساسي للمجتمع في تلك الفترة و من أهمها:

القمـــح والشعيـــر والحنـــطـــة:

يعد القمح و الشعير من أهم المحاصيل الزراعية في كل من المغرب و الأندلس و قـــد عمـــت زراعتهما أنحاء مختلفة من البلاد نذكر منها مثلا المنطقة الشمالية — من المغرب- طنجة التي جادت فيها زراعتهما، بحيث كان أكثر مزروعات أهل طنجة من القمح و الشعير[1]، كما كان أكثر غلات غلات أهم البصرة من القمح و سائر الحبوب[2].

أما المنطقة الشرقية الممتددة بين فاس و تلمسان فكانت عبارة عن قرى و عمارات ،و يعد فضاء" قلعة مزاور" أكثر تلك المناطق إنتاجا للقمح و الشعير[3] و إذا ما اتجهنا جنوبا نجد إقدام الكثير مـــن أهالي المدن و القرى على زراعة القمح لدرجة أن بلاد السوس عرفت بكونها " بـــلاد الحنطـــة و الشعير"[4] و من بلاد السوس هذه مدينة نفيس التي تنتج من الحنطة ما لا تنتجه كثير من الـــبلاد[5] . كما اشتهرت مدينة سجلماسة بكثرة زراعة الحنطة بها، و من وفرة المنتوج فيها يذكر أن البـــذر يكون عاما و الحصاد فيه في كل سنة إلى تمام سبع سنين ،غير أن تلك الحنطة التي تنبت من غـــير بذر تتغيّر عن حالها حتى تكون بين الحنطة و الشعير[6] .

أما في الأندلس فقد تنوعت فيه محاصيل القمح و الشعير، فنجد من القمح أنواع فمنه ما يعرف باسم الريون[7] و منه أيضا الاطرجال و الشمرة و من الشعير ما يعرف باسم الاشبطالة أو الطرمش[8]

---

[1]- الادريسي: صفة المغرب، ص 170.

[2] – نفسه، ص169.

[3] – نفسه، ص80.

[4] – الحميري: الروض المعطار، ص 330.

[5] – نفسه ، ص 578.

[6] – الادريسي المصدر السابق ، ص 60 وانظر أيضا ذلك عند البكري مع اختلاف بسيط في النص: كتاب المغرب ، ص 151.

[7] – يعد هذا النوع من أفضل أنواع القمح و الذي يميزه عن غيره أنه قمح يابس ممتلئ و نقي، أنظر : كمال السيد أبو مصطفى : تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين و الموحدين،مركز الإسكندرية للكتاب ، إسكندرية د. ت ، ص 119.

الطرمش[1] و تتركز أهم مناطق إنتاج القمح و الشعير في كل من فحص غرناطة[2] و أبدة[3]، جيان[4]، جيان[4]، قرمونة[5] شريس[6] ، بيانة و فحص بلاطة[7].

الــذرة و أنــواع أخــرى من الحبــوب:

إلى جانب القمح و الشعير و الحنطة عرف المغرب و الأندلس في عصر المرابطين زراعة حبــوب أخرى كالذرة بمنطقتي سجلماسة [8] و أودغست، وتعدالذرة بمثابة الغذاء الرئيسي لعامة الناس بهذه الأخيرة[9] و جادت زراعة الأرز بمنطقة السوس، و لوفرة منتوجه كان يباع بأبخس الأثمــان[10] أمــا الفول و الحمص فقد اختصت بزراعتهما منطقتي البصرة و مرسى فضالة و منهما كان يصدران إلى الأندلس[11].

أما في الأندلس فقد أشارت كتب الفلاحة المعاصرة لفترة الدراسة لزراعة الكثير من محاصــيل الحبوب كالفول و الحمص و غيرهما،وقد أشارت إلى أن الفول يجود في التربة البيضــاء،و ينصــح بعدم زراعته بين الشجر المثمر ، و وقت زراعته تبدأ من شهر سبتمبر إلى فيفري من كل سنة.[12]أما الحمص فيجود في الأرض المالحة، و إذ أريد أن يعظم حبه ينصح زرعه بقشوره[13] و مــن المــدن الأندلسية التي اشتهرت بزراعتهما نذكر سرقسطة التي كان يخزن بها الفول و الحمص مدة عشرين سنة.[14]

---

[1] – الحميري: المصدر السابق، ص 118 ، 120.

[2] – ابن الخطيب: الإحاطة ، مج (1) ، ص 22.

[3] – الحميري:الروض المعطار، ص 6.

[4] – الإدريسي: صفةالمغرب ، ص 202.

[5] –نفس المصدر ، ص 206.

[6] – نفس المصدر ، ص 205.

[7] – نفس المصدر ، ص 186.

[8] – الحميري : المصدر السابق ، ص 305.

[9] – البكري : كتاب المغرب ، ص 158.

[10] – الإدريسي: المصدر السابق، ص62.

[11] – نفس المصدر ، ص 73.

[12] – أنظر زراعة الفول: مثلا: ابن حجاج الاشبيلي: المقنع في الفلاحة ، ص 14-15.

[13] – ابن حجاج الاشبيلي: نفس المصدر ، ص 14.

[14] – المقري: نفح الطيب، ص مج(1) ص 197.

كما عرف الأندلس زراعة حبوب أخرى مثل الأرز على ضفاف الأنهار[1] خاصة وأن الأرز من المحاصيل التي تحتاج زراعته إلى مياه ري كثيرة سواء من الإمطار أو الأنهار،و تعد بلنسية من أهم مناطق زراعته، و بهذا الخصوص يذكر " العذري" [2] أن الأرز " تنجب فيها- أي في بلنسية- ومنها ومنها يحمل إلى جميع الأندلس".و لم يقتصر الاهتمام على زراعة الحبوب و البقول بل تعداه إلى زراعة حاصلات أخرى منها:

الزيتون:

يعد الزيتون من المحاصيل الزراعية ذات القيمة الغذائية الكبيرة سواء أكان حبّا أو زيتا،ومن هنا جاء اهتمام المرابطين لغرسه في أكثر من مدينة سواء في المغرب أو في الأندلس و قد أمدّنا ابن حجاج الاشبيلي المعاصر لدولة المرابطين بمعلومات وافية في هذا الخصوص بدءا بالأرض الصالحة لشجر الزيتون،و الأماكن المفضلة لغرسه و الهواء الموافق له، مع تحديد الأماكن التي تربى فيها غروس الزيتون، و ما يصلح في تسميده، وتوقيت غراسته، و ما يغرس من الزيتون[3]،وكيفية غرسه غرسه و الاعتناء به من يوم غرسه حتى يثمر و لم يكتف بذلك فحسب بل أمدنا حتى بمعلومات عن كيفية جنيه، و طريق استخراج زيته أو إصلاحه للأكل بطرق مختلفة[4] .

ومن أشهر مناطق غراسة الزيتون في المغرب الأقصى مراكش التي قيل أن أكثر شجرها من الزيتون، لدرجة أنها فاقت مكناسة الزيتون. و فيها ما يستغنى به عن غيرها من البلاد، و تمير بلاد كثيرة[5] كما كانت مكناسة هي الأخرى من أكثر المناطق إنتاجا للزيتون حتى أنها سميت باسمه، على على اعتبار أن الزيتون أكثر محاصيلها الزراعية[6] . هذا ناهيك عما تنتجه منطقة درعة [7]وجبل درن[8].

[1] – عريب بن سعد: كتاب الأنواء أو تقويم قرطبة ،ص 50.
[2] – نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الأثار،و البستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق ، د. عبد العزيز الأهواني ،منشورات معهد الدراسات الإسلامية بمدريد 1965 ، ص 17.
[3] – ابن حجاج الاشبيلي: المقنع في الفلاحة ، ص 85-98.
[4] – نفس المصدرص 53-57.
[5] الحميري: الروض المعطار، ص 541.
[6] – ياقوت الحموي: معجم البلدان مج (5) ص 210؛ وانظر أيضا: الحميري:المصدر السابق ، ص 544.
[7] – الحميري: المصدر السابق ، ص 235.
[8] – الإدريسي صفة المغرب، ص 65.

أما في الأندلس فقد غرس الزيتون في أكثر من منطقة نذكر منها حصني بيانـــة[1]و بلشـــانة[2] ، وشريس[3]غير أن أشهر المناطق إنتاجا للزيتون هي منطقة الشرف[4]،و قد حدد لنـــا "الإدريســـي"[5] مسافة زراعة الزيتون به بأربعين ميلا بدءا من اشبيلية وانتهاءا بمدينة لبلة في حين يفـــوق عـــرض المساحة المغروسة اثني عشر ميلا على حد تعبير الإدريسي، و عليه فقد كانت اشبيلية مـــن أكثـــر المناطق بالأندلس إنتاجا لزيت الزيتون،فمنها كان يتجهز به إلى مشارق الأرض و مغاربهـــا بـــرا وبحرا.

قصـــــب السكـــــــر:

يعد قصب السكر من أهم المحاصيل الزراعية التي كثرت زراعته في أنحاء مختلفة مـــن المغـــرب والأندلس في عصر المرابطين،ففي المغرب اشتهرت عدة مناطق بزراعته مثل منطقة بليونش- القريبة من سبتة- ومنها يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد.[6]غير أن أشهر مناطق المغـــرب إنتاجـــا لقصب السكر هي منطقة السوس بأقسامه المختلفة، فجادت زراعته في السوس الغربي، و هذا مـــا حذا بالحميري أن يصف جودته بقوله:" و قصب السكر الذي ليس في الأرض مثله طولا و عرضا و حلاوة و كثرة ماء"[7].

كما زرع في منطقة السوس الأقصى و تحديدا في معظم المدن و القرى الواقعة على ضفة وادي ماست ، غير أن أشهرها زراعة للسكر منطقة" تارودنت" التي وصفت بأنها " أكثر بـــلاد الـــدنيا قصب السكر"[8] و في الوقت نفسه كانت زراعته في منطقة ايجلي- قاعدة بلاد السوس — حتى أن

---

[1] - حصن كبير في كدية عالية من تراب يبعد عن مدينة قبره بمرحله،أنظر: الإدريسي صفة المغرب: 205.

[2] - يعد حصن بشانة من أوثق الحصون و هو حصن عامر غير بعيد من مدينة استجة، أنظر: الإدريسي: نفس المصدر ، ص 206

[3] - الإدريسي: نفسه ،ص 206.

[4] - محمد بن حجاج الاشبيلي : المقنع فى الفلاحة ،ص 91.

[5] - صفة المغرب ، ص 178.

[6] - نفسه ص 167.

[7] - الحميري: الروض المعطار ، ص 330.

[8] - نفس المصدر ، ص330.

أكثر شرب أهلها إنما هو قصب السكر[1] ،و لوفرة إنتاجه بها يحمـــل إلى جميـــع بـــلاد المغـــرب والأندلس و افريقية[2].

أما في الأندلس فقد زرع بكثرة في الجهة الشرقية من اشبيلية فيما يعرف بجنـــات المصـــلى[3]، وجادت زراعته، في سواحل الأندلس بصفة عامة[4]، و زرع بكثرة في شرق الأنـــدلس في منطقـــة البيرة[5].

القطـــــــن و الكتـــــــــــان:

تعتبر زراعة القطن و الكتّان من بين المحاصيل الزراعية التي ورد ذكرها في المصـــادر الجغرافيـــة المعاصرة لفترة الدراسة في كل من المغرب و الأندلس و يعود الفضل إلى العرب في إدخال زراعـــة القطن إلى المغرب ومنه انتقلت زراعته إلى الأندلس[6] ،و يتضح لنا من خلال المصـــادر أن زراعتـــه تجود في المناطق المنخفضة (الدافئة) فكان من أكثر غلات أهل سجلماسة[7] ، كما حسنت زراعتـــه بالقرب من مدينة فاس و تحديدا في منطقة ماسيتة البعيدة عن فاس بمرحلة[8] ، غير أن أشهر المناطق زراعة للقطن في المغرب هي منطقتي داي و تادلة وهذا ما نستشفه من قول الإدريسي[9]:"ويزرع (بداي) و بأرباضها كثير القطن و لكنه بمدينة تادلة يزرع أكثر مما يزرع بمدينة داي".ونظرا لوفرة إنتاجه فإن ما كان يصنع من الثياب القطنية في بلاد المغرب الأقصى كان من إنتاج مدينة تادلـــة، حتى أنه لا يحتاج مع قطنها إلى غيره من أنواع القطن المجلوب من سائر الأقطار[10]. هذا ناهيك عما جادت به البصرة و منطقة أم ربيع في هذا الخصوص [11] .

---

[1] – الحميري: الروض المعطار ، ص 330.

[2] – البكري: كتاب المغرب، ص 161.

[3] – الحميري: المصدر السابق، ص 59.

[4] – المقري: نفح الطيب، مج (1) ، ص 200.

[5] – ابن الخطيب: الإحاطة مج(1) ، ص 17.

[6] – حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس، ص 241-242.

[7] – الإدريسي: صفة المغرب،ص 61.

[8] – البكري:المصدر السابق، ص 155.

[9] – الإدريسي: المصدر السابق، ص 75.

[10] – نفس المصدرص75

[11] – نفس المصدر ، ص 71 ، 169.

أما في الأندلس فكان القطن يزرع في فحص غرناطة[1] و باجة[2] و سرقسطة[3] غير أن زراعته جادت بجبل الشرف و منه كان يعم جميع أنحاء الأندلس و لوفرته كان التجار يتجهزون به إلى افريقية و سجلماسة و ما والاها[4]وإلى جانب القطن عرف المغرب و الأندلس زراعة الكتان حيث جادت زراعته بالمغرب في البصرة حتى أنها سميت ببصرة الكتان[5] ، أما في الأندلس فقد زرع في كل من غرناطة [6] ، وباجة، وسرسقطة[7]، و فحص البيرة[8].

الفواكه:

ليس من السهولة بمكان الإلمام بذكر جميع الفواكه و الثمار التي جاد بها المغرب والأندلس إبان عصر المرابطين و هذا العاملين أساسيين: أوله: أنه لا تخلوا منطقة من مناطقهما إلا و بها و لو فاكهة واحدة أو أكثر.

و ثانيه: أنه بتتبعنا للمصادر المختلفة المعاصرة لفترة الدراسة أو القريبة منها خاصة الجغرافية عادة ما نجد تشابه و ذكر لنفس الفواكه و الثمار في أكثر من منطقة،و على هذا الأساس فإننا سوف نقتصر هنا على ذكر أهممها لإعطاء نظرة و لو وجيزة على تنوع زراعة الفواكه.

وإذا ما حاولنا التعرف على مدن المغرب و الأندلس و أنواع الفواكه التي اشتهرت بها كان لزاما علينا البدء بعاصمة الدولة مراكش هذه الأخيرة التي وصفت بأنها أكثر بلاد المغرب جنات و بساتين و أعنابا و فواكه.[9] أما مدينة فاس فالمعروف عنها أنها كثيرة البساتين و الفواكه و جميع الثمار سيما تفاحها الحلو المعروف بالاطرابلسي المتميز عن غيره بحسن طعمه و مذاقه.[10]

وتميزت مدينة بني عطوش الواقعة شرقي مدينة تاقررت عن غيرها من المدن المغربية بكونها مكانا مفضلا لسكن ا لأمراء المرابطين و بني عمهم فاتخذوا بساتينهم بها و لهم فيها من الأشجار

---

[1] – ابن الخطيب: الإحاطة ، مج (1) ، ص 36.

[2] – المقري:نفح الطيب مج1 ، ص 159.

[3] – نفس المصدر: ص 197.

[4] –الحميري: الروض المعطار، ص 59.

[5] – البكري: كتاب المغرب،ص 110.

[6] – ابن الخطيب:المصدرالسابق ، ص 36.

[7] –المقري: المصدرالسابق ص 197،159

[8] – الحميري: المصدرالسابق ،ص 46.

[9] – نفسه ص 541.

[10] – نفسه،ص 435.

المتنوعة من تين و أعناب و فواكه كثيرة،ومن وفرتها كان كل ذلك بها ممكن ورخـــيص[1] و إذا ما اتجهنا إلى المناطق الشمالية لوجدنا تنوعا و كثرة الفواكه و الثمار وحسبنا فى ذلك ما شتهرت به منطقة بليونش القريبة من سبتة من جنات و بساتين و أشجار الفواكه التي يتجهز بثمارها إلى مـــا جاور سبتة من البلاد[2].

أما في الجهة الجنوبية من مراكش تقع مدينة أغمات المعروفة بتنوع فواكهها[3] و بموازاتهـــا يقـــع جبل درن المشهور بثماره و فواكهه و هذا ما أشار إليه" الإدريسي" في قوله:" و في هذا الجبل من الفواكه التين الكثير الكبير، الطيب المتناهي في الطيب، البالغ الحلاوة،وفيه من العنـــب المســـتطيل العسلي الذي لا يوجد في أكثره نوى،ومنه يتخذ الزبيب الذي عليه يتنقل ملوك المغرب لرقة قشرته و عذوبة طعمه،واعتدال غذائه،وفيه الجوز واللوز، وأما السفرجل و الرمان فيكون به منهما مـــا يباع الحمل منه بقيراط واحد، و به من الاجاص و الكمثري، و المشمش كل غريبـــة، وكـــذلك الأترج و القصب الحلو...وسائر الفواكه"[4]. كما اشتهرت مدينة سجلماسة بتنوع فواكهها مـــن الأعناب الشديدة الحلاوة ،والتمر المختلف الأنواع،وقد أشار " ياقوت الحموي"[5] إلى أصنافه فذكر فذكر أن بسجلماسة " ستة عشر صنفا من التمر ما بين عجوة و دقل" . و هـــذا مـــا يؤكـــده الإدريسي في قوله:" و بها نخل و أنواع من التمر لا يشبه بعضها بعضا، و فيها الرطـــب المســـمى بالبرني، و هي خضراء جدا، وحلاوتها تفوق كل حلاوة ،ونواها صغار في غاية الصغر"[6].

و تنوعت فواكه السوس،وهذا ما حذا بالإدريسي إلى وصف هذا التنوع بقوله:" و بها من الفواكه الجليلة أجناس مختلفة و أنواع كثيرة كا لجوز و التين،و العنب العذارى،و الســـفرجل والرمـــان الأمليسي،والأترج الكبير المقدار الكثير العدد ،وكذلك المشمش و التفاح المهند".[7]

أما الأندلس فقد تنوعت فواكهه و ثماره، و كثرت في مختلف مناطقه و أقاليمه و هذا ما يؤكده المقري في قوله:" و أما الثمار و الفواكه ،فالأندلس أسعد بلاد الله بكثرتها"[8] واختلفت بـــاختلاف

---

[1] – الإدريسي: صفة المغرب، ص 77-78.

[2] –نفسه،ص 167.

[3] – الحميري: الروض المعطار ،ص 46.

[4] – الإدريسي:المصدر السابق ،ص 64-65

[5] – معجم البلدان: ج (3) ، ص 217.

[6] – الإدريسي: المصدر السابق ،ص 60-61.

[7] – نفس المصدر ص 61-62.

[8] – المقري: نفح الطيب، مج (1) ، ص 200.

أنواعها من الكروم و التين و التفاح و الرومان و الكمثري و القراسيا (حب الملوك) والمــوز و الجوز و اللوز،و الخوخ،و المشمش و الأترج و النارنج و الليمون. فالكروم منها الأسود والمدحرج و الطويل، ومنها الأحمر المشوب بالصفرة [1] و قد كثرت غراستها في جهات مختلفة من الأنــدلس نذكر منها مريسة و دروقة ،دانية ،بجانة،باجة .[2]

أما التين فقد جادت ثماره في مختلف أنحاء الأندلس و تعددت أنواعه ،فمنه الــتين القــوطي والتين الشعري باشبيلية الذي امتدت أشجاره على طول إقليم الشرف، و هــذان الصــنفان قــد وصفهما ابن سعيد بقوله:" و هذان صنفان لم ترعيني ، و لم أدق لهما منذ خرجت من الأندلس ما يفضلهما،و كذلك التين المالقي[3]، و تين هذه الأخيرة يضرب به المثل في حسنه و قيل إنه لــيس في الدنيا مثله[4] .كما زرع التفاح في مناطق متعددة من الأندلس ،غير أن أشهرها كان حصن جليانة (من أعمال وادى آش) و في هذا الخصوص يشير المقري إلى أنه- أي بحصن جليانة- به من التفاح الجلياني الذي خص الله به ذلك الموضع يجمع بين عظم الحجم و كرم الجوهر و حلاوة الطعــم و ذكاء الرائحة و النقاء[5].

أما الرمان فقد جادت زراعته في شرق الأندلس و جنوبه الشرقي ســيما في كــورة تــدمير (مرسية)[6] و قرية أشكوني[7] (من أعمال مرسية). و مالقة المشهورة برمانها المرسى الياقوتي[8] و ورد ورد في كتاب الفلاحة لابن العوام أن بالأندلس من أنواع الرمان: السفرى، والأمليس و الدوارى والمرسى و العدسى[9]. ومما ذكره ابن سعيد عن الرمان السفري أن الأندلسيين كانوا يفضلونه على غيره من أجناس الرمان لعذوبة طعمه ورقة العظم،وغزارة الماء، و حسن الصورة ،فانتشر نوعــه، واستوسع الناس في غراسته، و عم بذلك أرجاء الأندلس[10] .

---

[1] - ابن العوام الاشبيلي: كتاب الفلاحة ج(1) نشر بانكيري مدريد 1802 ، ص 351.

[2] - انظر عن الكروم المذكورة الإدريسي صفة المغرب،ص ص189 ، 192 ، 200 ، 204.

[3] - المقري:نفح الطيب مج1 ص 200.

[4] - نفسه، ص 151.

[5] - نفسه ، ص 149.

[6]- العذري: نصوص عن الأندلس ، ص 2

[7] - الحميري : الروض المعطار، ص60-61.

[8] - ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة، ج(2) ، ص 265.

[9] - ابن العوام: المصدر السابق ، ص 273-274.

[10] - المقري: نفح الطيب مج1، ص 467-468.

كما جادت زراعة الكمثري بنوعيه الجبلي و البستاني أرض الأندلس[1] و أكثر المناطق زراعة له حصن دلر بجبل شلير(قرب غرناطة) و مما جاء في وصفه قول الإدريسي:" وبه من الكمثري كل عجيبة و ذلك أن الكمثري به يكون منها في وزن الحبة الواحدة رطل أندلسي و أما الأعم منها فكمثرتان في رطل واحد و لها مذاق عجيب"[2].

ومن المدن الأندلسية التي اشتهرت بزراعة الكمثري نذكر بلنسية و كمثرها المسمى الأرزة المقدر بحبة عنب ،والذي يجمع بين حلاوة المذاق و ذكاء الرائحة،فإذا دخل دار عرف بريحه[3].

و إلى جانب الفواكه السابقة الذكر عرفت الأندلس زراعة بعض الفواكه و الثمار الأخرى كالقراسيا(حب الملوك) في بلنسية[4] و سرقسطة[5] و الموز في شلوبينية(من أعمال كورة البيرة)[6] و شمجلة أو (شمجيلة).(من أعمال رية)[7] في حين كان يزرع الجوز في حصن " فريرة" أسفل جبل شلير[8] و شنترية[9] ، أما اللوز فكان تواجده بكثرة في كل من مالقة [10] و قمارش[11] و غيرهما.

الغابات:

كان لتنوع السطح و المناخ في المغرب و الأندلس أن ساعد ذلك على نمو الغابات في مناطق مختلفة من البلاد. و كانت تلك الغابات تنتج كميات وفيرة من الأخشاب استخدمت في كثير من الصناعات.على الرغم من ذلك فإن المصادر المعاصرة لفترة الدراسة– خاصة الجغرافية منها– لا تمدنا بمعلومات وافية عن الغابات المنتشرة في أنحاء المغرب إلا في اشارات عابرة و وجيزة،غير أنه وبتتبعنا لها أمكننا ذالك إعطاء و لو لمحة بسيطة عنها" فالبكري" في وصفه لمدينة "نكور" يشير إلى

1 – ابن العوام: كتاب الفلاحة ج(1) ، ص 262.
2 – الإدريسي: صفة المغرب، ص201.
3 – المقري: نفح الطيب مج1 ، ص 179.
4 – ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج(1) ، ص 581.
5 – المقري: المصدر السابق، ص 197.
6 – الحميري: الروض المعطار، ص343.
7 – ياقوت الحموي: المصدر السابق ، ج(3) ، ص 410.
8 – الادريسي :المصدر السابق ، ص 201.
9 – ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج(3) ، ص 416.
10 – ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطةج2 ص 265.
11 – ابن الخطيب: كتاب معيار الاختبار ، ص 79 .و وقمارش تقع بالقرب من مدينة غرناطة.

جبل مقابل لها يعرف بالمصلى أكثر خشبه من العرعر و الأرز[1] و في حديثه عن جبل " درن" يشير إلى أن هذا الجبل كثير الأشجار سيما أشجار الصنوبر و الأرز و البلوط[2]

و تبدوا تلك الغابة في اخضرار دائم لوفرة المياه بها[3] . و في أسفل هذا الجبل و تحديدا في الناحية الناحية الشمالية منه نجد مدينة أغمات وريكة المشهورة بأشجارها الملتفه[4] و في وصف البكـــري لحصن داي يشير إلى أن الحصن يقع في وسط غيضة كبيرة من أجناس الشجر[5] و بعيد عن درعـــه بمرحلة تقع مدينة تسمى (تامجاثت) ينبت فيها شجر يسمى باسم الموضع(تامجاثت) و هو شـــجر يعظم ورقه و منه كانت تصنع آنية سجلماسة و درعة و ما والاها[6] . و في حديثه عـــن المنطقـــة الواقعة في أقصى الجنوب(أودغست) يشير إلى وجود غابات النخيل بها هذا ناهيك عـــن أشـــجار الحناء الكبيرة جدا و التي كانت تماثل أشجار الزيتون و يختم وصفه للمنطقة الجنوبية بحصن "أزكى" و ما حوله من غابات النخيل و قدّر عدد نخيلها بأكثر من عشرين ألف نخلة[7].

أما الأندلس فقد اشتهر بغاباته الكثيفة و أخشابه الجيدة المختلفة الأنـــواع، و يعـــد خشـــب الصنوبر من أهم الأخشاب التي اشتهرت به جبال الأندلس، و قد وصف لنا " الإدريسي"[8]صنوبر الإدريسي"[8]صنوبر طرطوشة بقوله:" و بجبالها خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول و الغلظ،ومنه تتخذ الصواري"،ثم يسترسل في وصفه فيذكر بأنه" أحمر صافي البشرة دسم لا يـــتغير سريعا، و لا يفعل به السوس ما يفعله في غيره"[9] كما يشير الإدريسي إلى وفرة الصنوبر في حصن قلصة (القريب من قونكة) و مجال استخداماته فيقول:" و قلصة حصن منيع تتصل به أجبل كثيرة بها شجر الصنوبر الكثير، و يقطع بها الخشب،ويلقي في الماء، و يحمل إلى دانيـــة و إلى بلنســـية في البحر و ذلك أنها تسير في النهر من قلصة إلى جزيرة شقر و من جزيرة شقر إلى حصن قلـــبيرة و

[1] – البكري: كتاب المغرب، ص 90.
[2] – نفس المصدر: ص 147.
[3] – الادريسي: صفة المغرب، ص 64.
[4] – نفس المصدر: ص 65.
[5] – البكري: المصدر السابق،ص 154.
[6] – نفس المصدر: ص 156.
[7] – نفس المصدر، ص 167- 168.
[8] – صفة المغرب: ص 190.
[9] – نفس المصدر ص190.

تفرغ هناك على البحر فتملأ منها المراكب و تحمل إلى دانية ،فتنشأ منها السفن الكبار و المراكب الصغار و يحمل إلى بلنسية منه ما كان عريضا فيصرف في الأبنية و الديار"[1].

وامتازت غابات المنطقة الغربية من الأندلس بكثرة أشجار الصنوبر بها نذكر منها على سبيل المثال شلطيش، شنتمرية، قادس[2] يابسة و يصف الحميري صنوبر يابسة بقوله:" و أرضها تنبت الصنوبر الجيد العود للإنشاء و عُدَدْ المراكب[3]" كما اشتهرت مدينة شلب بكثرة أشجار العود و قد أشار " الإدريسي"[4] إلى ذلك بقوله:" و العود بجبالها كثير يحمل منها إلى كل الجهات".

و إلى جانب أشجار الصنوبر أشارت المصادر الجغرافية إلى أنواع أخرى من الأشجار المتواجدة في الأندلس نذكر منها مثلا أشجار البقس في طرطوشة[5] و أشجار البلوط في حصن بطروش[6] ،و شجر الخروب و المثنان بجزيرة قادس و بها أيضا شجيرة تشبه فسيل النحل لها صمغ إذا اخلط بالزجاج صبغه(أو صمغه) صار حجرا تتخذ منه الفصوص[7].

الثـــروة الحيوانيـــة

مناطـــق الرعي

لقد أشاد الجغرافيون المسلمين بكثرة المراعي في المغرب و الأندلس و أشاروا إلى وفرة ثروتهما الحيوانية، و لعل أول إشارة تسترعي انتباهنا بخصوص المراعي أن المرابطين لما أرادوا تأسيس مدينة مراكش أعطوا أولوية لذلك ففضلوا أن يقيموا عاصمتهم في موضع يكون منتجعا لمواشيهم و هذا ما نستشفه من قول ابن عذارى:" ثم أراد بعضهم أن تكون المدينة على وادى تانسيفت فامتنع لهم من ذلك و قال :" نحن من أهل الصحراء و مواشينا معنا لا يصلح لنا السكنى على الوادى ،فنظروا له ذلك الموضع لكي يكون وادي نفيس جنانها، و دكالة فدانها"[8] و بذلك تكون المنطقة الممتدة بين بين نفيس و دكالة مرعى لمواشي الملثمين.

---

[1] – الادريسي:صفة المغرب، ص 195.

[2] – الحميري: الروض المعطار، ص ص344، 347،448.

[3] – نفسه، ص 616.

[4] – صفة المغرب: ص 180 ؛ الحميري : المصدر السابق،ص 342.

[5] – الحميري: نفس المصدر ، ص 391 و البقس شجر يشبه ورقها ورق الآس وخشبها صلب أصفر، و لها حب أسود :انظر :انظر كمال السيد أبو مصطفى : تاريخ الأندلس الاقتصادي ص 168 هامش (6).

[6] – الادريسي: المصدرالسابق، ص213 ،و هذا الحصن يقع في طريق قرطبة.

[7] – الحميري: المصدر السابق ، ص448.

[8] – ابن عذارى :البيان المغرب ، ج(4) ، ص 19.

و بتتبعنا للمصادر الجغرافية يمكننا تحديد مناطق الرعي في المغرب فالبكري في حديثه عن البصرة يشير إلى مراعيها و يصفها بقوله:" و هي مدينة كبيرة واسعة ،وهي أوسع تلك النواحي رعيا و أكثرها ضرعا"[1] و يذهب الحميري في إشارة منه إلى اشتغال أهل جبل فازاز بالرعي فيقول:" و هو جبل كبير تسكنه أمم كثيرة من البربر يطردهم الثلج عنه ، فيترلون إلى ريف البحر الغربي، و هم يكسبون من البقر و الغنم و الخيل" [2].

و في حديث " الإدريسي" عن منطقة أم ربيع يشير إلى أن سكانها أخلاط من البربر و هم أصحاب حرث و مواشي[3] و جمال ،و على مرحلتين من أم ربيع نجد قرية " انقال" المشهورة هي الأخرى بكثرة المواشي من الإبل و البقر و الغنم و طيور النعام سيما و أن قبالة أنقّال فحصا طويلا يعد مرعى لتلك المواشي[4] و ليس من المستبعد أن يكون أهل أم ربيع قد شاركوهم في تلك المراعي،ومما جاء في وصف تلك المراعي قول الادريسي:" و قبالتها – أي أنقّال- فحص طويل،وقد انحشرت إليه طيور النعام،فهي في أكنافه سارحة ،وعلى مراقيه دارجة،وهي آلاف لا تحد و لا تعد"[5].

و تعددت مناطق الرعي في مختلف أنحاء المغرب الأقصى، فكان فحص خرّاز البالغ طولها اثني عشر ميلا مرعى لمواشي أهل تلك المنطقة[6] في حين كان قد اتخذ المصاميد من منطقة السوس الخصبة الخصبة مرعى لمواشيهم[7] ، كما كانت المنطقة الممتدة بين تادلا و سلا عبارة عن قرى بها مراعي ، و وصف الحميري منطقة مراعي وجدة بأنها أنجع المراعي و أحسنها للسائمة[8] واشتهرت ضواحي مدينة تلمسان بحسن مراعيها فكان نتاج لحومهم" شحيمة و سمينة" على حد تعبير الإدريسي[9] .أما

---

[1] – البكري: كتاب المغرب، ص110 ؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج(1) ،ص 521.
[2] – الحميري : الروض المعطار، ص 435.
[3] – الإدريسي: صفة المغرب ،ص 70-71.
[4] – نفس المصدر ،ص 71.
[5] – نفس المصدر و الصفحة.
[6] – الإدريسي: نفسه ، ص 72.
[7] – نفسه: ص 74،63 ؛ الحميري : المصدر السابق ،ص 330.
[8] – الحميري: المصدر السابق ، ص 607.
[9] – الإدريسي: المصدر السابق ، ص 75-80.

المنطقة الجنوبية فقد اشتهرت منها خاصة مدينة سجلماسة بكونها موضع انتجاع للماشية[1] حتى أنها أنها وصفت بأنه" بلد يحسن فيه الغنم"[2]

أما الأندلس فقد تعددت فيه هو الآخر أماكن الرعي فوصف ابن الخطيب مدينة بسطة بالبلد الخصيب و لها فحص يسافر فيه الطرف سعيا،ولا تعدم السائمة به ريّا و لا رعيا ، كما وصف منطقة "أشكر" بأنها مسرح البهائم، و معدن الرعي الدائم- واشتهرت منطقة لاردة بمراعيها سيما في فحصها المعروف باسم " مشيكيجان"[3] و قد وصفه الحميري بأنه " كثير الضياع و المزارع و المراعي"[4] و في حديثه عن مدينة شلب و مراعيها يصفها بأنها مشهورة ببسائط فسيحة و بطائح عريضة،و لها جبل منيف كثير المسارح[5] و وصف الإدريسي منطقة " يبّورة" بخصبها الكثير الذي لا لا يوجد بغيرها.[6]

أما جبل الشارات فقد اشتهر بكثرة غنمه و بقره لحسن مراعيه حتى أنه لا يوجد فيه ما هو هزيلا بل هي في غاية السمن ،وأصبحت مضرب المثل في جميع أقطار الأندلس[7] وجادت جزيرة شلطيش القريبة من لبلة بمراعيها الخصيبة التي لا تعدم[8]. و تميزت " قادس" عن غيرها من مدن الأندلس بمزارعها الكثيرة الريع، و أكثر مواشيها الماعز، فإذا رعت خروبا عند عقدها أسكر لبنها، و قيل أن بها نبات إذا رعته الماعز أسكر لبنها إسكارا عظيما[9] و من أشهر الحيوانات التي اشتهرت بها منطقة المغرب و الأندلس هي:

الأغنـــام و الأبقـــار:

كان لانتشار المناطق الرعوية في المغرب و الأندلس أن ساعد ذلك على تربية الأغنام والأبقار في انحاء مختلفة منهما ففي المغرب يشير الإدريسي في حديثه عن أهالي منطقة نول من قبائل لمتونة و

---

1 – البكري: كتاب المغرب،ص 149

2 – نفسه،ص 147.

3 – ابن الخطيب: معيار الإختبار، ص 86-87.

4 – الحميري:الروض المعطار ، ص 507.

5 – نفس المصدر: ص 342.

6 – الإدريسي: صفة المغرب ،ص 181.

7 – نفس المصدر: ص 188.

8 – الحميري: المصدر السابق،ص 344.

9 –نفس المصدر ص 448.

لمطة أن أكثر مواشيهم من الأغنام و الأبقار[1] و في وصف البكري لحصن يـــرارة القريـــب مـــن سجلماسة يقول بأنه بلد يُحسن فيه الغنم، و يذكر بأن أصول أغنامهم من قـــيس التابعـــة لأرض فارس. واشتهر منطقة مطماطة هسكورة الواقعة على نهر ملوية بوفرة بقرها و غنمها.[2]

أما مدينة أودغست الواقعة في أقصى جنوب المغرب فكانت من أشهر المنـــاطق تربيـــة للأغنـــام والأبقار، وكانت أسعارها بها رخيصة ، حتى أنه بإمكان شراء عشرة كباش بمثقال واحد[3] . كما اشتهرت منطقتي أم ربيع و أنقّال القريبة منها بكثرة غنمها و بقرها[4]. هذا ناهيك عما كانت تتميز تتميز به منطقة باب زناتة الواقعة في الطريق بين فاس و تلمسان من وفرة البقر و الغنم بها[5]

والراجح أن أشهر المناطق تربية للغنم و البقر في تلك الفترة هي مدينة أغمات التي كان يـــذبح في سوقها القائم يوم الأحد ما بين مائة ثور، و من الغنم ألف شاة في اليوم الواحد[6] و لوفرة الأغنام الأغنام و الأبقار في مرسى فضالة كانت تصدر إلى الأندلس[7].

أما الأندلس فلا يختلف عن المغرب فقد عرف هو الآخـــر تربيـــة الأغنـــام والأبقـــار و أولى الأندلسيين اهتماما لذلك،فراجت تربيته في معظم أرجائه، فالإدريسي المعاصر لفترة الدراسة يشير في حديثه عن " جبال الشارات" بأنها غنية بالأبقار و الأغنام ،إلى حد أن سكان تلك الجبال كانوا يصدرونها إلى جميع الانحاء، و تمتاز أغنامها بأنها في غاية السمن،ولهذا كان يضرب بها المثل في جميع جهات الأندلس[8].

ويشير ابن الخطيب في حديثه عن فحص بسطة إلى تربية الأغنام و الأبقار و هذا ما يفهـــم مـــن قوله:" و كانت السائمة لا تعدم في فحص بسطة الخصيب رعيا و لا ريّا"[9] و في ذكر الإدريسي لبلاد الأندلس يشير إلى جزيرة أطلق عليها اسم جزيرة الغنم، فذكر أن فيها من الغنم مالا يستطيع أحد على عده، و لا تحصيله،وهي سارحة لا راعي لها، و لا ناظر إليها ،غير أن ما يميز لحوم تلك

---

[1] – الإدريسي: صفةالمغرب،ص 59.
[2] – البكري: كتاب المغرب ، ص 147.
[3] –نفسه ، ص 158.
[4] – الإدريسي: المصدر السابق ، ص 71.
[5] – نفسه ، ص 79
[6] – البكري: المصدر السابق،ص 153.
[7] – الإدريسي: المصدر السابق،ص 73
[8] – نفس المصدر ، ص 188.
[9] – ابن الخطيب : معيار الاختبار، ص 87.

الأغنام أن طعم لحمها مر لا يقدر أحد على أكله[1] و من بين المناطق التي اشتهرت بتربية الأغنام و الأبقار نذكر أيضا جزيرة شلطيش المعروفة بمراعيها الخصبة[2] و قلمرية[3] و مدينة لورقة التي يـــزعم أهلها بأن البقر فيها لا يعتل عندهم[4]. خصوصا و أن الأندلسيين كانوا على دراية بطرق عـــلاج الغنم من الأمراض التي تصيبها،و يملكون خبرة كبيرة بطرق تسمينها نذكر منها على سبيل المثـــال دفع الغنم إلى المبالغة في شرب الماء، و تناول الملح كل خمسة أيام، مع تقديم علف خاص مشـــكل من التبن المختلط بالملح و القرع المملح و العدس[5] هذا بالنسبة للغنم أما أهم علف للأبقـــار هـــو نبات الكرسنة و حبها لأنه يقويها و يسمنها و يكثر لبنها، ثم يستطرد ابـــن العـــوام في وصـــفه للأعلاف و من بين ما يذكر أن الجلبان إذا نقع في الماء وأعلفته الأبقار سمنها مثل الكرسنة و نفس الشيئ مع أوراق الذرة التي تعمل على تسمينها[6].

الإبـــل و الخيـــــل و البغـــال و الحمـــير:

كان لتنوع تضاريس المغرب و الأندلس أن تطلب ذلك تربية بعض الحيوانات حسب طبيعـــة كل منطقة، فالصحراء التي انطلق منها المرابطين كانت الإبل سفينتها. في حـــين كانـــت البغـــال والحمير أكثر ملائمة للسير عبر الأراضي المرتفعة التي يكثر وجودها في المغرب و الأندلس،أما الخيل فكانت كثيرا ما تستخدم في المعارك و الانتقال و حمل الأثقال.

وحتى يتسنى لنا إعطاء صورة واضحة عن هذه الحيوانات كان لزاما علينا العـــودة إلى بعـــض المصادر الجغرافية حيث أمدنا مارمول بمعلومات في غاية الأهمية عن الإبل و الخيل، ففي حديثه عن الإبل يشير إلى كثرتها ببلاد البربر[7] لكونها أغلى ثروة عندهم و هذا ما نستشفه من قولـــه:" لـــيس للأعراب ثروة أغلى من الجمل، و لا مال يفيدهم أكثر منه بحيث أنهم إذا تحدثوا عن رجـــل غـــني قالوا :إنه يملك كذا من آلاف الجمال دون أن يذكروا له غيرها"[8].

---

[1] – الإدريسي:صفة المغرب ،ص 184.

[2] – الحميري: الروض المعطار ، ص 344.

[3] – الإدريسي: المصدر السابق، ص 183.

[4] – الحميري:المصدرالسابق ،ص 513.

[5] – ابن العوام: الفلاحة ،ج (2) ، ص 474.

[6] – نفس المصدر، ص 478 ، 469.

[7] – مارمول: كربخال: افريقيا ، ج (1) ، ص 69.

[8] نفس المصدر و الصفحة.

ومن بين ما يذكر أن كل الذين يملكون عدد كبير من الإبل هم سادة لا سلطة لأحد عليهم[1] و هذا ما ينطبق على قبائل الملثمين قبل تأسيس دولتهم،وهو ما يفهم مما أورده " الإدريسي" حيث يقول:" و هم أصحاب إبل و نجب عتاق رحالة لا يقيمون بمكان"[2] و الإبل في عمومها ثلاث أصناف منها ما يسمى هجينا و هي أضخمها و أكبرها و تحمل إلى حدود خمسة قناطير، و هناك جمال أخرى لها سنمان،وهي صالحة أكثر للركوب،وهذه مواطنها آسيا. أما الصنف الثالث يسمى ركاهل أو مهاري- أي وحيدة السنم- و هي أصغر من الأولى و لا تستخدم إلا للركوب،ولسرعتها كانت تستخدم في نقل البريد إذا كانت المسافة طويلة ، كما أنها تمطى في القتال[3].

أما الخيول الموجودة في بلاد المغرب فهي نوعان: نوع يطلق عليه في أوربا اسم " بارب" يقبل على تربيتها كبار بلاد البربر، و هي أقل سرعة ،ولا تصبر على الركض غير أن ما يميزها أنها جميلة.[4]

أما النوع الثاني تسمى بالخيول العربية و هي تمتاز بخفتها و لذا كانت تستخدم في صيد حيوان اللمط و النعام،وهذا النوع نادر، و لهذا كانت أسعارها مرتفعة،لا يقبل على تربيتها إلا الأمراء ليتمكنوا من الفرار إذا اقتضى الأمر[5] ، و هذا ما ينطبق على الأمير المرابطي تاشفين الذي استخدمها للفرار من قبضة الموحدين بعد محاصرتهم له في رباط قرب وهران.[6]

وتعددت استخدامات المرابطين للإبل و الخيل، فاستخدموهم في حروبهم الأولى قبل تأسيس الدولة ضد مخاليفهم في درعة و سجلماسة، و قدرها " البكري" في فتح هذه الأخيرة بثلاثين ألف جمل[7] ، كما كانت الخيل و الإبل من ضمن الهدايا التي أهداها يوسف بن تاشفين إلى ابن عمه أبي أبي بكر بن عمر و فيها يقول ابن عذارى:" شرع يوسف في توجيهه الهدية المذكورة...(من ضمنها) سبعون فرسا منها خمسة و عشرون مجهزة بفاخر الجهازات... و مائة و خمسون من

---

[1] - مارمول: كربخال: افريقيا ، ج (1) ص 69

[2] - الإدريسي: صفة المغرب، ص 58.

[3] - مارمول:المصدر السابق ،ص 70

[4] - نفسه ، ص 71.

[5] - نفسه: ص 71-72.

[6] - ابن عذارى: البيان المغرب ، ج (4) ،ص 126.

[7] - البكري: كتاب المغرب،ص 166 ، 167.

البغال الذكور و الإناث"[1] و هذا ليس بكثير خصوصا و أن يوسف بن تاشفين قد وضع يده على أكبر منطقة إنتاجا للخيول بعد ضم جبال فازاز إلى سلطته و قد وصف الحميري خيولها بقوله:" و خيل هذا الجبل من أعتق الخيول لصبرها، و خدمتها،وهي مدورة القدود ، حسنة الخلق و الأخلاق".[2]

و إلى جانب الخيل و الإبل و البغال اهتم المرابطون بتربية الحمير و حسبنا في ذلك الإشارة التي أوردها البيدق في هذا الخصوص حيث ذكر أن الخيول و الحمير من ضمن الغنائم التي غنمها الموحدون في معاركهم مع المرابطين فيقول:" و مات عمر بن يندوك فأخذنا له مائة و خمسون فرسا...و غنمنا في غنيمتهم خمسمائة حمار"[3].

أما الأندلس فقد اشتهر هو الآخر بتربية البغال و الخيل و الحمير و الإبل،و قد وصف المقري بغالها و خيلها بقوله:" و بغال الأندلس فارهة، و خيلها ضخمة الأجسام، حصون للقتال لحملها الدروع و ثقال السلاح، و العدو في خيل البر الجنوبي"[4]ومن المناطق المشهورة في تربية الخيول لاستخدامها في الغارات ضد النصارى نذكر حصني " مدلين"[5] و قاصرش"[6] و مدينة ترجالة"[7] ، ، كما اشتهرت مناطق أخرى بتربية الخيل نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مدينة اشبيلية[8] ،و ،و طلياطة[9] و بنبلونة[10] هذه الأخيرة التي وصفت خيلها بأنها أصلب الدواب حافر لخشونة بلادهم. بلادهم.

كما اهتم الأندلسيون بتربية البغال الجيدة و عنها يقول ابن حوقل: تختص بالبغال الفُره ،و بها يتفاخرون،و يتكاثرون،ولهم منها نتاج ليس كمثله في معادن البغال المذكورة و أصقاعها

---

[1] – ابن عذارى: البيان المغرب ج(4)،ص 26.
[2] – الحميري: الروض المعطار، ص 435.
[3] – البيدق: أخبار المهدي بن تومرت ،ص 91.
[4] – المقري: نفح الطيب، مج (1) ،ص 199.
[5] – يبعد هذا الحصن عن مدينة ماردة بمرحلتين. انظر : الإدريسي: صفة المغرب ، ص 186.
[6] – حصن منيع و محرس يبعد عن مدينة ترجالة بمرحلتين ،انظر: الإدريسي : نفس المصدر، ص 187.
[7] – الإدريسي: نفسه ، ص 187.
[8] – الحميري: المصدر السابق،ص 59.
[9] – مدينة بالأندلس بينها و بين اشبيلية عشرون ميلا، انظر. الحميري : المصدر السابق ، ص 395
[10] – مدينة بالأندلس تبعد عن سرقسطة بمائة و عشرون ميلا ،انظر: الحميري: المصدر السابق ، ص 104.

المشهورة"[1] و تعد ميورقة من أشهر المناطق إنتاجا للنوع الجيد منها، لأنها تمتاز بسرعة السير، وجمال المنظر، و شعورها اللامعة، و قوة تحملها للكد و الجهد،وعليه فإن الواحد منها يباع بخمسمائة دينار[2].

واهتم أهل قرطبة بتربيتها لاستخدامهم لها في الركوب و في هذا الصدد يقول "ياقوت الحموي:" و أكثر ركوبهم البغلات...و يبلغ ثمن البغلة عندهم خمسمائة دينار و أما المائة والمائتان،فكثير لحسن شكلها و ألوانها و قدودها ،وعلوها، و صحة قوائمها"[3].

وإلى جانب الخيول و البغال اهتم الأندلسيون بتربية الحمير للاستخدام في الركوب وأعمال الفلاحة، و من المناطق الأندلسية التي اشتهرت بتربيتها نذكر مثلا مدينة ماردة[4]. و يذكر ابن العوام العوام أن أجودها ذات العنق الطويل و العيون الغائرة،والعريضة الجسم، و يبدوا مما كتبه ابن العوام أن الأندلسيين اهتموا بتربيتها و عرفوا كيفية علاجها من الأمراض التي قد تصيبها.[5].

أما الإبل فلم يستكثر أهل الأندلس منها إلا بعد دخول يوسف بن تاشفين لها واستخدامها في حربه ضد النصارى في معركة الزلاقة و قد كان لها دور مؤثر في نتيجة المعركة لصالحهم وفيها يقول ابن خلكان:" فلما عبرت جيوش يوسف بن تاشفين عبر في آخرها،وأمر بعبور الجمال، فعبر منها ما أغصّ الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، و لم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جملا و لا كانت خيلهم قد رأت صورها،و لا سمعت أصواتها، وكانت تذعر منها وتقلق"[6].

اللمط و دواب الفنك والكباش الدمانية:

إلى جانب الحيوانات السابقة الذكر عرفت المنطقة الجنوبية الخاضعة لسيطرة دولة المرابطين حيوانات أخرى كاللمط و دواب الفنك و الكباش الدمانية.

فاللمط شكله شكل ثور صغير، غير أن قوائمه صغيره، و عنقه طويل جدا، أذناه تشبه أذني الماعز[7] الماعز[7] قرونها حادة،وتطول قرناه كلما كبر لتتعدى أربعة أشبار[1] ،أظلافه شديدة السواد، لونه مائل

---

[1] – ابن حوقل : صورة الأرض، ص 109.
[2] – ابن حوقل : صورة الأرض ص 11.
[3] – ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج (4) ، ص 368.
[4] – الإدريسي: صفة المغرب، ص 182.
[5] – ابن العوام : الفلاحة ، ج (2) ، ص 477- 479 – 481.
[6] – ابن خلكان: وفيات الأعيان ، مج (5) ،ص 473.
[7] – مامول كربخال : افريقيا ، ج (1) ، ص 73.

مائل إلى البياض و ما يتميز به هذا الحيوان أنه سريع الجري لا يمكن لأي حيوان اللحـــاق بـــه إلا الخيول المعروفة باسم" بارب" ،وعادة ما يصطاد اللمط بسهولة في الصيف،عندما توهن أظلافها من الرمال الحارة، فيوقفها الألم على الفور[2].ويستفاد من جلد هذا الحيوان في صناعة ما يعرف بالدرق اللمطية و أجودها و أغلاها ما صنع من جلود العواتق منها، و هي التي طال قرناها لكبر سنها[3] ، و هذا النوع لا تؤثر فيه النبال[4]كما يستفاد من لحمه،ومذاقه قريب من مذاق لحم الثـــور إلا أنـــه أطيب منه بقليل[5].

وإلى جانب حيوان اللمط عاشت دواب الفنك والكباش الدمانية وقد وصفها البكري بقولـــه: "ودواب الفنك أكثر شيئ في هذه الصحراء، ومنها يحمل إلى جميع الـــبلاد، و عنـــدهم الكبـــاش الدمانية خلقها خلق الضان،إلا أنها أجمل، و شعرها شعر الماعز لا أصواف لها، و هي أحسن الغنم خلقا وألوانا"[6].

تربـــــــــية الدواجـــــــــن:

لا يختلف المغرب و الأندلس في عصر المرابطين عن غيره من الدول الإسلامية الأخرى من وجود الطيور الداجنة ،و في مقدمتها الدجاج و الحمام و الإوز و البط و غيرها، و قد أمـــدتنا كتـــب الفلاحة المعاصرة لفترة الدراسة بمعلومات وافية عن تربيتها قلّما نجدها في مصادر أخرى، فتشـــير كتب الفلاحة إلى أن الهدف من تربيتها هي الاستفادة من لحومها و من روثها في تسميد التربـــة و زيادة خصوبتها[7].

وفي حديث النويري عن أجناس الطيور يذكر من بينها الدجاج و صنفها إلى ثلاثة أصناف " نبطى" و هو ما يتخذ في البيوت و القرى و " هندي" و هو عظيم الخلق يتخد لحسن شكله، و"حبشى" و

---

[1] – البكري: كتاب المغرب ، ص 171 هناك اختلاف بين البكري و بين مارمول في عدد قرون اللمط،فالبكري يشير إلى أن اللمط له قرنان،غير أن مارمول يذكر أن لحيوان اللمط قرن واحد يتوسط رأسه مستدير كحلقة مصوغة– أنظر : مارمول كربخال: المصدر السابق ، ص 73.

[2] – مارمول: مامول كربخال : افريقيا ، ج (1)ص 73

[3] – البكري: كتاب المغرب، ص 171.

[4] – الإدريسي: صفة المغرب، ص 59 ، وانظر أيضا : مارمول : المصدر السابق ، ص 73.

[5] – مارمول: المصدر السابق ، ص 73

[6] – البكري: المصدر السابق ، ص 171.

[7] – انظر عن فوائد الدواجن في الفلاحة: ابن حجاج الاشبيلي : المقنع في الفلاحة ،ص 72.

هو نوع بديع الحسن أرقط (نقطة سوداء،ونقطة بيضاء)، و له قرطان أحمران[1]و يشير ابن حجاج الاشبيلي المعاصر لفترة الدراسة إلى طريقة تربيته فمن بين ما يذكر عنه أن لا يجعل الدجاج في بيت و أن أفضل علف له هو الجاوْرس[2] لأنه يكثر بيضه و يسمنه،و يعلف أيضا بالسلت و نخالة القمح، و لصحة الدجاج و عظم بيضه ينصح بدخنها بالكبريت و صمغ الأرز و يستدل مما كتبته كتب الفلاحة إلى ما يصيب الدجاج من أمراض و طرق علاجها.[3]

أما الحمام فيذكر" ابن العوام" منه نوعين الأنسى و هو المتخد في البيوت و فيها تفرخ و إليها تأوى و هو الأفضل،و الآخر بري،والذي قلّما يفرخ في بيوت الناس[4].

ويشير ابن حجاج الاشبيلي إلى طريقة تربيته بدءا بأبراجه التي يشترط فيها أن تكون في مواضع باردة، قريبة من المزارع[5] ، و يراعى في بيوتهن أن تكون أبوابها مقابلة لجهة الشرق لتدخلها أشعة الشمس النافعة لها، و أن يراعى في بيوته الاتساع و النظافة[6] .لأن الحمام من الطيور التي تسرع إليه إليه الآفات بأنواعها ،و ينصح في علف الحمام بالحبوب الباردة كالعدس و الماش[7] والشعير، و إن قدم له القرطم[8] فذلك أحسن له، فهو له بمترلة اللحم للإنسان لما فيه من قوة الدسم[9].

وتشير كتب الفلاحة إلى مدى اهتمام الفلاحين بتربية الحمام، و معرفتهم بأسراره من يوم تفريخه إلى طيرانه ،وأنواع الحمام التي يمكن إرسالها لمسافات بعيدة، و تعليمها العودة إلى مكان الانطلاق وقد استخدم ابن عباد الحمام في إبلاغ ابنه الرشيد النصر الذي أحرزه المسلمين في معركة الزلاقة و هذا ما نستشفه من قول صاحب الحلل"وعلق الإضبارة في جناح حمام،كان احتمله معه لهذا

---

[1] – النويري: نهاية الأرب ، مج (5) ، ج 10 ، ص 132.

[2] – يعني بها الذرة بكل أنواعها ،انظر : ابن حجاج : المقنع في الفلاحة ،ص 11 ، هامش (6)

[3] – ابن حجاج : نفس المصدر، ص 77.

[4] – ابن العوام: كتاب الفلاحة ، ج(2) ،ص 692.

[5] – ابن حجاج الاشبيلي : المصدر السابق، ، ص 71.

[6] – نفس المصدر ، ص 70 ،وانظر أيضا ابن العوام : المصدر السابق ، ص 695.

[7] – هو حب مليّن يطبخ في الخل ينفخ لعلاج بعض الإمراض، أنظر ابن حجاج الاشبيلي ، المصدر السابق ،ص 71 ، هامش (10).

[8] – يعنى به حب العصفر ،انظر :ابن منظور: لسان العرب ، مج (12) ، ص 560.

[9] – ابن حجاج الاشبيلي : المصدر السابق،ص 71.

الحال"[1]ومن حرص الفلاحين عليها كانوا يعرفون ما يصيب الحمام من أمراض و طرق علاجها.[2]
علاجها.[2]

وإلى جانب الدجاج و الحمام تم تربية الإوز و البط،فالإوز كان يربى في الأماكن التي يكثر بها الماء و العشب، و لتسمين الإوز يمنح له علف عجين مخلوط بدقيق الترمس بينما تعلف فراخه بالتبن المدقوق لأنه يساعد على نموها سريعا ،ولا تطرح في الماء إلا بعد أن يمر عليه شهر[3] ، أمـــا الـــبط فيعلف بالشعير و العدس و ورق القرع و تبن القمح[4].

الحيوانات غـــــــــير المستأنسة:

تشير المصادر التاريخية و الجغرافية إلى تواجد الحيوانات غير المستأنسة بكثرة في كل من المغرب و الأندلس في فترة الدراسة غير أننا سنكتفي هنا بالإشارة إلى أهمها.

ففي المغرب الأقصى كانت تعيش بعض الحيوانات في الغابات و المناطق الصـــحراوية عمـــل السكان على اصطيادها و استغلالها ،ومن بين تلك الحيوانات الأسود التي سكنت كثيرا من مناطق المغرب الأقصى[5] نذكر منها على سبيل المثال تواجدها بكثرة في غابات قرية ايكسيس حيث يشير الإدريسي إليها بقوله: و الأسود فيها ظاهرة للناس عادية عليهم بالليل و النهار لا تستتر في عياضها و بهذه القرية المسماة ايكسيس بيت متخد لصيد الأسود حتى أنه ربما صيد منها في الجمعة الثلاثة و الأربعة و الأكثر من ذلك و الأقل"[6]

كما يشير إلى وفرتها في غابة أم ربيع و الأضرار الـــتي يحتمـــل أن تلحقهـــا بالمـــارة بتلـــك المناطق،وتعامل أهالي أم ربيع معها ومهارتهم في اصطيادها فيقول:" و هي غابة كـــبيرة ملتفـــة و الأسد بها كثيرة ،وربما أضرّت بالمار و الجاي غير أن أهل تلك النواحي لا يهابونها ،وقد تمهروا في مقاتلتها بأنفسهم من غير سلاح و إنما يلقونها بأنفسهم عراة يلقون أكسيتهم علـــى أذرعهـــم و يمسكون معهم قتات من شوك السدرة و سكاكينهم بأيديهم لا غير، و قد لقيت الأسود منـــهم

[1] – مجهول :الحلل الموشية ص63
[2] – ابن حجاج: المصدرالسابق، ص ص 71 ، 75 – 76.
[3] – ابن حجاج : المقنع في الفلاحة ص 77 – 78 ،وانظر أيضا : ابن العوام: الفلاحة ، جـــ(2) ،ص 703- 704.
[4] – ابن العوام : نفس المصدر، ص 704-705.
[5] – انظر تواجد الأسود في بعض مناطق المغرب الأقصى مثلا: ابن الزيات: التشوف، ص ص 140 ، 154 ، 233.
[6] – الإدريسي: صفة المغرب، ص 72.

هناك نكايات فلا مهابة بذلك لها عندهم، بل تخاف ضرهم و تتجنب طرقهم، و ربما هجمت على الضعفاء من الناس ممن يقتاد حمار أو غير ذلك"[1].

ويذكر "مارمول" أن أعنف و أشرس الأسود ما يوجد منها في اقليمي تلمسان و فــاس أو في مغارات أنكاد (انقال) إذ من النادر أن ينجو شخصا إذا صادفته في طريقه لأنها تسير مجتمعه بـين ثمان أو عشرة فتفترس ما تصادفه في الطريق.[2]ورغم قوة هذا الحيوان إلا أن سكان المنطقة عرفـوا مكمن ضعفه حيث يقومون برميه بمشاعل حاميه ،فيتوقف الأسد لحينه. فيسهل عليهم اصطياده ، و يشير مارمول إلى أن أهالي مدينة فاس يلاعبون الأسود كما يلاعب الأسبان الثيران، و قد أعـد مكانا خصيصا لذلك محصن بأسوار عالية.[3]

وإلى جانب الأسود ورد ذكر لوجود السلاحف فالبكري في حديثه عن جزيـرة أيـوني- القريبة من أوليل- يذكر أن أكثر معاش أهلها من لحوم السلاحف لكثرتها عندهم[4] ،و لم يقتصـر تواجدها على جزيرة أيوني فحسب بل تعدتها لتشمل مدينة تارودنت التي جبل أهلها على أكـل لحومها اعتقادا منهم أن لحمها يشفيهم من مرض الجذام شريطة أن يتناولوه سبعة أيام متتالية،و أن لا يتعدى عمر السلحفاة سبع سنوات[5].

وبالإضافة إلى الأسود و التماسيح أشارت المصادر إلى تواجد النعام و الغزال في مناطق متفرقة فابن عذارى يشير إلى تواجد النعام و الغزلان في المنطقة الصحراوية الواقعة بين بلاد هيلانة و بلاد هزميرة[6]، كما أشار الإدريسي إلى تواجد أسراب النعام في فحص " أنقال" و مما جاء فيها قولـه:" وقبالتها- أي أنقّال- فحص طويل، وقد انحشرت فيه طيور النعام فهي في أكنافه سارحة و علـى مراقبه دارجة، و هي آلاف لا تحد و لا تعد،وأهل تلك النواحي يصيدونها طردا بالخيل، فيقبضون منها جملا كبارا و صغارا[7].ثم يسترسل في الحديث عن بيضها و لحمها ،مع ذكر فوائد شحمها في مداواة بعض الأمراض فيقول:" و أما بيضها الموجود في هذا الفحص فلا يحاط بـه كثـرة، و لا

---

[1] - نفس المصدر، ص 71.
[2] - مارمول كربخال : افريقيا ، ج (1) ، ص 76.
[3] -. مارمول كربخال : افريقيا ، ج (1) ص 76
[4] - البكري : كتاب المغرب ،ص 171.
[5] - مارمول : المصدر السابق ،ص 83.
[6] - ابن عذارى : البيان المغرب، ج(4) ،ص 19.
[7] - الإدريسي: صفة المغرب ، ص 71.

يحصل، و منه يحمل إلى كل البلاد،وطعامها وخيم يفسد المعد، وأما لحوم النعام فلحوم باردة يابسة وشحومها نافعة عندهم من الصمم تقطيرا، ومن سائر الأوجاع البدنية"[1]

أما فيما يخص الحيوانات غير المستأنسة بالأندلس فنذكر منها الغزال و الإيل و حمار الوحش و بقره،و لا يوجد الأسد بالأندلس البتة، و لا الفيل ،ولا الزرافة لأن مثل هذه الحيوانات تجود في الأقاليم الحارة،وبالأندلس حيوان مفترس يعرف باسم" اللب" و هو أكبر بقليل من الذئب بإمكانه افتراس الرجل إذا كان جائعا.[2]

---

[1] – نفس المصدر، ص 71- 72 .

[2] – المقري: نفح الطيب ، مج (1) ، ص 198- 199.

الفصـــــــل السابـــع

الصـــــناعـــــــــــــة

العوامل المؤثرة في الإنتاج الصناعي

نظرة المجتمع المرابطي للحرف و الصنائع

الوحدة السيـــاسيـــة والاستقرار الأمني

الضـــرائب

حاجة الدولة للصناعات الحربية

الرغبة في الحصول على مواد الترف

أهم الصناعـــات

أولا:الصناعات الحربية

ثانيا: الصناعات الزراعية و ما يتصل بها

صناعة استخراج الزيوت

صناعة السكر

ثالثا:**صناعة النسيج**

المنسوجات الحريرية

الأقمشة الصوفية

الأقمشة القطنية و الكتانية و ما يتصل بها

صناعة الورق

الصنـــاعات الخشـــبية

صناعـــة الخمـــور

الصناعات المعدنية

صناعات ذات مصدر حيواني

صناعة الجلود ودباغتها

صيد الأسماك و صناعة المرجان

العوامل المؤثرة في الإنتاج الصناعي:

قبل الحديث عن الصناعة في المغرب و الأندلس في عصر المرابطين فإن ذلك يستوجب العودة إلى ذكر العوامل المؤثرة في تفعيل حركة النشاط الصناعي و انتعاشها ،أو تثبيطها و الميل إلى الركود.ولإماطة اللثام عن النشاط الصناعي في المغرب و الأندلس يجد ر بنا إلقاء نظرة و لو وجيزة عن مدى اهتمام سكان المغرب و الأندلس بالحرف و الصنائع ، وما لعامل الوحدة السياسية، و الاستقرار الأمني من تشجيع للصناع للإقبال على صناعتهم سيما بعد توحيد العدوتين، و ما ترتب عنه من تلا قح المجتمعين المغربي و الأندلسي و استفادتهم من خبرات بعضهم البعض، خاصة و أن الدولة وفرت مجالا آمنا لذلك بعد قضائها على الفوضى التي كانت تسود في البلدين ، فوضعت حدا لعبث الإمارات الزناتية في المغرب الأقصى و دول الطوائف بالأندلس ، هذا إضافة إلى عوامل أخرى مشجعة أو مثبطة للصناعة كسياسة الدولة الجبائية ، و رغبة الأمراء المرابطين في الحصول على بعض الأسلحة – باعتبارها دولة قائم على سياسة المغازي و البحث فيما بعد عن مواد الترف.

نظرة المجتمع المرابطي للحرف و الصنائع:

مما لا جدال فيه أن الفلاحة في المغرب و الأندلس كانت قد شكلت عصب الحياة في مجتمع المغرب و الأندلس على اعتبار أن الفلاحة "منها العيش كله و الصلاح جله"[1] إلا أن هذا لم يمنع ازدهار الصناعة بهما إذ لا تخلوا منطقة من مناطق العدوتين إلا و بها صناعة قائمة خصوصا وأن سكانهما اقبلوا على تعلم الحرف و الصنائع وحسبنا في ذلك أن أهالي السوس و أغمات من فرط حبهم للحرف و التكسب دأبوا على تعليمها لنسائهم و حتى صبيانهم و في هذا يقول البكري "و أهل السوس وأغمات أكثر الناس تكسبا و أطلبهم للرزق يكلفون نساؤهم و

[1]- ابن عبدون : رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص5

صبيانهم التحرف و التكسب"[1] و لاغرو بعد هذا كله أن يصف بعض المؤرخين صناع فاس على سبيل المثال لا الحصر بأنه لا يوجد " صناع أصدق من صناعهم".[2]

و لم يكن حال الأندلسيين بمنئ عن تعلم بعض الحرف و الصناعات كما هو عليه الأمر بالنسبة للمغاربة ، فصاحب "نفح الطيب" يشير إلى حرص الأندلسيين على تعلم الصنعة و هذا ما يفهم من قوله أن "الجاهل الذي لم يوّفقه الله للعلم يجهد نفسه أن يتميز بحرفة"[3] غير أن ما يجب الإشارة إليه هنا بخصوص قول المؤرخ أن لا يفهم من قوله أن المجتمع الأندلسي كان ينظر إلى الحرفة الصناعية نظرة احتقار و ازدراء بل العكس من ذلك تماما وهذا ما يوضحه المؤرخ نفسه حينما يقول "و يربأ نفسه أن يرى فارغا عالة على الناس لأن هذا عندهم في نهاية القبح"[4] و هذا ما عبرت عنه أمثال العامة إذ أن مجملها ينبذ التقاعس و البطالة.[5] و لم يقتصر الحث عن تعلم الحرف والصنائع على الأمثال الشعبية بل تعداها إلى الشعراء الذين كانوا يرون في تعلّمها عنصرا أساسيا في تكوين شخصية الفرد و تحقيق الرفعة و المجد.[6] فلا مندوحة إذا بعد هذا كله أن يوصف الأندلسيون بأنهم "صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية".[7]

و مما يؤكد المكانة الخاصة للحرف و بعض الصناعات أن هنا من دأب على تعلمها من ذوي المترلة الرفيعة ووجدها بعد ضيق حاله و فقدان رياسة أو ملك ، و لا يجد في ذلك غضاضة في

---

[1]- البكري : كتاب المغرب ص163

[2]- الجزنائي : زهرة الآس ص74

[3]- المقري: نفح الطيب ، مج 1 ص200

[4]- نفس المصدر والصفحة

[5]- انظر عن ذلك مثلا قولهم :أخدم باطل ولا تجلس عاطل.و قولهم:الجلوس بلا شغل يحمق .انظر عبد العزيز الأهواني : أمثال العامة مثل رقم 225 ص314 ، مثل رقم 172 ص310

[6]- من بين ما عبر عنه الشاعر أبو بكر البكي (ت560ه) عن الحجامة قوله:

قالوا الكتابة أعلى خطة   قلت الحجامة أعلى عند أقوام

لا تحسبوا المجد في طرس ولا قلم   المجد في صوفة أو مبضع دام

انظر الأصفهاني:ذخيرة القصر وجريدة العصر،تحقيق،الدسوقي وعبد العظيم ،القاهرة،1964،ج 2 ق 4 ص669

[7]- أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ص63

التّعيّش من صنعة يحترفها و حسبنا في ذلك أن بنات المعتمد بن عباد لما ضاق بهن الحال كن يغزلن للنساء بأجرة ينفقونها على أنفسهن.[1] بل أن بعض النساء من شدة حرصهن على صناعتهن كن يشترطن ذلك في عقود زواجهن[2].

و لعل ما يزيد في تأكيد ارتباط مجتمع المغرب و الأندلس بتعلم الحرف في عصر المرابطين رغم ما شاع من انتشار التصوف فيه أنه قلما نجد متصوفا ترك عمله زهدا.[3] ومن فرط ارتباط الناس بحرفهم و صناعتهم شاع انتساب المهن لأسماء الأشخاص مثل قولهم على سبيل المثال لا الحصر أحمد بن عبد الرحمن الصنهاجي الجباب[4] ، أو حامد بن عبد العزيز السلاجي الخزار [5]و [5]و هلم جر.

الوحدة السيــــاسيـــة والاستقرار الأمني

كان المغرب الأقصى قبل قيام دولة المرابطين أو ما يصطلح على تسميته بعصر الإمارات الزناتية يعيش حالة من التمزق و الفوضى السياسية بعد أن عصفت ريح الفرقة بين القبائل ، فنتج عن ذلك نظام سياسي مهترئ عبر عنه ابن عذارى أصدق تعبير بقوله :"وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم ، و أمرائهم يتولون الإمارة بينهم إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه".[6]

---

[1]- ا لنويري : نهاية الإرب مج11 ، ج23 ص269

[2]- البرزلي فتاوى البرزلي ج2، ص203، 204

3- انظر عن ذلك مثلا : التميمي الفاسي : المستفاد قسم 2 ص136،51 ، ابن الزيات : التشوف ص195، 217

[4]- من أهل أزمور بها نشأ و منها تنقل إلى مراكش ليستقر بها ، وهو من أهل المعرفة بعلوم الاعتقاد توفي بمراكش سنة 592هـ/1195م .للمزيد انظر : ابن الزيات : نفس المصدر ص255

[5]- من أهل الناحية الشرقية من مراكش ، معروف بزهده توفي ببجاية و هو في طريقه لأداء فريضة الحج و دفن بمنطقة ملالة .للمزيد انظر ابن الزيات : نفس المصدر ص312

[6]- ابن عذارى: البيان المغرب ج4 ص10

و لم يكن الأندلس أحسن حالا عما كان عليه الوضع في المغرب بعد أن انقسم هو الآخر على نفسه يحكمه ملوك الطوائف ، فانفرد كل ملك منهم بجهة فاستولى النصارى على طليطلة و أعمالها و بدت أطماعهم في الاستيلاء على كامل الجزيرة ، فكثر الروع على الأندلس ، واشتد الخوف ، وهابت الملوك[1] ولعل أحسن وصف للأندلس آنذاك هو قول صاحب الحلل: "أما نحن العرب في هذه الأندلس ، قد تلفت قبائلنا ، و تفرق جمعنا ، و تغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا من معيننا ، فصرنا شعوبا لا قبائل، وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر ، فقل ناصرنا و كثر شامتنا و توالى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفنش ، وأناخ علينا بكلكله ، ووطئنا بقدمه، وأسر المسلمين ، وأخذ البلاد و القلاع و الحصون ، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ، ولا أخيه ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهوان منعهم عن ذلك ، وقد ساءت الأحوال و انقطعت الآمال".[2]

أمام هذا الوضع المتردي في العدوتين عجزت تلك الإمارات و الدويلات الطائفية في فرض سلطتها و توفير الحماية للأسواق و الصناعات من عدوان البربر و غاراتهم في المغرب و عدوان النصارى بالأندلس . وعليه فلم يعد الوضع العام ملائما لقيام أي نشاط صناعي يذكر غير أنه مع مجيء المرابطين تغيّرت الأمور بحيث تمكّن هؤلاء من استغلال الظروف السياسية التي عمّت العدوتين مع الضعف الذي أخذ ينخر تلك الإمارات و الدويلات ، وترحيب الرعايا بالمرابطين سواء في المغرب أو الأندلس ، بعد أن وظفوا كامل طاقتهم بدعوتهم الدينية ، ووجدوا سندا قويا من الفقهاء لهم[3] ،فأحكموا بادئ ذي بدء قبضتهم على المسالك المؤدية إلى ذهب السودان الغربي[4]ثم انطلقوا بعد ذلك صوب الشمال فضموا الأندلس ليحققوا بذلك الوحدة السياسية ،

1- النويري : نهاية الأرب مج11 ج23 ، ص275 ، مجهول : الحلل الموشية ص38

2- مجهول :ص 45، 46

3- عن مساندة الفقهاء ليوسف بن تاشفين انظر: مجهول: نفس المصدر ص29، 33

4- انظر عن ذلك مثلا سيطرة المرابطين على أهم المحطات التجارية المؤدية إلى بلد السودان البكري : كتاب المغرب ص167-168

فلما آل الأمر إلى المرابطين استقرت الأوضاع و هدأت النفوس بعد أن وفروا الأمن و الأمان في العدوتين وهذا ما شجع الحرفيين و الصناع لممارسة نشاطهم ، وأحكمت الدولة قبضتها على الحرفيين و الصناع بعد أن أصبحوا تحت إشراف رجال الحسبة[1]، وهذا ما ساهم في تنظيم النشاط الصناعي.

الضـــرائب:

إن الحديث عن الضرائب في العصر المرابطي يتطابق و مقولة ابن خلدون التي يقول فيها: "اعلم أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة، وآخر الدولة تكون الوزائع قليلة الجملة ، والسبب في ذلك أن الدولة إن كانت على سنن الدين فليست تقتضي إلا المغارم الشرعية من الصدقات و الخراج و الجزية ... وإذا قلت الوزائع و الوظائف على الرعايا نشطوا للعمل و رغبوا فيه ، فيكثر الاعتمار ،و يتزايد محصول الاغتباط بقلة المغرم ، و إذا كثر الاعتمار كثرت أعداد تلك الوظائف و الوزائع ، فكثرت الجباية "[2] ومن مقولة ابن خلدون يمكننا النظر في سياسة المرابطين في فرض الضرائب و مدى تأثيرها على الحياة الاقتصادية . فالمعروف أن بلاد المغرب قبل قيام دولة المرابطين كانت تخضع لسيطرة زناتة التي كانت تفرض ما تشاء من الضرائب.

و في الأندلس ضيق ملوك الطوائف على أهالي البلاد إذ فرضوا عليهم ضرائب مختلفة ، وهذا ما أثقل كاهل الناس .وأمام هذه السياسة المتبعة من طرف الإمارات الزناتية في المغرب و دول الطوائف في الأندلس ظهرت حركة دينية في أقصى جنوب المغرب الأقصى تدعوا إلى رد المظالم و قطع المغارم ، و اكتفوا بأخذ الزكاة و العشر[3] ، فكان لهذه السياسة التي اتبعتها الدولة في المرحلة الأولى أثرا ايجابيا على اقتصاد الدولة بصفة عامة ، ومن بينها النشاط الصناعي غير أن

---

[1]- انظر فيما يخص هذا الجانب ابن عبدون :الجرسيقي ، ابن عبد الرؤوف

[2]- ابن خلدون : المقدمة ص294

[3]- حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص402-403

هذه السياسة لم تستمر في المرحلة الثانية بسبب الحروب التي خاضتها الدولة ضد النصارى في الأندلس ، فأصبحت الدولة بحاجة إلى الأموال لضمان استمرارية الجهاد في الأندلس، فلا غرابة أن تظهر ضرائب جديدة مرتبطة بهذه السياسة مثل ضريبة القبالة التي فرضت على أكثر الصناعات وهذا ما وضحه الإدريسي في قوله "وأكثر الصنع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون ، والصفر و المغازل ، وكانت القبالة على كل شيء يباع دق أو جل كل شيء على قدره"[1] و مما لا شك فيه أن القبالات المفروضة على الحرفيين و الصناع كان لها أثرا سلبيا على النشاط الصناعي ، وليس من المستبعد أن تكون لضريبة العبور (المكس) الذي فرضه المرابطون على تنقل الأشخاص من منطقة إلى أخرى [2] أن أثر ذلك سلبا على الحرفيين و الصناع على اعتبار أن هؤلاء عادة ما كانوا يتنقلون إما لجلب المواد الأولية لصناعتهم أو لصرف بضائعهم.

حاجة الدولة للصناعات الحربية

كان للتوجه العام للدولة المرابطية القائم على أساس عسكري أن انعكست معالمه على جل نظم الدولة ، فالمعروف أن الدولة المرابطية قد خاضت حروب عديدة سواء في المغرب مع بداية قيامها أو في الأندلس فيما بعد ، ومما لا جدال فيه أن الدولة كانت بحاجة ماسة إلى ما يفي غرضها في هذا الجانب من أسلحة ، وهذا ما عمل على تنشيط الصناعة بصفة عامة و الصناعات الحربية على الخصوص ، فتنوعت أسلحة المرابطين [3] و اختصت مناطق كثيرة من المغرب والأندلس في تلك الصناعات [4]و بذلك تكون تلك الصناعات قد أسهمت إسهاما مباشرا في تنشيط الصناعة.

---

[1]- الإدريسي : صفة المغرب ص70

[2]- البيدق : أخبار المهدي بن تومرت ص26

[3]- عن تنوع أسلحة المرابطين انظر : ابن الخطيب : الإحاطة مج 1 ص250

[4]- انظر عن ذلك مثلا : الإدريسي :المصدر السابق ص59 ، الحميري : الروض المعطار ص461

الرغبة في الحصول على مواد الترف

إلى جانب العوامل السالفة الذكر هناك عامل آخر نرى أنه كان له أثره الواضح في نوعية الإنتاج الصناعي ، و ازدهار بعض الصناعات خصوصا وأن البلاط المرابطي ومقربيه من الأعيان كانوا يسعون للحصول على مواد الترف [1] و هذا ما شجع الحفريين و الصناع على تلبية مطالبهم و في الوقت نفسه ظهر تنافس بين الصناع لتقديم أحسن منتوج لإرضاء تلك الفئة

وهناك من المؤرخين المحدثين من يرجع بداية مرحلة ظهور الترف في البلاط المرابطي إلى عهد علي بن يوسف بعد أن أغرته مدنية الأندلس ، حيث أصبحت متطلبات البلاط و الحاشية و الأعيان تتجه نحو الإكثار من مواد الترف .[2] لكن يبدوا لنا أن التوجه العام للبلاط و حاشيته في الحصول على مواد الترف يعود لعهد سابق ، و تحديدا إلى عهد يوسف بن تاشفين —بالرغم ما اتصف به شخص يوسف بن تاشفين من حبه للعيش البسيط إن صحت روايات المؤرخين [3] و حسبنا في ذلك الهدايا القيمة التي قدمها يوسف بن تاشفين إلى ابن عمه أبي بكر بن عمر المتضمنة لكثير من مواد الترف كالسيوف المحلاة ،و الفرسان المجهزة بفاخر الجهاز و الأشابر المذهبة [4] و الخدور[5] الكثيرة المزودة بنفيس الأمتعة و الكسى الفاخرة كلها موجودة في بلاط الأمير يوسف بن تاشفين.[6]

---

[1]– انظر عن ذلك مثلا طلب أحد أمراء المرابطين من ملك بلاد الفرويين في أقصى جنوب الصحراء دواء مستحضر من نبتة هناك إذا شربه الإنسان يقوى على جماع الكثير من النساء. البكري : كتاب المغرب ص174

[2]– ابراهيم القادري بوتشيش: إضاءات ص88ا

[3]–ا بن عذارى : البيان المغرب ج4 ص46 ،مجهول: الحلل الموشية ص82

[4]– يعنى بالأشابر المذهبة السيوف المذهبة انظر : ابن منظور : لسان العرب مج 4 ص453

[5]– القصد بالخدور هنا مفرد خدر و هي خشبات تنصب فوق قتب البعير مستورة بثوب الهودج انظر : ابن منظور : نفس المصدر ص269

[6]– ابن عذارى : المصدر السابق ص26

و لعل ما يزيد من تأكيد ما ذهبنا إليه هو ميل أصحاب يوسف بن تاشفين إلى حياة الترف و ما إغرائهم وحثهم له على اتباع حياة النعمة و الإتراف و التخلي عن حياة التقشف التي جبل عليها يوسف بن تاشفين إلا دليلا آخر، وهذا ما يشير إليه ابن خلكان في قوله:"وفي جانب المدينة (أي اشبيلية) قصور المعتمد و أبيه المعتضد في غاية الحسن و البهاء ، وفيها أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم و المشروب و الملبوس و المفروش ... فأنزل المعتمد يوسف بن تاشفين في أحدها و تولى من إكرامه و خدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له ، وكان مع ابن تاشفين أصحاب له ينبهونه على تأمل تلك الحال ، وما هي عليه من النعمة و الإتراف ، ويغرونه باتخاذ مثلها لنفسه"[1] إلا دليلا على التوجه العام للبلاط لحياة البذخ و الترف منذ عهد يوسف بن تاشفين.

أهم الصناعـــات

1-الصناعات الحربية: إن الحديث عن الصناعات الحربية في المغرب و الأندلس في عصر المرابطين يستدعي العودة إلى الأيام الأولى لبداية ظهور الحركة المرابطية على يد عبد الله بن ياسين الذي خاض حروب عديدة في منطقة الصحراء لإخضاع القبائل الصنهاجية[2] و السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان هنا ماهو مصدر سلاح عبد الله بن ياسين؟ و هل أقام عبد الله بن ياسين مراكز لصناعة الأسلحة إن صح هذا التعبير؟

إن الإجابة على هذا التساؤل ليس من السهل بمكان لكون البدايات الأولى للحركة يشوبها الكثير من الغموض والاختلاف بين المصادر و هذا ما يقرّ به " ابن عذارى" الذي خص قسما

---

[1]- ابن خلكان: وفيات الأعيان مج 5 ص476-477

[2]- عن حروب عبد الله بن ياسين . انظر مجهول : الحلل الموشية ص23

خاصا من كتابه البيان للدولة المرابطية فيقول"و في ابتداء هذه الدولة اللمتونية اختلاف اختصرنا منه ما وقع عليه الإتفاق".[1]

والراجح أن عبد الله بن ياسين كان قد اعتمد في إخضاع مخالفيه بالأسلحة التي كانت تمتلكها بعض القبائل الصنهاجية وعلى رأسها لمتونة التي انقادت له والمعروفة بشراسة قتال رجالها و امتلاكها للأسلحة وهذا ما يشير إليه البكري في قوله:" وهم يقاتلون على الخيل و النجب ، وأكثر قتالهم رجالة صفوفا بأيدي الصف الأول القنى الطوال للمداعسة والطعان وما يليه من الصفوف بأيديهم المرازيق يحمل الرجل الواحد منها عدّة يزرقها فلا يكاد يخطى".[2]

ومما سبق يتضح لنا استخدام عبد الله بن ياسين للأسلحة البسيطة المنتجة محليا ، وبها تمكن إخضاع بقية المناطق في الجنوب.و حتى يتسنى لعبد الله بن ياسين استكمال مشروعه فكر في إخضاع أهم منطقة لإنتاج المستلزمات الحربية لسلطته فاتجه صوب مدينة "نول لمطة" المعروفة بإنتاجها للدرق اللمطية ، و بعض التجهيزات المعدّة خصيصا للجمال التي كانت أكثر استعمالا في حروبهم مثل السروج و اللجم و الأقتاب و هذا ما يوضحه الإدريسي في قوله: "و بهذه المدينة تصنع الدّرق اللمطية التي لا شيء أبدع منها ، ولا أصلب منها ظهرا ولا أحسن منها صنعا ، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها و خفّة محملها ، وبهذه المدينة قوم يصنعون السروج و اللّجم والأقتاب المعدة لخدمة الإبل"[3].

مما سبق يتضح لنا اعتماد عبد الله بن ياسين على الأسلحة المنتجة محليا لكن يبدوا أن تلك الأسلحة أصبحت غير كافية لتحقيق طموحه و لذا فكر في اقتناء الأسلحة من الأندلس بالأموال التي كان يجمعها من القبائل التي خضعت لسلطته .فكان الأندلس مصدر تمويله

---

[1]- ابن عذارى : البيان المغرب ج4 ص19
[2]- البكري : كتاب المغرب ص166
[3]- الإدريسي : صفة المغرب ص59

بالسلاح لكونها آنذاك مشهورة بتطور صناعة الأسلحة بها أكثر من بلاد العدوة[1] و ثانيها أن عبد الله بن ياسين سبق له وأن أقام بالأندلس سبع سنوات[2]فأفادته تلك الإقامة في ربط علاقات مع بعض الأندلسيين و سهلت له مهمة شراء الأسلحة منه.

و نظرا لضعف الصناعات الحربية في الأيام الأولى لنشأة الدولة المرابطية و عدم امتلاكهم لقاعدة صناعية حربية لجئوا إلى الاهتمام ببناء قصبات صغيرة في المدن التي يقيمون فيها بهدف تخزين كميات كبيرة من الأسلحة و هذا ما نستشفه من رواية ابن خلدون التي يقول فيها "و اختط يوسف مدينة مراكش... ونزل بالخيام و أدار سورها على مسجد و قصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه."[3] و لم يلبث المرابطون على هذا الحال طويلا حيث عمل يوسف بن تاشفين على تدعيم جيشه بالسلاح الذي اشتراه من الأندلس ، و الاعتماد على الصناعة المحلية ، بعد إقدامه على إقامة بعض المراكز الصناعية له بالمغرب و هذا ما يشير إليه صاحب الحلل في قوله: "و كان ذلك العام (أي عام 474هـ) عام اقتناء العدة ، و اتخاذ السلاح"[4].

وقد عمل يوسف بن تاشفين على تنويع أسلحته و تطويرها ، فقام بإنشاء قواعد لبناء السفن في كل من مدينتي طنجة و سبتة سيما و أن يوسف بن تاشفين كانت له نيّة العبور إلى الأندلس بعد استنجاد أهلها به . وهذا ما أوضحه ابن عذارى في قوله :"فلما تمهدت البلاد له تاق إلى العبور إلى جزيرة الأندلس ... فأنشأ شواني و مراكب ، وأراد العبور إليها"[5] و قدر" حسن علي حسن" عدد السفن التي تم تصنيعها في كل من طنجة وسبتة بمائة قطعة مختلفة

1- ابراهيم حركات : النظام السياسي و الحربي ص178
2- ابن عذارى : البيان المغرب ج4 ص10
3- ابن خلدون : العبر مج 6 ص 218
4- مجهول : الحلل الموشية ص37
5-ا بن عذارى : المصدر السابق ص112

الأشكال و الأنواع فمنها المراكب والحراقات ، والمسطحات ،و الطرائد و الشلنديات و غيرها.[1]

وبعد عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس واحتكاكه بجيوش النصارى في معركة الزلاقة و إحرازه لأكبر انتصار له و للمسلمين[2] عمل على تطوير أسلحته استعدادا لجولة ثانية مع النصارى ، فأقام مراكز أخرى بالمغرب لإنتاج أسلحة جديدة لم يسبق تصنيعها فيه. وهذا ما يوضحه صاحب الحلل الموشية في قوله:" ووعده (أي ابن عباد) بالحركة و الجواز... و تقدم إلى كل طبقة من أهل مملكته بالاستعداد ، وأكثر أعمال السهام والمطارد[3]، وعمل العرادات وغير ذلك من الآلات [4].

و لم تقتصر الصناعات الحربية في عصر المرابطين على ما كان قائما في المغرب فحسب بل تعداه إلى إقامة قاعدة للصناعات الحربية بالأندلس على اعتبار هذه الأخيرة متاخمة لدار الحرب و هذا ماحذا بأبي حامد الغرناطي المعاصر لفترة الدراسة أن يصف الأندلسيين بأنهم "تركيون في معاناة الحروب ، و معالجة آلاتها ، والنظر في مهمتها".[5]

وقد أمدتنا المصادر التي أرّخت للفترة المرابطية بمعلومات وافية لما بلغته الصناعات الحربية في المدن الأندلسية خلال عصر المرابطين وحسبنا في ذلك ما أورده ابن الخطيب عما بلغته غرناطة على عهد تاشفين بن علي حيث أصبحت مخزنا للسلاح ، وضرب السهام و عمل التراس ، ونسج الدروع ، و صقل البيضات و السيوف.[6] أما قرمونة فكانت دارا لصناعة السلاح و

[1]- حسن على حسن : الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس ص264

[2]- عن الانتصار الذي أحرزه يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة انظر: النويري : نهاية الأرب مج11 ج23 ص267-269

[3]- نوع من الرماح القصيرة : انظر : توفيق مزارى التنظيمات العسكرية المغربية ص131

[4]- مجهول : الحلل الموشيةص68

[5]- أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب ص63

[6]- ابن الخطيب : الإحاطة مج 1 ص250

مخزنا له ، بها برج يعرف ببرج الأجم عليه تنصب العرادات عند القتال[1] في حين كانت مدينة لقنت مركزا لإنشاء المراكب السفرية و الحراريق[2] أما دانية فمنها كان يخرج الأسطول للغزو ، و بها ينشأ أكثره لأنها دار إ نشا ئه[3].و بلغت المرية مالم تبلغه غيرها من المدن الأندلسية لكونها أقرب الموانئ قربا لغرناطة التي اتخذها المرابطون قاعدة لهم . فأنشأوا بها دارا لصناعة السفن ، وبعد فترة وجيزة أصبحت تضم أكبر قسم من أسطول المرابطين بقيادة أمير البحر أبي عبد الله محمد بن ميمون[4] ، وكان هذا الأسطول مصدر تموين لحصن اتخذه تاشفين بن علي كملجأ له على ساحل البحر بمقربة من مدينة وهران ، وطلب من أمير البحر أبي عبد الله محمد بن ميمون تزويده بعشرة أجفان حربية تكون بمرسى هذا الحصن معدّة لحادث يحدث عليه ، فإن اضطرته الظروف للعبور إلى الأندلس عبر بها[5].

وارتبطت صناعة الحديد والخشب بالصناعات الحربية ، فاستغل الحديد في صناعة الآلات الحربية مثل السيوف و الأطاس[6] و الخناجر وغيرها ، وثمة إشارات تدل على وجود بعض دور الصناعة الخاصة بإنتاج الحديد سواء في المغرب أو الأندلس كما هو الحال عليه في المغرب في موضع يدعي إبسنتار[7] و شلطيش بالأندلس[8].

---

[1]- الحميري : الروض المعطار ص461

[2]- نفس المصدر ص511، و لقنت حصن من أعمال لا ردة

[3]- نفس المصدر ص232

[4]- السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ص88-89

[5]- مجهول : الحلل الموشية ص132-133

[6]- هو خنجر معقوف يستخدم عند الاصطدام المباشر ، وهو سلاح لم يعرفه الاسبان ، لأن الملك الفونسو السادس عندما عندما طعنه به أحد عبيد بن تاشفين في الزلاقة ظنه منجلا وهذا ما يفهم من قوله: "التحق بي غلام أسود فضربني في الفخذ بمنجل أراق دمي": انظر مجهول : نفس المصدر ص61

[7]- منطقة تقع بين سلا و مراكش و هي قريبة من البحر المحيط.انظر المراكشي : المعجب ص260

[8] -الحميري : المصدر السابق ص344

كما ارتبطت صناعة الأخشاب هي الأخرى بالصناعات الحربية لتوفر الأخشاب في غابات المغرب و الأندلس [1] ، فمن خشب جبال طرطوشة كانت تتخذ الصوارى[2] و من صنوبر حصن قلصة تصنع السفن [3] في حين كان صنوبر مدينة يابسة يستخدم في عدد المراكب.[4]

ومادمنا بصدد الحديث عن الصناعات الحربية فإنه يمكننا إدراج القلاع و الحصون التي بناها المرابطون ضمن الصناعات الحربية على أساس أنها وسائل دفاعية، فبنى منها المرابطون الكثير سواء في المغرب أو الأندلس ، ففي المغرب عملوا على زيادة بنائها سيما في الفترة الأخيرة من عصر الدولة لصد هجمات الموحدين [5]، و في الأندلس أقاموها في مناطق الثغور لحماية المدن الأندلسية من هجمات النصارى[6].

وإلى جانب الصناعات الحربية عرفت بلاد المغرب و الأندلس في عصر المرابطين تنوعا في الصناعات القائمة بهما ، و بالرغم أن تلك الصناعات كانت بسيطة إلا أنها تتماشى مع ظروف العصر الذي وجدت فيه ، و الهدف منها هو سد احتياجات المواطنين ، ويمكننا تجاوز تقسيم تلك الصناعات إلى ثلاث أصناف أساسية: أولها الصناعات القائمة على مصدر زراعي أو نباتي و ما يتصل بها ، وثانيها الصناعات القائمة على مصدر معدني و نحوه ، وأخيرا الصناعات التي تعتمد في أساسها على مصدر حيواني و ليس من السهل بمكان الإلمام بجميع تلك الصناعات مهما كان مصدرها و هذا لعاملين أساسيين أولهما : يتمثل في كثرة الصناعات و تشعبها و ثانيهما : يعود في الأساس إلى شساعة المنطقة الخاضعة لسلطة الدولة المرابطية ، بحيث لا تخلوا

1- عن توفر الأخشاب في المغرب والأندلس .انظر عنها العنصر الخاص بالغابات في الرسالة
2- الحميري: الروض المعطار ص391
3- الإدريسي : صفة المغرب ص195
4- الحميري: المصدرالسابق ص616
5- عن القلاع و الحصون التي أقامها المرابطون ، انظر البيدق :أخبار المهدي ص90-39،وانظر أيضا: مجهول: الحلل الموشية ص132
6- ابن الخطيب : الإحاطة مج1 ص250

منطقة من مناطقها من قيام صناعة معينة ، وعليه فإننا سنحاول بقدر الإمكان إبراز أهم و أشهر الصناعات بها.

2- الصناعات الزراعية و ما يتصل بها

1ـــ صناعة استخراج الزيوت : تعددت المحاصيل الزراعية التي كانت تستخلص منها الزيوت في المغرب والأندلس لتشمل محاصيل الزيتون و ثمر الآرقان (الهرجان) ، ثمر الفرتى و السمسم و الكتان و الجوز ، غير أن استخراج الزيت من محصول الزيتون يأتي في صدارة باقي الثمار و الحبوب، وكانت صناعة استخراج الزيت من الزيتون حسبما ذكره ابن حجاج الإشبيلي المعاصر لفترة الدراسة يتم إما بواسطة العصر أو الطحن أو الغلي [1] و قد انتشرت مناطق استخراج الزيوت من الزيتون في مناطق مختلفة من المغرب نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر في المغرب منطقة السوس و مدينة بني عطوش الواقعة في الجهة الشرقية من مدينة تاقررت[2].

أما في الأندلس فقد اشتهرت منها مناطق عديدة ، لكن أشهر المناطق استخراجا له هي مدينة اشبيلية لوفرة زيتونها و جودته ، فاشتهر زيتها بحسن مذاقه و طعمه محافظا عليه و لو خزن لمدة طويلة[3] وفضلا عن استخلاص الزيت من الزيتون كان سكان المغرب الأقصى يستخرجون الزيت من ثمر شجر كبير يعرف بلسانهم بآرقان (الهرجان) بعد دقّ لبّه وعصره ، وهو عندهم كثير و مشهور ، وعليه فإنهم كانوا يستخدمونه لأغراض عديدة إما لطهي بعض الأطعمة كالإسفنج ، أو لإنارة القنادل أو لدهن شعر النساء[4]. و ليس ببعيد عن شجر الآرقان يشير أحد المؤرخين المحدثين إلى استخراج الزيت من ثمر الفرتى و ذلك بعد عصر قشره ، و

[1] -ابن حجاج الاشبيلي : المقنع في الفلاحة ص54-55

[2]- الإدريسي : صفة المغرب ص65، 78

[3] -الحميري : الروض المعطار ص59 ، المقري : نفح الطيب مج1 ص208

[4]- البكري : كتاب المغرب ص162، الإدريسي : المصدر السابق ص65

استعمل هو الآخر في طهي الطعام و إنارة السروج ليلا[1] أما بقية الحبوب و الثمار الأخرى التي ذكرناها فرغم تواجدها في المغرب إلا أننا لم نجد في المصادر ما يشير إلى استخراج الزيوت منها في المغرب،وعلى العكس من ذلك أورد"ابن عبد الرؤوف"إشارة إلى استخراج الزيوت من السمسم و الكتان و الجوز بالأندلس[2].

2- صناعة السكر:تعد صناعة السكر من الصناعات التي اشتهرت بها منطقة المغرب الأقصى في عصر المرابطين و كانت أكثر المناطق إنتاجا للسكر هي منطقة السوس ، و سكرها يساوي السكر السليماني و الطبرزد بل يشف على جميع أنواع السكر في الطيب و الصفاء [3] و من وفرة السكر بها كان قنطاره يباع بمثقالين[4] و تضاعف إنتاج السكر ،مع كثرة معاصره في ايجلى، و تارودنت و من هاتين المديتين يصدر إلى جميع بلاد المغرب [5] كما ظهرت معاصره في مدينة مراكش ،وبلغت أربعين معصرة، وسكرها في نهاية البياض و هو يقارب سكر مصر[6].

أما الأندلس فكانت أكثر المناطق زراعة لقصب السكر فيه هي المناطق الساحلية [7]غير أن المصادر لم تشر إلى قيام صناعة بها،وليس من المستبعد أن يعود سبب ذلك إلى تراجع إنتاجه والاعتماد على ما ينتجه المغرب الأقصى بعد ضم الأندلس إلى سلطة الدولة المرابطية،غير أن هذا لم يمنع قيام صناعة له بالأندلس ، حيث كانت المنكب أكثر منطقة للإنتاج الرئيسية فيه[8].

---

[1]- سعدون عباس نصر الله : دولة المرابطين في المغرب و الأندلس ص16. غير أن ما يمكن ملاحظته هنا هو عدم ذكر مصدر المعلومة

[2]- ابن عبد الرؤوف : آداب الحسبة و المحتسب ص 97

[3]- الإدريسي : صفة المغرب ص62

[4]- البكري : كتاب المغرب ص162

[5]- البكري: نفسه ص161، الحميري : الروض المعطار ص330

[6]- عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ص240

[7]- المقري : نفح الطيب مج1 ص200

[8]- عز الدين أحمد موسى :المرجع السابق ص240

3- صناعة النسيج:

تعد الصناعات النسيجية من بين أهم الصناعات التي أحرزت تقدما كبيرا في عصر المرابطين سيما في الأندلس ، وقبل الحديث عمّا بلغته تلك الصناعات بالأندلس بمختلف أنواعها فإنه كان لزاما علينا الإشارة إلى ما كانت عليه في بلاد المغرب. فالصناعات النسيجية في المغرب الأقصى ارتكزت أساسا على الأنسجة الصوفية ، ثم تليها الأنسجة القطنية ، و بعض من أنسجة الكتان.

فبالنسبة للأنسجة الصوفية كانت منتشرة في مناطق عديدة من بلاد المغرب الأقصى لوفرة المادة الخام به، فاشتهرت سجلماسة بصناعة الثياب الصوفية التي وصل سعر الثوب منها أكثر من عشرين مثقالا ،و هذا نظرا لجودة الصوف التي كانت تصنع منها تلك الثياب[1] ، واختصت "نول لمطة" بصناعة الأكسية السفسارية والبرانس التي يساوي الزوج منها أقل من خمسين دينارا أو أكثر [2].و بسوق نكور الواقعة بين أغمات و فاس تباع البرانس السود الحصينة التي لاينفذ منها الماء[3]. كما تميزت مديونة الواقعة في الشرق من مدينة فاس بالبرانس المديونية التي لا تنفذ منها المياه هي الأخرى. [4]

أما بلاد السوس فقد اختصت في صناعة الأكسية الرقيقة و الثياب الرفيعة التي لا يقدر أحد على صنعها ، ما عدا النساء المصموديات اللواتي حذقن في صناعتها بأيديهن ، هذا ناهيك عما ينتجنه من مآزر المسماة أسفاقس.[5] و في الجهة الشرقية من المغرب الأقصى تركزت الصناعات النسيجية في كل من مدينتي وجدة و تلمسان ، فكانت وجدة تنتج الأكسية الصوفية ذات

---

[1]- البكري: كتاب المغرب ص147

[2]- الإدريسي :صفة المغرب ص59

[3]- البكري:المصدر السابق ص155

[4]-ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص141

[5]- الإدريسي : المصدر السابق ص62

الجودة العالية ، حتى أن الكساء الواحد منها تجاوز سعره خمسين دينارا[1] أما تلمسان ، فقد اشتهرت بصناعة الثياب الصوفية المفضلة على جنسها المصنوع في سائر المغرب[2]،في حين كانت صناعات الأقمشة القطنية قائمة أساسا في كل من "داي" و تادلة ففيهما كانت تصنع الثياب القطنية التي تعم جميع أنحاء بلاد المغرب الأقصى .[3] أما فيما يخص الصناعات النسيجية القائمة على أساس الكتان فلم نجد أية إشارة لذكرها في بلاد المغرب الأقصى ما عدا تلك الإشارة التي وردت عن مدينة البصرة التي اختصت بصناعتها حتى أنها سميت ببصرة الكتان.[4]

أما الأندلس فقد ازدهرت فيها صناعة النسيج في عصر الخلافة الأموية و عصر الطوائف و بلغت ذروتها في عصر المرابطين من حيث الإتقان و التنوع وقد ذكر "الإدريسي" المعاصر لفترة الدراسة عددا من المدن الأندلسية كانت قد اختصت بصناعة المنسوجات أهمها المرية ، وجنجالة [5] و حصن بكيران [6]، وقونكة، وكانت كل مدينة قد اختصت بنوع من النسيج [7]و [7]و تعددت دور الطراز الأندلسية بين المنسوجات الحريرية و الصوفية و القطنية و الكتانية بالإضافة إلى البسط.

أ-المنسوجات الحريرية :نالت المرية شهرة بلغت الآفاق في صناعة المنسوجات الحريرية منذ تأسيسها ووصلت ذروتها في العصر المرابطن و بيّن "الإدريسي "[8] شهرتها بذكر أنوالها و طرازها فقال :"و مدينة المرية كانت في أيام الملثم مدينة الإسلام ، وكان بها من كل الصناعات

---

[1]- الحميري : الروض المعطار ص607

[2]- ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص140

[3]- الإدريسي :صفة المغرب ص75

[4]- البكري: كتاب المغرب ص110

[5]- تبعد عن مرسية بحوالي 50ميلا .انظر الإدريسي المصدر السابق ص195

[6]- يقع هذا الحصن جنوب بلنسية و يبعد عن دانية و شاطبه مسافة 40 ميلا ، انظر الإدريسي :نفس المصدر ص192

[7]-الادريسى :نفسه ص 197، 195، 192

[8]-نفسه ص197

كل غريب وذلك أنه كان بها من طرز الحرير 800 طراز يعمل بها الحلل.[1] و الديباج[2] ، والسقلاطون[3]،والأصبهاني والجرجاني[4]،والستور المكللة[5].و الثياب المعيّنة[6]،و الخمر[7] و العتابي[8] و العتابي[8] و المعاجر[9] و صنوف أنواع الحرير".

مما سبق نلاحظ أن النسيج في المرية تأثرت إلى حد كبير بصناعة المشرق الإسلامي ،فكانت تصنع بالمرية أقمشة حريرية على مثال الأقمشة المصنوعة في بغداد و جرجان و أصبهان .و إلى جانب المرية هناك مدنا أخرى بالأندلس كانت مراكز هامة لصناعة المنسوجات الحريرية مثل مالقة ،وجيان، وغرناطة ،و مرسية.[10]والراجح أن إنتاج جيان و غرناطة قد تراجع كثيرا مقارنة على ماكان عليه في السابق لأن المشتغلين بزراعة الحرير و تصنيعه غالبا ما كانوا من المعاهدين الذين تم نقلهم إلى طليطلة لعمارتها، أو من الذين غرّبوا إلى بلاد المغرب الأقصى إثر حملة ابن رذمير.[11]

بـــ – الأقمشة الصوفية:كان لوفرة الصوف وشدة البرد فى فصل الشتاء ببلاد الأندلس عاملا مشجعا على إقبال الناس على الأقمشة الصوفية التي راجت صناعتها لاسيما في غرناطة وبسطة

---

[1]– انظر عن شرح كلمة "الحلل" الفصل3ص143

[2]– انظر عن شرح كلمة"الديباج" نفس الفصل و الصفحة

[3]– و عن "السقلاطون" انظر نفس الفصل و الصفحة

[4]– أما "الأصبهاني و الجرجاني " انظر أيضا نفس الفصل و الصفحة

[5]– انظر عن شرح كلمة"الستور المكللة " الفصل3.من الدراسة ص144

[6] –انظر أيضا عنها نفس الفصل و الصفحة

[7] انظر عن معنى الخمر نفس الفصل و الصفحة

[8]– عن معنى العتابي انظر نفس الفصل و الصفحة

[9]– و عن المعاجر انظر أيضا نفس الفصل و الصفحة

[10]– ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص140، المقري :نفح الطيب مج 1 ص201

[11]– ابن عذارى : البيان المغرب ج 4 ص 36، 72-73

فكان يصنع بهما "من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يعرف بالمبلد المختم ذو الألوان العجيبة"[1]

واستخدمت الصوف في صناعة الأوطية في جنجالة و التي لا يمكن صنعها في غيرها ، وعرف هذا الوطاء بسم الطاء الجنجالي.[2] ومن المنسوجات الصوفية الثمينة التي استخدمت في صناعة بعض الثياب صوف البحر الذي يحصل عليه من دابة بحرية تسمى أباقلمون و هي تعد من عجائب مدينة شنترين و مما ذكر عنها أن دابة تخرج من البحر هناك وتحتك بحجارة على شط البحر فيسقط منها وبرها و هو في لين الخز و لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئا وهو غزير الوجود فيجمع و ينسج منه ثياب تتلون في اليوم ألوانا ،فيحجر عليها ملوكهم ولا تنتقل إلا بالخفية ، وبلغ قيمة الثوب منها عشرة الآف دينار.[3]

ج – الأقمشة القطنية و الكتانية و ما يتصل بها

كان لزراعة القطن و الكتان في أنحاء مختلفة من الأندلس خاصة في باجة وغرناطة و أندرش ووادي آش[4]قد ساعد على قيام صناعة الأقمشة القطنية و الكتانية .و قد وصف الإدريسي ثياب حصن بكريان بقوله :"وتصنع به ثياب بيض تباع بالأثمان الغالية ، ويعمّر الثوب منها سنين كثيرة ،وهي من أبدع الثياب عتاقة و رقة حتى لا يفرق بينها و بين الكاغد في الرقة و

[1]– المقري :نفح الطيب مج1 ص201

[2] – الإدريسي :صفة المغرب ص195، الحميري : الروض المعطار ص347

[3]– محمد أحمد المقدسى :أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق، غازى طليمات، نشر وزارة الثقافة و الإرشاد القومي دمشق 1980ص209

[4]– ابن حوقل: صورة الأرض ص111، ابن الخطيب : الإحاطة مج1 ص22، الحميري : الروض المعطار ص604، المقري نفح الطيب مج1 ص159

البياض."[1] ووصف الحميري كتان فحص البيرة و الشهرة القائمة عليه بقوله:"وكتان هذا الفحص يربى جيّده على كتان النيل ،ويكثر حتى يصل إلى أقاصي بلاد المسلمين."[2]

ونظرا لانتشار زراعة الكتان وصناعته في الأندلس فقد حرص رجال الحسبة على مراقبة صانيعه .بمنع خلط الكتان الجيد برديئه و كذا منع رش الكتان بالماء ، وجعله في المواضع النّدية لأن ذلك يكسبه رطوبة، ويثقله عند الوزن ،كما يؤمر بائعو الغزل بتيبيس الغزل في الشمس ، لأن النساء يدلكنه عند تمام غزله بالماء ، ليتحسن وجهه و يزيد وزنه.[3]

وإلى جانب الصناعات النسيجية السالفة الذكر يمكننا إدراج بعض الصناعات الأخرى كصناعة المعاطف من فراء بعض الحيوانات مثل فراء السمور والقنلية[4] اتقاء ا لبرد الأندلس القارص خاصة في المناطق الشمالية.هذا بالإضافة إلى صناعة البسط التي تستخدم في فرش المساجد والمنازل التي اختصت بها منطقة "تنتالة" من عمل مرسية ، وقد لقيت رواجا كبيرا في المشرق حتى أنه كان يغالى في أثمانها[5]

د–صناعة الورق

كانت المادة الأساسية للكتابة قبل استعمال الورق (الكاغد) هي رق الغزال وورق البردى، فالأول كان مقصور على مستويات اجتماعية أعلى ، أما ورق البردى فيؤخذ من قصب كان ينبت ببعض الأقطار منذ القدم ، غير أن استصلاح ورق البردى كان باهضا ،ورق الغزال أغلى ثمنا ،ولذلك لجأ المسلمون إلى صنع الورق [6] ولم تكن بلاد المغرب والأندلس بنمئ عن

---

[1]– الإدريسي :صفة المغرب ص192

[2]– الحميري : الروض المعطار ص46

[3]– ابن عبد الرؤوف:آداب الحسبة و المحتسب ص69، 96 هامش 5

[4]– المقري :نفح الطيب مج1 ص197، 198

[5]– نفس المصدر ص201

[6]– إبراهيم حركات : النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط ص111

استخدامه .غير أن التساؤل الواجب طرحه هنا هل كانت صناعة الورق قائمة بأرض المغرب و الأندلس في فترة الدراسة؟

إن تتبعنا للمصادر التاريخية و الجغرافية المعاصرة لفترة المرابطين لم تشر إلى وجود صناعة قائمة بذاتها بأرض المغرب الأقصى ،ويرجع أحد المؤرخين [1] سبب تأخر صناعة الورق إلى نقص الخبرة الفنية ، وميل الناس في المغرب إلى استخدام الرّق[2] و العظام و الخزف وما شا كل ذلك[3] و الإشارة الوحيدة التي جاءت في الدراسات الحديثة عن صناعة الورق بالمغرب الأقصى هو ما ذكره "عز الدين أحمد موسى" عن وجود صناعة لها كان أساسها القطن والكتان[4]غير أن أن صاحب هذه الدراسة اعتمد في إشارته إلى ذلك على بعض الدراسات الغربية .و يبدوا أن أصحاب تلك الدراسات استقوا تلك المعلومة مما أورده البكري في حديثه عن مدينة البصرة بأن أكثر معاملاتهم التجارية كانت قائمة على الكتان ، وعليه فقد عرفت ببصرة الكتان لأنهم "كانوا يتبايعون في بدء أمرها في جميع تجارتهم بالكتان."[5]

فالبكري في هذا النص لم يشر إلى استخدام الورق من الكتان صراحة .و الراجح أن القصد من ذلك هو استعمال أهالي البصرة للأقمشة المصنوعة من الكتان كأساس في معاملاتهم التجارية (سلعة بسلعة) و عليه فإننا نستبعد الرأي القائل بوجود صناعة الورق أساسها القطن و الكتان ، و الصواب في رأينا أن يكون المرابطين في تلك الفترة قد اعتمدوا على ورق الأندلس

1- عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ص224

2- عن استخدام الرّق بدل الورق انظر ما أورده البيدق عن المهدي بن تومرت في استخدامه في كتاباته : أخبار المهدي ص19

3- ابن خلكان : وفيات الأعيان مج3 ص210

4- عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ص223

5- البكري : كتاب المغرب ص110

الذي اشتهرت به مدينة شاطبة التي وصف الإدريسي شهرتها في صناعته بقوله:" ويعمل بها من الكاغد مالا يوجد له نظير بمعمور الأرض و يعم المشارق و المغارب."[1]

ونظرا لانعدام صناعة الورق بالمغرب وحاجة الدولة المرابطية إلى صناعته خاصة و أن الدولة كانت تحتاج إلى ذلك لتقييد شؤونها الإدارية سيما المالية منها ، ولكون الدولة المرابطية قامت على رسالة دينية ، فإنها كثيرا ما استخدمت الرسائل للدعاية السياسية [2] فعملت على تطوير صناعة الورق بالأندلس لتعويض النقص الحاصل بالعدوة،معتمدة في ذلك عما بلغته مدينة شاطبة و الراجح أن الأندلس في عصر المرابطين قد أنتجت الورق الملون[3] و يبدوا لنا من خلال كتب الحسبة المعاصرة لفترة الدراسة حرص الأمراء المرابطين على تحسين إنتاج الورق وهذا ما يفهم من الإشارة التي أوردها "ابن عبدون" حيث يقول :"يجب أن يزاد في قالب الكاغيد وفي دلكه قليلا"[4] فمن إشارة"ابن عبدون"يتضح لنا أن إنتاج الورق لم يكن جيد ، وليس من المستبعد أن يكون بعض القائمين على صناعة الورق قد اعتمدوا الغش في صناعته.

ومهما يكن من أمر فيبدوا أن ما وصلت إليه صناعة الورق بالأندلس في عصر المرابطين يعد بمثابة انطلاقة أساسية لقيام صناعته بأرض المغرب الأقصى ، وحسبنا في ذلك ما بلغته تلك الصناعة من جودة في الإنتاج ، وقد صور لنا المقري ذلك في قوله :"أن بعض المغاربة كتب إلى الملك الكامل بن العادل بن أيوب رقعة في ورقة بيضاء ،وإن قرئت في ضوء السراج كانت فضية ، وإن قرئت في الشمس كانت ذهبية ، وإن قرئت في الظل كانت حبرا أسود"[5].

---

[1] -الإدريسي :صفة المغرب ص192

[2]- انظر نموذجا عن تلك الرسائل لدى : محمود علي مكي : وثائق تاريخيةجديدية عن عصر المرابطين

[3]- السقطي :آداب الحسبة ص40

[4]- ابن عبدون : رسالةفي آداب الحسبة و المحتسب ص48

[5]- المقري :نفح الطيب مج4 ص326-327

4 - الصنـاعات الخشـــبية

عرفت بلاد المغرب و الأندلس في عصر المرابطين انتشار واسعا للصناعات الخشبية ، لوفرة المادة الخام[1] وما يميز صناعة الأخشاب فيهما إبان الحقبة المرابطية هي كثرة الإنتاج و تنوعه ، نظرا لتوسع مجالات استخدامه سواء أكان ذلك لضرورة عسكرية ، أو نهضة معمارية أو لأغراض أخرى،فعدّ ذلك إيذانا لقيام الصناعات الخشبية في أرجائهما المختلفة .ففي المغرب اشتهرت مدينة تلمسان بصناعة كل ما يتعلق بركوب الخيل من أدوات خشبية[2]،و اختصت مدينة نول بصناعة السروج ،واللجم، وأقتاب الإبل [3] و فاس بالمخروطات الخشبية فكانت تستقبل في اليوم الواحد من خشب الأرز مالا يحصى كثرة[4] .

ونظرا للنهضة العمرانية التي عرفها عصر المرابطين من بناء للمساجد والقصور و الجسور،وما تتطلبه تلك المنشئات من سقوف وشبابيك وأبواب ، ومنابر ،ومقصورات مما ساعد على تطوير الصناعات الخشبية حيث كانت السقوف الخشبية تغشى بالقصدير والأصباغ الملونة ،وكانت المنابر والمقصورات تزخرف بأشكال هندسية و نباتية ،وتطعم حشوات المنابر بالعاج و الأنبوس والصندل وأنواع الأخشاب ،وهذا ما صنعه المرابطون في منبري جامع علي بن يوسف في مراكش و القرويين في فاس[5]. و في الأندلس ارتبطت صناعة الأخشاب فيه خصوصا بالصناعات الحربية ،وما تتطلبه من إنشاء للسفن الحربية ،فمن أخشاب طرطوشة،كانت تتخذ الصوارى[6].

---

[1]- عن وفرة الأخشاب و تنوعها بالمغرب و الأندلس ،انظر العنصر الخاص بها في الدراسة.

[2]- ياقوت الحموي : معجم البلدان ج2 ص52

[3]- الإدريسي :صفة المغرب ص59، ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص140

[4]-مجهول : الاستبصار ص187، الجزنائي :زهرة الآس ص69

[5]- الجزنائي :نفسه ص17

[6]- الحميري : الروض المعطار ص391

ومن صنوبر قصلة تصنع السفن [1] في حين كان صنوبر مدينة يابسة يستخدم في عدد المراكب.[2] وفضلا عن الصناعات السالفة الذكر كان لمتطلبات الحياة اليومية لأفراد المجتمع قيام صناعات أخرى أساسها الخشب نذكر منها على سبيل المثال شهرة شريس بغرابلها ، و مالقة بأطباق الخوص[3]،و مرسية بالأسرة المرصعة[4]، وحصن قيشاطة (بين بسطة وجيان) بالقصاع و المخابي و و الأطباق التي كانت تعم سائر المغرب[5].

5-صناعـــة الخمـــور

كان لظاهرة بيع الخمور المنتشرة في أسواق المغرب[6] من بين الأشياء التي عمل المرابطون في بداية أمرهم على محاربتها على أساس أنها مخالفة للشرع لاسيما وأن الشعار الذي قامت عليه دولة المرابطين هو الحكم بكتاب الله و سنة رسوله ومحاربة ما عاداها من الأهواء[7]،غير أن عادة انتشار شرب الخمر بين خاصة الدولة[8]و الكثير من عامتها[9]،يدل على وجود صناعة قائمة لإنتاج الخمر غير أن التساؤل الواجب طرحه هنا هو ما هو موقف الدولة وفقهائها من صناعة الخمر؟وهل عملت الدولة على منع قيام هذه الصناعة في المغرب و الأندلس؟

إن الإجابة على هذا التساؤلات تكمن في العودة على المصادر الفقهية المعاصرة لفترة الدراسة و موقف الفقهاء منها لكون معظم الأمراء المرابطين لا يصدرون أحكامهم إلا بعد العودة إلى

[1]- الإدريسي :صفة المعرب ص195
[2]- الحميري : الروض المعطار ص616
[3]- عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ص233-234
[4]- المقري :نفح الطيب مج1ص201
[5]- الحميري المصدرالسابق ص 488
[6]- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص111
[7]- السلاوي :الاستقصاء ج2 ص12
[8]- انظر عن ذلك مثلا :أبو بكر بن إبراهيم صهر علي بن يوسف وإدمانه على شرب الخمر :ابن الخطيب :الاحاطة في أخبار غرناطة مج1 ص220
[9]- المراكشي :المعجب ص126

الفقهاء[1] . وبعودتنا إلى كتب الفتاوى و النوازل المعاصرة لفترة الدراسة لم نجد أية إشارة يؤكد يؤكد فيها الفقهاء موقفهم من هذه الصناعة وكل ما وجدناه يتعلق ببيع الكروم لمن يعصرونها خمرا و موقف الفقهاء فيها لم يبلغ أبعد من الكراهة [2] و عليه فإن الظن الغالب أن الدولة قد تغاضت عن اتخاذ موقف واضح بناءا على ما يصدره الفقهاء من أحكام و حسبنا في ذلك أن أمراء الدولة المرابطية لم يتخذوا أي موقف من أهالي بلاد السوس (المصامدة)الذين كانوا يكثرون من صناعة الشراب المستخلص من العنب المسمى عندهم باسم"أنزيز"و الذي يفعل بشاربه مالا تفعله الخمر لمتانته و غلظ مزاجه.[3]

والظاهر أن حياة الترف و البذخ الذي كانت تحياه بعض فئات المجتمع الأندلسي كان لها تأثيرا واضحا على العناصر التي انتقلت من المغرب إلى الأندلس بعد توحيد العدوتين تحت سلطة واحدة وهذا ما زاد من تنامي ظاهرة شرب الخمر حتى بين فئات الشباب وأصبح شاربي الخمور يؤثرون على مجريات الحياة العامة للمجتمع نظرا لما يحدثونه من تعدّ على الناس وإثارة للشغب في الطرقات وفي الاحتفالات .وهذا ما يوضحه "ابن عبدون" المعاصر لفترة الدراسة في قوله:"ويجب أن يؤخذ سلاح الشبان عند إقبالهم عند العرس قبل أن يشربوا "[4] و هذا ما يؤكد قيام صناعة خاصة بالخمر، غير أننا لم نلمس أي رد فعل من أمراء الدولة المرابطية إلا في الفترة الأخيرة من عهدهم بعد ظهور طلائع الثورة على المرابطين بالأندلس .

ويبدوا لنا أن سبب إبداء موقف حاسم من ذلك يعود في الأساس إلى استغلال مناوئيهم من الموحدين بزعامة المهدي بن تومرت لتلك الظاهرة المتفشية في المجتمع المرابطي للإطاحة بهم سيما وأن المرابطين مشهود عليهم الحكم بالكتاب والسنة ،فتفطن أمرائها لذلك لكن بعد فوات

[1]- ابن عذارى : البيان المغرب ج4 ص46
[2]- ابن رشد :فتاوى ابن رشد س3 ص1281-1282،الونشريسي:المعيار ج 6 ص69 ، 202
[3]- الإدريسي :صفة المغرب ص62
[4]- ابن عبدون :رسالة في آداب الحسبة والمحتسب ص 54

الأوان وحسبنا في ذلك الرسالة التي وجهها الأمير المرابطي "تاشفين بن علي" إلى أهالي مدينة بلنسية بصفة عامة بما فيها من أعيان المنطقة وفقهائها ووزرائها ،و الأخيار و الصلحاء والعامة،والتي بين فيها حرمة شرب الخمر ،و أن شربه إثم وفجور وأنه يؤدي إلى الفسوق و الشرور حاثا إياهم لوضع حد لشرب الخمر في بلنسية و في جميع جهات الأندلس و مما جاء في تلك الرسالة قوله:"و الخمر نزّهكم الله عن خبايث الأمور التي هي جماع الإثم و الفجور و الباب المفضي إلى سواكن الفسق و الشرور ،فاجتهدوا في شأنها، و أوعزوا في جميع جهاتكم بإراقة دنانها "، فقد جاء عن رسول الله (ص) أنه قال :"لعن الله الخمر و عاصرها وحاملها و المحمولة إليه".[1] فهذا النص يعد موقف رسمي للسلطة المرابطية على صناعة الخمر في العصر الأخير من حكمهم.

6-الصناعات المعدنية

عرفت الصناعات المعدنية بالمغرب والأندلس في عصر المرابطين تطورا كبيرا لوفرة المواد الخام وكثرة الطلب عليها وفي مقدمتها معدن الملح الواقع بمنطقة "تاتنتال"(البعيدة عن سجلماسة مسيرة عشرين يوما) الذي يستخرج منها كغيره من المعادن و الجواهر من عمق قامتين أو أقل من ذلك بقليل ،و العمل بهذا المعدن متصلا ليل نهار. كما يوجد معدن آخر يستخرج منه الملح في موطن بني جداله وتحديدا بمنطقة تسمي أوليل على شاطىء البحر المحيط[2]

وإلى جانب استخراج معدن الملح هناك بعض الصناعات المعدنية الأخرى القائمة على معدني الحديد و النحاس،فاشتهرت منطقة أغمات بصناعة بعض الآلات الحديدية التي كانت

---

[1]- حسين مؤنس: نصوص سياسية، ص113

[2] - البكري: المغرب، ص171

تصدر إلى السودان .[1] واختصت بلاد السوس بصناعة الرماح التي كانت تنتخب من أجود أنواع الحديد.[2]

أما صناعة النحاس فقد اشتهرت بها مراكش[3]و مدينة داي هذه الأخيرة التي وصف الإدريسي نحاسها بقوله:"ومدينة داي ...بها معدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس بمشارق الأرض و مغاربها، وهو نحاس حلو ، لونه البياض يتحمل التزويج،ويدخل في لجام الفضة و هو إذا طرق جاد،و لم يتشرح كما يتشرح غيره من أنواع النحاس......ومن هذا المعدن يحمل إلى سائر البلاد ويتصرف به في كثير من الأعمال "[4] كما وجد معدن آخر للنحاس في الطريق الرابط بين "درعة" و "سجلماسة" في منطقة تعرف باسم "تنودادان" و معناها الأيا يل.[5]

وكان لوفرة معدن الذهب في كل من مدينتي "سجلماسة"و"أودغست"الواقعتين على الطريق المؤدي إلى السودان الغربي أن قامت بمدينة "أودغست" صناعة الذهب و الإبريز الخالص الذي كان يصنع على شكل خيوط مفتولة[6].ونظرا لما بلغته صناعة المعادن من تطور في عهد المرابطين كان ذلك عاملا مساعدا على ظهور دور لصك العملة القائمة على معدني الذهب والفضة ،وعرف الصناع القائمون على دور الضرب الطرق المختلفة لتنقية الذهب والفضة من الشوائب العالقة بهما .و قد أورد "أبو الحسن علي بن يوسف"[7] الطرق المختلفة التي يتّبعها الصناع في ذلك مما يعطينا دليلا قاطعا على معرفتهم بالمعادن و طريقة تنقيّتها و صياغتها.

---

[1] -الإدريسي :صفة المغرب ص66
[2] - نفس المصدر ص62
[3] - نفس المصدر ص70
[4] - الادريسي:صفة المغرب ص74-75 ،الحميري : الروض المعطار ص231
[5] - البكري: المغرب، ص156
[6] - نفس المصدر ص151-159
[7] - الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، ص34-35

كما قامت بعض الصناعات على المعادن النفيسة لتوفر المادة الخام بالمغرب حيث يشير البكري إلى وجود أنواع من الياقوت بالقرب من "أغمات"فيقول:"وهناك جبل يقال له جبل هزرجة فيه أجناس من الياقوت المتناهي في الجودة و حسن اللون".[1] وأشار أيضا إلى قيام صناعة الحلي ببلاد السوس[2]. و لم تقتصر صناعة الحلي على الياقوت بل تعدته إلى المرجان فكان لهذا الأخير سوقا خاصة به في سبته ،وقد أشار "الإدريسي" إليه بقوله:" ويصاد بمدينة سبته شجر المرجان الذي لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار ،و بمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكّه ،وصنعه خرزا،وثقبه وتنظيمه ،ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد وأكثر ما يحمل إلى غانة و بلاد السودان".[3]

وشهدت الأندلس هي الأخرى تطورا كبيرا في صناعة الحلي و المعادن لوفرة المادة الخام به كالذهب و الفضة و الزئبق و النحاس و الرصاص و القصدير.فكان معدن الذهب يجمع من نهر لاردة ،وساحل الأشبونة[4] أما معدن الفضة فقد انتشر في كورة تدمير ،وجبال بجانة ،وإقليم كرتش من عمل قرطبة[5] وموضع يعرف بالمرج[6].

و لم يختلف الأندلسيون عن المغاربة إذا كانوا على علم و دراية كبيرة بطرق استخدام تلك المعادن و استخلاص الشوائب منها ومجالات استعمالاتها، فصنعوا من الذهب والفضة الحلي الجميلة وأنواع السكة المختلفة وأدخلوها في صناعات أخرى كيماوية وطبية[7]، ويذكر

1- كتاب المغرب ص153

2- نفسه ص162

3- الادريسي: صفة المغرب ص 168

4- المقري: نفح الطيب مج 1 ص143

5- نفس المصدر والصفحة

6- منطقة قريبة من مدينة فرنجولش البعيدة بحوالي 12ميلاعن حصن المدور .انظر : الإدريسي : المصدر السابق ص207

7- أرشيبالد لويس:القوى البحرية و التجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد محمد عيسى ،مكتبة النهضة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة و النشر، القاهرة 1960 ص 260.محمد عبد الوهاب خلاف:قرطبة الإسلامية،ص154

"الإدريسي"[1] المعاصر لفترة الدراسة أنه رأى بأمّ عينه عملية استخراج الزئبق من منجم حصن "أبال" الواقع بشمال قرطبة عن عمق مائتين وخمسون قامة ،وذكر أنه كان يعمل بهذا المنجم أكثر من ألف عامل ، قوم للترول فيه وقطع الحجر ، وآخرين لنقل الحطب لحرق المعدن، و البعض يعمل أواني سبك الزئبق و تصعيده، و مجموعة أخرى لمراقبة الأفراد و عملية الحرق .

واختصت مرسية ومالقة بصناعة آلات الصفر و النحاس و الحديد من سكاكين و مقصات مذهبة ، و جميع ما يحتاجه المترل من أواني خاصة استعدادا للعرس ، و يبدوا أن مرسية كانت أكثر إنتاجا فمنها كانت تصدر تلك الصناعات إلى مشارق الأرض و مغاربها [2] هذا ناهيك عما اشتهرت به طليطلة من صناعات أساسها معدني الحديد و النحاس المتوفرة في جبالها [3] واشتهر حصن قسنطينة من أعمال قرطبة بمعادن الحديد حتى عرفت بقسنطينة الحديد الطيب المتفق على طيبه و كثرته ، ومنه يتجهز به إلى جميع أنحاء الأندلس. [4]

وإلى جانب المعادن السالفة الذكر اشتهرت قرية "بطرنة" الواقعة قرب "المنكب" بمعدن التوتياء المستخرج منها و المشهورة بحسن طيبها [5].

7-صناعات ذات مصدر حيواني

أ-صناعة الجلود ودباغتها: تعد صناعة الجلود من الصناعات التي يعتمد في أساسها على الحيوانات سواء كانت تلك الحيوانات أليفة أو موحشة ، و عليه فإن سكان العدوتين عملوا على قنصها أو صيدها للاستفادة منها في بعض الصناعات ومنها صناعة الجلود .و الحديث عن صناعة الجلود في عصر المرابطين يجرّنا مباشرة إلى ذكر بعض الحيوانات التي استخدمت جلودها

---

[1]- صفة المغرب ص213-214

[2]- المقري: نفح الطيب مج 1 ص201

[3]- الإدريسي : صفة المغرب ص 188

[4]- نفسه ص207

[5]- نفسه ص199

في هذه الصناعات، ففي المغرب يأتي حيوان اللمط في مقدمة الحيوانات التي اشتهرت به كل من مدينتي "أودغست" [1] و"نول" وعلى جلد هذا الحيوان قامت صناعة الدروق اللمطية التي اشتهر بها المرابطون و التي وصفها الإدريسي بقوله :"و بهذه المدينة (أي "نول")تصنع الدرق اللمطية التي لاشيء أبدع منها ، ولا أصلب منها ظهرا،ولا أحسن منها صنعا ، و بها يقاتل أهل المغرب لحصانتها و خفة محملها "[2] و من ميزاتها أن النشاب لا تنفذ منها، و لا يؤثر السيف فيها،بل أنها تستر الفارس وفرسه[3] ،وبهذه الدرق هدد المعتمد بن عباد الفونسو السادس[4]، وليس من المستبعد أن يكون جلد هذا الحيوان نفسه قد استخدم في صناعة السروج و اللجم و الأقتاب المعدة لخدمة الإبل التي اشتهرت بها مدينة "نول".[5]ومن الحيوانات التي استخدمت جلودها في بعض الصناعات الجلدية ، جلود بقر الوحش إذ يشير "مارمول" إلى كثرة وجوده في إقليمي تادلة و تلمسان و كانت جلوده تستخدم في صناعة الأحذية بعد دبغه [6]، و الراجح أن يكون جلد هذا الحيوان قد استخدم في مدينة تلمسان لإعداد كل ما يتعلق من أدوات ركوب الخيل الجلدية .[7]

كما تنوعت مجالات استخدام الجلود في بلاد المغرب حيث تشير المصادر إلى استخدامها في النعال والأقراق [8]كما استخدمت كركوات [9]وهو ما يفهم من الإشارة التي أوردها "ابن خلكان" في ترجمته للمهدي بن تومرت بأنه "لايصحبه من متاع الدنيا إلا عصا و ركوة[10]"

---

[1]- البكري : كتاب المغرب ،ص159
[2]- الإدريسي : صفة المغرب ص 59
[3]- أبو حامد الغرناطي :تحفة الألباب ، ص37
[4]- ابن عذارى : البيان المغرب ج4 ،ص131
[5]- الإدريسي : المصدر السابق ،ص 59
[6]- مارمول كاربخال: إفريقيا ج1 ص 73-74
[7]- ابن سعيد : كتاب الجغرافيا ص 140
[8]- انظر عن كثرة صناعتها في فاس مثلا :البيدق : أخبار المهدي ص 24
[9]- هي إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء و الجمع ركوا ت انظر : ابن منظور :لسان العرب مج 14 ص 410
[10]- ابن خلكان :وفيات الأعيان مج4 ص298

كما استخدمت الجلود في صناعة الطبول التي استخدمها المرابطون في معاركهم وعدّت من ضمن أسلحة المرابطين لما تحدثه من صوب يرهب العدو و هذا ما أشار إليه صاحب الحلل الموشية في قوله:"و ضرب(أي يوسف بن تاشفين)طبوله فاهتزت له الأرض وتجاوبت الآفاق، فارتاعت قلوبهم ،و تجلجلت أفئدتهم"[1]والراجح أن هذه الصناعة قد تنامت أكثر لأن مجالات استخدام الطبول كثيرة ، فإلى جانب استعمالها من طرف الجيش المرابطي استخدمت في مختلف أنحاء المغرب لإحياء الأفراح و الأعراس و غيرها .

و لم يقتصر استخدام الجلود على ما ذكرناه فحسب بل هناك من يشير إلى استخدام زاهي الجلود فرشا بدل البسط، فكان ذلك من بين أسباب عزوف أهل المغرب عن صناعة البسط .[2] أما الأندلس فلم تكن هي الأخرى بمنئ عن صناعة الجلود سيما و أن المادة الخام متوفرة لكثرة مصدرها مثل الغزال و الأيل و حمار الوحش و غيرها .[3] فانتشرت صناعة الجلود في أرجاء مختلفة من الأندلس غير أن أشهر منطقة لصناعتها هي مدينة قرطبة [4].

ونظرا لانتشار صناعة الجلود في أنحاء مختلفة منه أولى رجال الحسبة أهمية كبيرة لمراقبة القائمين على صناعة الجلود و دباغتها ، و قد أمدنا " ابن عبد الرؤوف " بمعلومات في غاية الأهمية في هذا الخصوص منها منع الجلادين من بيع جلود الميتة نيّة ، و الحرص على بيعها مدبوغة للانتعال و الطحن عليها كما أكد على منع صانعي النعال من تغليظ حواشي النعال قبل خرزها ،كما حرص على منع مفصلي الجلد النيّ أن يحدوا على موضع القطع بقفا سكين أو حديدة ليخفوا بذلك رقّة الجلد. وفي الوقت نفسه منع القراقون ألا يخرزوا وصلا يقع في القرق إلا بشعرتين ،وأن يقربوا أيديهم في خرز النعال ، و يكون الخيط المستخدم في ذلك من

[1]- مجهول :الحلل الموشية ص60
[2]- عزالدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادي ص 230
[3]- المقري: نفح الطيب مج 1 ص198
[4]- العذرى : نصوص عن الأندلس ص 122

القنب . مع الحرص أن يكون كعب القرق من الجلد البقري مبلولة بالغراء .[1] ومن خالف ذلك يكون قد غش صناعته فيعاقب على غشه .

ونظرا لانتشار صناعة الجلود في كل من المغرب و الأندلس عرف سكان العدوتين صناعة دباغة الجلود ، فاتخذوا لها أماكن خاصة لدباغتها و عادة ما تكون خارج أبواب المدن لإبعاد الروائح الكريهة التي تصدرها تلك الجلود .[2]

ولدبغ الجلود استخدم سكان المغرب الأقصى الشجر المعروف باسم التاكوت في الدباغة الذي يكثر نموه على وادي درعة .و في الأندلس اشتهرت بعض المدن بدبغ الجلود مثل باجة التي كانت لها خاصية في دباغة الأديم لا يبلغه دبّاغ[3] و اختصت لبلة بأديمها المفضل عن غيرها [4].

ب- صيد الأسماك و صناعة المرجان

كان لموقع المغرب و الأندلس و امتلاكهما لشاطئين أحدهما يطل على البحر المتوسط،و الآخر يطل على البحر المحيط ،مع كثرة الأنهار التي تخترق وديانهما أثرا كبيرا في تزويد العدوتين بثروة سمكية ، حيث مارست طائفة من سكان العدوتين حرفة الصيد في شواطئ البحار ،و على ضفاف الأنهار ، فكان الصيادون في المغرب يصطادون كميات كثيرة من الأسماك من الأنهار القريبة من مراكش و عنها يقول : ابن المؤقت"و أما الأنهار القريبة منها (أي مراكش) فمتعددة منها النهر المعروف "بوادي أسيل" بباب الربع....و يوجد في هذا النهر من أنواع الحوت شيء كثير و في كل يوم يحملون منه أحمالا إلى المدينة"[5] و بنهر فاس أيضا أنواع

---

[1]- ابن عبد الرؤوف : آداب الحسبة و المحتسب ص93-95
[2]- إبراهيم حركات : النشاط الاقتصادي ص112
[3]- المقري: نفح الطيب مج 1 ص159
[4]- ياقوت الحموى :معجم البلدان ج5 ص11
[5]- ابن المؤقت :السعادة الأبدية ج1 ص22

كثيرة من الأسماك ذكرها الجزنائي بقوله:"و يخرج منها الحوت مثل اللبين و البورى و السلباح و البوقة ذلك كله حوت لذيذ المطعم كثير المنفعة"[1].

أما وادي "سبو" فتصطاد منه أنواع كثيرة من الحوت منها ما يعرف بالشابل الكبير ، والحوت المعروف باسم "القرب" الذي يزيد زنة الواحدة منه قنطار وأكثر ، "كما يوجد فيه أيضا الحوت المعروف بالشولي الذي تصنع منه الألوان بأنواع النفل فلا تشم له رائحة السمك."[2]

أما مدينة "سلا" فيوجد بواديها أنواع من السمك و ضروب من الحيتان المعروفة بجودتها ، ومن وفرة السمك و الحوت بها لا يباع ولا يشترى.[3] كما اشتهرت مدينة سبتة بكثرة أنواع الأسماك بها وقد أمدنا الإدريسي بوصف عن الطريقة المستخدمة في اصطياد الأسماك بها فيقول:"وبمدينة سبتة مصايد للحوت ولا يعدلها بلد في إصابة الحوت وجلبه ويصطاد بها من السمك نحو من مائة نوع ويصطاد بها السمك المسمى التّن الكبير الكثير ، وصيدهم له يكون زرقا بالرماح وهذه الرماح لها في أسنّتها أجنحة بارزة تنشب في الحوت ولا تخرج وفي أطراف عصيّها شرائط القنب الطوال،ولهم في ذلك دربة وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين".[4]كما يستخرج بمدينة سبتة شجر المرجان الذي لا يضاهيه صنف من أصناف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار .و بالمدينة سوق لتفصيله وحكّه و صنعه خرزا، وثقبه و تنظيمه، ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد.[5]

---

[1]- الجزنائي : كتاب تاريخ مدينةفاس المعروف ب زهرة الآس ص68-69

[2]- نفس المصدر ص74

[3]- الحميري :الروض المعطار ص319

[4]- الادريسي : صفة المغرب ،ص168

[5]- نفس المصدر والصفحة

أما الأندلس فقد تواجدت فيه هو الآخر مصايد الأسماك واشتغل بعض السكان بحرفة صيد الأسماك سيما في السواحل الجنوبية و الشرقية و الغربية،وضفاف الأنهار ،حيث كانوا يتعيّشون من تلك الحرفة. وتذكر المصادر غنى سواحل الأندلس و أنهارها بالأسماك فيصف "ابن الخطيب" "حوت شلوبانية " بقوله: "وحوت هذه السواحل أغزر من رمله"[1] كما وصف سمك مربلة بقوله:"مربلة بلد التأذين على السردين ،ومحل الدعاء والتأمين لطعم الحوت[2]"كما اشتهرت المنطقة الممتدة بين المنكب و مالقة بوفرة السمك بها[3] و من الأنهار التي اشتهرت بوجود الأسماك بها نذكر الوادي الكبير،[4] ونهر إبرة الذي يعرف حوته باسم الطرختة أو(التزختة)و هو حوت أبيض كبير الحجم ليس له إلا شوكة واحدة .أما نهر "يانة" فقد اشتهر هو الآخر بكثرة أسماكه التي يميل لونها إلى الصفرة ،و به نقاط حمر له أضراس و أنياب ،و يعد من أطيب أنواع الأسماك[5].و نظرا لشهرة الأندلس بكثرة أسماكه فقد حرص رجال الحسبة على مراقبة باعة الأسماك مراقبة صارمة منعا للغش الذي قد يلجأ إليه بعضهم مثل بيع السمك البائت ،وخلط الطري أو الطازج بالبائت و الحرص على عدم تمليح السمك البائت من اليومين و الثلاثة تجنبا لفساده ،و الأحسن تمليحه طريا .كما يؤمر القلاء ون بتنقية الحوت جيدا ،وأن لا يقلوه بزيت رديء [6] .

---

[1]- ابن الخطيب:معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار ص81

[2]- نفس المصدر ص80

[3]- الإدريسي :صفة المغرب ص200. ابن الخطيب :المصدر السابق ص80

[4]- المقري: نفح الطيب مج 1 ص208

[5]- كمال السيد أبو مصطفى :تاريخ الأندلس الاقتصادي،ص195

[6]- ابن عبد الرؤوف: رسالة آداب الحسبة والمحتسب،ص86

الفصـــــل الثـــــامـــــن

التجارة الداخلية

وضعية المغرب الأقصى و الأندلس السياسية و الاقتصادية قبل الفتح المرابطي

دور المرابطين في المحافظة على أمن الطرق،وتحقيق الأمان لسالكيها

الطـــرق التجاريـــة

أ-الطرق البرية

طـــرق الأندلس

ب- الطرق النهرية

الأسواق الداخلية في المغرب و الأندلس

العوامل المؤثرة في ازدهارها

أهــــــم الأســــــــواق

تحديد مواقعها وأهميتها وأهم السلع المعروضة بها

نظـــــم الأســـــواق

الحسبة و الرقابة على الأسواق

التسعير والاحتكار

المكـــوس

وسائل التعامل(العملة ، السفتجة ، الصكوك)

العـــملة

الصكوك و السفاتج

المقـــايضـــة

المكاييل و الموازين والمقاييس

التجارة الداخلية

وضعية المغرب الأقصى و الأندلس السياسية و الاقتصادية قبل الفتح المرابطي

كان المغرب الأقصى قبل منتصف القرن الخامس/الحادي عشر الميلادي يتكون من إمارات زناتية متنافرة و متناحرة فيما بينها في صراع داخلي ، وترتب عن الصراع القائم بين الإمارات الزناتية و التنافس عن السلطة أن انعدم الأمن كلية و أدى ذلك إلى انتشار اللصوصية ،وقطع الطرق ، لاسيما وأن الإمارات الزناتية تقع على أهم طرق التجارة فقام سكانها بقطع الطرق وفرض الإتاوات على التجار وكان أشدهم في ذلك توالي اليجفشى و ابنه مهدي[1] فأصبح عبور الممرات و الطرق نوعا من المغامرة ،وتسبب ذلك في تدهور حركة التجارة ،كما تدهورت بعض المراكز التجارية مثل سجلماسة و غيرها.[2]

و نجم عن تلك الفوضى السياسية و الحروب المستمرة و غارات البدو من زناتة على السهول الزراعية ،وعجز أمراء زناتة عن حمايتها ، فكادت تفقر على أيديهم ،فكثر الهرج بسبب ذلك في أرض المغرب و اشتد الغلاء به[3] وحديث "ابن خلدون" ينطبق على حالة المغرب إذ يقول:"أعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها و اكتسابها ،لما يرونه حينئذ عن أن غايتها و مصيرها انتهابها من أيديهم ....وعلى قدر الاعتداء و نسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب ...فإذا قعد الناس عن المعاش ،و انقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانقبضت الأحوال"[4] وقد قدم لنا "ابن القاضي"صورة توضح مدى الفوضى السائدة و الضائقة الاقتصادية التي اجتاحت البلاد في أواخر حكم الزناتيين لاسيما في فاس و ما

---

[1]- مجهول: مفاخر البربر ،دراسة وتحقيق، عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط ط1، 2005 ، ص146

[2]- الإدريسي :صفة المغرب ،ص61

[3]- ابن القاضي :جذوة الاقتباس ق1 ،ص49

[4]- ابن خلدون :المقدمة ،ص302

حولها من أعمال فيقول:"فضعفت أحوال مغراوة ونقض ملكهم و جاروا على رعيتهم بأخذ أموالهم ،وسفك دمائهم،و التعرض لحريمهم فانقطعت عنهم الموارد .وكثر الخوف في البلاد وتبدل الرخاء بالشدة و الأمن بالخوف ،و العدل بالجور ،فاتصل الجوع و الغلاء ،و عدمت الأقوات في مدينة فاس وأعمالها أيام معنصر و الفتوح قبله وأيام تميم"[1] ثم يستطرد في وصف ما آل إليه الأمر من الفوضى السائدة وتعدّ على حرمات الناس،وسلب أموالهم فيقول:"وصار رؤساء مغراوة و بني يفرن يدخلون على الناس في دورهم لأخذ أقواتهم وسلبهم أموالهم وكانوا يصعدون على جبل العرض ، فيأي دار رأوا بها دخانا استقفوا آثارها، فدخلوها،وأخذوا ما يجدون"فيها من الطعام ،ويتعرضون لنسائهم وصبيانهم ويأخذون أموال التجار ،فلا يقدر أحد أن يصدهم عن ذلك،ولا يتجرأ أن يكلمهم فيه ،ومن لم يوافقهم في شيء من ذاك أوصدهم عنه قتلوه.[2] واتقاء ا لشرهم اتخذ الناس مطا مير في بيوتهم لخزن الطعام وطحنه وطبخه لئلا يسمع الزناتيون صوت الرحى ،أو يروا دخانا ،كما اتخذوا غرفا لا مراقي لها يصعد إليها بالسلالم ليناموا فيها خوفا من اقتحام الزناتيين عليهم.

ولم يكن الأندلس أحسن حالا من المغرب قبيل عبور المرابطين إليه إذا كان في غاية السوء و التدهور بسبب ما كان عليه من التفكك السياسي تحت حكم دول الطوائف الذين انغمسوا في حياة اللهو و الترف ،و الملذات وأثقلوا رعاياهم بالمغارم و الضرائب ،لكي يتمكنوا من دفع الإتاوات التي فرضها عليهم ألفونسو السادس كسبا لسلمه و موادعته وردع الخطر القشتالي على عروشهم .[3]ولم يكن طموح الفونسو السادس إخضاع ملوك الطوائف لنفوذه وإرغامهم على دفع الإتاوات فحسب ،بل كان هدفه استرداد الأندلس و طرد المسلمين نهائيا من شبه جزيرة ابيريا فبدأ مشروعه باستهداف طليطلة سنة 478هـ /1085م [4] ساعتها أحس ملوك

[1]- ابن القاضي: جذوة الاقتباس ق1،ص338

[2]- نفس المصدر والصفحة ،ابن أبي زرع:الأنيس المطرب ،ص72

[3]- ابن خلكان :وفيات الأعيان مج4 ص280

[4]-النو يري:نهاية الأرب مج 11 ج23 ص266 مجهول: الحلل الموشية ص38

الطوائف بالخطر الذي يداهمهم ،فاستنجدوا بالمرابطين،ولب يوسف بن تاشفين الدعوة ،وتمكن من تحقيق أعظم نصر في معركة الزلاقة سنة479 هـ/1087م ،ليضع بذلك حدا لطموح الفونسو[1]،غير أن يوسف بن تاشفين لم يستقر بالأندلس بل عاد إلى المغرب و لم يستغل الانتصار الذي حققه لملاحقة النصارى واستعادة طليطلة ،وهذا ما مكن النصارى من لمّ شملهم ثانية ،و بدؤوا في شن غارات على الأراضي الإسلامية المتاخمة لهم ،كما أخذ الفرسان حصن لييط (قرب لورقة)وأخذ النصارى يعيثون فسادا في منطقة مرسية[2]،وفي الوقت نفسه كان القنبيطور يقوم بأعمال السلب والنهب في نواحي بلنسية وشاطبة ولاردة.[3]

ونظرا لعجز ملوك الطوائف عن رد هذا الخطر اضطر يوسف بن تاشفين العبور ثانية سنة 481هـ/1088م[4]واتجه مع القوات الأندلسية إلى حصن لييط ،وحاصره أربعة أشهر .وفي هذه الفترة بدأ الشقاق بين أمراء الطوائف ،في الوقت الذي وصلت فيه النجدة من الفونسو للنصارى المحاصرين في حصن لييط ،ففشل يوسف بن تاشفين في الاستيلاء على الحصن[5]،وعاد أدراجه إلى مراكش لتبدأ فكرة خلع ملوك الطوائف تختمر في ذهنه بعد إخفاق محاولة توحيدهم ، وثبت عجزهم عن مواجهة النصارى ،بل أنّ منهم من تعاون مع العدو .وهنا عزم يوسف بن تاشفين على خلع ملوك الطوائف ، بعد أن استفتى الفقهاء في ذلك ،فعبر إلى الأندلس للمرة الثالثة وشرع في خلع ملوكها الواحد تلو الآخر بين سنوات 483هـ/1090م-488هـ/1095م مستثنيا منهم المستعين بالله بن هود صاحب سرقسطة.[6]

---

[1]- للمزيد عن معركة الزلاقة انظر :الحميري:الروض المعطار ص287-292

[2]- ابن عذارى :البيان المغرب ج4 ص141

[3]- حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص289

[4]- مجهول: الحلل الموشية ،ص66

[5]- ابن خلكان: وفيات الأعيان مج4 ص281-282.وانظر أيضا حسن أحمد محمود:المرجع السابق ص292- 295

[6]- ابن عذارى: المصدر السابق ص143-146 ،النو يري:نهاية الأرب مج11 ج24 ،ص148-149،حسن أحمد محمود :المرجع السابق ص301

ثم واصل المرابطون جهادهم في شرق الأندلس ،فاستردوا بلنسية سنة495هـ/1102م وبذلك تمكن يوسف بن تاشفين من توحيد المغرب و الأندلس تحت سلطة واحدة عاصمتها مراكش .وعبر يوسف إلى الأندلس للمرة الرابعة و الأخيرة سنة 497هـ/1103م ليضع أسس الدولة المرابطية،ويتفقد أحوالها ،لتنعم بذلك منطقة الغرب الإسلامي بالاستقرار و الازدهار ،فعم الأمن و الأمان الذي حرمت منه سابقا[1]، وبدأت العدوتين تعرف نشاطا تجاريا واسعا بعد أن ساد الأمن وخفت الضرائب و المغارم التي جبل أهالي العدوتين على دفعها.

دور المرابطين في المحافظة على أمن الطرق،وتحقيق الأمان لسالكيها

بدأ المرابطون مشروعهم بالسيطرة على مراكز التجارة الرئيسية في جنوب المغرب الأقصى،فقصدوا درعة سنة 445هـ/1053م [2] بحكم موقعها في الجنوب ،وأخرجوا عامل سجلماسة عنها[3]،فكانت درعة أول منطقة تقع تحت سيطرة المرابطين.[4] ثم أعد المرابطون العدة للسيطرة على سجلماسة،فقتلوا أميرها وشتتوا جمعه،واستولوا على المدينة سنة 446هـ/ 1054م[5]،وشرع ابن ياسين في إصلاح المدينة بإزالة المكوس وإسقاط المغارم ،ثم ولى عليها عاملا من"لمتونة" وترك معه حامية من الجيش[6].ثم توجه المرابطون إلى"أودغست"فاستولوا عليها في السنة نفسها[7]،إلا أن زناتة المغراويين استردوا سجلماسة في السنة نفسها بعد ما أثار أهلها على عاملها اللمتوني وقتلوا حاميته ،غير أنهم ندموا على فعلهم ،وأرسلوا إلى ابن ياسين يبرؤون أنفسهم ويلقون باللوم على زناتة .فحشد لهم المرابطون جيشا،تمكنوا به من استردادها ثانية من

---

[1]-حسن أحمد محمود:قيام دولة المرابطين ص318، 321

[2]-ابن خلدون: العبر مج 6 ص216 ،البكري :كتاب المغرب ص166

[3]-ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص81

[4]- البكري: المصدر السابق ص166

[5]- البكري:نفسه ص167. مجهول : الحلل الموشية ص22

[6]- ابن خلدون :المصدر السابق ص217

[7]-البكري :المصدر السابق ص168

زناتة ،وأخذوا البيعة من أهلها ،في مستهل محرم سنة 450هـ /فيفري1085م .[1]وفي الوقت نفسه، قضوا على تمرد زناتة "درعة"وأجبروهم على الطاعة ،بعد أن غنموا إبلهم و مواشيهم،وولوا عليهم عاملا من لمتونة، وتركوا بالمدينة حامية من الجيش حتى لا يكرر أهل "درعة" المحاولة [2]وبعد السيطرة على سجلماسة توجه المرابطون إلى "أغمات" في ربيع الآخر سنة 450هـ/1085م[3]في جولة ثانية مع زناتة لكون "أغمات" المركز التجاري الصحراوي بعد "سجلماسة"التي تتجهز منه القوافل إلى بلاد السودان.[4]وعلى بعد مرحلتين من المدينة وجدوا شيوخ المصامدة في انتظارهم حيث دخلوا في طاعتهم وانظموا إليهم[5]ثم ضربوا الحصار على المدينة وضيقوا على من بها ،واستبسل أميرها "لقوط المغراوي" في الدفاع عنها فلما أيقن عدم جدوى المقاومة ،اخترق الحصار ليلا بأهله وحشمه ولحق ببني يفرن في تادلا[6]،وبذلك استولى المرابطون على أغمات ،وقضوا على إمارة مغراوة سنة 450هـ/108[7]

وهكذا تمت لهم السيطرة على نهايات طرق المغرب الأقصى المؤدية إلى بلاد السودان ،وبعدها اجتاحوا "السوس" ودخلوا تارودانت عاصمة الإقليم دون أية مقاومة تذكر[8]وتقدموا نحو"تادلا"لأهميتها في مراقبة خطوط التجارة عبر ممرات درن وملاحقة "لقوط"الذي التجأ إليها حتى لا تكون هناك فرصة لجمع شمل زناتة سيما وأن معظم سكان تلك المنطقة من زناتة[9]وحقق زناتة[9]وحقق المرابطون انتصارا على"بني يفرن" بعد أن قتلوا أميرهم ومن وجدوه منهم وفرت

---

[1]- ابن عذارى :البيان المغرب ج4،ص13-14

[2]- نفس المصدر،ص15

[3]- مجهول:الحلل الموشية، ص23 ابن عذارى :المصدر السابق ،ص15

[4]- الحميري:الروض المعطار،ص46

[5]- ابن عذارى المصدر السابق ،ص15

[6]- ابن أبي زرع:الأنيس المطرب،ص82، السلاوي :الاستقصاء : ج2،ص13، 14

[7]- مجهول:المصدر السابق، ص23

[8]- ابن خلدون :العبر مج6،ص217

[9]- أبوا الفداء:تقويم البلدان ، طبع بدار الطباعة السلطانية باريس، 1840،ص135،وانظر أيضا :ابن خلدون :المصدر السابق ،ص 217

البقية من زناتة إلى فاس.كما ظفروا بلقوط المغراوي وقتلوه[1] ،وبعدها عادوا إلى أغمات واتخذوها قاعدة لهم[2] لما اشتهرت به من صحة الهواء وخصوبة الأراضي ووفرة ثرواتها التجارية.[3]ثم اشتبك المرابطون في حرب أخرى مع"بورغواطة" قتل فيها ابن ياسين سنة451هـ/1059 م[4].فتولى الزعامة أبو بكر بن عمر الذي واصل غزو "بورغواطة" إلا أن بعض قبائل زناتة التي فرت إلى "فاس" أثناء حصار تادلا استغلت فرصة حروب المرابطين مع بورغواطة و عادت إلى مضاربها،وقتلوا من عرف بالميل إلى المرابطين[5] فما كان على المرابطين إلا إلا إعادة الهجوم على إمارة "بني يفرن" ومضارب زناتة في جبال "فازاز"،قبل أن تكتمل تعبئتها حتى تتم لهم السيطرة على الطريق الغربي لتجارة الذهب.

وبمجرد أن تقدم أبو بكر في إقليم فازاز حتى قدم له المهدي بن توالى صاحب السلطة على إقليم "فازاز"و على مدائن مكناسة طاعتة.[6]فاستولى على الإقليم وولى عليه عمالا من قبله. و لم يترك "لمهدي بن توالى" سوى القلعة على أن يحكمها نائبا عن المرابطين، ثم تقدم إلى مدينة لواتة الخاضعة "لبني يفرن" سنة452هـ/1060م [7]وبذلك يكون المرابطون قد استولوا على جميع المدن المدن التي تتحكم في الطريق الغربي لتجارة الذهب ،ومن ثم عادوا إلى أغمات[8].لكن مهدي بن توالى استغل فرصة انشغال أبي بكر بن عمر بما أتاه من أخبار عن اختلال أمره بالصحراء ،فخلع طاعة المرابطين وقتل الحامية التي تركوها بالقلعة.[9]

---

[1]- ابن خلدون :العبر مج6217 . ابن عذارى:البيان المغرب ج2 ،ص254

[2]- مجهول:الحلل الموشية ،ص23

[3] -ابن حوقل :صورة الأرض ،ص90البكري:كتاب المغرب،ص153

[4]- البكري:نفسه،ص168

[5]- ابن عذارى:البيان المغرب ج2،ص254 ،ج4 ،ص17

[6]- ابن عذارى: ج4،ص 18، 19.ابن خلدون :المصدر السابق ص218

[7]- ابن عذارى: ج2 ،ص255.ابن أبي زرع:الأنيس المطرب ،ص85 .ابن خلدون:المصدر السابق،ص 217

[8]- ابن عذارى: ج4، ص 18.ابن الخطيب:أعمال الأعلام ق3،ص169-170

[9] -ابن أبي زرع :المصدر السابق،ص85 .ابن الخطيب:نفس المصدر،ص 232

ولما تولى يوسف بن تاشفين واصل غزو الإمارات الزناتية فقصد بلاد "فازاز"لتأديب مهدي بن توالى [1]وحتى تتم له السيطرة على الطريق الغربي للتجارة سيما وأن "مهدي بن يوسف الجزنائي" صاحب مكناسة جدد له الطاعة إلا أن يوسف لم يتمكن من الاستيلاء على القلعة فضرب حولها الحصار و أرسل قواته لتغير على"فاس" التي تعد أقوى الإمارات الزناتية بالمغرب الأقصى.[2]فضيقوا على أميرها "الفتوح بن دوناس" فاضطربت أمورها وساد الغلاء بها ،مما أدى إلى تخلي الفتوح عن الإمارة فبايعت مغراوة بفاس وأحوازها "معنصر بن حماد"سنة 455هـ/1063وما أن تولى زمام الأمر حتى أخذ في الإغارة على المناطق الخاضعة لصاحب مكناسة،فترك يوسف بن تاشفين بعض الجيش على حصار القلعة وتقدم صوب "فاس" لغزوها وتأديب أميرها فلم يفلح في ذلك [3].

ولما أعاد يوسف بن تاشفين ترتيب جنده قصد فاس ثانية فتصدت له القبائل الزناتية الضاربة حول"صدينة"إلا أنه تقدم نحو فاس ففر عنها "معنصر بن حماد"شرقا إلى"تازا"لحشد زناتة و الاستعداد لجولة أخرى[4].وفي طريقه إلى فاس تمكن يوسف بن تاشفين من الاستيلاء على الحصون الواقعة حولها ،وضرب الحصار عليها أياما،فدافع عنها عاملها حتى قتل .ورغم ذلك استعصت المدينة على المرابطين و لم يتمكنوا من اقتحامها.[5]

ونظرا لطول الحصار أرسل يوسف بن تاشفين جيشا إلى "صفروى" للقضاء على إمارة بني خزرون كلية ،إذ كانوا يبسطون نفوذهم على وادي ملوية،وصفروى،وتحكموا بذلك في جزء من الطريق الشرقي لتجارة السودان .و استيلاء المرابطين على صفروى يجعل حصون "ملوية" تحت رحمة قواتهم في بداية الطريق ونهايته تكون تحت نفوذهم،إذ سبق استيلاؤهم على سجلماسة ودرعة.وبالفعل نجحوا في اقتحام صفروى،وقتلوا من بها من أمراء بني "خزرون"و"مغراوة"سنة 455هـ/1063م .وظل يوسف بن تاشفين على حصار "فاس"حتى طلب أهلها الصلح في العام نفسه ،فولى عليها عاملا من لمتونة وكان ذلك هو الفتح الأول

---

[1]- ابن خلدون:العبرمج6 ،ص218

[2]- نفس المصدر والصفحة

[3]- ابن القاضي :جذوة الاقتباس ق2،ص507،ق1،ص337-338.ابن خلدون: المصدر السابق،ص218

[4] -السلاوي:الاستقصاء ج2،ص25،ابن خلدون :المصدر السابق،ص218

[5]- ابن خلدون:المصدر السابق،ص218،السلاوي:نفسه،ص25

لفاس.[1] ثم غادر يوسف إلى بلاد غمارة،فأخضع معظمها وعاد إلى قلعة مهدي بن توالى لتخلص له السيطرة على الطريق الغربي لتجارة السودان وأثناء ذلك انتهز "معنصر بن حماد"فرصة ابتعاد الجيش المرابطي عن "فاس" واستردها وقتل عاملها اللمتوني.[2]

ولما بلغ الخبر يوسف بن تاشفين زحف إلى فاس و ضرب حولها الحصار وقطع عنها المرافق فشحت ا لأقوات،واشتد الأمر على أميرها[3]وألحق المرابطون الهزيمة بجيشه سنة 46هـ/1067م[4] إلا أن الأهالي لم يستسلموا ،ودافعوا عن مدينتهم عدة أيام ،فاضطر المرابطون إلى عقد صلح معهم و منحهم الأمان ،وولوا عليهم عاملا من لمتونة ،وكان هذا هو الفتح الثاني لفاس.[5]

وبعد رحيل يوسف بن تاشفين لإخضاع بلاد غمارة ثارت زناتة ثانية "بفاس" وبايعوا "تميم بن معنصر" فقتل عاملها اللمتوني وحاميته ،وما أن تم ليوسف إخضاع بلاد غمارة حتى نزل على فاس بجميع جيوشه ،وشدد عليها الحصار ،ودارت بينهما معركة قتل فيها "تميم وكثير من رجاله "واقتحم المرابطون المدينة وقتلوا بها من زناتة ما يزيد عن ثلاثة آلاف رجل وفر الناجون إلى تلمسان وكان ذلك هو الفتح الثالث والأخير لمدينة لفاس سنة 462 هـ/1069م وبذلك يكون المرابطون قد قضوا على إمارة بني زيري المغراويين.[6]

ولإكمال السيطرة على الطريق الشرقي للتجارة على بلاد السودان رحل يوسف بن تاشفين إلى وادي ملوية في صفر سنة 462 هـ/1069م[7] وكان لا يزال تحت نفوذ "بني خزرون"أصحاب سجلماسة وبه الكثير من زناتة [8] ،فافتتح المنطقة ،واستولى على كل الحصون الزناتية .وتم القضاء على إمارة بني خزرون.[9]أما إمارة "بني يفرن" في سلا فقد أرسل إليها

---

[1]- ابن أبي زرع:الأنيس المطرب،ص90، السلاوي:الاستقصاء ج2،ص26

[2]- ابن خلدون العبرمج6 ،ص218-219

[3]-ا بن خلدون: نفس المصدر 2 19 ،ابن أبي زرع:المصدر السابق ص90

[4]- ابن الخطيب:أعمال الأعلام ق 3 ،ص163

[5]- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص91

[6]- نفس المصدر ،ص41-42،ابن خلدون المصدر السابق ،ص219

[7]- ابن خلدون :العبر مج 6 ،ص219 ،مج7،ص44

[8]- مجهول :مفاخر البربر ص146

[9]- ابن خلدون :العبر مج 7 ،ص47

يوسف بن تاشفين جيشا أثناء حربه مع غمارة وخاض حربا مع أميرهم ،أسفرت عن القضاء على إمارته في "سلا" سنة 462هـ/1069م.[1]

وهكذا لم يبق لزناتة من نفوذ بالمغرب الأقصى سوى قلعة مهدي بن توالى .ومن ثم رحل إليها يوسف بن تاشفين وواصل حصارها[2] وأثناء حصار القلعة استغلت فلول "مغراوة" وزناتة الضاربة فيما بين"فاس"و"تلمسان" الفرصة ،واجتمعت إلى أمير "تازا" و"تسول" لاستعادة فاس[3]،فخرجت الحامية المرابطية لصده عن المدينة إلا أن النصر كان حليف "زناتة" وأمير "تازا"و"تسول."

ولما بلغ الخبر إلى يوسف بن تاشفين ترك بعض جنده لمواصلة حصار القلعة و أسرع لحماية فاس،فالتقى بأمير "تازا" في"أجرسيف" فقتله وشتت جمعه سنة 463هـ/1070م[4] ،واستولى على ما حوزته من البلاد وقضى على إمارته .وعاد إلى بلاد "فازاز"وأحكم الحصار على القلعة فاضطر "مهدي بن توالى" إلى طلب الصلح وتسليم القلعة سنة 465هـ/1072م[5] وبذلك يكون يكون المرابطين قد قضوا على الإمارات الزناتية بالمغرب الأقصى .وأصبحت كافة الطرق تحت سيطرتهم .

ولإحكام السيطرة على الطريق الشرقي ،توجه المرابطون إلى إمارة "زناتة" في تلمسان ،و المغرب الأوسط ،حيث فرت فلول "زناتة" إليها بعد القضاء على إمارة "فاس" [6] وبدأت في التجمع و الاحتشاد لمجابهة المرابطين .لذلك تحركوا للقضاء على قوتهم قبل استفحال خطرهم والقضاء على إمارة "تلمسان"التي تمثل خطر زناتيا دائما على المغرب الأقصى،فأرسل يوسف بن تاشفين سنة 472هـ/1079م جيشا قوامه عشرون ألف من لمتونة لضرب التجمع الزناتي فيها والقضاء على إمارة"تلمسان".[7] إلا أنهم تراجعوا عنها إلى مراكش[8] و عاودوا الكرة ثانية سنة

---

[1]- ابن الخطيب: أعمال الاعلام ق3 ص166

[2]- نفسه ص166

[3]- مجهول: مفاخرالبربر،ص146،السلاوي :الاستقصاء ج2،ص26

[4]- السلاوي:نفسه،ص26 ابن خلدون:العبر مج6،ص219

[5]- ابن الخطيب: المصدر السابق ص217،216

[6]- ابن خلدون: العبر مج 7 ص44

[7]- السلاوي:المصدر السابق ،29 ،ابن أبي زرع :الأنيس المطرب ص29

[8]- ابن خلدون:العبر مج 6 ،ص220 ،مج7 ،ص55

473هـ/1081م واستولوا فى طريقهم إليها على وجدة معقل زناتة والمنطقة المحيطة بها سنة 474هـــ/1081م وواصلوا تقدمهم نحوها فضربوا الحصار عليها ،وقاتلوا أميرها حتى قتل وهزم جيشه ،ودخل المرابطون عنوة إلى المدينة.[1] وبذلك تمت لهم السيطرة على الطريق الشرقي لتجارة السودان وبعد أن أقر يوسف بن تاشفين أمور "تلمسان" وأقام استحكامات الدفاع عنها لتعجز "زناتة" عن استعادتها تقدم صوب ديار زناتة بالمغرب الأوسط ،فاستولى على "وهران" و"جبل وانشريس" وأعمال "شلف"وتنس سنة 474هـ/1081م وضمها لسلطان واليه على تلمسان وبذلك محا آثار مغراوة من المغرب الأوسط[2]وتمت له السيطرة على كافة الطرق التجارية التي كانت بيد إمارات زناتية وأحل بها الأمن والأمان.

الطـــرق التجاريـــة

أ–الطرق البرية

إن دراسة الطرق البرية بالمغرب الأقصى لا تكتمل بمعزل عن التعريف بالطرق الموصلة للسودان الغربي .فمن المعروف أن بدايات هذه الطرق تنطلق من المغرب ،ونهايتها هي مدخل القوافل إلى بلاد السودان الغربي .كما أن امتدادها عبر أراضي المغرب هو امتداد لبقية طرق المغرب، ويرتبط المغرب الأقصى و بلاد السودان بطريقين أساسيين[3]هما:الطريق الشرقي:ويبدأ من من تلمسان عبر وجدة، فاس، صفروي سجلماسة، درعة ، تامدلت ،أودغست ثم إلى بلاد السودان أو من سجلماسة إلى غانة مباشرة [4] والمعروف أن المرابطين كانوا قد بسطوا نفوذهم على هذه المدن جميعا أثناء فتوحهم.

أما الطريق الثاني : وهو الطريق الغربي،ويبدأ من "تلمسان" "فوجدة" وفاس ثم يتجه إلى المغرب ناحية مكناسة الزيتون ،جبال فازاز ،تادلا، عبر جبال درن ، أغمات ، أودغست [5] أو أغمات سجلماسة ،ومنها إلى بلاد السودان وواضح أن الطرق الرئيسية إلى بلاد السودان تبدأ

---

[1]– ابن خلدون: العبر،مج6 ص220، السلاوي الاستقصاء ج2 ص29

[2]– ابن خلدون :العبر مج7 ،ص55

[3]– نفس المصدر والصفحة

[4]– راجع اليعقوبي:البلدان ،مطبعة بريل ،ليدن 1892،ص 356- 360

[5]– الإدريسي: صفة المغرب ،ص31-32

غالبا من سجلماسة التي زادت أهميتها بعد هجر الطريق المار"بزويلة" و"غدامس" بسبب العواصف الرملية التي اجتاحته فضلا عن غارات البدو .[1]

ومن ثم يمكننا القول أن المسالك الرئيسية للحركة التجارية تمركزت حول خمسة مراكز تجارية هي:"أغمات" "تلمسان"و"سجلماسة"،"أودغست" و"فاس" إلا أن كثافة الطرق التجارية بين "سجلماسة" و"تلمسان" تدل على أنهما كانتا المركزين الرئيسيين في تجارة السودان إبان حكم المرابطين[2] وكانت "سجلماسة" أهم مدخل لطرق القوافل إلى بلاد السودان وأكثرها شهرة وأهمية[3]أما تلمسان فكانت نقطة تفضي إلى إفريقية و المشرق[4] والأندلس وحوض البحر المتوسط[5] فدبت الحياة في هذه المدن بفضل ما تمتعت به من مواقع إستراتجية و تجارية.

وبالاضافة إلى تلك الطرق هناك العديد من الطرق الثانوية وهي طرق محلية الغرض منها توزيع البضائع في خط القوافل الرئيسي إلى المناطق الأخرى.ومن ثم يمكن القول إنها تكملها على صعيد التجارة الداخلية وعلى سبيل المثال هناك طريق يربط بين فاس وسجلماسة عبر صفروى الذي تقدر مساحته بثلاثة عشر مرحلة.[6] هذا إلى جانب الطريقين اللذين يربطان بين سجلماسة وكل وكل من درعة وأغمات اللتين تعدان مدخلا لقوافل التجارة إلى بلاد السودان.[7]

وساهمت الطرق التجارية بين سجلماسة ،والمدن الساحلية بشكل كبير في تنشيط التجارة إذ استفادت سجلماسة من الطريق الذي يربطها بميناء تابحريت[8]الذي كان مرسى للسفن ومقصدا للقوافل القادمة إليه من سجلماسة[9].هذا بالإضافة إلى الطريق الذي يربطها بميناء مليلة[10].

---

1 -الحميري:الروض المعطار ص**296**   الإدريسي:صفة المغرب ص148-149

2- الإدريسي:نفس المصدر،ص81، 82، 86

3- نفس المصدر ص60،البكري:المغرب،ص 148-149

4- البكري :نفسه،ص143-146

5- الإدريسي :المصدر السابق ،ص82

6- نفسه ،ص76،البكري:المصدر السابق،ص146-147

7- البكري :المصدر السابق ،ص ص155 -156، 152-153

8- مدينة على ساحل البحر تبعد عن مدينة وجدة بحوالي أربعين ميلا، تعد هذه المدينة ساحل لمدينة وجدة .انظر البكري:المصدر السابق ،ص87-88،الإدريسي :المصدر السابق،ص 172،الحميري:المصدر السابق،ص127

9-الحميري:المصدر السابق ص127

10- البكري :المصدر السابق ،ص152

ومما لاشك فيه أن ارتباط المدن الداخلية مثل مراكش وفاس وتلمسان بالمدن الساحلية،كان له أثره البالغ في توزيع منتجاتها فهناك طريق يربط بين مراكش وسلا لتصدير منتجات المدينة وتقدر مسافته بتسع مراحل[1]

أما "فاس" فكان لها أكثر من طريق وقد أهلّها موقعها المتوسط لتكون مركزا للنشاط التجاري في الشرق و الجنوب و الشمال و الغرب لذلك كانت من أهم المدن التجارية الواقعة على الطريق المؤدي إلى بلاد السودان .إذ يربطها طريق إلى الشرق عبر ممر"تازا" ،كما يربطها طريقان تجاريان مع "أغمات"و"سجلماسة" مدخلي القوافل إلى السودان[2].فضلا عن الطرق التجارية التي تربطها بمينايئ "طنجة"وسبتة" اللذين يعدان من أهم المرافئ التجارية بين المغرب و الأندلس.[3]

أما تلمسان ،فقد تحكمت في تجارة المغرب الأقصى الآتية من السودان إلى أفريقية ،والمشرق الإسلامي وحوض البحر المتوسط ،خاصة إذا ما علمنا أن الطريق الوحيد الذي يربط بين المغرب الأقصى و المغرب الأوسط يمتد عبر ممر"تازا" [4] ولأهمية المدينة في تسويق السلع فإنها ارتبطت بطريقين:أحدهما إلى "تنس"و الآخر إلى "وهران" لأجل التبادل التجاري بين المغرب و الأندلس[5] الأندلس[5]

طـــرق الأندلس

أما في الأندلس فقد زاد اهتمام المرابطين بالطرق التي تصل بين جميع المدن الأندلسية خصوصا أنهم نجحوا في حماية الطرق وتأمين المسالك ،والضرب على أيدي العابثين بالأمن فأمّن التجار على أنفسهم وبضاعتهم ،فكثرت الخيرات في دولتهم .وغمرت البلاد[6] .وكانت هناك مدنا اعتبرت محطات كبيرة للمسافرين تخرج منها عدة طرق للمواصلات البرية ،وأقيمت على جنبات هذه الطرق الفنادق و المطاعم و الحمامات لاستراحة التجار و التزود منها بما يحتاجونه

[1]- الحميري: الروض المعطار ،ص319

[2] البكري : كتاب المغرب ،ص154، 146

[3] نفس المصدر ،ص109-111، 113-115،الإدريسي: صفة المغرب ،ص 79

[4] الحميري :المصدر السابق ،ص135 ،الإدريسي :نفسه ،ص81، 82

[5] الإدريسي :المصدر السابق،ص82-84

[6]- ابن أبي زرع :الأنيس المطرب ،ص108

أثناء رحلاتهم.[1] وكان لاتخاذ المرابطين مدينة "غرناطة" قاعدة لهم ،أن قام طريق يربطها بالمرية إذ كانت هذه الأخيرة أقرب الموانئ إلى مدينة غرناطة[2]،يضاف إلى هذا أنها كانت تربطها ببلاد المغرب صلات بحرية وثيقة ،فكانت السفن تنتقل بين ثغور المرية ،وثغور المغرب:[3]

كما كانت مدينة قرطبة ،من المدن الداخلية المزدهرة في عصر المرابطين ولذا كان لها أكثر من طريق بري يربطها بأهم المدن الأندلسية الأخرى مثل طليطلة ،وبطليوس[4].وإلى جانب هذا ارتبطت قرطبة باشبيلية بثلاث طرق ،فالطريق الأول يطلق عليه اسم "الزنبجار" وتقدر مسافته بثلاث مراحل[5] وطريق ثاني يعرف بطريق "لورة" و تقدر مسافته بحوالي ثمانين ميلا[6] .أما الطريق الطريق الثالث ،فهو طريق الوادي[7]

ب- الطرق النهرية

و إلى جانب الطرق البرية كانت هناك طرق نهرية استخدمت في النقل بسبب توافر الأنهار في المغرب و الأندلس.ففي المغرب يذكر "الحميري"[8] أن لطنجة نهر كبير تدخله السفن ويصب في في البحر .ويضيف"الإدريسي" أن مدينة "سلا" لا ترسى بها المراكب،لأن مرساها مكشوف وإنما ترسى المراكب في الوادي، وتعبر على فمه بدليل،لأن فم الوادي فيه أحجار تتسبب في كسر المراكب، كما كانت به منعطفات لا يدخلها إلا من يعرفها.و هذا الوادي يدخله المد في اليوم مرتين، ويكون دخول المراكب في الوادي مع المد،وتخرج منه وقت الجزر[9].ويبدوا أن هذا النهر يستخدم لمسافات قصيرة.

وإلى جانب النهرين السابقين هناك نهر آخر يسمى"سفدد"يستمد مياهه من جبل "البصرة"،وبلد كتامة ،وبالتقاء المياه يتكون نهر كبير وقد استفاد أهل "البصرة" من هذا النهر

---

[1]- الإدريسي :المصدر السابق ،ص198-201

[2] - الإدريسي: صفة المغرب ،ص73

[3]- عبد العزيز سالم:تاريخ مدينة المرية الإسلامية ،ص88

[4]- الإدريسي:المصدر السابق ص213

[5]- الادريسي :نفسه،ص206

[6]- نفسه ،ص206-207

[7]- نفسه ،ص207،208

[8]- الروض المعطار ،ص396

[9]- الادريسي:المصدر السابق،ص73

لاستخدامه في النقل إذ كانوا يسيرون فيه بمراكبهم إلى البحر ،ومنه يتوجهون إلى أية جهة يريدون[1] كما يذكر "البكري"[2]أنهارا أخرى في المغرب الأقصى ،استخدمت في النقل النهري كوادي "مجسكة"الذي تسير فيه السفن المتوسطة الحجم القادمة من البحر و المتجهة إلى"تطوان" وتقدر المسافة التي تقطع فيه بحوالي عشرة أميال.و لم يقتصر استخدام النقل النهري على الأنهار السابقة فحسب بل شمل أنهارا أخرى مثل "لاو[3]"والخليج". [4]

أما البلاد الأندلسية فإن الغالب على أنهار شرق الأندلس عدم صلاحيتها للملاحة باستثناء نهر "شقر"[5] الذي كان يستخدم في نقل الأخشاب[6] أما أنهار غربي الأندلس ،فقد كانت أصلح للملاحة ،فالوادي الكبير مثلا كان يربط اشبيلية بالساحل وقرطبة[7].

وكانت المواصلات النهرية في قرطبة تحت رقابة المحتسب فهناك مشرف على الوادي يعرف باسم الأمين (أي أمين الوادي) ويساعده أعوان يقومون بتنفيذ أوامره ونواهيه .وكان الوادي الكبير هو المعبر الطبيعي من جنوب قرطبة إلى جهاتها الأخرى ،وكانت هناك مراسي كثيرة على طول الوادي للتنقل من الجنوب إلى الشمال وبالعكس ،ويشترط على أصحاب القوارب الذين يتولون نقل الركاب من ضفة لأخرى المحافظة على سلامة وأمن الناس من حوادث الغرق لذلك أوصى "ابن عبدون" بأنه.يجب أن يؤمر المعدون أن يخففوا الأشحان ...و يجب أن يكون في كل مرسى معديتان أو قاربان ليكون ذلك أرفق للناس وأخف للأشحان ،وأعجل للجواز،لاسيما عند العصوف[8] ويجب أن يحد للمعدين أن لا يجوزوا من عبيد البربر،ولا الخدم ولا من يعرف أنه أنه يتعدى على أموال الناس في أيام الغلات ،ومن ظفر به ،وفي يده شيء من فائدة الغلات ،فيؤخذ منه ،ويفرق على المساكين.[9] ومعنى هذا أن تلك المعديات كانت أشبه بأن،تكون ملكا

---

[1]- الإدريسي :صفة المغرب ،ص169

[2]- كتاب المغرب،ص107

[3]- يقع هذا النهر في أرض بني حميد من "غمارة"بالقرب من مدينة سبتة .انظر البكري :نفس المصدر ص108

[4]- يقع هذا النهر إلى الشرق من مدينة طنجة .البكري:نفس المصدر والصفحة

[5]- هدا النهر يحيط بجزيرة شقر ،وعرف باسم نهر" شقر" نسبة إلى اسم الجزيرة .انظر الحميري: الروض المعطار،ص349

[6]- الإدريسي :المصدر السابق ،ص195

[7]- نفسه ،ص196

[8]- ابن عبدون :رسالة في آداب الحسبة و المحتسب،ص29

[9]-نفسه ص56،،29

للدولة وكان من بين طاقم الإشراف على المعديات أعوان "أمين الوادي"الذي كان يعينه المحتسب،وكان مسئولا أمامه[1] وليس من المستبعد أن يكون لهؤلاء سجلات خاصة تسجل فيها أسماء بعض الأشخاص الخطرين المعروفين بسوء سلوكهم لمنعهم من العبور.

و يذكر "ابن عبدون"[2] في موضع آخر ما يؤكد ذلك بقوله:"يجب أن يؤمر المعدون في المراسي أن لايجوّزوا أحدا بفاحشة من خمر أو غيره ،و يدخل تحت وعيد إن فعل ذلك" .و عملت الدولة على حماية أراضي ضفتي الوادي من أن يشغلها أحد أو يستغلها في بناء شيء، ولعل الغرض من ذلك هو ضمان تحكّم الدولة في مكوس الواردات و الصادرات، و منع التهريب. وفي ذلك يقول"ابن عبدون":"يجب أن تحمى ضفة الوادي الذي هو مرسى المدينة للسفن ،أن يباع منها شئ، أو يبنى فيها بنيان،فإن ذلك الموضع عين البلد وموضع إخراج الفوائد مما يخرجه التجار ، ومأوى الغرباء ، وموضع إصلاح السفن ، فلا يكون فيها ملكا لأحد، إلا السلطان وحده ، ويجب للقاضي أن يحمى ذلك كل الحماية ، فإنه موضع مجتمع التجار ، والمسافرين وغيرهم ويجب لصاحب المواريث أن لا يبيع منه شبرا واحدا"[3] .كما استخدم نهر"يانة"[4] في بعض أجزائه، وربطت الأنهار الصغيرة بعض الموانى الداخلية بالساحل مثل "شلب" وقصرأبي دانس.[5]

وعلى العموم فإن أنهار البلاد الأندلسية ، لا تشكل عائقا للنقل البري لوجود جسور عليها [6]، وعلى عكس ذلك تماما بالنسبة للمغرب ، إذ يعبر أحيانا على الزقاق أو الزنبيل الذي لا يسع لأكثر من ثلاثة أشخاص.[7]

الأسواق الداخلية في المغرب و الأندلس

---

[1]- ابن عبدون :رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص57

[2]- نفس المصدر والصفحة

[3]- نفس المصدر ص30

[4]- يعرف هذا النهر بنهر "يانة" أو الغوور ، وعلى ضفته بنيت مدينة بطيلوس،يربط بين هذه الأخيرة وحصن مارتلة للمزيد. انظر: الإدريسي: صفة المغرب ص181

[5]- الإدريسي: نفس المصدرص179، 181

[6]- انظر أمثلة عن ذلك في : الإدريسي : نفس الصدر ص ص178، 182، 183

[7]- البكري: كتاب المغرب ص154 ، مجهول: الاستبصار ص185

العوامل المؤثرة في ازدهارها: شهدت الأسواق التجارية في كل من المغرب و الأندلس في فترة المرابطين حركة تجارية، ونشاط في البيع و الشراء ، وهذا راجع لعدة عوامل ساعدتها على هذا الازدهار. فأول هذه العوامل يرجع إلى الاستقرار السياسي الذي شهد ته البلاد إذ أصبحت السلطة السياسية في يد أمراء المرابطين، وحرص الأمراء على استتاب الأمن وإشاعة الهدوء[1]، وهذا ما سهل الاتصال التجاري بين المدن المختلفة.

كما كان لاتساع المنطقة الخاضعة لسلطة المغرب الأقصى مع وجود حكومة مركزية قوية ساهرة على حماية الطرق والتجار و توفير كل ما تحتاجه القوافل ، وهذا ما جعل المغرب الأقصى ممر آمنا للقوافل الخارجة من بلاد السودان ، والمتجهة نحو الأندلس و أوروبا ، وأدى هذا إلى تنشيط الحركة التجارية بين مدن المغرب الأقصى ، وغيره من مدن المغرب الأوسط ، وكذا مدن الأندلس .[2]وهذا ما حفز التجار الذين كانوا يخضعون في تلك المناطق لحكومة واحدة على التنقل بحرية تامة و ارتياد الأسواق الأمر الذي ساعد على تنشيط حركة البيع و الشراء وتبادل المنتجات.[3]سيما وأن دولة المرابطين ألغت المكوس التي كانت تفرضها حكومات زناتة على التجار في المغرب و دول الطوائف بالأندلس.[4] ومن ثم أصبح بإمكان التاجر أن يحمل يحمل سلعته من إقليم لآخر دون خشية مادام يؤدي عن أرباحه ما فرضه الشر ع من زكاة. فكانت تلك السياسة قد شجعت التجار على المغامرة ،و المخاطرة في ارتياد الأسواق[5]كما كان كان لوفرة الإنتاج الزراعي و الصناعي بالمغرب الأقصى و الأندلس أن حدث رخص في الأسعار ،مما أدى إلى تنشيط التجارة خاصة وأن هذه المنتجات كانت تباع في الأسواق [6].

---

[1]- ابن أبي دينار:المؤنس في أخبار افريقية و تونس دار المسيرة ،لبنان ط 3، 1993،ص 130.وانظر أيضا حسن علي حسن:الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس ص 266

[2]- عن اتساع الرقعة الجغرافية التي سيطر عليها المرابطون انظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص102. ابن القاضي: جذوة الاقتباس ق (2) ص460

[3]- حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ص 266

[4]- ابن أبي زرع: المصدر السابق ص 81.المقري: نفح الطيب مج (1) ص 438 ــ 439 وانظر أيضا: حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ص 402 ــ 403

[5]- انظر عن ذلك مثلا:الإدريسي:صفة المغرب ص66

[6]- عن وفرة الإنتاج الزراعي و الصناعي انظر نماذج عنها في: الإدريسي:المصدر نفسه ص ص 57،62 ، 178، 197، الحميري:الروض المعطار ص330، 538

ومما لا شك فيه أن التخريب و الدمار الذي عرفته افريقية على يد عرب "بني هلال" كانت له آثاره السيئة على افريقية[1]،وأدى هذا إلى ازدهار أسواق المغرب الأقصى ،لأن التجار صرفوا أنظارهم عن المرور عن الطرق المعتادة ،بعد أن وجدوا في المغرب الأقصى ممرا للقوافل الداخلة إلى السودان والخارجة منه.ومما زاد من تنشيط الحركة التجارية أن ولاة الأمر وجهوا اهتمامهم للتجارة ،فعملوا على تشجيع التجار على المجيء إلى بلادهم ،حيث وفروا لهم سبل الراحة ،و الإقامة بإنشاء الحمامات و الفنادق فيوسف بن تاشفين حين دخل مدينة "فاس" سنة 462هــ/1069م أمر ببناء الحمامات و الفنادق وبلغ عدد الحمامات بها عشرين حماما[2]،في حين بلغ عدد فنادق المرية التي شملها التعتيب فقط تسعمائة وسبعون فندق.دون احتساب غيرها.[3]مما سبق نخلص إلى نتيجة مفادها أن شيوع الاستقرار، وانصراف الناس إلى الهدوء و الإنتاج رفع من المستوى المادي لأفراد المجتمع، وارتفاع المستوى المادي للناس مكّنهم من الإقبال على الشراء،وبذلك نشطت الحركة التجارية في الأسواق.

أهـــــم الأســــــــواق

تحديد مواقعها وأهميتها وأهم السلع المعروضة بها : عرف المغرب و الأندلس ثلاث أنواع من الأسواق النوع الأول:هي الأسواق التي تصاحب الجيوش في غزواتها،و في هذه الحالة يقيم التجار أسواقهم قرب القواعد العسكرية[4] أما النوع الثاني:من الأسواق هي الأسواق الأسبوعية،و هي منتشرة في أنحاء مختلفة من المغرب ،وبيدوا أن البعض منها كان يغص بالتجار المتجولين .فذكر أن سوق أغمات وريكة يذبح فيه أكثر من مائة ثور وألف شاة وينفذ ذلك في اليوم نفسه[5].

أما النوع الثالث:من الأسواق، فهي أسواق المدن، وتنظيمها لا يختلف عن تنظيم أسواق المدن الإسلامية عامة. بحيث يختص كل جانب من السوق بنوع معين من السلع.ويبدوا أن حركة السلع داخل المغرب و الأندلس وخارجهما دعت إلى اتخاذ فنادق لكل سلعة يتعامل فيها

[1]- الإدريسي:صفة المغرب ص103، 110

[2]- ابن أبي زرع:الأنيس المطرب ص91.السلاوي :الاستقصاء ج2 ص29

[3]- الإدريسي :المصدر السابق ص198

[4]- ابن عذارى :البيان المغرب ج4 ص133، البيدق: أخبار المهدي ص53

[5]- البكري : كتاب المغرب ص153

المختصون مثل فندق الزيت و فندق السكر....الخ . وانفردت كل صناعة بناحية معينة من السوق كسوق الثياب ،وسوق القراقين ،و سوق الفاكهة ،وغيرها من الأسواق التي تضم عدة متاجر تتاجر في سلعة واحدة.[1]

وقد أولى المرابطون عناية خاصة بمدينة "مراكش" باعتبارها عاصمة الدولة ،حيث أصبحت مركزا من مراكز التجارة الداخلية و الخارجية .فتنوعت أسواقها التي كانت تغمرها الحاصلات الزراعية المختلفة لكونها قد جعلت من"نفيس جنانها ،وبلاد دكالة فدادها"[2]بالاضافة إلى أنها تقع على طريق القوافل التجارية الموصل بين مدن الشمال و الجنوب[3]، فنشطت أسواقها وتطورت المدينة في فترة وجيزة وقد وصف الادريسي[4]أسواقها بقوله: وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة."وتعددت الأسواق بالمدينة، فهناك أسواق خاصة ببيع الحاصلات الزراعية المختلفة مثل الخضر و الفواكه و الحبوب، وأسواق أخرى لببيع منتجات الألبان، ومنها ماكان مخصصا لبيع الماشية مثل الأبقار و الإبل والمنتجات الحيوانية.[5]

كما كانت هناك سوق للمنتجات الصناعية التي اشتهرت بها مراكش وأهمها صناعة الصابون،و المنسوجات و النحاس وعنها يقول "الإدريسي"[6]:"وكانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة،عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون،والصفر،والمغازل".وإلى جانب ذلك هناك سوق آخر لبيع الأطعمة المطهية ،والحلوى ،ويسمى هذا السوق باسم سوق الدخان .كما كانت للمدينة أسواق أخرى اختصت بتجارة دباغة الجلود وتصنيعها ،وبيع المنتوجات الجلدية،حتى أن أحد أبواب مراكش أطلق عليه اسم باب الدباغين .[7]

---

[1]- ابن القطان :نظم الجمان ص268.انظر أيضا عثمان الكعاك :الحضارة المغربية في حوض البحر المتوسط، لجنة البيان 1965 ص66

[2]- مجهول:الحلل الموشية ص15-16

[3]- ابن عذارى:البيان المغرب ج4 ص123

[4]- صفة المغرب ص68

[5]- الادريسي نفس المصدر ص68 ،القلقشندي: صبح الأعشى فى صناعة الانشا ج 5 ، طبع بالمطبعة الاميرية، القاهرة1915 ص175-176

[6]- الإدريسي:نفسه ص70

[7]- ابن المؤقت:السعادة الأبدية ج1 ص12

أما الأسواق التي تباع فيها الآلات و المواد الأولية اللازمة للصناعة فإنها تحتاج إلى مكان واسع ولها مكان يعرف بالقيسارية .وكانت هذه الأحياء الصناعية تقع بالقرب من أبواب مدينة "مراكش" نظرا لما قد ينتج من بعض هذه الصناعات من روائح كريهة أو ضوضاء تؤذي أهل المدينة.[1] لذلك كانت الدكاكين المخصصة بالتصنيع في هذه القيسارية .أكثر اتساعا من دكاكين البيع ،لأن العمل بها يتطلب مكانا واسعا لوضع الآلات ،والمواد اللازمة للصناعة.[2]

وقد أدى تعدد الأسواق وانتشارها إلى رخص الأسعار بها[3].كما وجد نوع من التكامل بين هذه هذه الأسواق في تبادل السلع بين المدن و القرى فمدينة مراكش كانت تعتمد على قرى وبعض المدن لسد حاجتها من المواد الغذائية و المواد الأولية اللازمة للصناعة[4].فكانت بعض المعادن مثل مثل الحديد و الفضة والذهب و النحاس ترد إليها من مدينة "فاس" ومدينة"ايجلى"،قاعدة بلاد السوس،وهي من المدن التابعة لمراكش.[5]

وعمت الأسواق معظم مدن المغرب الأقصى ،فقد أشار "ابن القطان" إلى وجود الأسواق بمدينة فاس ،حينما تحدث عن الحريق الذي شب في فاس سنة 533هـ/1138م قائلا "وفيها وقع الحريق في سوق مدينة فاس ،واحترق من رأس عقبة الخرازين إلى باب (بياض)واحترق سوق الثياب والقراقين،(بياض) وغير ذلك من الأسواق إلا البقالون"[6]وقد كانت مدينة فاس مركزا تجاريا هاما فوصفها "الإدريسي" المعاصر لفترة الدراسة بكونها "قطب ومدار المغرب الأقصى"[7] ويرجع ذلك أساسا إلى موقعها الممتاز في قلب البلاد ،مع توفر المحاصيل الزراعية و الصناعية المختلفة التي كانت تسد حاجة سكان المدينة.

وصور لنا"المراكشي"[8]ما بلغته مدينة فاس بقوله: "ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها ــ إلا ما كان من العطر الهندي ــ سوى مدينة فاس هذه لأنها لا

---

[1]- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار ص210

[2]- الحميري: الروض المعطار ص541

[3]- انظر عن ذلك مثلا :الإدريسي : صفة المغرب ص68،67

[4]- مجهول:المصدر السابق ص210.المراكشي:المعجب ص260

[5]-ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص26.البكري :كتاب المغرب ص161-162. الحميري المصدر السابق ص71

[6]- ابن القطان: نظم الجمان ص268

[7]-الإدريسي: المصدر السابق ص79

[8]- المعجب ص257

تحتاج إلى مدينة في شيء ،مما تدعوا إليه الضرورة،بل هي توسع البلاد مرافق وتملؤها خير"ومع اكتفاء سكان المدينة من السلع الأساسية المتوفرة بمدينتهم ،فإن الأسواق كانت تمتلئ بأنواع السلع التي تأتيها مع القوافل التجارية من مدن المغرب المختلفة و في هذا الخصوص يقول "الإدريسي"[1]: "ومدينة فاس هي حضرتها الكبرى،ومقصدها الأشهر وعليها تشد الركائب،وإليها تقصد القوافل ،ويجلب إلى حضرتها كل غريب من الثياب ،والبضائع و الأمتعة الحسنة ،وأهلها مياسير ،ولها من كل شيء حسن أكبر نصيب ووافر حظ".وقد اختصت المنطقة القريبة منها بصناعة البرانس المديونية التي لاينفذ منها المطر.[2] وبذلك صارت المدينة تعج بالتجار بالتجار الذين اتخذوا في أسواقها متاجر لصرف سلعهم وبضائعهم ،وعبر "الجيلالي" عن ذلك بقوله:"وانتقل إليها من جميع البلاد القاصية والدانية ،فليس من أهل بلد،ولا إقليم إلا ولهم بها متزل،ومتجر وصناعة،ومتصرف،واجتمع فيها ما ليس في مدينة من مدن الدنيا ،وأتتها التجارات،وأهل الصناعات من كل صقع"[3]

كما ساهمت أسواق "تلمسان" بنصيب وافر في التجارة الداخلية و الخارجية لكونها تقع على أهم طرق التجارة إذ تعد "قفل بلاد المغرب، وهي على رصيف للداخل و الخارج منه"[4]

وساعد هذا على ازدهار أسواقها خاصة ، و أنها كانت تتميز عن غيرها من المدن المغربية بصناعة الثياب الصوفية الرفيعة ، إلى جانب شهرتها بالصناعات الحرفية مثل ألجم الخيل و سروجها ، و كل ما يحتاج إليها الفارس [5]كما ساهمت في الحركة التجارية بما قدمته من إنتاجها إنتاجها الحيواني و الصناعي ، فصدرت الغنم و البقر و الخيل .[6] و نظرا لتوافر تلك السلع في أسواقها ، و نشاط حركة البيع و الشراء فيها زاد ثراء سكانها إذا تأتي في الترتيب الثالث بعد "أغمات" و"فاس"من حيث الثروة التي يمتلكها أهلها.[7] كما عرفت "سلا"بأسواقها النافقة،نظرا لرخص الطعام بها ،ولذا فإن مراكب أهل "اشبيلية" وسائر المدن الساحلية من الأندلس كانت

---

[1]- صفة المغرب ص79

[2]- ابن سعيد :كتاب المغرب ص141

[3]- الجيلالي:رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس ،مخ، دار الكتب المصرية رقم 8661ح،ورقة 15

[4]- الإدريسي المصدر السابق ص 83 الحميري: الروض المعطار ص 135

[5]- ابن سعيد: المصدر السابق ص 140

[6]- البكري : المصدر السابق ص 77

[7]- الادريسي: المصدر السابق ص80

ترد إليها لشراء صنوف الأطعمة،من حنطة وشعير وفول وحمص،فضلا عن الغنم والبقر وعليه فقد كانت أسواقها مقصدا للكثير من التجار.[1]

أما مدينة"أصيلا"فقد اشتهرت بسوقها الجامعة التي كانت تعقد ثلاث مرات في السنة،وكان زمن انعقاد تلك السوق في شهر رمضان والعاشر من ذي الحجة ،وفي عاشوراء ونظرا لكون زمان انعقادها معلوما فإن التجار الأندلسيين وتجار باقي المدن المغربية كانوا يتوافدون إليها بضروب من السلع ، و ينصبون خيامهم فيها إلى انقضاء وقتها .[2]

كما اشتهرت مدينة سبتة بسوق المرجان ، الذي لا يضاهيه أي صنف من أصناف المرجان الذي يستخرج من باقي الأماكن ، وكانت سوق "سبتة" تختص بتفصيل وحك المرجان ، وصنعه خرزا ، ومن هذه السوق يخرج به التجار إلى كافة أنحاء بلاد المغرب.[3] وكانت للأسواق للأسواق في المدن المغربية أياما معلومة للسكان ،يتوجهون إليها بسلعهم لشراء ما يلزمهم من الحاجيات،فبعض الأسواق كانت تقام يوم الجمعة من كل أسبوع،كالسوق المعقودة على "وادي درعة" في مواضع متعددة وقيل أنه كان يعقد بها سوقان في يوم واحد،نظرا لطول الإقليم،سيما وأن درعة تتميز بوفرة الحناء،ولذا كانت أكثر السلع رواجا عن غيرها من السلع الأخرى.[4] كما كما كانت كلا من سوق قرية "نصر بن جرو"القريبة من مدينة سبتة وسوق مدينة"اصيلا" يعقدان يوم الجمعة أيضا.[5]

وبرزت مدينة "أغمات" كمركز من مراكز التجارة الداخلية في عصر المرابطين حيث كان تجارها يعدون القوافل المتجهة إلى السودان حاملة لقناطير الأموال من النحاس الأحمر والأكسية،وثياب الصوف و العمائم والمآزر،وأصناف النظم من الزجاج و الأصداف،و الأحجار الكريمة، وأنواع التوابل و العطر وآلات الحديد المصنوع. [6]و كان التاجر منهم يملك مابين السبعين والمائة جمل، ويشير الإدريسي إلى مدى ثراء أهل أغمات بقوله:"و لم يكن في دولة

---

[1]- الادريسي: صفة المغرب ص73

[2]- البكري: كتاب المغرب ص 112

[3]- الادريسي: المصدر السابق ص 80

[4]-البكري: المصدر السابق ص152، مجهول :الاستبصار 206-207

[5] -البكري:نفسه ص108، 110

[6]-الادريسي: المصدر السابق ص66. الحميري:الروض المعطار ص46

الملثم أكثر منهم أموالا،ولا أوسع منهم أحوالا ،وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم،وذلك أن رجلا منهم إذا ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه وأربعة آلاف يصرفها في تجارته،أقام على يمين بابه وعن يساره عرصتين من الأرض إلى أعلى السقف ...فإذا مرّ الخاطر بداره،ونظر إلى تلك العرص ،مع الأبواب قائمة عدّها،فيعلم من عددها كم مبلغ صاحب الدار"[1] وقد كانت"أغمات"مركزا لتجمع التجار المتجهين بتجارتهم إلى بلاد السودان،ويتضح لنا ذلك من قول الحميري:"وأغمات مدينتان إحداهما: أغمات وريكة، والأخرى أغمات هيلانة... وبأغمات وريكة يسكن الأعيان وينزل التجار على القديم،لأنها دار التجهز للصحراء"[2]وبعبارة أخرى فإن مدينة أغمات كانت مركزا لتسويق منتجات المغرب وتصديرها إلى السودان،ولذلك فإن حركة البيع و الشراء،تنشط في سوق "أغمات وريكة"حيث يصل ما يذبح يوم انعقاد السوق أكثر من مائة ثور،وألف شاه، وينفذ ذلك في اليوم نفسه.[3]
كما اشتهرت أسواق "نفيس" بكثرة ثمارها وفواكهها ولحومها مما لا يوجد في غيرها،وعليه فقد كانت أسواقها نافقة جامعة .[4]

وإلى جانب الأسواق السالفة الذكر ظهرت أسواق ذات شهرة طبقت الآفاق، فقصدها التجار من مختلف أصقاع الأرض،وحسبنا في ذلك ما بلغته مدينة"سجلماسة" التي أصبحت مركزا من أهم مراكز التجارة عند أطراف الصحراء،فقصدها التجار من البصرة و الكوفة، وكانت سلعها تحمل إلى المشرق عن طريق موانئ المغرب أو تحمل عن الطريق البري المؤدي إلى إفريقية.ويصفها ابن حوقل بقوله :"وسجلماسة مدينة حسنة الموضع،جليلة الأهل،فاخرة العمل...وأهلها قوم سراة مياسير ... وأبنيتها كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عاليه"[5] ويستطرد ابن حوقل في وصفها مبرزا دورها التجاري،فشبه القيروان بسجلماسة في صحة الهواء،ومجاورة البيداء،والتجارة الغير منقطعة منها إلى بلاد السودان،وسائر البلدان و أرباحها المتوافرة،والرفاق

1- الادريسي:صفة المغرب ص66-67
2-الحميري: الروض المعطار ص46
3-البكري :كتاب المغرب ص153
4- الإدريسي: المصدر السابق ص63 . الحميري:المصدر السابق ص578
5-ابن حوقل :صورة الأرض ص90 .

المتقاطرة عليها[1] ،ونظرا لكونها مركزا لا تنقطع عنها التجارة إلى السودان ظهر ثراء فاحش على أهاليها ،فبنوا الدور والقصور و حافظت سجلماسة على مكانتها التجارية لعدة قرون سيما وأن الطريق الذي كانت تسلكه القوافل التجارية المتجهة من مصر إلى غانه قد أهمله التجار بسبب العواصف الرملية وغارات أهل البدو عليهم ،فكانت سجلماسة مقصدا لهم للدخول إلى بلاد السودان ، وبذلك أصبحت ملتقى لمختلف القوافل التجارية على أساس أنها كانت آخر محطة لدخولهم بلاد السودان.[2]

كما برزت مدينة "أودغست" في الطرف الجنوبي من الصحراء الكبرى كسوق تجارية عظيمة نافست "سجلماسة" في هذا المضمار ،حيث ظلت ردحا من الزمان مركزا تجاريا مزدهرا ففي أسواقها كان يتم تبادل منتجات المغرب بالعبيد والذهب الذي كان يأتيها من الأطراف الجنوبية،ومن شواطئ المحيط الأطلسي،ومما زاد في أهميتها أنها كانت ترتبط ببلاد المغرب في الشمال بعدد من الطرق أشهرها الطريق المسماة"طريق التمر"[3] وقد وصفها "الحميري"[4]بقوله: "وهي مدينة عظيمة آهلة...وأهلها أخلاط من جميع الأمصار قد استوطنوها لكثرة خيرها ونفاق أسواقها وتجارتها "،وتحدث عن أهميتها كمركز من المراكز التجارية فيقول:"وهم أرباب نعم جزيلة ،وأموال جليلة ولهم أسواق نافقة حافلة ،عامرة الدهر كله،لا يكاد يسمع الإنسان فيها ضوضاء جليسه ،لكثرة غوغاء الناس،وتجارتهم إنما هي التبر"[5].

ومما يؤكد ثراء أهل المدينة ما ذكره "ابن حوقل"[6] إذ قال:"ولقد رأيت بأودغست صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست،وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار"فهي بذلك تعد منطقة جذب للتجار نظرا لكثرة خيراتها،ونفاق أسواقها وتجارتها،فمنها كانت تجلب الدرق اللمطية الجيدة،و الذهب البالغ النقاء المصنوع على شكل خيوط

---

[1]- ابن حوقل :صورة الأرض ص 96

[2]- نفس المصدر ص65. الادريسي:صفة المغرب ص133

[3]- ابن سعيد :كتاب الجغرافيا ص235

[4]- الروض المعطار ص63-64

[5]- نفس المصدر ص63- 64

[6]- صورة الأرض،ص96، 56

مفتولة[1].وتميزت أودغست بشهرة فائقة في عهد مملكة غانة،وأيام دولة المرابطين بسبب انتعاش الطريق التجاري الذي يمر بها ثم اضمحلت أهميتها فيما بعد.

كما كان لسوق مدينة"داي" حظ في التجارة الداخلية إذ كانت تتوافد إليه قوافل التجار من فاس والبصرة وسجلماسة [2].أما مدينة"مكناسة"، فقد امتلأت بالأسواق العامرة و التجارات فازدهرت تجارتها بحيث أصبحت محطة للتجار وقد أشار الإدريسي[3] إلى ذلك بقوله:"وهي مدينة عامرة،لها أسواق عامرة وحمامات،وديار حسنة".

أما الأندلس فقد انتشرت الأسواق بمختلف مدنه ،وهي لا تختلف عن الأسواق المعروفة في معظم المدن الإسلامية،وأمدّتنا كتب الحسبة بمعلومات في غاية الأهمية عن تنظيمها و السلع المعروضة بها حيث كان لكل نوع من أنواع التجارات أو حرفة من الحرف شارعا أو سوقا باسمه.[4]فخصصت قيساريات للمنسوجات الحريرية و الكتانية و القطنية وغيرها من أنواع المنسوجات.كما كان لصانعي الأحذية شارع باسمهم يسمى سكة الإسكافيين،وهم صانعوا الخفاف.[5]ويوجد بالسوق مكان خاص لبيع الفواكه والخضروات المختلفة الأصناف التي ترد من من القرى القريبة لهذه المدن،وبجوارها حوانيت بيع اللحوم المذبوحة من بقر وغنم وماعز،حيث يشترط أن يباع كل نوع في حانوت على حده ،حتى لا يحدث غش،ويخلط الجزار لهم لحم الضان بالماعز[6].كما لا يخلوا السوق من مكان لبيع الطيور والأرانب المذبوحة ،ويشترط أن تكون تلك الطيور منزوعة الريش ،والأرانب وغيرها مسلوخة ،وبجوارهم باعة الطيور الحية و غيرها ،ويجلس بجوارهم أيضا باعة البيض ،وبجانب كل بائع منهم إناء مملوء بالماء ليختبر المشترى البيض.[7]

---

[1]- الحميري:الروض المعطار ص64

[2]- البكري:كتاب المغرب ص153

[3]- صفة المغرب: ص77

[4]- ابن عبدون:رسالة في آداب الحسبة والمحتسب ص43

[5]- ابن عبد الرؤوف:آداب الحسبة والمحتسب ص 94-95،96. وانظر ايضا محمد عبد الوهاب خلاف:قرطبة الإسلامية ص129-130

[6]-السقطي: آداب الحسبة ص32.ابن عبدون :المصدر السابق ص44

[7]- ابن عبدون:نفس المصدر ص43

وليس بعيد عنهم نجد باعة الزيت والزبد والسمن والعسل.[1]كما لا يخلوا سوق من الأسواق من حوانيت بيع الأطعمة المطهية.[2]بينما ينتشر هنا وهناك باعة المجبنات ،والإسفنج الساخنة و المركاس(السجق) والهريسة التي ولع الأندلسيون بأكلها،[3]ولا يخلوا السوق من مكان لمدّعي التطبيب الذين يقومون بفصد الدم أو خلع الأسنان ،أو كتابة وصفة لمريض يثق في علاجهم.[4] كما يتواجد بالأسواق المشعوذون الذين يدّعون معرفة الغيب والكشف عن المستقبل،وعمل الأحرزة للحفظ من الحسد،أو لتقريب حبيب هاجر أو شفاء مريض إلى غير ذلك.[5]

وكانت الأسواق تعج بضجيج الناس ونداء الدلالين،كما تنتشر هنا وهناك حلقات يلتف الناس حولها لمشاهدة قصاص أو شاعر شعبيا يعرض مهارته في إلقاء الشعر والقصص ،أو يقوم أحد الحواة ببعض ألعابه السحرية التي تأخذ بعقول المشاهدين.[6] وفي أثناء انشغال الناس يعمل اللصوص عملهم .وفي وسط الزحام و الضوضاء ينتشر المتسولين الذين يستعملون كل الطرق لاستدرار الرحمة من السذج بادعاء الأمراض من صرع ،أو عاهة يشوهون بها أجسادهم و أطرافهم[7] كما يندس في الزحام السقاءون الذين يبيعون المياه ،وبائعو البخور الممسكين بمباخرهم بمباخرهم التي ينبعث منها الدخان[8].

كما خصصت أسواقا خاصة بالحبوب تسمى "الرحاب" تباع فيها جميع الحبوب من قمح وشعير وذرة وأنواع البقول المختلفة،أما الدقيق فكان له هو الآخر سوق يعرف باسم "المدي"[9]وخصصت للدواب سوقا خاصة بها تباع بها الحمير و البغال الأندلسية المعروفة و الخيل

---

[1]- ابن عبد الرؤوف: في آداب الحسبة والمحتسب ص97-98

[2]-السقطي: ،: آداب الحسبة ص 35 ، 36

[3]-ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص45

[4]- ابن عبدون: :نفسه ص46، 47

[5]-الجرسيقي:رسالة في آداب الحسبة ص132،وعصمت د ند ش:الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ص199

[6]- ابن عبد الر ؤ وف: المصدر السابق ص108

[7]- ابن عبد الرؤوف:نقس المصدر : ص108-109

[8]- ابن عبدون: المصدر السابق ص51

[9]- نفس المصدر ص41.عبد العزيز الاهواني الفاظ مغربية ج 2 ص 311 .عصمت د ند ش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ص200

الخيل وكان ثمن البغل يصل إلى المائة والمائتي دينار فأكثر[1] و كان لهذا السوق أمين مختص في ذلك و مسئول عن السوق يرجع إليه عند الاختلاف[2].

وكانت للماشية أسواق خاصة بها يذهب إليها القصابون لشراء ما يلزمهم وكانوا في غالب الأحيان يتجولون في الريف لشراء ما يحتاجون، لأنها تكون في الريف أرخص عما هي في المدينة.[3] وتزداد الأسواق ازدحاما خاصة في الأيام التي يقترب فيها عيد الأضحى،فتمتلئ بالكباش السمينة التي تساق من كل مكان ،ويقلب المشترون الخرفان،ويدفعون ثمن ما اعتزموا شراءه، وينادوا على الحمالين،فيرفع الواحد منهم الخروف على عنقه،ويمضي به إلى بيت المشتري الذي لا يكف عن رفعه صوته على الحمال ليأخذ حذره[4].

وإلى جانب الأسواق السالفة الذكر هناك سوق خاصة للجواري و العبيد يعرف باسم "المعرض"يجلب إليه الرقيق من جميع أنحاء المعمورة،فنجد فيه الهندية و الرومية ،و البربرية ، والحجازية ،والعراقية،و الزنجية و الصقلبية.تباع فيه الجواري وتباع فيه جواري المتعة أو الإنجاب أو الخدمة،وتختلف أثمانها بحسب ما تتمتع به كل واحدة من جمال ،ومواهب،وما تجيده من فنون الغناء،والرقص،والموسيقى ،والشعر...الخ. [5]

كما كان للصيارفة سوقا خاصا بهم ،وغالبا ما كان الصيارفة من أهل الذمة خاصة من اليهود ويعج هذا السوق بالأجانب لصرف العملة والتجارة و عقد الصفقات[6]ويمنع الناس من الدخول إلى جميع هذه الأسواق على ظهور دوابهم إذكان لها مكان خاص خارج السوق لتقف فيه،وهناك من يتكفل بتلك الدواب،حتى ينتهي أصحابها من قضاء حاجاتهم[7]

[1]- ابن حوقل :صورة الأرض ص110

[2]- ابن عبدون : رسالة في آداب الحسبة والمحتسب ص53

[3]- عصمت د ند ش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين ص200

[4]- ابن قزمان :ديوان ابن قزمان زجل رقم 82

[5]-السقطي: آداب الحسبة ص47، 48. عبد العزيز الاهواني: الفاظ مغربية ج 2 ص316. وانظر أيضا:عصمت دندش، المرجع السابق ص201

[6]-ابن عبدون: المصدر السابق ص58

[7]- نفس المصدر ص55، 59

نظـــــم الأســـــواق

الحسبة و الرقابة على الأسواق

كان الهدف الرئيسي لرقابة الحكومة للأسواق هو تحصيل المكوس،وعليه فقد كانت الدولة المرابطية تشرف على الأسواق الداخلية في كل من المغرب و الأندلس إذ يعد المحتسب هو الموظف المسئول عن السوق وكان له مركزه المرموق بين الموظفين المدنيين،ويطلق على صاحب هذه الخطة في كل من المغرب و الأندلس اسم "صاحب السوق"أو صاحب"الحسبة"[1]

ويوضح "ابن سهل"[2] في "الأحكام الكبرى"سبب تسميته بقوله:"إن صاحب السوق كان يعرف بصاحب الحسبة،لأن أكثر نظره إنما كان فيما يجري في الأسواق من غش وخديعة ودين وتفقد مكيال وميزان وشبهه". ويعد ديوان الحسبة من أهم دواوين الدولة،وقد بين الجرسيقي[3] أهمية هذا الديوان في قوله :"إن ديوان الحسبة أعظم الدواوين،إذ يحتاج إلى كثير من القوانين ،وليس بعد خطة القضاء أشرف من خطة الحسبة".وأورد"السقطي"[4]"الصفات الواجب توفرها في المحتسب،وما يجب أن يتحلى به فمن الشروط الواجب توفرها فيه أن يكون فقيها عارفا بأحكام الشريعة ليعلم ما يأمر به و ما ينهي عنه،وأن يكون رجلا عفيفا،ورعا،عالما،غنيا ،نبيلا عارفا بالأمور لا يقبل الرشوة،لذلك فإنه يشترط فيه أن يكون غنيا حتى لا يأكل أموال الناس بالباطل و المهونة،لأنه لا يهاب إلا من كان له مال وحسب"[5]وينبغي أن يكون المحتسب عارفا بأصناف المعايش وحيل التجار حتى يستطيع بسهولة معرفة الغش ،والتدليس الذي يحدث أثناء عمليات البيع.ومن واجبات المحتسب أن يعمل بما يعلم ،وأن يكون قوله مطابقا لفعله وينبغي عليه أن يكون مواظبا على سنة رسول الله (ص) ،مع قيامه بالفرائض و الواجبات التي تزيد من احترامه،وأن يكون ليّن القول ذا أخلاق حميدة حتى يسهل عليه استمالة القلوب عندما يأمر

---

[1]-المقري:نفح الطيب مج 1 ص218

[2]- ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام ،تحقيق د يحي مراد ، دار الحديث ،القاهرة ط(1) 2007، ص28

[3]- رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص 119

[4]-آداب الحسبة ص5-9

[5]-السقطي نفس المصدر ص5-6 .عبد الرحمن بن نصر الشيزري:كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة،تحقيق ،الباز العريني دار الثقافة طبعة 2 بيروت 1981 ص6،ابن عبدون:المصدر السابق ص20

الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر.[1] وكانت وظيفة المحتسب في الأقطار الإسلامية ذات طابع ديني لها علاقة بالواجب الذي يفرض على الطوائف الإسلامية، من أمر بالمعروف و النهي عن المنكر،و يدعوا إلى قمع الظلم و الجور والسعي إلى العدل.[2]ويرى "ابن عبدون"[3] أن تعيين المحتسب وعزله من اختصاص القاضي.وذلك بعد موافقة ولي الأمر حتى يكون للقاضي الحجة عليه إن أراد عزله أو إبقاءه.

أما "يحيى بن عمر"[4] فيرى أن الوالي هو الذي يعين المشرف على السوق و في حالة غياب القاضي يحكم مكانه شريطة أن لا يتجاوز ذلك ما يوافق خطته.و للمحتسب مطلق الحرية في اتخاذ أعوان يساعدونه في عمله[5]كأن يكون له عيونا في الأسواق ليعرف أخبار السوق[6]و لم يكن يكن إشراف المحتسب مقصورا على الصناع والتجار فحسب.بل يمتد إشرافه على أصحاب المهن الأخرى كالملاحين ، و الحمالين وإلى كل ما يمس الآداب العامة في المدينة[7]

و من مهام المحتسب النظر في الأسواق ، كترتيب الصناع في الأسواق الكبيرة و المتنوعة وفي ذلك يقول ابن عبدون:"يجب على المحتسب أن يرتب الصناع و يجعل كل شكل مع شكله في مواضع معلومة"[8] ، كما يتولى مراقبة الباعة و التجار في الأسواق فمن عرف غشه و تلاعبه في أمور البيع أخرجه من السوق.[9]

كما يمنع الباعة من الجلوس بالسلع في الطرق الضيقة و يعمل على منع أصحاب الدكاكين من إخراج سلعهم بما يزيد عن حد أركان السقف لأن ذلك يؤذي المارة .[10] و ينبغي على المحتسب

---

[1]-عبد الرحمن الفاسي:خطة الحسبةفي النظر و التطبيق و التدوين ،دار الثقافة الدار البيضاء ط1، 1984 ص46 -47
ابن خلدون: المقدمة ص237

[2]- ابن عبدون:رسالة في آداب الحسبة والمحتسب ص3

[3]- نفس المصدر ص20

[4] – أحكام السوق، نص منه، استخرجه د.محمود علي مكي،وعلق عليه في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد مج(4) 1956 ص103

[5] -ابن خلدون: المصدر السابق ص237

[6] -ابن عبد الرؤوف:آداب الحسبةوالمحتسب ص16

[7] -ابن خلدون: المصدر السابق ص237

[8] -ابن عبدون: المصدر السابق ص43

[9]-نفس المصدر ص47

[10] -الشيزري:نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص11

أن يمنع أحمال الحطب و" أعدال"[1] التبن و روايا الماء[2]، وشرائج[3] السرجين[4] ،و الرماد ، وما وما شابه ذلك من الدخول إلى الأسواق ، لما يلحق من جراء ذلك من ضرر بلباس الناس. [5]

كما يأمر المحتسب أهل السوق بكنسها و تنظيفها من بقايا سلعهم ، و من الطين المتجمع و غير ذلك ، لكي لا يلحق أذى بالناس[6] . و يتولى المحتسب تنظيم الحرفيين من التجار في طوائف ، وعلى رأس كل منهم عريف أو أمين له السلطة عليهم ، و يعتبر هذا الأمين مسؤولا عن كل ما يحدث مباشرة في جماعته ، و ذلك طبقا للقواعد التجارية الموضوعة و الأعراف المستقرة التي يلم بها من خلال مراقبته لصنعته ، ولكي يتسنى له ذلك لابد أن يكون خبيرا بالجيد والرديء من حرفته[7]. و للحفاظ على صحة المستهلك سيما في المواد الغذائية ، فإن المحتسب يتولى مراقبة الطحن ، و صناعة الخبز ، فكان لابد من غربلة الحبوب قبل بيعها ، و التأكد من نو ع الدقيق ، حتى لايخلط الجيد بالرديء ، كما يجب التأكد من نظافة الطحانين وأوانيهم ، و سلامة ما يطحنون . [8]

ويتولى المحتسب مراقبة الخبز من بداية صنعه ، بحيث يتأكد من نظافة أواني العجن ، وجرد الألواح و مسحها كما يأمر صاحب المخبز أن يطبع اسمه على الخبز الذي يصنعه و أن يكون الخبز صحيحا على وزن معلوم و سعر معلوم[9]. وكانت عقوبة من يتلاعب بأوزان وأسعار وأصناف الخبز ، التصدق بالخبز ، وإن كانت كمية كبيرة يكسر ويترك للبائع [10] . أما صاحب المخبز الذي يخلط القمح الرديء بالطيّب ، فإنه مسؤول عن ذلك أولا . فإن عاود الكرة من

---

[1] -الأعدال جمع عدل و هو محمل بعبر و يقدر بستين صاعا و يسمى العدل باسم الوسق، انظر الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص13 هامش 2

[2] -الروايا جمع راوية و هي وعاء مصنوع من جلد الثور يسع أربعة قرب انظر الشيزري: نفس المصدر والصفحة

[3] -شريجة و هي القفص من عسف النخل نفس المصدر و الصفحة

[4] -لفظ فارسي أصله (سركين) ومعناه الدمن أو الزجل انظر الشيزري :نفس المصدر و الصفحة

[5] -الشيزري: نفس المصدر ص 13

[6] -يحيى بن عمر: أحكام السوق ص126-127

[7] -المجيلدي: كتاب التسيير في أحكام التسعيرتحقيق موسى لقبال الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط2 الجزائر 1981 ص56

[8]- السقطي :آداب الحسبة ص31

[9]- -السقطي:نفس المصدر ص31 . ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبةوالمحتسب ص48

[10]- ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة و المحتسب ص74

جديد ، أدب وأخرج من السوق . كما يأمر باعة الخبز بتغطيته ، والبعد عن الأماكن القذرة ، مع مراعاة نظافة ساحاتهم ، كما يمنع المحتسب بائعي الحوت أو الجزارين، ولا من يستقذر حرفته من بيع الخبز ،وذلك حتى لا يتعرض الخبز للتلوث[1].

أما باعة اللحم ،فلا يسمح لهم الجمع بين نوعين من اللحم في دكان واحد لكي لا يلتبس على الجاهل . ولذا يجب أن يباع كل نوع من اللحم في حانوت مختص ويمنع الجزار من خلط الأنواع بعضها ببعض ،أو خلط السمين باللحم المهزول [2].كما يتأكد من أن الذبيحة طاهرة من من العيوب .[3]ويتولى المحتسب أيضا مراقبة باعة الأطعمة المطهوة للتأكد من أواني الطبخ ، وعدم وعدم خلط الأطعمة القديمة بالطازجة[4]

وكانت للأسواق آدابها ، ومع ذلك فإن الأسواق لم تخل من المنكرات بسبب الزحام واختلاط الرجال والنساء في مواقف البيع [5]. وأصحاب الدواب الذين يحمّلون دوابهم بأحمال تنوء بها ،و لا يتورعون عن ضرب الحيوانات وأذيتها[6]. ويحرص المحتسب على منع الجزارين من المشي باللحم في السوق ، إلا أن تقطع رؤوس الضأن حتى لا تضر بثياب الناس ، وتلوّثها بالدم عند الازدحام.[7]ويمنع طرح القاذورات في الأسواق أو إيقاف الدواب بأحمال الخشب و الحطب واجتيازها السوق بالشوك، واتخاد مرابطها على الطريق فتضيّقه بحيث يتعذر مرور المارة ،و لربما أدركهم شيء من تلوث ثيابهم من أرواثها وأبوالها.[8]

هذا من الناحية النظرية ،أما من الناحية التطبيقية،فعلى الرغم من المراقبة الشديدة ،إلا أن الأسواق لا تخلوا من الغش و التدليس على الناس ووقوع الكثير منهم ضحايا لعمليات الغش.وقد وضّحت كتب الحسبة عمليات الغش و التدليس و التي لازالت موجودة في أيامنا هذه،فهناك ذووي النفوس الضعيفة الذين يغشون اللحم،ويخلطون الأطعمة الرديئة بالجيدة،أو

---

[1]- ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة و المحتسب ص 74- 75

[2] - الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص 28

[3]- السقطي: آداب الحسبة ص 32 . ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة والمحتسب ص44

[4] - السقطي: نفسه ص 35

[5] - الطرطوشي : كتا ب الحوادث والبدع ،تحقيق محمد الطالبي ، تونس 1959 ص41

[6] - المجيلدى: كتاب التسيير في أحكام التسعير ص 110

[7] - ابن عبدون : المصدر السابق ص 47 ، 57 ، الشيزرى المصدر السابق ص82

[8]–ابن عبدون:المصدر السابق ص38، 55.ابن عبد الرؤوف:المصدر السابق ص106

الأسماك البائتة بالطرية ،أو غش الحليب بالماء و الزبد والزيت و السمن وغيرها .مما جعل الدولة تشدد في عقوبة هؤلاء.[1]

وكانت أشد العقوبة تتزل على الصيارفة أو مزوري العملة، ففي حالة ظهور دراهم مزورة في أحد الأسواق يبحث عن مصدرها، وعمّن أحدثها،ومتى ظفر به عاقبه المحتسب أشد العقوبة، فيطاف به في الأسواق،ثم يسجن بعد ذلك،ويتم تعيين مشرف جديد على السوق من أهل الثقة[2].

كما كثرت حيل تجار الرقيق من أجل رواج تجارتهم،بالرغم من خضوع تلك التجارة للرقابة الشديدة لما تدره على الدولة من أرباح ،إذ كانوا يبيعون صنفا بدل آخر،أو التخلص من العيوب الخلقية في الرقيق من النساء بتغيير اللون أو تغطية النمش،وإخفائه ببعض الدهون،أو تغيير لون الشعر،أو إخفاء الروائح الكريهة عن طريق الدهن بالبنفسج والطيب[3].أو يبيعون العبد،وفيه عيب عيب خفي أو مرض لا يفطن إليه المشتري ،أو يكون العبد مسروقا ،أو يكون له أهل يمكن هروبه إليهم أو يكون حرا قد استعبد . لذلك كان تشدّد الرقابة على تلك الأسواق، وكان على النخاسين أن يقسموا ألاّ يكتموا عيبا دقيقا أو كبيرا.[4]

أما سواق الدواب فيحدث فيها من الغش و التدليس على المشتري الشيء الكثير، لذلك كان المحتسب يلزم النخاسين بالقسم ألاّ يبيعوا دابة لغير معلوم العين. ومن حيّلهم أنهم إذا أرادوا الحط من قيمة فرس أراد شخص أن يبيعه،أخذ النخاس هرّا وجعله في مخلاة ويغلّقها على الفرس،فيخدش الهر الفرس ويزعجه،فإذا رأى الفرس المخلاة ظن أن الهرّ فيها وامتنع عن الأكل فيها،فيضطر صاحبه بيعه بعد أن ينقص من ثمنه[5]

مما سبق نصل إلى نتيجة مفادها أن الدولة المرابطية بذلت جهدا كبيرا في تطبيق الحسبة المذهبية في المغرب و الأندلس ، إلا أن كثرة حيل التجار حال دون تطبيقها ، كما أوردتها الشريعة الإسلامية ، ونصّت عليها كتب الحسبة .

---

[1]-السقطي:آداب الحسبة ص34-40

[2]-الونشريسي:المعيار ج6 ص407

[3]-السقطي:المصدر السابق ص48-55

[4]- نفسه ص58. الشيزري:كتاب نهاية الرتبة ص84،85

[5] – السقطي المصدر السابق ص66 ،وراجع عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين و مستهل الموحدين ص205

التسعير والاحتكار

جرت العادة في أسواق المغرب و الأندلس أن توضع تسعيرة للمنتجات الاستهلاكية رعاية للمصلحة العامة[1] وكثيرا ما تتدخل الدولة لتحديد أسعار المنتجات الغذائية ،بحيث لا يكون غبن على التاجر أو إرهاق للمستهلك وإن كان "ابن عبد الرؤوف" يرى عدم تسعير الحنطة و القمح و الشعير لأنها تعتبر الغذاء الرئيسي لعامة الناس ،وحتى لا يخضع لاحتكار التجار وتنافسهم الأمر الذي يؤدي إلى الزيادة في سعره فلا يستطيع المستهلك شراءه،إنما يشتريه من جالبيه،ولا يترك التجار يشترونه منهم،ليبيعونه على أيديهم.[2]

وكان صاحب السوق يأمر أهل الريف إذا جاؤوا بالطعام أن يبيعوه في السوق ،ولا ينزلوه في الدور و الفنادق ،حتى لا يشتري الكمية تاجر واحد أو عدد من التجار ،فيتحكموا بعد ذلك في السعر ويرتفع الثمن[3]إلا أن جالبي الطعام كانوا يفضلون بيع محاصيلهم ومنتجاتهم جملة واحدة للتجار ليتخّلصوا مما معهم،ويحصلوا على ما يريدون من ثمن ،ويعودون سريعا إلى قراهم. [4]

أما عملية التسعير فتتم بالطرق الودية بين المحتسب الذي يمثل جانب الدولة،وبين وجوه التجار من كل سوق وفي هذا يقول "ابن عبد الرؤوف": فإن أراد الإمام العدل أن يسعّر شيئا من ذلك ،فيجمع وجوه أهل سوق ذلك الشيء،ويحضر غيرهم ،استظهارا على صدقهم،فيسألهم كيف يشترون وكيف يبيعون،فإن رأى شطاطا في البيع،نازلهم على ما فيه لهم و للعامة صلاح وسداد ، حتى يرتضوا به،ويتعاهد ذلك منهم بعد ذلك في كل حين،فمن وجد منهم قد زاد في الثمن ،أمره أن يبيع كبيع أصحابه ،وإلا أخرجه من السوق وأدبه .وإن أراد واحد منهم أو اثنان أن يبيعوا بأرخص من ذلك ،لم يمنع من بيعه،فإن كثر هؤلاء قيل لمن بقي من أهل السوق:"إما أن تبيعوا كبيع هؤلاء وإلا فارتفعوا ! ولا يحل التسعير ألا عن تراض."[5]

---

[1]-المجيلدي:كتاب التيسير في أحكام التسعير، ص49

[2]-ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة والمحتسب ص72.المجيلدي:المصدرالسابق ص51

[3]- المجيلدي: المصدر السابق ص53.

[4]-نفسه ص 54

[5] – ابن عبد الرؤوف :آداب الحسبة والمحتسب ص 72-73 .المجيلدي: المصدر السابق ص49، 50

أما المواد الغذائية التي يجلبها الفلاحون بكميات صغيرة ، وليس لهم حوانيت يبيعون فيها ، فلا تسعر مثل الجبن ،واللبن ،و العسل ، الزيت ،الخضر والفواكه كما لم تكن التسعيرة تجرى على أصحاب الحرف[1].

ومن المواد الغذائية التي تسعر اللحم ، بعد أن يعرف ثمن الذبيحة كبشا أو عنزا ، ويعلم وزنها ويسقط من وزنها قدر العظم ، وبالتقدير حسب اجتهاده ، و يبيع سقطها وجلدها ، ويسقط ثمنه من ثمن الجزارة والذبح ،ويربح فيها درهمين ، ثم يقسّم الباقي على أرطال اللحم ،فيعلم كم يجب للرطل ويكتب ذلك . والطريقة نفسها كانت تتّبع في لحم البقر . أو أن تؤخد اللوزة الداخلية من فخذ البقرة مقشرة على أن يأخذ السناج ، وتوزن فتكون ربع عشر البهيمة كلها ويستغنى بهذا عن وزن البهيمة كلها [2].

وقد أشارت كتب الحسبة لمقاومة المحتسب لاحتكار السلع وأقوات الناس، والاحتكار هو أن يشترى التاجر سلعة معينة في وقت الرخاء ،ويتربص وقت الغلاء لبيعها .وفي هذه الحالة ، فإن المحتسب يجبر فاعل ذلك على بيع سلعته ، وذلك لأن الاحتكار حرام ،والمنع من فعل الحرام واجب [3].وقد قال الرسول"ص" "الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون"[4] . ويرى "يحي بن عمر " فيمن يحتكر الطعام ، وما ينتج عنه من ضرر للناس في السوق ، أن يباع طعامه ، و لا يأخذ إلا رأس المال ، أما الربح فيتصدق به أدبا له ،,و ينهى عن ذلك ،فإن عاد إلى فعله ضرب وطيف به في السوق ثم يسجن .

كما لا يترك أهل الحوانيت ، و سائر أهل الادخار الحرية في أن يقتنوا شيئا مجلوبا من إدام ، و ما شابه ذلك مثل الزيت ، العسل ، السمن ، الزبيب و التين ، مما بالناس حاجة إليه و لا يحتكرونه[5] لأن الرسول صلى الله عليه و سلم نهى عن ذلك فقال: " لا يحتكر إ لاّ خاطئ "[6] يعني أن احتكاره خطيئة و قد رخص "ابن حبيب" للجالب و الزارع الاحتكار . إلا أن "مالك"

---

[1] –المجيلدى : كتاب التيسير في أحكام التسعير ص 55

[2] – السقطى : آداب الحسبة ص35 .

[3] –الشيزرى :كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص 1

[4] – ابن ماجة : سنن ابن ماجة ج (2)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ،دار احياء الكتب العربية ،عيسى البابي الحلبي وشركائه 1953 ص228

[5] – ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة و المحتسب ص72

[6] – ابن ماجه:المصدر السابق ص228

لم ير على هذين بأسا . ففي حالة ما إذا فعلوا بعد النهي أدّبوا ، و أخرجت السلعة من بين أيديهم و فرّقت بين الناس ، و ذوي الحاجة ، فيشتركون فيها بالثمن الذي ابتاعه به ، و في حالة ما إذا لم يعلم ثمنه فبتسعيرة يوم احتكاره[1]، و الشيء نفسه يفعل في الحبوب كلها التي تعد قوتا للعباد ، و علفا للحيوانات .كما ينهي المحتسب عن تلقي السلع التي يترل بها إلى السوق لتلافي الاحتكار[2] .

وهكذا يتضح لنا أن التسعير و الاحتكار ، كان يخضع لرقابة المحتسب الذي من بين اختصاصه العمل على منع احتكار السلع الاستهلاكية الضرورية لقوت الشعب ، و العمل على توافرها بأسعار تتناسب و دخل الأسر الفقيرة .

المكـــوس

منذ أن قامت دولة المرابطين على أرض المغرب الأقصى ، وولاة الأمر يؤكدون المعنى الديني الذي تأسست عليه الدولة ، إذ أن هدفها الأساسي هو القضاء على الضلالات المنتشرة ، و الجهل بأحكام الدين و قد اتضح ذلك منذ اللحظات الأولى لتأسيس الدعوة حيث قرر ابن ياسين المبدأ الذي ترتكز عليه الدعوة في جبايتها للأموال ، وهو ما قرره الشرع: أي كتاب الله و سنة رسول الله ، وما ورد فيهما من أحكام بشأن الأموال ، ولذا فإنه حين افتتح مدينة "سجلماسة" ألغى كل الرسوم و الضرائب التي لم يرد فيها نص من كتاب أو سنة ، و يتضح ذلك من قول "ابن أبي زرع"[3]:"و أزال المكوس و أسقط المغارم المخزنية ، و ترك ما أوجب تركه الكتاب و السنة.و حرص"عبد الله بن ياسين" على إزالة الضرائب الجائرة التي كانت تفرضها زناتة في المغرب من قبل،و لما تولى"يوسف بن تاشفين" مقاليد السلطة عمل على إتباع أوامر"عبد الله بن ياسين" و من هنا كانت مصادره هي الزكاة و العشور وجزية أهل الذمة و أخماس غنائم المشركين.[4] وكانت لهذه السياسة الحكيمة ـــ في بداية عصر المرابطين ـــ أثرها في في ازدهار الحركة التجارية ، و مضاعفة الإنتاج و زيادة دخل الفرد إذ كان طبيعيا أن تؤدي تلك السياسة إلى التخفيف عن كاهل التجار مما شجعهم على المغامرة و ارتياد الأسواق دون

---

1 - الشيزري:كتاب نهاية الرتبة ص113

2 - ابن عبد الرؤوف: آداب الحسبة والمحتسب ص72

3 - الأنيس المطرب ص 81

4 - نفس المصدر ص88

أي خوف ما داموا يؤدون عن أرباحهم ما يفرضه الدين من زكاة[1] . كما كان لتخفيف الضرائب أثره على المنتج حيث ساعد ذلك على مضاعفة الإنتاج مما أشاع بين الناس لونا من الرخاء ، فمكّنهم ذلك من الإقبال على البيع و الشراء فراجت التجارة في الأسواق . غير أن موارد الخزينة من الضرائب وا لمكوس لم تعد تفي بحاجات الدولة لاسيما بعد أن أصبح الأندلس تابعا للمغرب الأقصى ، و حاجة يوسف بن تاشفين للأموال لتجهيز الحملات العسكرية المستمرة للرد على أطماع الفرنج ، و نتيجة لذلك فرض بعض الإتاوات على أهل المغرب و الأندلس[2] . فظهرت بعض أنواع القبالات. و قد أشار إلى هذه القبالات و تطبيقها على أسواق مراكش الإدريسي بقوله:" و كانت أكثر الصنع بمراكش متقّبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان،و الصابون ، و الصفر ، و المغازل ، و كانت القبالة على كل شيء دق أو جل ، كل شيء على قدره."[3]

و الراجح أن تلك القبالات لم تكن محددة بمبلغ معين أو كمية محددة ، و إنما تركت لاجتهاد المتقبل ، الذي كانت كثيرا ما يشتط في تحصيلها حتى أن"ابن عبدون"[4] وصفه بأنه شر خلق الله ...و أنه خلق للضرر لا للنفع فهو يجري و يسعى لضرر المسلمين أبدا ، "و يفتح أبواب الضرر عليهم ، و يغلق أبواب الخير و النفع عنهم" كما استوى عنده في هذه الصفة "الخراص"[5]الذين اتهمهم في عدة مواضع من رسالته بالرشوة ، وطلب من القاضي أن يمنعهم من الخروج إلا بأمره ، و أن يحدد لهم ما يجب فعله، و يوصيهم بالرفق و التحري ، و ترك التشطط[6]،و يعود حرص"ابن عبدون" على هذه الفئة بالذات لأن الدولة لم تخصص رواتب للمتقبلين و الخراص ، إنما جعلت أجرهم على أهل الزراعة و الأموال ، ولذا كان مجال التعدي كبير في تحصيل العشور و القبالات ،فوصل بهم الأمر إلى أخذ الرشاوي أوتحصيل الجبايات أكثر من مرة ،مثل قبالة الأضاحي ، و بعض المواد الغذائية التي تباع في المنازل لذلك كان يشدد"ابن عبدون" على

---

[1] - البكري: كتاب المغرب ص164 ابن أبي دينار: المؤنس ص131

[2] - ابن خلكان: وفيات الأعيان مج (5) ص475-476

[3] - الإدريسي:صفة المغرب ص70

[4]- رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص 30

[5] - هم الأشخاص الذين يتولون تقدير الثمار في النخيل و الكروم وغيرها . انظر:ابن منظور:لسان العرب مج(7)ص23

[6] - ابن عبدون: المصدر السابق ص 5، 6

وجوب تعريف الناس بعدم دفع قبالة الأضاحي ،لأنها أخذت من الجلابين ،كما لا تؤخذ ممن باع طعاما أو زيتا في داره لأنه سبق تحصيل أعشار أثمانها[1]

وسائل التعامل(العملة ، السفتجة ، الصكوك)

العـــملة :إن دراسة العملة تساهم في إمداد دارسيها بصورة صادقة عن الوضع الاقتصادي للدولة قوة وضعفا ، كما تبين طريقة التعامل بين أفراد المجتمع ، لأنها هي الوحدة المستعملة في الحياة اليومية وعليه فإن الدولة المرابطية لاتختلف عن بقية الدول الاسلامية حيث عملت على سك العملة .بمختلف أنواعها سيما و أن الدولة كانت قد سيطرت على المناطق الأساسية لانتاج المعادن المساعدة على سك العملة سواء في المغرب أو في الأندلس فيما بعد [2]

ومما لا شك فيه أن استيلاء المرابطين على المدن الجنوبية في الفترة المبكرة من قيام حركتهم مكّنهم من التحكم في الطرق التجارية المؤدية إلى ذهب السودان المصدر الأساسي للذهب الخام [3] فاتخذت منه قاعدة أساسية لصك عملتها الذهبية[4] فصارت الدنانير الذهبية تمثل العملة الرئيسية للدولة ،فبعد سنتين من استلائهم على تلك المدن بدأ المرابطون في سك عملتهم الذهبية ، وأول دينار وصلنا كان من ضرب مدينة سجلماسة سنة 450هـــ/1058م باسم الأمير أبي بكر بن عمر باعتباره الأمير الشرعي للبلاد[5] ،وبعده أصدر الأمير يوسف بن تاشفين عملة باسمه ، وسار بقية الأمراء على نهج سابقيهم في صك العملة الذهبية[6] إلا أن هذا لم يمنع

---

[1] – ابن عبدون: رسالة في آداب الحسبة و المحتسب :ص6،31

[2]– عن سيطرة المرابطين على مناطق إنتاج المعادن . انظر:البكري:كتاب المغرب ص 156 .الإدريسي:صفة المغرب ص8 المقري: نفح الطيب ، مج (1)ص143

[3]– انظر عن ذهب السودان الغربي . ياقوت الحموي: معجم البلدان ج (2) ص14. البكري: المصدر السابق ص 179

[4] - الإدريسي: المصدر السابق ص8

[5] – Lavoix: Catalogue des monnaies Musulmanes de la bibliothèque Nationale Nationale de paris vol(2) . L'espangne et Afrique. Paris.1891 P 198-199

[6]– انظر عن سك يوسف بن تاشفين ، وعلي بن يوسف للعملة الذهبية .ابن عذارى: البيان المغرب ج4 ص 46.

و عن عملة علي بن يوسف انظر:

=Hazard : w .Harry, the numismatic history of late medieval north Africa , numismatic studies N 08,New york. 1952. pp 105-107

أمراء الدولة المرابطية من سك العملة الفضية و استعمال الدراهم و أجزائها لتسهيل عمليات البيع و الشراء سواء في المغرب أو الأندلس وهذا ما نستشفه من قول المراكشي[1] :"...وذلك أن عادتهم في بلاد المغرب أنهم يضربون أصناف الدراهم وأرباعها،وأثمانها، والخراريب ،فيستريح الناس في هذا وتجري هذه الصروف في أيديهم فتتسع بياعاتهم" غير أن أحد "الباحثين"[2]يرى أن التعامل بالدراهم في عصر المرابطين كان قليلا فضلا عن انتشاره المحدود مقارنة بالعملة الذهبية.لكنه لم يوضح سبب ذلك.

والراجح أن ذلك يعود أساسا إلى إقبال الناس على التعامل بالدينار الذهبي في الأسواق ،خاصة في التجارة الخارجية ،مما نشط التعامل بالدينار عن التعامل بالدراهم أو أن أمراء الدولة كانوا يفضلون أن ترد إليهم الأموال بالدنانير،ومما لا شك أن هذه الظاهرة كان لها انعكاسا وأثر على التعامل في الأسواق ،فكانت رغبة التجار و الصرافين منصبّة على قبول العملة الذهبية لقيمتها الثمينة ،أو لإقبال الناس على خزن الدينار الذهبي،لأن طبيعة هذا المعدن الثمين يتحمل الخزن أكثر من نظيره.[3]

وتعددت دور ضرب العملة المرابطية حيث شملت مناطق مختلفة من مدن المغرب و الأندلس[4]،وعملت الدولة على توحيد العملة المتداولة في العدوتين بعد ضم الأندلس،إلا أن ما ينبغي الإشارة إليه هنا أن النقود التي أصدرتها دور الضرب بالأندلس ،قد تأخر ظهورها إلى سنة 486هــ/1093م [5]وليس من المستبعد أن يكون المرابطون في هذه الفترة يتعاملون بالنقود

---

[1]- المعجب ص145

[2] -Riviro :Casto Maria , la moneda Arabigo, Espanola .Madrid. 1933.p35

[3]- عن تخزين الذهب انظر ما أوردته المصادر عن تخزين أحد شيوخ المرابطين لبرمتين من الذهب.البيدق: أخبار المهدي ص65-66 .ابن عذارى: البيان المغرب(القسم الموحدي) ص29

[4]- عن تعدد مدن ضرب العملة في المغرب و الأندلس انظر:

Messier :Ronald, Quantitative analysis of Almoravid dinars in J.E.S.H.O.1980 p.109,111

[5] -Hazard : numismatic History p.105 N 111

المضروبة في المغرب إلى جانب بعض عملات دول الطوائف كالدنانير العبادية (نسبة إلى المعتمد بن عباد)و الدنانير الشرقية(نسبة إلى شرق الأندلس)وقد أبقى المرابطون على عملة بني عباد في المعاملات التجارية داخل الأسواق لذلك ظلت عيوب البيع و الشراء ظاهرة بادية في الأسواق وهذا ما أشارت إليه نوازل الفترة المعاصرة للدراسة.[1]

وقد اهتم المرابطون بدور السك اهتماما كبيرا سواء في المغرب أو الأندلس فاختاروا للإشراف عليها الأشخاص المعروفين بالأمانة، وممن لهم خبرة بالصناعة الجارية،ومعرفة كبيرة بأسرارها كتمييز النقود وأوصاف المعادن، وما يصلحها، وما يفسدها، وأسباب غشها، مع النزاهة والديانة،وإلا عادت بالخسران وعدم الرجحان وتعطيل فائدتها وقلّ عائدها وكان على صاحب دار السكة أن يتفقّد الدنانير و الدراهم ،بعد الطبع،حتى لا يكون الطبع على أحد الوجهين في اتجاه مخالف للآخر واختلاط الكتابة فيها بسبب سوء السك أو المبالغة في الضرب على الطابع عند سك العملة حتى تتجرش (أي تكون عرضة للكسر).وعليه مراقبة المعدن الذي يضاف إلى الذهب أو الفضة المضروبة نقودا،وهو في الغالب معدن النحاس ونسبته واحد في المائة.[2]ويعمل في دور السك معلمون وعمال ،ومتعلمون يشترط فيهم أن يكونوا من ذوي المهارة و التجربة و المعرفة لدقة العمل وخطورته،لأن عامل السكة إذا أخطأ في تشحير الذهب (أي تسخينه) و أنزله من فرن الطبخ،وهو ناقص العيار جاء عليه في إعادته خسارة ونقص وإن غفل وتناهى في التشحير فوق حده كان فيه النقص الكثير.[3]

وعليه قد عملت الدولة على مراقبة دور سك العملة لتفادي الغش و التدليس فيها،إلا أن الحروب المتواصلة التي خاضها المرابطون في المغرب والأندلس في أواخر أيامهم كانت قد استنفذت قواهم،فلم تعد الدولة تحكم قبضتها على مراقبة دور السك.كما أنها أتت على

---

[1]- ابن رشد:فتاوى ابن رشد،س2 ص932

[2]- أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم:الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة ص50

[3]- نفس المصدر والصفحة

مواردها الاقتصادية.ونجم عن ذلك ظهور آثار سلبية على العملة المرابطية،حيث ظهرت الدنانير الحشمية التي يطلق عليها زيفا اسم الدينار الذهبي،وهذا ما بينه ابن عذارى في قوله:"وفي أثناء هذه الحركة الطويلة الأعوام(534هـ/1139 م 540 هـ1145م) اتصلت الحروب ببلاد اللثام،وغلت الأسعار بمراكش،حتى وصل فيها ربع من الدقيق بمثقال حشمي"[1]ومما لا شك فيه أن لظهور العملة المزيفة في أواخر الدولة كان له أثره الكبير على العملة المرابطية وعلى اقتصاد الدولة ككل فلم تعد التجارة والمعاملات التجارية نشطة، كما كانت عليه في العهود الأولى لأيام الدولة.

الصكوك و السفاتج:إلى جانب التعامل بالعملة النقدية،من الدنانير و الدراهم استعملت وسائل أخرى في المعاملات التجارية مثل الصكوك و السفاتج[2] في ميادين متعددة من النشاط التجاري و المالي على مستوى القطاعين الرسمي و الشعبي إذ استخدم الصك كوسيلة للتعويض عن دفع النقود وهو أمر خطي يدفع بواسطته مقدار معين من النقود إلى الشخص المسمى فيه.ويجري تحرير الصك بدقة حيث يدرج فيه اسم صاحبه،ومقدار المبلغ الواجب دفعه رقما وكتابة[3] وموعد استفائه وقد يؤرخ ويختم بخاتم خاص ويصادق عليه.[4]ونظرا لما تقوم به الصكوك من تسهيل قضايا البيع والشراء في الوقت الذي لا تتوفر فيه الأموال نقدا من جهة، ولكونها وثيقة ائتمان مضمونة.لتقرير الديون واستفتائها، فإنها استخدمت في المدن الجنوبية من المغرب الأقصى.وقد أشار"ابن حوقل" إلى صك من هذه الصكوك بقوله:"ولقد رأيت بأودغست صكا

[1]-ابن عذاري:البيان المغرب-القسم الموحدي -ص16

[2]-مفرد سفتجة،معرب "سفتة"بمعنى الشيء المحكم ،وسمي هذا القرض به لإحكام أمره،وهو أن يدفع إلى التاجر مالا قرضا ليدفعه إلى صديقه في بلده،ويدفعه على سبيل القرض لا عن طريق الوديعة،لأن ذلك التاجر لا يدفع عين المال بل يؤدي مثله،فلا يكون وديعة،وإنما يقرضه ليستفيد المقرض من خطر الطريق.انظر:محمد علي الفاروقي التهانوني:كتاب كشاف إصطلاحات الفنون،مج 1 تصحيح محمد وجيه وآخرون،طبعة شياتك سويسى آف بنكال كلكة 1863 ص636-637 .وانظر ايضا: الثعالبي:كتاب ثمار القلوب في المضاف و المنسوب،مطبعة الظاهر، القاهرة،1908 ص 545 هامش3

[3]- ابن حوقل:صورة الأرض، ص96

[4]- ابن خلدون: المقدمة ص278

فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار."[1]كما عرفت أسواق الدول الإسلامية منذ وقت مبكر استعمال الحوالات أو السفاتج، وهي أن يعطي مالا لرجل له مال في بلد يريد أن يسافر إليه فيأخذ منها خطا"سفتجة"لمن عنده من المال في ذلك البلد،فيعطيه مثل ماله الذي سبق أن دفعه قبل سفره.[2]وقد استخدمت السفاتج في التعامل في الأسواق أو في دفع الديون،والهدف من استعمالها في المعاملات المالية هو نقل النقود من مكان لآخر دون تعرضها لمخاطر الطريق.فهي في هذه الحالة كانت وسيلة للحيلولة دون إجراء الدفع بالعملات المعدنية في الأماكن البعيدة إذ في حالة التعامل بالسفاتج يكون وصول الأموال أضمن وبعيد عن مخاطر الطريق.[3]

وكان الصرافون و الوكلاء يقومون مقام البنوك في تحويل هذه السفاتج إلى نقود مقابل خصم مبلغ من المال المحول أو أخذ فائدة. الأمر الذي سهل إجراءات المعاملات التجارية في الأسواق خاصة وأن الصفقات التجارية تتم تحت إشراف الصيارفة ،وفي بعض الأحيان كان التجار يقومون بتصريف هذه السفاتج بربع درهم ونصف في كل دينار.[4]أما النظام المتبع في تحديد أجل صرف السفتجة فكان يتم حسب اتفاق الأطراف المعنية،فإذا اشترط أداء المال في وقت محدد فهي سفتجة بأجل،يتم صرفها حينما يحل وقتها،ويكون صرفها إما دفعة واحدة أو على دفعات.[5]

---

[1]–ابن حوقل: صورة الارض ص96

[2]–محمد علي الفاروقي التهانوي: كتاب كشاف إصطلاحات الفنون،مج 1 ص636

[3]– نفس المرجع ص637 وانظر ايضا :

Goitein.sd : A mediterranean society,vol; (1) university of California press 1967,p42

[4]–الصابي:تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء،مطبعة الآباء اليسوعبين، بيروت، 1904 ص93

[5]–التنوخي:نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ج (8) تحقيق عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، 1973 ص 222

وعلى الرغم من أن فقهاء المالكية كرهوا الحوالة على الصيارفة واعتبروها ربا[1]إلا أن ذلك لم يمنع التجار من التعامل بها حيث أشارت أوراق الجنيزة إلى أن السفاتج استخدمت في التعامل التجاري بين بلاد المغرب والأقاليم الأخرى المجاورة[2]ولم يستبعد"جوتين"أن تكون السفاتج قد استخدمت بسجلماسة الواقعة جنوب الصحراء باعتبارها إحدى محطات القوافل التجارية لتجارة السودان الغربي.[3]

المقـــايضـــة:وإلى جانب الصكوك و السفاتج كانت المعاملات التجارية تقوم على المقايضة في بعض الأماكن من بلاد المغرب،وبصفة خاصة جنوبي الصحراء،فكان هناك تجار يبتاعون بدون مشاهدة "التجارة الصامتة"وآخرون يستخدمون قوالب الملح و الصدف والنحاس،وقد شاهد البكري المعاصر لفترة الدراسة كيف كان يبتاع أهل السوس بالحلي المكسورة وأنقار الفضة وذلك لندرة الدرهم المسكوك عندهم[4].

المكاييل و الموازين والمقاييس

إن دراسة الحياة الاقتصادية و التجارة خاصة يتطلب دراسة المكاييل و الموازين التي كان يستخدمها السكان في تعاملهم اليومي وفي شراء بضائعهم و مستلزماتهم،وكانت وحدات الكيل هي المد و السطل والوسق ، والقفير ، والصفحة ، والقليلة ، والقفة ، والزلاقة ، وهذه المكاييل تختلف من قطر لآخر. فالشيزري يذكر أنه اصطلح كل اقليم وبلد على أرطال تتفاضل في الزيادة والنقصان.وقد أشار "ابن صاحب الصلاة"[5] إلى استخدم المد حين تحدث عن رخص الأسعار بوادي تانسيفت فقال "و الشعيرخمسة وعشرون مدا بدرهم " وحين غلت الأسعار

---

[1]-الونشريسي: المعيار ج (6) ص315-316

[2] -Goitien :Bankers and accounts from the eleven century,A.D. in(J.E.S.H.O).vol 1v part 1-2 november 1966; p.29

[3] -Goitien: s D; A mediterranean society; vol ;1 p.244

[4]- البكري:كتاب المغرب ص162

[5]-المن بالإمامة ص352

بالأندلس بيع المد بدرهمين[1].كما أشار البكري إلى استخدام أهل"فاس"للمد وحدد وزنه بثمانين أوقية بقوله:"ومدهم ثمانين أوقية."[2]وإلى جانب المد استخدم السطل في الكيل وقد أشار"البيدق" إلى ذلك في حديثه عن غلاء الأسعار في حروب الفترة الانتقالية من المرابطين إلى الموحدين بقوله:"وبلغ عندنا في ذلك الوقت سعر الشعير ثلاثة دنانير للسطل."[3] كما استخدم"الوسق"[4]في كيلهم وهذا ما نستشفه من حديث "ابن زرع"[5]عن الرخاء الذي عم البلاد أيام دولة المرابطين حيث يقول:"وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن تناهى القمح في أيامهم إلى أن بيع أربع أوسق بنصف مثقال".ومن بين المكاييل المستخدمة نذكر "القفير"،وقد اختلف من منطقة إلى أخرى،فقفير "القيروان" مثلا يساوي اثنين وثلاثين ثمنا،والثمن هو ستة أمداد بمد النبي(ص) بينما يساوي القفير بالأندلس ستين رطلا والربع ثمانية عشر رطلا.[6]

أما الصفحة في كيل تنس" فإنها تساوي ثمانية وأربعون قادوسا والقادوس ثلاثة أمداد بمد النبي(ص) أما فى نكور مثلا فإنها تساوى خمسة وعشرون مد بمد النبي (ص) ويسمون نصف الصفحة "السدس"[7].ومن هنا يتضح لنا أن وحدات الكيل تقوم على العرف وهي مقادير إصلاحية تختلف من قطر لآخر[8]،كما أن بعض المكاييل يقتصر استعمالها على منطقة واحدة لا تتعداها مثل "القرصة الإشبيلية"[9] والملت المراكشي.[10]

---

[1]-ابن صاحب الصلاة :المن بالامامة ص419

[2]-البكري: كتاب المغرب ص117

[3]-البيدق:أخبار المهدي ص53

[4]-ومعناه وسق الجمل أي حمل جمل وكان مقداره ستون صاعا.انظر:علي بن يوسف الحكيم: الدوحة المشتبكة ص204

[5]-الأنيس المطرب ص108

[6]-المقدسي:أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،طبع مطبعة ليدن مطبعة بريل 1967 ص240

[7]-البكري:المصدر السابق ص91

[8] -ابن رشد:فتاوى ابن رشد س1 ص543، 544 السقطي:آداب الحسبة ص27، 37

[9]- المراكشي: الذيل والتكملة س5 ص668

[10]- نفسه ص402

أما الموازين المتداولة،فكانت القنطار والأوقية والرطل والدرهم وتختلف الموازين تبعا لنوع السلعة،كما كان لكل إقليم أو منطقة قيمة لرطلها،فكان رطل مراكش يعادل ستة عشر أوقية[1] أما رطل أرشقول فكان اثنان وعشرون أوقية[2] ورطل "مليلة" هو رطل "نكور" يساوي اثنين وعشرون أوقية،والأوقية خمسة عشر درهما،وقنطارهم من جميع الأشياء بهذا الرطل،أما الدرهم ففيها عدة قراريط وكل قنطار يساوي خمسة أثمان درهم[3].

وكان لاختلاف قيمة الرطل أن أدى ذلك إلى اختلاف القنطار في أقاليم المغرب والأندلس[4]. ونظرا لاختلاف الموازين والمكاييل فإن التجار في معاملاتهم كانوا ينصون في وثائق البيع و الشراء على نوع الكيل أو الوزن[5].ولكن الذي كان يثير التراع بين التجار أن بعض السلع كانت تباع كيلا ووزنا[6]وبعضها تقديرا بلا وزن.[7] وكان استغلال التجار لفوضى المكاييل والموازين في عصر المرابطين استغلالا أضر بمصلحة المستهلك، فكانوا يغشون في مقاديرها ،أو يستعملون الحجارة بدلا من صنج الحديد حتى أن كتب الحسبة تزخر بأمثلة عن أساليب التجار هذه.وتقترح قطع كل ذلك،ويتوجب على المحتسب أن يجعل علامة على المكاييل والموازين معلومة ومعروفة عنده.[8]

ابن صاحب الصلاة:المن بالإمامة ص353 هامش1

[2]- البكري:كتاب المغرب ص78

[3]- نفسه ص88 -89

[4]-انظر عن اختلاف الموازين والمكاييل في كل من المغرب والأندلس البكري:نفسه ص69

[5] ابن رشد:فتاوى ابن رشد س1 ص543-544

[6]-انظر عن ذلك مثلا بيع الشعير كيلا ووزنا:ابن عذارى:البيان المغرب ج4 ص38، 39

[7]- مثال ذلك أن الصوف يباع بالجزّة وهي مختلفة الأوزان

[8]-ابن عبدون:رسالة في آداب الحسبة و المحتسب ص37.السقطي:آداب الحسبة ص13،12،10.ابن عبد الرؤوف: آداب آداب الحسبة والمحتسب ص100-102

الفصـــــــــل التاسع

التجـــارة الخارجيـــة

أشهـــر المـــــوانئ

الموانئ المغربية والأندلسية،خططها ومواقعها

الطـــرق البحريـــة

النقل البحري وشروطه

أعمال القرصنة ومخاطرها

نظم التعامل في الموانئ

المعاملات النقدية

العلاقات التجارية بين المربطين وأوروبا

التجار المسيحيون في المغرب و الأندلس و ظروف إقامتهم

العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى و الأندلس

العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى و المشرق

العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى و جنوب الصحراء

أثر التجارة الخارجية على العملة المرابطية و تداولها في الأسواق الدولية

أثر التجارة الداخلية و الخارجية في ارتفاع مستوى الدخل الفردي

التجـــارة الخارجيـــة

كان لازدهار التجارة الخارجية في أسواق المغرب و الأندلس في عصر المرابطين وامتلاء الأسواق بالبضائع و المنتجات المحلية أثر في تنشيط حركة التجارة الخارجية إذ أصبحت أسواق المغرب و الأندلس مقصدا للقوافل و التجار من مختلف الأقطار[1].ومما ساعد على تنشيط حركة التجارة الخارجية ،اتساع الرقعة الجغرافية التي كانت تخضع لسلطة المرابطين[2] ،ووجود حكومة مركزية ساهرة على حماية الطرق التجارية،وتوفير الأمن لسالكيها،فأصبح المغرب الأقصى ممرا آمنا للقوافل التجارية القادمة من السودان و المتجهة إلى الشمال،لتسويق السلع عبر الموانئ المغربية إلى الأندلس وأوروبا[3].ومما لاشك فيه أن للأسطول المرابطي دور كبير في تأمين الموانئ المغربية و الأندلسية،وحماية الطرق البحرية في البحر المتوسط،فضلا عن عمليات الجهاد التي قام بها في مياه الأندلس،الأمر الذي سهل حركة التنقل بين المغرب و الأندلس[4]

أشهـــر المـــــوانئ

الموانئ المغربية والأندلسية،خططها ومواقعها: من الميزات الكبيرة التي يتمتع بها كل من المغرب الأقصى و الأندلس أن المغرب يطل على ساحلين:ساحل البحر المتوسط،وساحل المحيط،أما الأندلس فهي شبه جزيرة.فكان لموقعهما على الساحل أثره في نشأة عدة موانئ سهلت الاتصال بالعالم الخارجي،ومكنت تلك الموانئ من تأدية دورها في الحركة التجارية في ظل الأسطول المرابطي الذي لم يكن دوره يقتصر على الجهاد و حماية الثغور من غارات القراصنة فحسب،بل تعداها. واستفيد به في الحركة التجارية .ومن الموانئ المغربية المطلة على البحر المتوسط نذكر

---

[1]-انظر عن المغرب مثلا:ابن حوقل: صورة الأرض96.وعن الأندلس:الحميري: الروض المعطار ص537-838

[2]-عن اتساع الرقعة الجغرافية.انظر ابن أبي زرع:الأنيس المطرب ص87-88

[3]-انظر عن ذلك مثلا مدينة مراكش التي اتخذها المرابطون عاصمة لهم و التي كانت سابقا مأوى للصوص وقطاع الطرق:ابن عذارى:البيان المغرب ج4 ص123

[4]-عبد العزيز سالم:تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص49-50

ميناء"سبتة"الواقع في الطرف الشرقي المقابل لشبه جزيرة الأندلس،الذي يعد أكثر نقط المضيق قربا من العدوة الشمالية .وقد لعب هذا الميناء دوره في الحركة التجارية إذ كانت القوافل تصل إلى ميناء المدينة من جميع نواحي المغرب خاصة من "فاس" وسجلماسة[1] لتفرغ حمولتها في الفنادق المعدة خصيصا لذلك، والتي بلغ عددها ثلاثمائة وستون فندقا أشهرها وأعظمها بناءا واتساعا ساحة الفندق الكبير الذي يحتوي على اثنين وخمسين مخزنا،فكانت القوافل تدخل بأحمالها إلى هذا الفندق،فإذا أبصر الرائي ما يدخل إليه من القوافل بأقتابها وغرائر الزرع المحملة عليها هاله ذلك وتعجب.[2]

ومما زاد في إقبال التجار على هذا الميناء كون مدينة "سبتة" مشهورة بقيام عدة صناعات محلية بها،كصناعة النحاس ،السجاد[3]،غير أن أهم صناعتها تجلت أساسا في معالجة المرجان،وتحويله ،فمنها كان يتجهز به إلى سائر البلاد[4].كما كانت سبتة سوقا رئيسية للتجار السلاويين الذين كانوا يخرجون إلى الميناء منتجات المدينة الأساسية كالكتان،والمصنوعات الجلدية،وأدوات الفخار،والحصر،وعصير العنب المعروف آنذاك لدى العامة بالصامت[5] .ونظرا لكل هذه الميزات ،فإن تجار "سبتة" كانوا من أغنى تجار المغرب الأقصى في هذه الحقبة،ويكفي العودة إلى وصف "ابن سعيد" للمدينة وتجارها،لنعلم مدى ما كان يروج بها من رؤوس أموال فالمدينة حسب وصفه:"بين بحرين،وهي ركاب البرين ،شبه الإسكندرية في كثرة الحط

---

[1]-البكري:كتاب المغرب، ص ص 103،102، 113-115.مارمول كربخال :إفريقيا ج2 ص216 -217

[2]-محمد بن قاسم الأنصاري السبتي: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الآثار ،تحقيق عبد الوهاب بن منصور ط2 الرباط ،1983، ص38، 39

[3] - نفس المصدر ص36. مارمول كربخال: المصدر السابق ص216

[4]-الإدريسي: صفة المغرب ص168

[5]-محمد الدكالي: الاتحاف الوجيز بأخبار العدوتين ، تحقيق محمد بوشعراء ،منشورات الخزانة الصبيحية ،سلا،المغرب 1986 ص39، 40

والإقلاع،وفيها التجار الأغنياء،الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند وغيرها فى صفقة واحدة ،ولا يحوجون صاحبها إلى تقاض."[1]

أما ميناء وهران الذي يقابل ميناء المرية الأندلسية،فإنه كان مقصدا للسفن،ومنه كانت أكثر ميرة ساحل الأندلس،إذ كان لها مرسيان:المرسى الصغير ،والمرسى الكبير الذي كانت ترسوا به المراكب و السفن لاستتاره من الرياح،ولذا كانت مراكب الأندلس في حركة دائبة إليه[2].كما كان لميناء "تنس" دور في تنشيط التجارة الخارجية إذ كان هذا الميناء مرسى للسفن التي تحمل منتجات المدينة الزراعية مثل القمح والشعير،وسائر الحبوب إلى كل الآفاق،سيما وأن هذا الميناء يتميز عن غيره لأنه تقابله جزيرة صغيرة كانت السفن تحتمي بها أثناء هبوب العواصف القوية،فكان التجار يلجئون إليها إذا تعذر البقاء في الميناء[3]

وإلى جانب الموانئ السالفة الذكر كانت هناك موانئ أخرى ساهمت إسهاما كبيرا في تسويق المنتجات و البضائع القادمة من الجنوب، فكان ميناء "تابحريت"،مثلا مرسى للسفن و القوافل القادمة من سجلماسة [4].أما ميناء هنين[5]و"أرشقول"[6]،فكانا من أهم المرافئ لتصدير منتجات تلمسان والمناطق المحيطة بها [7].سيما و أن هذه الأخيرة كثيرة الخصب و الرخاء ، كثيرة الخير و

---

[1]-ابن سعيد:كتاب الجغرافيا ص139

[2]-الإدريسي: صفة المغرب ص84

[3]-البكري:كتاب المغرب ص81.مارمول كربخال :افريقيا ج2 ص354

[4]-البكري:نفس المصدر ض87،الحميري: الروض المعطار ص 127

[5]-يقع هذا الميناء في شمال مدينة تلمسان ،ويبعد عن ندرومة بثلاثة عشر ميلا ،وهو مرسى مقصود لكثرة ثماره وبساتينه،ثم وبساتينه،ثم تطور هذا الميناء ليصبح مدينة صغيرة عامرة انظر البكري:نفس المصدر ص80،الإدريسي:المصدر السابق ص172

[6]-يعرف هذا الميناء بعدة تسميات منها أرشقول،أو أرجكون،أوأرشغون وهذا الميناء عبارة عن حصن عامر له مرسى كبير كبير .للمزيد انظر البكري: نفسه ص77 ،الإدريسي:نفسه ص172 ،ابن سعيد:المصدر السابق ص140

[7]-البكري:المصدر السابق ص87، الحميري: المصدر السابق ص26-27، 597

النعم ، لها قرى كثيرة و عمائر متصلة و مدن كثيرة ترجع إلى نظرها . فهي تلي مدينة "فاس" في خيراتها و سعة أموال أهلها .[1]

وزخر المحيط الأطلسي بعدة موانئ كانت تستقبل البضائع الواردة إلى المغرب . و في الوقت نفسه تعمل على تصدير الإنتاج و البضائع المحلية و يأتي في مقدمة تلك الموانئ ميناء"سلا" الذي كان يستقبل العديد من السفن خصوصا الأندلسية منها و في هذا يقول الإدريسي: "و مراكب أهل أشبيلية و سائر المدن الساحلية من الأندلس يقلعون عنها ، و يحطون بها بضروب من البضائع ، و أهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير، وهو بضاعتهم، ويتجهزون منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية"[2].

كما انتعشت الحركة التجارية بميناء "طنجة" لموقعه الجيد على شاطئ المحيط الأطلسي ، و مدخل مضيق جبل طارق ، فمنه كانت تصدر الفواكه و القمح و سائر الحبوب[3] . فكان لميناء لميناء طنجة دور في تصريف منتجات و سلع مدينة "فاس" و المناطق الداخلية القريبة منها .[4] سيما و أن هذا الميناء لايبعد عن مدينة"فاس" بأكثر من خمسين فرسخا.[5]

و من الموانئ التي أسهمت إسهاما كبيرا في تصدير منتجات المغرب الأقصى إلى البلاد الأندلسية ،مرسى "فضالة" الذي ترد إليه السفن لتحمل منتجاته الزراعية كالحنطة و الشعير وسائر الحبوب الأخرى،والمنتجات الحيوانية من غنم وبقر وماعز.وعلى بعد أربعين ميلا من هذا الميناء يقع مرسى آنفا الذي تقصده السفن لحمل الحنطة والشعير،وهو بذلك لا يختلف عن مرسى الغيط[6].كما ساهم مرسى آسفي هو الآخر في تصدير البضائع والسلع المغربية لكن

---

[1]-الحميري:الروض المعطار ص135

[2]-الإدريسي:صفة المغرب ص73

[3]- نفسه ص169-170

[4]- البكري:كتاب المغرب ص190-111 ،الادريسي: المصدر السابق ص168-170

[5]- مارمول كربخال: افريقيا ج(2) 209

[6]-الإدريسي:المصدر السابق ص73-74

بنسب أقل من الموانئ الأخرى إذ لم يستغل هذا الأخير كثيرا في الملاحة نظرا لشدة هبوب الرياح في المحيط،وعليه فإن التجار لا يقصدونه بسفنهم إلا في أوقات سكون حركة الرياح[1]

أما أهم الموانئ الأندلسية التي استخدمت في المجال التجاري فنذكر منها على الخصوص ميناء "المرية"الذي وصفه الحميري بقوله بأنه"أشهر مراسي الأندلس وأعمرها"[2] واكتسبت المرية منذ تأسيسها شهرة في التجارة العالمية فعرفت المدينة بأنها "باب الشرق ومفتاح التجارة والرزق"[3]،وترجع شهرتها التجارية،لكونها محطة للسفن القادمة من المشرق الإسلامي،وباقي الأقطار الأوروبية.فكانت مراكب التجار ترد إليها من الإسكندرية وبلاد الشام.ومما يؤكد حيوية مينائها كثرة الوافدين إليها لدرجة أن عدد فنادقها بلغ تسعمائة وسبعين فندقا.[4] كما ساهم ميناء مدينة "دانية"في تنشيط التجارة الخارجية إذ كان مقصدا للسفن،ومنه يتجهز بالبضائع والسلع الأندلسية لتخرج بها إلى أقصى بلاد المشرق[5].أما ميناء "مالقة"فكثيرا ما كانت كانت تتردد عليه السفن لحمل منتجات بلاد الأندلس إلى المشرق خاصة إلى مصر و بلاد الشام والعراق والهند.كما استفيد من مينائي قرطاجنة و"سانت مارية"في تصدير المنتوجات التجارية إذ كانت السفن الصغيرة و الكبيرة منها ترسوا بهما[6].ولعل ما زاد من تنشيط التجارة الخارجية بالأندلس كثرة الموانئ التي اختصت بصناعة السفن،فاشتهر ميناء طرطوشة،ببناء السفن

---

[1]- الادريسي :صفة المغرب ص74

[2]- الحميري:الروض المعطار ص537

[3]- ابن غالب:نص أندلسي جديد قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس تحقيق د لطفى عبد البديع مطبعة مصر 1956 ص14

[4]- الإدريسي: المصدر السابق ص198،197

[5]- نفسه ص193

[6]- نفسه ص179، 194

الأخشاب بجبالها[1]، كما عرف ميناء "لقنت"الواقع بين مينائي "دانية"و"قرطاجنة" بصناعة سفن النقل,[2]

الطــرق البحريـــة

كان لموقع بلاد المغرب مكانة مرموقة في مجرى النشاط التجاري وهذا نظرا لعاملين أساسيين هما :طول شواطئ المغرب ،وانفتاحها على العالم الخارجي من جهة الشرق بواسطة سواحل افريقية،ومن جهة الغرب بواسطة سهول المغرب المنبسطة على سواحل المحيط الأطلسي.كما كان لطبيعة المغرب الجغرافية أن جعلت من الطرق التجارية البحرية أداة الاتصال بين أرجاء المغرب،رغم أن السواحل فيها لا توجد بها موانئ طبيعية كثيرة مناسبة للملاحة كالتي في شرق الأندلس[3] مثلا ،إلا أن استخدام السواحل بشكل مستمر ساعد على تطوير موانئها إذ أنها تتخذ الخلجان و الجبال و الجزر وأودية الأنهار ستارا لها من الرياح أو باتخاذ مرسيين،واحد للسفن الكبيرة ،والآخر للسفن الصغيرة[4].

و لم يكن حظ السواحل المغربية الواقعة على المحيط الأطلسي كالسواحل المطلة على حوض البحر المتوسط، لأن حركة الرياح الشرقية والغربية فيها تساعد السفن فى الملاحة فى حين أن السفن فى المحيط الاطلسي لا تتحرك إلا مع الرياح الغربية في موسم العواصف والأمطار[5]. ونظرا لصعوبة الملاحة في المحيط الأطلسي،فإن السفن لا تبتعد عن مرأى العين في السواحل الغربية،وإنما تمر بمحاذاة السواحل[6].وعلى العموم فقد طرأ تغيير على السواحل الغربية،وتلاه تغير تغير في وضع الطرق البحرية إذ ازدهرت سهول المنطقة الغربية المطلة على المحيط الأطلسي

---

[1]- الحميري: الروض المعطار ص391. الإدريسي: صفة المغرب ص193

[2]- الإدريسي: نفس المصدر والصفحة

[3]- نفس المصدر ص ص 191، 192، 194، 198، 199 .

[4]- نفسه ص84

[5]-البكري:كتاب المغرب ص 109 113،،153 -154

[6]- الإدريسي:المصدر السابق ص165

،وظهرت مدن تجارية على سواحلها في العصر المرابطي ،فتغير وضع الطرق تغيرا كبيرا،فبينما كانت الطرق البحرية تربط بلاد المغرب والأندلس قبل العصر المرابطي من مراسي البحر المتوسط،ومن طنجة إلى أصيلا فقط أصبحت السفن تتعدى آسفي بأربعة مراسي في أيام المرابطين،وتصل إلى نول لمطة[1] .وعبر هذا الطريق كان الاتصال بموانئ الأندلس (أي طريق آسفي) نول لمطة أو ربما مرسى مغربي إلى ما يقابله من المراسي الأندلسية فسهل هذا الاتصال من حركة النقل بين العدوتين[2] ولعل الأمر الذي سهل وضاعف من أهمية الطريق البحري الواقع على الساحل الغربي لبلاد المغرب ظهور بعض المدن كمراكز تجارية بحرية مثل "سلا"،ومرسى "فضالة"[3] وغيرهما.وتحولهما إلى موانئ كبيرة. هذا ناهيك عما بلغته"سبتة"التي أصبحت ميناءا تجاريا كبيرا بعد أن كانت من قبل مجرد مجاز للأندلس[4] .فكان كل من يريد السفر إلى المشرق من الأندلسيين يتوجه للرحيل منها.[5]

أما الأندلس فقد اقتضت صعوبة الاتصال بها برا أن كان طريق البحر أهم وسيلة في تجارتها ولعل خير دليل على ذلك ما وصلت إليه "المرية"و"دانية" أيام المرابطين إذ أصبحتا مقصدا لقوافل المشرق خاصة من "الإسكندرية"و بلاد"الشام"وأصبح هناك طريق بحري يربط بين بلاد الأندلس وبلاد المشرق[6] علاوة على الاتصال المباشر بين موانئ المغرب والأندلس.

النقل البحري وشروطه

إن الحديث عن النقل البحري في العصر المرابطي ليس من السهل بمكان وهذا لندرة المعلومات الخاصة بهذا الجانب في المصادر التاريخية ولتغطية هذا النقص اعتمدنا على كتب

---

[1]- البكري:كتاب المغرب ص ص 111، 86 ، 87 ،153-154.الحميري الروض المعطار ص 584

[2]-الإدريسي: صفة المغرب ص166-167

[3]- نفسه ص71، 73

[4]- الإدريسي:نفسه ص168 .ابن عذارى: البيان المغرب ج4 ص121

[5]- انظر أمثلة عن ذلك في: ابن عبد الملك:الذيل والتكملة س1 ص485

[6]- الحميري:المصدر السابق ص537- 538 ، 230 -231

الفتاوى و الحسبة التي أمدتنا بمعومات لا بأس بها،هذا بالإضافة إلى ما كتبه بعض المؤرخين الأجانب في هذا الخصوص.فالشائع أن يمتلك عدد من الأشخاص سفينة واحدة[1] ويحق لأي شخص أن يبيع الجزء الذي يمتلكه من السفينة لينضم المشتري الجديد إلى بقية ملاك السفينة،ويتم انتخاب أصحاب السفينة من بينهم شخصا يتولى قيادتها،ثم يباشرون عملهم، وأورد الونشريسي طريقة أخرى يلجأ إليه أرباب السفن لخدمة سفنهم في النقل البحري مثل إعطاء السفينة لمن يعمل بها بجزء مناصفة أو مثالثة أو مرابعة،وهذا في حالة تعذر من يسافر بها بالإجارة المعلومة[2] أما في حالة توفر من يقوم بهذا العمل ،فإذا ذلك لا يتم إلا إذا تضمن العقد أجرة الربان، ونفقات صيانة السفينة،وهذه العقود عادة ما تكون لفترة سنة ،لكون المسافات التي تقطعها السفن عادة ما تكون طويلة ،أما إذا مضى على العقد سنة و لم تعد السفينة ،فإن نفقات الربان من المأكل و المشرب تقطع من العائد الكلي الذي يعود على أصحاب السفينة.[3]

والنقل البحري عادة ما يتم بكراء التجار للسفن ليتسنى لهم نقل تجارتهم من بلد إلى آخر،ويتم تأجير السفن لتاجر،أو عدد من التجار عن طريق التفاوض في الموانئ،حيث يجتمع التجار مع أرباب السفن،وإذا تم الاتفاق بين ربان السفينة على كراء قسم منها،لنقل سلعة ما،وحدث أن هذا القسم لم يمتلئ،بالبضائع ،فإنه (أي التاجر) ملزم بدفع أجر القسم المتفق عليه بالكامل دون نقصان.أما التاجر فلا يدفع أجر ركوبه، كما يحق له اصطحاب أحد مساعديه.[4] وبالرغم من أن تأجير السفن عادة ما يتم بعقود توضح فيها شروط النقل إلا أن هذا لم يمنع ظهور بعض الخلافات بين التجار و ملاك السفن كتأخر المركب عن الوصول في وقته المحدد بسبب تعرضه لعائق معين،أو عطب فيه وما ينجر عن ذلك من خلافات بين التجار وملاك

---

[1]- الونشريسي: المعيار ج (8) ص 418 ، ج(9) ص117

[2]- الونشريسي : المعيار ج (8) ص224

[3]-André E - Sayous: le Commerce des Européens à Tunis de puis le x II siècle Jusq'ua à la fin du xvII siècle .Exposé et documents .publieé par l'academie des siences coloniales ,Paris, 1929 ; p43

[4] -Charles .E .Dufourcq :la vie quotidienne dans les ports mediterraneens au moyen age,Hachette paris 1975 P,45

السفن[1].ومن بين الخلافات التي كانت تقع بين الناقلين(أصحاب السفن والتجار)نذكر منها مثلا تعرض السلعة للتلف كلها أو بعضها أثناء نقلها بسبب انفلات الماء من أسفل السفينة[2]،أو تعرض السفينة لهوج البحر أثناء الرحلة،وتفاديا لغرق السفينة يلجأ رباها إلى طرح بعض الأمتعة والبضائع تخفيفا حتى لا تتعرض السفينة للغرق[3] ،أو اعتراض لصوص البحر (القراصنة) للمركب ونهب السلع أو أخذ المركب بما فيه من السلع[4].فكل مثل هذه الحالات كانت سببا في خلافات ونزاعات بين الناقلين و التجار وقد أفتى الفقهاء فيها وبيّنوا الحكم الشرعي في ذلك. وبيّنوا الحالات التي يضمن فيها صاحب المركب السلع والحالات التي لا يضمن فيها كأن يحمل صاحب المركب سلعة معينة لتاجر من غير أجر ثم يدعي صاحب المركب ضياعها لسبب من الأسباب،ففي هذه الحالة، لاضمان عليه ويكفيه اليمين في حالة اتهامه.[5]

ومما لا جدال فيه أنه وبالرغم من المخاطر التي تنجم عن النقل البحري،من هوج البحر، وتعدي القراصنة على السفن ،والخلافات التي تظهر بين التجار،وملاك المراكب،إلا أن هذا لم يمنع الناقلين ولا التجار من الاستمرار في العمل ،وهدف كل طرف هو التجارة و الحصول على قدر من الربح.ومما تجدر الإشارة إليه أن أسعار نقل البضائع كانت مرتفعة ، وربما يعود سبب ذلك إلى المخاطر التي تعترض المراكب في البحر كالقرصنة وغيرها.وقد قدّر دي فورك **(Dufourcq)**سعر نقل سفينة انطلقت من إقليم قطلونية إلى افريقية محملة بمائتين وخمسين طنا من القمح باثنين كيلوا ونصف غرام ذهب إلى أربعة كيلوغرامات ذهب،مع العلم أن قيمة السفينة لا تتعدى عشر كيلوغرامات ذهب[6] ومن هنا يتضح لنا مدى ارتفاع أسعار النقل.

---

[1] -الونشريشي: المعيار ج 8 ص 300

[2] – نفس المصدر ص308

[3] – نفسه ص298

[4] – نفسه ص302

[5] -نفسه ج9 ص77

[6]-Dufourcq:la vie quotidienne p.45

أعمال القرصنة ومخاطرها

كانت أعمال القرصنة غير محببة من جانب المسلمين و المسيحيين على حد سواء،لكن القرصنة ظلت قائمة،وكانت السفن المسيحية في حوض البحر المتوسط،هي التي تقوم بأعمال القرصنة أكثر من السفن الإسلامية،وذلك في غيبة أسطول إسلامي موحد يحمي السفن التجارية[1] .إلا أنه بعد أن برزت بعض الدول الإسلامية كقوة بحرية (مثل المرابطين) استطاعت أن تحمي السفن التجارية،وبذلك قلّت أعمال القرصنة عما كانت عليه سابقا إلا أن هذا لم يمنع أعمال القرصنة في حوض البحر المتوسط نظرا للتنافس بين المسلمين و المسيحيين على السيطرة على حركة الملاحة في هذا البحر.[2]

ويشير دوماس لاتري **(De Mas Latrie)** إلى أنه كان مسموحا للسفن التجارية حمل السلاح للدفاع عن نفسها في حالة الهجوم .ولا تورد المصادر اتفاقيات، وقعها المرابطون مع الدول المسيحية لوضع حد لأعمال القرصنة إذا ما استثنينا بعض الاتفاقيات مع المدن الايطالية[3] في حين نجد أن الموحدين كانت لهم اتفاقيات كثيرة خاصة مع بيزة.

نظم التعامل في الموانئ :كان النظام المتبع في الموانئ التجارية عموما توفير أقصى قدر من الأمن والحماية الكاملة للتجار القادمين لأي ميناء مغربي أو أندلسي،وعليه فقد حرص رجال الحسبة على حماية المراسي من أي تعدي كالبيع فيها أو البناء،على اعتبار أنها عين البلد،وموضع إخراج الفوائد،مما يخرجه التجار،ومأوى الغرباء.وعليه فقد عملت الدولة المرابطية على إحكام قبضتها على الموانئ إذ كانت تشرف إشرافا مباشرا على كل ما يرد إليها ،فكان المشرف على الميناء

[1]– انظر عن ذاك مثلا ما كانت تشنه السفن المسيحية على ثغور المغرب الأدنى. ابن أبي دينار:المؤنس في أخبار افريقية وتونس ص113، 114

[2]–ابن عذارى:البيان المغرب ج4 ص66-67

[3] -De Mas latrie : Relations et commerce de l'Afrique septentrionale ou Magreb avec les nation Chrétiennes au moyen Age, librairie de firmin Didot, Paris , 1886, pp. 67-70,90

يعمل على توفير الشروط الملائمة لبيع البضائع[1].ونقلها من الميناء إلى الفنادق الخاصة للسلع[2]،وإيجاد الحمالين لشحن أو تفريغ السلع ورغم أن الفنادق كانت هي المخازن الرئيسية للسلع الواردة إلا أن الجزء الكبير منها يترك في مخازن الميناء.

وعن عمليات البيع والشراء يذكر دوماس لاتري **(De Mas Latrie)** أنها كانت تتم في الفنادق أو في الميناء،ولكن يلاحظ أن أغلب عمليات البيع كانت تتم في الميناء وتكون طريقة البيع في صورة حلقة.ولإتمام عملية البيع و الشراء يختار المشرفين على الميناء مترجمين لمساعدة الباعة و المشترين،و يتولى مساعدي المشرف على الميناء على تسديد رسوم البيع ،كما يتولى الكاتب الخاص توثيق عمليات البيع والشراء و يوثق الأموال التي يفرضها بيت المال على الواردات و الصادرات[3] ويقوم المشرف على الميناء على تحديد ساعة إغلاق الميناء ،والساعات التي يمكن للتجار الصعود لمراكبهم أو النزول منها إلى أرصفة الميناء،وكانت مكاتب المشرفين على الموانئ ومساعديه تتواجد في معظم الموانئ حتى يتسنى لهم مراقبة الصادرات و الواردات ، وأخذ ما يفرضه بيت المال على التجار.[4]

المعاملات النقدية

وجد التجار الأجانب سيما منهم المسيحيين أنفسهم أمام وضع نقدي معقد عند اتصالهم بالعالم الإسلامي،ومشاهدتهم العملة الذهبية الجيدة بالمقارنة مع العملة الفضية الرديئة التي يحملونها معهم.حيث يذكر "مارك بلوك" أن معظم أوروبا في تلك الفترة كانت عملتها الأساسية قائمة على الفضة إذ لم تسك العملة الذهبية رسمية إلا في القرن الثالث عشر الميلادي

[1]–ابن عبدون:رسالة في آداب الحسبة والمحتسب ص30

[2]– انظر تخصيص فنادق لخزن السلع:محمد بن قاسم الأنصاري السبتي:اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الأثار ص38

[3]- De Mas Latrie: Relations et commerce p185-186.

[4] -De Mas Latrie: ibid , p.195

ويرى أن السبب في ذلك يعود إلى أن أوروبا في تلك الفترة لم يكن إنتاجها من الذهب وفيرا يسمح لهم بضرب العملة الذهبية إذ أن سك العملة الذهبية لا يتم إلا بأحد الشرطين هما:

أولاهما يكمن في الاحتفاظ بمخزون سابق كاف

وثانيهما يكمن في وجود تجارات متبادلة يمكنها أن تجذب نحو أوروبا ذهب البلاد المنتجة للسلعة أو ذهب البلاد التي لها مخزون كبير.ولذا فإن تعامل الأوروبيين مع التجار المغاربة و الأندلسيين كان قائما على العملة الفضية[1] أما تجار المدن الايطالية ،فكانوا يودعون أموالهم في ديوان المشرف،ومنها يدفع المشرف للتجار المغاربة ،ويلاحظ أن العلاقة بين التاجر الأجنبي و التاجر المغربي و الأندلسي كانت تقوم على الثقة المتبادلة ،فلا تجد التاجر المغربي يتقيد بما يحتفظ به التاجر الأجنبي من أموال في الديوان فيبيعه بالسلف،وقد يتبع التاجر المغربي بالطريقة نفسها مع عميل آخر أجنبي حديث بضمانة آخر قديم موثوق فيه.ونظرا للثقة المتبادلة التي هي الأساس في التعامل التجاري مع المسيحيين ،فكثيرا ما نجد أن العلاقات الشخصية،وتبادل الهدايا بين التجاركانت مظهرا من مظاهرها.[2]

العلاقات التجارية بين المربطين وأوروبا

إن طبيعة العلاقات التجارية بين المرابطين وأوروبا كانت تتوقف على علاقاتهم السياسية بالممالك النصرانية خاصة الأسبانية منها،فمن المعروف،أن المرابطين خاضوا حروبا طاحنة بين نصارى اسبانيا جعلت التجارة معهم و مع أوروبا برا لا تزدهر إلا في أوقات الهدنة و هذه كثيرا ما كانت تخرق[3]

---

[1]-بلوك مارك:بحوث في التاريخ الاقتصادي.ترجمة توفيق اسكندر،الجمعية المصرية للدراسات التاريخية،مطابع دار النشر للجامعات المصرية ،القاهرة 1961 ص8 ،9 ،11

[2] -عز الدين أحمد موسى:النشاط الاقتصادي، ص305

[3]-انظر مثال ذلك في ابن عذارى :البيان المغرب ج4 ص91-92

ويرى باربور[1](**Barbour**) أن ذلك سببا في اتجاه المرابطين في تعاملهم التجاري إلى "صقلية" و المدن الايطالية، التي بسطت سيطرتها على البحر المتوسط في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي إلا أن هذه العلاقات كانت تشوبها بعض المخاطر خاصة أن المرابطين كانوا يتطلعون إلى السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط .وقد واتتهم الفرصة يوم تحالفوا مع"بني باديس"وغزا أسطولهم سواحل صقلية وايطاليا[2] غير أن الثورة الموحدية شغلتهم عن مواصلة جهادهم البحري.وقد أورد دوماس لاتري **(De Mas Latrie)** [3] بعض الاتفاقيات التي وقعها المرابطون مع بعض المدن الايطالية خاصة بيزا وجنوة سنة 528هـ/1133م،533هـ/1138م.فكان لهذه الاتفاقيات دورا كبيرا في تنشيط التجارة بين دولة المرابطين،و المدن الايطالية ،بعد أن اكتفى المرابطون بأخذ العشر من تجار تلك المدن.

ويذهب دوماس لاتري **(De Mas Latrie)** إلى تنشيط تلك العلاقات يعود إلى استغلال بيزا وجنوة ضعف المرابطين في فترة الانتقال وعقدهما اتفاقيات مع "مرسية" و"بلنسية" سنة 544هـ/1149م،557هـ/1161م منحت امتيازات كثيرة لتجار جنوة ،وبيزا، و ظلت هذه الاتفاقيات تجدد حتى استيلاء الموحدين على شرق الأندلس سنة 586هـ 1172م.ولعل ما يدل دلالة واضحة على قيام علاقات تجارية بين المرابطين وأوروبا أن الحوليات القشتالية تذكر عدة عملات،أولاها العملة المسماة**(El Moravidi de oro)** أي الدينار المرابطي من الذهب نسبة إلى المرابطين،والعملة الثانية هي المسماة**(El dinero de plata)** (أي الدينار من الفضة) وهو متوسط القيمة،ويشار إليه أحيانا باسم **(Adarham)**[4] كما يذكر ديبلسيه

---

[1]-<u>the influence of sea power on the History of Muslim Spain</u> Revista del Instituto de Estadios Islamicos en Madrid . v 14. 1967-1968.p 107

[2]- ابن عذارى: <u>البيان المغرب</u> ج1 ص308

[3] -<u>Relations et commerce</u> p.67-70

[4]- Ibid p. 90

(Depelssy)[1] أن الدينار المرابطي استعمل كوحدة للتعامل في أوروبا المسيحية في سنة 558هـ/1162م ووعد كونت بروفانس أن يدفع للإمبراطور مبلغ**12,000 (Moraboutins)** أي الدينار المرابطي بل أن الدنانير المرابطية ذاتها جرى تداولها في أوروبا الغربية، فقد عثر على دنانير مرابطية في حفائر**(De camp)** جنوبي مدينة تولوز**(Toulouse)** و في فيرنو**(Vernoux)** و في سانت رمان**(Saint Roman)** .

و لعل ما يؤكد وجود علاقات اقتصادية بين الغرب المسيحي ودول المغرب ومن بينهم المرابطين وجود عدد من المفردات العربية الاقتصادية في اللغات الأوروبية ،وهذا بشهادة الأوروبيين أنفسهم حيث يذكر "موريس لومبار"[2] أن الكلمة الايطالية **(Zecca)** مشتقة من الكلمة العربية (دار السكة)،وكلمة**(Cheque)** مشتقة من كلمة (صك) العربية،ومن المعروف أن الصكوك كانت معروفة بالمغرب منذ وقت مبكر "فابن حوقل" كان قد شاهد استعمال الصكوك وهذا ما نستشفه من قوله"ولقد رأيت صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من أهل سجلماسة باثنين و أربعين ألف دينار"[3].وكان ذلك في منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي .

ويذهب جونس جلين **(Jones.G)** [4] إلى أن المصطلح الجمركي**(Tarif)** من العربية (تعريف) .ولعل كلمة**(Trafic)** .بمعنى المتاجرة هي أيضا مشتقة من العربية (تفريق) أما ليفي بروفنسال**(Levi- profinçal)**[5] فيذكر أن في اللغة الاسبانية العديد من التسميات لمناصب ذات صبغة مالية و تجارية،مازالت بعضها مستعملا وهي من أصول عربية منها **(Almojarife)** من (المشرف) وهو مراقب الخزانة و الشؤون المالية**(Alcabala)** وفي

---

[1]-Monnaies Arabes en Europe Occidentale .Revue numismatique.N° 18, Paris 1956 pp, 128-138

[2]- الإسلام في مجده الأول:ترجمة وتعليق إسماعيل العربي،المؤسسة الوطنية للكتاب، ط I، الجزائر 1979 ص337.

[3]- ابن حوقل: صورة الأرض ص96

[4]-Legacy of Islam , oxford University ,Press ,first edition 1831 p.105

[5] -L'Espagne Musulmane aux x^{eme} Siècle ,Paris 1931 p.98 note N°=2

الفرنسية**(Gabele)** من القبالة العربية ،وهي ضريبة تفرض على المبيعات في الأسواق ،وقد فرضت هذه الأخيرة على بعض السلع سيما في عاصمة المرابطين (مراكش) على عهد علي بن يوسف.[1]وكلمة **(Alfarada)** من الكلمة العربية (الفرضة) وهي ضريبة فرضها المرابطون على اليهود لتجهيز الحملات العسكرية لفرض الجهاد[2].

وتتمثل أهم الصادرات المغربية إلى أوروبا في التمر السوسي[3]و السكر و النيلة الدرعية[4]، والنحاس[5] ،وبعض المنادل النادرة الصنع[6]كما شملت الصادرات الزيت الاشبيلي[7].أما واردات واردات الدولة المرابطية من البلدان الأوروبية ،فكان أهمها على الإطلاق الرقيق خاصة من الصقالبة ويشير"صاحب الحلل الموشية"[8] إلى جملة ما اشتراه يوسف بن تاشفين منهم سنة 464هـ 1071م بقوله"ولما كانت سنة أربع وستين وأربعمائة قوى أمره وعظمت شوكته وبعث إلى الأندلس فاشترى منها جملة من العلوج"....

و لم تقتصر واردات الدولة على تجارة الرقيق فحسب بل شملت سلعا أخرى مثل الأقمشة التي كثر استيرادها من"جنوة" ،و"ميلان" و"لمباردي"[9] كما كانت ثياب الملف الصوفية تصل

---

[1]–عن القبالة المفروضة عن بعض السلع.انظر :الإدريسي:صفة المغرب ص69-70

[2]– وعن الفريضة التي فرضها يوسف بن تاشفين على اليهود.انظر ابن عذارى:البيان المغرب ج4 ص 23

[3]– الإدريسي: المصدر السابق ص4.الزهري:كتاب الجغرافية 118 ص119

[4]– الزهري:نفسه ص117،الإدريسي نفسه ص61

[5]– البكري:كتاب المغرب ص162

[6]– نفسه ص180

[7]–الزهري:المصدر السابق ص98، 132

[8]– مجهول ص 25.ويقصد بالعلوج هنا الصقالبة و سواهم من الرقيق الأوروبي الأبيض البشرة.هامش 32

[9] -Krueger.H.C, the wares of exchange in the Genoese -African trafic of the twelfth Cuntury, Speclum 1973, xII N°= 1 p.59-60

إلى المغرب من فلندة،والسيوف من بيجة(بيزا)[1] .أما القطن و الكتان و الحرير فيرد إلى سبتة من جنوة و بيزا أو عن طريق طريقهما من بلاد المشرق[2].

التجار المسيحيون في المغرب و الأندلس و ظروف إقامتهم

كان النظام المتبع فى البلاد الإسلامية عامة و في المغرب و الأندلس خاصة أن التجار الأوروبيين و غيرهم كانوا يقيمون في فنادق خاصة بهم و تشير المصادر المعاصرة لفترة الدراسة إلى انتشار الفنادق في معظم أنحاء المدن المغربية و الأندلسية ،و قد حرص الأمراء المرابطين على توفير الراحة للتجار فكان بناء الفنادق من بين اهتماماتهم وهذا ما نستشفه مما ذكره ابن أبي زرع والسلاوي من أن يوسف بن تاشفين بمجرد دخوله إلى مدينة فاس سنة 462هـــ 1070م أمر ببناء الحمامات و الفنادق و الأرحاء بها،وأمر بإصلاح أسواقها ،وتهذيب بنائها.[3]

ويبدوا لنا من خلال المصادر المعاصرة لفترة الدراسة مدى حرص الأمراء المرابطين على إقامة الفنادق و الإكثار منها سيما في المدن الساحلية التي كانت محطا ومقصدا للتجار الأجانب و حسبنا في ذلك أن عدد الفنادق بالمرية لوحدها كان قد قارب الألف فندق وهذا ما يوضحه الإدريسي في قوله:"وعدد فنادقها التي أخذها عد الديوان في التعتيب ألف فندق إلا ثلاثون فندقا"[4] في حين بلغ عدد فنادق مدينة "سبتة" ثلاثمائة وستون فندقا،أعظمها بناءا وأوسعها ساحة الفندق الكبير[5]،ويليه في الكبر من الفنادق المعدة لسكنى الناس من التجار و غيرهم

1- الزهري: كتاب الجغرافية ص 76-78

2- نفس المصدر ص78 وانظر أيضا:

Kaueger:H;C , Genoese trade with north Africa in the twelfth century-speclum-1933.VIII,No3,PP,386-388

3- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص91، السلاوي :الاستقصاء ج2 ص27

4-الإدريسي:صفة المغرب ص198

5- محمد بن قاسم الأنصاري السبتي:اختصار الأخبار ص38

الفندق المعروف بفندق "غانم" وهو على ثلاث طوابق و ثمانين بيتا وتسع "مصريات"[1] يعتقد أنه من بناء المرابطين[2]ويذكر(دي فورك**Dufourcq**)[3] أن لكل جنسية فندقا خاصا بها لا يشاركها فيها أحد،و كانت هذه الفنادق على شكل أحياء في وسط المدن أو خارجها ،و في الغالب يعرف اسم الفندق باسم النازلين فيه،وربما يطلق عليه اسم الحي نظرا لأن الفندق يشمل على كل المرافق الخاصة من حمامات و أفران و غيرها.و تكون الفنادق عادة مسكنا للتجار و مقرا لبيع السلع،ويصف دوماس لاتري(**De Mas Latrie**) وسايوس[4](**Sayous**) باب الفندق بأنه متين يوصل إلى ساحة أو عدة ساحات محاطة بالأروقة التي توجد بها مداخل السكن و المحلات الخاصة بالتجار و الحرفيين والعمال في مختلف المهن.

ويتابع دوماس لاتري (**De Mas Latrie**) [5] قوله بأن جزءا من الفندق يخصص لإقامة موثق العقود ،وتحتها توجد غرف مخصصة للمال،ومقر القاضي والسجن،وفي ساحة الفندق توجد الكنيسة و المقبرة.و أن وجودهما ضروري إذ سمح لهم الأمراء بذلك وأعطوهم كامل الحرية لإقامة شعائرهم في الفندق فقط.وكانت أبواب الحي تفتح،وتغلق حسب المواعيد التي تضعها الدولة .أما شرطة الفندق،فإنها تتلقى أوامرها من"القنصل" نفسه أو أحد مساعديه،في حين أن حراس الأبواب الخارجية يشترط فيهم أن يكونوا من ذوي السمعة الحسنة ويحق لهم رفض دخول أي شخص إلى الفندق أو الحي سواء كان مسيحيا أو مسلما إلا إذا كان معه ترجمان أو دليل.ويحق للسلطات الدخول إلى الفنادق للتأكد من سلعة مهربة،أو لمتابعة قضية مدنية أو جريمة قام بها مسيحي.[6]أما نفقات إقامة الفندق فيتحملها أهل الحي الذي يوجد به

---

[1]– جمع مصرية وهو مسكن يكون فوق الحوانيت ونحوها،وهو يعني به هنا ما صار اليوم يعرف بالشقة.انظر محمد بن قاسم الانصاري السبتي:نفس المصدر ص39 هامش 72

[2]– نفس المصدر و الصفحة

[3]-la vie qoutidienne ,p.116

[4] –Relations et commerce. p186. le Commerce des Europeens à Tunis p.79

[5] – ibid.p,168-170

[6] -ibid p.170-171

الفندق ثم يؤجرونه للتجار الأجانب وإذا ما تم تأجير الفندق كله أو جزء منه،فإن إيراده يذهب إلى بيت المال بواسطة موظفين مهنتهم الإشراف على قبض الإيراد[1].

العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى و الأندلس

كان ارتباط المغرب الأقصى بالأندلس ارتباطا وثيقا ،ويعود ذلك إلى الفترة السابقة لعصر المرابطين،ولعل ما سهل على ذلك الامتداد الطبيعي للقطرين إذ لا يفصل بينهما سوى مضيق"جبل طارق" الذي لا تتجاوز مسافته خمسة عشر كيلومتر[2]و الذي زاد في تأصيل تلك العلاقات الأحداث السياسية التي مر بها البلدين،فتارة يبسط الأندلس سلطانه على المغرب الأقصى كما حدث في عهد الدولة الأموية[3]وأحيانا أخرى يخضع الأندلس للسلطة السياسية بالمغرب الأقصى كما حدث في عهد المرابطين الذي أصبح فيه الأندلس إقليما تابعا للحكومة المركزية في مراكش.

وبناءا على ما سبق توثقت العلاقات التجارية واتسع نطاقها بين العدوتين فكانت السفن تسير في قوافل منتظمة حاملة لبضائع مختلفة بين المغرب و الأندلس وقد كان المغرب يمير الأندلس بالغلات وأنواع الطعام المختلفة في العصور السابقة لعصر المرابطين[4]،وزادت أكثر عندما أصبحت الأندلس خاضعة لسلطة المرابطين[5] ومن جهته كان الأندلس يصدر إلى المغرب الكثير من السلع و البضائع نذكر منها التين و العنب والزيتون[6]وكان لزيت اشبيلية الذي اشتهرت به به منطقة الشرف نصيبا وافرا ضمن السلع الاستهلاكية التي يصدرها الأندلس لبلاد

---

[1]-الطاهراحمدمكي:"معاهدة تجارية من القرن الخامس عشر بين سلطان مصر وملك أرغون "مجلة " المجلة" عدد 49 يونيو يوليو 1960 ص89

[2]-حسن علي حسن:الحضارة الإسلامية ص284

[3]-ابن عذارى: البيان المغرب ج 2 ص211-212

[4]-ابن حوقل: صورة الارض ص82

[5]- الإدريسي: صفة المغرب ص73،74 .ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ص142

[6]- حسن علي حسن:المرجع السابق ص285

المغرب،فكانت سفن أهل اشبيلية المحملة بالزيت في حركة دائبة بينها وبين مدينة"سلا"المغربية[1] كما كان القطن الذي تجيد به أرض اشبيلية من بين المحاصيل التي تصدر إلى المغرب وهذا ما يوضحه الحميري في قوله :"والقطن يجود بأرضها،ويعم بلاد الأندلس ،ويتجهز به التجار إلى افريقية وسجلماسة و ما ولاها".[2]

ومن السلع التي كانت ترد إلى المغرب من الأندلس معدن الزئبق المستخرج من منطقة"شلون"[3] و الورق الفائق الجودة الذي اشتهرت به "شاطبة"[4]كما شملت صادرات الأندلس بعض المنسوجات التي اختصت بها كلا من المرية، و مالقة ،و غرناطة[5] و لم تقتصر صادرات الأندلس على ذلك فحسب بل تعدت إلى الصناعات الخشبية مثل القصاع و الأطباق التي تخرط في جبل"قيشاطة" لتعم بلاد المغرب[6] .غير أن أهم السلع التي لاقت رواجا بين المغرب و الأندلس في الأيام الأولى لقيام دولة المرابطين هي الأسلحة و العدة حيث كانت الأندلس المصدر الأساسي لتموين الجيش المرابطي بالأسلحة ، هذا ما نستشفه من قول صاحب الحلل[7]:"وبعث (يوسف بن تاشفين) إلى الأندلس برسم شراء العدة وآلات الحرب،فاشترى له منها كثير."

العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى و المشرق

عرف المغرب الأقصى على عهد المرابطين علاقات تجارية مع بلاد المشرق ومما سهل على تطور تلك العلاقات ارتباط بلاد المغرب بطريق بري و آخر بحري سهّلا الاتصال المباشر فيما

---

[1]-الإدريسي:صفة المغرب ص178،73

[2]-الحميري:الروض المعطار ص59

[3]-منطقة تبعد بأربعة مراحل عن مدينة قرطبة.انظر:عبد الواحد المراكشي: المعجب ص261

[4]-الإدريسي:المصدر السابق ص192

[5]- عبد العزيز سالم:تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص161

[6]- الحميري:الروض المعطار ص488

[7]-مجهول:ص37

بينهما الأول: هو طريق الساحل[1] أما الثاني: هو طريق مصر(سجلماسة) الذي تحولت إليه القوافل التجارية بعد هجرها لطريق مصر (غانة)،نظرا لما أصابه من عواصف رملية ،وكثرة الفتن ،وهجمات قطاع الطرق و هذا ما يوضحه ابن حوقل في قوله:"وفيها الطريق من مصر إلى غانة،فتواترت الرياح على قوافلهم و مفردتهم ،فأهلكت غير قافلة ،وأتت على غير مفردة وقصدهم أيضا العدو فأهلكهم غير دفعة،فانتقلوا عن ذلك الطريق،وتركوه إلى سجلماسة".[2] و الراجح أن الطريق الذي أشار إليه "ابن حوقل" هو الطريق نفسه الذي سلكه الملثمون من سجلماسة إلى مصر سنة 530هـ/1135م[3] .فبتحول الطريق إلى مدينة سجلماسة أصبحت مركزا لتجمع التجار المشارقة من الكوفة وبغداد و البصرة ،حيث أقاموا بها للإشراف على قوافلهم المتجهة إلى غانة و بلاد السودان،مصدر الذهب،وغيره من منتجات الجنوب وتعود بها إلى المشرق،مما زاد في ثرائهم و في هذا يقول ابن حوقل[4] :"وكانت القوافل تجتاز بالمغرب إلى سجلماسة،وسكنها أهل العراق وتجار البصرة و الكوفة و البغداديون،الذين كانوا يقطعون هذا الطريق،فهم وأولادهم و تجارتهم دائرة و مفردتهم دائمة،وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة،ونعم سابغة ،قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام سعة الحال."

ويأتي في مقدمة السلع التي يصدرها المغرب إلى المشرق المولدات الحسان ، والغلمان الروم والعنبر والحرير،وأكسية الصوف الرفيعة و الدّنية ، وجباب الصوف وما يصنع منه ، و الأنطاع والحديد ،و الرصاص، و الزئبق ،والخدم المجلبون من بلاد السودان و أرض الصقالبة.[5]

و لم يقتصر نشاط التجار المشارقة على المدن الجنوبية من المغرب الأقصى بل امتد نشاطهم ليشمل المدن الساحلية حيث كانت الموانئ المغربية ترد إليها السفن القادمة من مصر و بلاد

[1]- راجع عن طريق الساحل:ابن حوقل:صورة الأرض ص64-65
[2]- نفس المصدر ص65
[3]- عن الطريق الذي سلكه الملثمون من سجلماسة إلى مصر انظر التفاصيل في الإدريسي: صفة المغرب ص163-164
[4]- صورة الأرض:ص65
[5]- نفسه ص94-95

الشام ،محملة بالبضائع المشرقية وهذا ما يوضحه "ابن سعيد"في حديثه عن مدينة "حلب" السورية حيث يقول:"و أكثر ما يزرع فيها القطن الذي يحمل في المراكب إلى سبتة فيعم بلاد المغرب"[1] ليعود التجار المشارقة محملين بخشب الأرز الذي يستخدم في صناعة المراكب[2].وقد شبه ابن سعيد مدينة "سبتة" بالإسكندرية في كثرة الحط و الإقلاع حيث أصبحت قطبا من أقطاب التجارة العالمية حيث يتردد عليها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيه من بضائع الهند و غيرها في صفقة واحدة دون حاجة هؤلاء التجار إلى تقاض.[3]

وفي المقابل كانت السفن المشرقية تخرج بالحنطة من ميناء"ماسة"[4] قاصدة ميناء "الأبلة"[5]،ومنه إلى الصين[6].وبذلك يكون التجار المشارقة قد ربطوا بين المغرب الأقصى و بلاد بلاد المشرق .ولعل ما زاد من توطيد العلاقات التجارية بين بلاد المشرق بصفة عامة و"مصر" بصفة خاصة،كون هذه الأخيرة تقع على الطريق الذي تسلكه قوافل الحجيج المسافرة إلى البقاع المقدسة وفي الغالب ما تكون هذه القوافل محملة بالبضائع المغربية و قد أشار "ابن القاضي"[7] إلى إلى إحدى قوافل الحج التي خرجت من "وادي سبو"متجهة إلى المشرق سنة 503هـ/1109م ومما لا شك فيه أن التجار و الحجاج المغاربة كانوا يفضلون أخذ الذهب تبرا كان أم مسكوكا وهم في طريقهم إلى المشرق لأن للذهب فائدتين الأولى :أنه يمكن صرفه في أي بلد باعتباره من المعادن الثمينة ،و الثانية:أن الذهب تبرا أو مسكوكا يخف حمله .ولعل ما

---

[1]-ابن سعيد :كتاب الجغرافيا ص154

[2]- نفس المصدر ص139

[3]- نفس المصدر والصفحة

[4]- يسميه الإدريسي مرسى ماست،ويقع هذا المرسى على المحيط الأطلسي .انظر الإدريسي :صفة المغرب ص74

[5]- مدينة بالعراق يبعد عن البصرة بأربعة فراسخ،ويعد هذا المرسى مرفأ الصين وما دونها .انظر :الحميري :الروض المعطار ص8-9

[6]-اليعقوبي:كتاب البلدان ص360

[7]- جذوة الاقتباس ق2 ،ص650

يؤكد ما ذهبنا إليه تلك الإشارة التي أوردها "علي بن يوسف الحكيم"[1] من أن الدنانير المرابطية كانت تصرف بمصر،وكان المثقال منها يساوي ثلاثة وثلاثين درهما ونصف.وهذا يعني وجود صلات تجارية بين المغرب الأقصى و مصر و يضعف من الرواية التي ذهب إليها "ابن الأثير[2]"والتي يقول فيها بأن التجار المغاربة كانوا يعدلون عن طريق مصر نظرا للمتاعب التي كانوا يواجهونها في مصر الفاطمية.ومما يزيد من دحض رواية "ابن الأثير" ويؤكد عمق العلاقات القائمة بين المغرب الأقصى ومصر أيام المرابطين إشارة الجغرافي "الادريسي"المعاصر لفترة الدراسة إلى الطريق البري الرابط بين المغرب الأقصى ومصر الذي سلكه المرابطون بدليل لصعوبته[3] إلا أن هذا لم يمنع تواصلهم مع بلاد المشرق سيما مصر .

ومما لا شك فيه أن للتجار اليهود المقيمين بالمغرب و الأندلس دورا كبيرا في التجارة الخارجية لا سيما مع "مصر" وبقية العالم خصوصا و أن يهود المغرب و الأندلس تربطهم علاقات عائلية مع إخوانهم من يهود المشرق[4] فكان ذلك عاملا محفزا للطرفين للنشاط أكثر.وتمدنا المصادر التاريخية و الجغرافية بمعلومات وافية عن مواطن اليهود في المغرب الأقصى و الأندلس فيشير "البكري"إلى تواجد جالية كبيرة منهم في "فاس" فيقول:"وهي أكثر بلاد المغرب يهودا يختلفون منها إلى جميع الآفاق"[5] .كما عاش اليهود بأعداد كبيرة بإحدى قلاع "فازاز"وهو ما يفهم من الإشارة التي أوردها صاحب الاستبصار حيث يقول:"وفي هذا الجبل قلعة كبيرة تنسب للمهدي بن توالى ....و كان اليهود في ذلك التاريخ أكثر سكانه،لأنهم سوقة

1- الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، ص56 هامش2

2- الكامل في التاريخ مج 10 ص414

3-الإدريسي:صفة المغرب ص162-163

4- عبد الحميد محمود الشرقاوى:الملاحة البحرية الأندلسية في القرنين الثالث و الرابع الهجري،رسالة ماجستير ،جامعة القاهرة ،كلية الآداب 1935،ص59

5- البكري كتاب المغرب، ص115

فيلجئون للحصن حيطة على سلعهم"[1].كما يذكر "الحميري"[2]تفضيل اليهود السكن في سجلماسة للاكتساب لعلمهم أن التبر أمكن منه بغيرها في بلاد المغرب لكونها بابا لمعدنه.

و في الأندلس كان تمركزهم بالمدن المعروفة آنذاك كمحطات تجارية، أو الواقعة في طرق تجارة العبور،وأهمها غرناطة التي كانت تعرف باسم غرناطة اليهود لأن نازلوها من اليهود[3]،كما عرفت"طركونة"واليسانة باسم مدينتي اليهود إشارة إلى كثر العناصر اليهودية بهما[4].وهكذا يتضح لنا تمركز اليهود في المغرب و الأندلس على المدن المعروفة كمحطات تجارية أو على طول الخط الرئيسي لتجارة السودان مصدر الذهب،ساعدهم على إقامة علاقات تجارية مع التجار المشارقة الذين يترلون بتلك المدن، وبذلك برع اليهود فى التجارة عامة وبوجه خاص مع المشرق وتمدنا "أوليفيا ريمي كونستبل" بمعلومات في غاية الأهمية عن دور اليهود في تنشيط التجارة الخارجية بين بلاد المشرق في عصر المرابطين حيث تشير إلى إقدام رجل أعمال مصري يدعى"أبو الخليف" سنة504هـ/1110م على عقد صفقات تجارية في الأندلس ومراكش[5].ثم ومراكش[5].ثم تستطرد في وصف تلك العلاقة فتشير إلى قيام تاجر أندلسي سنة535هـ/1140م بحمل نحاس وأقمشة أندلسية متجها بها صوب الإسكندرية قصد بيعها،وفي مقابل ذلك كان يتطلع لشراء توابل مشرقية.وفي السنة الموالية 536هـ/1141م حدث العكس حيث قدم تاجر مصري إلى المرية قادما لها من الاسكندرية.[6]كما أمدتنا "أوليفيا "أوليفيا ريمي" بأسماء لامعة لتجار يهود كان لهم دورا في تنشيط التجارة الخارجية بين المغرب و الأندلس و مصر نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر التاجر صموئيل بن أوهتوش **Samuel)**

---

[1]- مجهول:الاستبصار، ص187

[2]- الروض المعطار ،ص306

[3]- نفس المصدر ،ص15

[4]-الإدريسي: صفة المغرب ،ص205،191

[5]- أوليفيا ريمي: التجارة و التجار في الأندلس ، ص154

[6]- نفس المرجع و الصفحة

ben Uhtoush) وهو يهودي أندلسي من مدينة "دانية" ،والتاجر اليهودي المصري الذائع الصيت و أحد التجار الجوالين في العالم هلفون بن ناتانئيل (Halfoun ben Natanail) الذي كان يتنقّل بين المغرب والأندلس سنة 522ه/1128م و الهند بين سنة527ه/1132م-529هـ/1134م ثم العودة إلى المغرب فيما بين 533هـ/1138م-534هـ/1139م حيث أن معظم رسائله التي أرسلها من الأندلس كانت تتعلق بعقده لصفقات تجارية بين المشرق و المغرب ،والشيء الذي مكّنه على عقد تلك الصفقات التجارية في كل من الأندلس و المغرب تلك الروابط العائلية التي تربطه بعائلة يهودية مقيمة في الأندلس،وبعض الصدقات خاصة تلك الصداقة التي تجمعه مع الشاعر المعروف يهودا هاليفي.[1]

ولم تقتصر العلاقات التجارية بين بلاد الغرب الإسلامي في عصر المرابطين على "مصر"فحسب بل تعدتها لتشمل بلدانا أخرى نذكر منها "عدن" التي عمل بعض التجار اليهود للإقامة فيها حتى يمكّنهم ذلك من الإشراف على تجارتهم خاصة مع نمو تجارة الهند،فكانوا يقيمون "بعدن" سنة ليعودوا في السنة الموالية إلى مدنهم سواء في المغرب أو الأندلس[2].ومما زاد في ثرائهم خصوصا فى "فاس"[3] إقبالهم على العمل في الصياغة والصيرفة إذ يقطع "علي بن يوسف الحكيم"[4] بعملهم في هذا المجال بقوله:"أنه لما اتسع نطاق ملك المغرب، وسمت همّة أمرائه أن يتميز مكانهم بالأمتعة ، والأسلحة المصنوعة من الذهب و الفضة و المموهة بهما...استدعوا الصياغ من سائر الآفاق و الأصقاع ،واجتمع منهم جملة وفيرة ،فأبدعوا الصنائع العجيبة الفاخرة ،فداخلهم إذ ذاك أهل الذمة من اليهود وخادعوهم بالخدمة الظاهرة و الباطنة... فانفرد أهل الذمة من اليهود بصناعة الصياغة (واختصوا) بها وأقاموا لها سوقا

---

[1]- أوليفيا ريمي : التجارة و التجار في الأندلس ،ص155

[2]- نفس المرجع والصفحة

[3]- مجهول : الاستبصار ،ص202

[4]- الدوحة المشتبكة ، ص115-116 .و الكلمة الواردة داخل القوس من تصحيح المحقق.

لأنفسهم، ولما استولوا على الصياغة احتاجوا لشراء الذهب والفضة فأدخلوا أنفسهم في الصرف و التردد لدار الضرب".

أما طبيعة العلاقات التجارية بين التجار المغاربة و المشارقة فيشير"جويتن"(**Goitein**) [1] إلى أن التجار المشارقة كانوا يتخذون من الوكالة نظاما لهم فالوكيل هو الذي يوزع البضائع على الشركاء حال وصول التجار المشارقة،ويقوم ببيع بضائعهم،كما يقوم لهم مقام المصرف حيث يود عون أموالهم عنده و عن طريقه يتم الدفع.ونتيجة لهذا التعامل،صار للتجار المصريين أصدقاء من التجار المغاربة ،وصارت تجمعهم علاقات مودة ومراسلات و حسبنا في ذلك أن أحد تجار الإسكندرية كتب رسالة إلى صديقه التاجر "بالقاهرة" يخبره فيها أن صديقه التاجر المغربي من مدينة "فاس" قد أرسل له قضيبا من الذهب بهدف بيعه و شراء حرير أندلسي لحسابه.[2]

و لم يقتصر النشاط التجاري بين المغرب و المشرق على التجار اليهود القاطنين بالمغرب الأقصى و الأندلس فحسب بل تعداه لليهود المعروفين باسم "الرذانية"[3] إذ شارك هؤلاء بقسط كبير في التجارة بين المغرب و المشرق إذ كانوا يترددون بين المغرب و المشرق برا وبحرا ، وكانوا يجلبون من المغرب إلى المشرق الخدم و الجواري ،و الغلمان والديباج ،وجلود الخز و الفراء و السمور ،و السيوف.[4] وما دمنا بصدد الحديث عن العلاقات التجارية بين المغرب و المشرق ونظرا لكون الأندلس في تلك الفترة خاضعة لسلطة المرابطين تجدر الإشارة هنا إلى ذكر العلاقات القائمة بين الأندلس وبلاد المشرق .حيث لعب التجار الأندلسيين دورا كبيرا في تسويق منتجاتهم إلى المشرق عبر موانئها التي تقصدها سفن المشرق خاصة من الإسكندرية

---

[1]-Jews and Arabs their contacts through the ages ,New York ,Schocken .1955 P.118-119

[2] -Goitein : Studies in islamic History and instutions, Brill, Leiden. 1968 p.268

[3]- يطلق هذا الاسم على اليهود الذين كانوا يجوبون بلاد أوروبا ويتقنون عدة لغات .انظر :ابن خرذا ذبة:المسالك والممالك ،تحقيق د ي خويه ط(2) طبع ليدن ،مطبعة بريل 1967، ص153

[4]- نفس المصدر و الصفحة

وبلاد الشام.[1] وكانت أهم صادرات البلاد الأندلسية إلى المشرق الزيت الاشبيلي[2] و التين المالقي[3] و الموشي المذهب[4] و الزئبق القرطبي الذي كان يصدر إلى عدة أقطار منها الهند[5] كما تصدر الكبريت الأحمر من مرسية إلى الهند و بلاد الشام ، و العراق و أقطار أخرى[6] هذا إلى جانب نوع من الطين المستخرج من الجبل القريب من مدينة"طليطلة" المعروف بنهاية للذاذته في الأكل ، و في تنظيف غسل الشعر . فمنه كان يتجهز به إلى مصر و جميع بلاد الشام و العراق و بلاد الترك[7]. و مما يدل دلالة واضحة على العلاقات القائمة بين بلاد الأندلس و المشرق الإسلامي ما أورده"عبد العزيز سالم"[8] عن وجود قبور بمدينة "المرية" تحمل أسماء بعض التجار أحدهما اسكندري الأصل يدعى ابن حليف الاسكندري المتوفى سنة519هـ/1125م و الثاني من بلاد الشام واسمه "أبو عمرو عثمان بن محمد بن بقي الشامي" المتوفى سنة 525هـ/1130م و الثالث هو "ابن الحسين آدم بن عمر الشاطبي" المتوفى في" المرية" سنة 527هـ/1132م،و الرابع التاجر" أبو بكربن محمد بن ابراهيم بن حمد بن طيفور" المتوفى سنة 540هـ/1145م.

العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى و جنوب الصحراء

تعتبر العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى و جنوب الصحراء مصدرا أساسيا للدخل القومي للدولة المرابطية ، وقد نشطت الحركة التجارية بين الإقليمين نتيجة إخضاع المرابطين لأقاليم المغرب الأقصى المختلفة تحت ظل حكومة واحدة حرصت على استتاب الأمن و النظام

---

[1]-الإدريسي: صفة المغرب،ص197. الحميري: الروض المعطار،ص538
[2] -الزهري:كتاب الجغرافية ص89. المقرى: نفح الطيب مج (3) ص213
[3] -المقري:نفح الطيب مج 1ص 152
[4] -نفس المصدر ص201
[5] -الزهري: المصدر السابق ص 31
[6] - نفس المصدرص31 ، 99
[7] -الإدريسي المصدر السابق ص188
[8] -تاريخ مدينة المرية الإسلامية ص170

وهذا ما ساعد على انتظام القوافل المتجهة إلى الجنوب و القادمة منه. كما أصبح المغرب الأقصى ممر آمنا لتجارة الصحراء إلى الأندلس و أوروبا و المشرق . و من هنا اكتسبت التجارة بين المغرب الأقصى و جنوب الصحراء أهمية خاصة ، فتنوعت السلع و أشهرها على الإطلاق الذهب لكثرته .[1]

وتتفق المصادر[2]على أن أفضل الذهب في بلاد"غانة" هو ذهب"غيارو"[3] أما أكثر المناطق ذهبا فهي مدينة"كوغة"[4]وقد قام بوڤيل(**Bovill**)[5]بحصر هذه المناطق فذكر منها"بامبوك"الواقعة منها"بامبوك"الواقعة في أعالي السنغال ونهر"فاليم"،و"بوري"الواقعين في تقاطع أعالي نهر النيجر و"لوبي"في فولتا العليا و أشانتي" الواقعة في الأراضي الداخلية لساحل الذهب.وكان الذهب المستورد من"غانة"وجنوبها يستخدم في سك العملة حيث يعود التجار به إلى دور السك ليضرب دنانير يتصرّف بها في التجارة.[6] ومما يوضح أهمية ذهب السودان الدراسة التي قام بها ميسر **(Messier)** [7] و هي عبارة عن تحليل كيميائي لعدد من النقود المرابطية للفترة من 442هـ/1050 م إلى 597هـ/1200م للتدليل على صحة ما ذهب إليه المؤرخين الاقتصاديين من أن ذهب السودان الغربي لعب دورا بارزا في الحياة الاقتصادية لبلدان حوض البحر المتوسط في القرون الوسطى.وقد أثبتت الدراسة الدور الكبير الذي قام به المرابطون في

---

[1] -أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ص 34. ابن سعيد: كتاب الجغرافيا ،ص 93. الحميري: الروض المعطار ، ص426

[2] -البكري: كتاب المغرب ص176 ، ابن سعيد:المصدر السابق ص93

[3] -مدينة في بلاد السودان تبعد عن غانة بإحدى عشر مرحلة وعن نهر النيجر بإثني عشر ميلا ، و هي من الأقاليم التابعة لملك غانة للمزيد. انظر: البكري: نفس المصدر و الصفحة . الحميري: المصدر السابق ص427

[4] – مدينة تبعد عن"غانة" مسيرة خمسة عشر يوما ، تقع على الضفة الشمالية لنهر النيجر ، و سكان هذه المدينة مسلمون انظر: البكري: المصدر السابق، ص179. مجهول :الاستبصار، ص222، الحميري: المصدر السابق ص504

[5]- The golden trade of the moors ,Ox frod university ; press , 1968,p.121

[6] – الإدريسي : صفة المغرب ص 8

[7]- The Almoravids west african gold and the gold currency of the Mediterranean basin. in (journal of the economic and social History of the orient) vol. XVII.part No.1.1974. p – 31 – 32

توزيع ذهب السودان الغربي في منطقة حوض البحر المتوسط حيث كان لتجارهم نشاط كبير.كما حظيت عملتهم بصيت واسع في الأوساط التجارية الدولية.سيما بعد استلائهم على المدينة"سجلماسة"سنة 446هـ /1054م ثم على أودغست في السنة نفسها[1] وهما المحطتان الرئيسيتان لاستقبال ذهب السودان الغربي،فلم يكن من قبيل الصدفة أن أخذ المرابطون بعد سنتين من استلائهم على المدينتين في ضرب دنانيرهم في دور السكة بسجلماسة[2] .

و إلى جانب الذهب كانت تجارة الرقيق تمثل إحدى السلع التجارية الهامة منذ أقدم العصور،وكانت بلاد السودان مصدرا لرقيق المغرب الأقصى،وقد أمدنا "الإدريسي"المعاصر لفترة الدراسة بنص في غاية الأهمية يشير فيه إلى كيفية الحصول على الرقيق من السودان وبخاصة من أرض"زغاوة"[3] فيذكر أن أهالي المدن المجاورة يسرقون أبناء هؤلاء القوم الذين يتنقلون في هذه الصحاري،ويسيرون ليلا إلى بلادهم ثم يخفونهم بعض الوقت، وبعدها يبيعونها إلى التجار القادمين إليهم من المغرب الأقصى بثمن بخس[4].الأمر الذي ساعد على رواج هذه التجارة وانتشارها بكثرة ويتضح ذلك من قول الإدريسي:"ويباع منهم في كل سنة أمم وأعداد لا تحصى."[5]ومما شجع على إقبال التجار المغاربة في عصر المرابطين —خاصة- على هذه التجارة أن أن أرض"صنهاجة" مجاورة لبلاد السودان،كما كان لكثرة الحروب التي خاضها المرابطون في المغرب والأندلس ضد مناوئهم سببا في إقبال الأمراء المرابطين على شراء عدد كبير منهم.ولعل من الظواهر التي تدل دلالة واضحة على تزايد الرقيق السود في المغرب الأقصى ظاهرتين أساسيتين هما: الأولى:تتمثل في كثرتهم المتزايدة في الجيش المرابطي حيث أن"يوسف بن

---

[1] البكري : كتاب المغرب ص 167-168

[2] - Lavoix: Henri ; catalogue des monnaies Musulmanes, de la bibliothèque natoinale de Paris ,vol .2,(Espagne et Afrique) Paris 1891,T,2, P.198

[3]–منطقة من مناطق بلاد السودان،تبعد عن "ا نجيمي" مسيرة ستة أيام ،وزغاوة عبارة عن كور عديدة بها الكثير من السكان حرفتهم التجارة.للمزيد.انظر:الحميري:الروض المعطار، ص294

[4] –الإدريسي: صفة المغرب ص33

[5] –نفس المصدر والصفحة

تاشفين"اشترى سنة 464هـ/1072م نحو الفين من العبيد السود[1].واشترك معه أربعة آلاف في معركة الزلاقة.[2]

أما الثانية:فإن الإشارات تدل على وجود أعداد كبيرة منهم في المغرب الأقصى إذ فرض"علي بن يوسف"على أهل"فارس"سنة 523هـ/1129م(استعدادا للجواز إلى الأندلس) عددا من سود انهم يغزون مع الجيش،وكان نصيب"فاس" ثلاثمائة رأس منهم[3].

ولم تقتصر السلع الواردة من بلاد السودان على الذهب و الرقيق فحسب بل شملت سلعا أخرى مثل الشب[4]،والجلود خاصة جلود الحيوانات المفترسة النادرة في المغرب.وكان أهمها على الإطلاق جلد حيوان اللمط الذي يتّخذ من جلده تروسا تعرف باسم الدرق اللمطية الخفيفة الحمل والتي لا تنفذ منها السهام.[5]والراجح أن كمية السلع المتبادلة بين المغرب وبلاد السودان كانت كثيرة مما دعى الإدريسي إلى القول بأنها كانت"بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال"[6] كما أن عائدها كان وفيرا مما شجع تجار بعض المدن الجنوبية(خاصة أغمات) على إرسال قوافلهم وعبيدهم إلى السودان فكان التاجر الواحد يرسل مابين السبعين و المائة جمل كلها محملة بالسلع و نتيجة لهذا الثراء الفاحش وصفهم"الإدريسي"[7]بقوله"ولم يكن في دولة الملثم أحد أحد أكثر منهم أموالا،ولا أوسع منهم أحوالا،وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم."

---

[1] -ابن عذارى:البيان المغرب،ج(4) ص23،مجهول:الحلل الموشية،ص25

[2] -المقري: نفح الطيب مج (4) ص367

[3] -ابن القطان:نظم الجمان ص152

[4] -عن هذه المادة انظر للمزيد: الإدريسي:صفة المغرب،ص38-40

[5] -أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب ص36-37

[6] -الإدريسي: المصدر السابق ص66

[7] -نفس المصدر والصفحة

أما السلع الصادرة إلى السودان فكثيرة إلا أن الملح كان أشهر سلعة يحملها التجار إلى السودان ذلك أن ملوك"غانة"كما يقول"ابن حوقل[1] " كانوا في حاجة ماسة إلى هذا الملح. وكان التجار المغاربة يحصلون على هذه المادة من مناجمها في"تانتال[2]" و"أوليل[3]"ومنهما يتجهز به إلى بلاد السودان،و الذي يؤكد أهميته مادة الملح في التجارة،أن العمل في تلك الجزيرة كان متصلا ليل نهار،يحفر عنه كسائر المعادن والجواهر[4].

وتسببت ندرة الملح في بلاد السودان مع حاجة الإنسان الطبيعية لمادته إلى أن صارت قيمته أغلى من الذهب،وكثيرا ما كانت بعض القبائل تستبدله بما زنته ذهبا نظرا لحاجة السودانيين إلى الملح إذ أنه لا قوام لهم إلا به،حتى أن سعر الحمل منه بلغ مائتين إلى ثلاثمائة دينار[5].ومن هنا هنا فليس من الغريب بعد هذا كله أن احتل الملح مكانة فريدة في التجارة وأصبح له وزن خاص كسلعة ثمينة،إذ صار بمثابة العملة اليوم،يتعاملون به في حياتهم التجارية العادية،وهذا ما يفهم من قول البكري[6]:"وتجارة أهل"كوكو" بالملح و هو نقدهم". ومما لاشك فيه أن لتجارة الملح(في عهد المرابطين) عائد كبير على تجار المغرب الأقصى نتيجة احتكارهم لها خصوصا ونحن نعلم أن مناجم الملح كانت بأرض مسوفة وجدالة الصنهاجيتين.[7]

---

[1] - صورة الأرض ص98

[2] -يبدوا لنا من خلال المعلومات الواردة عن هذا المنجم عند البكري وابن بطوطة أن تانتال هي"تغازى" نفسها وذلك لتشابه المعلومات الواردة عندهما انظر البكري: كتاب المغرب ص171. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ج (2) ص 269

[3] - منطقة تقع على ساحل المحيط الأطلسي تبعد عن"سلا" بستة عشر مرحلة سكانها من جدالة:انظر: البكري: كتاب المغرب ص171. الإدريسي: صفة المغرب ص32 ، الحميري:الروض المعطار ص64

[4] -البكري: نفس المصدر والصفحة

[5] -ابن حوقل: المصدر السابق ص98

[6] - كتا ب المغرب ص183

[7] -البكري: نفسه، ص171 .ابن بطوطة: المصدر السابق ،ص 269

ومن بين المعادن التي تصدرها بلاد المغرب إلى السودان معدن النحاس الذي يتوفر بكثرة في بلاد المغرب خاصة في منطقة "ايجلي"[1] التي يعمل فيها على شكل سبائك،ومنها يتجهز به إلى بلاد السودان[2] ويتضح لنا جليا من رواية"ياقوت الحموي"في حديثه عن السودان ، أن النحاس كان يستخدم للزينة إذ يقول:"يسافر التجار من سجلماسة إلى مدينة في حدود السودان يقال لها "غانة" وجهازهم الملح،وعقد خشب الصنوبر ...وخرز الزجاج الأزرق وإسورة من نحاس أحمر وحلق،وخواتم نحاس لا غير".[3]

كما شملت صادرات المغرب أيضا بعض المواد الغذائية مثل القمح و السميد على الرغم من أن القمح كان يزرع في السودان إلا أن الكمية التي تنتج منه لم تكن كافية لحاجة السكان،وعليه فقد كانت القوافل تحمل منه أحمالا كثيرة إلى بلاد السودان.ويبدوا أن الطبقات الشعبية لم تكن تحصل على حاجتها منه لارتفاع أسعاره،غير أن سكان القرى الواقعة على حافة الصحراء الجنوبية وسكانها في الغالب من الملثمين،كانوا يحصلون على مقادير قليلة منه مقابل خدماتهم التي يقدمونها للتجار أثناء مرورهم ببلادهم[4].وإلى جانب القمح استوردت "غانة"الفواكه المجففة المجففة لانعدامها تماما ببلاد السودان وهذا ما نستشفه من قول الإدريسي المعاصر لفترة الدراسة"ليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة إلا ما يجلب إليها من بلاد سجلماسة".[5]ولم تقتصر السلع التي تحملها القوافل التجارية إلى بلاد السودان على السلع السالفة الذكر بل شملت سلعا أخري مثل الأكسية،وثياب الصوف والعمائم والمآزر و الزجاج ، والأصداف، والأحجار الكريمة،والأفاويه و العطر،وبعض الآلات المصنوعة من الحديد.[6]

---

[1]- البكري:كتاب المغرب ،ص162

[2]- الحميري:الروض المعطار ،ص71

[3]-ياقوت الحموي: معجم البلدان ج2 ،ص14

[4]- السلاوي: الاستقصا ج 2 ،ص3

[5]- الإدريسي: صفة المغرب ،ص4

[6]- نفس المصدر ص66

أثر التجارة الخارجية على العملة المرابطية و تداولها في الأسواق الدولية

كان لذهب السودان الغربي دورا هاما في الحياة الاقتصادية في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى،وهذا ما نشط التجارة الدولية في المنطقة في عصر المرابطين،حيث بلغت شأنا كبيرا،وازداد إقبال التجار الأوروبيين على تجارة المغرب،وليس أدل على ذلك من شيوع الثقة بالدينار المرابطي،الذي بلغت سمعته آفاق المغرب و الأندلس و الشرق،و مما لا جدال فيه أن إقبال التجار على نقد الدولة،إنما يدل على حسن ثقتهم بها ،مما أدى إلى ارتفاع قيمة العملة المرابطية بسبب كثرة التعامل بها[1]،ولعل ما يؤكد ذلك أن أسعار السلع المذكورة في المراسلات المتبادلة بين التجار الأوربيين و بين المسلمين في بلاد المغرب يرد ذكرها بالدنانير المرابطية [2].وما يزيد في تأكيد تداول العملة المرابطية في أوروبا أن الحوليات القشتالية،ورد فيها ذكر لعملات يفهم منها أنها تقليد للعملة المرابطية،فورد ذكر للعملة المسماة (El Moravid de oro) أي الدينار المرابطي من الذهب (نسبة إلى المرابطين،كما ذكرت عملة ثانية تسمى (El Dinaro de Plata) أي الدينار من الفضة وهو متوسط القيمة،ويشار إليه أحيانا باسم "الدرهم". [3]

ونظرا لسمعة العملة المرابطية في الأسواق الدولية،وفي عالم البحر المتوسط استخدمت كوحدة للتعامل في أوروبا المسيحية نفسها حيث ورد في رواية تعود إلى سنة 545هـ 1150م إشارة إلى أن الخبز كان يباع بربع دينار مرابطي.[4] وإشارة أخرى تذكر أنه في سنة 558هـ/1162م وعد كونت بروفانس أن يدفع اثنى عشر ألف (Maraboutins) أي دينار مرابطي إلى الإمبراطور [5] كما أشار الميثاق الصادر من أحد الأساقفة إلى إعطاء مائتي دينار

[1]- حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ،ص403

[2] -Sayous:le commerce des européens à Tunis ,pp,143-147.

[3]- Menendez pidal, R. la Espana del Cid , Madrid. 1969,p.788.

[4] -Ronald Messier: The Almoravids west Africa gold, p.33

[5]- Menendez pidal, R. op cit .p 788

مرابطي إلى الأشخاص الذين يستقبلون المرضى،هذا ناهيك عن العثور على تمثال يرجع إلى سنة 575هـ/1175م نقش عليها مبلغ عشرين دينار مرابطيا[1]،كما عثر على دنانير مرابطية في حفائر دير(De camp) جنوبي تولوز(Toulouse) و فيرنو(vernoux) في فرنسا وسانت رومان(saint Roman) وهذا ما يؤكد استخدام الأوروبيين للعملة المرابطية كوحدة قياس للعملة،وتداولها في أوروبا الغربية.[2]

ويذكر هنري ميسباش (Henri, L . Mesbach) [3] أن التجار الأوروبيين استخدموا عملة المرابطين داخل أوروبا ،كما صدروا تلك العملة إلى الشرق بفوائد لا بأس بها لأنفسهم، وثبت أن الدنانير التي صدرت إلى الشرق الأدنى بواسطة تجار جنوة بين سنتي 548هـ 1153م ،549هـ/1154م شملت نسبة معينة من العملة الذهبية المرابطية.ونظرا لرواج التجارة في العصر المرابطي،وقيمة الدينار المرابطي في السوق الدولية فإن "لافوا"(Lavoix)[4] يذكر بأن الدينار المرابطي وصل إلى القسطنطنية،وأصاب من الشهرة ما أصابه الفلورين الفلورنسي فيما بعد.و لم يقتصر تداول العملة المرابطية على أوروبا فحسب بل شمل منطقة الشرق حيث ورد في وثائق الجنيزة أن التجار المغاربة الذين يفدون إلى الإسكندرية،كانوا يستخدمون العملة المرابطية في معاملاتهم التجارية خاصة "البكرية"[5]و"الأغماتية"[6] منها نظرا للإقبال الشديد عليها[7]، بالرغم بالرغم من أن العملة الفاطمية كانت أكثر قيمة من العملة المرابطية[8]

---

[1] -Ronald Messier: The Almoravids west Africa gold,p 33.
[2] -Ronald Messier: ibid, p.33
[3] -Genoese commerce and the Alleged flow of gold to the East,1154-1253, in Revue Internationale d'Histoire de la Banque , Geneva, 1970 p,80.
[4]-Catalogue des monnaies Musulmanes p,XXXI
[5] – يقصد بها الدنانير التي ضربها الأمير أبو بكر بن عمر
[6] –أما الأغماتية فيقصد بها الدنانير التي ضربت في مدينة أغمات
[7]- Goitein S.D. A Mediterranean society, vol. I ,P.235-236
[8]– ابن بعرة:كتاب كشف الأسرار العملية بدار الضرب المصرية،تحقيق عبد الرحمن فهي،لجنة أحياء التراث الإسلامي،القاهرة 1966،ص58-59

ويرى أرنولد ميسر(Arnold Messier)[1]أن سبب إقبال تجار مصر على العملة المغربية وسماح الدولة الفاطمية للتجار المغاربة بالتعامل بالدينار المرابطي يكمن في أن الدولة المرابطية في هذا الوقت كانت قد فقدت سيطرتها على منافذ ذهب السودان الغربي،ووجدوا صعوبة في الحصول على الذهب مباشرة بعد أن سيطر المرابطون على منافذه.فاعتمد الفاطميون اعتمادا كليا على التموين والإنتاج المحلي،و يبدوا أن إنتاجهم لم يعد كافيا لذا فكروا في وسيلة أخرى للحصول على نسبة من هذا الذهب ووجدوا ضالتهم في التجار المغاربة الذين يفدون إلى الإسكندرية.

وتعدى تداول الدينار المرابطي وسمعته"مصر" إلى السواحل الجنوبية للجزيرة العربية إذ ذكر "ابن حوقل"أن ضمان عشر المراكب في "عدن" كان يقدر بالعملة المرابطية فيقول:"دخلت عدن سنة أربعين وخمسمائة...وكان ضمان عشر المراكب بحسب مائة ألف وأربعة عشر دينار مرابطية".[2]ونظرا لإحكام المرابطين السيطرة على منافذ العبور إلى ذهب السودان الغربي و سمعة عملتهم الذهبية في العصور الوسطى ورد في وثيقة صينية تعود إلى 574هـ/1178م ذكر اسم مولنبي (Mulanpi)[3] بأنها المركز التجاري للدول في المغرب الأقصى.ومن وصف الوثيقة لمنطقة المغرب الأقصى نخلص إلى نتيجة مفادها أنه ليس من المستبعد أن تكون العملة المرابطية قد وصلت بالفعل إلى الصين عن طريق التجار المشارقة سواء أكانوا "مصريين" أو"يمنيين"وإن كان الاحتمال القائم هو أن تكون العملة المرابطية قد وصلت إلى الصين عن طريق "عدن"لكونها "مرفأ مراكب الصين."[4]

---

[1] -The Almoravids west Africa gold, p39-40

[2] –وردت هذه المعلومة في كتاب: صورة الأرض ص 32 . ويبدوا أن هذا النص إضافة من ناسخ الكتاب إذ أن من المعروف أن ابن حوقل توفي في القرن الرابع الهجري،في حين أن هذا النص يحدد السنة"بسنة أربعين وخمسمائة هجرية"أي بعد وفاة ا بن حوقل بكثير

[3]– تطابق هذه التسمية في اللغة العربية كلمة المرابط انظر:

Ronald, A.Messier: the Almoravids west Africa gold p.34

و يحتمل أن تكون هذه التسمية يقصد منها كاتب الوثيقة المنطقة التي كان يسيطر عليها المرابطون.

[4]– الحميري: الروض المعطار ،ص408

وتعود سمعة الدينار المرابطي و قوته إلى شهرة ذهب السودان الغربي الذي سكت منه العملة المرابطية،وما ناله من وصف لدى جغرافي العصور الوسطى وتجار تلك الفترة أنفسهم فالجغرافي"اليمني الهمذاني"[1] وصف ذهب "غانة"بقوله:"أما أغزر معادن الأرض الذهبية،فمعدن غانة" أما "ياقوت الحموى"[2]فيسمي بلاد السودان ببلاد "البتر"ويقول:التّبْرُ بلاد من بلاد السودان،تعرف ببلاد التبر،و إليها ينسب الذهب الخالص"ووصف "البكري"[3]ذهب "أودغست" بأنه أجود ذهب الأرض وأصحه"في حين وصف "الإدريسي" منطقة "وانقارة"[4] بأنها مشهورة بالتّبر الجيد فيقول:"وهي بلاد التبر المذكورة الموصوفة به طيبا."[5]ومما يؤكد استخدام ذهب السودان الغربي في سك العملة الذهبية بدور السك المغربية قول "الإدريسي":"واشترى أكثره أهل ورقلان وأهل المغرب الأقصى،وأخرجوه إلى دار السكك في بلادهم فيضربونه دنانير،ويتصرفون بها في التجارات و البضائع"[6].

وإلى جانب ما ذكره الإدريسي أورد"البكري" إشارة إلى العملة الذهبية الخالية من أي علامات،والتي سكت من الذهب الخالص في"تادمكة"[7] فيقول:"ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة"[8]وليس من المستبعد أن تلك العملات الخالية من الشارات قد انتقلت

---

[1]-كتاب الجوهرتين العقيقتين المائعتين من الصفراء و البيضاء ،نشر كريستوف تول، بسالة. 1968 ،ص 141

[2]- معجم البلدان ج 2 ،ص14

[3]-كتاب المغرب ،ص159

[4]- منطقة في بلاد السودان قريبة من غانة،يحيط بها نهر النيجر من جميع الجهات،فلما يحن شهر أوت يفيض النهر،فيغطي تلك الجزيرة أو أكثرها و عند رجوع المياه يأخذ السكان في التقاط الذهب الذي قذفت به المياه للمزيد .انظر :الحميري: الروض المعطار ص611

[5]- الإدريسي:صفة المغرب ،ص7

[6]- نفس المصدر ،ص8

[7] – مدينة في بلاد السودان الغربي تبعد عن غانة مسيرة خمسين مرحلة أما سكانها فهم بربر مسلمون،يتلثمون كما يتلثم بربر الصحراء وطعامهم اللحم واللبن.انظر:الحميري:المصدر السابق ص128

[8] -البكري: كتاب المغرب ص181

إلى المغرب بذلك الشكل وسكت بمواصفات المرابطين،لأنه ليس هناك ما يدل على تداولها في السودان.

أما النتيجة التي نلخص إليها مما سبق أنه يمكن القول أن الأسطورة التي أحاطها جغرافيو وتجار العصور الوسطى عن ذهب"غانة" هي التي جعلت تلك الأسطورة تمتد إلى عملة المرابطين ونالت بذلك شهرة في الأسواق الدولية

أثر التجارة الداخلية و الخارجية في ارتفاع مستوى الدخل الفردي

كان للسياسة التي طبقها المرابطون في المغرب و الأندلس من إقرار للأمن،وفرض ما أوجبه الكتاب والسنة من فرائض وإزالة غيرها من المكوس[1]أثرا بارزا على التجارة الداخلية و الخارجية،حيث نشط التجار بعد أن أصبحوا آمنين على أنفسهم و أموالهم،فترددوا بين المغرب و السودان الغربي في بداية الأمر ،وحققوا من ذلك ثراء كبيرا سيما و أن الروح التجارية سارية في أهالي الجنوب عموما منذ القدم حيث يذكر "البكري"[2] أن أهل"السوس"و"أغمات"أكثر الناس تكسّبا وأطلبهم للرزق حيث يكلّفون نسائهم وصبيانهم التحرف والتكسب."وذكر "الإدريسي" أن أهل "أغمات" أملياء وتجار مياسير يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من مختلف البضائع. ونظرا لثرائهم كان الفرد منهم يسفّر في الرحلة الواحدة مابين السبعين و المائة جملا[3] ويستطرد "الإدريسي"في وصف ثرائهم فيقول "و لم يكن في دولة الملثم أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا و بأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم،وذلك أن الرجل منهم إذا ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه،وأربعة آلاف يصرفها في تجارته"[4]ولإظهار ثرائهم للعامة كانوا يتخذون عُرصًا (علامات) على يمين و

---

[1]- السلاوي:الاستصقا ج2 ،ص12

[2]- كتاب المغرب،ص163

[3]-الإدريسي:صفة المغرب،ص66

[4]- نفس المصدر،ص66

يسار أبواب منازلهم للتدليل على ذلك بحيث إذا مرّ بها إنسان وعدّها،عرف من عددها مبلغ صاحب الدار من الأموال.[1]

و لم يقتصر هذا الثراء على أهل أغمات فحسب بل شاركهم في ذلك تجار"سجلماسة" هذا الثراء و الغنى حتى أن أحدهم كان له صكا على آخر مبلغه اثنان و أربعون ألف دينار.[2] ولما تمكن المرابطون من إحكام قبضتهم على بقية المغرب ظهرت نواة لمجتمع برجوازي في بعض المدن المغربية سيما الواقعة على الطرق المؤدية إلى بلاد السودان الغربي مثل مراكش،وفاس،وتلمسان فوصف"الجزنائي"[3] ما بلغه أهل فاس في أيام المرابطين بقوله:"وانتهت مدينة فاس فى أيام المرابطين... من الغبطة و الرفاهية ...ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب" وبيّن لنا"الحميري"[4]ما كان عليه أهل تلمسان من الثراء بقوله:"و لم يكن في بلاد المغرب بعد أغمات وفاس أكثر من أهلها أموالا،ولا أرفه حالا"وعمّ الثراء أيضا بقية المدن المغربية الواقعة على الساحل و حسبنا في ذلك ما بلغه أهالي مدينة "سبتة" من الثراء حيث كان التجار الأغنياء يبتاعون المركب بما فيه من بضائع في صفقة واحدة،ولا يحوجون صاحبها إلى تقاض.[5]

ومما ساعد على ارتفاع مستوى الدخل الفردي أن توحيد المغرب والأندلس تحت سلطة واحدة فتح آفاقا جديدة أمام أهل المغرب فوجدوا في الأندلس ميدانا يظهرون فيه تفوّقهم،و في المقابل وجد بعض الأندلسيين في بساطة الإسلام و مقومات الوحدة جوا للهجرة إلى المغرب،فهاجرت بعض العناصر الجديدة من الأندلسيين إلى المغرب،ومن بينهم تجار مهرة وأدباء و غيرهم ما لبثوا أن نشروا أفكارا اقتصادية جديدة تمخضت عنها حركة تطورية طبعت مختلف الحياة المغربية

---

[1]- الادريسي:صفة المغرب ص 66 -67

[2]-ابن حوقل :صورة الأرض،ص65

[3]- زهرة الآس،ص79

[4]- الروض المعطار ،ص135

[5]- ابن سعيد:كتاب الجغرافيا،ص82

بطابع جديد لم يكن للقبائل عهد به في مجتمعاتهم واقتصادهم[1] ،وما زاد في دخل الفرد قلة النفقات التي تصرفها الدولة على الجند،إذ كان الجند يؤجرون على خدمتهم بإقطاعهم إقطاعات زراعية يستثمرونها،ويتصرفون في غلتها[2]،وهذا ما شجع الكثير على زيادة دخله سيما بعد أن فتحت أمامهم أسواقا جديدة بلغ بعضها شهرة عالمية مما سمح لهم بتنمية ثرواتهم فوصف لنا"الإدريسي" فكان عليه أهل المرية من الثراء في أيام المرابطين بقوله:"وكان أهلها مياسير و لم يكن في بلاد أهل الأندلس أحضر من أهلها نقدا،ولا أوسع منهم أحوالا".غير أن ما ينبغي الإشارة إليه هو أن هذه الثورة كانت قد تجمعت في أيدي اللمتونيين خاصة والمقربين منهم،فالمقرى يذكر أن "أبا بكر بن باجة" غنّ في حضرة "ابن تيفلويت" (أحد أمراء المرابطين)فلما طرق ذلك التلحين سمع "ابن تيلفويت" صاح:واطرباه!وحلف بالإيمان المغلظة أن لا يمشي"ابن باجة" لداره إلا على الذهب.[3]

ويبدوا أن هذه الطبقة التي تقدر أموالها بعشرات الآلاف من الدنانير كان بعض أفرادها قد تولوا الخطط الرسمية في الدولة واستثمروا أموالهم في الصناعة والتجارة،وساعدتهم ثروتهم على بسط نفوذهم السياسي والإداري،وزادت هذه السيطرة بدورها إلى السماح لأبنائهم بتوسيع نفوذهم الاقتصادي و زيادة ثرواتهم،وتوسيع ممتلكاتهم مما أوجد نوعا من الصراع والتنافس بين العائلات الكبرى على المناصب والمصالح الاقتصادية،كما حدث مع عائلة الطبيب المشهور" أبي العلاء بن زهر"،وعائلة"الزهري"في اشبيلية التي تجمعهما مصاهرة وصداقة،حتى وصلت هذه المنافسة إلى أسماع الأمير"علي بن يوسف"فأمر عميد عائلة الزهري بالإقامة في مراكش،مما زاد في غضب عائلة"ابن زهر"الذي حاول مقابلة الأمير"علي بن يوسف"إلا أنه رفض ذلك و لم

---

[1]-عبد العزيز بنعبد الله: مظاهر الحضارة المغربية ج (2) الدار البيضاء ، 1962 ،ص22

[2]-مجهول :الحلل الموشية،ص82

[3] -المقري: نفح الطيب مج (7) ص8

يسمح له بالوصول إليه بعدما وصلته أخبارا عن"ابن زهر"يسيء فيها للمرابطين[1]ويصف ابن عذارى ما وصل إليه نفوذ"ابن زهر"في اشبيلية فيقول:"وكان قبل في غاية الجاه والعزة والتمكين من الدولة،يولى من قبله حاكم يحكم من حاشيته،وصاحب المدينة من توليته،وشهود البلد بحكمه،وأمر المستخلص،وأملاك السلطان جارية على نهيه وأمره بمدينة اشبيلية،والزهري في كل ذلك تلوه ومقتد به،فما راعوا حق الحرمة،ولا أدوا شكر النعمة"[2].

ومما لاشك فيه أن استحواذ هذه الطبقة على القسم الأكبر من الثروة فتح آفاقا جديدة،أمام العمال و الحرفيين محدودي الدخل إلى خدمة هذه الطبقة،وهذا ما زاد في دخلهم.ولعل ما يؤكد ارتفاع مستوى الدخل الفردي في عهد المرابطين تلك الإشارة القيّمة التي أوردها الإدريسي والتي يصف فيها الإكثار في الإنفاق على المساكن و الأطعمة والمشروبات في الاحتفالات التي يقيمونها في أيام الربيع"في حصن "الحمة"بالأندلس حيث يقول:"وكان أهل المدينة في أيام الربيع يدخلون إليها مع نسائهم وأولادهم باحتفال في المطاعم والمشارب والتوسع في الإنفاق،وربما زاد المسكن بها في الشهر ثلاثة دنانير مرابطية وأكثر"[3] وهذا ما ينطبق مع ما ذهب إليه"السلاوي[4] في حديثه عن عصر المرابطين إذ يقول:"وكانت أيامهم أياما دعة ورفاهية،ورخاء متصل وعافية...وكثرت الخيرات في دولتهم،وعمرت البلاد ووقعت الغبطة. "

---

[1] -ابن عذارى: البيان المغرب ح (4) ص65. وللمزيد عن الخلاف الذي وقع بينهما .انظر. عصمت دندش: أضواء جديدة على المرابطين ص127-129

[2] -ابن عذارى: المصدر السابق ص65

[3] -الإدريسي:صفة المغرب ص200

[4] -:الاستقصا ج(2)ص66

خاتمـــــة

من دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المغرب والأندلس في عصر المرابطين اتضح لنا أ ن بلاد المغرب والأندلس مرت بثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى وهي المرحلة السابقة لقيام الدولة المرابطية وفيها كانت العدوة المغربية والأندلسية تعاني من سوء الأحوال السياسية نتيجة الصراعات والانقسامات التي سادت في البلاد وترتب عن ذلك سوء الأحوال الاجتماعية و الاقتصادية بسبب انعدام الأمن وكثرة الضرائب والمكوس.

أما المرحلة الثانية وهي المرحلة التي تلت خروج المرابطين من الصحراء واستيلائهم على المغرب ثم الأندلس بعد القضاء على الإمارات الزناتية في المغرب ودول الطوائف في الأندلس فعرفت العدوتين تحسنا في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لأن المرابطين أعادوا الأمن والاستقرار إلى المنطقتين بعد أن ضربوا بأيدي العابثين بالأمن في المغرب من القبائل الزناتيه وحدوا من الهجمات المتكررة التي كانت تشنها القوات المسيحية على بلاد الأندلس كما تمكنوا من توحيد العدوتين تحت سلطة واحدة رغم اختلاف التركيبة البشرية للمجتمع المرابطي عرقيا ودينيا ولغويا.فإلى جانب البربر والعرب عاشت أقليات أخرى كالصقالبة والروم والسودانيون والغز وشاركهم أيضا أهل الذمة من النصارى واليهود في صنع الحياة بالمغرب الأقصى والأندلس رغم ادعاء بعض المؤرخين الغربيين أن هؤلاء قد اضطهدوا في عصر المرابطين نتيجة تغريبهم من مواطنهم بالأندلس إلى المغرب وفرض بعض الأموال عليهم ، غير أن مسألة التغريب هذه كانت إجراء أمني تطلبته مصلحة الدولة وأمنها أما فرض المعونة فإن ذلك لم يكن مقصورا عليهم فحسب بل كان إجراءا شمل جميع طوائف المجتمع .

وخلصت الدراسة أيضا في تصنيف طبقات المجتمع إلى ظا هرة التمايز الطبقي فكانت الطبقة الحاكمة تتمتع بوضع اجتماعي مميز يجمع بين السلطة وقوة النفوذ والثراء وهذا ما جعلها عرضة لنقمة الفئات الأخرى سيما المتصوفة والعامة منها .في حين عملت الطبقة الوسطى من التجار وأصحاب المهن الحرة و الوظائف الحكومية من الطبقة الوسطى على الحفاظ على مكانتها وساهمت طبقة العامة المشكلة من صغار التجار والفلاحين والصناع والحرفيين في دفع العجلة الاقتصادية بالبلاد غير أن بعض فئات المجتمع التي أطلق عليها اصطلاحا الطبقة المهمشة قد عملت

على الانتقام لنفسها سيما من ذوي الجاه والمال والنفوذ الذين يرون فيهم أنهم سببا في تعاستهم وشقائهم.

وثبث من الدراسة أن المجتمع المرابطي لا يختلف عن بقية المجتمعات الإسلامية حيث تسوده مجموعة من المظاهر الاجتماعية بدءا بتكوين الأسرة وما يتخللها من علاقات زوجية تتراوح بين المودة والنفور وما ينجر عن ذلك من مشاكل اجتماعية.وبين تعدد الاحتفالات وتنوعها بين ما يغلب عليه الطابع الديني وما يصحبها من شعور ديني فياض وبين الاحتفالات والاستعراضات العسكرية وما يطبعها من حماس وبعث للهمم في أوساط الشعب لأنه في الغالب كانت تقام استعد دا للغزو والجهاد أو عقب انتصار في معركة من المعارك.

كما وجد أفراد المجتمع مجالا للترويح عن النفس والتسلية في سباق الخيل والصيد وبين الاستمتاع بسماع الموسيقى والغناء رغم تشدد الفقهاء في ذلك وعملهم على محاربة كل ماله علاقة باللهو والمجون .ورغم الحرص الشديد من الفقهاء وعملهم الدءوب على محاربة الآفات الاجتماعية إلى أن الدراسة أثبتت تجذر بعض الآفات في الوسط الاجتماعي نذكر منها على سبيل المثال التسول السرقة ،البغاء وغيرها.هذا ناهيك عن تفشي بعض الأوبئة والأمراض بين الناس والتي كانت سبب في مقتل الكثير وعليه قد عمل الجميع على مكافحتها سلطة وشعبا بشتى الطرق .

ونظر للتمايز الطبقي الواضح في المجتمع فإن اللباس والطعام اختلف هو الآخر من طبقة إلى أخرى فكان لباس الطبقة الخاصة والأعيان ينتقى من أجود أنواع الأقمشة والثياب وأنواع الحرير في حين كان الطابع الغالب على لباس المتصوفة والعامة من الناس يتخذ من الصوف .وحرص المرابطين أن يميز أهل الذمة بلباسهم الخاص بهم من شكلة وزنار وغيره حتى يعرفوا بين الناس . وحفلت المائدة المغربية والأندلسية بالعد يد من الأطعمة غير أنها هي الأخرى اختلفت من طبقة إلى أخرى فتميزت أطعمة الأثرياء بالتنوع ولذة الطعم ، ولم يقتصر هذه الطبقة في طعامها على ما هو معروف في العدوتين فحسب بل عمل هؤلاء على صنع أشهى الأطباق فشمل حتى أطبق بعض البلدان وهذا إرضاء لشهواتهم بينما تميز طعام العامة بالبساطة والمعتمد أساسا على القمح والشعير.

وخلصت الدراسة في الشق الاقتصادي إلى إعطاء المرابطين أهمية كبيرة للفلاحة ، إذ أن "الفلاحة هي العمران،ومنها العيش كله والصلاح جله وبها تملك المدائن وببطلانها تفسد الأحوال وينحل كل نظام " وعليه قد شهد المغرب والأندلس تنوع المحاصيل الزراعية ولعبت الزراعة دورا هاما في اقتصاد البلاد وساعدت عدة عوامل على تقدمها وازدهارها من تنوع في الطبيعة ووفرة الأيدي

العاملة وزادت تقدما أكثر بعد ضم الأندلس للسلطة المرابطية فاستفاد المغاربة من خبرة الأندلسيين في المجال الفلاحي بعد تنقل هؤلاء بين القطرين فتنوعت الحاصلات الزراعية وما يتصل بها من ثروات غابية وحيوانية غير أن الزراعة تأثرت بالحروب التي شهدتها المرحلة الأخيرة من أيام المرابطين وما نجم عنها من انعدام الأمن وتعد عن المحاصيل الزراعية بسبب الحروب أو ما شاب المنطقتين من جفاف وسيول فتأثرت الزراعة بذلك مما تسبب في انعدام الأقوات وكان لذاك وقعه على المجتمع بصفة عامة وعلى طبقة العامة بصفة خاصة .

أما في المجال الصناعي فقد اتضح من الدراسة قيام صناعات متعددة ومختلفة في المدن المغربية والأندلسية تنوعت بين الصناعات الحربية لحاجة الدولة لها على اعتبار دولة المرابطين دولة مغازي قامت بحروب عديدة سواء في المغرب أو الأندلس ،وبين قيام صناعات هدفها الأساسي سد حاجات المواطنين من مواد استهلاكية هم بحاجة إليها في حياتهم اليومية وبين صناعات كان هدفها إرضاء فئة خاصة من المجتمع غايتها البحث عن التميز عن باقي فئات المجتمع فسعت إلى البحث عنه لدى الصناع وهذا ما شجع هؤلاء عل تطوير صناعاتهم وحسبنا في ذلك ما بلغته بعض المدن المغربية والأندلسية كفاس و المرية في بعض الصناعات بلغت سمعتها الآفاق.لكن الراجح أن هذه الصناعات لم تبق على نفس الوتيرة لتأثر الصناع بما فرضته الدولة من قبالات على الصناع إذ أصبحت أكثر الصناعات متقبلة عليها مال لازم .

واتضح من الدراسة للتجارة الداخلية والخارجية مدى ازدهار هذه الأخيرة لأن الأمراء المرابطين أعادوا الأمن والاستقرار للمنطقتين كما أنهم ألغوا المكوس والضرائب الباهظة التي كانت تفرض على التجار وأبقوا ما ألزمه الكتاب والسنة من زكاة وعشور فنشط التجار وارتادوا الأسواق الداخلية والخارجية دون خوف على أنفسهم ماداموا أنهم كانوا يؤدون الفرائض المستحقة على أموالهم وسلعهم فانتعشت التجارة الداخلية والخارجية وظهرت أسواق بلغت شهرتها الآفاق الدولية فقصدها التجار من كافة الأنحاء ،واستقروا بها لإدارة تجارتهم خاصة وان الدولة قد حققت لهم حماية ووفرت لهم سبل الراحة من إنشاء الفنادق والحمامات التي تعد خدمة للتجار والتجارة نفسها وخلص البحث إلى أن الدولة بذلت جهدها لإحكام سيطرتها على الأسواق فعينت المشرفين عليها لمراقبة التجار غير أنه اتضح من الدراسة أن التجار لم يلتزموا بالصدق في تجارتهم ومعاملاتهم فابتكروا من الحيل وأساليب الغش ما عجز رجا ل الحسبة عن محاربته وحال ذلك دون تطبيق الحسبة على الأسواق تطبيقا محكما .

وما زاد في تنشيط التجارة الخارجية أن السلع المغربية لاقت رواجا كبيرا بعد توحيد المغرب والأندلس فانفتحت أمام التجار أسواق جديدة في الأندلس ارتادها التجار المغاربة بسلعهم فقامت علاقات تجارية بين المغرب والأندلس ومن هذه الأخيرة شقت السلع المغربية طريقها صوب أوروبا كما بينت الدراسة الارتباط الوثيق بين بلاد المغرب والسودان الغربي الذي يعد المنبع الرئيسي للذهب الخام الذي قام عليه اقتصاد الدولة المرابطية لسيطرتها على الطرق التجارية المؤدية إلى ذهب السودان الغربي والمرور الإلزامي للتجار عبر الأراضي الخاضعة للسلطة المرابطية التي كانت تعتبر من أهم المحطات التجارية للقوافل المارة إلى السودان الغربي وهذا ما نشط تلك المراكز التي أصبحت مركز التقاء كبار التجار من أجناس مختلفة وأقطار متعددة فعدت تلك المراكز موردا رئيسيا لدخل الدولة وقوّى اقتصاد الدولة فزادت ثقة التجار الأجانب فيها سيما وأن الدولة المرابطية كانت قد سكت عملتها من الذهب وجعلت منها عملتها الرئيسية وهذا ما وجد فيه التجار الأجانب ضالتهم فأقبلوا على العملة المرابطية لما نالته من شهرة وسمعة في العالم إلى درجة أن هناك من أطلق عليها تجاوزا اسم دولار العصور الوسطى .

وخلصت الدراسة في النهاية إلى أن المرحلة الأخيرة من عهد الدولة قد ميزته كثرة الفتن والحروب فساءت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية وأدى ذلك إلى أفول نجم دولة مغربية لتليها قيام دولة أخرى وحدت بين بلاد المغرب والأندلس بأكمله لتكمل هي الأخرى مسيرة التاريخ المغربي في الفترة الإسلامية.

الملاحق

1-الخرائط:

خريطة رقم (1) تبين مراكز استيطان المسحيين في المغرب و الأندلس في عصر المرابطين.

خريطة رقم (2) تبرز مناطق التجمعات اليهودية في المغرب و الأندلس في عصر المرابطين.

خريطة رقم (3) تبين المحاصيل الزراعية في المغرب الأقصى.

خريطة رقم (4) توضح الصناعات في المغرب الأقصى.

خريطة رقم (5) توضح أهم الصناعات في الأندلس وصادراته ووارداته.

خريطة رقم(6) توضح الطرق التجارية في المغرب و الأندلس خلال عصر المرابطين

2-الجداول:

جدول رقم (1) يبرز مواطن القبائل العربية بالأندلس مستخرجة من كتاب الأنساب لابن حزم.

جدول رقم (2) يوضح مواطن القبائل العربية بالأندلس مستخرجة من فرحة الأنفس حسب رواية المقري.

جدول رقم (3) يبين القبائل البربرية بالأندلس ومواطن استقرارها مستخرجة من كتاب الأنساب لابن حزم.

جدول رقم (4) يبين نسبة نقاء الذهب في دنانير الأمير أبي بكر بن عمر.

جدول رقم (5) يبين نسبة نقاء الذهب في دنانير الأمير يوسف بن تاشفين.

جدول رقم (6) يبين تعداد أماكن سك العملة في المغرب بين سنة497-540هـ/1103-1145م.

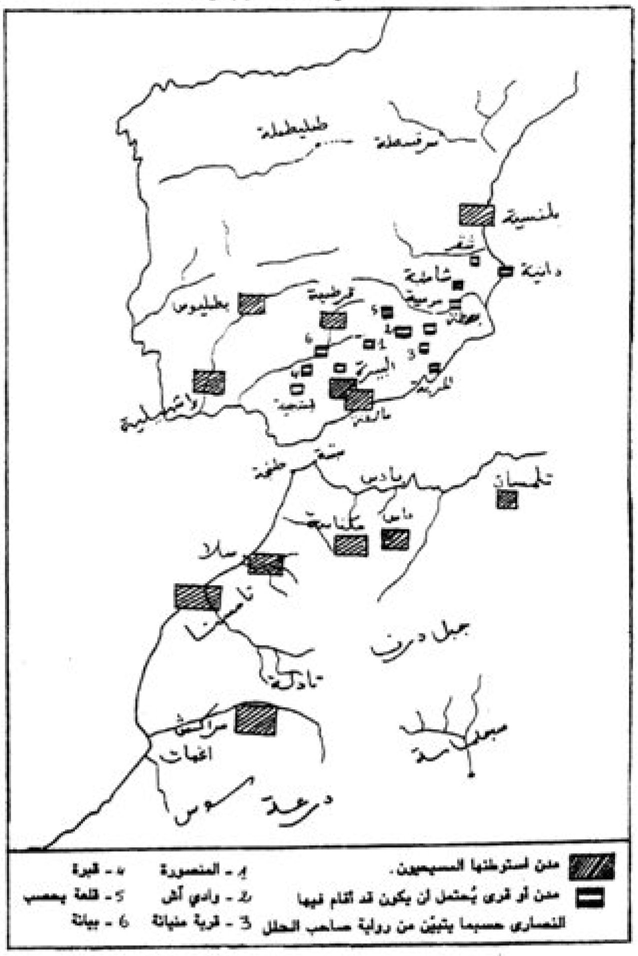
جدول رقم (7) يبين تعداد أماكن سك العملة في الأندلس بين سنة 497-512هـ/1103-1118م.

3-فهرس الأماكن والأعلام:

أ-الأماكن

ب-الأعلام

خريطة رقم (٨) **مراكز استيطان المسيحيين في المغرب والأندلس في عصر المرابطين**

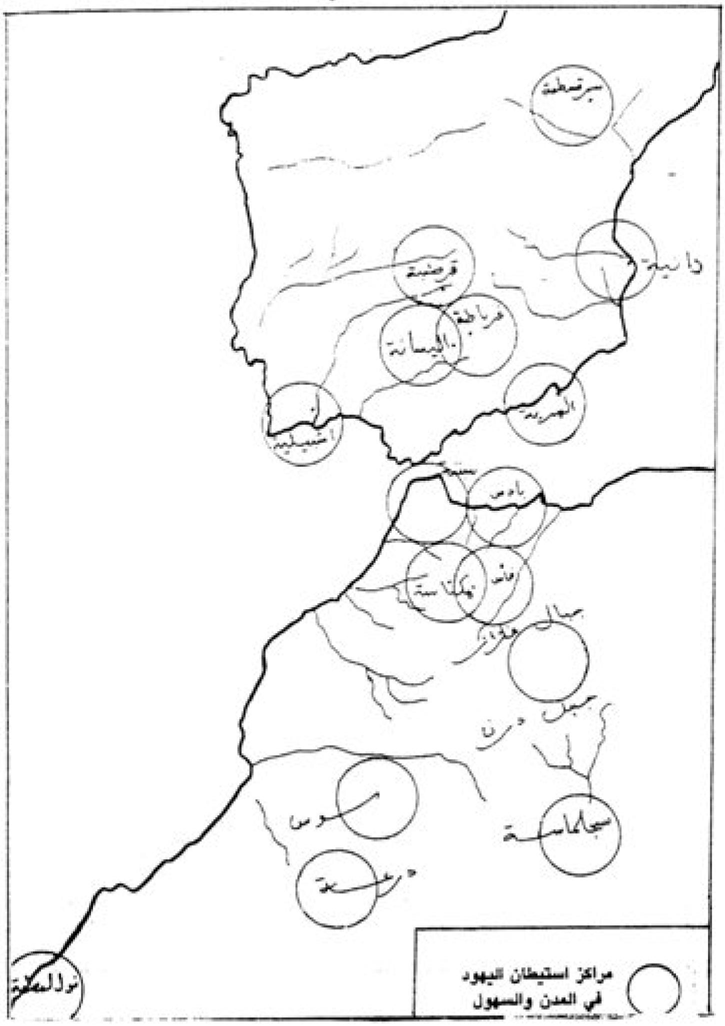


الخريطة مأخوذة من كتاب ابراهيم القادري بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي

خريطة رقم (2)

مناطق التجمعات اليهودية

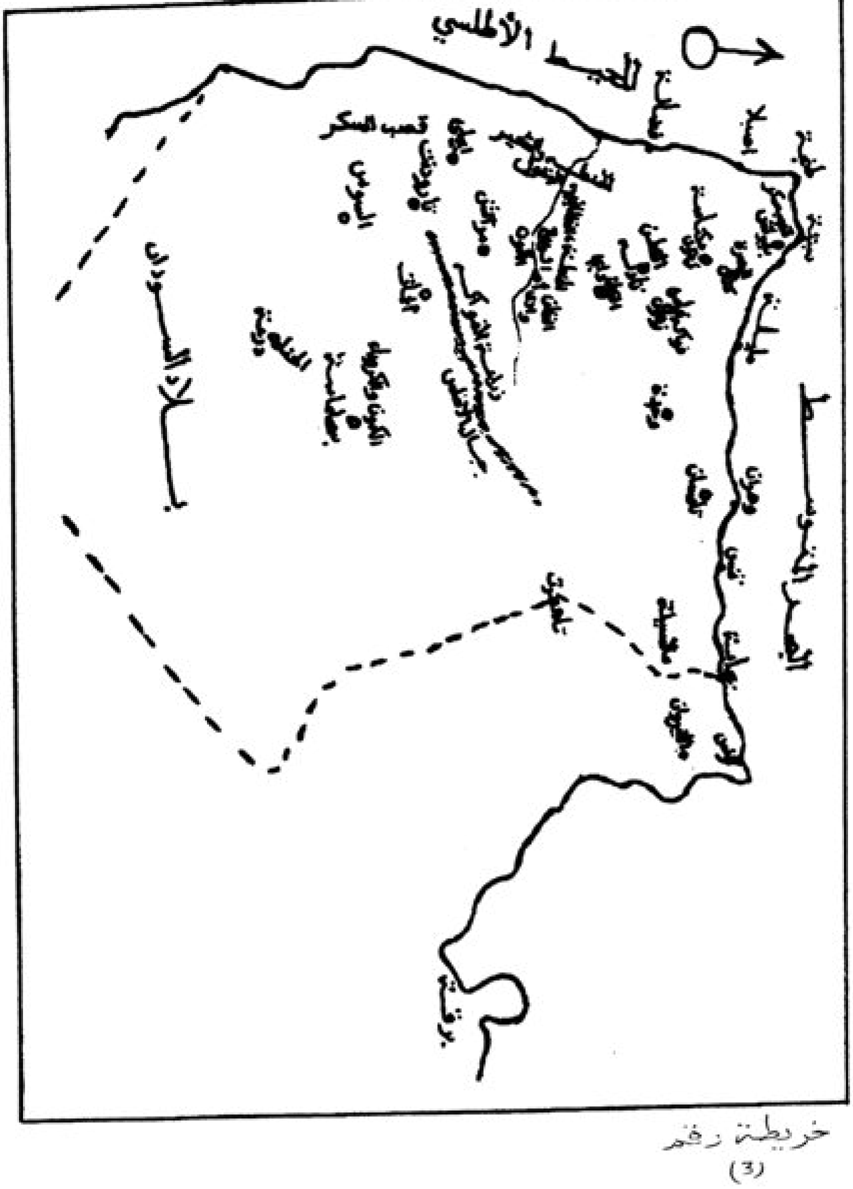
في المغرب والأندلس في عصر المرابطين



الخريطة مأخوذة من كتاب ابراهيم القادري بوتشيش:مباحث في التاريخ الاجتماعي

خريطة تبين المحاصيل الزراعية في المغرب الأقصى

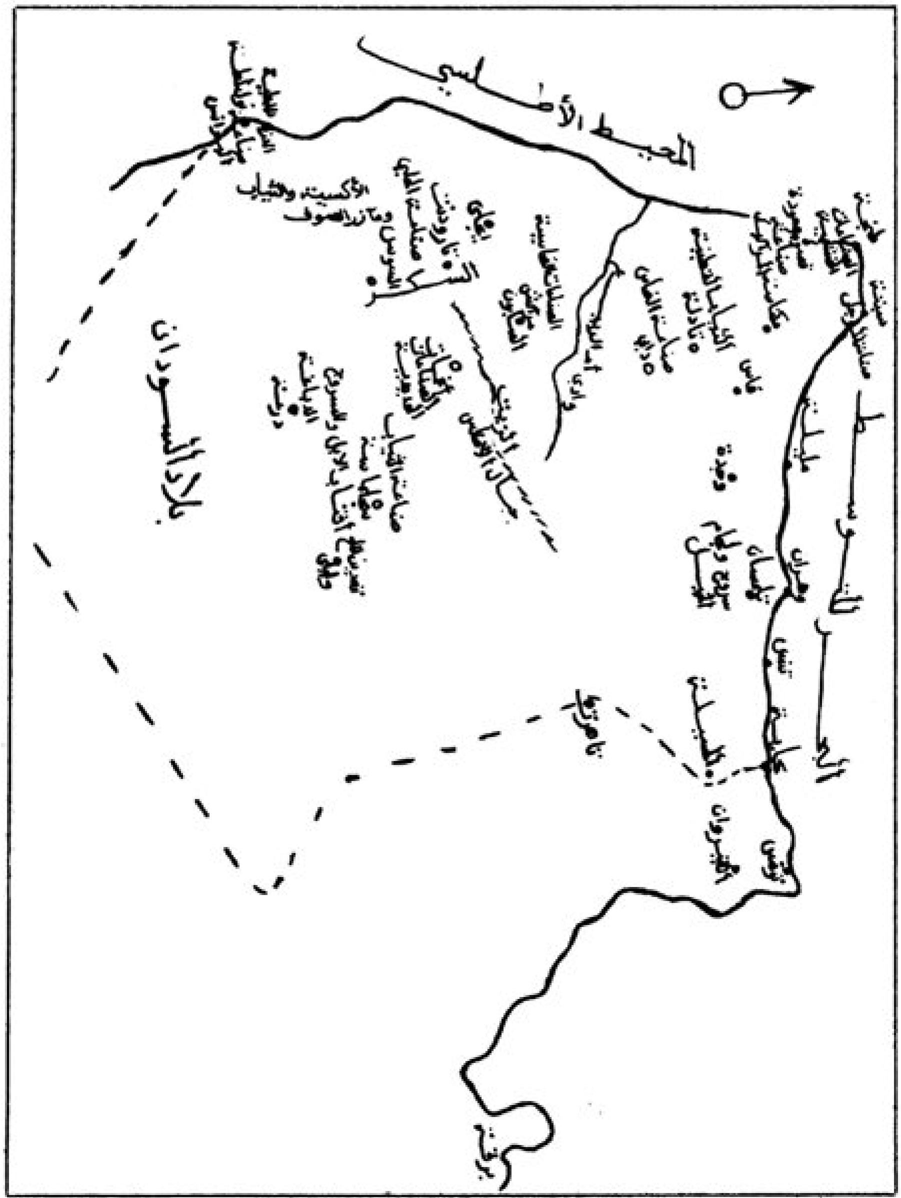
مستخرجة من المعلومات الواردة في البكري والادريسي



خريطة رقم
(3)

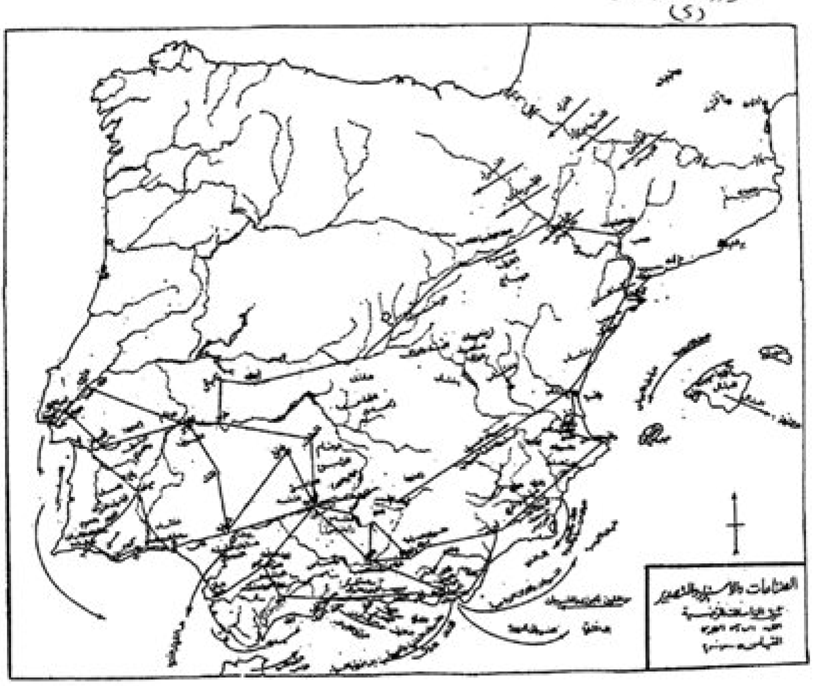
خريطة تبين الصناعات في المغرب الأقصى

مستخرجة من المعلومات الواردة في البكري والادريسي



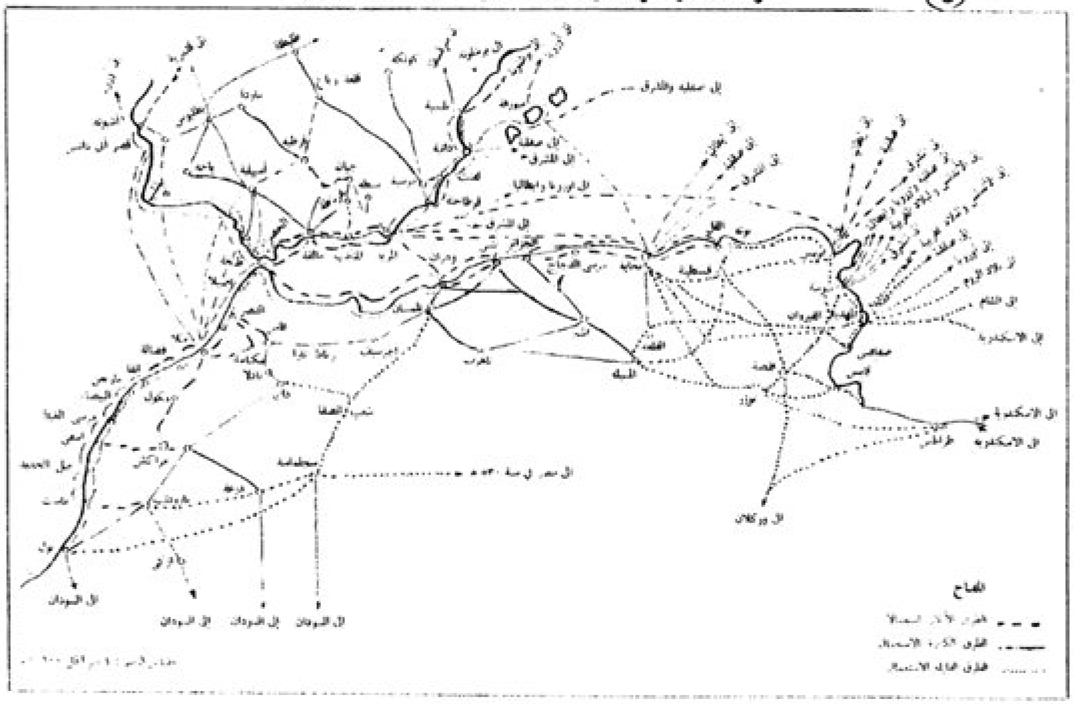
خريطة رقم
(٤)

خريطة رقم
(٤)



مأخوذة من كتاب عصمت عبد اللطيف دندش

خريطة رقم (6) الطرق التجارية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين



مأخوذة من كتاب النشاط الاقتصادي لعز الدين أحمد موسى ص309

مواطن القبائل العربية بالأندلس

مستخرجة من كتاب الأنساب لا بن حزم

جدول رقم(1)

المدينة	القبائل المقيمة فيها	رقم الصفحة
اشبيلية	بنو هشام ،الخزرج ،بني مرة ، بنو بشتغير بنو بريم نبي مازن، نبو لخم	104 ، 249، 254، 392، 412، 424
أربونة	بجيلة	390
البيرة	بنو اسد ، بني مرة ، بني قشير ،آل عطيف دار همذان ، بنو خولان	196، 254، 290، 391، 397، 418
باجة	الزهريون ، بنو منذر ، آل حفص	132، 267، 333
بجانة	حرش	436
بسطة	دار طي	404
بطليوس	الزهريون (بنو زهر)	132
بيانة	بنو عمر بن أد	201
تاجلة	دار طي	404
تد مير	بنو جذام	421
الجزيرة الخضراء	بني كنانة ، بنو جذام ، بنو لخم كلاب	189، 421 ، 424
جيان	بنو ثعلبة ، بنو عبد الخالق ، بنو الضباب بن كلاب ، بني قشير ، بنو خويلد بنو منحل ، بنو عذرة ، بنو خشين	192 ، 246، 287، 290، 292، 419، 450، 455

مواطن القبائل العربية بالأندلس
مستخرجة من كتاب الأنساب لا بن حزم

تابع جدول رقم (**1**)

المدينة	القبائل المقيمة فيها	رقم الصفحة
دلاية دورقة	بنو فوارتش بنو تجيب	450 430
رية	لخش، بنو النمر ، ، بنو عشيم بنو زياد ذى رعين ، بنو مرة ، خزيمة، أبان ،بنو قين	89، 302،347، 434،423، 446، 447، 454
سرقسطة	بنو عبد الدار، بنو كعب ، بنو تجيب، بنو فوارتش	127، 365 ،430، 450
شذونة	بنو كنانة ، بنو عرمرم، بنو خثعم ،، بنو جذام ، بنو زياد ، بنو لخم	189، 365، 392 ، 421 ، 423،424
طلبيرة	بنو هد لة	218
قرطبة	لخش ، بنو مطروح، بنو ربيع ، بنو خولان ، دار بلى	89،321 ،333، 418، 443،
قرمونة	قبائل تمارة	327
قلعة أيوب	بنو تجيب	430
قلعة يحصب	بنوعنس	406
لبلة	قبائل تمارة ، بنوحراز بنو خشين ،	327، 435، 455
مرسية	بنو ملكان	189
وادي آش	بنو خويلد	292

مواطن القبائل العربية بالأندلس

مستخرجة من فرحة الأنفس لابن غالب حسب رواية المقري

جدول رقم (2)

اشبيليه	بنو زهره ، بنوهوازن ، بنو عباد ، بنو باجي ، بنو وافد ، الهزنيون ، البلويون
غرناطة	بنوحزم ، بنو حوديّ ، بنوعطية ، بنوحمدين ، بنو القليعي ، بنو المنتصر ، بنوسماك ، بنو عبد السلام الحضرميون ، بنو همدان
قرطبة	بنو سراج ، الأصبحيون ، الحضرميون ، بني عبدة، بني جهور، بنو جهينه
طليطله	كنانه، الوشقيون الكنانيون ، الأنصار
قلعة بنو سعيد	بنو سعيد ، اليحصبيون
مرسيه	طي ، الحضرميون
حصن المدور	بني مخزوم
شقوره	بنو غافق
قلعة بني خولان	بني خولان
بلنسيه	بنوهوازن
بطليوس	الحضرميون
أونبه	البكريين
شلطيش	البكريين
وادي آش	ربيعه بن نزار
قلعة رباح	بنو جذام
قلعة يحصب	اليحصبيون
الجزيرة الخضراء	بنوعذرة
قرية صالحه قرب مالقه	بنو القليعي

القبائل البربرية بالأندلس ومواطن استقرارها
مستخرجة من كتاب الأنساب لابن حزم

جدول رقم (3)

القبيلة	بطونها	مناطق استقرارها	رقم الصفحة
ملزوزة	عوسجة، بنوتيه	شنتبرية	489
زناتة	بنو الخروبي، بنو الليث، بنو عزون، بنو الياس	لقنت ، شنت فيلة ، شنت برية ، شذونة	499
نفزة	بنو عميرة	شاطبة	499
هوارة	بنو نبيه، بنو الأخطل ،بنو الفرج،بنورزين ، بنو ذي النون	شذونه، وادى الحجارة السهلة ، قرطبة ، وبده اقليش	499، 500
مديونه	بني هذيل	شنت بريه	500
مصموده	بنو طريف،بنو سالم	أشونه، مدينة سالم	500، 501
كتامه	بنو مشرف، بنو مهلب	شقنده ، عمل البيره	501
صنهاجه	بنو الغليط،	بلكونه	502

جدول رقم(4)

يبين نسبة نقاء الذهب في دنانيرالأمير أبي بكر بن عمر

العدد	اسم الأمير	مكان الضرب	تاريخ الضرب	نسبة الذهب ٪	نسبة الفضة ٪	نسبة النحاس ٪
1	أبو بكر بن عمر	سجلماسة	450هـ	93،7	5،1	1،3
2		″	456 هـ	91،9	8،2	0،9
3		″	475 هـ	90،8	3،6	0،7
4		″	462 هـ	92،6	6،2	1،2
5		″	468 هـ	90،9	3،4	0،7
6		″	469 هـ	92،6	6،0	1،7
7		″	471 هـ	90،5	3،8	0،7
8		″	471 هـ	90،5	3،8	0،7
9		″	473 هـ	94،7	4،1	1،2
10		″	473 هـ	90،3	8،7	1،0
11		″	476 هـ	90،3	8،7	1،0
12		″	478 هـ	96،6	2،2	1،2

استخرج هذا الجدول من:

MISSEIR: R.A :The Almoravids west African gold and the gold Currency of the Mediterranean Basin. J.E.S.H.O. ,vol XVI I part I, 1971, p.44.

جدول رقم (5)

يبين نسبة نقاء الذهب في دنانيرالأمير يوسف بن تاشفين

العدد	اسم الأمير	مكان الضرب	تاريخ الضرب	نسبة الذهب ٪	نسبة الفضة ٪	نسبة النحاس ٪
1	يوسف بن تاشفين	سجلماسة	480هـ	93،5	1،6	4،0
2		″	480 هـ	93،4	2،5	1،4
3		″	484 هـ	91،2	7،5	3،1
4		″	485 هـ	92،1	6،8	1،1
5		″	487 هـ	87،0	10،0	3،0
6		″	492 هـ	90،2	8،8	1،0
7		″	495 هـ	84،7	12،5	2،8
8		″	497 هـ	87،2	11،4	1،4
9		أغمات	486 هـ	91،4	7،7	9
10		″	487 هـ	89،9	8،5	1،6
11		″	488 هـ	87،9	7،6	4،5
12		″	489 هـ	90،5	8،6	0،9
13		″	490 هـ	92،5	7،5	0،5
14		″	490 هـ	89،1	9،1	1،8
15		″	492 هـ	92،0	6،5	1،5
16		″	493 هـ	91،5	7،8	0،7
17		″	494 هـ	92،3	6،4	1،3
18		″	495 هـ	92،5	6،5	1،0
19		″	496 هـ	90،3	4،4	0،3
20		″	498 هـ	94،3	5،2	0،5
21		″	499 هـ	93،2	5،8	0،9
22		مراكش	490 هـ	90،3	8،8	0،9
23		″	491 هـ	89،1	8،1	2،8
24		″	491 هـ	93،3	5،8	0،9
25		المرية	494 هـ	94،8	4،6	0،6
26		اشبيلية	497 هـ	88،0	10،9	1،1
27		بلنسية	497 هـ	93،6	5،5	0،9
28		بلنسية	497 هـ	92،4	7،2	0،4
29		″	498 هـ	91،3	8،3	0،4
30		″	500 هـ	88،8	10،4	0،8
31		قرطبة	492 هـ	91،4	7،5	1،6
32		دانية	497 هـ	93،8	4،8	1،4
33		مالقة	494 هـ	91،7	8،0	0،3
34		،،		83،9	10،0	1،1

استخرج هذا الجدول من:

MISSEIR R.A : The Almoravids west African gold and the gold Currency of the Mediterranean Basin. J.E.S.H.O. ,vol XVI I part I, 1971;p44.45
.

جدول رقم (6)

يبين تعداد أماكن سك العملة في المغرب بين سنة 497 –540 هـ/1103 –1145م

السنة / المدينة	497 هـ	498 هـ	499 هـ	500 هـ	501 هـ	502 هـ	503 هـ	504 هـ	505 هـ	506 هـ	507 هـ
سجلماسة	3	1		2		1		1			
أغمات	2	11	1	3	5	2	1	2	2	4	3
مراكش			1	1							
تلمسان									1		
فاس	1				2						
نول لمطة	1				1						

السنة / المدينة	508 هـ	509 هـ	510 هـ	511 هـ	512 هـ	513 هـ	514 هـ	515 هـ	516 هـ	517 هـ	518 هـ
سجلماسة	1					1					1
أغمات	3	3	3	6	3	1	2	2			
مراكش			1						1		2
تلمسان	2			5							
فاس		2		1	1			1			
نول لمطة		1	2	1		2		2	1		1

السنة / المدينة	519 هـ	520 هـ	521 هـ	522 هـ	523 هـ	524 هـ	525 هـ	526 هـ	527 هـ	528 هـ	529 هـ
سجلماسة		1	2		1	2	3	3	3	1	1
أغمات					1				1	1	6
مراكش	1	2	3		3	4	7		4	2	3
تلمسان											
فاس		3	4	1		2	7	1	10	5	3
نول لمطة				9	4	1	4		2	1	

السنة / المدينة	530 هـ	531 هـ	532 هـ	533 هـ	534 هـ	535 هـ	536 هـ	537 هـ	538 هـ	539 هـ	540 هـ
سجلماسة	2	3	4	7	1	2	1		1		2
أغمات	5	5	1	12		3	2	1	2	2	1
مراكش	2	2		5	3	2	1	3	2	2	2
تلمسان					2	2	2				2
فاس	4	9	7	4	5	12	11	6	7	4	
نول لمطة	5	6	1	4	6	3	1	7	6	2	3

استخرج هذا الجدول من:

MESSIER : Quantative analysis of Almoravid Dinars p.109.

جدول رقم (7)

يبين تعدد دور السك بالأندلس بين سنة 497 -512هـ/-1103-1118 م

السنة / المدينة	497 هـ	498 هـ	499 هـ	500 هـ	501 هـ	502 هـ	503 هـ	504 هـ	505 هـ	506 هـ	507 هـ	508 هـ	509 هـ	510 هـ	511 هـ	512 هـ
شاطبة	1	1	1	1												
دانية	6	7	8	8	2	2										
الجزيرة الخضراء											26	15	2			
بلنسية	7	12	6	14	1			13	10			4	3			11
مرسية					8	3	3	7	11	5		7	8			9
غرناطة					4	4						3	10			
اشبيلية	1	2	2													
قرطبة	3						6				4			1		
المرية	5	1	1							5			1	5	3	1
مالقة			6	4	1					1						

استخرج هذا الجدول من:

MESSIER : Quantative analysis of Almoravid Dinars p.111

فهرس الأماكن

لقنت:113-319.

لورقة:66-278-299-344.

مارده:29

ماسة:48.

مالقة:32-36-55-63-249-283-292-293-325-331-336-341-389-403.

المحيط الأطلسي:7-9-11-262-271-272-273-364-388-390.

مراكش:10-12-18-20-21-23-32-34-50-51-52-65-68-69-71-74-81-88-89-90-93-104-121-129-132-142-143-155-158-164-165-183-186-197-198-201-203-206-209-224-230-232-245-248-251-257-258-260-262-263-264-265-271-274-275-282-283-287-290-291-295-313-317-322-330-334-339-344-345-350-353-359-360-376-378-380-383-384-399-402-407-421-422.

مرسية:113-140-153-206-213-249-283-292-325-327-331-336-344-397-410.

المرية:39-79-110-117-133-140-141-212-221-231-235-241-249-277-319-324-325-353-354-358-387-389-391-400-403-407-410-422.

المغرب:1-2-3-4-5-6-7-8-10-11-12-13-14-15-16-17-18-19-
20-23-25-29-30-31-32-34-35-40-41-42-44-45-46-48-49-
50-51-56-62-63-65-67-69-70-72-73-75-76-79-84-85-89-
93-94-95-99-102-113-115-116-117-119-122-129-130-
131-133-134-136-138-139-140-142-143-154-155-157-
158-163-167-169-174-172-182-183-185-188-189-192-
196-202-204-207-208-211-212-213-214-217-224-225-
226-227-229-231-232-233-237-235-236-238-240-242-
243-246-248-250-252-259-261-262-263-264-265-266-
267-268-269-270-271-272-273-274-275-276-277-278-
279-280-281-282-283-284-286-287-288-289-290-291-
293-295-296-297-298-299-300-303-305-308-310-311-
312-313-315-316-317-318-319-320-321-322-323-324-
325-327-328-329-331-332-333-334-336-337-338-339-
342-343-344-345-346-348-350-351-353-354-355-356-
357-358-360-361-362-363-364-368-372-373-375-376-
377-378-379-380-382-384-385-386-388-390-391-397-
398-399-400-402-403-404-405-406-407-408-409-410-
411-412-413-414-415-416-418-419-420-421.

مكناسة:10-13-14-16-29-34-50-52-63-68-70-76-93-123-
132-138-163-164-209-213-214-271-273-275-283-287-
347-348-351-365.

فهرس الأعلام

الفصـــــل الســـادس

الملاحق